

# إنديرا

قصة حياة إنديرا نهرو غاندي

كاثرين فرانك

ترجمة كوثر محمود محمد



# إنديرا

قصة حياة إنديرا نهرو غاندي

تأليف

كاثرين فرانك

ترجمة

كوثر محمود محمد



Indira

Katherine Frank

إنديرا

كاثرين فرانك

**الناشر مؤسسة هنداوي**

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٠ ٣٣

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٩.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.  
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.  
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للكاتبة كاثرين فرانك، عناية ببيتز  
فريزر أند دنلوب ليمتد.

## المحتويات

|     |                                          |
|-----|------------------------------------------|
| ٧   | إهداء                                    |
| ٩   | شكر وتقدير                               |
| ١٧  | الجزء الأول: إنديرا نهرو                 |
| ١٩  | ١- الخروج من كشمير                       |
| ٣١  | ٢- حدث بالفعل                            |
| ٥٣  | ٣- تتنفس مع حركة كعبها                   |
| ٧١  | ٤- الولد إندو                            |
| ٩٥  | ٥- ظهور فيروز في حياتها                  |
| ١٢٧ | ٦- في الغابة السوداء                     |
| ١٤٣ | ٧- خبيرة الفراق                          |
| ١٨٩ | ٨- الجبل السحري                          |
| ٢١١ | الجزء الثاني: إنديرا غاندي               |
| ٢١٣ | ٩- لا حياة عادية وسخيفة ومملة            |
| ٢٤١ | ١٠- تدهور الأوضاع                        |
| ٢٧٥ | ١١- تحول                                 |
| ٣٢٥ | ١٢- نحو ثلاثية                           |
| ٣٥٣ | الجزء الثالث: رئيسة الوزراء إنديرا غاندي |
| ٣٥٥ | ١٣- أنا القضية                           |

|     |                            |
|-----|----------------------------|
| ٣٩٣ | ١٤- العالم باللون الأحمر   |
| ٤١٧ | ١٥- توقف الصعود            |
| ٤٤١ | ١٦- خطوة طارئة جريئة       |
| ٤٦١ | ١٧- الابن الصاعد           |
| ٤٨٧ | ١٨- ضغط                    |
| ٥٢٥ | ١٩- شقاق                   |
| ٥٥١ | ٢٠- مذبحه أمريتسار من جديد |
| ٥٧١ | ٢١- ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤     |
| ٥٨٣ | ٢٢- ما بعد إنديرا          |
| ٥٩١ | الخاتمة                    |
| ٥٩٣ | ملاحظات                    |
| ٦٥٥ | مصادر الصور                |

# إهداء

في ذكرى ستيفن رايلي





## شكر وتقدير

استغرقت كتابة هذا الكتاب وإجراء الأبحاث المتعلقة به ست سنوات، وعليّ أن أشكر  
الكثيرين الذين ساعدوني خلال تلك المدة.

أشعر أنني مدينة بالفضل للمنظمات الآتية، وأمناء سجلاتها، إلى مكتبة ومتحف نهرو  
التذكاري والمركز القومي الهندي وصندوق إنديرا غاندي التذكاري في دلهي. وفي الله آباد،  
متحف أناند بهافان وسواراج بهافان. وفي سانتينيكتان، سجلات جامعة فيسفا بهاراتي.  
وفي لندن، المكتبة البريطانية ومكتبة فريندز هاوس ومكتبة لندن ومكتبة جامعة الدراسات  
الشرقية والأفريقية. وفي بريستول، سجلات مدرسة بادمينتون، وسجلات كلية سمرفيل  
في أكسفورد وسجلات جامعة أكسفورد. وفي سويسرا مدرسة لايبيلوز (بكس)، وسجلات  
مدينة ليسين. ومكتبة باينيكي في جامعة بيل بالولايات المتحدة.

وإنني ممتنة لسونيا غاندي لإدلائها بحديث معي والسماح لي بنشر المراسلات بين  
إنديرا نهرو غاندي وجواهرلال نهرو.

وقد قدمت الشخصيات التالية المساعدة لي وأدلت لي بمعلوماتها وآرائها وأبدت لي على  
الدوام الترحاب:

في الهند أشكر: ماني شانكار أيار، ويوشا بهاجات، والراحل نيكيل تشاكرافارتي،  
ورينوكا تشاترجي، وإرا فاكيل شودهوري، وروبيكا تشاولا، وبي إن تشوبرا، وسوزان  
كلافام، وإيان كوبلاند، وراتو داستور، وفي إن داتا، ونونيكا داتا، وبي إن دهار، وآر كيه  
دهاوان، وسومان دوباي، وروستم غاندي، وفي جورج، وسانتوش وسوتشيتا جويندي،  
وسارفيلي جوبال، والراحل بي إن هاكسار، وجاجموهان، والراحلة بوبول جاياكار،  
وسوبهادرا جوشي، وبروميل كالهان، ومارتين كامبتشين، وإندر كابور، وجيه سي كابور،  
وتي إن كاول، وأنسر كيداوي، وجيرجا كومار، ورافيندر كومار، وإندر مالهورترا، وسانجانا

مالهوترا، وسورجيت مانسينج، ودكتور كيه بي ماثور، وببتر ماير، وآر كيه ميها، وتشاندرا ليكها ميها، وهيرن مخيرجي، وببي آر ناندا، وآرون نهرو، وببي كيه نهرو، وفوري نهرو، وفي واي نهرو، ويش بال، وإتش واي شارادا براساد، وإن إتش راماتشاندران، وسيدهارثا شانكار راي، وساوجاتا روي، ونايانترا ساهجال، ودكتور فاتسالا سامانت، وفاسانت ساث، وجيتي سين، وأو بي شاه، وجي بي شارما، وكيه ناتوار سينج وكاران سينج، وفي بي سينج وتارا كيشواري سينها، وآر إن أوبادهياي، ومادهو تاندان، وببي دي تاندون، وأليس ثورنر، وأوما فاسوديف، ودوجلاس فيرني، ودارما فيرا، وإن إن فوهرا، وجيهانارا واسي، ومحمد يونس. أما في خارج الهند فأوجه الشكر إلى بولين آدمز، وموريس أندريه، وسيمون بيلى، وسيتا بالي، وأن بيلمان، وروبرت برادنوك، ومايكل بريتش، والراحل آلان كامبل جونسون، وماري سي كاراس، وويليام دالريمبل، وآني كاثلين ديفيس وبيرتيل فالك، وتريفور فيشلوك، ومايكل فوت، وفرانسين فرانكل، وباتريك فرينش، وجون كينيث جالبريث، وفريدي جبر، وتيري جيل، وجون جريج، ونورفين هاین، وريتشارد هوبداي، والسيدة بامبلا هيكس، وميرفن جونز، وسوديبتا كافيراج، وجيمس مانور، وفيد ميها، وجانيت مورجان، ودكتور جون مور جيلون، والراحلة دوروثي نورمان، ولورد بول، وأندرو روبينسون، وسوزان رولير تشابوي، وراهبات دير سانت موريس في مدرسة لابلوز وبالأخص الأخت جاكلين والأخت هيلدجارد وجان سكارو، وماري طومسون، والراحلة آن وايمان وجيفري وارد.

وأقدم امتناني لمجلس الفنون على مساعدتي بجائزة سخية ولؤسسة نوفيلد على تقديمها منحة لي.

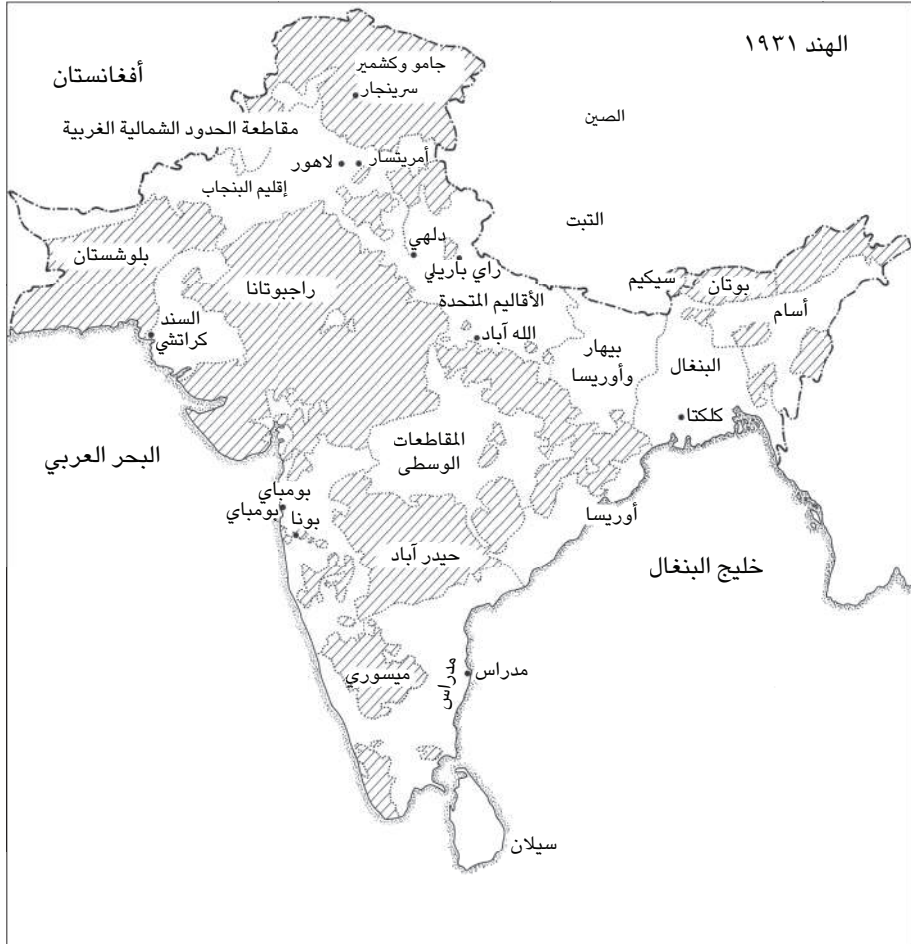
وأشكر كاثرين بارون صديقتي وأول من ألجأ إليّ من المحررين، التي قرأت مخطوط الكتاب في مختلف مراحلها، ومايكل ديفيد أنتوني الذي قرأه لدى إتمامه وكلاهما ساهم بالنقد البناء. وأشعر بالامتنان بوجه خاص لمارك تولى الذي شهد وغطى بنفسه الكثير من أحداث هذا الكتاب، وأدين له بالفضل على قراءته لمخطوط الكتاب بعناية شديدة وإدلائه بنقد مفصل ودقيق عنه. كما أشكر سونيل خيلناني الذي أفادني بقراءته للكتاب وكان بمنزلة حجة في مادته. وأشكر أليكساندر إيفانز لأنه حرص على دقة الوقائع المتعلقة بكشمير. وأشعر أيضاً بالامتنان لكيت جونسون من دار نشر هاربر كولينز على مراجعتها الملهمة للكتاب بلا كلل. وأنا وحدي بالطبع من يتحمل المسؤولية عن شخصية إنديرا غاندي كما تظهر في هذا الكتاب وعن أي أخطاء.

## شكر وتقدير

وأوجه جزيل الشكر إلى بروس هانتر وجينجر باربر أفضل وكيلى أعمال، وإلى مايكل فيشويك من دار نشر هاربر كولينز، أفضل ناشر حظيت به. وأشكر كارولين هوتبلاك في دار نشر هاربر كولينز ومحررة كتابي الأمريكية جانيت سيلفر وزميلتها ويندي هولت في دار نشر هوتون ميفلين.

ولهؤلاء الذين شملوني بالحب والدعم المستمر؛ أصدقائي المقربين — كاثرين بايرون (من جديد) وبولين إلكيز ولورا كالبكيان — وأفراد عائلتي الرائعين إيزابيل فوس وآرثر فوس وآرت فوس ونانسي وايت ومارجريت فوس-بيرس وجاستين فرانك وفيكي فرانك. وأخيراً أدين بالشكر — بأكثر من طريقة يعجز اللسان أن يوفيها حقها — لزوجي ستيفن رايلي. لقد توفي قبل إتمام هذا الكتاب وقبل أن يشهد حصاد عمله. لكن الكتاب لم يكن إلا من أجله، وأنا أهديه إلى ذكراه مع حبي إلى الأبد.





الأراضي الهندية التابعة للحكم البريطاني

الإمارات

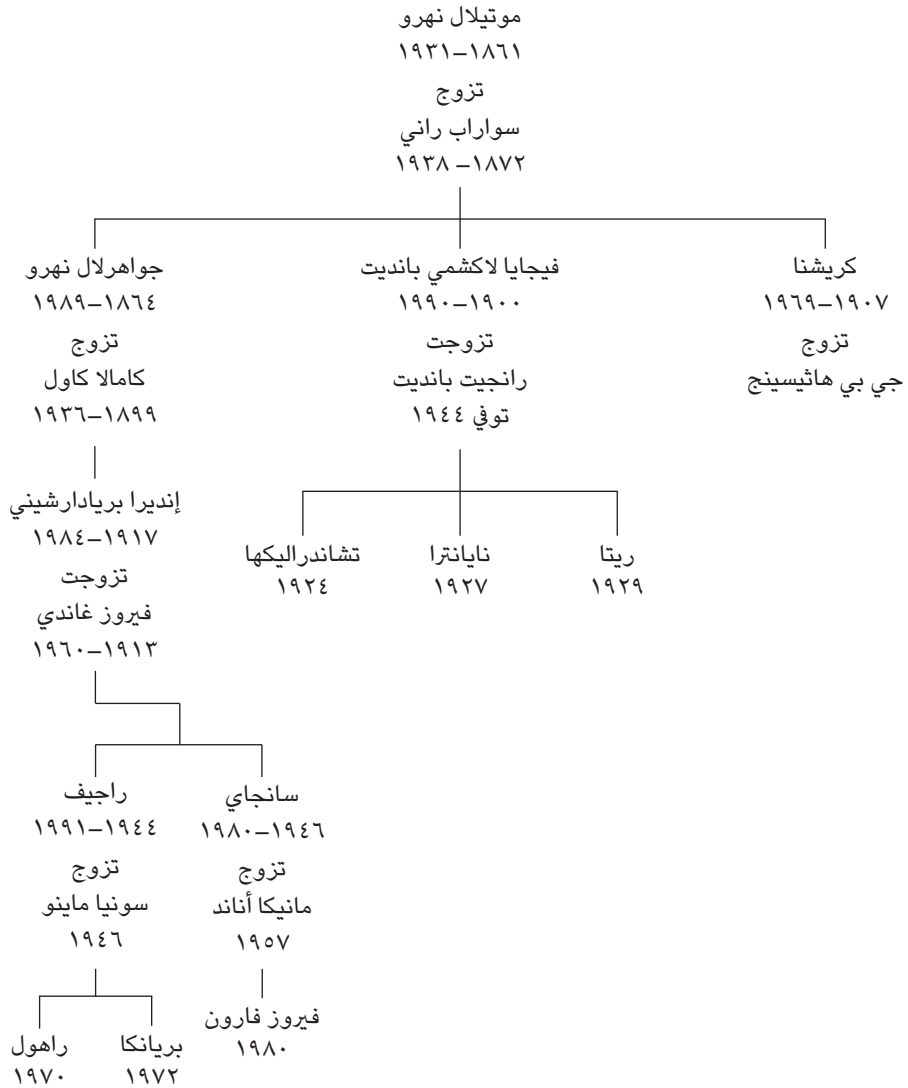
[illegible]

العواصم

المدن ●

----- الحدود الوطنية

## شجرة عائلة إنديرا







الجزء الأول

## إنديرا نهرو

«الوطن هو المكان الذي ننطلق منه.

وكلما كبرنا صار العالم أغرب

والنماذج أعقد ...

إنني أرى في نهايتي بدايتي.»

تي إس إليوت، قصيدة إيست كوكر

الرباعيات



## الفصل الأول

# الخروج من كشمير

ترتبط سريناجار — عاصمة ولاية جامو وكشمير — مع دلهي برحلات جوية يومية تستغرق الواحدة منها تسعين دقيقة. ومع ذلك فإن الخطاب الذي أرسلته لفاروق عبد الله رئيس الوزراء الكشميري لم يصل إليه إلا بعد ستة أسابيع من إرساله، ووفقًا للتاريخ المدون على الرد الذي كتبه «القائم بأعمال مساعد رئيس الوزراء» فإن خطاب رئيس الوزراء استغرق خمسة أسابيع أخرى ليصلني في دلهي. ترى هل كل هذا التأخير بسبب ترك هذين الخطابين في مكتب أحد الموظفين الرسميين، أم أنهما استقرا في إحدى حقائب البريد المنسية، أم ضاعا في مكتب البريد الذي يعج بالنشاط؟ ولم يكن الذهاب إلى كشمير بالأمر الهين. ومع ذلك فقد حمل رد رئيس الوزراء أخبارًا سعيدة؛ فقد عبر فاروق عبد الله عن سعادته بالحديث معي عن رئيسة الوزراء الراحلة إنديرا غاندي. وكان الاتفاق على المقابلة في دلهي أو في سريناجار حسبما يتأتى لي.

لا تعد سريناجار اليوم مكانًا سهل الزيارة مثلها مثل باقي كشمير. وكشمير كانت يومًا ما ساحة مرح جميلة أثناء الحكم البريطاني للهند، ثم أصبحت فيما بعد منتجعًا سياحيًا للسياح والمترحلين من الهنود والأوروبيين والأمريكيين والأستراليين، لكنها تحولت الآن إلى ساحة حرب؛ فهي أرض تتنازع عليها دولتان كانتا يومًا ما دولة واحدة ثم أصبحتا عدوين لدودين، وهما الهند وباكستان. ومن يزور كشمير هذه الأيام من الكُتاب ليسوا من كتاب السير، بل هم صحفيون يغطون الأخبار الخاصة بالنزاع الداخلي الذي يتأجج ويخبو منذ أمد طويل عامًا بعد آخر.

وبعد عقود ظلت فيها كشمير مكانًا مغمورًا أصبحت أخبارها تتصدر صفحات الصحف العالمية في الوقت الراهن. فمنذ عدة أعوام اختطف الانفصاليون الكشميريون مجموعة من متسلقي الجبال الغربيين أثناء رحلتهم في جبال الهيمالايا وقتلهم. وفي ربيع

١٩٩٨ أجرت الهند وباكستان تجارب نووية، جاعلين من كشمير أقوى نقطة محتملة للمحرقة النووية القادمة. وبعد مرور عام على هذه التجارب النووية نشبت معارك حدودية بين جيشي البلدين قرب منطقة كارجيل. وفي ربيع عام ٢٠٠٠ — عندما زار الرئيس الأمريكي بيل كلينتون شبه القارة الهندية — وقعت مذبحة في إحدى قرى السيخ — يُزعم أن القوات الحكومية الهندية هي التي نفذتها — للتأكيد على حقيقة أن الحرب لا تزال مستعرة.<sup>1</sup>

أما عن فنادق سريناغار فمعظمها اليوم مغلق ومهجور. أما الفنادق الباقية التي لا تزال تعمل، فسنجد أنها ليست سوى مأوى لقوات الأمن. فنجد أحبال الغسيل في حدائقها وعليها صفوف الملابس العسكرية كاكية اللون. ويجوب الجنود شوارع المدينة بأحذيتهم السوداء الطويلة وخوذاتهم وملابسهم الواقية من الرصاص. ومعظم السيارات في الشوارع شاحنات وسيارات جيب عسكرية. وولى عصر الباعة الجائلين ومنظفي الأذن والحلاقين الذين كانوا يمارسون عملهم على أرصفة شوارعها. شكل من أشكال الحياة الطبيعية يُوجد هنا. لكن الجو في المحلات والأسواق غالباً ما يكون متوتراً، والوجوه عابسة ومكتئبة.

تقع بحيرة دال في قلب سريناغار، وهي بحيرة يغطي سطحها لون أخضر، ومليئة بالمواد الملوثة. ومن وقت لآخر ينبعث من البحيرة غاز الميثان مما ينشر بالهواء رائحة نتنة، ولا يُرى هنا طائر الرفراف يحلق بطريقته المعتادة التي ينقض بها من أعلى لأسفل ليصيد السمك في البحيرة. ذلك لأنه لا توجد أسماك تستطيع العيش فيها. وعندما عينت إنديرا غاندي ابن عمها بريج كومار نهرو حاكماً لكشمير عام ١٩٨٢ — في الوقت الذي كان من الممكن فيه منع نشوب النزاع الحالي — استقبلته بنفسها لتطلعه على أحوال الولاية. وفي ذلك اللقاء لم تنبس إنديرا ببنت شفة تتعلق بالوضع السياسي المتفجر في الولاية، بل تحدثت معه عن الحاجة الملحة لتنظيف بحيرة دال قبل فوات الأوان.<sup>2</sup> غير أن ما حدث بعد قرابة عشرين عاماً من هذا الحوار هو أننا لا نجد بالبحيرة سوى بعض العوامات التي عفا عليها الزمن وهي تهتز على سطحها الراكد هنا وهناك.

وكشمير اليوم ليست كشمير التي عرفتها إنديرا غاندي. فهي اليوم تُمثل جرح الهند القذر والموث — الهند الممزقة — الذي أنتجه الانقسام، ولم تستطع الأيدي مداواته ولم تستطع الأيام محو ما به من تلوث. فعام ١٩٤٧ — عندما نالت الهند استقلالها، وانقسمت الهند البريطانية إلى الدولتين المستقلتين الهند وباكستان — انضمت كشمير، الولاية الوحيدة في الهند التي غالبية سكانها من المسلمين، إلى الهند العلمانية وليس إلى

باكستان الإسلامية. كان هذا قرار المهراجا الهندوسي — الذي كان يحكم كشمير وقتئذٍ — لسكان ولايته الذين كان معظمهم من المسلمين. لكن هذا القرار نُفذ بالإجبار، ولم يحظَ بقبول أحد.

منذ عام ١٩٤٧ وحتى يومنا هذا وقعت ثلاثة حروب شاملة بين الهند وباكستان بسبب كشمير، هذه البقعة من الأرض التي ليست لها أهمية مادية أو اقتصادية كبيرة لكلا الدولتين،<sup>3</sup> ولكنها تُمثل أهمية فائقة فيما يتعلق بمفاهيم كل دولة عن شبه القارة الهندية، تلك المفاهيم المتضاربة في المصالح التي لا تقبل الحل الوسط. إن النزاع الدامي المرير حول كشمير سببه الرمز الذي تمثله لكل من الدولتين؛ فهي تمثل للهنود مثلاً نموذجياً للديمقراطية العلمانية، وفي الوقت نفسه تمثل للباكستانيين مكاناً شرعياً لإقامة وطن للمسلمين على أرضها. والتجارب النووية والمناوشات الدامية على مرتفعات كارجيل ومذابح القرى والقنابل والاغتيالات في سريناجار، كل ما سبق لم يكن سوى أحدث فصول القصة التي يعود تاريخها لأكثر من نصف قرن.

وقصتي — حياة إنديرا غاندي — تعود لما هو أبعد من ذلك. فهي تبدأ في مكان ناءٍ في جبال الهيمالايا حيث القمم المغطاة بالثلوج، والمروج التي تكسوها الزهور البرية الجبلية، والأنهار المتدفقة التي تصب في بحيرات بيضاوية الشكل كقطرات الماء، والوديان التي تحجب عنها ضوء الشمس غابات التنوب والصنوبر وأشجار التشينار العملاقة التي تكسوها الأزهار الحمراء النارية كل خريف إلى أن تأتي الثلوج وتختفي الألوان من المكان. وكشمير — التي تمتعت بالجمال والسمو — كانت حجر الأساس لحياة إنديرا غاندي، وهي أيضاً المكان الذي تمسكت به تمسكاً شديداً، وحاولت مراراً وتكراراً أن تستعيده طوال عمرها المديد. كانت كشمير الأرض التي أطعمتها عند جوعها، وواستها عند كربها. وقد كتب والدها جواهرلال نهرو في الصفحة الأولى من سيرته الذاتية هذه العبارة «لقد كنا كشميريين». وأمنت إنديرا بهذه المقولة وحولتها للزمن المضارع حينما قالت: «أنا كشميرية». وظلت كشمير هي الملاذ الذي تلجأ إليه إنديرا والمكان الذي يهفو إليه قلبها طوال حياتها غير المستقرة والمضطربة التي لم تحظَ فيها بحياة عائلية مستقرة، ولم تمتلك فيها أي منزل خاص بها.

وقصة إنديرا غاندي تبدأ وتنتهي في كشمير ...

تبدأ صفحات هذه السيرة في كشمير، ولكنها ما تلبث أن تغادرها على الفور. فنجد أن سيرة إنديرا غاندي، مثلها مثل باقي السير، لا تبدأ فجأة عند لحظة الميلاد، بل تبدأ عند

النقطة التي يراها كاتب السيرة نقطة حاسمة قبل لحظة الميلاد بكثير. وهذه النقطة — التي حدثت منذ مائتي عام قبل أن تولد إنديرا في نوفمبر عام ١٩١٧ — هي لحظة النفي، التي تمثل الخروج من الجنة أو الطرد منها. وجاء في أول فصل من سيرة نهرو، الذي حمل اسم «الخروج من كشمير» ما يأتي: «منذ أكثر من مائتي عام نزل أجدادنا من ذلك الوادي الجبلي سعيًا وراء الشهرة والثروة في ... السهول الموجودة بالأسفل».<sup>4</sup> فمن موطنهم النبيل السامي في الهيمالايا نُفي أجداد إنديرا غاندي إلى السهول الحارة القاحلة الموجودة في شمال الهند ووسطها.

تحديدًا ذلك الجد الذي يُشير إليه نهرو هو عالم هندوسي — وأحد أعضاء صفوة الطبقة البرهمية في كشمير — يدعى راج كول، كان هذا الرجل عالمًا في اللغتين السنسكريتية والفارسية، ورحل عن كشمير نحو عام ١٧١٦ متوجهًا إلى دلهي. وهناك أصبح عضوًا في بلاط الإمبراطور المغولي «فرخ سير» الذي منح راج كول منزلًا يطل على نهر في المدينة. وباتت أسماء أحفاد راج كول تنتهي بكول نهرو (ويستعمل اللفظ العربي «النهر» في اللغة الهندية بالمعنى نفسه)، وبمرور الوقت سقط لفظ كول (وهو اسم العائلة الحقيقي) وأصبحت أسماءهم تنتهي اختصارًا باسم نهرو فحسب (ومعناه صاحب النهر).

منذ البداية تحالفت عائلة نهرو مع القوة. في أول الأمر كانت هذه القوة ممثلة في إمبراطور المغول، وعندما انهارت إمبراطوريته أصبحت هذه القوة ممثلة في البريطانيين. وقد كان رجل من ذرية راج كول، واسمه لاكمشي ناريان، بين أوائل المحامين الهنود لشركة الهند الشرقية في دلهي، وعمل ابنه، جانجا دار، ضابط شرطة في المدينة عندما وقعت ثورة الهند عام ١٨٥٧. وفي خضم ثورة ١٨٥٧ هرب جانجا مع عائلته إلى أجرا، ومات بعد ذلك بأربعة أعوام، وبعد موته بثلاثة أشهر وضعت زوجته طفلًا أطلق عليه اسم موتيلال.

تربى موتيلال — جد إنديرا غاندي — في كنف أخيه الأكبر ناندلال، وتدرّب موتيلال مثل أخيه الأكبر على العمل محاميًا. وشأنه شأن أخيه الأكبر أيضًا تزوج موتيلال وهو لا يزال في سن المراهقة وأنجب طفلًا، لكن زوجته وطفله ماتا أثناء الولادة وهو لم يتم العشرين من العمر بعد. وبحلول عام ١٨٨٧، العام الذي توفي فيه ناندلال وانتقلت مسؤولية الأسرة إلى موتيلال لأنه الابن الأكبر، كان موتيلال قد تزوج مرة ثانية من امرأة جميلة صغيرة السن، من أصل كشميري هي الأخرى، تدعى سواروب راني. انتقل الزوجان الصغيران إلى مدينة الله آباد في الأقاليم المتحدة (كما أطلق عليها فيما بعد) التي تبعد نحو

٥٠٠ ميل من دلهي حيث واصل موتيلال عمله محامياً، وسرعان ما أصبحت له حياته المهنية المرموقة في مجال المحاماة.

منذ قرون مضت كانت مدينة الله آباد تُعرف باسم مدينة «براياج القديمة». وبراياج هي مدينة وصفت في ملحمة رامايانا ولا تزال مقصداً يحج إليه الهندوس؛ حيث إنها منطقة التقاء الأنهار الثلاثة المقدسة في الهند، وهي الجانج ويامونا ونهر ساراسواتي المفقود الذي يجري تحت الأرض. ومدينة الله آباد اليوم ليست سوى مدينة إقليمية شديدة الهدوء يغطي أجواءها الغبار، لكنها كانت في نهاية القرن التاسع عشر مقراً للمحكمة العليا، ومركزاً لواحدة من أكثر الجامعات تميزاً في الهند.

حقق موتيلال نهرو نجاحاً على المستوى المهني والشخصي في مدينة الله آباد. ولكونه محامياً ناجحاً يتمتع بالذكاء سرعان ما أصبح واحداً من أكثر المواطنين ثراءً وأبرزهم في المكانة الاجتماعية في المدينة. وابتسم الحظ له عندما وُلد ابنه جواهرلال — والد إنديرا غاندي — في ١٤ نوفمبر عام ١٨٨٩. وفي أول جملة في سيرته الذاتية، قال نهرو (أو بالأحرى أعطى تصريحاً أقل مما يقتضيه الواقع) بطريقة أشبه ما تكون بطريقة ديفيد كوبرفيلد: «إن طفلاً وحيداً لأبوين ثريين لجدير به أن يكون طفلاً مدلاً، خاصة في الهند»<sup>٥</sup> ولعلها من مفارقات الحياة — أو ربما من مفارقات القدر العادلة — أن ينمو هذا الطفل المدلل غير مكترث بالثروة المادية أو مهتم بها مع أن أباه رجل فاحش الثراء. لكن التقشف الذي ميز نهرو كان بطيئاً في تطوره، الأمر الذي لا يدعو للدهشة إذا ما نظرنا إلى البيئة التي تربى فيها. وعام ١٩٠٠ انتقل موتيلال بعائلته إلى منزل ضخم يحوي اثنين وأربعين حجرة في ١ تشرش رود في القسم المخصص لسكن المدنيين الإنجليز في مدينة الله آباد. أطلق موتيلال على قصره اسم آناند بهافان، التي تعني باللغة الهندية «بيت السعادة». كان هذا المنزل قصراً ريفياً بُني على الطابع الإنجليزي؛ إذ أحيط بحدائق واسعة، وبستان من أشجار الفاكهة، وملعب تنس، وحلقة لركوب الخيل بالإضافة إلى وجود حمام سباحة بداخله. وفور الانتقال إلى هذا القصر رتب موتيلال لأن يضاء القصر بالكهرباء، وأن تجري المياه في صنابير بداخل القصر، ولم يكن لمدينة الله آباد عهد بهذا الضوء أو هذه الصنابير من قبل. وبعد رحلة قام بها إلى أوروبا عام ١٩٠٤ استورد سيارة من هناك؛ كانت هي الأولى أيضاً من نوعها في مدينة الله آباد. ومن المحتمل جداً أن تكون هي العربة الأولى في الأقاليم المتحدة الهندية بأكملها. وبالتأكيد كانت هي الوحيدة التي يقودها سائق إنجليزي.

حينما ذهب جواهرلال للدراسة في مدرسة حكومية بضاحية هارو بإنجلترا عام ١٩٠٥ كانت له أخت صغيرة تدعى ساروب كوماري ولدت عام ١٩٠٠. وولدت أخت أخرى له تدعى كريشنا عام ١٩٠٧. (ولد ابن آخر لموتيلال عام ١٩٠٥، لكن حياته لم تدم سوى شهر واحد.) حظي كل أطفال نهرو بتربية متميزة ذات طابع بريطاني. وإلى أن أُرسِل إلى مدرسة حكومية في إنجلترا، تعلم جواهرلال على يد معلم أيرلندي شاب يدعى فيرديناند بروكس. أما الشقيقتان فكانت لهما مربية إنجليزية تدعى ليليان هوبر وقد أطلقت ثلاثة أسماء تدليل إنجليزية على أولاد نهرو الثلاثة. في حالة الفتاتين عاش اسماهما معهما طوال حياتهما. كان اسم تدليل جواهرلال «جو»، واسم ساروب كوماري «نان»، أما اسم تدليل كريشنا فهو «بيتي».

لم يكن قصر آناند بهافان مجرد تقليد محكم للقصور الريفية الإنجليزية على الرغم من ارتداء الخدم به بزات رسمية، واحتواء مائدة الطعام على أطباق من بورسلين السيفر الفرنسي وأكواب من الكريستال وأدوات مائدة من الفضة، ووجود بيانو ضخم في حجرة المعيشة ومكتبة كبيرة بها كتب مغلفة بالجلد. في حقيقة الأمر كان منزل عائلة نهرو مشتتاً بين الشرق والغرب، بين الهند وبريطانيا. كان موتيلال نهرو يرتدي البذل الثمينة التي تصممها المتاجر الشهيرة في شارع سافيل رو بلندن (غير أن ملابسه لم تكن تُرسل ثانية إلى أوروبا للغسيل كما كانت الشائعات تقول). ابتعد موتيلال عن الدين، وكان يشرب الويسكي الاسكتلندية ويأكل الطعام الغربي (بما في ذلك اللحم) الذي كان يعده طباطخ مسيحي، ويصر على التحدث بالإنجليزية على مائدته. ووظف مدرسين بريطانيين ومربية أطفال بريطانية لتعليم أطفاله، وبعد مدرسة هارو ألحق ابنه بجامعة كامبريدج. لكن سواروب راني زوجة موتيلال كانت امرأة كشميرية تقليدية متمسكة بتعاليم الهندوسية. فمع سماحها لبناتها بارتداء المعاطف الفرنسية لم ترتد قط غير الساري الكشميري. وكانت تستحم في نهر الجانج، وتؤدي الصلوات الهندوسية الخاصة بطقوس «البوجا»، وتتبع نظاماً غذائياً نباتياً صارماً، وأبقت على طباطخها الكشميري، وتأكل بأصابعها وتجلس على الأرض. وتفهم الإنجليزية ولا تتحدثها. وكان الحديث يدور باللغة الهندية بين النسوة في قصر آناند بهافان.

وهكذا تعايش في آناند بهافان عالمان متوازيان غير أن أحدهما لم يطغ على الآخر. واتضح هذا بشدة في الترتيبات المعدة لقضاء الحاجة. كان البالغون في العائلة يستخدمون الحمامات المصممة على الطريقة الأوروبية فيقضون حاجتهم وهم جالسون على كرسي



الحمام. أما الأطفال والخدم فكانوا يقضون حاجتهم على الطريقة الهندية وهم يتخذون وضع القرفصاء حيث الحمام فتحة بمستوى الأرض. وهاتان الطريقتان لقضاء الحاجة صحيتان لأقصى حد، وكان بقصر آناند بهافان، مثله مثل أي منزل هندي، أفراد من طبقة «المنبوذين» — أو الهاريجان التي تعني أطفال الرب<sup>6</sup> — وهم المسؤولون عن نظافة الحمامات الموجودة، غير أن إدخال المياه إلى القصر سمح بالتخلص من الفضلات في أنابيب الصرف.

في معظم الوقت كان العالمان المختلفان في آناند بهافان — الغربي والهندي — يقسمان سكان القصر، فالعالم الغربي هو عالم الرجال، والهندي هو عالم النساء. لكن الأمر لم يكن هكذا دائماً. فمع التحذير الهندوسي ضد السفر للخارج (وعقوبة مخالفة هذا التحذير هي الإبعاد عن الطائفة)، صاحبت سواروب راني زوجها وأبناءها إلى بريطانيا وأوروبا عندما سافر جواهرلال إلى مدرسته لأول مرة عام ١٩٠٥. وموتيلال نهرو — مع طريقة تفكيره البريطانية وقيمه وعاداته وسلوكياته — تصرف بطريقة هندية تقليدية عندما تعلق الأمر باختياره لزوجته ابنة ومهنته.

لم يكن لجواهرلال نهرو رأي يُذكر في أي من القرارين. فمن الواضح أنه أطاع رغبات والده دونما اعتراض، وتحمل سبع سنين من النفي بعيداً عن أسرته وعن الهند وهو يدرس في إنجلترا. وبعد ذلك عندما قرر موتيلال أن على ابنه أن يتبع خطاه في مهنته ويتعلم القانون درس جواهرلال المحاماة في لندن. ولم تكن السنون التي قضاهما جواهرلال بالخارج تحمل بين طياتها الإنجازات العظيمة. فلم يكن من الطلبة البارزين سواء في المدرسة الحكومية أو في الجامعة، وقال عن ذلك في سيرته الذاتية: «اجتزت امتحانات نقابة المحامين ... بلا مجد أو عار». وفي لندن «انجذب على نحو مبهم للأفكار الاشتراكية وللجمعية الإنجليزية الفابية (التي سعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية)، وشغلته الحركات السياسية الموجودة آنذاك». لكنه كان في معظم الوقت «مشتتاً» ويعيش «حياة رغد بلا هدف». كانت هذه الفترة الطائشة من حياة نهرو التي سخرَ فيها نفسه للمتعة الحسية هي الوحيدة في حياة نهرو التي مارس فيها «عادات باهظة الثمن». وفي حقيقة الأمر فإنه كثيراً ما كان ينفق «المصروف الضخم» الذي كان موتيلال يعطيه إياه، ويبعث بالبرقيات إلى منزله يطلب المزيد من المال.<sup>7</sup>

عمل جواهرلال بالمحاماة دونما اعتراض. لكنه أظهر شيئاً أشبه بالمقاومة قبل أن يوافق على الزواج من المرأة التي اختارها له والده. فحينما عاد إلى الهند عام ١٩١٢

كانت إنجلترا قد غيّرت من طبيعة جواهرلال. ففي كامبريدج اختلط جواهرلال بمجموعة من الطلبة ممن يقرءون ما يكتبه عالم النفس البريطاني هافلوك إليس والطبيب النفسي الألماني كرافت إيبينج، واعتبر هؤلاء الطلبة أنفسهم من «المثقفين، وكانوا يتحدثون عن الجنس والأخلاق»، إلا أن نهرو أضاف: «ومع أحاديثنا الجريئة كان معظمنا يشعر بالخجل عندما يتعلق الحديث بالجنس». ويقول جواهرلال عن معرفته الجنسية: «ظلت لسنوات طويلة بعد مغادرتي كامبريدج ... حبيسة النظريات»<sup>8</sup>

ولم يمنع هذا من أن يتأثر نهرو بهذه المعرفة النظرية وتلك الاتجاهات الغربية تجاه الحب الرومانسي والزواج الذي يتبعه، في البداية لم يعترض نهرو كثيرًا على العروس التي اختارها له والده، فهو يؤمن بأن موتيلال هو من يجب أن يختار العروس له. كان الاختيار قد تم قبل عودة جواهرلال إلى الهند عام ١٩١٢. فقبل وقت وجيز من حصوله على رخصة العمل بالمحامة في لندن، تلقى جواهرلال خطابًا من والده يخبره فيه موتيلال أنه اختار زوجته المستقبلية، وهي فتاة عمرها اثنا عشر عامًا تدعى كامالا كول. وصفها موتيلال في خطابه بأن «جمالها ليس أخاذًا [و] ... تتمتع بصحة جيدة للغاية»، وهذه الفتاة تنتمي لأسرة كشميرية متحفظة كانت تعيش في دلهي. أبرم العقد بين الأُسرتين، وجرى الاتفاق على المهر، وأبلغ موتيلال ابنه. وما على جواهرلال إلا إعلان موافقته فحسب. لم يكن الأمر يستدعي العجلة. ورد جواهرلال على خطاب والده بكلمات حملت قدرًا من الحيرة والتردد. فكتب له: «إنني لا أستطيع، ومن الصعب أن أستطيع فكرة الزواج من فتاة لا أعرفها. وفي الوقت نفسه ... [إذا] كنت مصممًا على خطبتي للفتاة التي ذكرتها فلن أعترض ... سأنفذ قرارك». أما مع والدته سواروب راني فكان أكثر صراحة. اعترف لها بأنه خائف من فكرة الزواج من «إنسانة لا يعرفها بالمرّة». وأخبر أمه أن «أي فتاة تختارينها أنت ووالدي ستكون جيدة في العديد من النواحي»، لكنه أعرب لأمه عن خوفه من «عجزه عن التفاهم مع العروس». وبالإضافة إلى ذلك عبّر جواهرلال لوالدته عن عدم موافقته على نظام الزواج الهندي الذي يختار فيه الوالدان العروس لابنهما؛ إذ قال لها: «في رأيي إذا لم تكن هناك درجة من درجات التفاهم المتبادل يجب للزواج ألا يتم. فأنا أعتقد أنه من الظلم والقسوة أن تضيع الحياة فقط في إنجاب الأطفال»<sup>9</sup>

وبعد عودة جواهرلال إلى الهند أمضى عدة سنوات حتى يتقبل فكرة الزواج بكامالا كول، وكانت الفتاة ذات الاثني عشر عامًا من الصغر بحيث يستحيل زواجها عند عودته. ولم تكن فكرة الزواج وحدها هي ما أثارت البلبلّة في حياة جواهرلال عندما انتقل عائدًا إلى

مدينة الله آباد بعد سبع سنوات شكّلت شخصيته بالخارج. وشرح هذه المسألة في سيرته الذاتية قائلاً: «لم تتفق العادات والأفكار التي نمت بداخلي خلال سبع سنوات قضيتها في إنجلترا مع الأمور التي وجدتتها عندما عدت إلى الوطن.» وغلّبه شعور بالضجر. ووصف هذا الشعور بقوله: «شعور بأن حياتي تخلو تمامًا من أي طعم.»<sup>10</sup> ومع ذلك سلك جواهرلال درب القانون، وتدرّجاً حل اهتمامه بالحركة الوطنية للهند محل إحساسه بالضجر. ولا نعرف إذا كان نقاشه مع والديه حول زواجه قد استمر أم لا. لقد مضى الوقت وأصبح زواجه بكامالا مسألة لا مفر منها.

وعام ١٩١٥ عندما بلغت كامالا السادسة عشرة من عمرها انتقلت للعيش في مدينة الله آباد للزواج من جواهرلال. ونتيجة للعيش في أسرة كشميرية تقليدية كانت كامالا تجهل الأساليب والعادات الأوروبية. وتولت السيدة هوبر، مربية طفلي نهر، مهمة تعليم كامالا طريقة استخدام أدوات المائدة وكيفية التحدث بالإنجليزية. ولم تكن مهمة التعليم سهلة. كانت كامالا فتاة جادة وقوية وسريعة الغضب، وذات جمال بارع وبشرة نضرة وشعر أسود وعينين بنيتين واسعتين مشعتين. لكن جمالها يخلو من الدفء أو الابتهاج، بل كانت خجولة ومنعزلة وعلى وجهها دائماً نظرة الغزال الجريح.

ولم تكن كامالا فتاة سهلة الانقياد أو ضعيفة الشخصية كما كان يبدو عليها. صحيح أنها وافقت على أن تتغير لتصبح عروساً مقبولة لجواهرلال لأنها لم تملك خياراً آخر. لكن شخصيتها الداخلية ظلت قوية كما هي، مع أن الأمر قد يستغرق من آخرين سنوات عديدة — وفيهم زوجها — ليكتشف كم هي قوية وعنيدة و متمسكة بمبادئها. وموتيلال نهر نفسه ظن أنه كسب فتاة عديمة الشخصية لتكون زوجة لابنه، وقد تعاملت زوجته وبناته والعديد من أعضاء المنزل الآخرين مع كامالا من هذا المنطلق.

وفي حقيقة الأمر، وكما سيشهد الزمن، أدى اختيار موتيلال دونما قصد لامرأة أبعد عما تكون عن الشخصية التافهة إلى أنها حققت مع زوجها زواجاً لا يزال نادر الوجود في أي ثقافة، زواج الكفوئين اللذين يشتركان في شدة الرغبة الجنسية، والاحترام المتبادل، والقيم والأحلام،<sup>11</sup> استغرق الأمر سنوات عديدة حتى يستطيع جواهرلال وكامالا نهر تحقيق هذا؛ وإلى حد لم يستطيع نهر إدراك هذا إلا بعد موت كامالا، التي رفضت الزواج في نهاية حياتها لهدف ديني رأت أنه أسمى وأعز.

اختار عرافو العائلة ميعاد الزواج ليكون في ٨ فبراير عام ١٩١٦، وهو الموافق لعيد «فاسانت باننشمي» وهو عيد يحتفل فيه الهنود بقدوم الربيع. وقبل أسابيع من حلول

هذا التاريخ ظل الخياطون والخياطات ومصممو الجواهر في مدينة الله آباد يعملون في تحضير جهاز العروس، وتم هذا غالبًا تحت إشراف موتيلال الشخصي. وهطلت الهدايا من جميع أنحاء الهند على قصر آناند بهافان. وتقرر أن يقيم حفل الزفاف في دلهي وحجز موتيلال قطارًا خاصًا لنقل ٣٠٠ ضيف — من عائلة الزوج ومعارفه وأصدقائه — إلى دلهي، حيث أُقيم سرادق ضخم، وأمام هذا السرادق وضعت لافتة مصنوعة من الورود مكتوب عليها «معسكر زفاف نهرو».

تكشف إحدى الصور المتبقية حتى الآن لزواج كامالا وجواهرلال نهرو عن المحنة التي مر بها كل منهما يوم زواجهما. فهما واقفان بحرص ومرتديان ملابس منمقة؛ جواهرلال يرتدي الشيرفاني المطرز (معطف رسمي طويل) وعمامة، وكامالا ترتدي ساري مطرزًا باللؤلؤ استغرق صنعه شهرًا من العمل الجاد من فريق من الحائكين. لكن حالة العروسين وتعبيراتهما مناقضة لملابسهما المزخرفة والمناسبة. كانت أذرعهما متشابكة — فقد صارا رغم كل شيء زوجًا وزوجة — لكنهما لا يقفان مقتربين والحنن بادٍ على وجهيهما. يحدق جواهرلال في عدسة كاميرا التصوير بتردد، وتظهر هالات سوداء تحت عينيه. وكامالا تنظر بعيدًا ناحية اليسار، بعيدًا عن زوجها. وشبح ابتسامة يرتسم على شفثيها، ويملاً عينيها السوداوين الواسعتين شيء أقرب إلى الخوف.

ذهب الزوجان لقضاء شهر العسل في كشمير، بالضبط مثلما سيحدث بعد ستة وعشرين عامًا عندما ستذهب ابنتهما مع زوجها إلى كشمير. كانت هذه هي المرة الأولى لجواهرلال وكامالا التي يذهبان فيها إلى كشمير؛ أول مرأى لموطنيهما. لا نعرف ما فعلت هذه الزيارة إلى كشمير بكامالا. لكنها كانت لنهرو زيارة لا تُنسى، بل نقطة مصيرية في حياته تقريبًا. وفور وصولهما إلى سريناغار ترك جواهرلال عروسه عدة أسابيع لممارسة هواية تسلق الجبال مع أحد أبناء عمومته في مرتفعات ولاية لداخ، وهي منطقة نائية تقع في شرق كشمير. ولا يبدو أن أحدًا قد اعتبر هذا تصرفًا غريبًا من زوج يقضي شهر عسله. كانت هذه الرحلة في مرتفعات الهيمالايا كما سجل نهرو في سيرته الذاتية «أولى تجاربه مع الوديان الضيقة المنعزلة، الموجودة في أعلى عالمنا — هذا العالم المرتفع — والمؤدية إلى هضبة التبت». حرك جمال العزلة شيئًا ما داخله، وقال عن ذلك: «زادت الوحدة؛ فلم يكن هناك أشجار أو نباتات تؤنس وحدتنا، لم يكن إلا الصخور العارية والثلوج والجليد، وفي بعض الأحيان بعض الزهور المبهجة كثيرًا. لكنني وجدت في نفسي شعورًا غريبًا من الرضا في هذه المشاهد من الطبيعة الموحشة المقفرة، فملأني الشعور بالنشاط والإثارة».<sup>12</sup>

وفي مكان يدعى ماتيان قيل لهما إن كهفًا شهيرًا، وهو كهف آمارنات، يبعد ثمانية أميال فقط عنهما، عزمنا على المضي إلى هناك على الرغم من وجود «جبل ضخمة» في طريقهما. انطلق الاثنان في الرابعة صباحًا بصحبة راعٍ من المنطقة، مرشد لهما في الرحلة، ورجال يحملون حقائبهما، عبر الجميع سريعًا أنهارًا جليدية عديدة. وكلما تسلقوا إلى أعلى أصبح التقاط الأنفاس أكثر مشقة، ثم توقفوا لربط الحبال الموصلة حول صدورهم، وبدأ عدد من حاملي الحقائب الثقيلة ييصقون الدماء من أفواههم. بدأت الثلوج تتساقط وأصبحت الأنهار الجليدية «زلقة بصورة رهيبة». كانت المجموعة كلها «منهكة، وكل خطوة» تحولت إلى عناء ومشقة، ومع ذلك واصلوا شق طريقهم.

بعد اثنتي عشرة ساعة من التسلق الشاق المتواصل وقبل وقت قصير من غروب الشمس وصلت المجموعة إلى حقل جليدي ضخم تُحيط به قمم مغطاة بالثلوج. مغمورة بأشعة الشمس الغاربة، بدت هذه وكأنها «تاج ملكي أو مسرح للآلهة». لكن ما لبثت الثلوج والضباب أن هبطا على هذه القمم وحجبا هذه الرؤية المبهجة. ومن أجل الوصول إلى هدفهم، أي كهف آمارنات، كان عليهم عبور الحقل الجليدي، الذي كان وقتئذٍ غير واضح المعالم بسبب سوء حالة الجو. وصف نهرو الموقف بأنه «كان أمرًا خطيرًا وغير آمن، حيث توجد صدوع عميقة كثيرة والثلوج التي سقطت حديثًا تغطي مواقع خطيرة في الأغلب».<sup>13</sup>

فجأة سقط جواهرلال في واحد من هذه المواقع، داخل هوة شاسعة تغطيها طبقة رقيقة من الثلج الذي أخفى ذلك «الشق الهائل». لكن الحبل المربوط حول خصره الذي كان يربطه برفيقه منعه من السقوط في الهوة. لم يسقط في الهوة السحيقة التي كانت ستمثل تهديدًا بالغًا له. تشبث نهرو بحافة الشق وجذبه الآخرون خارجها.

غيّر هذا الحادث الذي نجا فيه نهرو من الموت بشق الأنفس من مسار التاريخ الهندي ومن مسار حياة الكثيرين، وفي ذلك حياتي بعد أكثر من ثمانين عامًا.

وأيقظ في نهرو انبهارًا دائمًا واشتياقًا للمرتفعات الكشميرية. لقد أصبحت جبال الهيمالايا له رمزًا يعبر عن رغبته العارمة والحرية التي ينشدها. وتحدث نهرو في أثناء كتابته لسيرته الذاتية في السجن بعد عشرين عامًا من سقوطه في الهوة بشغف — لم تقلله السنون — عن هذا المنظر الطبيعي الذي لم تتحَّ له فرصة زيارته ثانية. قال: «إني لأحلم بذلك اليوم الذي أتجول فيه في الهيمالايا وأعبرها لأصل إلى البحيرة والمرتفعات التي أتمنى».<sup>14</sup>

حددت بعض الأمور السياسية والتاريخية المهمة مصير جواهرلال نهرو وابنته إنديرا غاندي وتشكيلها. لقد «قيدتها أغلال التاريخ». وكان الموت وحده هو القادر على فك هذا القيد. لم يهاب الموت، ولكنه أبدًا لم يكن بعيدًا عن أذهانهما؛ فقد رأياه في موت من يحبان وفي أحلامهما وفي أنفسهما. وهكذا كانت المرتفعات الكشميرية الشامخة لا تبالي بحياة البشر أو موتهم. كانت لا تتأثر بالأحزان الإنسانية، ومحصنة ضد الأفراح البشرية، وكان جمالها وصمودها يفوق الأمور التي تشغل الإنسان في كفاحه وكدحه. لا عجب إذن أن تشتاق إنديرا غاندي في كل سنين حياتها إلى كشمير، ولا عجب أن تتعطش لمرتفعاتها و«ثلوجها الصامدة».<sup>15</sup>

## الفصل الثاني

### حدث بالفعل

في ٥ أكتوبر ١٩١٧ زارت آني بيسانت مدينة الله آباد زيارة المنتصر، وعندئذ كانت هذه المرأة الإنجليزية قوية البنية في السبعين من عمرها وقد خط الشيب شعرها، قد أطلق سراحها قبل أسبوعين من السجن السياسي. وعندما وصلت إلى محطة القطار وكانت ترتدي ساريًا أبيض مطرًا بالذهب، استقبلها حشد ضخم ضم زعماء وطنيين مثل موتيلال وجواهرلال نهرو ووبالا جنجاهار تيلاك والسيدة سروجيني نايدو. فكت الجموع خيول عربتها وجر العربة مجموعة من الشباب عبر الشوارع التي اصطف فيها المهللون والتي تزينت بالأعلام والرايات إلى جانب أقواس مصنوعة من الزهور. عندما وصل الموكب إلى قصر موتيلال نهرو الفخم، آناند بهافان، أُلقت السيدة بيسانت — مؤسسة رابطة الحكم الوطني الهندية، التي سرعان ما ستنتخب رئيسة لحزب المؤتمر الهندي، وخطيبة مفوهة، وأحد أتباع مذهب الثيوصوفية المشهورات عالميًا — خطبة حماسية منادية باستقلال الهند. كانت كامالا نهرو ذات الثمانية عشر عامًا فحسب آنذاك، والحامل في شهرها الثامن، تقف في شرفة قصر آناند بهافان بجوار زوجها جواهرلال، وتستمع إلى تلك الخطبة الحماسية. لقد كانت ابنتهما التي على وشك المجيء إلى الدنيا تستمع إلى أول حدث سياسي في حياتها. تلك الطفلة ستكبر وتصبح رئيسة لحزب المؤتمر مقتفية أثر آني بيسانت وجدها ووالدها. فبعد ثمانية وأربعين عامًا ستنتخب إنديرا غاندي ثالث رئيسة للوزراء للهند المستقلة، وسترتدي في ذلك اليوم ساريًا أبيض وقد خط شعرها الأسود خيط من الشيب أشبه ما يكون بجناح الطائر.

ولدت إنديرا بعد ستة أسابيع من زيارة السيدة بيسانت، في ليلة عاصفة في التاسع عشر من نوفمبر، ولدت في حجرة تقع في الجانب الشمالي الشرقي من آناند بهافان حيث كانت هذه الحجرة هي المكان التقليدي الذي ولد فيه جميع من جاءوا للعائلة. كانت

الطفلة تزن أربعة أرتال، وأعلى جسدها النحيل رأس يبدو على النقيض رأس شخص بالغ بشعره الأسود الكثيف وعينه السوداوين الواسعتين وفمه الصغير وأنفه الكبير الحجم الذي سيحزنها طوال حياتها. وهناك في الشرفة خارج حجرة الولادة انتظر بفارغ الصبر طوال اليوم حشد من المترقبين من عمات وخالات وأبناء الأعمام والأصدقاء والأقارب والخدم وفيهم المربية التاميلية الجديدة.

عند الحادية عشرة مساءً تقريباً خرجت سواروب راني نهر، جدة المولودة، من الحجرة متجهة إلى الشرفة منادية زوجها الذي كان يشرب الويسكي الاسكتلندي الفاخر مع الرجال في المكتبة.

«لقد حدث بالفعل»، أعلنت سواروب راني الخبر عندما وصل زوجها.

كرر موتيلال: «أحقاً حدث؟» وهو يعرف تمام المعرفة أن زوجته عمدت إلى عدم ذكر نوع الطفل حتى لا تقول إن المولود أنثى.<sup>1</sup>

غمرت موجة واضحة من الوجوم والإحباط الحشد المجتمع في الشرفة. وكما أوضحت إنديرا غاندي بدبلوماسية بعد عدة سنوات: «مع أن عائلتي لم تكن تقليدية متزمتة حتى تعتبر مولد الأنثى عيباً، فإنها كانت تنظر إلى مولد طفل ذكر باعتباره ميزة وضرورة.»<sup>2</sup> لا يبدو أن أحداً يتذكر مكان جواهرلال ولا انطباعه عند مولد ابنته. لكنه كان تقريباً الوحيد في قصر آناند بهافان تلك الليلة الذي لم يكن يقلقه بشدة نوع المولود. ففي سيرته الذاتية التي كتبها في السجن بعد ذلك اليوم بسبعة عشر عاماً أهمل جواهرلال ذكر أحداث تلك الليلة العاصفة من نوفمبر، كما أغفل ذكر مشاعره الشخصية حولها. ما كان يهمه، كما أخبر ابنته فيما بعد في خطاب كتبه لها في عيد ميلادها الثالث عشر، أن «ذلك الشهر الذي وُلدت فيه» هو نفس الشهر الذي شهد ميلاد الثورة الروسية على بُعد آلاف الأميال من الهند.<sup>3</sup> إنه لمن العجيب أن يُقدر نهر، الرجل البعيد عن الخرافة والعواطف المفرطة، هذه الصدف التاريخية واحتفظ بها في مخيلته لابنته كبشارة خلال طفولتها. لقد كان العالم الذي شهد بدء تكوين إنديرا وميلادها، كما قال في خطاب آخر، عالماً من «العواصف والمشكلات»؛ فهي طفلة ستكبر في غمار ثورة أخرى،<sup>4</sup> وشأنه شأن الكثيرين الذين كتبوا عن ابنته كان نهر غالباً ما يرى ابنته من خلال سحابة من الأساطير.

كانت ذكريات إنديرا الشخصية التي حدثت في حياتها المبكرة — والتي استرجعتها في كبرها — تتسم بكونها هي الأخرى أسطورية وسياسية من الطراز الأول. عام ١٩٢٠ عندما كانت في الثالثة من عمرها أطلق القوميون حركة عدم التعاون، كخطوة في سبيل



نيل الهند الحكم الوطني، وتضمنت هذه الحركة مقاطعة المعاهد البريطانية، وفي ذلك المدارس والمحاكم، بالإضافة إلى رفض الانصياع إلى الأحكام واللوائح الخاصة بالحكومة الاستعمارية. وتجنب الجميع البضائع البريطانية والأجنبية واستعاضوا عنها بالمنتجات الهندية، خاصة القماش الهندي يدوي الصنع (الخادي). وما بين ليلة وضحاها تحول قصر نهرو الفاخر كلية؛ فاخفت جميع الثريات الكريستالية، والخزف الصيني الفاخر، والأدوات الفضية الخالصة، والزجاج الفينيسي، والسجاد الثمين، والعربات، والخيول العربية، وارتدى أعضاء العائلة الملابس المصنوعة من قماش الخادي الخشن برغم احتجاجات سواروب راني وآخرين.

ومن هنا تشكَّلت أولى ذكريات إنديرا على هيئة نيران مضرمة تحرق الملابس الإنجليزية والملابس المستوردة في شرفة آناند بهافان. رأت إنديرا الخشب يُلقى على أكوام من الأثواب الملونة المصنوعة من الساتان والحرير والشفيفون والبذل التي حيكت يدويًا في متاجر شارع «سافيل رو» الشهير بلندن. شاهدت إنديرا النيران و«أول ألسنة لهيها»،<sup>5</sup> وتذكرت في صورة أكثر حيوية كيف كرهت عبادة فرنسية جلبتها واحدة من الأقارب، التي أوضحت فيما بعد أن دمية إنديرا هي الأخرى منتج أجنبي. كانت إندو (كما كانت تُنادى دائمًا في العائلة) تنظر إلى دميته على أنها أحد أقاربها وليست شيئًا يُمثل خيانة. و«لأيام تالية، أو لعلها أسابيع؟» ظلت إنديرا ممزقة بين «حب الدمية و... الواجب تجاه وطنها». في نهاية الصراع أخذت إنديرا دميته بنفسها يومًا ما على سطح آناند بهافان وأحرقتها. وبعدها مرضت وارتفعت درجة حرارتها. وبعد أن كبرت اعترفت قائلة: «إلى اليوم أكره إشعال عود ثقاب»<sup>6</sup>

كانت النيران التي أضرمت في الملابس وأحرقت جسد الدمية هما أول حريقين في حياة قيس، مثلها مثل حياة الهندوسيين، بالحرائق التي تتلازم مع طقوس الحياة المختلفة؛ مثل الزواج، ومراسم تسمية الأطفال، والعبادة، وإحراق الجثث، التي تحمل بين طياتها جميعًا فكرة الميلاد أو تناسخ الأرواح، وفي الوقت الذي تذكرت فيه إنديرا غاندي ذكريات الطفولة تلك عام ١٩٨٠ كانت تعرف أن حياتها مليئة بالكثير من هذه المحطات المشتعلة، ولحظات العودة، فاختارت بذلك رمزًا للتدمير والبعث.

مع هذا، وبدلاً من هذه الصورة الأسطورية، كان هناك شعور بالندم فحسب على مولد أنتى في نوفمبر عام ١٩١٧. غير أن هذا الحزن لم يزعج الأبوين طويلاً. فكامالا نهرو لم تزل في الثامنة عشرة من عمرها فقط، وزوجها في الثمانية والعشرين، ولم يمر

على زواجهما إلا أقل من عامين، ولم يكن أحد يتوقع أن يكون هذا المولود هو طفلهما الوحيد. اختار موتيلال نهرو للطفلة اسم والدته إندراني الذي تغير ليصبح إنديرا الأكثر حداثة وملاءمة، وأضاف جواهرلال الاسم البوذي بري يادارشيني الذي يعني «محبب للنظر» ويعني أيضًا «الشخص الذي يُظهر الخير». رسم أحد العلماء المتبحرين الخريطة التنجيمية للطفلة بلا نبوءات مأساوية أو ثورية. وأقيم حفل تسمية كبير. ثم عادت الحياة الطبيعية في آناند بهافان إلى مجراها بعد فترة سادت فيها الإثارة.

لم يكن مولد طفلة أنثى كارثة في أسرة أرستقراطية ثرية مثل أسرة نهرو، بل كان له توابع بسيطة في نظر والديها فقط بالطبع. وكتبت عنها الشاعرة والزعيمة القومية سروجيني نايدو من مدراس قائلة: «قبلاتي لروح الهند الجديدة»، ولكن هذا لم يكن سوى إشارة ضمنية لواحدة من قصائد السيدة نايدو الحديثة، وليست نبوءة.<sup>7</sup> شغفت بالطفلة والدتها كامالا وجدها موتيلال (الذي أحضر لها عربة أطفال إنجليزية)، ولكنها لم تكن بالنسبة لذلك المنزل الضخم الذي يصل عدد أفراده إلى المائة (بكل الخدم) فردًا مهمًا. في أعوامها الأولى كانت إنديرا صغيرة الحجم، غير متطفلة، لا تتسبب في مشكلات تذكر، ولا تجذب كثيرًا من الاهتمام. وفي إحدى المرات وبعد أن أصبحت إنديرا رئيسة للوزراء سألها ابن عمها بريج كومارنهرو — الذي نشأ في مدينة الله آباد وعاش في قصر آناند بهافان في عشرينيات القرن العشرين — أين كانت طوال تلك السنين؛ إذ لا تحوي مخيلته ذكريات عنها. أجابته: «كنت هناك، لكن أحدًا لم يكن يلاحظني».<sup>8</sup> ومع ذلك فما إن تخطت إنديرا مرحلة الطفولة حتى صارت عنصرًا أساسيًا لا يُستبعد من النشاط السياسي الذي استحوذ سريعًا على المنزل. كانت في قلب الأحداث، في البداية تحت الأقدام ثم في المشهد العام.

قبل مولد إنديرا بعام كان جواهرلال قد قابل مهندس غاندي في اجتماع حزب المؤتمر القومي الهندي الذي عقد بمدينة لكانا عام ١٩١٦، الحزب الذي حقق الاستقلال من بريطانيا. كانت هذه المقابلة حاسمة إذ كان لغاندي تأثير فعلي وعميق على جواهرلال. فقد ركز غاندي على وطنية جواهرلال التي لم تتبلور بصورة كاملة، ووجه آراءه لتكون أكثر تطرفًا على نحو أقلق موتيلال الذي كان يفضل انتهاج سياسات أكثر تحفظًا. بشكل ما أصبح غاندي سريعًا يُمثل لجواهرلال صورة أبوية منافسة، ومن ثم رأى موتيلال أن غاندي يمثل له تهديدًا من الناحية الشخصية إضافة لكونه موضع شك من الناحية السياسية. وعندئذٍ فضل موتيلال تحدي الأسد في عرينه، ودعا غاندي إلى مدينة الله

آباد لإجراء مناقشات معه. في مطلع مارس عام ١٩١٩ وصل غاندي، مرتدياً مئزره لين القماش، إلى آناند بهافان ونزل في الجزء الهندوسي الخاص بسواروب راني في المنزل، حيث يمكنه تناول وجباته النباتية على الأرض، واستخدام المراحيض هندية الطراز الخاصة بالخدم. كانت له مع موتيلال محادثات خاصة في المكتبة، وبعد عدة أيام نصح غاندي جواهرلال بالتخفيف من نشاطه السياسي احتراماً لوالده وعدم تحديه أو حتى الشجار معه في هذه المرحلة. من الواضح أن الطريق كان مسدوداً في النقاش مع موتيلال في مكتبته المصفوفة بالكتب، ولكن غاندي كان يرغب في انتظار التطورات. ومن ثم نصح تابعه الشاب بالصبر.

لم يكن على الاثنين الانتظار كثيراً. ففي ١٨ مارس ١٩١٩، فقط بعد بضعة أيام من مغادرة غاندي لآناند بهافان، فرض البريطانيون «قانون رولات» الذي سمح بمذمة السلطة الممنوحة أثناء الحرب التي تشمل القبض على المشتبه فيهم واعتقالهم دون محاكمة. في تلك الليلة حلم غاندي بالمعنى الحرفي للكلمة (إذ جاءت له الفكرة في حلم) بخطة للاحتجاج على هذا القانون الظالم القمعي، عن طريق تنظيم إضراب عام على مستوى الدولة مصحوب بالصوم والصلوات الجماعية. وهكذا أطلقت الساتياجراها — التي تعني العصيان المدني أو المقاومة السلمية — في السادس من أبريل. وبعدها بأسبوع في الثالث عشر، في أمريتسار بمنطقة البنجاب، قوبلت مظاهرة سلمية داخل حديقة تدعى «جالينوالا باغ» المحاطة بالأسوار بمئات الرصاصات التي أطلقها جنود بريطانيون تحت إمرة الجنرال ريجينالد داير. وبمرور الوقت «أعيد النظام»، وقُتل ٣٧٩ من الرجال والنساء والأطفال غير المسلحين الذين وقعوا ضحايا لهذه المكيدة.

عندما وصلت أخبار مذبحه أمريتسار — أكثر الأحداث المشينة في تاريخ الحكم البريطاني في الهند — إلى آناند بهافان أنجزت في لحظة ما عجز عنه غاندي المتميز بقدرته على الفصاحة والإقناع في ساعات من النقاش؛ فقد انضم موتيلال نهرو إلى الساتياجراها. وكما قالت إنديرا نفسها فيما بعد: «مثلت جابنوالا باغ نقطة تحول ... فقد تنحى التردد والشك ... وكان ذلك عندما اقتربت العائلة أكثر من المهاتما غاندي وتغيّر أسلوب حياتنا كلية»<sup>9</sup>.

ولم يكن هذا على مستوى العائلة جميعها. ففيما عدا كامالا كانت نساء آناند بهافان معاديات في البداية لغاندي وقاومن تأثيره. لم تفهم سواروب راني، على الأخص، كيف — أو لماذا — يمكن لهذا الرجل النحيل الذي يرتدي الدوتي (إزار هندي) وبنظامه الصحي

والغذائي أن يتدخل في حياة أسرتها وينصحها فيما يخص الشؤون الشخصية والسياسية. في حقيقة الأمر شعرت سواروب راني «غريزيًا» [بأن هذا الرجل] ... عدو لبيتها.<sup>10</sup> أصبح وضع غاندي الآن في المنزل يتسم بالأهمية والتأثير البالغ. كانت إنديرا لا تتذكر إلا فيما ندر وقتاً لم يكن فيه «كبير العائلة الذي كنت أستأنس برأيه في الصعوبات والمشكلات».<sup>11</sup> فلم يكن هناك موضوع أو صعوبة كبيرة كانت أو صغيرة على «بابو»، كما كان آل نهرو يطلقون عليه، سواء كانت معضلات أخلاقية أو أهدافاً سياسية حتى مشكلات الهضم وهل على السيدات الصغار وضع أحمر الشفاه أم لا. كان غاندي يُسدي النصح في جميع المجالات، ومع أنه ليس ديكتاتورياً فكلّمته كانت تحدد الأحداث لأعوام في عائلة نهرو بالإضافة إلى الحركة الوطنية.

لم تغفل الحكومة البريطانية وجهاز مخابراتها في الهند عن تقرب موتيلال وجواهرلال من غاندي وتورطهما في الساتياجراها. ففي مايو ١٩٢٠ اصطحب جواهرلال والدته وأخته نان وبيتي وزوجته كامالا وابنته البالغة من العمر عامين ونصفاً إلى مدينة موسوري الشمالية حيث التلال والجو أكثر اعتدالاً. كان فصل الصيف في مدينة الله آباد شديد الحرارة؛ إذ تصل في المتوسط إلى ٤٠ درجة مئوية وأعلى، وكانت نساء أسرة نهرو يقضين الصيف دائماً في التلال. غير أن الجديد في ذلك العام أن سواروب راني وكامالا لم تكونا بصحة جيدة، فقد كان من المعروف أن صحة سواروب راني «ضعيفة» في معظم فترات حياتها، ولم تتحسن صحة كامالا أبداً عما كانت عليه وقت زواجها من جواهرلال عام ١٩١٦. فكانت الرسائل بين جواهرلال وموتيلال وكذلك بينهما وبين غاندي تحمل أسئلة عن أعراض مرضية تظهر على كامالا، يبدو معظمها في هذه السنين المبكرة أعراضاً جسدية ذات أصل نفسي. كانت كامالا تعاني صداعاً وإرهاقاً وفقدان الشهية والوزن وصعوبات في التنفس، و«نوبات قلبية» لم تكن في حقيقتها إلا خفقاناً سريعاً للقلب.

ولأنها شخص بسيط ومتحفظ بالإضافة إلى عدم تمكنها من التحدث بالإنجليزية بفصاحة كانت كامالا امرأة تحتقرها حماتها وأختها زوجها، خاصة ساروب أونان التي لم تكن تحاول إخفاء حب تملكها لأخيها وازدراؤها لزوجته غير المتفرجة. في حقيقة الأمر كانت النسوة في قصر آناند بهافان ممتلئات بالغيرة والعداوة والاستياء، وعانت كامالا بشدة لسنين في هذا الجو. وكان يمكن للمرض أن يحتجزها في غرفتها وينتشلها من هذه المعركة. وعلى نحو لا يدعو للدهشة لم تتحسن صحة كامالا عندما ذهبت إلى التلال بصحبة حماتها وأختي زوجها.

عندما وصل آل نهرو إلى موسوري في مايو ١٩٢٠ أخذوا جناحًا بفندق سافوي. وكان هناك وفد أفغاني أيضًا مقيم في الفندق جاء إلى موسوري من أجل التفاوض مع البريطانيين بعد الحرب الأفغانية القصيرة في السنة السابقة. فرأت الحكومة البريطانية هدفًا خبيثًا خلف هذه المصادفة وانتهت إلى أن جواهرلال نهرو قد أتى إلى التلال في سبيل التحالف مع الأفغان. وفي اليوم التالي لوصول آل نهرو استدعى المراقب المحلي للشرطة جواهرلال وطلب منه عدم الاتصال بالأفغان، في حقيقة الأمر لم تكن لدى نهرو أي نوايا للاتصال بالوفد الأفغاني، ولكنه رفض من حيث المبدأ الانصياع لمثل هذا الأمر.

في اليوم التالي صدر أمر بإبعاد بحق جواهرلال مفاده أن عليه مغادرة المقاطعة خلال أربع وعشرين ساعة. لم يكن لدى جواهرلال خيار سوى العودة إلى مدينة الله آباد تاركًا والدته المريضة وزوجته وأختيه وحدهن في موسوري. ولم تكن هذه سوى واحدة من المرات العديدة التي اختفى فيها والد إنديرا وابتعد عنها أثناء طفولتها.

ثار موتيلال نهرو من قرار ترحيل ابنه وأقنع صديقه القديم سير هاركورت بتلر — حاكم الأقاليم المتحدة — بإلغاء هذا «الأمر الغبي». عندما عاد جواهرلال إلى موسوري في صباح أحد الأيام الصافية في يونيو كان أول ما رآه في ساحة سافوي هو أحد الوزراء الأفغان يممسك إنديرا بين ذراعيه. فقد علم الأفغان من الصحف عن أمر الإبعاد، وفي أثناء غياب جواهرلال كانوا يرسلون الزهور والفواكه إلى سواروب راني وكامالا كل يوم، وكانوا يصطحبون إنديرا للعب في الخارج كل صباح.<sup>12</sup>

في سبتمبر ١٩٢٠ بعد وقت قصير من عودتهم من موسوري سافرت إنديرا، التي لم تتم الثالثة بعد، مع والديها وجدها إلى أول اجتماع لحزب المؤتمر الهندي، وهي دورة خاصة أقيمت في كالكتا. لا تتذكر إنديرا ما وقع في هذا الحدث التاريخي فيما تلا من سنين، ولكنها شعرت أن حضورها وقت إطلاق غاندي حركة المقاطعة وتزعيمه خلال عام حركة سواراج — الحكم الذاتي في الهند — كان ذا أهمية كبيرة.

عند عودتهم إلى الله آباد كانت النار في آناند بهافان قد اشتعلت ولا سبيل لعودة الأمور إلى ما كانت عليه ثانية. فتخلّى موتيلال عن مقعده في مجلس الإقليم، وترك مهنة المحاماة التي كانت تدر عليه الربح (مع أنه استمر في ممارستها على نحو متقطع عندما كان يحتاج إلى المال)، وأخرج ابنته الصغرى بيتي من المدرسة، وتخلص من الخيول والعربات، وباع كل سيارته فيما عدا واحدة فقط، وغَيَّر أسلوب الطهي في آناند بهافان من الطريقة الأوروبية إلى الطريقة الهندية، وأغلق قبو الخمر، وقصص عدد خدمه وبذل ملابس الباقين منهم من الزي ذي اللونين الذهبي والنيبتي إلى الخادي (الذي أطلق عليه

جواهرلال فيما بعد «رداء الحرية»). أما إنديرا فكان هذا الأسلوب من التقشف هو أسلوب الحياة الوحيد الذي يمكنها أن تتذكره في آناند بهافان والذي أصبح فيما بعد طريقة حياة.

لم تكن مظاهر الحياة وشكلها الخارجي في آناند بهافان هو ما تغير على نحو أساسي فقط بعد بداية حركة عدم التعاون، فالآن كرس موتيلال وجواهرلال كل وقتهم وطاقتهم للنشاط السياسي. وسجل جواهرلال في سيرته الذاتية كيف «أصبحت منهما تمامًا في الحركة ... لقد تركت كل ارتباطاتي الأخرى ومعارفي وأصدقائي القدامى وكتبي، حتى الجرائد ... ومع قوة الروابط العائلية فقد نسيت تقريبًا عائلتي وزوجتي وابنتي ... لقد عشت في مراكز الشرطة واجتماعات اللجنة والحشود»<sup>13</sup> وبعد أعوام عندما كان جواهرلال في السجن كان إهماله لعائلته يراوده بشدة، ولكنه في الوقت الذي كانت فيه السياسة قد استحوذت عليه لم يكن يوجد ما يؤثر عليه حتى إن خطابًا تأنيبيًا من والده (الذي كان بعيدًا عن المنزل) لم يكن له أدنى أثر عليه:

«هل كانت لديك أي مساحة من الوقت للعناية بالأبقار المسكينة في آناند بهافان؟ ليس لأنهم أبقار بالفعل بل لأنهم تراجعوا إلى منزلة البقر لا لسبب غير إهمال لا يستحق سوى اللوم من جانبك وجانبي، وأقصد بالأبقار والدتك وزوجتك وابنتك وأختيك؟ لست أدري بأي حق أو عقل ندعي أننا نعمل لمصلحة العامة — والدولة كلها — حين نخفق بشدة في مد يد العون لأشد المتطلبات أهمية لأقاربنا ولن نحن أقارب لهم»<sup>14</sup>

بعيدًا عن رعاية «الأبقار المسكينة» في آناند بهافان ابتعد جواهرلال عن عائلته تمامًا عندما زج به في السجن — مع موتيلال نفسه — في ديسمبر ١٩٢١. كان أمير ويلز (الملك إدوارد الثامن فيما بعد) وحاشيته (وفي ذلك لويس مونتباتن [الذي سيتولى منصب حاكم الهند فيما بعد] البالغ من العمر عندئذٍ واحدًا وعشرين عامًا) في زيارة إلى مدينة الله آباد في الشهر السابق ضمن جولة أمير ويلز الذي سيصبح في المستقبل ملك إنجلترا وإمبراطور الهند. ولكن بدلًا من الترحيب بالأمير استقبلت مدينة الله آباد — شأنها شأن بقية مدن الهند — الأمير وحاشيته بإضراب عام؛ فأصبحت المدينة شوارع فارغة ومتاجر موصدة. وتحولت المدينة إلى «مدينة موتى» في تباين حاد مع الترحيب الذي قوبلت به أني بيسانن قبل أربعة أعوام. مضى الموكب في مسيرته الملكية عبر الشوارع الصامتة المخيفة «دونما شخص يشاهده»<sup>15</sup> نظم موتيلال نهرو إضراب مدينة الله آباد ضد هذه الزيارة الملكية

في ٦ ديسمبر واعتقل في آناند بهافان. واعتقل ابنه أيضًا الذي سجل في اليوميات التي كتبها في السجن أنه بعد هذه الاعتقالات، وبينما كانت الشرطة في انتظار حزم متعلقات موتيلال وجواهرلال كانت سواروب راني وكامالا ونان جميعهن هادئات، في حين كانت إنديرا، التي كانت تبلغ الرابعة عندئذٍ، «تصدر الضجيج اعتراضًا على طعامها وضغطه على أعصاب الآخرين عامة».<sup>16</sup>

أقيمت محاكمة موتيلال في اليوم التالي في سجن نايني في الله آباد واتُّهم بأنه متطوع في حزب المؤتمر الهندي، وهي جريمة جنائية لأن البريطانيين قد حضروا حزب المؤتمر القومي الهندي. احتشد الناس في قاعة المحكمة؛ موتيلال نهرو، المحامي الشهير في الله آباد، الآن يرفض علانية النظام القانوني البريطاني الذي مارسه واعتنقه لفترة طويلة عن طريق رفضه الدفاع عن نفسه أمام محامي الحكومة، الذي كان صديقًا قديمًا وزميلًا سابقًا.

ومثلما ورد في جميع الصحف جلس موتيلال في قفص الاتهام وإنديرا جالسة على قدميه طوال مدة المحاكمة. كان هذا أول ظهور سياسي لها، ليس كمشاهدة فقط بل كمشاركة في هذا الحدث القانوني. ما السبب وراء استخدام موتيلال لحفيدته — مع موافقة جواهرلال وكامالا بوضوح — بهذه الطريقة؟ يمكن أن يكون الهدف هو إطلاقها في النشاط السياسي، ولكن سواء أكان هذا بقصد أو دونما قصد، فقد مثلت إنديرا أداة ورمزًا في قاعة المحكمة؛ إذ إنها تشخيص للبراءة التي تعرض ما سماه موتيلال «مهزلة» الإجراءات. يمكن أن تكون إنديرا قد استمتعت بالاهتمام الموجه ناحيتها أو أن تكون الظروف الغربية المحيطة بها قد ثبتتها؛ إذ أوردت جميع الصحف أن تصرفاتها كانت خالية من الأخطاء.

حُكم على موتيلال بستة شهور من السجن وغرامة ٥٠٠ روبية، وحُكم على جواهرلال بعقوبة مشابهة بسبب توزيعه لمنشورات تؤيد عملية الإضراب. ولكنهما لم يعدا الصحبة الجيدة؛ فقد اعتقل البريطانيون ثلاثين ألف شخص من أرجاء الهند المتفرقة في الفترة من ديسمبر ١٩٢٢ إلى يناير ١٩٢٣ فيما سماه جواهرلال «إفراطًا في القبض والاعتقالات».<sup>17</sup> وسُجن موتيلال وجواهرلال في سجن لكانوا الذي يقع على بُعد ١٤٠ ميلًا شمال غرب مدينة الله آباد.

في المحكمة رفضت عائلة نهرو الدفاع عن نفسها، وفي السجن رفضوا دفع الغرامات المحددة عليهم مما نتج عنه زهاب الشرطة إلى قصر آناند بهافان لجمع ما تبقى من أشياء ثمينة، كان معظمها قطعًا من الأثاث. شاهدت سواروب راني وكامالا عملية السلب هذه

دونما تذمر، في حين اعترضت إنديرا بشدة، «وأعربت عن استيائها الشديد»، وكادت أن تبتر إصبع أحد رجال الشرطة وهي تلوح في وجهه مهددة بسكين الخبز.<sup>18</sup>

في أواخر ديسمبر ١٩٢١، وبعد أسابيع قليلة من سجن والدها وجدها في لكانوا، قامت إنديرا بأول زيارة لها لصومعة غاندي المعروفة باسم «سابرماتي أشرام» الواقعة على ضفاف نهر سابرماتي، وهي أول رحلة لها في قطار الدرجة الثالثة. كانت هذه الرحلة شاقة للغاية على جميع نسوة آل نهرو؛ سواروب راني وكامالا وبيتي وإنديرا. وخلال رحلة القطار الطويلة إلى مدينة أحمد آباد في ولاية جوجارات جلست السيدات على مقاعد خشبية صلبة في إحدى عربات الدرجة الثالثة القذرة والمزدحمة. وبينما كان القطار يشق طريقه عبر سهول شمال الهند المنبسطة والمتشابهة كانت النساء والأطفال في كل محطة يتوقف فيها يحتشدن عند نافذة عربة آل نهرو ويمطرنهن بالطعام والزهور. وفي ذلك الوقت كانت شهرة آل نهرو تكاد تعادل شهرة غاندي نفسه، وشعر الناس بالتضامن الشديد مع هؤلاء النسوة اللاتي سجن الإنجليز لهن الابن والأب والزوج.

في أحمد آباد حضر نساء آل نهرو مع غاندي الاجتماع السنوي لحزب المؤتمر الهندي، وعلى عكس السنة السابقة عندما أطلق غاندي الساتياجراها تذكرت إنديرا هذه الجلسة. في ذلك الحين ارتدى حزب المؤتمر عباءة الحركات الجماهيرية. وفي أحمد آباد رُفرف العلم الهندي بألوانه الثلاثة الأخضر والأبيض والزعفراني، وجلس الجميع على الأرض بدلاً من الكراسي، وأُعلنت الهندية لغة قومية والخادي رداءً وطنياً. وحيّت الجماهير نساء آل نهرو بصفتهم ممثلات لموتيلال وجواهرلال المحتجزين.

بعد ذلك ذهبن مع غاندي إلى سابرماتي أشرام على ضفاف نهر سابرماتي، التي يحيط بها مجموعة من الأكواخ المظلمة بالجير الأبيض المتكلس، وتقع داخل بستان من الأشجار، ويحيط بها عشرون أكر من المزارع. وأسفل هذه المنازل يجري النهر حيث تغسل النساء الثياب، ويأخذ الأطفال الأبقار والمواشي ليسقوها. إنها منطقة يغلب عليها الطابع الرعوي، فيما عدا وجود الثعابين التي يحرم قتلها، ولكنها لم تكن مكاناً للحياة السعيدة إلا فيما ندر. لقد كان السبعون أو ما يقارب هذا العدد من سكان هذا المجتمع من الساناسيين — أي الزهاد — الذين تعهّدوا بالعزوف عن الشهوات (ولو كانوا متزوجين)، وعدم ممارسة العنف، والاعتدال في الطعام، وعدم الاعتداد بالفروق الطبقيّة. ومع ذلك تطلبت طريقة الحياة المتقشفة تلك دخلاً أكبر مما كانت تُنتجه سابرماتي أشرام، مما جعل تمويل المعيشة فيها يتم عن طريق قادة صناعة النسيج في أحمد آباد وبارونات



الشحن في بومباي. وقالت سروجيني نايدو عن هذه المسألة فيما بعد مازحة إن الأمر تطلب الكثير من المال ليحتفظ غاندي بفقره.

كان اليوم في هذا المجتمع يبدأ في الرابعة صباحًا بأداء الصلوات على ضفة النهر، ويُقضى اليوم بنظام دقيق صارم في ممارسة أعمال الغزل، وبذر البذور، وجمع الثمار، وسحب المياه، والطهي والكنس والغسيل وتنظيف المراحيض. وعلى الرغم من الحصول على تكاليف الإعاشة من الشركات الكبيرة فإن غاندي سعى إلى أن يصنع في سابرماتي مدينة فاضلة تتمتع بالاكتماء الذاتي وترتكز على نظام من القيم السامية التي قال أحد كتاب سيرته الذاتية إنها تتمثل في «الصدق، ونبذ العنف، واقتصاديات الأخلاق، والتعليم الحقيقي، والنظام الاجتماعي القائم على المساواة بين الطبقات».<sup>19</sup>

مع ذلك فإن نساء آل نهرو لم يكن ليرين شيئاً أقل مثالية من هذا، فيما عدا إنديرا التي كانت تتسم بالمرونة، وكامالا التقليدية المتقشفة بطبعها. فقد سكن غرفة في فندق خالية من الأثاث حتى إنهن كن ينمن على الأرض، ويستيقظن في الساعة الرابعة صباحاً شأنهن شأن الآخرين، ويأكلن كميات ضئيلة من الطعام الخالي من التوابل، ويقضين حاجتهن في مراحيض مشتركة تختلف تمام الاختلاف عن المراحيض الأوروبية التي كن يستخدمنها في آناند بهافان. وحتى إنديرا، وهي لا تأكل إلا ما يعجبها، كانت جائعة معظم الوقت. ولكن مع هذا وتدرجياً مع الوقت تكيفت نساء آل نهرو مع الوضع، خاصة خلال المناقشات اليومية مع «بابو» في كوخه الشبيه بالزنزانة. كانت لدى غاندي قدرة على سحر لُب من أمامه وإقناعه ونصحه. وعندما عدن إلى مدينة الله آباد كانت نساء آل نهرو، وفيهن سواروب راني المعارضة، قد اعتنقن مبدأ الساتياجراها.

أطلق سراح جواهرلال من سجن لوكانا مبكراً في ٣ مارس ١٩٢٢ غير أنه أُعيد القبض عليه وسجنه مرة ثانية في ١١ مايو بعد اتهامه بتهمة جنائية هي «الترويع والابتزاز»، وتضمن قرار الاتهام مقاطعته لتجار مدينة الله آباد الذين يبيعون القماش الأجنبي. حضرت إنديرا محاكمة والدها مثلما حضرت محاكمة جدّها في السنة السابقة، ولكنها جلست هذه المرة مع والدتها على مقاعد المشاهدين وليس في قفص الاتهام. ومع هذا فحضورها كان مميزاً في قاعة المحكمة مرة أخرى حيث ذكرت الصحف أنها تحدثت بصوت عالٍ قبل بدء المحاكمة وسألت: «يا أمي، هل سيعرضون فيلماً؟»<sup>20</sup>

استمرت مدة السجن الثانية لجواهرلال ثمانية أشهر حتى نهاية يناير ١٩٢٣. سُجن جواهرلال في البداية في سجن مدينة الله آباد ثم ثانية في سجن لكانا، وفي هذا الجو من

الوحدة تسنى له أخيراً الوقت لكي يهتم بأمر أفراد عائلته، خاصة إنديرا التي لم تكن صحتها بخير أبداً معظم عام ١٩٢٢. وفي نهاية شهر مايو كتب موتيلال — الذي نُقل إلى سجن نايني الذي سيطلق سراحه منه بعد فترة وجيزة — معبراً عن قلقه بشأن إندو واصفاً إياها بالتي «تدفع ثمن خطايا أبيها وجدها».<sup>21</sup> فقد قال موتيلال إن إنديرا بدت شاحبة وهزيلة وفاترة الهمّة في آخر زيارة لكامالا وإنديرا له بالسجن.

تسببت الحرارة الملتهبة في صيف مدينة الله آباد في وهن جسد إنديرا، ولكن كامالا وسواروب راني رفضتا الذهاب إلى تلال موسوري والتنعم بالهواء العليل في الوقت الذي يتصعب فيه زواجهما عرقاً في السجن. وبدلاً من هذا بقيت السيدات في آناند بهافان، وكن يقمن كل شهر برحلة إلى لكانا في طقس حار خانق ومترب من أجل زيارة قصيرة لجواهرلال داخل مكتب حارس السجن. كانت هذه اللقاءات الشاقة التي هي أبعد ما تكون عن الخصوصية مراقبة دائماً من أحد مسؤولي السجن. كان جواهرلال وزائراته — سواروب راني وكامالا وإنديرا وبيتي — يتوقعون لمثل هذه الزيارات ثم يصيهم الإحباط والاكْتئاب فيما بعد بسبب عدم قدرة أي منهم على التعبير عن مشاعره على نحو كافٍ. فقد كان الوقت المتاح قصيراً جداً، وأضفى وجود الحارس شعوراً بالإحراج عليهم. إنديرا فقط التي كانت في سن الخامسة هي من لم يكبحها هذا الموقف غير الطبيعي. سجل جواهرلال جميع هذه اللقاءات في مذكراته التي كتبها في السجن، وكتب يوم ٢٣ أكتوبر أن «إندو [كانت] نحيفة للغاية ويبدو على ملامحها الضعف بعد مرضها القاسي ومع ذلك فقد كانت مرحة».<sup>22</sup>

شهد السجن خلال عام ١٩٢٢ بداية المراسلات التي دامت لفترة طويلة بين جواهرلال وإنديرا؛ حجم ضخّم من الرسائل المتبادلة التي كشفت عن أمور عدة لكل منهما، حيث إنها ظلت لعدة سنوات الطريقة الرئيسية للتواصل بينهما. في حقيقة الأمر كانت هذه هي الوسيلة الأساسية للتواصل بينهما خلال سنوات نمو وترعرع إنديرا. خلقت الرسائل بينهما قرباً مذهلاً لأن كليهما كان يكتب بغير تحفُّظ كما كانا ممن لا يشقُّ لهم غبار في الكتابة. ولكن هذه التقائية والانفتاح خلقا صعوبات عندما أصبح الاثنان معاً بالفعل جسداً وروحاً. فقد كان من الصعب، بل من المستحيل، الاحتفاظ بقدر الألفة الذي صنّعه الرسائل عندما آن وأوان التعامل فيما بينهما وجهاً لوجه.

وفي أكتوبر ١٩٢٢ أرسل جواهرلال أول رسالة لإنديرا من السجن باللغة الهندية، ولكنه بدلها إلى الإنجليزية عندما صارت لديها القدرة على القراءة والكتابة:

### حبي الكبير لابنتي الحبيبة إندو من أبيك،

تعافى سريعاً واكتبي إلى أبيك. وتعالى لرؤيتي في السجن.  
أنا أشأتق لرؤيتك كثيراً، هل استخدمت التشارخا الجديد [المغزل اليدوي الذي يشبه ذلك الذي كان غاندي يستخدمه] الذي أعطاه إليك جدك؟  
أرسلني لي بعضاً من القماش الذي غزلت.  
هل تصلين كل يوم مع أمك؟

أبوك<sup>23</sup>

وبعد شهر آخر كتب جواهرلال إلى إنديرا التي كانت عندئذٍ في كالكتا حيث اصطحبها موتيلال هي وكامالا للعلاج بطريقة الأمصال:

### حبيبتي إنديرا،

هل تعجبك كالكتا؟ أيهما يعجبك أكثر: بمباي أم كالكتا؟ هل رأيت حديقة الحيوان هناك؟ ما أنواع الحيوانات الموجودة؟ هناك شجرة ضخمة قديمة. يمكنك رؤيتها. تأكدي من أن تكوني بصحة جيدة عندما تعودين.

والدك المحب<sup>24</sup>

لم يكن من الواضح إذا كان علاج كالكتا ناجحاً أم لا، كما هو الحال فيما يخص مرض إنديرا. كانت الأعراض التي تعانيتها تشبه العديد من تلك التي لا تزال كامالا تعانيتها على حد وصف رسائل موتيلال وجواهرلال، وأيضاً طبقاً لما دوّنه جواهرلال في يومياته بالسجن؛ عانت إنديرا فقدان الوزن والشحوب والضعف، ومثل والدتها، يمكن لهذه الأعراض أن تكون ناتجة إلى حد ما عن مرض نفسي. كان جواهرلال يخشى هذا، وخشى أن تعاني إنديرا ما سماه «إعاقة عقلية» أو وسواس المرض. ومن ثم كان أمره أن «تكون بصحة جيدة». كان جواهرلال قلقاً بشأن صحة إنديرا خلال طفولتها وكان يصمم على ممارستها للرياضة على نحو منتظم — خاصة الجري اليومي — ليجعلها قوية وسليمة البدن، وقد حارب ميول كامالا وسواروب راني والمربية لتدليلها. ومن ثم تعلمت إنديرا في سن صغيرة أن والدها يرفض فكرة المرض، وفي المستقبل استخدمت في بعض الأحيان صحتها أو مرضها كأداة في علاقتها معه.

لكن في بدايات ١٩٢٣ كانت إنديرا تتمتع بالصحة التي يتمنى والدها رؤيتها عليها، عندما أطلق سراح جواهرلال من سجنه للمرة الثانية. في السنة السابقة لهذا كان غاندي قد ألغى حركة عدم التعاون عندما أحرق العامة اثنين وعشرين شرطياً حتى الموت في قرية شوري شاورا. ولكن هذا لم يُوقف نشاط الشرطة في آناند بهافان. ففي ديسمبر عام ١٩٢٢ وقبل إطلاق سراح جواهرلال بفترة وجيزة أسس موتيلال وأحد المحامين البنغاليين في مدينة الله آباد يدعى سي آر داس حزب السواراج (الاستقلال)، ولكنهم لم يخرجوا من حزب المؤتمر الهندي. انحرف حزب السواراج عن غاندي وأتباعه — وكذلك أعضاء حزب المؤتمر — فيما يخص موضوع وقف حركة عدم التعاون، وعلى نحو أكثر جدية كان أعضاء حزب السواراج يسعون إلى إنهاء مقاطعة الهيئة التشريعية. وكانوا يؤيدون الدخول في المجلس — المشاركة في الهيئات التشريعية التي أتاحها قانون الحكومة الهندية لعام ١٩١٩ — من أجل «نقل الحرب إلى معسكر الأعداء».<sup>25</sup>

وجد جواهرلال نفسه في موقف صعب لعدم موافقته على قرارات «والديه»: فقد كان معارضاً بشدة لقرار غاندي بوقف حركة عدم التعاون، ولم يكن أقل معارضة فيما يخص خطة حزب السواراج لتخريب النظام البريطاني من الداخل. ومن هنا أثر التوتر بين موتيلال وجواهرلال واجتاح المنزل. وعلى الأخص كانت أوقات الطعام تتسم بالصمت والتوتر، وتدرجياً أصبحت إنديرا وكامالا تأكلان معاً وحدهما في شقة الطابق الأول التي بناها موتيلال لأسرة ابنه. وصار آناند بهافان مكاناً للاجتماعات المستمرة. وذات يوم اندفعت إنديرا إلى أحد اجتماعات اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر صارخة بأعلى صوتها: «ممنوع الدخول دون إذن»، لتفعل بذلك ما تنادي بعدم فعله.<sup>26</sup>

وعندما كبرت كان يحلو لإنديرا في بعض الأحيان أن تصف طفولتها بالفترة التي فيها «أحييت بالحب والطاقة». ونفت أن تكون هذه الفترة سببت أي جراح لها.<sup>27</sup> ولكنها في اللحظات التي تكون فيها أقل تحفظاً تتحدث عن أمور مختلفة. ففي إحدى اللقاءات الصريحة شكت إنديرا أنها «لم تعرف كامالا بما فيه الكفاية». واستطردت: «لم أعرف أحداً بما فيه الكفاية، لقد كان أحداً يرى الآخر بصعوبة لأن أفراد المنزل يخرجون في الصباح الباكر لأعمالهم أو لمتابعة أمور مختلفة. وفي بعض الأحيان نلتقي على مائدة الطعام، وفي أغلب الأحيان لم نكن نلتقي ... لقد كان المنزل بأكمله في [تلك] الحالة من التوتر حتى إن أحداً لم يحي حياة طبيعية».<sup>28</sup>

لكن الأمر لم يكن يقتصر على ذلك النشاط «غير الطبيعي» المستمر، و«حملات الشرطة» والاعتقالات وما إلى ذلك، وهو ما اعتبرته إنديرا سبباً للحياة المشحونة في آناند بهافان. فهناك الجو المتوتر الناتج عن الخلاف السياسي بين موتيلال وجواهرلال حول قضية الدخول في المجلس، ومع نمو إنديرا أصبحت على وعي بعدم موافقة جدتها سواروب راني وأخت جدتها الأرملة على آراء ومواقف والديها. وحسب وصف إنديرا لأكبر خالاتها بيبي أما بـ «الساحرة الشريرة» سواء في آناند بهافان أو في طفولة إنديرا. تزلت بيبي أما في عمر الثمانية عشر، وعاشت بقية حياتها الطويلة مع أختها الصغرى سواروب راني وفرضت سلطتها عليها، وأدارت المنزل على نحو فعال. ووصفها بريج كومار نهرو بأنها «امرأة بائسة تسبب المشكلات ... بغیضة حتى إنها لا تحتل رؤية إنسان سعيد».<sup>29</sup>

ولطفلة مثل إنديرا كانت هذه المرأة مخيفة أيضاً. فهي أبعد ما تكون عن الجاذبية، ومثلها مثل معظم الأرامل الهنديات ترتدي ساريًا أبيض غير مرصع بالجواهر، ولا تضع البيندي، أي العلامة التي توضع على الجبهة وتزين رءوس السيدات الهندوسيات المتزوجات. فقد كانت تعتنق القاعدة القائلة على الأرامل العيش في أحياء منفصلة، بعيداً عن باقي الأسرة، وعليهن طهي طعامهن غير المحتوي على التوابل وأكله بمعزل عن الآخرين.

وفي ذلك الحين كان الترميل يعني للنسوة الهنديات العذاب المقيم، وهو بديل ليس أفضل كثيراً من إلقاء أنفسهن في أكوام الحطب التي تحترق فيها جثث أزواجهن، أما بيبي أما فقد واجهت مصيرها القاسي بكل ما تملك من قوة. هذا المصير الذي أدى إلى اكتئابها واستيائها من جواهرلال وكامالا على الأخص واستنكارها لمواقفهما وأفكارهما. رأت إنديرا وهي طفلة صغيرة خالتها الكبرى على أنها «الشر بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ» لأنها سمعت مصادفة بيبي أما وهي تنتقد والديها، قالت إنديرا في هذا الشأن: «لقد كنت أود حمايتهما للغاية ... وكنت أعرف أنها تستنكر ... طريقتهما في الحياة وفكرة التخلي عن الأشياء. فقد كانت تعتقد أن هذا غباء شديد. فكيف لأسرة تمتلك كل سبل الرفاهية أن تنحيا جانباً ... مقابل لا شيء».<sup>30</sup>

وعلى النقيض من أختها لم تتحول بيبي أما إلى الساتياجراها أبداً. فلكونها أرملة هندوسية كان لزاماً عليها أن تكون من الساناسيين وترفض كل المتع المادية، لكنها لم تسامح باقي أفراد المنزل في رفضهم طوعية «كل سبل الرفاهية». هذا بالإضافة إلى أنها الوحيدة من قلائل في العائلة التي كانت تود العناية بإنديرا وكان عندها الوقت لذلك. وعلى كره منها، سمحت إنديرا لبيبي أما بمصاحبته في الفراش، كانت تقول لها: «يمكنك

المجيء وأن تقصي لي حكايات قبل النوم، لكنني لن أنظر إليك»<sup>31</sup> ورفضت أكل الطعام الشهي ودعوات الغداء الذي كانت خالتها الكبرى تعده لها في مطبخها المنفصل.

كان هناك شخص آخر في العائلة يُصيب إنديرا بالضيق، عمتها نان التي كانت مصدرًا للتوتر والحزن بسبب عداوتها لكامالا نهرو. كانت نان التي تصغر كامالا بعام واحد تعشق جواهرلال وتستاء من زوجة أخيها منذ لحظة زواجها بجواهرلال عام ١٩١٦. وأصبحت إنديرا بالطبع على وعي بهذا عندما كبرت. خف الجو المشحون بالغيرة على نحو طفيف في آناند بهافان فقط عندما تزوجت نان من رانجيت بانديت عام ١٩٢١.<sup>32</sup> ولكن الإهمال والإهانات استمرت؛ فلم تكن كامالا على سبيل المثال ممن يُدعون لمشاهدة فيلم إنجليزي مع الآخرين لأنهم كانوا يقولون إن لغتها الإنجليزية ضعيفة للغاية. وأصبحت الأمور أكثر سوءًا في السنين التالية عندما صار جواهرلال بعيدًا عن المنزل في السجن لمعظم الوقت وساءت صحة كامالا، وعندما أصبحت إنديرا نفسها هدفًا لعداوة عمتها. على نحو أساسي كانت النساء البالغات — سواروب راني ونان وكامالا — يتبارين في الحصول على قدر من وقت جواهرلال المحدود واهتمامه وحبّه. كانت كامالا هي أكثر الثلاثة تحفظًا وأيضًا أكثرهن عزة وعلى نحو متوقع كانت أكثرهن معاناة، كما لاحظت إنديرا. وعلى ما يبدو أن جواهرلال نفسه لفترة كبيرة على الأقل كان مشغولًا، حتى إنه لم يكن على وعي بالعلاقات المضطربة غير السعيدة بين والدته وأخته وزوجته.

وكطفلة صغيرة كانت إنديرا تستطيع الهروب من هذا الجو المشحون في آناند بهافان عندما تذهب لزيارة جديها لوالدتها في منزلها التقليدي الضخم الذي يعرف باسم «أتال هاوس» الكائن في سوق سيتا رام بمدينة دلهي القديمة. تميزت علاقة إنديرا بجدها راجباتي كول بالحميمية والبساطة، إلى جانب أن العائلة الكبيرة الممتدة كلها كانت تُطلق لها العنان وتدللها. فأرسلت إنديرا إلى روضة أطفال موجودة في مدرسة «مودرن سكول» وهي مدرسة أنشأها القوميون وكانت قد افتتحت في وقت قريب آنذاك، وكانوا يصطحبونها في زيارات للجيران. وتحديدًا من بين هؤلاء الجيران كان هناك ولد في العاشرة من العمر آنذاك اسمه بارميشوار ناران هكسار، يتذكر بارميشوار إندو الصغيرة الصامتة ذات العينين الواسعتين أثناء جلوسها على كتف أحد الخدم، ونساء الجيران يولينها عناية فائقة واللائي كن يقلن بشكل مستمر «أيتها المسكينة» وهن يرتبن عليها.<sup>33</sup> فعلى عكس الإهمال واللامبالاة التي تعرضت لها في دلهي كانت إنديرا طفلة مدللة من الجميع وفي ذلك الخدم الذين كانوا يحضرون لها الخبز المقلي والحليب الساخن كل صباح.

لكن لم تكن إنديرا تبقى مع جديها لأمها فترة أطول من شهر كل عام. وعندما تعود إلى آناند بهافان تستمر الطقوس العائلية الأساسية لتعطي شكلاً من أشكال الاستقرار وسط التغير والخلاف. توقظ سواروب راني إنديرا غالباً عند شروق الشمس وتصطحبها إلى نهر الجانج ثم إلى المعبد. وإذا كان جواهرلال في المنزل تقرأ الجيتا في الصباح مع والديها، ثم تمارس في حدائق آناند بهافان الضخمة رياضة الجري تحت الإشراف. كان تجار السوق والباعة الجائلون يأتون كل يوم إلى المنزل لبيع الخضراوات والفواكه والصابون والمتطلبات الأخرى، كما كان الحال مع باعة الآيس كريم والوجبات الخفيفة اللذيذة. وكان الخياطون يجلسون القرفصاء في الشرفة لخيطة الساري والسترات الطويلة وسراويلات البيجامات. ومن وقت لآخر كان القائمون بالألعاب التسلية أيضاً يحضرون: من أمثلة رجل الدب الذي يأتي وبصحبه دبه الذي يؤدي الألعاب، وملاعب القردة، والبهلوانات والسحرة والمغنين. وفي كل عام، في عيد ميلادها، تُوزن إنديرا على ميزان تكون إنديرا في كفة وفي الكفة الأخرى صينية نحاسية من الأرز، ويتم زيادة كمية الأرز إلى أن تتعادل الكفتان، ثم يوزع هذا الأرز على الفقراء. وعقب ذلك يقام حفل عيد ميلاد فخم على الطريقة الأوروبية حتى بعد الحظر الذي فرض على السلع والتقاليد الأجنبية في آناند بهافان.<sup>34</sup>

كانت إنديرا، مثل كل الأطفال، تقضي كثيراً من وقتها في عالم خيالي من اللعب. وقد استمدت إنديرا الكثير من خيالات ألعاب الطفولة — من أمثلة الخطب السياسية الحماسية الملقاة على الخدم في آناند بهافان، والدمى المحاربة في سبيل الحرية، والهراوات، وحملات الشرطة الخيالية — كما لو أن هذه الألعاب نبوءة لعملها السياسي فيما بعد. ولكن بعيداً عن كونها ألعاباً بدا كما لو أنها تستشرف المستقبل، كانت إنديرا ببساطة تُمثل دور شخص بالغ في ألعابها وكان هذا ما رأت عليه من حولها. هذا بالإضافة إلى أن أسرتها دون شك شجعتها على مثل هذا النوع من اللعب. فأعطاهم موتيلال مغزلاً عندما بلغت الخامسة. (كان غزل النسيج لصناعة ملابس الخادي الشعبية يروق بشدة لأعضاء حزب المؤتمر الذين قاطعوا الملابس البريطانية المستوردة.) وعلى نحو معتاد تلبس كامالا إنديرا الزي الرسمي الخاص بالمتطوعين الذكور في حزب المؤتمر، وفي ذلك غطاء رأس غاندي. وفي حقيقة الأمر كان ينظر إلى إنديرا كثيراً باعتبارها ذكراً، كما أنها في بداية كتابتها الرسائل لوالدها كانت توقعها باسم «إندو-الولد».

والغريب في ألعاب إنديرا ليس ما كانت تُمثل بل حقيقة أن جميع هذه الألعاب تقريباً كانت تتصف بالعزلة. فقد نشأت إنديرا في منزل لا يوجد به أطفال آخرون، وبجانب

الفترة القصيرة التي قضتها في روضة الأطفال لم تُرسل إنديرا إلى المدرسة في الله آباد حتى عام ١٩٢٤ عندما قرر موتيلال أن يلحقها بمدرسة سانت سيسيليا، وهي مدرسة تديرها ثلاث من النساء العزباوات يُطلق عليهن اسم كامرون. كانت هذه بداية غير سعيدة لما تحول بعد ذلك إلى مسيرة أكاديمية غير متوقعة. كانت إنديرا تشعر بالتعاسة في سانت سيسيليا. فقد كانت خجولة ومعقودة اللسان وسط الفتيات الأخريات. وكانت تعي تمامًا نحافة جسدها، وتشعر أنها غريبة بوصفها الطالبة الوحيدة في المدرسة التي ترتدي زي الخادي. وتذكرت إنديرا كيف «في بعض الأحيان لكيلا أظهر في زي الكورتا التقليدي (قميص طويل وسراويل) وأتعرض للاستهزاء، كانت عمتي الصغرى [بيتني] ... تتأمر معي وتساعدني على خلع زي الكورتا حتى أستطيع البقاء في تنورتني، التي كانت تشبه فستانًا دون أكمام على شكل حرف «A»<sup>35</sup> وكانت تخاف الرقيب الأول البريطاني الذي كان مسئولًا عن التدريب البدني للفتيات، ويضربهن بسوطه إذا ما حدن عن الصف.

سرعان ما أنقذ الشجار العنيف بين موتيلال وجواهرلال إنديرا من عذاب مدرسة سانت سيسيليا. فقد كان من الواضح أن جواهرلال لم يُستشر في اختيار المدرسة الخاصة بإنديرا، وأنه كان خارج المنزل عندما أرسلت إلى هناك أول الأمر. كانت سانت سيسيليا من المدارس الخاصة وليست معهدًا حكوميًا، ولكن جواهرلال شعر أنه ما دامت هذه المدرسة تُدار بواسطة هيئة بريطانية ومعظم طلبتها من البريطانيين فإن حضور إنديرا فيها يعتبر انتهاكًا لمبادئ مقاطعة حزب المؤتمر لكل ما هو أجنبي. ومن هنا بدأ مقطع جديد من النزاع الذي أصبح راسخًا بين موتيلال وجواهرلال. ولجأ الاثنان إلى غاندي ليتوسط بينهما وتبادل الثلاثة سيلاً من الخطابات المرسلة والمستقبلة. وفاز جواهرلال في هذه الجولة. واستعيدت إنديرا من مدرسة سانت سيسيليا وتولى تعليمها مدرسون هنود في المنزل.

قد يكون هذا الأمر صحيحًا من الناحية السياسية، ولكنه أبعد ما يكون عن المثالية فيما يتعلق بالناحية التعليمية. تعلمت إنديرا على يد مربية إنجليزية كانت تتأكد من قدرتهما على القراءة والكتابة وحل المسائل الحسابية بكفاءة بالإضافة إلى تدريبهما على الاستحمام بالماء البارد، والنوم في مواعيد محددة لا تتغير قط. لكن دروس إنديرا والطريقة العامة في تربيتهما كانت عشوائية على نحو أكبر. ففي بعض الأحيان كان البانديت (المعلم) الذي يعلمها اللغة الهندية لا يستطيع الحضور، وكانت تتعلم الإنجليزية مع والدتها، فكانت هذه الدروس هي الأخرى غير منتظمة. وكان جواهرلال هو أكثر معلمي إنديرا الموهوبين النشطين، ولكنه كان غالبًا مشغولًا للغاية أو بعيدًا عن المنزل.



كان المنزل يتصف بكونه ثنائي اللغة بأكثر من شكل. فجدة إنديرا وخالتها الكبرى سواروب راني وبيبي أما المتحدثان الهندية فقط كما كانت كامالا في الأصل. (في العشرينيات تلقت كامالا دروساً في الإنجليزية والأردية.) أما موتيلال وجواهرلال فيستريحان على نحو أكبر في حديثهما بالإنجليزية، ولكنهما تحولاً إلى مزيج من الهندية والأردية في بداية حركة عدم التعاون. ومع ذلك ظلت الإنجليزية وسيلة الاتصال الفعلية في جميع قراءتهما وكتابتهما. من ثم كان واضحاً أن إنديرا قد ترعرت وسط عائلة الهندية فيها هي اللغة الرئيسية للحديث بين السيدات والإنجليزية هي اللغة الرئيسية للحديث بين الرجال. ونتيجة لهذا يمكن القول إنها كانت أكثر أفراد المنزل استحقاقاً للقب ثنائية اللغة. فتحدثت الهندية لفترة طويلة، ولكنها تعلمت كتابة الإنجليزية وقراءتها في وقت مبكر وأصبحت قارئة متعطشة وسريعة للغاية بقية حياتها. وفي الحقيقة كانت إنديرا الطفلة في معظم وقت طفولتها تقضي الوقت جالسة بين الأشجار في حديقة آناند بهافان تقرأ الكتب. في البداية كانت هذه الكتب قصصاً خيالية أعطتها إياها عمته بيتي (والقادمة من الإرث الذي تركته المربية الإنجليزية)، ولكن مع تقدم إنديرا في العمر التهمت إنديرا مكتبة موتيلال التي كانت تحتوي على أضخم مجموعة خاصة من الكتب في شمال الهند.

كان منتصف عشرينيات القرن العشرين أي حينما بلغت إنديرا سن السابعة ثم الثامنة فالتاسعة، وقت خمود ميز الحركة القومية، ولكنه شكّل فترة من القلق والشك لدى عائلة آل نهرو. فقد ألغى غاندي حركة عدم التعاون عام ١٩٢٢، وقُبض عليه بعد ذلك في العام نفسه بعد اتهامه بكتابة مقالات تحريضية لمجلته «يونج إنديا». حُكم على غاندي بالسجن ست سنوات في سجن ييرافدا المركزي قرب بومباي، ومع أنه أصبح رئيساً لحزب المؤتمر في دورته السنوية في ديسمبر عام ١٩٢٤ فقد ظل بعيداً عن السياسة حتى عام ١٩٢٨. وفي خلال هذه السنوات من الهدوء السياسي ظل غاندي يلعب دوراً أساسياً في حياة عائلة آل نهرو. في يناير عام ١٩٢٤ أُطلق سراحه قبل انقضاء فترة عقوبته بسبب إصابته بالتهاب حاد في الزائدة الدودية. وفي فبراير سافر آل نهرو بأكملهم، وفيهم إنديرا، إلى ضاحية جوهر على شاطئ البحر قرب بومباي، وهو المكان الذي اختاره غاندي ليسترد فيه عافيته في منزل مملوك لرجل الصناعة الثري «شانتى كومار مورارجي» حيث الحياة فيه أبعد ما تكون عن حياة السجون.

تحولت هذه الرحلة لرؤية غاندي دونما تدبير إلى إجازة، وهي الأولى من نوعها التي تقضيها عائلة آل نهرو بعيداً عن الإقامة الصيفية في التلال. استأجرت الأسرة بيتاً صغيراً

في مواجهة الشاطئ وقضوا الأيام في السباحة والركض وركوب الخيل على شاطئ البحر. كان هذا الوقت الذي علّم فيه جواهرلال إنديرا السباحة. ولكن الهدف الأهم لهم كان استشارة غاندي. كان موتيلال يريد شرح وضع حزب السواراج وأراد جواهرلال مناقشة مستقبله. ولكن الاثنين عادا خائبين. ظل غاندي رافضاً لسياسة حزب السورارج و«لم تُبدَأ أي من الشكوك [الخاصة بجواهرلال]».<sup>36</sup> وانتهى الأمر بالثلاثي المكون من موتيلال وجواهرلال وغاندي — الذين كان الإنجليز يدعونهم على الترتيب «الآب والابن والروح القدس» — إلى خلاف ميئوس منه.

كانت مشكلات جواهرلال في هذه المرحلة سياسية وشخصية. ففي خريف ١٩٢٣ مرض جواهرلال بشدة بحمى التيفود، وتركته تجربة المرض «بعزلة غريبة» تركت «أثراً لم يزل» يؤثر على طريقته في التفكير.<sup>37</sup> وبحلول عام ١٩٢٤ عندما رأى غاندي في جوهو شعر بالقلق وعدم الرضا. بلغ جواهرلال في ذلك الوقت عامه الخامس والثلاثين؛ وهي السن التي توقع أن يحصد ثمار طموحاته عندها. لكن الهدف السياسي الذي تملكه لعامين أو ثلاثة من قبل أضحى اليوم سراباً، أو بالأحرى تحول أمره إلى يد حزب السواراج الذي لم يرد التحالف معه. فلم يستطع اتباع برنامج موتيلال السياسي ولا اللجوء إلى الروحانية مع غاندي و«برنامج البناء» للسمو الاجتماعي.

وازداد ضيق جواهر بسبب اعتماده المادي على موتيلال، وهو ما كان أمراً صعباً في ظل تقدمه في العمر واختلافه السياسي مع موتيلال. كان رأسمال موتيلال المدخر قد نفذ منذ فترة، واضطر إلى قبول قضايا جنائية للإنفاق على متطلبات قصر آناند بهافان حتى في ظل تناقص هذه المتطلبات. ولكن رغم وقف حركة عدم التعاون كان جواهرلال مصمماً على عدم ممارسة المحاماة مرة أخرى لأن القانون الهندي ظل هو القانون البريطاني. وفي سيرته الذاتية لخص جواهرلال محنته بقوله: «كانت فكرة أن أكون وزيراً في الحكومة غير قابلة للتفكير فيها ... حقاً إنه لأمر كريه ... ولكني ... كنت أشتاق لفرصة تتيح لي عملاً ثابتاً إيجابياً وبناءً. فلا تمثل قوة التدمير والثورة وعدم التعاون أنشطة طبيعية للإنسان».<sup>38</sup> واقترح غاندي على جواهرلال عندما التقيا في جوهو ثم في الخطابات التي تلت هذه اللقاءات أن يعمل مراسلاً صحفياً أو أستاذاً جامعياً. وعرضت شركة تاتا في بومباي — على الأرجح بناءً على توصية من غاندي — توظيف جواهرلال. ولكن كل هذه البدائل — التي كان من الصعب أن تجذبه — انتهت إلى لا شيء.

في الوقت نفسه حملت كامالا أثناء الفترة التي قضوها في جوهو. كانت كامالا — إن لم يكن جواهرلال — تشعر بأن الكثير مما يخصهم في ذلك الوقت معلق وغير محدد.

ثمانية أعوام الآن مرت على زواجها بجواهرلال، وسبع سنوات على مولد إنديرا. ويمكن لوضعها في العائلة — خاصة فيما يتعلق بعلاقتها بحمايتها سواروب راني وأخت زوجها نان (التي صارت هي نفسها أمًا لطفلة في ذلك الوقت) — أن يتحسن بشدة إذا ما أنجبت طفلاً ذكرًا. ليس الأمر أن كامالا تهتم بشدة بوضعها، لكنه سيكون من الصعب على النساء الأخريات أن يحظن من قدرها أو يهملنها إذا ما أنجبت وريثًا يحمل اسم آل نهرو. هذا بالإضافة إلى أنها كانت ترغب بالطبع بشدة في طفل من أجلها هي وجواهرلال. وفي الحقيقة وُلد لهم صبي في منتصف نوفمبر. ولكنه كان طفلاً مبتسرًا، وتوفي بعد يومين من ولادته. عندما سمع غاندي بالخبر بعث ببرقية في ٢٨ نوفمبر قال فيها: «إنني حزين لموت الطفل، إنها إرادة الله.»<sup>39</sup> قهر الحدث كامالا وجواهرلال وإنديرا، ولكن الوقع الأكبر كان على كامالا.

بعدها مباشرة تقريبًا أصيبت كامالا بكحة وحمى، ونقلت من قصر آناند بهافان إلى الجناح الأوروبي في مستشفى لكانو (فمن الواضح أن المقاطعة تتوقف في مثل هذه الظروف). سافرت كامالا في سيارة إسعاف تحركت من الطريق نفسه الذي كانت تمر به غالبًا في أثناء زياراتها لجواهرلال في السجن. وفي المستشفى شخّص الأطباء حالة كامالا في البداية أنها مصابة بالسل الرئوي، وهو تشخيص كان في ذلك الحين أشبه بالإعدام. وبعد سنوات من المرض تحولت أعراض كامالا فجأة إلى مرض يعد عندئذٍ من الأمراض القاتلة. بقيت كامالا في مستشفى لكانو في جناح معظمه من النساء البريطانيات، في حالة مستقرة حتى العام الجديد. وكان جواهرلال يتحرك جيئةً وذهابًا بين الله آباد ولكانو، في حين لم يُسمح لإنديرا بزيارة والدتها. في فبراير ١٩٢٥ كتبت لوالدتها على بطاقة بريدية بخط مكتوب بعناية: «كل الحب لأمي العزيزة من إندو.»<sup>40</sup> ولعلها كانت تتساءل هل ستموت والدتها هي الأخرى كما مات أخوها. وفي محاولة لصرف انتباه الصغيرة كتب غاندي يقترح أن تؤسس إنديرا قسم الأطفال في جمعية الغزل اليدوي «بال-تشارخا سانج» التي كان يتزعمها. نفذت إنديرا هذا الأمر وهي مقتنعة به تمام الاقتناع ولكنه لم يخفف من قلقها على والدتها.

ومع حصولها على أفضل رعاية صحية ممكنة فلم تتحسن حالة كامالا في لكانو. واستدعى موتيلال وجواهرلال الطبيب الشهير والزعيم القومي إم أيه أنصاري الذي وجد أن حالة كامالا خطيرة لا تسمح باقتراح البديل المتوقع لراحة علاجية في التلال. بدلًا من هذا حث الطبيب جواهرلال على الذهاب إلى سويسرا لاستشارة اختصاصيي مرض السل الرئوي في جنيف الذين كان الزعيم أنصاري على اتصال بهم.

واعترف جواهرلال فيما بعد أن عرض مغادرة الهند في ذلك الوقت الذي تميز بالخمول السياسي والخلاف بين موتيلال وغاندي لاقى ترحيباً منه مع أنه يتحتم عليه السعي لعلاج كامالا. ولكن الإقامة مدة غير محددة في أوروبا كانت ستتكلف مبالغ كبيرة، ولم يكن لدى جواهرلال المال الكافي وكان معارضاً لفكرة أن يطلب من موتيلال أن يدعم هذه الرحلة مادياً، وعلى أي حال فقد كان موتيلال يمر بضائقة مالية. لم يبقَ لدى جواهرلال الآن سوى ذلك الخيار البغيض بأن يكسب ما يلزمه من مال عن طريق المهارة الوحيدة التي يملكها وهي المحاماة. حصل له موتيلال على قضية من عميل ثري دفع له مبلغاً ضخماً بلغ عشرة آلاف روبية.<sup>41</sup> ومن المستبعد أن تكون كامالا قد علمت بمصدر المال الذي اعتمدت عليه رحلتهم.

كانت نان وزوجها رانجيت بانديت قد خططا بالفعل لقضاء عطلة في أوروبا لمدة ستة أسابيع في أوائل عام ١٩٢٦، وكانا قد حجزا رحلتهم على باخرة مملوكة لشركة ليود اسمها تريستينو التي ستبحر من ميناء بومباي. قرر موتيلال أنه وبيتي وجواهرلال وكامالا وإنديرا سيذهبون جميعاً مع آل بانديت. كالمعتاد فضلت عائلة آل نهرو أن تسافر جملة، ولكن من وجهة نظر كامالا كان الأمر أبعد ما يكون عن المثالية. إن قربها من نان غالباً ما يسبب لها مشكلات، وكانت متخوفة من أن تلومها نان على ما سببه مرضها من نفقات وإزعاج. وزيادة في السوء اضطر موتيلال وبيتي إلى تأجيل سفريهما، ومن ثم أبحر آل بانديت وآل نهرو معاً في الأول من مارس عام ١٩٢٦.

في ٢٦ فبراير استقل موتيلال (الذي كان مصاحباً للآخرين فقط إلى بومباي) وجواهرلال وكامالا وإنديرا ونان ورانجيت بانديت عربة من عربات الدرجة الأولى (من أجل راحة كامالا) في محطة القطار الموجودة بمدينة الله آباد. وطوال أغلب الرحلة إلى بومباي كانت إنديرا تجلس على قدم والدتها التي لم ترها منذ شهور عديدة. وهو ما استحث موتيلال على كتابة خطاب إلى جواهرلال قائلاً: «في الرحلة ... إلى بومباي لاحظت أن إنديو تقبل كامالا كثيراً، يجب أن يتوقف هذا. وإذا كان من الممكن فيحبذ أن تتوقفنا عن العناق كما تفعلان؛ إذ إن ... التنفس يحمل الميكروبات.»

بعد ثلاثة أيام وقف موتيلال على رصيف ميناء بومباي وهو يشاهد الباخرة «التريستينو» ترفع مراساتها وترحل بعيداً في مياه بحر العرب الزرقاء اللامعة. وهناك على ظهرها أخذت طفلة هزيلة الجسد — يصعب على أي شخص آخر أن يتبين أذكر هي أم أنثى — تلوح بيديها حتى صارت شبحاً يلوح في الأفق.

## الفصل الثالث

# تتنفس مع حركة كعبها

عام ١٩٢٦ قبل أن تستطيع الطائرات أن تنكر العلاقة بين طول المسافة والزمن كانت الرحلة من بومباي إلى فينسيا تستغرق وقتًا طويلًا؛ إذ كان مسار السفن على النحو الآتي: الإبحار عبر بحر العرب، ثم حول خليج عدن، ثم قناة السويس إلى البحر المتوسط، ثم المرور بجزيرة كريت وجزر البحر الأيوني حتى الوصول شمالًا إلى البحر الأدرياتيكي. وصف نهرو هذه الرحلة في خطاب لوالده بقوله «إنها رحلة شاقة»، وأردف أن هذه المشقة منشؤها الطقس في البحر من ناحية، والطقس العاطفي على متن السفينة.<sup>1</sup> كانت إنديرا وحدها هي المستمتعة بالعواصف الرعدية والأمواج الهائجة التي أصابت الآخرين بالدوار والغثيان. لكن العلاقات المتوترة بين كامالا ونان بانديت هدأت عندما أصيبت كامالا بنزلة شعبية ولزمت غرفتها بالسفينة. وظلت كامالا تقاسي من الحمى الشديدة عندما وصلوا إيطاليا.

وفور وصولهم أسرعت عائلة البانديت للبدء في رحلتها الأوروبية التي تستغرق ستة أسابيع، في حين لم يسمح مرض كامالا لها بمواصلة السفر فتوقفت عائلة نهرو ثلاثة أيام في فينسيا، كانت فينسيا مكانًا ساحرًا لإنديرا، فهي مدينة الجزر، كأنها السراب منعكسًا على سطح ماء، يتنقل الناس فيها مستخدمين الجنادل وليس وسائل النقل المعتادة مثل السيارات أو الحافلات أو العربات التي تجرها الثيران. عندما انخفضت درجة حرارة كامالا استقلت العائلة قطارًا انطلق عبر شمال إيطاليا إلى جنيف، وهي مدينة مزدحمة تعج بعربات الترام، وبأبواق السيارات، وبشوارعها الممهدة والمرصوفة بالحصى، ويرتدي سكانها ملابس داكنة اللون ويحملون مظلاتهم. ومع أن الوقت عندئذٍ كان ربيعًا، كانت جنيف رطبة وباردة؛ حيث الرذاذ والضباب يغطيان أفق بحيرة جنيف،

وتسبب هذا الضباب لعدة أيام في عدم مقدرة أحد على رؤية المرتفعات المحيطة بالمدينة أو رؤية الشمس.

استقرت الأسرة في فنادق رخيصة الثمن عدة أشهر إلى أن عثرت على شقة تحتوي على غرفتين في ٤٦ شارع بوليفار دي ترانش. وبعد أن كان لدى الأسرة جيش من الخدم في قصر آناند بهافان، لم يعد لديها سوى خادمة سويسرية اسمها مارجريت لا تتحدث إلا الفرنسية. عقد جواهرلال العزم على أن يعيش على نحو اقتصادي على قدر استطاعته. ناسب هذا طريقة كامالا الزاهدة، ولكن هناك في الله آباد استاء موتيلال كثيراً مما وصفه بـ «الاقتصاد الزائف» الذي يتبعه ابنه. فكتب إليه: «يبدو أنك لم تقم بهذه الرحلة إلا لتظهر كيف يمكن لرجل وامرأة وطفلة أن يعيشوا بأرخص ما يكون في مدينة أوروبية. لم يكن السفر بعيداً ضرورياً لمثل هذه التجربة الفعلية للاقتصاد.» وانتقد جواهرلال على عدم ابتياعه معطفاً و«إعطائه كامالا أغراضاً زهيدة الثمن» لارتدائها خارج المنزل.<sup>2</sup>

كان أحد أسباب اتباع نهرو لسياسة الاقتصاد الصارمة تلك هو التكلفة الكبيرة لعلاج كامالا. فقد أحضر معه ما يكفي لقضاء نحو ستة أشهر أو ما شابه، خطط لقضائها في أوروبا، لكن شيئاً ما قد حدث: إما أنه لم يحسب النفقات الطبية وإما أنه لم يقدرها جيداً بسبب التباس الأمر عليه، فقدرها وفقاً لتكاليف المعيشة في إنجلترا منذ خمس عشرة سنة فائتة.<sup>3</sup> وفور وصولهم إلى المدينة زارت كامالا الاختصاصيين الطبيين في معهد بحوث جنيف الشهير حيث يعمل عالم البكتريا السويسري هنري سبالينجر. كشفت التحاليل العملية عن بكتريا «تي بي» في بلغم كامالا، مؤكدة بذلك تشخيص أطباء مستشفى لكانوا. ثم خضعت كامالا لجرعات علاجية من لقاح سبالينجر فاق ثمنها ٢٠٠ جنيه استرليني، وهو مبلغ ضخم في ١٩٢٦. كان هذا اللقاح موضع جدل، وهو مصل مضاد لمرض السل الرئوي مأخوذ من دماء الخيل، وإن جرى الاحتفاظ بسر مصدر اللقاح وطبيعته.<sup>4</sup> ومما زاد من ضيق صدر جواهرلال أنه اضطر لبعث برقية إلى موتيلال ليزوده بالمال من أجل هذا العلاج. ومن الواضح أن تقليصه المصروفات في أي ناحية أخرى غير العلاج كان من دواعي التعويض عن التكلفة الضخمة للعلاج. ولكن، كما كانت وجهة نظر موتيلال، إذا كانت كامالا تطعم بلقاح سبالينجر وفي الوقت نفسه لا ترتدي ما يكفي من الملابس، وتأكل القليل من الطعام، وترتعش من البرد لإقامتها في أماكن باردة تكثر فيها تيارات الهواء، فقد انتفى «الهدف الأساسي من زيارتك.»

ومع هذا لم يتهاون نهرو في تعليم إنديرا في جنيف. كانت المدينة المقر الرئيسي لعصابة الأمم، التي تشكلت عام ١٩١٩، وعام ١٩٢٦ كانت لا تزال تمثل «الأمل في نظام دولي [و]

... في قمة مكانتها»<sup>5</sup> كانت المدرسة الدولية «إيكول إنترناسيونال» مدرسة متعددة اللغات (فرنسية وألمانية وإنجليزية)، وتأسست ليدرس بها أطفال الأفراد المشتركة دولهم في العصبية. فقرر جواهرلال وكامالا أن هذا الأمر سيكون مثاليًا لإنديرا ويستحق التكليف. كانت المدارس الجيدة في الهند دائمًا ما تكون بريطانية، حتى فيما يخص مظهرها ومناهجها التعليمية التي تعد معادية لمبادئ آل نهرو الوطنية. كانت مدرسة عصبية الأمم مدرسة دولية حقًا تحتوي على خمسة وسبعين تلميذًا من معظم الدول المشاركة في العصبية. ولم يكن منهجها التعليمي مرتكزًا على الثقافة الأوروبية أو أي مبادئ سياسية أو دينية.

لكن ترى ماذا تعلمت إنديرا من المدرسة الدولية؟ في السنين التالية قالت إنديرا إنها كانت سعيدة هناك وإنها أحببت مدرّستها السيدة هارتوش. ما تذكرته إنديرا المسافة من البنسيون الذي تقطنه عائلتها إلى المدرسة التي تطل على منظر جبلي بديع. تمشي إنديرا كثيرًا ثم تركب الترام ثم الحافلة، ويتكرر ذلك أربع مرات في اليوم. فتغادر البنسيون كل صباح في الثامنة ثم تعود لتناول الغذاء عند الظهر، ثم تعود إلى المدرسة في الثانية حيث يستقل الأطفال الحافلة إلى الريف للعب وتعلم الزراعة ودراسة الطبيعة، ثم تعود في النهاية إلى المنزل في السادسة مساءً. في البداية كان نهرو يصطحبها من المدرسة وإليها، ولكن كان هذا يستقطع وقتًا كبيرًا من وقته. فبدأت إنديرا ذات الثمانية أعوام ونصف قطع رحلتها اليومية وحدها حاملة على ظهرها حقبيتها المحتوية على كراسات الواجب المنزلي وكتبها. وكتب موتيلال من مدينة الله آباد يقول: «إن إندو طفلة صغيرة رائعة، إن من الشجاعة أن تشق طريقها في شوارع المدينة السويسرية بالطريقة التي وصفت»<sup>6</sup>

في الحقيقة كانت إنديرا وحدها في جنيف، حيث لا خدم ولا مربية ولا جدة أو خالة كبرى للعناية بها. فهي تساعد الخادمة مارجريت في عمل المنزل وتذهب للتسوق معها. وتقرأ لكامالا التي كانت في فراشها معظم الوقت، وتتأكد من أنها تأخذ دواءها. كتب جواهرلال إلى والده عن روح الاستقلالية والمبادرة التي تكبر في إنديرا، ورد موتيلال برسالة قال فيها: «إن عزيزتي إندو الصغيرة فتاة مدهشة ... ونموها العقلي أمر ملحوظ ... فمن كان يتخيل أن تستطيع في بضعة شهور أن تصقل كل مهارات الاعتماد على النفس التي تُظهرها الآن؟»<sup>7</sup>

ساعدت السرعة والسهولة التي تعلمت بها إنديرا الفرنسية بطلاقة على تكيفها السريع مع الحياة في جنيف. كان التدريس يتم في المدرسة الدولية باللغتين الإنجليزية

والفرنسية، وبالطبع كانت تستخدم الفرنسية في شوارع جنيف. كتب نهرو لأخته كيف «أصبحت تتحدث بلغة إنجليزية مختلطة بكلمات فرنسية وهي تتحدث عن الذهاب إلى مكتب البريد وأن الساعة تقارب العاشرة. أما اللغة الهندوستانية فإنها تحاول تجنب الحديث بها.»<sup>8</sup> ومن هنا جاء خوف كامالا وجواهرلال من أن تنسى اللغة الهندية، وصمما على أن تكون هذه اللغة هي لغة الحوار التي تتحدث بها معهما.

كانت هناك مظاهر أخرى أيضًا لتغير إنديرا. فمع أن كامالا ترتدي الساري طوال وجودها بالخارج فقد عاد نهرو إلى ارتداء الملابس الأوروبية التي كان يرتديها خلال سنوات دراسته في هارو وكمبريدج والهند قبل بدء حركة عدم التعاون. ورغم نزوعه إلى الاقتصاد في الإنفاق فإن هذا لم يمنعه من شراء ملابس جديدة لإنديرا. وبدلاً من إندو الصغيرة الهزيلة التي كانت ترتدي الخادي الخشن في مدينة الله آباد، باتت إنديرا ترتدي الفساتين السويسرية والجوارب النيلون التي تصل إلى الركبة، والأحذية الجلدية اللامعة. وكانت تضع مشبك شعر في المناسبات الخاصة، على سبيل المثال عندما تذهب مع نهرو لاحتساء الشاي مع الروائي الفرنسي وكاتب السير الذاتية والناقد رومين رولاند الذي يقطن في مدينة فينيليف بالطرف الشرقي من بحيرة ليमान. وكانوا يزورون الشاعر الألماني اليهودي والناشط السياسي إيرنست تولر، ويتلقون الدعوات من عدد كبير من أشخاص ذوي جذور هندية يعيشون في المنفى في سويسرا.

وبين هؤلاء زوجان عليان مسنان يدعيان آل كريشنافارما. كان جواهرلال يأخذ إنديرا لزيارة شايماجي كريشنافارما وزوجته اللذين يعيشان في الطابق الأعلى في منزل متهاك في جنيف وحيدتين ودونما أصدقاء. الكتب والأوراق تفتش الأرض والغبار يغطي كل شيء بالمنزل. ودائمًا ما كان شايماجي يحمل في جيوبه نسجًا من صحيفته القديمة، «إنديان سوشيلوجست»، ويخرج هذه الصحف من جيبه المنتفخ ويُشير بحماس إلى بعض المقالات التي كتبها منذ أعوام. وتمحور حديثه عن الأيام الخوالي؛ «بيت الهند في منطقة هامبستيد بلندن، والأشخاص الذين أرسلتهم الحكومة البريطانية للتجسس عليه، وكيف كشف هؤلاء الأفراد وخدعهم». كان شايماجي يملك الكثير من المال، ولكنه لم يكن ينفقه على الخدم، ويخبر ضيوفه أنه يمشي مسافات طويلة بدلاً من إنفاق بضع سنتيمات على تذكرة الترام. ووصف نهرو الحال بقوله: «المكان كله معبق برائحة الكآبة والتعفن.»<sup>9</sup> وفي الوقت نفسه بعيدًا في دلهي في أحد أيام ١٩٢٦ استمتع بارميشوار نارين هاكسار البالغ من العمر عذنيث ثلاثة عشر عامًا إلى نقاش محتدم بين والدته ونسوة أخريات ووالدة كامالا نهرو، راجباتي كول. كان النقاش «عن الحالة الصحية المتدهورة لابنتها



وكيف أنها عانت بسبب تورط جواهرلال في الصراع الوطني ورحلاته الطويلة ... إلى السجن». ولكن راجباتي كول باتت واثقة من شفاء ابنتها بعد أن أخذها جواهرلال إلى أوروبا. لم تكن الإجابة على سؤال «لماذا كان على جواهرلال أن يذهب إلى أوروبا؟» واضحة للصبي الصغير بارميشوار نارين هاكسار الذي جلس صامتًا بين النسوة. ثم شرحت راجباتي أن «الطقس في أوروبا ... أفضل من الهند، ولكن ما هو أهم من الطقس لها أنها وجواهرلال وحدهما بصحبة طفلهما إندو».<sup>10</sup>

كانت والدته كامالا ونسوة هاكسار يفهمن الأمر تمامًا، ففي خلال الأشهر الأولى في جنيف — قبل وصول أخت جواهرلال الصغرى بيتي للالتحاق بهم في يونيو ١٩٢٦ — كانت إنديرا ووالداها وحدهم لأول مرة في حياتهم، بعيدًا تمامًا عن شبكة العائلة والخدم والمشتغلين بالسياسة الذين كانوا يحيطون بهم في مدينة الله آباد. وتخلصت كامالا أيضًا من الجو المضطهد العدائي الذي كانت تعيشه مع حماتها وأخت زوجها، وتخلص جواهرلال من اهتمامهن الخائف. أصبحت العلاقة بين كامالا وإنديرا حميمية في آناند بهافان وسط الآخرين، لكن إنديرا كانت قد بدأت اختبار هذه العلاقة مع والدها فقط في جنيف. فحازت في ذلك الوقت اهتمامه الكامل.

وفي ذلك الوقت أيضًا كان والدها يحرص، على نحو أكثر انتظامًا مما كان في مدينة الله آباد، على أن تجري كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، مصممًا على ألا تصقل في نفسها مهارة السرعة فحسب، بل أيضًا «الرشاقة» و«الأناقة». قالت إنديرا فيما بعد وهي تتذكر تلك الأيام: «لم يكن من المهم إذا كنت أعدو لمسافة طويلة أم لا ... بل المهم أن أعدو برشاقة».<sup>11</sup> كانت العديد من الهنديات يعدون وهن ملقيات بثقل أجسادهن إلى الخلف، ولكن إنديرا كانت تتعلم كيف تعدو كالرياضي «على أصابع قدميها وثقل جسدها إلى الأمام، بخطوات واسعة وتناسق تام بين عضلاتها، وتنفسها في تناغم مع جسدها». وقد عبرت إنديرا عن هذا الأمر بقولها: «تعلمت أن أتتنفس مع حركة كعب قدمي».<sup>12</sup>

بالإضافة إلى أن إنديرا وجواهرلال كانا يذهبان للتنزه معًا في جنيف. ففي أحد أيام الأحاد في مطلع شهر مايو اصطحبها جواهرلال إلى جبل صغير بالجوار اسمه سالييف، في رحلة استغرقت ساعتين بالقطار والتليفريك. كان المشهد من أعلى بديعًا؛ فبإمكانهم رؤية جبل مون بلون وجبل جورا وبحيرة جنيف والأودية بالأسفل التي تتخللها القرى. ومما زاد من سعادة إنديرا أن الثلوج هطلت، وكانت هذه أول مرة في حياتها ترى الثلوج تهطل، وعلمها جواهرلال كيف تصنع الكرات الثلجية، وأخذ الاثنان يتقاذفان بكرات الثلج.<sup>13</sup>

في حقيقة الأمر كانت جنيف المكان الذي وقعت إنديرا فيه في حب الجبال، بجمالها ومنحدراتها وبالمنظر البانورامي الذي تقدمه. وفيما بعد لقبها الآخرون ولقبت هي نفسها بـ «ابنة الجبال»، بسبب حبها — الذي يصل لحد الاستحواذ — لكشمير. ولكن أول لقاء لها مع الجبال كان في سويسرا لا الهند، ولم يكن تشربها للاعتقاد الكشميري أن جبلاً — حتى جبال الألب — لا يستطيع أن يباري الهيمالايا إلا بعد ذلك بكثير.

في ٦ يونيو ١٩٢٦ ارتكبت إنديرا خطأً فكتبت — وهي في عمر الثامنة والنصف — أول خطاب لوالديها وهي معهم في المنزل في جنيف، وهو بالمناسبة لا يزال موجوداً، قالت في خطابها:

### أمي وأبي الحبيبان،

أنا أسفة لأنني لم أتصرف جيداً. ولكن من اليوم سأتصرف جيداً. وإذا لم أفعل فلا تتحدثا إليّ. وسأبذل قصاري جهدي لأتصرف جيداً. وسأفعل كل ما تطلبانه مني.

بكل الحب، ابنتكما إندو.<sup>14</sup>

مهما كان حجم الخطأ الذي ارتكبته فهو تغير عن سلوكها المعتاد. وأوفت إنديرا بوعدها. ومع أنها كانت طفلة ذكية وتسبق سنّها فإنها لم تكن متسلطة أو صعبة المعاشرة. بل كانت في الحقيقة «فتاة حسنة السلوك» — محبة للتعليم وهادئة ومطبعة وليست كثيرة المطالب — ليس في سويسرا فقط بل في معظم أوقات طفولتها. هذا بالإضافة إلى أن كامالا كانت غالباً مريضة، مما يعني أنه كلما كبرت إنديرا ازداد دورها في العناية بوالدتها، عاكسة بذلك العلاقة المعتادة بين الوالدة والابنة. شجّعها والداها على الاستقلال، وذكرت إنديرا لاحقاً أنها شعرت بأنهما ضعيفان وبحاجة لحمايتها. والوقت الوحيد الذي تشعر فيه إنديرا أنها قد تمثّل عبئاً إذا أصابها المرض، وبالفعل أصيبت إنديرا بالالتهاب الشعبي — مشاركة في العديد من الأعراض التي كانت كامالا تعانيها — في أواخر ربيع ١٩٢٦ بعد وقت قصير من وصول عمتها بيتي.

فزع نهرو عندما أصيبت إنديرا بالنزلة الشعبية؛ إذ استيقظ الخوف الدائم من أن يكون لديها استعداد للإصابة بمرض السل فيما بعد. وبُعِثت البرقيات إلى مدينة الله آباد تطلب المزيد من المعونات المادية، حيث «فُحصت إنديرا على نحو كامل بواسطة أطباء

الأطفال وأطباء آخرين» في سويسرا. ومما أراح نهرو وكامالا أن الفحوصات والاختبارات لم تكشف عن أي «خلل عضوي». لكن وكما قال نهرو: «من الواضح أن صحتها أقل من الطبيعي». فبدأ نهرو يعتقد أن مرض ابنته عضوي ذو أسباب نفسية. ولأنه رجل يتمتع بصحة جيدة ويتناول طعامه باقتصاد ويمارس اليوجا والرياضة على نحو منتظم، كان نهرو يعطي أهمية كبرى للياقة البدنية، ولا يستطيع تحمل فكرة مرض الآخرين. ومن ثم كانت شكواه من «ضعف إنديرا الطفولي» ورأى أنها دائماً تأكل على نحو أفضل إذا كانت بعيدة عن المنزل.<sup>15</sup>

وهكذا قرر نهرو في صيف عام ١٩٢٦ إرسال إنديرا إلى مدرسة في الجبال حيث «الرفقاء المناسبون» ولن يكون هناك مجال «للتدليل والنقاش و[لن تكون هناك] محاولة للإطعام ونفور من الطعام.»<sup>16</sup> ومع «أنها لم تكن شغوفة بالالتحاق» بالمدرسة الجديدة فقد أخرجت إنديرا من المدرسة الدولية. وكتب نهرو إلى نان بانديت إن إنديرا «لا تزال ضعيفة وواهنة»، وأنه قد طعمها قبل أخذها في رحلة لمدة أربع وعشرين ساعة من جنيف إلى شيسير حيث تقع المدرسة الجديدة.<sup>17</sup> ومن هناك كتبت إنديرا إلى كامالا وجواهرلال في ٢٧ يوليو:

### إلى أبي وأمي الحبيين،

هل أعطيتاني فرشاة أسنان جديدة؟ اسأل أمي هل حبل القفز عندكما، لا أستطيع أن أجده. شكراً على خطابكما ... بالأمس قضى الأطفال جميعاً الوقت في حمام السباحة وممارسة الرياضة البدنية. أخبروني عن جنيف. سأكتب لكم خطاباً أطول في المرة القادمة. أعطيا عمتي [بيتي] خطابها.

كل الحب من ابنتكما الصغيرة المحبة إندو<sup>18</sup>

قبل أن يصل هذا الخطاب لوالديها بعث إليها نهرو خطاباً من جنيف عبر فيه عن قلقه قائلاً: «هل نسيت أمك وأباك؟ ألم تعدينا بأن تكتبي إلينا كل يوم؟» ردت إنديرا على هذا الخطاب في الثاني من أغسطس قائلة: «أمي وأبي الحبيب، شكراً على خطابكما. اسأل أمي عن رقم فرشاة أسناني الجديدة. وأين جبل روشير دي ناي؟ لقد استمتعنا كثيراً بالأمس ... كيف حالكما؟ كل الحب من ابنتكما المحبة إندو.»<sup>19</sup>

ظلت خطابات إنديرا لعدة أشهر مقتضبة مثل هذين الخطابين الأولين؛ فواضح أن شاغلها الأكبر فرشاة أسنانها. لكنها لم تخبر والديها عن كونها غير سعيدة في شيسير،

المدرسة التي تديرها إحدى العائلات ويرأسها رجل ضخم الجسد يدعى السيد مولر له «رقبة ضخمة أشبه برقبة الثور ذات لحم كثيف». عامل السيد مولر وزوجته التي تضاهيه دمامة مجموعة الأطفال الصغار مثل الخدم. فجعلاهم يعملون لساعات طويلة في الحديقة، وقطع الأخشاب، وحمل الأوعية الثقيلة من نبات إبرة الراعي «ليتعرضوا لأشعة الشمس». والطلبة الذين لا يحسنون التصرف يعاقبون بالحبس الداخلي ويُطعمون الخبز المجفف. ومع هذا كان لإنديرا في شيسير صديقة حميمة اسمها مارجوت، وهي فتاة من سان سلفادور، وجذبت أنظار أول معجبيها، وهو صبي فرنسي في التاسعة من عمره اسمه كلود، غير أنها لم تبادله الإعجاب.<sup>20</sup>

وإذا عدنا إلى جنيف نجد أن كامالا قد أنهت جرعاتها العلاجية المكلفة من لقاح سبالينجر بحلول الصيف. وفي ١١ أغسطس كتب نهر إلى صديقه القديم سيد محمود: «كامالا بخير. وإندو أيضًا التي تقطن الجبال الآن. أما أنا فإنني بخير.»<sup>21</sup> ولكنه بعد شهر عاد وأخبر محمودًا في ١٢ سبتمبر قائلًا: «يؤسفني القول إن كامالا ليست بخير.» فقد ارتفعت درجة حرارتها ثانية والأطباء يعتقدون أن «المرض لا يزال موجودًا.»<sup>22</sup> وفي ذلك الوقت نصح الاختصاصيون بنقل كامالا إلى مونتانا، وهو منتج صحي يقع في مرتفعات جبال الألب في إقليم فاله جنوب شرق بحيرة جنيف. رحلت كامالا ونهر وبيتي في منتصف أكتوبر إلى مونتانا حيث مصحة دكتور تيودور ستيفاني الشهير المعروفة باسم «لو ستيفاني» لعلاج مرض السل الرئوي والتي استقطبت مرضى السل الرئوي الأغنياء منذ إنشائها في تسعينيات القرن التاسع عشر.

وفي نوفمبر سافرت إنديرا للاحتفال بعيد ميلادها التاسع وحدها من شيسير إلى مونتانا لرؤية والديها بعد غياب دام قرابة الخمسة الشهور. وسكنت في نُزل صغير بالقرب من المصحة وكانت تزور والديها مرتين في اليوم. ومنذ أول سقوط للثلوج على المرتفعات مارست إنديرا التزلج على الجليد في شيسير، ثم باتت تمارسه الآن بصحبة والدها. كان الأمر يبعث على البهجة، أضاف إلى ذلك الجمال من حولهما المتمثل في أعلى قمم سويسرا الغارقة في أشعة الشمس، يا له من مشهد في غاية الروعة! كتب نهر إلى نان بانديت عن اعتقاده بأن «التزلج هو أفضل الرياضات التي يستمتع بها على الإطلاق، إلا فيما يخص لعبة الحياة والثورة المثيرة دائمًا». وأضاف عن «إندو» أنها «تتقدم باستمرار في رياضة التزلج.»<sup>23</sup> أزال ممارسة الرياضة البدنية في هواء المرتفعات النقي البارد الشكوك والقلق من قلب نهر على المستويين الشخصي والسياسي. وشعر أنه انعزل عن

الهند. كانوا لا يرون سوى القليل جدًا من الهنود، بل القليل من الناس عامة بعيدًا عن «المستعمرة الصغيرة» في المنتجع الجبلي.

كانت مونتانا منتجًا وملعبًا للأغنياء المترفين بالإضافة إلى كونها مأوى للمرضى والموشكين على الموت، أجواء غريبة على إنديرا. فمن ناحية هناك المصحة الخاصة بمرضى السل الرئوي، الذين كان معظمهم في «حالات متأخرة» ووالدتها ترقد على سرير أبيض في غرفة مفتوحة الباب والنوافذ لإفساح المجال لنفاذ هواء الجبال البارد إليها. ومن ناحية أخرى هناك العشرات من الفنادق الأنيقة المليئة بالأجانب القادمين من جميع أنحاء أوروبا وأمريكا، الذين يخصصون نهارهم لممارسة التزلج على الجليد، أما ليلهم فلاحفلات والحفلات الموسيقية أو عروض رقص الباليه على الجليد. واستطاعت إنديرا أن تلاحظ التوتر المتصاعد بين الطبقتين المختلفتين من زوار مونتانا. فالمرضى وهؤلاء الذين جاءوا لقضاء الإجازة يستاء بعضهم من بعض، والعلاقة بين الأطباء والمسؤولين عن الفنادق تتسم بأنها أقل ودًا. والفنادق من أمثلة بالاس بيلفو وليدن ولو رويال ولو كونتيننتال تضع لافتات كبيرة مكتوبًا عليها «لا نقبل المرضى».<sup>24</sup>

عادت إنديرا إلى مونتانا ثانية في عيد الميلاد. وفي خلال هذه الإجازة الطويلة اعترفت أخيرًا كيف أنها لم تكن سعيدة في شيسير. بحث نهرو عن مدارس أخرى في المنطقة ورتب لها أن تنتقل إلى مدرسة «إيكول نوفيل» في بيكس، التي تستغرق الرحلة إليها ساعتين، مما يعني أنه قد صار بإمكانها زيارة والديها والتزلج مع والدها كل نهاية أسبوع تقريبًا. وعلى غرار المدرسة الدولية التابعة لعصابة الأمم كانت هذه المدرسة هي الأخرى معهدًا دوليًا، وجميع التلاميذ بها فتيات تتراوح أعمارهن بين التاسعة والثامنة عشرة قادمات من أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة والهند وأوروبا. كانت مدرسة إيكول نوفيل توجد في ضيعة جميلة واسعة خارج بيكس اسمها «لا بيلوز» بناها في الأصل مهاجر روسي ثري. أقامت إنديرا في كوخ سويسري مدهون بألوان زاهية، وتحيطه أشجار التفاح والكمثرى والكستناء ومزارع الكروم. وكانت تستطيع من نافذتها رؤية سلسلة جبال دونت دو ميدي عبر الوادي وقممها مغطاة بالجليد. وناظرة المدرسة، الأنسة ليدي هيمرلين، امرأة سويسرية ذكية وطيبة تبلغ من العمر خمسين عامًا، ومع ذلك وصفتها كلمات إنديرا بأنها «قاسية للغاية في التدريبات البدنية وصارمة في فرض النظام».<sup>25</sup>

لا تفصح ذكريات إنديرا عن بيكس فيما بعد الكثير عن المنهج الدراسي أو نوع دراستها. فبدلًا من ذكر الكتب التي قرأتها وتعلمتها لم يكن ما تذكرته إنديرا عن إيكول

نوفيل سوى أمور على شاكلة أن أول ما كانت تفعله عند استيقاظها في الصباح هو الحصول على «حمام بارد، أو بالأحرى ثلجي — مهما كانت حالة الجو — ... ثم كنا نجري في الحديقة مرتدين سراويل قصيرة. وفي أيام الخميس والأحد نهول ساعتين، وفي الأيام الأخرى فترة مماثلة من التمارين البدنية أو الألعاب الرياضية. والنوافذ كانت ... تبقى مفتوحة» طوال الوقت.<sup>26</sup> كان هذا هو تمامًا الجو المنشط الذي أراده والدها لها. وفي الحقيقة تحسنت صحة إنديرا في مدرسة إيكول نوفيل. بل إنها أحببت العمل في الحقول الذي يطلب من جميع التلاميذ القيام به في فصل الخريف، والذي تضمن قطف ثمار التفاح والكستناء وجمع العنب من المزارع.

تحسنت حالة كامالا ببطء في مصحة دكتور ستيفاني، واستطاع نهرو وأخته بيتي بالتدريج تركها والقيام برحلات قصيرة إلى باريس وبرلين ولندن، وتوجهًا أيضًا في فبراير ١٩٢٧ إلى بروكسل لحضور مؤتمر الشعوب المضطهدة الذي كان من نتائجه إنشاء الرابطة المناهضة للإمبريالية. على الناحية الأخرى كان من المنتظر حضور موتيلال نهرو في آخر الربيع في الوقت نفسه الذي شعرت فيه كامالا بتحسن شديد — وكان نظام المصحة قد أصابها بالضجر — حتى إنها أعلنت عن رغبتها في مصاحبة للآخرين في «الرحلة الأوروبية الكبيرة» التي نظمها موتيلال لهم جميعًا، وفي ذلك إنديرا.

بدأت إجازة إنديرا الصيفية في منتصف أبريل، ولكن بعد وصولها بوقت قصير إلى مونتانا وصلت برقية من الهند تفيد بأن موتيلال أجل رحلته لأوروبا لثلاثة أشهر آخرين على الأقل. فهو متورط في نزاع قانوني قديم، والفصل في هذا النزاع يتأجل باستمرار، وها هو الآن يتسبب في تأخيره لسفره. وبالإضافة إلى ذلك انشغل أيضًا في ذلك الحين ببناء منزل جديد للعائلة، ولم يكن البناء يسير بسرعة هو الآخر. وكان جواهرلال يعتقد لسنوات أن آناند بهافان، حتى في ظل تردي مستوى القصر، منزل ضخم للغاية عليهم وأنهم يجب أن يسكنوا في منزل أصغر وأكثر بساطة. وبعد سفره مع كامالا وإنديرا بوقت قصير إلى أوروبا بدأ موتيلال في إنشاء منزل جديد على أرض آناند بهافان. ولفترة ما على الأقل ظل الأمر في إطار متواضع إلى حد ما. ولكنه كان من الصعب على موتيلال — حتى مع ظروفه المالية الضيقة — أن يقوم بعمل أي شيء على نحو غير متقن. ومن ثم كان من المحتم أن يُبنى آناند بهافان الجديد — مع صغر حجمه مقارنة بالقصر الأصلي — بأسلوب معماري أنيق مزخرف فصُم البناء على شكل كعكة الزفاف، وتكوّن المبنى من طابقين وعدد كبير من الغرف، وكانت له شرفة دائرية، وتحيط به حدائق كبيرة. ونتيجة

لهذا لم يكن المنزل قد انتهى عندما خطط موتيلال في الأساس للإبحار إلى أوروبا في مايو ١٩٢٧.

وإذا انتظروا وصول موتيلال فسيطول الانتظار حتى سبتمبر أو بعد ذلك، وهو الوقت الذي سيكون على إنديرا العودة فيه إلى المدرسة. وكان جواهرلال يشعر أن إنديرا يجب أن تتعرّف على باريس ولندن قبل عودتها إلى الهند. بالإضافة إلى أن كامالا شعرت بالقلق والضيق وتاقت لمغادرة مونتانا. ومن الواضح أنهم عندئذ كانوا على استعداد لاختصار رحلتهم عما كان مخططاً من قبل، ولكن منعهم ضيق ذات اليد. ثم وصلت إليهم برقية من مدينة الله آباد مفادها أن موتيلال يحثهم على البدء في السفر دونه وبعث إليهم حوالة بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني. وغادر جواهرلال وكامالا وبيتي وإنديرا مونتانا في الأول من شهر مايو.

ووصلوا إلى باريس في اليوم التالي حيث وجدوا فندقاً رخيص التكلفة في حدائق موتسارت. كان الوقت ربيعاً حيث الأشجار مزهرة في الشوارع، وهناك زاروا قوس النصر وكاتدرائية نوتردام وبرج إيفل ومتحف اللوفر، ولكن ما بقي حياً ينبض في ذاكرة إنديرا فيما بعد هو عدد الأشخاص المبتورة أطرافهم بعد إصابتهم أثناء الحرب العالمية الأولى؛ رأت إنديرا هؤلاء الأشخاص في الشوارع وداخل المترو حيث كانت فيه مقاعد مخصصة «لمعاقبي الحرب». وبجانب المزارات السياحية المعتادة أخذها جواهرلال إلى سجن الكونسيرج، وهو مكان بغيض شأنه شأن سجن نايني في مدينة الله آباد.<sup>27</sup> وفي إحدى الليالي خرجوا لمشاهدة مسرحية «دراكولا» المثيرة التي حظيت بشهرة كبيرة آنذاك. ولإضفاء الجو المناسب على المسرحية وُضعت عربات الإسعاف خارج المسرح، وتهيأت الممرضات بأزيائهن داخل الصالة لمعالجة الأفراد من المشاهدين الذين يفقدون وعيهم من الرعب. وأثناء العرض فُتحت الأبواب والنوافذ فجأة وطار مصاص الدماء إلى الداخل مربوطاً بأسلاك غير مرئية.<sup>28</sup>

وفي الليلة التالية ذهبوا لمشاهدة مسرحية «القديسة جوان» لجورج برنارد شو، التي لم يكن تأثيرها قوياً لكن كان عميقاً في نفس إنديرا. وبيبدو للعيان أن شخصية جان دارك من ضمن العوامل التي أثرت بشدة على إنديرا في طفولتها، وإن لم يتضح هذا الأمر إلا فيما روته إنديرا بعد توليها منصب رئيسة الوزراء. عندما كانت إنديرا طفلة كتب نهرو عن جان دارك في العديد من الخطابات التي أرسلها لها وأيضاً في كتاب «لمحات من تاريخ العالم»، في حين أن إنديرا نفسها لم تذكرها أبداً في خطاباتها الشخصية، ولا يوجد سوى نذر يسير من الأدلة المعاصرة تؤكد على أهمية قصة جان دارك لإنديرا والمثل الأعلى

الذي مثَّله لها. ففي كتاب كريشنا نهرو هوثيسينج «نحن آل نهرو» عام ١٩٦٨ الذي قصت فيه ذكرياتها العائلية، وأيضًا في كتابها عن سيرة إنديرا الذي نشر بعد ذلك بعام، مزاعم أن ابنة أخيها في طفولتها كانت تقف في شرفة آناند بهافان ممسكة بأحد الأعمدة بذراعها وترفع الذراع الأخرى في الهواء عاليًا قائلة: «أنا أمارس دور جان دارك ... وفي يوم ما سأقود شعبي إلى الحرية مثلما ... حدث بالفعل».<sup>29</sup> ولكن هذا الوصف الرومانسي لإنديرا وربطها بجان دارك الملقبة بـ «عذراء أورليانز» لم يظهر في السيرة الذاتية للعائلة التي كتبتها كريشنا ونشرت في وقت سابق وبالتحديد عام ١٩٤٦، أي قبل وقت طويل من تمتع إنديرا بمثل تلك الأهمية السياسية.

وعندما أصبحت إنديرا رئيسة للوزراء باتت متضاربة مع نفسها فيما يخص دور جان دارك في حياتها. فمن ناحية تقول: «انبهرت بجان دارك لأنها حاربت البريطانيين ولأنها فتاة، وقد جعلها ذلك أقرب إلى نفسي من الآخرين ممن قاتلوا من أجل الحرية».<sup>30</sup> وقالت لأحد كتّاب السيرة الذاتية عام ١٩٦٧ إن استشهاد جان دارك هو تحديدًا ما جذب انتباهها؛ «لقد أهدمت حرقًا على الخازوق. وكان هذا الحدث هو الأبرز حتى إنني تخيلت لنفسي مصيرًا كمصيرها».<sup>31</sup> ولكن من ناحية أخرى لم نجد لجان دارك أبدًا أي ذكر في مراسلات إنديرا أو مقابلاتها أو ذكرياتها أو خطبها خلال السنين التي سبقت توليها السلطة. وقد أخبرت إنديرا إحدى كاتبات السيرة فيما بعد — وقد كانت إنديرا دائمًا أكثر صراحة مع محاورها الإناث من المحاورين الرجال — أنها لا تتذكر أن جان دارك مثلت لها أهمية وهي طفلة، واعترفت أنها عندما كبرت ذكرها نهرو بأن هذه كانت هي الحالة،<sup>32</sup> فيبدو أن جان دارك كانت مثلًا أعلى لها في الماضي، وهي أحد المكونات الرئيسية التي ساعدت إنديرا فيما بعد في سرد الأساطير حول طفولتها وتطورها السياسي.

ومن أكثر الأحداث إثارة لإنديرا في باريس هبوط تشارلز ليندبرغ في مطار لو بورجيه في ٢١ مايو بعد عبوره المحيط الأطلسي منفردًا في رحلة استغرقت ثلاثًا وثلاثين ساعة ونصفًا في طائرته التي أطلق عليها اسم «سبيريت أوف سانت لويس» أحادية المحرك، كانت إنديرا الجالسة على كتف نهرو واحدة من الحشود الهائلة التي شاهدت هبوط ليندبرغ ثم حيَّته بحرارة عندما خرج من الطائرة. كان نهرو مفتونًا بالطيران منذ رحلة كيتي هوك التي قام بها الأخوان رايت عام ١٩٠٣، وعندما تحول لمدة قصيرة للثيوصوفية في فترة المراهقة بدأ يحلم «بالأجسام السماوية وتخيل [نفسه] يطير لمسافات طويلة»، وظل «حلم الطيران عاليًا في الهواء (دونما تطبيق أبدًا)» واحدًا من أحلامه الدائمة طوال



حياته.<sup>33</sup> إلى جانب أن جواهرلال وموتيلال، وقبل رحلة ليندبرغ عابرة الأطلسي بثمانية عشر عامًا، وقفا في برلين ضمن جموع تجاوز عددها مليون شخص لمشاهدة هبوط الكونت تسيلين في طائرته. وبعد شهرين شاهد الاثنان طيران الكونت دي لامبرت حول باريس ودورانه حول برج إيفل، ولكن كل هذه الأحداث تعتبر لا شيء مقارنة برحلة ليندبرغ البطولية التي كانت «مثل السهم اللامع حول الأطلسي».<sup>34</sup> أثارت هذه الرحلة إنديرا مثلما أثارت والدها، ومع أنها لم ترث من والدها التعلق بالطيران فإن ابنها بعد وقت طويل قد فعلا.

ومع مرور الأيام واستمرار نهرو وإنديرا في زيارة الأماكن السياحية في باريس كان الوقت الذي تجلس فيه كامالا وحيدة في الفندق يزداد، مصابة بالعديد من الأعراض القديمة التي كانت تعانيتها كالصداع و«الأزمات القلبية» — وهو الاسم الذي أطلقته على سرعة خفقان قلبها — وفقدان الشهية والإعياء والإرهاق. وأصبحت مكتئبة بشدة أيضًا. وقد تعرفنا على حالتها النفسية خلال ربيع وصيف عام ١٩٢٧ لأنها كتبت سلسلة من الخطابات التي تميزت بنوع من المصارحة الشديدة إلى سيد محمود خلال تلك المدة. لم يكن محمود صديقًا قديمًا وزميلًا عاملاً لجواهرلال في حزب المؤتمر فحسب، فقد كان يُعلم كامالا اللغة الأردية منذ مطلع عشرينيات القرن العشرين، وخلال الدروس نمت بينهما علاقة وطيدة. وبعد أن أهملها معظم الكبار في آناند بهافان وغياب زوجها معظم الوقت لجأت كامالا إلى محمود ووثقت به كما لو كان أخاها.

في أحد خطاباتها الأولى التي بعثتها من باريس إلى محمود لم تتظاهر كامالا بأنها في صحة جيدة أو بكونها سعيدة؛ إذ قالت: «إن المرض المستمر يجعل الحياة غير محتملة ... أشعر بأنني عديمة الفائدة للعالم وأنني أثقل عليه لأنني لا أفعل شيئًا غير الأكل والنوم فقط ... إنني حمل ثقيل على الجميع. كم أتمنى لو تأتي نهايتي قريبًا. إن أخاك [جواهرلال] لا يستطيع القيام بعمله بسببي».<sup>35</sup>

وفي خطاب آخر بتاريخ ٤ مايو كانت حالتها النفسية أسوأ؛ إذ جاء فيه: «إن الموت أهون عليّ من مثل هذه الحياة، ولكن حتى الموت يخشاني ... كنت أشعر بالسعادة عندما ظننت أن مرض السل الرئوي سيرحني من هذه الدنيا، ولكني لم أكن أعرف أن الموت نفسه يهابني ... وحدهم الأغنياء والأصحاء يجب أن يأتوا إلى هنا [باريس]. إنني أرى نفسي سجين هنا ... فكلهم خرجوا للتنزه، أما أنا فبقيت وحيدة بالمنزل».<sup>36</sup>

ازدادت عزلة كامالا وصمتها. وكانت هي وإنديرا في تناغم تعرف كل منهما حالة الأخرى، ومن ثم لاحظت إنديرا اكتئاب كامالا. وفي النهاية لاحظ نهرو الأمر أيضًا وقرر الرحيل إلى لندن.

وفي إنجلترا ازدادت الأمور سوءًا. فقد واجهوا صعوبة في حجز غرف بفنادق لندن، وشرحت كامالا الأمر في خطاب إلى سيد محمود قائلة: «لقد وصلنا إلى لندن في الأول من يونيو، لم تُرَفَّنِي لندن من اللحظة الأولى لوصولنا إلى المحطة. وكلما ازدادت مدة إقامتنا ازداد كرهى للمكان ... لقد كان اللون عاملاً يثير الارتياح في كل مكان. فأينما ذهبنا تجد إجابة برفض إقامة رجل أسود ... لقد ازداد كرهى للإنجليز بشدة ... فنحن هنا في كل خطوة ندرك أننا عبيد.» واستطردت كامالا قائلة إنه في سويسرا «نحن ... لم نشعر أبدًا بأننا أغراب».<sup>37</sup>

وفيما بعد ذهبوا إلى منتجع بريتون الفاخر قرب البحر ل عشرة أيام، حيث وجدوا في كل شبر شعورًا بالعداء، فعادوا إلى لندن لقضاء عدة أسابيع. اصطحب نهرو إنديرا إلى متحف التاريخ الطبيعي في مدينة ساوث كينجستون حيث رأت الحفريات والآلات التي تعود للعصر الحجري وهياكل الديناصورات الضخمة، واصطحبها إلى المتحف البريطاني حيث شاهدت المومياوات المصرية، ثم إلى مبنى البرلمان. وزاروا كريشنا مينون، وهو رجل صغير يتسم بالغربة والهزال بأنفه الذي يشبه المنقار وعينيه الغائرتين، الذي تحدث بقوة عن إنشاء منظمة للسعي خلف استقلال الهند.<sup>38</sup>

أما هناك في فندق بيركلي فكانت كامالا لا تزال على مراسلاتها مع محمود، وأحد المواضيع الملحة في هذه الخطابات ضرورة تعليم بناته وتحريرهن وزوجته من نظام الحجب الهندي. ومن الواضح أن كامالا ناقشت هذا الأمر مع محمود قبل أن تغادر مدينة الله آباد وكانت تسأله عما اتخذ من رد فعل في كل خطاب أرسلته من أوروبا تقريبًا. وعندما ظل صامتًا هددته كامالا بقولها: «لن أخبرك بأي شيء عن حالتي الصحية حتى تخبرني أنباء سارة بأن الترتيبات الخاصة بتعليم بناتك قد تمت».<sup>39</sup>

كانت مشاعر كامالا الانفعالية حول تعليم النساء شخصية وسياسية في آن واحد. فأخبرت محمود أنه من التناقض تمامًا — بل من الزيف والنفاق — أن يكرس نفسه لاستقلال الهند ثم يحرم بناته من التعليم، وقالت: «هل يمكنك أن تتخيل بلدنا حرة دون تعليم النساء؟ ... إنكم تتركوهن يتعفن في ظل نظام الحجب و... وتغلقون عقولهن».<sup>40</sup> وأدانت سلوك محمود من الناحية الأخلاقية إذ استطردت: «هل واجبك أن تأتي ببنات

إلى الدنيا ثم تتركهن وحيدات مثل الحيوانات؟ في رأيي جميعكم [أيها الرجال] شديدو الإثم». وتابعت مهددة: «وسياأتي الوقت الذي فيه تُحرر المرأة [و] يبقون عليكم أنتم في الحجب».<sup>41</sup>

إن المفارقة في النقاش الدائر بين كامالا ومحمود تتجلى في حقيقة أن محمودًا هو معلم كامالا، ومن ثم فإنه يعد محررها بدرجة ما، مفارقة أدركتها كامالا وأوضحتها له. وفي رجائها له حتى يعلم بناته أوضحت كامالا كيف أن نقص تعليمها أفسد حياتها. واستطردت قائلة له: «عندما أنظر إلى مأساتي أعتقد أنه يجب إنقاذ الفتيات الصغار من مأساة تبديد حياتهن، مثلي ... لقد تحطمت حياتي بكل ما في الكلمة من معانٍ ... وأكثر ما يدعوا للأسف أنني أنا نفسي لست بالقدر الكافي من الذكاء الذي يؤهلني لتعليم الآخرين. لا بد أن أكبت شغفي تجاه الأشياء».<sup>42</sup>

كانت مناقشة كامالا مع محمود مشحونة بشعورها الشخصي بالندم والتفاهة. وكان هذا هو السبب في مخاوفها المستمرة بشأن تعليم إنديرا. فقد قالت في أحد خطاباتها لمحمود: «عند عودتنا [إلى الهند] ستواجه إندو الكثير من الصعوبات لأنه لا توجد مدرسة تعجبني في مدينة الله آباد».<sup>43</sup> ومن ثم كان العزاء الأكبر لكامالا في كونها في أوروبا هو شعورها أن إنديرا أخيرًا تحظى بالتعليم المناسب.

ومع أن إنديرا نفسها كانت دائمًا تنكر فيما بعد أنها من أنصار المساواة التامة بين الجنسين، فقد تأثرت كثيرًا بهذا الاتجاه في والدتها. فقد أدركت كيف كان هذا الاتجاه جزءًا لا يتجزأ من ارتباط كامالا السياسي بحزب السواراج وكيف شكّل الطريقة التي ربت بها ابنتها، من حيث إصرارها على أن تكون إنديرا إنسانة مستقلة منذ نعومة أظافرها، وأن تكون لها كل الفرص والتوقعات والمتطلبات التي كان من الممكن أن يحظى بها طفل ذكر. غير أن كامالا كانت تمثل صوتًا منفردًا سواء أكان هذا في الهند أم في عائلتها. فقد كانت حماتها سواروب راني وأخت حماتها الأرملة بيبي أما نموذجين بدائين للسيدات الهنود التقليديات، مع أن كونهن كشميريات جعلهن لا يخضعن لنظام الحريم الذي يعزل النساء عن الرجال الغرباء. أما نان بانديت وبيتي فقد كانتا متفرنجتين ولكنهما لم تطالبا بالمساواة بين الجنسين إلا فيما ندر. ولم تنالا تعليمًا متميزًا. حيث كان موتيلال نهرو، عندما كانت بناته يتعرعن في العقد الأول من القرن، أبًا متشبعًا بالأفكار التقليدية التي حطت من مكانة المرأة وسادت عصر الملك إدوارد السابع، ومع أنه أنفق الكثير من المال على جواهرلال في هارو وكمبردج فإنه لم يكن يرى أي فائدة من إرسال نان وبيتي

إلى المدرسة. وحتى بعد بداية حركة عدم التعاون ونداء غاندي لنساء الهند بالقيام بدور نشط قاوم موتيلال رغبة بيتي في أن تتدرب لتصبح معلمة حتى تدخل جواهرلال نيابة عنها.

ومن إنجلترا انتقلت عائلة نهرو إلى برلين وهايدلبرج في بداية شهر يوليو، وهذا كان مبعثاً لسعادة كامالا حيث كتبت لمحمود: «جميع الأماكن محبة لقلبي أكثر من لندن.»<sup>44</sup> ثم أرسلت إنديرا وحدها لمعسكر صيفي للأطفال في بلدية آنيسي بفرنسا، قرب الحدود السويسرية، وعادت كامالا وجواهرلال إلى باريس. وفي أغسطس عادوا إلى لندن مما أثار امتعاض كامالا، حيث كتبت إلى محمود في يوم ٢٠ أغسطس تقول: «جواهر ... ذاهب إلى آنيسي لرؤية إندو ... لقد كتب لنا صديق يخبرنا أنها تبدو أفضل بكثير. أتمنى أن يسمن جسدها قليلاً. فهي نحيفة للغاية. يبدو أنها سعيدة هناك. سيأتي باباجي [موتيلال] إلى هنا في سبتمبر.»<sup>45</sup>

قبل أن يصل موتيلال في النهاية في بداية سبتمبر ١٩٢٧ كانت إنديرا قد عادت إلى المدرسة في بيكس، وبقيت هناك في حين تقوم كامالا وجواهرلال وبيتتي وموتيلال في ذلك الوقت برحلة في العواصم الأوروبية التي خطط لها موتيلال، حيث يقضون وقتهم في فنادق الدرجة الأولى (التي كانت معارضتها لإقامة الهنود أقل — ما داموا أثرياء — عكس تلك الفنادق الرخيصة التي اختارها جواهرلال) وزيارة المزيد من الأطباء المتخصصين. وفي بداية نوفمبر ١٩٢٧ ذهبت عائلة نهرو إلى موسكو للاحتفال بالذكرى العاشرة لقيام الثورة الروسية. ومن هناك بعث نهرو في العاشر من نوفمبر بطاقة بريدية إلى إنديرا في بيكس قائلاً: «نحن الآن في موسكو في روسيا. سأتي إليك قريباً. أتمنى أن تكوني بخير. مع حبي، أبوك.»<sup>46</sup>

كان وعد نهرو باستعادة إنديرا هو سبب قراره النهائي بالعودة إلى الهند بعد سنة وتسعة شهور بالخارج. كان موتيلال يرغب في البقاء لوقت أطول وقال إنه سيبقى في أوروبا عدة أشهر بعد رحيل جواهرلال وكامالا وإنديرا وبيتتي في مطلع ديسمبر. لم تكن كامالا قد شُفيت تماماً، ولكن مرض السل الرئوي الذي أتى بهم في المقام الأول إلى أوروبا كان خاملاً. وجواهرلال نفسه حسب وصفه «في حالة بدنية وذهنية جيدة».<sup>47</sup> وفي حقيقة الأمر كان الوقت الذي قضاه بالخارج حاسماً له أكثر مما كان لزوجته. فقد صاغ للأبد فكره الثقافي والسياسي؛ فكّون علاقات مهمة مع مفكرين وقادة سياسيين أوروبيين شاركوا في ميلاد الرابطة المناهضة للإمبريالية، وكان شاهداً على الشيوعية في عقر دارها

في روسيا. ومن ثم أسهم كل هذا في إعادة شحن عقله بل تجديده، وبات يتوق للعودة إلى المعتكف السياسي في الهند.

تُرى ماذا عن إنديرا — التي أصبحت في العاشرة من عمرها حينما كان والداها وعمتها وجدها في روسيا — كيف تغيرت؟ لقد زاد طولها عدة سنتيمترات، حقًا لقد كادت أن تلحق بكامالا سريعًا. وامتلات قليلًا أيضًا وأصبح جسدها قويًا بفعل ممارستها للركض والتزلج. وفي ذلك الحين باتت تتحدث الفرنسية بطلاقة، وتقدم مستواها في اللغة الألمانية. وقد راقّت لإنديرا ما تعرضت له من ثقافة أجنبية ومشاهد طبيعية خارجية. وأصبحت معتمدة على نفسها وصلبة على نحو ملحوظ نتيجة حياتها بعيدًا عن والديها وسفرها وحدها.

في حقيقة الأمر لم تكن إنديرا طفلة صغيرة عندما أبحروا من مرسيليا في ٢ ديسمبر ١٩٢٧. وخلال حياتها كانت إنديرا تشعر دائمًا أنها تبلغ العمر المناسب في الوقت المناسب، فمحنى عمرها يرتبط بمسيرة التاريخ على نحو ما. والآن في ١٩٢٧، في عمر العاشرة، كانت إنديرا تغادر محطة الطفولة مثلما كان النضال السياسي في الهند يحقق أهدافه نوعًا ما.



## الفصل الرابع

# الولد إندو

وصلت عائلة نهرو إلى جنوب الهند يوم عيد الميلاد المجيد عام ١٩٢٧، بالضبط وقت الاجتماع السنوي لحزب المؤتمر في ذلك العام الذي عُقد في مدينة مدراس. وفي ٢٧ ديسمبر، كانت إنديرا وكامالا يجلسان وسط الجماهير المحتشدة عندما صعد نهرو على المنصة لإلقاء كلمته، وأعلن للمرة الأولى في تاريخ حزب المؤتمر القومي الهندي منذ تأسيسه عام ١٨٨٥ أن «حزب المؤتمر يعلن أن هدف الهنود هو الاستقلال الوطني التام»<sup>١</sup> ومع أن نهرو تحدث بلكنته الإنجليزية الصحيحة وبلهجة حادة، غير أن كلماته كانت بمنزلة صيحة الحرب، ولم يلق كلمته باللغة الهندية إذ كانت مدراس تقع في الجزء الجنوبي الذي يتحدث اللغة التاميلية.

ولم تكن صيحة الحرب هذه موجهة ضد البريطانيين وحدهم. فقد رفض موتيلال نهرو وغاندي تبني وجهة النظر المناهية بقطع كل ما يربط الهند ببريطانيا دون شروط إذ أرادا الاستقلال عن طريق تحويل الهند إلى دولة تتمتع بالحكم الذاتي مع بقائها تابعة للإمبراطورية البريطانية.<sup>٢</sup> أما نهرو — الذي أصبحت رؤيته السياسية أكثر تطرفًا في أوروبا — فقد كان يريد التخلص من كل الصلات الاستعمارية. ومن ثم أصدر قراره المطالب بالاستقلال التام، مع أن هذا القرار لم يلبث سريعًا إلا وقد عُدل وخُفّف ليصبح نوعًا من أنواع «الزيف» على حد وصفه. ومع هذا فقد كانت اللعبة قد بدأت، ليس على مستوى الكفاح بين بريطانيا والهند فقط، بل داخل الرتب الخاصة بحزب المؤتمر، وما هو أهم لإنديرا داخل أسرتها.

عادت إلى جنوب الهند (المنطقة الاستوائية تحديدًا). وحتى في ديسمبر كانت مدراس حارة الجو. فالشمس حارقة فوقهم، والنخيل والنباتات المورقة تحيط بالمدينة، والأبقار والكلاب الهزيلة تتجول في الشوارع. بعد انتهاء اجتماع حزب المؤتمر استقلت إنديرا

وكامالا وجواهرلال قطارًا قطع طريقه باتجاه الشمال عبر المحور المركزي لشبه القارة إلى دلهي، ثم إلى الغرب في الطريق المألوف إلى مدينة الله آباد الذي لم يكونوا قد رأوه منذ عامين تقريبًا.

وإذا عدنا إلى آناند بهافان نجد إنديرا تحتاج الذهاب إلى المدرسة وترغب في ذلك، ومع رفض نهرو لبريطانيا في دورة حزب المؤتمر فقد وافق على إرسالها إلى مدرسة دير سانت ماري، وهي إحدى المدارس التابعة لمؤسسة العذراء مريم المباركة؛ أنشأ هذه المدرسة في الله آباد البريطانيون عام ١٨٦٦. وتكوّنت من عدة مباني مهيبة مبنية بالطوب الأحمر، أقيمت المدرسة وسط أكواخ المستعمرين البيض في الحي المخصص لسكنى البريطانيين والمميز بشوارعه الفسيحة التي تصطف على جانبيها الأشجار، وتكوّنت هيئة التدريس بالمدرسة من راهبات بريطانيات وألمانيات. وكان معظم الطلبة من البريطانيين، أو الإنجليز الذين ولدوا في الهند مع قلة من الفتيات الهنود الأثرياء.<sup>3</sup>

ولعل كامالا قد تغلبت على أسباب معارضة زوجها لسانت ماري باستخدام الحجة نفسها التي استخدمتها مع سيد محمود، وهي أن الكفاح في سبيل الاستقلال لا فائدة منه إذا ظلت نساء الهند في جهل أو لا يتلقين تعليمًا جيدًا. وفي هذه المرة لم تناقش هي أو نهرو فكرة أن أفضل تعليم يمكن الحصول عليه هو تعليم غربي بريطاني. وكان نهرو نفسه يعلم بالطبع أن جميع قادة الحركة القومية تقريبًا — غاندي، وفالابهايا باتيل، وراجيندرا براساد، ومحمد علي جناح بالإضافة إليه هو — كانوا خريجي جامعتي أكسفورد وكمبرج أو الهيئات القانونية الأربع في لندن التي يجب على أي محامي مرافعات في بريطانيا وويلز أن ينتمي إلى إحداها، وهي إنر تيمبل وميدل تيمبل وجراي إن ولينكولن إن.

ولكن الذهاب إلى مدرسة غربية في الغرب أمر، والذهاب إلى مدرسة غربية في الهند أمر آخر يختلف تمام الاختلاف. وبعودتها إلى الوطن تخلت إنديرا عن زيتها السويسري وعادت إلى ارتداء الخادي الخشن، وفي يومها الأول في المدرسة اكتشفت أنها الوحيدة التي ترتديه. وقصت كامالا شعرها وتخلصت من مشبك الشعر. أما الفتيات الهنديات الأخريات القليلات فقد كنَّ من أسر متفرجة تدعم الحكم البريطاني في الهند. ومن ثم أعلنت ملابس إنديرا على الفور أنها من أسرة تتبع سياسة متطرفة. لم تشك إنديرا حالها لوالديها ولكنها بعد سنوات تحدثت عن شعورها «بغربة شديدة» في مدرسة سانت ماري.<sup>4</sup>



لم تكن الراهبات البريطانيات والألمانيات في سانت ماري يعرفن الكثير عن الهند أو عن كيفية حياة الهنود وعاداتهم. فعقب مهرجان الهولي — حيث تكون وجوه وأجساد جميع الهنود ملطخة بالمياه والمساحيق الملونة — كنَّ يُجبرن إنديرا على الوقوف على مقعد طوال اليوم لأنها لم تستطع إزالة ألوان الهولي صعبة الإزالة من وجهها ويديها.

كانت هذه المواقف هي ما تذكرته إنديرا عن مدرسة سانت ماري؛ إذ لم يكن لديها ما تقوله عن دراستها بها باستثناء أنها «كانت تبدو بعيدة كل البعد عن الحياة التي نعيشها في المنزل مما جعلني لست في حالة تسمح لي بتقبل أي شيء ... لقد ... كان يبدو أن ما يحاولون تعليمي إياه لا علاقة له بأي شيء في الحياة».<sup>5</sup> وزاد من شعورها باللامبالاة فترات غيابها الطويلة عن المدرسة كأن تتغيب لأنها ذهبت إلى موسوري في التلال وقت الصيف أو لأنها سافرت مع أسرته، وهو نموذج لفترات دراسية مشتتة شجعت إنديرا على ما أطلقت عليه فيما بعد اسم «الازدراء الصحيح أو الخاطئ للامتحانات ... فلم أكن حقاً أكثر أهدأ هل أجتاز الامتحانات بنجاح أم لا».<sup>6</sup>

وكان جدها يشجّع هذه اللامبالاة. وقد عاد موتيلال نهرو إلى الله أباد في فبراير عام ١٩٢٨، محملاً بالأثاث واللوازم الأوروبية لأناند بهافان الجديد الذي كان لا يزال تحت الإنشاء. وموتيلال هو من أصر على أن تذهب إنديرا إلى موسوري فور حلول فصل الصيف أو أن تسافر مع والديها بصرف النظر عن الدروس أو الامتحانات القادمة. ومع أنه كان يدفع مصاريف سانت ماري المكلفة خلال العامين اللذين قضتهما إنديرا هناك فقد كان عدم اكترائه بدراستها يعادل اهتمام جواهرلال وكامالا الشديد بها.

قد تكون الحياة في آناند بهافان عام ١٩٢٨ مختلفة عنها في سانت ماري، ولكنها كانت أقل تقشفًا بكثير عما كانت عليه خلال الأيام المبكرة لحركة عدم التعاون. ففي أوروبا تجدد ولع موتيلال بالملذات وبدأت الأساليب الغربية للزحف مرة أخرى على آناند بهافان برغم اعتراضات جواهرلال. فعندما عاد موتيلال من أوروبا رجع لعاداته في شرب الويسكي الاسكتلندي من نوع «هاي ديمبل» برغم تحريم حزب المؤتمر لشرب الكحول. وكان يدخن كميات كبيرة من السجائر المصرية والتركية. أما وجبات سواروب راني النباتية فلم تعد تُرى إلا في مطبخها وحجرة طعامها. وفيما يخص موتيلال فقد كان يتناول الطعام الأوروبي، الذي يعده طاهٍ مسيحي من ولاية جوا الهندية، ومع إلحاح جواهرلال قلّت أصناف الطعام من خمس أصناف إلى ثلاثٍ في الوجبة الواحدة.<sup>7</sup>

كان موتيلال يعمل طوال اليوم إما في مكتبه أو على منضدة في الشرفة، مع استراحات قصيرة لتناول طعام الغداء أو احتساء الشاي. وفي نهاية النهار يصطحب إنديرا ويسيران

معاً عبر المروج لتفقد قصر آناند بهافان الجديد، والحديقة المنمقة التي يخطط لأن تحيط بالقصر بأكمله. ثم يعود إلى مكتبه ويظل فيه حتى الساعة الثامنة والنصف أو التاسعة مساءً، بالضبط في الوقت الذي تخلد فيه إنديرا للنوم في فراش الحجرة المجاورة لحجرة والدتها. ويمكنها أن تسمع صوت موتيلال وهو يصيح عاليًا «يا خادم» لينادي خادمه بهولا، وهي صيحة تسمعها إنديرا أيضًا من ابن عمها بريج كومار نهرو في غرفته عندما يكون جائعًا بشدة. فقد كان بريجو (كما كانت الأسرة تدعوه) البالغ من العمر تسعة عشر عامًا في ذلك الوقت طالبًا في جامعة الله آباد ويعيش في آناند بهافان. وكانت صيحة موتيلال «يا خادم» إيدانًا بظهور زجاجة الويسكي، وكان المحامون والقضاة والعاملون بحزب المؤتمر والضابط المفوض من جانب وزارة المستعمرات البريطانية يحضرون جميعًا للمشاركة في احتساء الويسكي الاسكتلندي. كانت إنديرا، التي تتناول طعامها مع والدتها في غرفة والدتها، نائمة غالبًا بحلول الوقت الذي يكون فيه موتيلال والدتها، إذا كان بالمنزل، وبريجو وأي من الضيوف الموجودين في ذلك الوقت جالسون لتناول العشاء في غرفة الطعام.<sup>8</sup>

وفي فبراير ١٩٢٨، في الشهر نفسه الذي عاد فيه موتيلال من أوروبا، وصلت إلى بومباي لجنة سيمون التي يرأسها السير «جون سيمون»، والتي شملت ضمن أعضائها «كليمنت آتلي» عضو البرلمان عن حزب العمال. كانت المهمة الظاهرية لهذه اللجنة التخطيط لوضع إصلاحات دستورية لتعزيز قانون الحكومة الهندية الصادر عام ١٩١٩، ولكن في حقيقة الأمر، وحسب وصف أحد المؤرخين، فقد أتت لجنة سيمون إلى الهند «بهدف تشجيع الركود».<sup>9</sup> وللمرة الثانية تفشل الحكومة البريطانية في فهم الرأي العام الهندي الذي أثار غضبه عدم وجود عضو هندي واحد في اللجنة. فقبول الحزب المكون من السبعة الأعضاء في أثناء تجواله في البلاد بالإضراب والمظاهرات الغاضبة التي ردد أصحابها شعار «ارحل يا سيمون». قاد نهرو أحد هذه المظاهرات في مدينة الله آباد وأخرى في لكانا حيث ضرب بهراوات الشرطة المدربة جيدًا على استخدامها فتركته — وآخرين — مثخنين «بالجراح المحاطة بالكدمات وآثار الضرب». كان هذا الضرب بمنزلة نقطة التحول أو جواز المرور، تمامًا مثلما كان دخول السجن في بداية العشرينيات. لكن ما أزعج نهرو أكثر من آلامه وكدماته كانت وجوه الشرطة الإنجليزية «الملبئة بالكراهية والشهوة لإراقة الدماء، إلى حد الجنون تقريبًا».<sup>10</sup>

دفعت طريقة لجنة سيمون المستبدة فيما يخص مستقبل الدستور الهندي حزب المؤتمر لتشكيل لجنة عملت على إصدار دستور هندي بدلًا من ذلك الدستور البريطاني

المفروض. عُين موتيلال نهرو رئيساً لهذه اللجنة التي اختلف أعضاؤها من مسلمين وهندوس وسيخ وليبراليين واشتراكيين، وعُين جواهرلال أميناً عاماً لها. وبعد عدة أشهر من النقاش والنزاع المحتدم أصدرت اللجنة وثيقة عُرفت باسم «تقرير نهرو». ولم تكن هذه الوثيقة من بنات أفكار جواهرلال بل من بنات أفكار موتيلال؛ فقد كانت تتناقض تماماً مع قرار الاستقلال الذي أعلنه شقيقه الأصغر في مدراس، وأعلنت أن الهدف السياسي هو أن تنعم الهند بالحكم الذاتي، وفي الوقت نفسه تدين بالولاء للإمبراطورية البريطانية.

ما عناه كل هذا لإنديرا هو أن والدها وجدّها مشغولان وبعيدان خلال ربيع ١٩٢٨، ويعني وجود توتر لم يسبق له مثيل في المنزل. ويصف بريج كومار نهرو الموقف في ذلك الحين بقوله: «أصبحت الاختلافات بين الأب والابن الآن عميقة».<sup>11</sup> وأصبحت أوقات تناول الطعام تتسم بالتوتر الشديد. وكان جواهرلال يحاول تجنب النقاشات السياسية على المائدة. ولكن الجو كان لا يزال مشحوناً. وأثناء تناول العشاء ذات مساء ألقى موتيلال بعضاً من مقاطع شعر فارسي على مسامع ضيوفه وطلب من ابنه ترجمتها. رفض جواهرلال ولكن موتيلال أصر. في النهاية تمت جواهرلال في صعوبة بترجمة غير دقيقة، فعنّفه موتيلال على عدم معرفة الفرق بين كلمتين فارسيّتين متشابهتين في النطق، فرد عليه جواهرلال بقوله: «إنني على الأقل أعرف الفرق بين الدولة التي تنعم بالاستقلال التام والدولة التي تنعم بالحكم الذاتي ولكنها تدين بالولاء للإمبراطورية البريطانية!» عندئذٍ استشاط موتيلال غضباً وهب واقفاً ثم قلب مائدة الطعام بكل ما عليها على الأرض.<sup>12</sup>

لم تحضر كامالا وإنديرا هذا الموقف، ولكنهما شهدا مواقف أخرى. أما كامالا فهذا وقت خرج لسبب آخر أيضاً. فهي تحمل طفلاً للمرة الثالثة وتريد الطفل بشدة. ومما زاد من حزنها أنها فقدت الطفل في الشهر الثالث من الحمل في آخر ربيع ١٩٢٨. وفور إجرائها عملية الإجهاض أصيبت كامالا بآلام شديدة في معدتها استدعت خضوعها لجراحة لاستئصال الزائدة الدودية،<sup>13</sup> وعندما عادت من المستشفى إلى المنزل بعد العملية سيطرت عليها مشاعر الاكتئاب والمرض. وبعث غاندي بنصيحته الطبية الشخصية لنهرو من صومعته في سابارماتي؛ إذ قال: «ثقتي معدومة في تقارير الأطباء عن كامالا ... وأتمنى أن تفكر أنت ووالدك وكامالا في أن تتلقى كامالا علاجاً طبيعياً، أقصد أن تتعرض لحمامات كوهني وحمامات شمس. لقد أصبحت حمامات الشمس الآن رائجة حتى ضمن المهن الطبية، ويقال إنها تحقق نتائج مذهلة».<sup>14</sup>

ظلت كامالا في حجرتها حيث كانت إنديرا تقضي معظم وقتها قبل المدرسة وبعدها. وأصبح بريج كومار نهرو الزائر المنتظم الوحيد لها. صُدم بريج كومار من الطريقة التي تجاهل بها باقي المنزل كامالا، والتي بدا منها عدم اهتمامهم بحالتها النفسية والبدنية المتدهورة.<sup>15</sup> عندما أصبح الجو أكثر دفئاً نُقل سرير كامالا إلى الشرفة خارج حجرتها، حيث كانت تستلقي فاترة الهمة طوال اليوم. وكان بريج كومار يعود إلى المنزل من محاضراته بعد الظهر ويصعد إلى حجرتها، ويقرأ لها ولإنديرا مقتطفات من أعمال الأديب الروسي إيفان تورجينيف. وتقول ابنة أخت زوج كامالا — ابنة نان بانديت — إنها تتذكر كيف كانت كامالا تستلقي على ظهرها في الشرفة، دائماً برداء أبيض صامته وتحوم إنديرا حول جسدها الهزيل حامية له.<sup>16</sup>

وفي مايو عندما ارتفعت درجة حرارتها ذهبت كامالا وإنديرا والنساء الأخريات في العائلة — سواروب راني، وببيي أما، وبيتي، ونان بانديت وطفلتها الصغيرة تشاندراليخا — مع زوج نان، رانجيت بانديت، إلى موسوري. وهناك اتخذوا جناحاً في مقرهم الصيفي الرئيسي، في فندق سافوي، ومنه كتبت إنديرا لوالدها في ١٦ مايو:

### أبي الحبيب،

وصلنا هنا الساعة الثانية عشرة، وسافرنا بالقطار حتى ديهرادون، ونزلنا في ديهرادون وذهبنا في عربة ... ثم امتطى زوج عمتي [رانجيت بانديت] وعمتي [نان بانديت] الخيل وركبت أنا وأمي وتشاندراليخا على مقعد يجره أربعة من الحمالين. كنت أود ركوب الخيل كثيراً ولكن عمتي قالت إنه من الأفضل ألا أفعل لأنني لم يكن معي ثياب مناسبة لركوب الخيل. لقد انتهيت تَوّاً من تناول غدائي. كيف حالك؟ ... اكتب إلي قريباً، وأخبرني متى ستأتي.

مع الحب من ابنتك، إندو<sup>17</sup>

ولكن جواهرلال كان مشغولاً للغاية في عمل لجنة نهرو. ولأنه لم يستطع زيارة إنديرا في موسوري فقد حاول أن يحافظ على الصداقة الحميمة التي كانا قد أنشأها في أوروبا عن طريق الرسائل. وفي أثناء صيف ١٩٢٨، حين كان جواهرلال يتبادل النقاشات مع موتيلال وباقي أعضاء لجنة نهرو، كان يظل ساهراً حتى وقت متأخر من الليل ويكتب

سلسلة من الرسائل الطويلة لإنديرا نُشرت بعد عامين في كتاب صغير حمل اسم «رسائل أب إلى ابنته».<sup>18</sup> كانت هذه الرسائل التي كُتبت على هيئة فصول تهدف لأن تصحح لإنديرا أفكار التعليم البريطاني الذي كانت تتلقاه في مدرسة سانت ماري. في الفصل الأول من الكتاب، الذي جاء تحت عنوان «كتاب الطبيعة» كتب:

«من عاداتك حينما نكون معاً أن تسأليني أسئلة كثيرة عن موضوعات شتى أحاول الإجابة عليها. والآن أنت في موسوري وأنا في الله آباد، لا أستطيع أن أحدثك أو تحدثيني. لذلك سأكتب إليك ... رسائل قصيرة أقص عليك فيها قصة كرتنا الأرضية، وقصة البلدان التي انقسمت إليها سواء أكانت هذه البلدان كبيرة أم صغيرة. لقد قرأت القليل عن التاريخ الإنجليزي والتاريخ الهندي. لكن إنجلترا ليست إلا جزيرة صغيرة، والهند، مع أنها دولة كبيرة، ما هي إلا جزء صغير من سطح الأرض. فإذا كنا نريد أن نعرف شيئاً عن قصة هذا العالم الذي نعيشه علينا أن نفكر في جميع الدول وجميع الشعوب التي سكنته، ليس فقط في دولة صغيرة منفردة ... أنا ... أستطيع ... أن أخبرك في هذه الرسائل عن القليل [فقط] ... ولكن هذا القليل، على ما أتمنى، سيثير اهتمامك وسيجعلك تفكرين في العالم ككل، وفي الشعوب الأخرى كإخوة وأخوات لك.»<sup>19</sup>

في رسائله بدأ نهرو بأصل الأرض منذ كونها شظية محترقة من الشمس في بداية الخليقة. ثم تطرق إلى تطور الكائنات الحية، وظهور الإنسان العاقل، والعصور الجليدية والحجرية والحديدية، والأجناس المختلفة، واللغات والحضارات. ولم يكن يقتصر الأمر على المعلومات، فقد أراد نهرو أن يوصل رؤية معينة. وعندما تعلق الأمر بمناقشة الدين قال نهرو: «في البداية جاء الأمر على صورة الخوف وكل ما يتم بسبب الخوف هو شيء سيئ ... فنحن نرى اليوم أن الشعوب يحارب بعضها بعضاً ويهشم بعضها رءوس بعض باسم الدين. و... الكثير من الناس ... يقضون أوقاتهم في محاولة إرضاء كائنات خيالية عن طريق تقديم الهدايا في المعابد و... الأضاحي من الحيوانات.»<sup>20</sup> وفي مناقشته الأشكال المختلفة من الحكومات والملوك والثورات، يقول: «لا يزال لدينا في الهند الكثير من الملوك والأمراء والحكام (الذين يطلق عليهم بالترتيب اسم الراجا والمهراجا والنواب). ترينهم يجولون بأرديتهم الفخمة في عرباتهم الثمينة وينفقون الكثير من الأموال على أنفسهم ... يعيشون هم في ترف وتموت شعوبهم التي تكدح وتعطيهم المال من الجوع،

ولا يجد أطفالهم المدارس ليذهبوا إليها»<sup>21</sup> ويستمر جواهرلال في مناقشة النظام الطبقي، ويشجب استغلال الطبقات العليا والنبلاء للفلاحين والعمال. وبعيداً عن الأمثلة الأخلاقية والسياسية التي تُشكّل جوهر الرسائل نجد موضوع الحفريات موضوعاً رئيسياً يُذكر على نحو متصل. فيُذكرُ نهرو إنديرا بالحفريات التي رآوها معاً في متحف جنيف وفي متحف التاريخ الطبيعي في لندن، وأيضاً الحفريات الجميلة لآثار نبات السرخس ونباتات أخرى وجدوها في أثناء تنزههما في الهند. شجعت المعاني الضمنية المفهومة من بين سطور هذه الرسائل إنديرا على النظر إلى ما وراء الكفاح السياسي الذي يعيشونه، للحصول على أكبر قدر من المشاهدة للوقت والحياة على كوكب الأرض.

بقي نهرو نفسه متورطاً في الأحوال السياسية في الله آباد. وبعد عودة إنديرا وكامالا والآخرين من موسوري كانت الأزمة بينه وبين موتيلال والعناصر المختلفة في حزب المؤتمر — من متطرفين ومحافظين ومحليين — قد وصلت إلى ذروتها في الجلسة السنوية للجنة حزب المؤتمر لعموم الهند التي كان انعقادها في كلكتا في ديسمبر ١٩٢٨.

سافرت الأسرة بأكملها بالقطار إلى كلكتا، فريق كبير من الأفراد وفيهم ناينتارا، المولود الجديد لنان بانديت. انتخب موتيلال رئيساً لحزب المؤتمر وعومل هو وحاشيته كالملوك.<sup>22</sup> وفي كلكتا أقامت الأسرة في قصر مزين بالبيارق والأزهار والأعلام الوطنية، يحرسه متطوعون من حزب المؤتمر ممتطين خيولهم. وأثناء توجههم لحضور الجلسة الافتتاحية لاجتماع حزب المؤتمر استقل موتيلال وجواهرلال وكامالا وإنديرا عربة يجرها أربعة وثلاثون حصاناً أبيض وخلفهم المتطوعون من حزب المؤتمر على ظهور الجياد، بالإضافة إلى النساء اللاتي كن يمشين في الموكب مرتديات ساري لونه أخضر طرفه أحمر ومصنوع من قماش الخادي، ووحدة طبية، وفي النهاية أسطول من سائقي الدراجات النارية يقودهم الزعيم البنغالي المتطرف في حزب المؤتمر سوباس تشاندرا بوس.<sup>23</sup>

وكان أحد مشاهدي هذا الموكب المهيب طفلاً في الثامنة من عمره يدعى سيدهارتا شانكار راي، وهو حفيد شيتارانجان داس صديق موتيلال القديم، ورفيقه في حزب السوراج الذي كان قد توفي في ذلك الوقت. في مؤتمر كلكتا عام ١٩٢٨ كان سيدهارتا وأطفال مندوبي حزب المؤتمر وأحفادهم الآخرون يريدون الاشتراك، ولهذا نظّم مائة منهم أو نحو هذا العدد أنفسهم لعمل رايات حمراء كبيرة مكتوب عليها شعارات باللون الأبيض تقول «يعيش المهاتما غاندي» و«النصر لحزب المؤتمر». وفي الاجتماع الثاني أو

الثالث لمجموعة الأطفال أعلن أن إنديرا نهرو أوشكت على الوصول. كان الأطفال يتوقون لرؤية كيف تبدو حفيدة وابنة بطليهما موتيلال وجواهرلال نهرو، وصلت إنديرا بردياتها الخادي الأبيض الفضفاض. وأصابتهم خيبة أمل كبيرة؛ إنها ضعيفة وضئيلة للغاية. ولكن بعد أيام عدة انتشرت شائعة بأن إنديرا قد أكلت في إفطارها ست ثمرات موز، وكان لهذا أبلغ الأثر في تحسين صورتها.<sup>24</sup>

في ٢٧ ديسمبر ١٩٢٨، أي بعد سنة من اليوم الذي أعلن فيه نهرو قرار الاستقلال في مدراس، اقترح غاندي في جلسة مغلقة في كلكتا أن يُطبق تقرير نهرو — وفي ذلك ما يتضمنه من دعم لمسألة أن تنعم الهند بالحكم الذاتي وتدين في الوقت نفسه بالولاء للإمبراطورية البريطانية — إذا وافق البريطانيون على التقرير ونفذوا ما فيه من مطالب خلال عامين. أما جواهرلال فقد رفض بشدة هذه المسألة التي وصفها بأنها «فعل أحرق وخاطيء» يُدعى لما تريده «سيكولوجيا الإمبريالية». تلت هذا جلسة طارئة استمرت طوال الليل، وفي اليوم التالي قلل غاندي حد الوقت المسموح للندين من عامين إلى عام واحد. كان نهرو لا يزال يشعر بضيق مرير وكذلك كان حليفه سوباس تشاندرا بوس. ولكنه رضخ في النهاية. وبدلاً من التصويت لمصلحة رغبة غاندي أو ضدها، تعمد جواهرلال الغياب في هذه الجلسة. ونُفذ اقتراح غاندي بموافقة ١١٨ صوتاً في حين عارضه ٤٥ صوتاً.

وكشفت ذروة النزاع بين هؤلاء المؤيدين للاستقلال التام وأولئك المفضلين للحكم الذاتي تحت السيطرة البريطانية — وهو الصراع الذي هدد بانشقاق حزب المؤتمر وعائلة نهرو — عن صفات مهمة في نهرو؛ وقد وصف أحد كتاب سيرته هذا الأمر بقوله: «تردده عندما قوبل بوجوب الاختيار بين خيارين أحلاهما مر؛ فإما إخلاصه لغاندي ولوالده على حساب الرجوع عن مبادئه، وإما اقتناعه العميق بأن وحدة الحزب لها الأولوية السياسية العليا».<sup>25</sup> ومع ذلك فلم يكن نهرو عندئذٍ قد توصل إلى حل وسط بين هذين الخيارين. ولم يرد في ذهن أحد — سواء جواهرلال أو موتيلال أو غاندي — احتمال بأن البريطانيين سيوافقون على تقرير نهرو ويمنحون الهنود الحكم الذاتي تحت السيطرة البريطانية خلال سنة أو اثنتين أو حتى خمس سنوات. ونص قرار غاندي أن العصيان المدني سيُعاد تنشيطه إذا لم يفعل البريطانيون. ومن ثم علم جواهرلال أن السنة القادمة ستكون سنة تجهيزية لتجديد ضخ الحركة الوطنية.

ومن هنا أصبح عام ١٩٢٩ قنبلة موقوتة تدق بانتظام كل يوم في السنة الواحدة المحددة للبريطانيين. كانت هذه شهوراً محمومة لنهرو يتم فيها إعداد حزب المؤتمر

لاتخاذ فعل مباشر. فجال البلاد معظم الوقت، ولم يكن في المنزل عندما انتقلت الأسرة إلى آناند بهافان الجديد المكتمل في الربيع. وبرغم اعتراضات سواروب راني وبيبي أما رفض موتيلال القيام بأداء شعائر «البوجا» التقليدية. كان آناند بهافان الجديد أصغر حجماً من القصر الأصلي، ولكنه كان لا يزال متسعاً، بل يحتوي على مظاهر أكبر للترف في بعض الأمور؛ حيث إنه كان مزيناً بأشياء أحضرها موتيلال معه من أوروبا؛ مقابض أبواب من البورسلين، ومصابيح نحاسية، وحمامات، ومراحيض، وشطاف [بيديه] (يشاع أنه أول شطاف في الهند). وهناك سلالم حلزونية مزينة تصل الطابقين، وشرفات واسعة ذات أرضيات مصنوعة من الأحجار الحمراء والبيضاء تحيط بالمنزل، في حين غطت قبتان بيضاويتان من العصر المغولي السقف فكانتا أشبه بفطر عيش غراب حجري جاثم على السقف. كانت لإنديرا حجرة كبيرة في آخر الطابق الأول، بجوار حجرة ملابس والدها وحجرة نوم والديها، وبالحديقة الخارجية تفتحت الأزهار الإنجليزية. وفي اليوم التالي لانتقال الأسرة نشرت صحيفة «بايونير» في صفحتها الأولى صورة آناند بهافان الجديد المهيّب تحت عنوان «كيف يعيش السياسيون الفقراء في بلدنا».<sup>26</sup>

كالمعتاد رحلت نساء عائلة نهرو وفيهن إنديرا إلى موسوري في الصيف. وعندما عُذّن في الخريف كان السؤال المهم الذي يطرح نفسه على الساحة السياسية هو من سيخلف موتيلال رئيساً لحزب المؤتمر في اجتماع لاهور السنوي المقرر عقده في ديسمبر ١٩٢٩. في ذلك الوقت تكون السنة التي تمثل المهلة «المنوحة» للبريطانيين قد انقضت، وأياً كان من سيصبح رئيساً لحزب المؤتمر سيُطلق حملة العصيان المدني الجديدة. كان غاندي هو الخيار الواضح، ولكنه رفض الأمر بشدة في لجنة حزب المؤتمر الهندي في لوكناو. وبدلاً من هذا دعم غاندي بشدة جواهرلال رئيساً لحزب المؤتمر؛ الأمر الذي نتج عنه انتخاب جواهرلال، «ليس ... عن طريق المدخل الرئيسي أو حتى المدخل الجانبي، فقد ظهرت فجأة من باب سحري وأربكت المشاهدين للموافقة عليّ» على حد وصفه. شعر جواهرلال بالمهانة؛ إذ أحس بأنه بات مثل «حبة الدواء الضرورية»، التي على المرء أن يبتلعها بشجاعة. ولكن موتيلال، ومع كل خلافاتهما، شعر بالابتهاج لكون ابنه قد خلفه.<sup>27</sup>

لم تكن إنديرا قد ذهبت إلى البنجاب من قبل، وكان البرد قارصاً عند وصولها إلى لاهور بصحبة أسرته في أواخر ديسمبر ١٩٢٩. وبدلاً من الإقامة في قصر مزخرف — مثل ذلك الذي كانوا قد سكنوه العام السابق في كلكتا — اتجهت عائلة نهرو مباشرة من محطة المترو إلى معسكر كبير من خيام بيضاء — موقع اجتماع حزب المؤتمر — المنصوبة



على ضفاف نهر راڤي. وهناك أقاموا طيلة ستة أيام مع ٣٠٠ ألف شخص يأكلون وينامون ويعقدون الاجتماعات.

رفض نهرو الحضور إلى الجلسة الافتتاحية في عربة تجرها الثيران كما طُلب منه. وإنما كان يود أن يمشي دون مرافقين، دون موكب، ولكنه في النهاية وافق على أن يمتطي جوادًا أبيض عبر شوارع لاهور المحتشدة بالجموع التي تهتف له وتلوح بالرايات. امتلأت الشوارع والأسطح والأشجار المصفوفة في الطرق بالجموع التي انتظرت لساعات حتى تلمح لنهرو. وقد عبّر غاندي، المحرك الحقيقي وراء هذه المكانة لنهرو، عن الروح المهيمنة على هذه اللحظات عندما وصف نهرو بأنه يسير وكأنه «ملك بلا خوف أو خجل».<sup>28</sup> فقد بدأ موكب من التمجيد، بل يصل إلى حد التعظيم.

في الجلسة الافتتاحية التي حضرتها إنديرا سلم موتيلال عباءة رئاسة حزب المؤتمر إلى جواهرلال وهو يتلو بيتاً من الشعر الفارسي: «ما يعجز الأب عن تحقيقه سيحققه الابن».<sup>29</sup> كانت هذه الكلمات بمنزلة بذور أسطورة جديدة، تلك الخاصة بسلالة نهرو (وفيما بعد بسلالة نهرو- غاندي). كانت هذه هي المرة الأولى التي يخلف فيها ابن والده في رئاسة حزب المؤتمر، فكان فخر موتيلال لا يُقدر، وكانت سواروب راني «في حالة من النشوة»، وبالطبع كانت إنديرا تشعر بالإثارة هي الأخرى. فبعد ثمان وعشرين عاماً ستقوم هي بدورها بـ «وراثه» رئاسة حزب المؤتمر، غير أن ظروف توليها الرئاسة ستختلف تمام الاختلاف عن ظروف أبيها.

وفي خطبة توليه الرئاسة عام ١٩٢٩ أعلن نهرو بشجاعة عن روح حزب المؤتمر الجديدة؛ إذ قال: «إننا نرى الاستقلال على أنه الحرية الكاملة من الإمبريالية والسيطرة البريطانية».<sup>30</sup> وكان من المتوقع أن يصل اجتماع حزب المؤتمر إلى ذروته عندما يصل الأمر إلى اتخاذ قرار الاستقلال التام الذي كان نهرو قد قضى ساعات في كتابته في لاهور. كانت إنديرا بالصدفة معه عندما ناوله سكرتيره المسودة النهائية المطبوعة، فأعطى نهرو على الفور النسخة لها، وطلب منها قراءته بصوت عالٍ. بدأت في القراءة متلعثمة، فقاطعتها بقوله: «اقرئيه على نحو سليم». فبدأت ثانية، وأخذت تقرأ ببطء وتؤدة:

«إننا نؤمن بأن الحرية والتمتع بثمار العرق وضرورات الحياة حق من حقوق الشعب الهندي شأنه في ذلك شأن شعوب العالم كافة — وهو حق لا يجوز التفریط فيه — بحيث يستطيع الاستفادة من جميع فرص التنمية. نؤمن أيضاً بأن أي حكومة تسلب هذه الحقوق المشروعة من شعبها وتقهره فإن هذا

الشعب له مطلق الحرية في أن يغيرها أو يسقطها. وإن الحكومة البريطانية لم تسلب الشعب الهندي حريته فحسب، بل دعمت نفسها من خلال استغلال الجماهير، ودمرت الهند اقتصادياً وثقافياً وروحياً. ومن ثم فإننا نؤمن أن الهند يجب أن تقطع كل ما يربطها ببريطانيا، وتحصل على الاستقلال التام ...»<sup>31</sup>

عندما أنهت إنديرا قراءة النص بأكمله قال لها نهرو: «حسنًا لقد قطعت على نفسك هذا العهد الآن بعد أن قرأته بصوت عالٍ».<sup>32</sup> ولكن إنديرا لم تكن تدرك أنها أول إنسان في الهند يقطع على نفسه هذا العهد حتى أصدر غاندي القرار أمام مندوبي حزب المؤتمر المجتمعين في لاهور. وطالب غاندي أيضًا بمقاطعة الهيئات التشريعية ولجان الحكومة، وأعاد إطلاق حملة العصيان المدني. أصدر القرار في منتصف ليل ٣١ ديسمبر في نفس لحظة بدء عام وعقد جديدين، وفي الساعة التي أعلن فيها انتهاء الإنذار النهائي للسنة الواحدة التي أمهلها حزب المؤتمر للبريطانيين. وُرفِع علم الاستقلال على ضفاف نهر رافي في ظل ترديد هتافات وصيحات «عاشت الثورة». استمر كل هذا لساعة أخرى من منتصف الليل، ولم يكن أحد يعلم كم سنة ستستمر تلك الهتافات.

عندما عادت عائلة نهرو إلى الله آباد كانوا قد أصبحوا من المشاهير ولم يعد آناند بهافان منزلاً خاصاً. فلم يكن جواهرلال رئيساً لحزب المؤتمر فحسب، بل كان بطلاً قومياً وحصل كل من هو قريب منه على جزء من مجده المنعكس. ومن جميع الأنحاء البعيدة والقريبة كان التابعون المحبون يسافرون إلى آناند بهافان. «جموع من الحجاج»، كما وصفهم نهرو، تحتشد على الأرض، وعجت الشرفات بالناس، «وأمام كل باب وخلف كل نافذة عيون محدقة». وأصبح من الصعب الحديث أو العمل أو تناول الطعام في ظل هذه الظروف من المراقبة المتطفلة التي «لم تكن محرجة فحسب»، كما وصف نهرو فيض المعجبين، ولكنه كان أيضاً مدعاة «للضيق والإزعاج». واستطرد قائلاً: «ولكنها هم أولاً هناك متطلعون بأعينهم اللامعة المليئة بالحب ... مغدقون شعورهم بالعرفان والحب ويطلبون القليل في المقابل، لا يريدون شيئاً سوى الشعور بالأخوة والعطف».<sup>33</sup> وكان نهرو يخرج في فترات منتظمة خلال اليوم لمقابلة الجموع والاستماع إلى مشكلاتهم، وتقبل ثنائهم، ويشعر بالخل من شعوره الأول بعدم الصبر والتبرم. ذاعت الأغاني والأساطير حول نهرو وعائلته وطُبعت، سواء على شكل أوراق كبيرة ذات وجه واحد أو على شكل كتيبات صغيرة، وكانت الملصقات المزخرفة التي تحوي

صورهم تُباع في الأسواق. في البداية وجد نهرو تبجيل البطل أمرًا يدعو إلى النشوة؛ فقد أعطاه «الثقة والقوة». ولكنه أدرك بعد ذلك أن «سمعته كبطل [كانت] بأكملها زائفة» ومركزة على تصور غير حقيقي لعائلة نهرو كأبناء الطبقة الأرستقراطية والنبلاء بل كأنصاف آلهة. وكثرت الشائعات أنه قد ذهب إلى المدرسة مع أمير ويلز في إنجلترا، وأنه وموتيلال كانا يرسلان ملابسهما كل أسبوع من الهند إلى لندن لتُغسل. وقالت إحدى الشائعات إن أسرة نهرو فيما بعد تخلت تمامًا عن الترف والمكانة والثروة من أجل الشعب الهندي.<sup>34</sup>

بمرور الوقت أصبحت هذه الحالة من العبودية راسخة ومدمرة، مثل انطباع السلالة الحاكمة لنهرو-غاندي. ولكن في الأيام الأولى كانت مصدرًا للدعابة لكامالا وأخوات نهرو. فكُن في تقليدهن لعبارات الثناء التي تنهال عليه يخاطبونه «جوهرة الهند» و«الشمعة التي تحترق من أجل الآخرين».<sup>35</sup> أما إنديرا، فقد كانت شهرة والدها والشعور بفقدان الخصوصية الذي اجتاحت آناند بهافان أمورًا مربكة. ولم تُعَفَ هي الأخرى من مظاهر عبادة البطل. فكما ظهر إنجازها الفذ في تناولها للموز في كلكتا أصبحت إنديرا مدركة أنها تُمثل الأسرة وأن لها صورة عامة يجب الحفاظ عليها.

في جلسة حزب المؤتمر في لاهور، اتخذ يوم ٢٦ يناير عيدًا للاستقلال، حيث يقام الاحتفال به في أنحاء البلاد. وفي الله آباد، في ذلك اليوم عام ١٩٣٠، وقع الاختيار على إنديرا — أصغر طفلة (مع استثناء أطفال نان بانديت) — لترفع العلم الوطني في آناند بهافان أمام أعضاء الأسرة والخدم المجتمعين. وقف الجميع في الشرفة والعلم ذو الألوان الثلاثة يُرَفَع، ثم رددوا عهد الاستقلال والنشيد الوطني، وهو مشهد تكرر في ربوع البلاد كافة. في الأسابيع والشهور التالية اجتاحت الاحتجاج والعصيان المدني الهند، وتقدمتها المقاومة السلمية الشهيرة لضريبة الملح التي قام بها غاندي للاحتجاج على ضريبة الملح التي فرضتها الحكومة؛ إذ إن هذه الضريبة خاصة تعد غير عادلة لأن الملح أحد متطلبات الحياة الرئيسية. وفي مارس ١٩٣٠ قام غاندي مع ثمانية وسبعين من المشاة الآخرين بالمشي لمسافة ٢٤٠ ميلًا من صومعة سابارماتي إلى داندي على الساحل حيث استخرجوا الملح من مياه البحر الموحلة. في حقيقة الأمر كان هذا «العمل الخطير الأبله الخاص بالملح»، كما وصفه لورد إيروين نائب الملك، استراتيجية عبقرية أثارت البلاد كلها.

وكانت إحدى التبعات الملحوظة لمسيرة الملح وعودة العصيان المدني على المستوى العام سنة ١٩٣٠ المشاركة الكبيرة التي أُتيحت للنساء الهنديات اللاتي لم يلعبن دورًا

سياسيًا مهمًا في العشرينيات. وفي أوائل سنوات الكفاح القومي كانت النساء على شاكلة آني بيسانت وسروجيني نايدو يُعددن من الاستثناءات، أو بالأحرى رجالاً شرفيين في حزب المؤتمر. ولكن الآن لم تَقُمْ «كتلة» النساء مثلما كتب نهرو «بأخذ الحكومة البريطانية فحسب على حين غرة، بل كذلك كان الأمر لرجالهم أنفسهم ... نساء من الطبقات العليا والطبقات المتوسطة، والنساء العاملات، والثريات يندفعن في العشرات منهن في تحدٍّ لنظام الحكومة وهراوات الشرطة».

وكان من ضمن هذه الحشود من النسوة ممن كن يَقُذْنهن في الله آباد، نساء عائلة نهرو، خاصة كامالا التي تركت فراش المرض، وارتدت زي الخادي بلونه الأبيض الذي يرتديه متطوعو حزب المؤتمر، وخرجت للمشاركة في الوقفة الاحتجاجية أمام المتاجر التي تباع الأقمشة الأجنبية والكحول، وأمام المحاكم والمدارس الحكومية. اختفت الأمراض والإعياء الجسدي الذي كان يصيب كامالا أو تجاهلته هي. وبعد وقت كبير أدرك نهرو أنها كانت تشتاق «لممارسة دورها الشخصي في الكفاح الوطني، وأنها لا ترغب في أن تكون تابعًا وظلاً لزوجها فحسب»، وقال نهرو إن الأشهر الأولى من عام ١٩٣٠ شهدت بداية إحساسه «برغبتها، وعملنا معًا ووجدت في هذه التجربة متعة كبيرة».<sup>36</sup>

وبجانب النساء طالب الأطفال بدور لهم، ومن كان ليقودهم أفضل من إنديرا نهرو؟ ومن ثم أنشأت جيش القردة في مارس ١٩٣٠. وبعد سنوات من هذا الحدث نُسب لإنديرا كل الفضل، حيث شرحت كيف أنها شكلت وحدها فرقة أطفال من عمال حزب المؤتمر حيث قيل لها إنه بغير استطاعتها أن تنضم إلى المتطوعين الدائمين حتى تصبح في الثامنة عشرة من عمرها.<sup>37</sup> ولكن جيش القردة كان في حقيقة الأمر فكرة مشتركة بين كامالا وبيشامبار نات باند، وهو أحد أمناء لجنة حزب المؤتمر في الله آباد الذي كان يعمل عن قرب مع كامالا. ففي أحد الأيام كانت كامالا تتجول في أحد الأجزاء الفقيرة من المدينة مع بيشامبار نات باند حيث الأطفال في الشارع، كالمعتاد، يتبعونهم ويصيحون: «النصر لكامالا نهرو». قالت امرأة عجوز تقف بالجوار لكامالا إن الأطفال يشبهون جيش القردة في ملحمة الرامايانا، حيث بني جيش الإله القرد هانومان جسراً بين لانكا (سريلانكا الآن) والهند بهدف إنقاذ الأميرة سيتا، زوجة لورد راما بعد أن اختطفها الملك الظالم رافان. اقترحت كامالا على بيشامبار نات باند عندئذٍ أن يُكوّنوا جيش قردة من أطفال حزب المؤتمر، واقترح هو أن يجعل إنديرا البالغة من العمر اثني عشر عاماً قائدة له. مع ذلك كانت إنديرا — حسبما قال بيشامبار نات باند — مترددة وقبل أن توافق على الخطة

تأكدت من أنه سيساعدها. ومعاً نظماً برنامجاً وزيارة لمدارس الله آباد في وقت قصير جداً وتمكننا من تجنيد نحو ألف طفل.

في ربيع عام ١٩٣٠ طالب حزب المؤتمر بأسبوع من المظاهرات في مختلف أنحاء البلاد، وفي الله آباد قادت إنديرا موكباً ضخماً من ١٥ ألف طفل، وشاهد هذا الموكب ٥٠ ألف شخص في شوارع الله آباد. انتهى الموكب باجتماع جماهيري في آناند بهافان حيث خاطبت إنديرا حشود جيش القردة. ونظراً لأن صوت إنديرا ضعيف للغاية، كان على بيشامبار نات باند أن يكرر على الجماهير أقوالها وتعليماتها جملة بجملة بصوته الجهوري المرتفع وكأنه مكبر صوت بشري. حثت إنديرا الجماهير من خلال صوت بيشامبار نات باند الجهوري على جمع المؤن لمعسكرات الساتياجراها، وتوزيع نشرات الساتياجراها، وأن يجمع كل منهم بيزا واحدة من كل أسرة كل يوم لتمويل جيش القردة.<sup>38</sup>

ورغم تردد إنديرا في أول الأمر فقد استحوذت أنشطة جيش القردة عليها بسرعة. في الأصل كانت الفكرة ترتكز على أن يساعد الأطفال عمال حزب المؤتمر الكبار من خلال أداء المهام الصغيرة مثل حمل الرسائل وتحضير الطعام وحياسة الأعلام وتوزيع المنشورات. ولكن الأطفال أدركوا على الفور أن بإمكانهم أن يكونوا مفيدين عن طريق قيامهم بوظيفة استخباراتية. حيث يكون بإمكانهم التظاهر بأنهم يلعبون في الشارع بالقرب من نقاط الشرطة ويسترقون السمع لأوامر الاعتقال وأماكن حملات الشرطة التالية، ومن ثم يكون بإمكانهم الإسراع بتحذير أعضاء حزب المؤتمر المعنيين. وكما شرحت إنديرا الأمر فيما بعد: «لم يكن أحد منهم يلقي بالاً لأطفال صغار يلعبون الحجلة أمام قسم الشرطة. فلم يكن هناك أحد يعتقد أن مثل هذا الطفل البريء يؤدي مهمة. كان الطفل يحفظ عن ظهر قلب رسالة ثم يذهب إلى من يعينهم الأمر ويخبرهم قائلاً: «تعلم أن هذا ما يتعين أن يُفعل أو ألا يُفعل. الشرطة بكاملها في المكان سيقبضون على فلان وفلان».<sup>39</sup>

أصبحت إنديرا الآن مشهورة لذاتها، بوصفها قائدة جيش القردة. كانت ترتدي زي المتطوعين الذكور من حزب المؤتمر المصنوع من الخادي بالإضافة إلى قبعة حزب المؤتمر. وفي ذلك الوقت التُقِطت لإنديرا ووالديها صورة ظهرت في صحف الهند. كان ثلاثتهم في حديقة آناند بهافان. وجواهرلال يرتدي زي حزب المؤتمر الأبيض من الخادي، وكامالا ترتدي ساري من الخادي غير المزين، وارتدت إنديرا معطفاً وصديرية وقبعة مصنوعين من الخادي، وقد صفتت شعرها بطريقة البوب [إحدى الطرق الشهيرة لتصفيف الشعر القصير]. كانت هذه الصورة تحمل معنىً سياسياً وشبه ديني؛ فهي تُظهر الأسرة الشابة

الجميلة ذات الحضور الطاعي التي تتسم بالنقاء والبساطة في الخادي الأبيض، وتبدو متأهبة لمعركة دونما عنف. وتظهر الصورة أيضًا أن إنديرا لم تعد خارج نطاق الأحداث، بل باتت في بؤرتها وهي تقف طويلة القامة مرتدية ثياب حزب المؤتمر: الولد إندو.

كان مارس ١٩٣٠ الشهر الذي تشكّل فيه جيش القردة، هو الوقت الذي التقيت فيه كامالا وإنديرا مع فيروز غاندي عندما ذهبا مع مجموعة من نساء حزب المؤتمر للمشاركة في وقفة احتجاجية أمام جامعة «إيونج كريستيان» في الله آباد. كان فيروز، الطالب ذو الثمانية عشر عامًا في الجامعة، يقف متكئًا على حائط يشاهد النساء المتظاهرات كنوع من التسلية عندما فقدت كامالا وعيها تحت شمس الظهيرة. عندها أسرع إليها فيروز حاملاً معه الماء ومروحة لإفاقتها، وفي أثناء مساعدته كامالا واصطحابها إلى منزلها تحول فيروز إلى أحد المناصرين لقضية كامالا، أو ربما بالأحرى من المناصرين لكامالا نفسها. في اليوم التالي ترك جامعة إيونج كريستيان، وظهر مرة أخرى في آناند بهافان وسجل نفسه ضمن متطوعي حزب المؤتمر. ومنذ ذلك الحين أصبح فيروز ظلًا لكامالا وتابعا لها. ومما لا شك فيه أن هذا يعني أنه عرف الكثير عن إنديرا أيضًا، مع أن إنديرا ظلت طوال عدة أشهر غير قادرة على التمييز بين هذا الرجل المجوسي الممتلئ الثرثار والمساعد الملهمين الآخرين الذين جذبتهم كامالا.

في أبريل ١٩٣٠ بعد شهر من دخول فيروز إلى حياتهم حاولت الحكومة كبح جماح العصيان المدني عن طريق اتخاذ إجراءات صارمة على نطاق الدولة بأكملها. فأعلن أن اللجنة العاملة بحزب المؤتمر غير قانونية وقُبض على مسؤوليها وزُجَّ بهم في السجن. وقُبض على نهرو في ١٤ أبريل وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر في سجن نيني بتهمة استخراج الملح. وسُجن كل من غاندي في ٥ مايو وموتيلال نهرو في ٣٠ يونيو، وبوجود جواهرلال وموتيلال في السجن في الجانب الآخر من النهر في نيني، عانت نساء آل نهرو لهيب حرارة شمس الصيف الطويل في الله آباد، مع أن كامالا لم تكن لتتاح لها الفرصة للذهاب إلى موسوري بسبب نشاطها السياسي. فقد كانت في ذلك الوقت تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم، وأنشأت مستشفى لمظاهري حزب المؤتمر الجرحى في أحد أجنحة قصر آناند بهافان القديم كان موتيلال قد تبرع به لحزب المؤتمر وسماه بهافان السواراج (قصر الحرية).

في مطلع سبتمبر كتبت كامالا لجواهرلال أنها تتمنى لو تُعتقل وتدخل السجن، لتهرب إلى حد ما من اندلاع العداء القديم بالمنزل. قرر رانجيت بانديت أن ينضم إلى

مستشفى السواراج بهافان ولكنه ونان بانديت، كما تزعم كامالا، كانا يقضيان الصيف «جالسين بارتياح بالداخل، تحت المظلات الواقية من الشمس، ويستمتعان بالنسيم البارد للمروحة. ولم يكونا يتحركان قيد أنملة في الحر للعمل».<sup>40</sup>

في ٨ سبتمبر أُطلق سراح موتيلال من السجن لأنه كان مريضاً بشدة. وأُطلق سراح جواهرلال في الحادي عشر وسافر على الفور إلى موسوري مع كامالا وإنديرا لزيارة موتيلال، غير أنه اعتُقل مرة ثانية في التاسع عشر من الشهر نفسه. وكانت تهمته هذه المرة التحريض على إنتاج الملح وعدم دفع الضرائب والتشجيع عليهما، وحُكم عليه بالسجن عامين ونصفاً إلى جانب السجن مدة خمسة شهور أخرى لإدانته بالتخلف عن دفع الغرامات. أدت هذه الأحكام القاسية إلى مظاهرات على نطاق الدولة يوم عيد ميلاده، الرابع عشر من نوفمبر، الذي سُمي «يوم جواهر». وفي الله آباد قادت سواروب راني ونان وبيتي وإنديرا موكباً إلى الحديقة العامة، حيث خاطبت كامالا الحشود المجتمعة وقرأت عليهم الخطبة «التحريضية» التي دخل نهر السجون بسببها.

كانت سبع سنوات تقريباً قد مرت منذ آخر مرة حُبس نهر في «منزله الآخر»، كما أشار هو إلى السجن في رسائله. افتقد نهر كامالا وإنديرا بشدة ودونَ بدقة في مذكراته بالسجن زيارتهما له التي كانت تحدث كل أسبوعين. وعندما أُعيد إلى سجن نيني في أكتوبر، وكانت أمامه تقريباً ثلاث سنوات طويلة قبل أن يفرج عنه، أفزعته فكرة الانفصال الطويل وقرر أن يكتب سلسلة من الرسائل إلى إنديرا، استكمالاً لخطاباته الأولى التي كانت بعنوان «رسائل أب إلى ابنته»، والتي نُشرت في مطلع ذلك العام.

وهكذا بدأ نهر في ٢٦ أكتوبر ١٩٣٠ — عيد ميلاد إنديرا تبعاً للتقويم الهندي — في كتابة ما سيصبح فيما بعد واحداً من أكثر كتب نهر كشفاً وجاذبية، وحمل اسم «لمحات من تاريخ العالم»، وقد تلقت إنديرا مظروفاً من سجن نايني مكتوباً أعلاه: «إلى إنديرا بريادارشيني في عيد ميلادها الثالث عشر». منذ البداية، كان نهر يعد «لمحات» هبة أو إهداء إلى إنديرا، أو كما قال «هدية للعقل والروح». ومما لا شك فيه أن الكتاب الذي ضم بين دفتيه ١٩٦ فصلاً واحتوى كل فصل على خطاب، وبلغ عدد صفحات الكتاب ٩٧٠ صفحة ممتلئة لآخرها، التي كُتبت على مدى الثلاث السنوات التالية، يعد أحد أطول الهدايا وأضخمها.

وفي الخطاب الذي افتتح به الكتاب استحضر نهر جان دارك وذكر إنديرا أنها وُلدت في الشهر نفسه الذي بدأ فيه لينين الثورة الروسية، وتحدث عن الثورة التي يُعد

غاندي ملهمها وقائدها في الهند. فمن ناحية يصادق نهرو هكذا على نظرة توماس كارلايل للتاريخ المرتكزة على فكرة أن التاريخ يتكوّن من أفعال الرجال العظماء أو الأبطال، وهي الفكرة التي عرضها في كتابه الذي حمل اسم «عن الأبطال وعبادة البطل والبطولات في التاريخ». وفي حقيقة الأمر يلقي كتاب «لمحات» النظر على أعمال مجموعة من أشهر وأهم الأبطال في التاريخ مثل الفيلسوف اليوناني سقراط، والملك الهندي أشوكا، والإمبراطور المغولي جلال الدين محمد أكبر، والإسكندر الأكبر، والجنرال الإيطالي جوزيبي جاريبالدي، وبسمارك، وهتلر، وفرانكلين روزفلت، وغيرهم من المشاهير. ولكن نهرو في الوقت نفسه أصر على أن «التاريخ الحقيقي» ليس «سجلاً لأعمال الرجال العظماء، ملوكاً وأباطرة، فحسب» بل هو يخص «جميع الأفراد المكونين للأمة».<sup>41</sup> كان الموضوع الحيوي الآخر الموجود الذي تناوله هذا الخطاب الافتتاحي والكتاب ككل أن التاريخ لا يتوارى ويندثر في الماضي. بل إنه يحدث، كما يصير نهرو، الآن حول الجميع: «في الهند اليوم نحن نصنع التاريخ، وأنت وأنا نعد محظوظين لأننا نراه يحدث أمام أعيننا ولأننا نمارس ... بأنفسنا دوراً في هذه المسرحية الضخمة».<sup>42</sup> وقد استوعبت إنديرا بعد ذلك بكثير مفهوم «الرجال العظماء» عن التاريخ، وإيمان نهرو بأن هناك قدرًا تاريخيًا ينتظر إنديرا يتحتم عليها أن تتبعه، وإن لم يحدث بالطريقة نفسها التي أرادها نهرو.

وكتاب هربرت جورج ويلز «موجز تاريخ العالم» الذي أخذه نهرو معه في سجنه مع مجموعة من دفاتر القراءة أحد مصادر إلهام كتاب «لمحات». وبعيداً عن هذين المصدرين استُمد هذا الكتاب الضخم الذي يحتوي على شتى أنواع المعرفة من قراءات نهرو المكثفة (والكثير منها كان في السجن وأوروبا). وعلى عكس ويلز يقدم نهرو صورة للعالم تغاير تلك النظرة التي تعتبر أوروبا مركز ثقل العالم؛ إذ وضع جنوب آسيا مرة أخرى على الخريطة التاريخية. كان الهدف من كتاب «لمحات» أن يكون ترياقاً ضد سم التاريخ الأوروبي الذي تجرعه إنديرا في مدرسة سانت ماري. وبالإضافة إلى كونه تأريخاً أسراً للعالم من عصر اليونان القديمة وحتى قيام ألمانيا النازية، يركز كتاب «لمحات» على الرؤية السياسية الخاصة بنهرو. وأشاد بالأبطال الوطنيين من أمثلة الإمبراطور المغولي جلال الدين محمد أكبر والجنرال الإيطالي جوزيبي جاريبالدي، وأشاد أيضاً بزعيمات وطنيات على شاكله جان دارك، وملكة جانسي. ويتتبع نهرو انهيار الرأسمالية، والتأثير السلبي للدين (فيما عدا البوذية التي أبهرته وجذبتة)، وتطور الحركات والمذاهب الفكرية من أمثلة الديمقراطية والاشتراكية والماركسية والفاشية. ولم يعدم ذكر الحركات الثقافية والفنية والعلمية إلا أن هذه الحركات لم يكن لها نصيب كبير من صفحات الكتاب.



وبعيداً عن هدف توفير نوع من الثقافة التاريخية والسياسية لإنديرا، ينبع كتاب «لمحات» من مصادر شخصية ووجدانية عميقة. وعندما بدأ نهرو في كتابة هذه الرسائل بدأ على نحو فعال في تنفيذ طريقتين منفصلتين ولكنهما متوازيتان من طرق المراسلة مع ابنته: الرسائل التي كانت تصل بالفعل إليها من سجن نايني والمراسلات الوهمية لرسائل كتاب «لمحات» التي لم تكن ترسل أو تتسلمها ابنته. ففي حقيقة الأمر لم تكن إنديرا تعرف شيئاً عن رسائل كتاب اللمحات حتى عام ١٩٣٢، أي بعد عامين من بدء نهرو في كتابتها، ولم يتسنَّ لها قراءتها إلا عندما نُشر الكتاب عام ١٩٣٤.

ولعل الأمر لا يدعو للدهشة؛ إذ تعد الرسائل الطويلة غير المرسله التي شكلت كتاب «لمحات» — تلك التي يقول عنها نهرو في إحدى المرات «لا أحد يرى سواي» والتي أدرك أن إنديرا لن تستطيع قراءتها إلا «بعد شهور أو سنوات» — أكثر نوعي المراسلات تلقائية.<sup>43</sup> ففي هذا النوع يتحدث نهرو من القلب كما لو كان يكتب في مذكراته، إلى كل من إنديرا (التي لا تستطيع سماعه) وإلى نفسه. وما لبث أن أصابته حالة من الاكتئاب والإحباط بسبب الأخبار السياسية والعائلية التي تتسلل إليه في السجن؛ إنديرا مريضة، ووالدته وكامالا لم تستطعا زيارته. وتساءل هل ذلك المخطوط الضخم الذي يؤلفه سيصل إلى إنديرا. في بعض الأيام تبدو كتابة الرسائل عملية بسيطة، ولكنه في البعض الآخر لا يجد في نفسه القدرة على الكتابة. في الوقت نفسه لم يكن يستطيع التخلي عن الكتاب. فهو يمثل هدفاً قوياً له في السجن. فهو يولد نوعاً من الألفة القوية المؤازرة له مع ابنته الغائبة كما أنه يهدئ فيه شعوراً بالذنب تجاه انفصاله عنها. ففي أثناء الساعات الطويلة التي كان يقضيها في الكتابة كان يشعر تقريباً وكأنهما معاً. وفي الوقت نفسه تعد الرسائل التي يحويها كتاب «لمحات» فرصة للابتعاد والانشغال عن الشكوك ودواعي القلق الشخصية والسياسية. «العمل المتواصل» على التأليف والانتقال بالعقل إلى أوقات بعيدة يسمح لنهرو «بالتحكم» في عقله و«العيش لمدة ما بعيداً عن ... المشكلات الحاضرة».<sup>44</sup>

وكان نهرو محبوساً في نايني يكتب رسائل لن تصل إلى ابنته، كانت هي منهمكة في العمل مع جيش القردة، وتساعد في تمريض المرضى في مستشفى السواراج بهافان، وكانت لا تزال تذهب إلى دير سانت ماري. وفي ١٧ نوفمبر، وقبل يومين من عيد ميلاد إنديرا الثالث عشر، ذهبت هي وكامالا وسواروب راني وبيتي موتيلال إلى كلكتا لاستشارة طبيب مختص في علم الأيورفيدا (علم الطب الهندي) يدعى كافيراج شيامداس فاشاسباتي. كان

موتيلال الذي بلغ في ذلك الوقت تسعة وستين عاماً يعاني أمراضاً عديدة، مثل: الربو وتليف في الرئتين والضغط المرتفع والفشل الكلوي، ولم يكن أي منها يستجيب للعلاج الطبيعي. وفي السجن فقد موتيلال الكثير من وزنه وفور خروجه ظل ضعيفاً واهناً، وكأنه ظل لما كانت عليه نفسه الضخمة.

أخذت إنديرا كمّاً كبيراً من الكتب لتقرأها في كلكتا وأخبرت موتيلال أنها انتهت من قراءة كتاب الأديب البلجيكي موريس ميتلرنك المسمى «حياة النحلة» وبدأت كتابه الآخر الذي يحمل عنوان «حياة النملة»، والذي وعدت بعده أن تقرأ «الكتاب الذي أعطيتني إياه عن جاريبالدي. في هذا الوقت، بدأ كل من جدي [موتيلال] والصغيرة [بيتي] فيه ولكن أياً منهما لم يتمه إلى النهاية». ووقعت على رسالتها «من ابنك إندو المحب»، وأضافت ملحوظة: «لقد اكتملت السراويل القصيرة الخاصة بي»، على ما يبدو ذلك الخاص بالرياضة البدنية والجري.<sup>45</sup>

بحلول عيد الميلاد كانت إنديرا وكامالا قد عادتا إلى الله آباد وفي يوم ٢٧ كانتا قد التقتا نهرو في سجن نايني. في عشية عيد الميلاد كانت إنديرا وكامالا وحيدتين في آناند بهافان تقرأان معاً بصوت عالٍ قصيدة الشاعر الفرد تينيسون التي تحمل اسم «في نكري» [التي كتبها في رثاء صديقه]، عندما رن جرس الهاتف. أجابت إنديرا ووجدت صوتاً غير مألوف يخبرها على عجل أن كامالا ستُعْتَقَل في اليوم التالي ثم أغلق الهاتف. نسي تينيسون، وذهبت إنديرا لتحزم حقيبة والدتها وحادثة كامالا العاملين بحزب المؤتمر المحلي وأعطتهم بعض التعليمات. ثم أحرقت هي وإنديرا أكواماً من الورق والكتيبات حتى وقت متأخر من الليل بسبب خوف كامالا من أن يُفْتَش المنزل. ولم تنم أي منهما. في تمام الساعة الخامسة صباحاً في أول أيام العام الجديد اعتقلت الشرطة البريطانية كامالا وهي واقفة على سلم قصر آناند بهافان بينما إنديرا واقفة بجوارها. علمت الصحافة بالأمر ونقلته للجماهير. قالت كامالا في بيان مقتضب: «أشعر بسعادة لا توصف وبالفخر لكوني أسير على خطى زوجي».<sup>46</sup> ثم اقتيدت إلى سجن مالكا في مدينة الله آباد، وبقيت إنديرا وحيدة في ذلك المنزل الضخم ليس معها أحد سوى الخدم.

وفيما لا يكاد يبعد عن سجن كامالا بميل ونصف، في سجن نايني، سمع نهرو عن خبر اعتقالها وكتب في مذكرته: «اعتقلت كامالا! يا لها من بداية سعيدة للعام الجديد. لا بد أنها سعيدة الآن ومن الممكن جداً أن الراحة في السجن ستفيدها. إندو المسكينة وحيدة،

تُرى ما الانطباعات التي يمكن أن تتركها كل هذه الأحداث على عقل طفلة صغيرة؟<sup>47</sup> وفي اليوم نفسه كتب رسالة في كتاب «لمحات» لم تُبعث إلى «إنديرا المسكينة» يخبرها أن خبر اعتقال كامالا «هدية سارة لي في رأس السنة الجديدة ... ولا يخالجنني الشك في أن أمك راضية وقريرة العين. ولكنك بلا ريب تشعرين بالوحدة».<sup>48</sup>

كانت إنديرا بالفعل تشعر بالوحدة. وما إن سمع موتيلال وسواروب راني والآخرين عن اعتقال كامالا حتى عادوا من كلكتا. ولكن إنديرا ظلت تشعر بالوحدة في ظل وجود والديها في السجن. وبعد الحكم بسجن كامالا ستة شهور ونقلها من الله آباد إلى السجن المركزي في لوكناو كتبت كامالا إلى جواهرلال تقول: «عندما اعتقلت كنت قلقة حيال إندوجي. وتساءلت ماذا يمكن أن تفعل وحدها. ولكني الآن أشعر بالطمأنينة نوعاً ما بأنها تستطيع الاعتناء بنفسها. لقد وعدتني بأنها ستظل مرحة وستعتني بنفسها». أما عن كامالا نفسها فقد كانت مصممة على أن تستفيد من حياتها اليومية في السجن:

«بعد كوب من الشاي بعد الاستيقاظ في الصباح أمشي تقريباً مسافة تتراوح بين ميل ونصف إلى ميلين. وبعد تلاوة الصلوات أقرأ. يأتي العشاء في السادسة مساءً، ثم نُحتجز حتى الليل. وننام في التاسعة أو العاشرة. ثم نستيقظ ثانية في الخامسة ... كنت أود أن أغزل داري (سجادة خشنة) ولكن الأمر يتطلب وقتاً لتعلمه. لذلك أركز الآن على عمل نيوار (شريط سميك من القطن). وسأقارنه بالنيوار الذي تصنعه، لنرى أيّاً منهما أفضل. الحياة في السجن غريبة. فأنت تتعرف على أنواع مختلفة من البشر هنا وتتاح لك الفرصة كما لن تجدها في أي مكان آخر لدراسة طبائعهم ... أنا مصممة على استمداد القوة وأنا في السجن والقتال بقوة أكبر عندما أخرج منه».<sup>49</sup>

في ١٢ يناير ذهبت إنديرا مع جديها لزيارة نهرو في سجن نايني. وفي اليوم التالي كتب نهرو رسالة «لمحات» أخرى غير مرسلة توضح كيف كان اللقاء مقلقاً: «لقد كان من الجميل لقاؤكم جميعاً بالأمس. ولكنني صُدمت من منظر جدك. إنه يبدو ضعيفاً ومريضاً للغاية ... ولم تتسنّ لي الفرصة للتحدث معك الباردة. فماذا يمكن للمرء أن يفعل في لقاء قصير كهذا؟ إنني أحاول الاستعاضة عن كل هذه اللقاءات والأحاديث التي لم نفعلها عن طريق كتابة هذه الرسائل. لكنها بديل ضعيف، ولا يستمر الادعاء طويلاً».<sup>50</sup>

بعد أسبوع تلقى نهرو رسالة من إنديرا تخبره فيها أنها قرأت كتباً كثيرة من مكتبة آناند بهافان وتطلب منه أن يقترح المزيد. وفي رسالة لم تصلها من رسائل «لمحات» وبخها

على عدم إخباره بالكتب التي قرأتها تحديدًا، ثم استمر في تأنيبها قائلاً: «إن القراءة عادة جيدة، ولكن الشك ينتابني في هؤلاء الذين يقرءون كتبًا كثيرة بسرعة. فأنا أشك في أنهم لم يقرءوها كما ينبغي وإنما تصفحوها فحسب ثم نسوها في اليوم التالي.»<sup>51</sup> ومع أن هذه الرسالة لم ترسل، فإن قراءات إنديرا — أو بالأحرى ثقافتها — أصبحت مدعاة للجدل. كان نهرو يريد التحكم في نموها الفكري ورغبت هي في نيل حرية قراءة ما تريد، وفي ذلك حكايات الجن عندما كانت صغيرة والروايات الرومانسية عندما كبرت. وكان نهرو يجبرها على قراءة أعمال هربرت جورج ويلز، وكتب عن جاريبالدي أيضًا. في بعض الأحيان كانت إنديرا تقرؤها طواعية — بفهم قليل كما صرحت فيما بعد — وفي البعض الآخر كانت تُعارض. كان من الواضح أنها تقاوم الضغط عليها لقراءة نوع معين من الكتب القيمة، وعندما تُذعن وتقرأ ما يُملى عليها وتكون نتيجة ذلك أنها لم تفهمه تشعر بالبطء والنقص. في الأسبوع الثالث من يناير استلمت إنديرا أخيرًا رسالة من كامالا في سجن لكانوا جاء فيها ما يأتي:

### الحب لإندوجي،

منذ أن وصلت إلى السجن ولم تصلني أخبار عن أحد. وصلني خطاب والدك في الخامس عشر وقد تمنيت أن تحتوي الرسائل على واحدة منك أيضًا. تسمح سلطات السجن بخطابين فقط كل أسبوعين. ومن ثم يمكنك أن تكتبي لي، ولكنني لا أدري كم عدد الخطابات التي يمكن أن أرسلها أنا... أخبريني عن حياتك اليومية. رجاءً ابعثي لي بالتقارير النصف الشهرية الخاصة بدراستك التي يرسلها المعلمون إلى والدك. أتمنى أن تتذكري ما أخبرتك إياه عندما كنت أغادر المنزل. في كل مرة أغادر فيها الثكنة للتجول أفكر فيك. عليك أنت أيضًا القيام بالمشي كل يوم. عندما أغادر السجن سنذهب معًا للتنزه، رغم أن هذا سيكون بعد ستة أشهر، ولكن الستة الشهور ستمر دون أن أشعر أنا أو أنت بها.<sup>52</sup>

كان هذا يعد مزيدًا من الضغط عليها فيما يتعلق بدراساتها. وكانت رسائلها لا تصل إلى كامالا. وكانت إنديرا تعلم أن ستة شهور لن تمر سريعًا على الإطلاق. لحسن الحظ كان على إنديرا أن تنتظر بضعة أيام. وفي ٢٦ يناير ١٩٣١ أعلنت الحكومة البريطانية أن جواهرلال وكامالا وغاندي والأعضاء الآخرين العاملين في لجنة

حزب المؤتمر العاملة سيُطلق سراحهم جميعاً في الحال من السجن. عاد كامالا وجواهرلال إلى آناند بهافان ليشهدوا ما بات في الأساس منزل الموت. فقد كان من الواضح أن مرض موتيلال شديد وأنه لن يعيش طويلاً. وعلى إثر هذا بعث جواهرلال إلى غاندي الذي رحل على الفور من بومباي، ووصل في وقت متأخر من الليل إلى مدينة الله آباد. ظل موتيلال يقظاً طوال اليوم في انتظاره. وأخبر غاندي أنه كان يعلم أنه لن يستطيع «رؤية الاستقلال رأي العين، ولكنني أعلم أنك [أي غاندي] ستفوز بالحرية وستحصل عليها قريباً».<sup>53</sup> في الأيام التالية انتفخ وجه موتيلال وحنجرته، وفقد القدرة على الحديث. وفي ٤ فبراير، أُخذ إلى لكانا للحصول على علاج باستخدام الأشعة السينية، وصحبه في هذه الرحلة جواهرلال وغاندي وسواروب راني وبيتي وعائلة البانديت، بلا إنديرا أو كامالا. مات موتيلال في المستشفى هناك في ساعة مبكرة من صباح السادس من فبراير عام ١٩٣١، وكان بجانبه جواهرلال وسواروب راني. وفي اليوم نفسه أحضروا جسده بالسيارة إلى مدينة الله آباد.

أذهل إنديرا خبر وفاة جدها، وظلت وحيدة في خضم الحزن الذي استحوز على العائلة، والهند بأسرها. كانت ابنة عمتها ناينتارا بانديت واحدة من القلائل الذين شاهدوا إنديرا يوم جنازة والدها؛ إذ شاهدتها وهي تقف وحيدة بجوار نضد المائدة في حجرة الطعام بآناند بهافان، وتبكي في صمت.<sup>54</sup> وكان بورشتم نارايان هاكسار، الذي كان عندئذ طالباً في جامعة الله آباد في السابعة عشرة من عمره، ضمن الحشود الموجودة خارج المنزل عندما أحضر جسد موتيلال إلى الخارج، وقد شاهد هو الآخر إنديرا. لم يكن قد رآها منذ عشرة أعوام. كانت طويلة وشديدة النحافة وشاحبة الوجه. وكانت عيناها أوسع عما شاهدتهما في الماضي وأحاطت بهما ظلال سوداء كثيفة.<sup>55</sup>

ومع أنه لم يكن من المعتاد مشاركة النساء الهندوسيات طقوس الجنائزات فقد صاحبت كل نساء عائلة نهرو — سواروب راني، ونان بانديت، وبيتي، وكامالا، وإنديرا — الجثمان ملفوفاً بعلم حزب المؤتمر والموكب الجنائزي يشق طريقه عبر شوارع مدينة الله آباد — محاطاً بالمعزين — حتى نهر الجانج حيث تجرى مراسم الحرق. وصف جواهرلال الأمر بقوله: «مع حلول الظلام على ضفاف النهر في ذلك اليوم من الشتاء اندلعت النيران والتهمت داخلها ذلك الجثمان الذي مثل الكثير لنا ممن كنا بقربه وكذلك للملايين في الهند».<sup>56</sup> وبعد خمسة أيام جرى نثر الرماد المتبقي من جسد موتيلال في سانجام، وهي بقعة مقدسة يلتقي فيها نهر الجانج ونهر يامونا ونهر ساراسواتي

## إنديرا

الأسطوري. كانت هذه أول حادثة موت تشهدها حياة إنديرا، وأول رابط في سلسلة طويلة من الأحزان الممتدة عبر السنوات.

## الفصل الخامس

# ظهور فيروز في حياتها

في أحد أيام شهر أبريل عام ١٩٣١ سافرت إنديرا بصحبة والديها — بالإضافة إلى سائق وخادمة وخادم جواهرلال الذي يدعى هاريلال — من مدينة كولومبو إلى مدينة كاندي في سيلان (سريلانكا الآن) عندما استداروا بسرعة كبيرة عند أحد المنعطفات في الطريق، ليجدوا سيارتهم تسير في منعطف آخر أكثر انحدارًا وحدة. وانجرفت عجلتا السيارة الخلفية إلى حافة الجرف. وبينما السائق يضغط على كوابح سيارته ويحرك عجلة القيادة بسرعة نحو الاتجاه العكسي؛ إذ بإنديرا الجالسة بجواره تفتح باب السيارة وتقفز منه، تاركة الباقيين في السيارة — لمدة خمس دقائق كما أشار والدها — يندفعون أسفل المنحدر ليلاقوا مصيرهم المحتوم. لكن براعة السائق وردود فعله السريعة أنقذتهم. وبرغم شعورها بالخجل الشديد من هذا التصرف، لم يُصَب إنديرا الهلع أبدًا فيما بعد أثناء مواجهتها الخطر.<sup>1</sup>

كانوا قد ذهبوا إلى سيلان لقضاء عطلتهم. فقد كانت صحة نهرو في تدهور تام بعد وفاة والده، وبعد «الاستسلام التام غير المشروط» وهو الوصف الذي أطلقه على المعاهدة التي وقعت بين غاندي والحاكم البريطاني اللورد إيروين في مارس ١٩٣١. كانت شروط هذه الهدنة تنص على أن يلغي غاندي العصيان المدني، ويوافق على العمل في سبيل إنشاء حكومة ذاتية بالتدرج ويطلق البريطانيون سراح المعتقلين السياسيين، ويسمحون للفلاحين بإنتاج الملح للاستهلاك المحلي. كان من المفترض أن تكون سيلان مهربًا من الحزن وتسويات النزاع السياسي. ورأت إنديرا أنها مكان «خصب للغاية يتميز بالخضرة والجمال الأسر». أما نهرو فقد شبهها بأرض آكلي اللوتس التي ذكرها هوميروس في الأوديسا؛ إذ قال نهرو عنها: «إنها مكان فاتن ... الطقس دائمًا رائع ... حيث يكاد المرء ينسى الكفاح والتعاسة الموجودين في العالم الواقعي».<sup>2</sup>

ولكن الأمر كان أبعد ما يكون عن الهدوء والسكينة. فحتى في وقت العطلة تظل عائلة نهرو محتفظة بشهرتها. فكأن أفرادها ملكية عامة، فالصحافة ترصد جميع تحركاتهم. ووجوههم مألوفة للعامة الذين رأوهم في ملصقات حزب المؤتمر أو في الصور التي تنشرها الصحف. وفي «أنورادهاپورا»، المدينة القديمة المقدسة، كان يأتي لزيارة جواهرلال وكامالا وإنديرا «مجموعات من العمال والعاملين بحقول الشاي وآخرون ... ممن يأتون إليهم سيرا على الأقدام لمسافة عدة أميال حاملين معهم ... الهدايا [من] ... الزهور البرية والخضراوات والزبد المعد في المنزل»<sup>3</sup> ومع تجوالهم في باقي ربوع سيلان من أجل زيارة الآثار البوذية والمعابد والقصور والقلاع القديمة، كانت «الحشود [وراء] الأخرى» تتبعهم، وكانوا يتورطون في «دوامه من الارتباطات وإلقاء الخطب والاجتماعات وحفلات الاستقبال». سافرت عائلة نهرو إلى أقصى مكان جنوب الجزيرة ومنه إلى أقصى شمالها بالقطار حتى وصلوا إلى مدينة جافنا حيث كان في انتظارهم هناك أيضًا «برنامج حافل»<sup>4</sup>.

ومع هذا الجدول المليء بالأعمال والحشود شهد زواج جواهرلال وكامالا — الذي كان في عامه السادس عشر آنذاك — تحولاً في سيلان أثر فيهما بعمق وأدهش كليهما. فكما يصفه نهرو، كان يبدو وكأن «أحدنا قد اكتشف الآخر من جديد. فكل الأعوام التي قضيناها معاً ما كانت إلا تجهيزاً لهذه العلاقة الجديدة الأكثر حميمية وألفة». فقد كان يدهشهما — وهما يشاهدان حطام زيجات أخرى عديدة — كيف استطاعا أن يبقيا على «تلك الشرارة مشتعلة»<sup>5</sup>. ولم تكن تلك الشرارة مشتعلة من منطلق الحب العذري فحسب. فقد قال نهرو فيما بعد لغاندي إن لمسة كامالا (وحدها بخلاف جميع البشر) «دائماً ما تهز كيانه». وكانت علاقتهما «غالباً مؤلمة»، ولكنها كانت في الوقت نفسه «مثيرة».

لم يكن حب نهرو لزوجته، كما أدرك في ذلك الوقت، إلا خليطاً نادراً. فقد كانت هناك تلك الحالة اللذيذة من الانجذاب الجنسي. ولكنه ما لبث أن تصاعد وازداد شدة منذ أن ظهر نشاط كامالا السياسي قبل عامين مع زيادة احترام نهرو وإعجابه. فقد كان نهرو رجلاً لا يمكن أن يجذب إلا لامرأة يشعر أنها مكافئة له. وأدركت كامالا هذه الحالة مؤخرًا عندما خرجت في شوارع الله آباد للتظاهر عام ١٩٣٠. والآن في سيلان يتشاركان في نوع متناقض من أنواع الألفة العاطفية. فمن جانب كانت كامالا هي «الشخص الوحيد الذي يستطيع ... الدخول في ثنايا الحياة الخاصة المنعزلة» لزوجها، وهي الشخص الوحيد القادر على اختراق عزلته. وفي الوقت نفسه ظلت شخصية كل منهما للآخر محيرة



ومجهولة إلى حد ما. قال نهرو عن زوجته في هذا الشأن: «إنها كانت غامضة عليّ وكنت غامضاً عليها و... لم تتوقف أبداً المفاجآت ولا الاكتشافات»<sup>6</sup>

كيف كان وضع إنديرا في هذه الحالة الجديدة من الحميمية التي انتابت والديها؟ كان العدد ثلاثة بالطبع يعد مجموعة كبيرة، كانت عائلة نهرو الآن تمثل ثلاثياً مختلفاً حيث إنديرا كالمشاهد، تحوم حول جوانب علاقة والديها، وربما هي متأثرة بها، ولكنها إلى حد ما بعيدة عنها.

أما الآخرون فقد كانت الأسرة تدهشهم. ففي عمر الثانية والأربعين أصبح نهرو أصلع تحيط عينيه الهالات السوداء. أما كامالا، التي تصغره بعشرة أعوام، فقد كانت هيفاء ذات بشرة صافية وناعمة. كانت لا تزال تبدو وكأنها فتاة صغيرة. أما إنديرا، التي كانت تبلغ الرابعة عشرة، فكانت قد بلغت أقصى طول لها وهو خمسة أقدام وبوصتين وكانت أطول من والدتها ببوصة أو بوصتين. كان كل من يرى نهرو يتعرف عليه في الحال، في حين كان هناك التباس في التفرقة بين كامالا وإنديرا. كتب نهرو إلى أخته قائلاً: «يُنظر إلى كامالا غالباً على أنها ابنتي. ولكن ما قولك في أن يُنظر إلى إندو على أنها الأم! لقد حدث هذا الأمر مراراً وتكراراً»<sup>7</sup>

عادت الأسرة إلى الله آباد عبر جنوب الهند والولايات الهندية المستقلة اسمًا لا حقيقة، وهي ولايات ترافاكور وكوشن ومالابار وميسور وحيدر آباد حيث الحشود «المتجمهرة» ثانية، ومن ثم كانوا يندفعون «من مكان إلى آخر، ومن عمل إلى آخر دونما راحة أو سكون»<sup>8</sup>. ولكن ما أدهش إنديرا بشدة في الجنوب هو الحاجز الطبقي الموجود في كل مكان. فقد تربت إنديرا على عدم التفرقة بين الطبقات، وهي تربية غير معتادة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وعائلة نهرو بها العديد من الخدم الذين ينتمون إلى طائفة الهاريجان «المنبوذين» في قصر آناند بهافان والذين كانوا يعيشون ويأكلون معهم، ومن ضمنهم هاريلال الخادم الشخصي لموتيلال، وأصبح بعد وفاته خادماً لجواهرلال. ولأول مرة في جنوب الهند تجد إنديرا التحيز الطبقي في كل مكان ذهبوا إليه. فهناك «شوارع بأكملها»، على حد قولها، محظورة على الهاريجان أو «المنبوذين» بلافتات كبيرة مكتوب عليها «للبراهمة فقط». ومع ذلك كان المنبوذون يسرون فيها مع الآخرين.<sup>9</sup>

كانت الذكرى الحية الأخرى في مخيلة إنديرا في رحلة عودتهم هي مشهد كامالا وهي تلقي خطبة في حيدر آباد تحت فيها النساء على الخروج عن سياسة حجب النساء وعزلهن، تأثرت إنديرا كثيراً بأداء والدتها. ولكنها لم تكن تفهم وقتها اتجاهات كامالا المناصرة لحقوق المرأة، حيث إنها لم تختبر بنفسها قط أي عيوب في أنها فتاة. ولم ترَ

إنديرا حولها أي اضطهاد للنساء. وهذا الاضطهاد بالطبع لم يكن في حيدر آباد حيث أقاموا مع قائدة حزب المؤتمر سروجيني نايدو التي تتسم بكونها امرأة ذكية وقوية ومؤثرة هي وابنتها ليلاماني وباماجا.

بعد عودة أسرة نهرو إلى الله آباد في أوائل مايو بوقت قصير حدث أمر ما، واحد من تلك الأحداث الخفية غير الملحوظة التي مع ضآلتها تُشكل حياة وتترك جروحًا؛ كانت نان بانديت عمة إنديرا كثيرًا ما تصفها بأنها «دميمة وغبية»، وتردد ابنة عمتها هي الأخرى هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا. ونظرًا إلى طول قامة إنديرا الذي يسبق سنها ونحافة جسدها وكبر أنفها، بالإضافة إلى لون بشرتها الذي كانت تشعر أنه داكن للغاية، تسببت «الكلمات المدمرة» لعمتها في تحطيم إنديرا عاطفيًا. كانت إنديرا بالفعل خجولة وتشعر بعدم الطمأنينة. وتحولت على إثر رأي عمتها المؤلم فيها إلى مراهقة صامتة ومتقلبة المزاج. وظلت لفترة من الوقت لا تشعر بالسكينة ولا بالرضا عن جسدها. وبعد خمسين عامًا كان رأي عمتها الذي لم يراعِ مشاعرهما «لا يزال نابضًا في مخيلتها». فقد «دمرت شبابها»، حسب كلمات إنديرا نفسها.<sup>10</sup>

تقاسي نساء كثيرات من جراء التعرض لتجارب «تدميرية» مشابهة في سن المراهقة. ولكن إنديرا لم يكن لها سوى قليل من الدعامات التي يمكنها الاتكاء عليها، هذا إذا لم تكن منعومة. ولا يوجد أحد تتجه إليه في الواقع. فوالداها منشغلان بالسياسة وأحدهما بالآخر. وجدها توفي. ولم يكن لديها أصدقاء وأولاد عموميتها لا يزالون أطفالًا صغارًا. وبالإضافة إلى هذا كانت إنديرا على وشك الرحيل إلى المدرسة. حيث تقرر هذا الأمر قبل عطلة سيلان. فقد كان جواهرلال وكامالا يعتقدان أن هذا هو الحال الأفضل بالنظر إلى وضعيهما واحتمالية أن يُسجنا معًا مرة أخرى.

ومن ثم نُفيت إنديرا في مايو عام ١٩٣١ إلى «مدرسة الطلبة» في بونا جنوب بومباي التي يديرها زوجان بارسيان يدعيان آل فاكيل، واللذان كانا قريبين من غاندي، ودرسا في مدرسة رابيندرانات طاغور الشهيرة في شانتينيكيتان. كان جيهانجير فاكيل رجلًا اشتراكياً تلقى تعليمه في أكسفورد، ويتبع مثله مثل نهرو مذهب اللاأدرية. أما زوجته كونفيرباي فكانت مغنية موهوبة وفنانة من فناني الباتيك (الطباعة بالشمع).<sup>11</sup> ويدير الزوجان معًا روضة أطفال ومدرسة لأطفال أعضاء حزب المؤتمر تعد مشروعًا قوميًا يشجعه الشعب في شانتينيكيتان في البنغال. كان الطلاب وهيئة التدريس جميعهم يرتدون

الخادي، وعندما يُعتقل أعضاء حزب المؤتمر يمنح الطلاب عطلة. ويجري التدريس في الهواء الطلق تحت ظلال الأشجار وفي الحدائق التي تُحيط بمنزل آل فاكيل المكون من طابق واحد والشبيه بمساكن الإنجليز المستعمرين، والكائن في ٣ شارع ستافلي في منطقة الثكنات العسكرية في بونا. كان المنهج الدراسي المتبع يُعد الطلاب لامتحان الحصول على شهادة الثانوية العامة الهندية، ولكن كانت الفنون، وخاصة الرقص والموسيقى، كما كان الحال في شانتينيكيتان، من المجالات التي يجري التركيز عليها.

كان لآل فاكيل ابنتان، الصغرى تدعى إيرا والتي كانت بالمنزل عندما وصلت إنديرا، ولم ترَ هذه الفتاة في إنديرا سوى فتاة طويلة نحيلة عصبية تحت عينيها هالات سوداء ويعلو رأسها شعر طويل غير مصفف. أما الكبرى التي تدعى جاي، والتي أصبحت صديقة حميمة لإنديرا، فقد لمحتها فيما بعد تبكي خلف إحدى الأشجار. ولدة طويلة ظلت إنديرا بائسة، يخالجها شعور بالحنين الشديد إلى المنزل والاشتياق الشديد لوالديها. كان في المدرسة سبعون طالباً من الجنسين. (زاد هذا العدد إلى ١٢٠ في السنتين التاليتين مع تدفق طلاب المعتقلين السياسيين، وفي ذلك بنات أسرة البانديت.) ومع ذلك ظلت إنديرا لبعض الوقت الطالبة الوحيدة المقيمة إقامة كاملة بالمدرسة. هذا بالإضافة إلى كونها الأكبر سناً والأطول بين طالبات المدرسة، ولديها أكثر أبوين مشهورين. فلم تستطع الخروج من دائرة الملاحظة من جميع النواحي.<sup>12</sup>

كانت الأفكار التجريبية والاشتراكية هي أساس التدريس في المدرسة، ومع ذلك ظلت المواد البعيدة عن الفنون هي نفسها المواد التقليدية التي تُدرس في المدارس البريطانية في الهند. فإنديرا كانت تدرس التاريخ والجغرافيا والتربية المدنية والفيزياء والكيمياء. ويدفع نهرو لإنديرا تكاليف إضافية من أجل حصولها على دروس في اللغة الفرنسية والسنسكريتية، هذا بالإضافة إلى تعلمها الرقص الشعبي واللغة الجوجاراتية. ومع أن المدرسة كانت مؤسسة على ميزانية صغيرة والطلبة غير المقيمين بالمدرسة يدفعون ٧ روبيات شهرياً، كانت مصاريف إنديرا الشهرية، وفي ذلك التعليم الإضافي، تصل إلى ١٠٠ روبية، وهو مبلغ لا يستهان به بالنظر إلى أحوال نهرو المادية غير المستقرة.

ترى هل استفادت إنديرا من هذا التعليم باهظ التكاليف؟ مع كون إنديرا جيدة في اللغة الفرنسية كانت طالبة غير مبالية، ربما لكونها ظلت حتى ١٩٣٢ دون أقران، ودون أحد تنافسه أو تتعلم معه إلى أن التحقت بالمدرسة فتاة بارسية تدعى شانتا غاندي (لا تمت بصلة للمهاتما غاندي أو فيروز). كانت إنديرا تكبر طالبات المدرسة بعدة سنوات

والمواد الدراسية التي تُدرّس في الفصول على مستوى غالبية الطلبة الأصغر سنًا منها. ومن ثمّ ظلت إنديرا دون منافسة.

لكن إنديرا تطورت وتقدمت تدريجيًا، خاصة بعد التحاق بنات نان بانديت الثلاث (التي لم تبلغ صغراهن سنتين) إلى المدرسة في ١٩٣٢. قامت إنديرا بدور الأم لبنات عمته الثلاث اللاتي شعرن بالتعاسة والحزن إلى المنزل أكثر منها. اتسمت إنديرا وهي مراهقة بأنها «صعبة المراس»، وهي بالغة بأنها باردة ومنعزلة، ولكنها منذ نعومة أظافرها لم تستطع تحمل رؤية الضعفاء، فتتخلى عن جميع تحفظاتها وتقدم المساعدة لمن يحتاجها. وعندما كانت إنديرا صغيرة كان الأطفال والحيوانات هم من يمسون فيها هذا الوتر ويحصلون على مساعدتها. وفيما بعد أصبحت هذه العاطفة دعامة وقوة كبيرة وأساسًا لشعبيتها الهائلة، فكان الفقراء والمرضى والمضطهدون والمظلومون — وهم يمثلون الغالبية العظمى من الشعب الهندي — ينظرون إليها ويؤمنون أن بإمكانها مساعدتهم. وأهم درس تعلمته إنديرا في مدرسة بونا أنها تمتلك القدرة على العناية بالآخرين. وكما وصفتها شانتا غاندي: «كانت عاطفة الأمومة عندها قوية للغاية».<sup>13</sup> فلم تكن فقط بنات عمته، بل الطلاب الأصغر سنًا وطلاب الهاريجان الذين التحقوا بالمدرسة وقت «إضراب» غاندي في سبتمبر ١٩٣٢، جميعهم ينمون تحت جناح رعايتها.

شعر الطلاب وهيئة التدريس في مدرسة آل فاكيل بالوحدة القوية مع غاندي في أثناء صيامه، ولم يوافقوا فقط على التحاق عديد من الطلاب ممن ينتمون لطبقة الهاريجان فحسب، بل خرجوا لتعليمهم في أحياء بونا. وحسبما قالت شانتا غاندي، التي التحقت بالمدرسة وأصبحت في ذلك الوقت صديقة مقربة لإنديرا، صارت إنديرا مرتبطة على وجه الخصوص بفتاة من طبقة الهاريجان ترفض تعلم كيفية العد. فكانت إنديرا تجعلها تستحم وتلتقط القمل من شعرها وتعلمها كيف تجدل شعرها. ثم كانا يعدان معًا القمل الذي وجداه في فروة رأسها، وبهذه الطريقة علمت إنديرا الفتاة كيفية العد.

وكما هو الحال في معظم حياة إنديرا كانت إنديرا وقت صيام غاندي الشهير في ١٩٣٢ في المكان المناسب والوقت المناسب. بل في حقيقة الأمر كان لإنديرا وضع متميز. ففي بداية عام ١٩٣٢ بعد فشل مؤتمر المائدة المستديرة الثاني في لندن الذي حضره غاندي، وعلى إثر القلاقل التي أثارها الفلاحون في الأقاليم الهندية المتحدة، اعتُقل غاندي وفالابهبهاي باتيل وآلاف آخرون بموجب سلطات قانون الطوارئ الذي طبقه نائب الملك، اللورد ويلنجدون. كان نهرو سيقضي الأربعة الأعوام التالية كلها، فيما عدا ستة شهور، في

السجن، يبدؤها بمدة طويلة في سجن نايني بمدينة الله آباد، وقد أطلق عليه اسم «منزلي الآخر». أما غاندي فكان محتجزاً خلف قضبان سجن يرفادا بالقرب من بونا حيث كانت إنديرا وبنات بانديت في بعض الأحيان يزرنه في عطلة نهاية الأسبوع.

وفي ١٣ سبتمبر أعلن غاندي أنه سيبدأ «اعتباراً من ٢٠ سبتمبر إضراباً عن الطعام حتى الموت» احتجاجاً على الأمر المحلي الذي أعلنه رئيس الوزراء البريطاني رمزي ماكdonald بتخصيص دوائر انتخابية مستقلة للمنبوذين (الهاريجان). أربح هذا القرار الوطنيين الذين اعتبروه محاولة مرتبة من البريطانيين لاتباع مبدأ «فرق تسد»، ولكن اعترض غاندي على فصل الدوائر الانتخابية ارتكز على أساس ديني ومنبعه التزامه بإلغاء تصنيف المنبوذين. أما طائفة المنبوذين أنفسهم، تحت قيادة شخصية بارزة هي دكتور بيماراو رامجي أمبيدكار، فقد دعموا القرار لأنه سيعطيهم ثقلاً وهوية سياسية.

ومن ثم كان هناك مأزق، وفي سجن يرفادا اختار غاندي أن يتبع واحدة من الطرق القليلة التي يستطيع بها الضعفاء الرد؛ فأضرب عن الطعام. ومع أن هذا لم يكن صيامه العام الأول، هذا بالإضافة إلى أن الصيام جزء لا يتجزأ من الحياة الهندوسية، كان لأداء غاندي «الصوم حتى الموت» عام ١٩٣٢ أثر هائل. فكتب نهرو المحبوس في سجن نايني إلى إنديرا (في واحدة من الرسائل غير المرسلة التي نشرها في كتابه «لمحات من تاريخ العالم»): «أنا متأثر كلية ولا أعرف ماذا أفعل. لقد واثني الأخبار، تلك الأخبار الفظيعة، أن بابو قرر أن يجوع حتى الموت. إن ... عالمي ... يهتز ويرتج حتى إن الظلام والفراغ يبدوان في كل أرجائه».<sup>14</sup> كذلك كانت السلطات البريطانية مرتاعة، ولكن لأسباب مختلفة تماماً. فلم تكن السلطات تريد أن يموت غاندي بين أيديهم. فحاولوا إقناعه بالذهاب إلى المجتمع الذي أقامه للمدة التي حددها لصيامه، ولكن غاندي رفض أن يطلق سراحه من السجن.

يوماً بعد يوم، والهند كلها (مع الحكومة البريطانية) تترقب، كان غاندي يرفض الطعام. ومع زيادة ضعفه الجسدي لم تفقد روحه ابتهاجها. ذهبت إنديرا وبنات عمته لزيارته كالمعتاد في عطلة نهاية الأسبوع يومي ٢٣ و٢٤ سبتمبر، على إثرها أرسل غاندي برقية مرحلة إلى نهرو المذهول تطمئنه على الأحوال قائلاً: «رأيت إندو وبنات نان بانديت. بدت إندو سعيدة للغاية وزاد وزنها».<sup>15</sup>

بحلول اليوم الخامس من الصيام، الذي أصبح فيه غاندي ضعيفاً للغاية، منع أمبيدكار المأساة بأن اتفق مع غاندي على معاهدة بونا التي تعني تخلي الهاريجان عن

دعواهم للحصول على دوائر انتخابية مستقلة ورضوا بأن يكون لهم عدد من المقاعد المحجوزة للهندوس.

في ٢٦ سبتمبر، وعلى نحو مؤثر، كسر غاندي صيامه أمام مجموعة من المتفرجين وصل عددها إلى ٢٠٠ في سجن بيرافدا ومن ضمنهم رايندرانات طاغور وكامالا نهرو وسواروب راني نهرو وإنديرا. وفي الواقع كانت إنديرا هي من عصرت البرتقال وقدمته لغاندي وقد كان هذا أول غذاء يدخل جوفه حينها. وكما كتبت إنديرا لوالدها ترك هذا الحدث:

«تأثيرًا كبيرًا في نفسي كما علمني درسًا ... لقد كانت هذه ... الأيام الأخيرة فظيعة ... عندما رأيت حالته، لم أكن أعتقد أنه سيحيا. كان الوقت من الثامنة صباحًا حتى الثانية عشرة أسوأ ساعات مرت عليّ في حياتي. ولكني الآن مطمئنة تمامًا لأن بابو باستطاعته القيام بأكثر الأعمال غرابة [لا يمكن تصورها].»<sup>16</sup>

كان الدرس المهم الذي تعلمته إنديرا من صوم غاندي هو قوة المقاومة السلبية. فبينما هو محبوس في سجن بريطاني استطاع غاندي الحصول على قدر عظيم من السلطة السياسية والمعنوية. فمن ناحية كان آخر ما تصبو له السلطات البريطانية الاستعمارية أو تحتاجه أن يكون هناك شهيد. ومن ناحية أخرى لم يكن باستطاعة الهنود الحصول على الاستقلال دون قيادة غاندي، فهو فرد لا يمكن الاستغناء عنه. وغاندي، على كل تواضعه، يعلم كل هذا. وهكذا فإن ما شهدته إنديرا كان طريقة مثيرة لنيل السلطة والسيطرة بواسطة شخص ضعيف على المستويين القانوني والجسدي وتحت إمرة الآخرين. ومن ثم استطاع غاندي برفضه للطعام والتهديد باستعداده للموت أن يجبر دكتور أمبيدكار على تحقيق أهدافه، وانتصر غاندي.

الأمر الذي كان مدهشًا حول انتصار غاندي — الذي كان درسًا لفتاة مراهقة — هو وسيلته العبقريّة: اللافعل. كان الصيام طقسًا شائعًا من الطقوس الهندوسية، ومن ثم لم يكن من المدهش أن يتحول إلى أداة مستخدمة غالبًا للاحتجاج السياسي في الهند. فقد كان للإضراب عن الطعام تاريخ في التأثير السياسي المحقق. وقد استقى غاندي هذه الفكرة إلى حد ما من أعضاء حركة الفينان الثورية الأيرلندية في القرن التاسع عشر، وكذلك من الوطنيين الأيرلنديين في مطلع القرن العشرين إلى جانب البريطانيين المنادين بحق المرأة في الاقتراع.

بعد إضراب غاندي المؤثر عن الطعام بدأت إنديرا في التفكير في اتباع طريقة أخرى من الإضراب. واختارت الإضراب عن الحديث وليس عن الطعام. اعتادت إنديرا وهي طفلة صغيرة أن تتحدث بلا انقطاع، بل تتحدث بطريقة غير لائقة؛ فقد تحدثت بصوت عالٍ في المحكمة، واعترضت أثناء المظاهرات وأثناء قبض الشرطة على أقاربها، واحتكرت مقابلات السجن. ولكنها تعلمت عندما كبرت كيف يمكنها الإمساك بزمام الأمور من خلال عدم الرد على الآخرين سواء باللسان أو بالخطابات. وفي ذلك الحين تحول هذا إلى عبقرية أسطورية للصمت.

وبعدما ذهبت إنديرا إلى مدرستها في بونا لم تعد لها حياة مستقرة مع والديها في قصر آناند بهافان، أو في أي مكان آخر. وفي وقت ما بدا الأمر وكأنهم ربما يفقدون منزل العائلة. ففي يناير عام ١٩٣٢ استولت الحكومة على قصر سواراج بهافان وأغلقت المستشفى الذي أنشأته كامالا فيه. وانتشرت الشائعات بأن الحكومة ستستولي أيضًا على قصر آناند بهافان الجديد لأن نهرو امتنع عن دفع ضريبة الدخل للبريطانيين. كان القلق يجتاحه بشأن أمه المسنة، ولم يرغب بكل تأكيد في أن تتشرد وتصبح بلا مأوى، لكنه اعترف في سيرته الذاتية بأنه لن يشعر بالندم إذا فقد آناند بهافان في وقت جرى فيه تجريد كثير من الفلاحين من ممتلكاتهم.

ساعات صحة كامالا من جديد عام ١٩٣٢ وظلت معظم ذلك العام تتلقي العلاج بعيدًا عن منزلها؛ في البداية في بومباي ثم في كلكتا حيث اعتنقت التعاليم الدينية لراما كريشنا،<sup>17</sup> وبعد أن هزل جسدها زاد حماسها الديني؛ مما أثار غضب زوجها الذي لم يعلم بمسألة اعتناقها لتلك التعاليم إلا فيما بعد.

وفي ذلك الحين نُقِلَ نهرو من سجن نايني إلى سجن بيريلي، ثم نقل فيما بعد إلى مكان أبعد وهو سجن ديهارا دون. أما عن إنديرا فوجودها في بونا على بُعد مئات الأميال من والديها جعلها تفتقدتهما تمامًا. وبطبيعة الحال كانت تعرف أخبارهما من الصحف، وذهبت ذات مساء بصحبة آل فاكيل لمشاهدة أحد الأفلام الخاصة بحزب المؤتمر، وفيه ظهر جواهرلال وكامالا بوضوح. وتحدثت إنديرا عن هذه الواقعة في أحد خطاباتها؛ إذ قالت: «كلاهما بدا رائعًا».<sup>18</sup>

وفي مايو عام ١٩٣٢ ذهبت إنديرا مع والدتها وجدتها لزيارة رانجيت بانديت في سجن نايني، وحملت معها خطابًا من جيهانجير فاكيل بخصوص تقدم مستوى بنات

آل بانديت في المدرسة. واعترض حارس السجن على تسليم إنديرا الخطاب إلى عمها في حين احتجت سواروب راني (التي تعرضت لضرب مبرح في مظاهرة اشتركت فيها خلال الشهر السابق) مما تسبب في طرد نسوة آل نهرو الثلاثة. وكانت نتيجة هذه الحادثة إخبار السلطات نهرو بمنعه من الزيارات لمدة شهر. وردًا على ذلك أرسل نهرو خطابًا إلى مدير إدارة السجن قال فيه إنه يرفض تعرض أمه وزوجته وابنته لأي إهانات في المستقبل، ولذلك فإنه يتنازل عن جميع الزيارات. ويعني هذا التنازل أن إنديرا لن تتمكن من رؤيته سبعة أشهر أخرى.

وخلال هذه المدة أرسلت كامالا إلى جواهرلال خطابًا تخبره فيه أن إنديرا مكتئبة جراء بُعدها عنهما. ولهذا كتب على الفور خطابًا لابنته قال فيه: «ما من سبب يدعو أيًا منا، ولا سيما أنت، للاكتئاب أو أن يبدو عليه ملامح الاكتئاب. أحيانًا تشعرين بالوحدة بعض الشيء، وكلنا مثلك، ومع ذلك يجب أن نستمر في رسم الابتسامة على شفاهنا.» وحذرهما من أنه عندما يلتقيان من جديد «يجب عليك ألا تنسي أن أباك يمكن أن يتحمل أي شيء إلا شيئًا واحدًا؛ أن يرى إنديرا مكتئبة ووجهها تعلوه علامات الأسى.»<sup>19</sup> ويبدو أن هذه النصيحة قد أتت بثمارها؛ فإما أن إنديرا أصبحت أكثر ابتهاجًا وأملًا. وإما أنها أصبحت ممثلة رائعة. فعندما التقت بوالدها في سجن ديहरادون يوم ١٢ يناير عام ١٩٣٣ كتب في يومياته بالسجن عقب هذه الزيارة قائلاً: «كنت في غاية السعادة وأضحك من أعماق قلبي ... إنديرا باتت امرأة صغيرة في غاية الجاذبية ويبدو عليها الذكاء والألمعية ... إنني شعرت بالسعادة الغامرة وبالفخر لرؤيتي لها سليمة معافاة وطبيعية وتنمو دون أي معوقات واضحة.»<sup>20</sup>

غير أن هذه اللقاءات كانت أشبه بواحات وسط الصحارى وسرعان ما خبت بهجتها. فبعد أربعة أشهر ذهبت إنديرا أثناء العطلة الدراسية لتقيم مع والدتها في ديहरادون حيث استأجرت كامالا بيتًا لتكون بالقرب من نهرو. وكان في ذلك الوقت قد سُمح له بلقاءات نصف شهرية، لكنه ذكر في يومياته في السجن أنها لم تكن كافية، واعترف بأنه لم يكن يتوقف عن الحديث في هذه اللقاءات نظرًا لضغط الوقت، كأنه على حد تعبيره «صنبور تُرك مفتوحًا». كانت إنديرا تقابل ثورات أبيها العاطفية بالصمت وعدم الرد إلا نادرًا. وزاد عجز نهرو عن التواصل مع ابنته بعد أن أنهى كتابه «لمحات من تاريخ العالم» في أوائل شهر أغسطس في سجن ديहरادون، وقال عن ذلك: «كتبت جيلًا هائلًا من الخطابات، وأرقت كمية هائلة من الحبر الهندي الجيد على أوراق هندية.» لم يختلف مصير هذا الخطاب الأخير عن الخطابات السابقة فلم يرسل قط، غير أن نهرو شعر في



نهاية هذه المراسلات الغزيرة الخيالية مع ابنته — هذه المراسلات التي أبقتة حيًّا قرابة ثلاث سنوات — بأن الرابطة بينه وبين ابنته لم تنفصم بل ذابت.<sup>21</sup>

وفي نهاية شهر أغسطس، أي بعد عودة إنديرا إلى المدرسة، أُطلق سراح نهرو من السجن بسبب حالة والدته الصحية الحرجة، وظل نهرو ينعم بحريته طوال الأشهر الخمسة المقبلة. وفي سبتمبر زار إنديرا في بونا (وكذلك غاندي في بومباي). وزار مدرسة الطلاب في بونا. كان محملاً بالكتب وبنماذج ميكانيكية منحها كهدايا لإنديرا وغيرها من الأطفال الذين قضى معهم ساعات يبني فيها هذه النماذج ويعرضها. غير أن الجميع كانوا يشعرون في قلوبهم بالرهبة من نهرو، ولمَ لا فهو رجل لا يسبقه في مكانته فيما يخص النضال من أجل الحرية سوى المهاتما غاندي، وعلاوة على ذلك فقد شعروا أيضًا بالتوتر بسبب رجال الشرطة الذين أحاطوا به في فناء المدرسة وقد ارتدى بعضهم ملابس الرسمية وارتدى البعض الآخر ملابس مدنية.

وفي شهر أكتوبر، أي قبل شهر من عيد ميلاد إنديرا السادس عشر، تقدم فيروز غاندي لخطبة إنديرا، وربما يكون ذلك قد حدث من خلال رسالة لها بهذا المعنى؛ إذ إنه كان في بونا، أو ربما يكون قد تقدم لها بشخصه؛ إذ حضر إلى بومباي لزيارة أقاربه وبعدها ذهب إلى بونا حتى يرى إنديرا. وجاء تقدم فيروز لخطبة إنديرا مفاجئًا. كانت إنديرا تنظر إلى فيروز باعتباره لا يختلف كثيرًا عن الشباب الأعضاء في حزب المؤتمر الذين رأتهم في آناند بهافان في مدينة الله آباد. لم تكن قد رآته إلا مرات قليلة منذ التحاقها بالمدرسة. ومع ذلك فمن غير المحتمل أن فيروز — الذي أصبح شديد التمسك بكاملًا وعائلة نهرو — قد أقدم على هذه الخطوة بتهور. والأرجح أنه اتخذ قراره بالزواج من إنديرا منذ بداية ارتباطه بعائلة نهرو، ولكن انتظر حتى يحين الوقت المناسب عندما تكبر.

ومهما كان تفكير فيروز فإن طلبه قوبل بالرفض على الفور. وردت إنديرا وكامالا على طلبه بطريقة دبلوماسية، فأخبراه أن إنديرا لا تزال صغيرة للغاية على الزواج، ومن غير المعروف إن كان نهرو قد علم بتقدم فيروز لخطبة إنديرا. غير أن هذا السبب لم يكن مقنعًا لرفض طلب فيروز؛ إذ إن معظم الهنديات آنذاك كن يتزوجن في سن السادسة عشرة. وكامالا نفسها كانت عروسًا في السادسة عشرة، بل إن المهاتما غاندي تزوج من كاستوربا وكان الاثنان في الثالثة عشرة من عمريهما. إذن فالزواج في سن المراهقة هو القاعدة في ذلك الحين. وبعد بضعة أيام من تقدم فيروز لخطبة إنديرا أرسل غاندي

رسالة إلى نهرو يخبره فيها أنه وجد زوجًا مناسبًا لإنديرا.<sup>22</sup> كان الرد بالرفض على طلب غاندي أكثر صعوبة من رفض طلب فيروز، لكن جواهرلال وكامالا وإنديرا كرروا حجة أن إنديرا لا تزال صغيرة على الزواج. ولم تحظ فكرة تزويج إنديرا آنذاك بالقبول إلا من جدتها سواروب راني التي قضت وقتًا طويلًا في محاولة العثور على زوج مناسب لحفيدتها.

على أن الزيجة التي حدثت بالفعل في العائلة آنذاك تمت في ٢٠ أكتوبر عام ١٩٣٣ وهي زواج كريشنا أو بيتي نهرو من راجا هوثيسنج، وعقدت المراسم في قصر آناند بهافان. كانت هذه الزيجة من الزيجات المدنية غير المعتادة، والسري في ذلك أن هوثيسنج يدين بالديانة الجانية في حين تدين بيتي بالهندوسية، وفي ذلك الحين كان القانون البريطاني والتقاليد الهندية تحظر عقد مراسم الزواج الدينية إذا كان الزوجان ينتميان إلى عقيدتين أو طبقتين مختلفتين. ومن المفارقات أن بيتي — أكثر أعضاء أسرة نهرو تمسكًا بالأعراف والتقاليد — هي أول من خطت هذه الخطوة الثورية بالزواج من رجل غير برهمي، وهي خطوة استشرفت عددًا من الزيجات المثيرة للجدل التي ستشهدها الأسرة فيما بعد.

صحيح أن هذه الزيجة عُدت زيجة في الخفاء بالنظر إلى المعايير الهندية، غير أن هذا لم يمنع إقامة حفل زفاف جرى فيه تقديم الطعام للحضور بالإضافة إلى دفع ثمن جهاز العروس. وخلال هذه الفترة القصيرة التي حظي فيها نهرو بالحرية عام ١٩٣٣ حاول أن ينظم احتياجات الأسرة المالية بعد أن تعرضت للاختلال والفوضى منذ وفاة موتيلال قبل عامين. نظر نهرو إلى المال والممتلكات باعتبارهما «عبئًا» وكان «يتطلع إلى الوقت الذي يصبح فيه بلا مال». ومع ذلك فقد احتاج إلى المال لسببين: الأول هو عدم رغبته في أن تصبح أمه فقيرة في شيخوختها، والثاني هو تصميمه على أن تتعلم إنديرا وهو أمر من وجهة نظره لا يتأتى إلا بحصولها على شهادة من جامعة بريطانية أو أوروبية. قرر نهرو وكامالا أن يبيعا كل متاع العائلة الموروث، وأنيات المائدة الفضية وصفها نهرو أنها «أشياء متنوعة ملأت حمولة عربات»، التي بقيت ولم يصادها البريطانيون عبر السنين عوضًا عن الغرامات.

وكانت مجوهرات كامالا هي أنفس ما يمتلكان، وكانت محفوظة في خزانة بأحد البنوك. وتعود هذه المجوهرات إلى الأيام الأولى لزوجها؛ إذ حصلت كامالا عليها من موتيلال الذي لم يبخل عليها بأي نفقات، بل صمم بنفسه الكثير من هذه الحلي الثمينة.

وبعد ممانعة كبيرة تخلت كامالا عن هذه الحلي للمرة الأولى في خريف عام ١٩٣٣، ولكن هذه الممانعة لم يكن سببها حبها الشديد لهذه المجوهرات. فلم تكن قد تحلت بها طيلة سنوات إلى جانب أنها فشلت في نيل إعجابها، وقالت إنديرا فيما بعد إن أمها «كرهت» المجوهرات، وكانت تنتظر إليها على أنها رمز لعبودية المرأة. أما السبب الحقيقي لرغبتها في الاحتفاظ بمجوهراتها فهو رغبتها في أن تترك لابنتها هذه الحلي المصنوعة من الذهب والجواهر من قلادات وأساور وأقراط وغيرها كميراث مالي آمن.<sup>23</sup> غير أنه ما من شيء قدر له أن يكون آمناً في حياة إنديرا، وقد بيعت كل هذه المجوهرات فيما عدا بعض القطع القليلة.

كتبت إنديرا خطاباً إلى أمها في مطلع عام ١٩٣٤ من مدرسة الطلبة التي جرى نقلها في ذلك الحين إلى حي «فيل بارل» في بومباي في أعقاب تفشي وباء الطاعون الدبلي ببونا، قالت إنديرا:

### أمي الحبيبة،

لا بد أنك قد عدت من كلكتا الآن. ما رأي الأطباء؟ أخبريني من فضلك. هل ذهبت إلى شانتينيكيتان؟ ... هل شعرت بالزلال الذي وقع في مدينة الله آباد؟ ... عليكم أن تكتبوا لي كثيراً ... أبلغني سلامي لأبي وجدتي [سواروب راني]، وحبّي لك.

حبيبتيك للأبد

إندو.<sup>24</sup>

وفي ١٥ يناير ذهب نهرو وكامالا إلى كلكتا، حيث تعاود كامالا تلقي علاج طبي متخصص بالإضافة إلى زيارتها مدرسة طاغور في شانتينيكيتان التي تبعد نحو مائة ميل شمال غرب كلكتا. ولكن في اليوم الذي كان من المقرر فيه أن يرحلوا من مدينة الله آباد شعر نهرو بأن الأرض تهتز تحت قدميه وهو يقف في شرفة آناند بهافان عندما كان يلقي خطبة في حشد من الفلاحين. وفي تلك الليلة غادر قطارهما المتجه إلى كلكتا عبر ولاية بيهار التي دمرها الزلزال ووصلت حصيلة الموتى فيها إلى عشرين ألف قتيل ودمر أكثر من مليون منزل. كان هذا الزلزال كارثة طبيعية مروعة على الرغم من أن غاندي وصفه بأنه قصاص «إلهي» يعاقب به الرب الهنود على خطيئة وجود طبقة المنبوذين. وبعيداً

في بومباي انتاب إنديرا القلق على والديها سواء على حالة أمها الصحية أو مدى الضرر الذي لحق بهما من جراء الزلزال، وانتابها القلق في الوقت نفسه أيضاً بشأن مستقبلها؛ إذ إن الهدف من زيارة شانتينيكيتان هو تحديد هل ستذهب إلى هناك بعد أدائها لامتحان الثانوية العامة في الربيع.

أرسل إليها والدها برقية بعد ذلك قال فيها: «إنني سأعود إلى منزلي الآخر لفترة وجيزة، تقبلي حبي وتمنيتي الطيبة، مع السلامة، أبوك.»<sup>25</sup> وقد قبض على نهرو يوم ١٢ فبراير في مدينة الله آباد بتهمة إلقاء خطب تحريضية في كلكتا، وأعيد إلى السجن حيث حكم عليه بالسجن لمدة عامين. وعندئذ انتقلت كامالا وحمايتها إلى كلكتا لكي يكونوا على مقربة منه. وفي الوقت نفسه أمضت كامالا كثيراً من الوقت في التعبد في المقر الذي أعده لذلك راما كريشنا، واعتادت كامالا الذهاب لهذا المقر كل يوم. وعلى الرغم من درجة الحرارة المرتفعة فقد رفضت كامالا وسواروب راني استخدام مروحة في مكان إقامتهما لأن نهرو لا يمتلك مروحة في السجن. وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من شبه القارة كانت إنديرا تذاكر استعداداً لامتحانها الذي أدته في شهر أبريل. ثم لحقت بهم في كلكتا حيث قضت كل أوقاتها بصحبة والدتها عند راما كريشنا، وذهبا إلى زيارة نهرو في سجن اليبوري، وهي الزيارة التي لم يكن يُسمح بها إلا مرة واحدة كل أسبوعين لمدة عشرين دقيقة.

كان وقتاً عصيباً. فكامالا ليست بصحة جيدة، ونهرو في السجن، وإنديرا قلقة بشأن نتيجة امتحانها وبشأن أبويها وأيضاً بشأن مستقبلها. وكان لقاءها مع والدها في السجن مجهداً لها ويتسم بالتوتر وفيه تظل صامتة لا تتحدث. بدت إنديرا في عيون الآخرين فتاة لا مبالية ومحبطة ولم تُبد أي حماس بشأن إمكانية التحاقها بالجامعة في شانتينيكيتان إذا تقرر أن تلتحق بها في حال نجاحها في الامتحانات. ووصفت إنديرا هذه الفترة من حياتها فيما بعد قائلة: «كنت مرهقة الحس، وعنيدة، وأنانية ... وتسبب ذلك في شعوري أحياناً بالشفقة على نفسي وبالإحباط وعندما كبرت ووصلت إلى سن الرشد تحول هذا الشعور إلى اكتئاب.»<sup>26</sup>

ولكن نهرو لم يرَ في ابنته سوى أنانيته وعدم تحملها المسؤولية وأغفل وحدتها وحزنها. وأرسل خطاباً إلى نان بانديت يشكو فيه من أن إنديرا لا ترسل خطابات لوالديها إلا نادراً؛ «إنها تتجاهلنا ... تماماً». وشعر أنها أصبحت «أنانية بصورة مذهلة ... وهي تعيش في الأحلام والأهواء، وتسبح في عالم الخيال». ومن ثم لم يكن من المستغرب أن

يقول إن إنديرا «تغضبني». نظر لها باعتبارها تتجه أكثر وأكثر لأن تكون «فتاة كسولة واهنة».<sup>27</sup> وفي خطاب آخر استطرد نهرو في هذه المسألة قائلاً: «إذا كان بإمكانني كراهية صنف معين من الفتيات فسوف أكره ذلك النوع الواهن الذي يمضي حياته متكاسلاً متردداً حيران لا يعرف ماذا يفعل وينتظر من الجميع الانصياع لرغباته وتأدية احتياجاته. وقد تكونت في إنديرا الكثير من صفات هذا النوع ... إنها لا تبالي بالآخرين. هذا عيب في غاية الخطورة ... وإندو ... تتمحور حول ذاتها ... أنانية، ولا تفكر في الآخرين إلا لماً».<sup>28</sup>

زادت إنديرا الأمور سوءاً عندما كتبت إلى أبيها خطاباً بشأن ترتيبات إقامتها في شانتينيكيتان. زعمت إنديرا في خطابها أن جيهانجير فاكيل — الذي كان يدرس في شانتينيكيتان — أخبرها أن نزل إقامة الطالبات هناك لن تكون «مناسبة خصوصاً فيما يتعلق بالطعام». وأعربت عن خشيتها من تعرضها للمرض، وسألت أباهما إن كان بمقدورها الإقامة في منزل بالقرب من الجامعة يمتلكه أحد الأصدقاء وأن تأخذ معها خادمة من آناند بهافان لتطبخ لها وتنظف المكان. اعترض نهرو على هذه الفكرة ورد عليها بخطاب قال فيه: «لا تعجبني فكرة أن تنفصلي عن [قطيع العوام] وأن تطلبي معاملتك معاملة خاصة على غرار أمير ويلز عندما يذهب إلى الجامعة ... إنني على ثقة من أن الحياة هناك لن ترهقك. وأعتقد أنك يجب أن تقيمي في المكان الذي تخصصه لك إدارة الجامعة ... تناولي الطعام الذي يعطونه لك ... واعلمي أنني لا أخشى من أن يعاملك الجميع بقدر قليل من الاهتمام، بل أخشى معاملتك بقدر أكبر من الاهتمام. فهذه المعاملة المتميزة التي من المتوقع أن تحصلي عليها لا يمكن منعها لأنك تنتمين إلى عائلة مشهورة».<sup>29</sup>

كان لهذا التوبيخ أثر عظيم في نفس إنديرا يعادل ما أحدثه من قبل توبيخ نهرو لها عندما قفزت من السيارة وهم على حافة الجرف في سيلان. وبعد ذلك لم تطلب قط (على الأقل علناً) أن تحظى بمعاملة خاصة.

وقبل التحاقها بشانتينيكيتان سافرت إنديرا إلى كشمير لقضاء أربعة أسابيع مع عمتهما لاكشمي بانديت وزوجها رانجيت بانديت وبناتهما الثلاثة تشاندرا ليخا، ونايانتارا وريتا، وكانت معهم أيضاً مرببة الأطفال الإنجليزية السيدة بيلشر. وفي ذلك الحين كان رانجيت بانديت قد انتهى لتوه من ترجمة كتاب عن تاريخ كشمير في القرن الثاني عشر مكتوب

باللغة السنسكريتية (أنجز معظم الترجمة في السجن) وأراد أن يلتقط بعض الصور الفوتوغرافية لیتضمنها الكتاب. أقاموا جميعاً في سريناغار في منزل أحد الأقرباء الذي عزف أحفاده عن الرحيل للجنوب مع باقي العائلة قبل قرنين من الزمان. عاش هذا القريب في منزل ضخم مبني على مساحة كبيرة تحيطه أشجار الكرز، وله إطلالة رائعة من جميع الجهات على جبال الهيمالايا.<sup>30</sup>

كانت كشمير مدهشة، وبعد أن ظل أبواها وجداها يتحدثان عن هذا المكان طيلة سنوات وقعت إنديرا نفسها في هوى كشمير. أرسلت إلى أبيها خطاباً تحدثه عن هذه: «الأرض الرائعة التي أينما سار المرء يرى أمامه منظرًا بديعاً من القمم التي تكسوها الثلوج ... والينابيع الجميلة ... ومنذ أن وقعت عيناى على التشينار [شجرة تشتهر بها كشمير] أعجبت بها أيما إعجاب. إنها شجرة فاتنة.»<sup>31</sup> وما شعرت به إنديرا من سحر في كشمير كان حقيقياً وأثر فيها تأثراً عميقاً. ومنذ هذه الزيارة الأولى لها لكشمير اختارت شجرة التشينار لتكون رمزاً مقدساً، رمزاً للمكان الذي يمثل لها السلام والجمال والتنوير. اتسمت كشمير بالصفاء؛ فالهواء بارد ونقي ويمكن للمرء أن يرى بصره لمسافة عدة أميال. وفيها تسير مياه الجداول والأنهار سريعة ويغطيها الثلج بعكس مياه نهر الجانج الملوثة. وكانت الجبال البعيدة تلوح في الأفق بلونها الأبيض وبضخامتها الشديدة الجليلة للعين، يا لها من روعة! شعرت إنديرا بالنشاط والحيوية تدب في أوصالها في هذا المكان. لم يكن يوجد به سوى عدد قليل من السكان بعد أن عاشت وسط زحام البشر في الشوارع والمدن الواقعة في السهول. قامت إنديرا وبنات آل بانديت بجولات طويلة في الغابات لم يرين خلالها شخصاً واحداً لساعات. وفي ظل هذا الصمت الرهيب كان بوسعهم سماع أصوات الحيوانات الصغيرة، وتغريد الطيور، وحفيف الأشجار، وتراتيل الرهبان البوذيين على البعد.

وسوف تعود إنديرا لتزور كشمير مراراً وتكراراً في السنوات التالية، وسيسود تلك الزيارات مشاعر متناقضة من الفرح والتوتر والخطر والهزيمة والحزن. شعرت أن كشمير لم تخذلها قط وباتت تعشقها بشدة، بل امتد عشقها وإخلاصها للمكان ليكون أشبه بنوع من الإيمان بالخرافات. وقد جاءت كل معتقداتها الدينية على أرض كشمير مثل فكرتها عن الفردوس، وهي إحدى الأفكار النادرة التي استمرت متمسكة بها طوال حياتها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت كشمير مكاناً لم تنله معارك السياسة لسنوات طويلة، ولهذا كانت نظيفة وصافية فيما يخص السياسة أيضاً، ومن ثم باتت مصدراً للراحة والسعادة. لم يراود إنديرا مثل هذا الشعور بالارتباط بالمكان سواء في الأقاليم

المتحدة [التي أصبحت فيما بعد ولاية أوتار براديش] أو حتى في آناند بهافان. وتعتمد إنديرا أن تكون فيها كل صفات الهنود مستخدمة استراتيجية تجعلها سريعة التغير في المواقف المختلفة، حيث ارتدت الساري وتناولت الطعام الهندي، وتحدثت باللغات التي تتكلمها مناطق الهند المختلفة. وبطبيعة الحال كانت تلك استراتيجية سياسية متعمدة، غير أنه يمكن القول إنها فعلت ذلك بدافع حقيقي صادق في شخصيتها؛ فإنديرا غاندي لم ترتبط بجميع ربوع الهند. وإنما كانت كشمير تسكن قلبها، وكان هذا بمنزلة اكتشاف مذهل في مايو ومطلع يونيو عام ١٩٣٤.

عندما كانت إنديرا في كشمير كتب نهرود — وهو حبيب في سجن ديहरادون — الرسالة التالية لترفق مع طلب تقدمها إلى شانتينيكيتان الذي قُدِّم مرفقاً به نتيجة امتحان القبول (جيد في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ومقبول في باقي المواد) عندما وصلت نتيجة الامتحان في شهر يونيو:

اضطرت منذ نعومة أظافرها أن تتحمل مشقة المشكلات السياسية الوطنية والثورات المحلية التي تسببها هذه المشكلات. وتأثر تعليمها بسبب ذلك إذ لم يكن فيه أي استمرارية. ولفترات طويلة كان الجو حولها يفتقر إلى السلام والهدوء نتيجة انشغال أبويها أو أقاربها بالشئون العامة التي أدت كثيراً إلى الزج بهم خلف قضبان السجون والابتعاد عنها. وبطبيعة الحال تركت هذه الأحداث انطباعات قوية في ذهنها الناشئ ...

يود أبواها أن تتخصص في دراسة إحدى المواد أو بعضها، وهذا من شأنه أن يمكنها فيما بعد من أداء بعض المهام الاجتماعية المفيدة، وفي الوقت نفسه يمكنها من أن تعتمد على نفسها مالياً ما دام النظام الحالي للطبقات قائماً. ومن غير المحتمل أن تعيش بمال لم تكسبه بجهدا وعملها، بالإضافة إلى أن أبويها لا يرحبان بفكرة أن تعتمد في حياتها على زوجها أو على أي شخص آخر كائناً من كان ...

حاولنا التعرف على ميولها ولكننا حتى هذه اللحظة لم يحالفنا النجاح في التعرف على أي ميول مميزة. ومن سوء الطالع أنني كنت طوال السنوات الأربع الماضية خلف قضبان السجن، وهو الأمر الذي أبعدني عنها وحرمني من متابعة تطورها. وإن لديها رغبة غامضة في أداء الأعمال الاجتماعية والعامة،

وهذه الرغبة مردها على الأرجح إلى إعجابها الشديد بأنشطة أبويها. ومما لا شك فيه أن هذه الرغبة من الأمور المحمودة غير أن الرغبة وحدها لا تكفي، وإنما ينبغي عليها التسلح بالمعرفة المتخصصة في مادة بعينها. وسوف تختار هذه المادة فيما بعد.

وفي الوقت نفسه إذا قُبِلَت للدراسة في شانتينيكيتان فمن المفترض أن تلتحق بمعهد العلوم بجامعة ويسفابهارتي وتدرس المنهج المخصص لمستوى الطالب المتوسط. وبالإضافة إلى المواد الدراسية الإجبارية الأخرى (مثل اللغة الإنجليزية، والتاريخ، والتربية المدنية ... وخلافه) فإنني أقترح أن تدرس اللغة الهندية باعتبارها إحدى اللغات التي يتحدث بها الناس في الهند، وأن تدرس اللغة الفرنسية كأحدى اللغات الحديثة.

إن إنديرا تتمتع بحالة صحية ممتازة. كانت تتعرض بين الحين والآخر لبعض المتاعب البسيطة ولكنها ليست ذات أهمية. وهي تعاني من حين لآخر مشاكل في الحلق، فعندما كانت طفلة صغيرة — تقريباً في العاشرة من عمرها — أجرت جراحة إزالة اللوزتين، ومع ذلك فقد تعرضت لمشاكل في الحلق فيما بعد. وإلى جانب ذلك فإن عينيها تتعبانها تعباً بسيطاً من حين لآخر، وقد نُصحت العام الماضي أن ترتدي نظارة طبية أثناء القراءة، ولكنها لم تتبع هذه النصيحة إلا نادراً. وتعتمد هذه المشاكل على صحتها العامة. فعندما تكون بصحة سليمة تختفي كل هذه المشاكل. أما عندما تكون سقيمة فإن هذه الأعراض تظهر. وتتمتع إنديرا في الوقت الحالي، وأيضاً في الماضي القريب، بصحة جيدة. وإن عدم أدائها التدريبات البدنية يجعلها عادةً واهنة ومتوترة<sup>32</sup> الصحة.

وبصيغة أقل رسمية من الرسالة السابقة كتب نهرو رسالة إلى أنيل شاندا سكرتير الشاعر رابيندرانات طاغور قال فيها: «أفكاري الشخصية عن التعليم غريبة بعض الشيء ... فإنني أمقت التعليم الذي يعد الفتاة لأن تلعب دوراً في غرفة الصالون فقط وليس أي مكان آخر. فعلى المستوى الشخصي ... أود أن يتضمن تعليم ابنتي قضاءها عاماً في مصنع شأنها شأن أي عامل، ولكنني أعتقد أن حدوث مثل هذا في الهند في الوقت الحالي لهو أمر من قبيل المستحيل.» وما أراده نهرو لإنديرا هو نظام تعليمي صارم، وكان نظام التعليم البريطاني في ذهنه هو النظام الأمثل في هذا المجال. واستطرد في رسالته لشاندا



أنه وكامالا «ليس لدينا الرغبة لأن يُلحقاً [إنديرا] ... بأي من الجامعات الهندية الرسمية. فإنني أمقت هذه الجامعات بشدة».<sup>33</sup>

وعلى الرغم من إجلاله الكبير لطاغور فإن نهرو ساورته الشكوك بشأن المعايير الأكاديمية في شانتينيكيتان، ونظر إليها باعتبارها نوعاً من الإعداد التعليمي لإنديرا بحيث تظل تدرس هناك إلى أن يستطيعوا إلحاقها بالدراسة في جامعة أوروبية. والمفارقة هي أنه من بين جميع المدارس التي التحقت بها إنديرا — سواء هندية أو أوروبية — كانت شانتينيكيتان هي الوحيدة التي أثرت فيها كطالبة خلال مشوارها التعليمي المتقلب، وتعلمت فيها كل الأمور المهمة والمفيدة.

وفي بداية شهر يوليو استقلت إنديرا وكامالا القطار من شمال غرب كلكتا إلى مدينة صغيرة اسمها «بولبور» تبعد ميلين تقريباً عن شانتينيكيتان. كانت المدرسة تقع في وسط منطقة برية جميلة بها بساتين من النخيل والمانجو، وطريق مرصوف بتراب أحمر. والأرض كأنها مستديرة وليست مسطحة، والسماء الزرقاء الشاسعة تمتد لثماً الأفق. وفي كل مكان توجد قرود ذات وجه أسود، ويُسمع نقيق البوم في الغسق، وعندما يحل الليل تظهر مئات اليراعات التي تنير في الظلام. كانت هذه الفترة هي أول مرة تعرف فيها إنديرا حياة الريف.

كان طاغور — وهو شاعر وفيلسوف من البنغال — قد أسس مدرسة في شانتينيكيتان التي يعني اسمها «دار السلام» عام ١٩٠١ في محاولة منه للمزج بين الثقافتين الهندية والأوروبية. وقد وصفها لغاندي في خطاب بأنها «سفينة تحمل شحنة من أنفس كنوز حياتي». ما كان «مجرد قطعة جرداء من الأرض في حي يهيمن عليه الفقر في البنغال تحول في ذهنه إلى مدينة فاضلة».<sup>34</sup> وعام ١٩٢١ تحولت هذه المدرسة إلى جامعة فيسفابهراتي واحتوت على ثلاثة أقسام: قسم للفنون الجميلة، وقسم للموسيقى، وقسم لدراسة تاريخ الهند وثقافتها ولغاتها. وتضمنت رؤية طاغور إحداث تعاون مثمر بين الطلاب والأساتذة سعياً إلى تعليم يدمج بين قيم الشرق والغرب. وفي المدرسة جرى تشجيع الطلاب — بنين وبنات — على العمل بأيديهم وإطلاق العنان لمواهبهم الفنية. وكانت الدروس تعطى في الهواء الطلق ويجلس الجميع — طلاب وأساتذة — حفاة الأقدام. وقد كان من الضروري وجود جو رومانسي من التواصل الحميمي مع الطبيعة في شانتينيكيتان.

تلك كانت الأهداف المثالية التي أقام طاغور من أجلها دار السلام. غير أن الحقيقة بدت مختلفة تمام الاختلاف. ففي عام ١٩٣٤ عندما التحقت بها إنديرا كان طاغور — أو جورديف كما كان يطلق عليه — في الثالثة والسبعين من عمره، ومحل تقدير هائل، سواء من الهنود أو من الأوروبيين؛ إذ حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩١٣، وحصل على وسام الفارس من الملك جورج الخامس بعدها بعامين. كان الكثيرون ينظرون إليه وكأنه شخص مقدس. وتقول إنديرا عنه إنه «شخص تحب النظر إليه بشعره المتموج المسترسل إلى كتفيه، وبلحيته الطويلة، وعينييه الغائرتين ذات النظرة الثاقبة، وجبينه العريض، كان صورة مثالية للشاعر الرومانسي».<sup>35</sup> شجعت هذه الجاذبية والمكانة المرموقة على وجود جو من النفاق والتملق حول طاغور الذي لُقّب بالرجل العظيم. وأشارت معظم السير الحديثة التي تحدثت عن حياة طاغور إلى أن دار السلام في ثلاثينيات القرن العشرين كانت «مناخاً كريهاً من التملق والنفاق والسخرية».<sup>36</sup> غير أن إنديرا لم تبَقْ هناك فترة طويلة أو تمتلك من النظرة الناقدة التي تؤهلها لأن تلاحظ ذلك.

وفي حقيقة الأمر فقد شعرت إنديرا بسعادة غامرة منذ لحظة وصولها في السابع من يوليو. وأرسلت خطاباً لوالدها قالت فيه: «وأخيراً أنا ذا في شانتينيكيتان! ... كل شيء هنا بديع وفاتن وعلى طبيعته».<sup>37</sup> رأت إنديرا أن المكان والمدرسة والبيئة المحيطة بل طاغور نفسه، كل شيء يروق بالفعل لمستوى اسم دار السلام. وأصبحت شانتينيكيتان ملاذاً وملجأً. وللمرة الأولى في حياتها، حسبما قالت فيما بعد، تخلصت من «مناخ الحياة السياسية الملتهب».<sup>38</sup> وأضافت: «لم أعش أبداً في مكان هادئ ... عشت دائماً في الزحام ... وكان ذلك ... إلى حد ما السبب في شعوري بالمرارة الشديدة ... نما بداخلي قدر هائل من الكراهية والمرارة، وأظن أنني غسلت هذه المرارة والكراهية من نفسي في شانتينيكيتان».

وقد كانت شانتينيكيتان المكان الذي «تفتّح فيه عقلها وروحها».<sup>39</sup> وكشفت البيئة والناس والمناخ — كل القوى الخارجية — لإنديرا مركزاً ثابتاً بداخلها حيث جعلها تشعر بالأمان كما في كشمير، وقالت عن ذلك: «ما تعلمته في شانتينيكيتان هو المقدرة على الحياة بهدوء داخل نفسي بصرف النظر عما يحدث بالخارج. ولقد ساعدني هذا الدرس كثيراً على مواصلة الحياة». وكان ساتياجيت راي، المخرج السينمائي الشهير، الذي كان بهذه المدرسة في مطلع أربعينيات القرن العشرين قد تحدث عن المدرسة بكلمات مشابهة إذ قال: «إذا لم تكن شانتينيكيتان قد قدمت لنا أي شيء آخر، فإنها شجعت التأمل والتعجب في أقل العقول إبداعاً».<sup>40</sup>

وعلى الرغم من مخاوف إنديرا فقد تكيفت بسرعة مع الطعام وظروف المعيشة في نزل الطالبات المعروف باسم «سري بهافان أشرام» حيث شاركتها الغرفة، المطلية باللون الأبيض وأرضيتها من الحجر، ثلاث فتيات.<sup>41</sup> كانت الفتيات ينمن على حصير على الأرض، ويستحممن بمياه باردة ويصببن الماء على أجسادهن من دلو، ويستخدمن مرحاضًا بالخارج. لم يكن بالنزل كهرباء، وكان جرس المدرسة يوقظهن في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحًا. وكن يرتبن فراشهن ويستحممن ويطبخن ويتناولن إفطارهن، ويكنسن ويمسحن أرضية الغرفة قبل أن يحل موعد اجتماع التأمل وتلاوة التراتيل في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا. وتبدأ الدروس بعد ذلك بنصف ساعة. درست إنديرا اللغتين الإنجليزية والهندية والتربية المدنية والكيمياء واللغة الفرنسية التي درسها لها كاهن بوذي ألماني اسمه لاما جوفيندا (اسمه الأصلي إيرنست هوفمان). كان من بين هيئة التدريس مدرس ألماني آخر يدعى فرانك أوبردورف. كان أوبردورف وجوفيندا مدرسين دائمين، وضمت المدرسة أساتذة أوروبيين دائمين مثل مؤرخ فن مجري اسمه فابري، نجحت إنديرا في تنظيم حملة لمقاطعته بعد رفضه خلع حذائه والبقاء حافي القدمين شأنه شأن الآخرين.

وفي سجن ديहरادون كان نهرو يتوق إلى معرفة أخبار إنديرا في شانتينيكيتان. وكتب إليها خطابًا في ١٢ يوليو عما يراه عيوبًا في النظام الأكاديمي بالجامعة قائلاً: «إنها لا تقدم تعليمًا حديثًا يناسب الحياة ... العصرية. بل تركز على الجانب الفني أكثر من اللازم».<sup>42</sup> وحثها على أن تدرس مادتين علميتين على الأقل، ولكنها لم تدرس سوى الكيمياء وسرعان ما تركتها لكي تتجنب الرسوب في الامتحان. كان مستوى إنديرا ضعيفًا أيضًا في اللغة الهندية التي درسها لها عالم شهير يدعى «هزاري براساد دويدي» الذي كان يقضي معظم الوقت في محاضراته يتلو قصائد الشعر. وكتبت إنديرا إلى أبيها خطابًا تخبره بمشاكلها قائلة: «ليست لدي أي خلفية عن اللغة الهندية، وإنني لا أعرف شيئًا بالمرّة عن قواعدها».<sup>43</sup> غير أن اللغة الهندية لم تكن كالكيمياء؛ إذ كانت مادة إجبارية، ولذلك فقد ثابرت ونجحت بصعوبة.

كانت المادة المحببة لإنديرا هي الرقص المانيبوري وهو رقص هندي كلاسيكي، وهي المادة التي أصبحت تعشقها، والرقص المانيبوري يمتاز بأنه الأكثر رشاقة وجمالاً للعناصر الإيقاعية من بين الرقصات الهندية الكلاسيكية الأساسية الأربعة. أحرزت إنديرا تقدمًا سريعًا في الرقص وسرعان ما أصبحت تشارك في عروض الجامعة. وقد كان التحيز الفني في شانتينيكيتان من الأسباب المهمة التي دفعها للنجاح بها. وباستثناء الآداب لم

تكن الفنون تمثل أهمية لأسرة نهرو. وفي شانتينيكيتان لم تتعرف إنديرا على الرقص فحسب، بل تعرفت أيضًا على الموسيقى (الكلاسيكية سواء الهندية أو الأوروبية)، والمسرح والرسم والنحت والحرف من جميع الأنواع. واكتشفت حساسيتها الجمالية وأيضًا قدرتها على الإبداع. كان الرقص أهم فن لها ولكن الفنون الأخرى أسعدتها، وفي شانتينيكيتان أيضًا بدأت إنديرا ولعها بالألوان، ولم يكن هذا الولع متعلقًا بالفنون البصرية فحسب، بل أيضًا بالعالم الطبيعي، بل في مجالات عادية مثل الأقمشة. فكانت ألوان ملابسها، عادة الساري، بداية من ذلك الحين من اختيارها — إما على حسب حالتها النفسية، أو المكان الذي ستذهب إليه، أو الموسم، أو ما يحدث في العالم — وكأنها أصبحت جزءًا من عمل فني أكبر. وظلت الألوان التي ترتديها إنديرا فيما تبقى من حياتها مسألة بالغة الأهمية فهي تتغير وتكشف عما يدور بداخلها.

استمر نهرو في النظر لتعليم إنديرا في شانتينيكيتان من خلال منظور أكاديمي ضيق، وأراد متابعة تقدمها الدراسي. وطلب منها أن ترسل إليه أوراق امتحاناتها «بالبريد مباشرة إلى [ديهرا دون]. فيجب أن أراها».<sup>44</sup> وواصل نهرو مضايقتها بشأن لياقتها البدنية فقال لها: «وماذا عن التدريبات البدنية؟ لم تذكر لي أيًا منها. إياك أن تصبchi مثل الفتيات البنغاليات الرقيقات والممشوقات القوام العاجزات عن أداء التمارين الصعبة. وإذا لم تكوني مرتبطة بفعل شيء في الصباح فمارسي الجري».<sup>45</sup>

وفي مطلع شهر أغسطس بعد مرور شهر من وصولها إلى شانتينيكيتان وصلتها برقية تقول: «كامالا أصيبت بنوبة حادة من مرض ذات الجنب، وساءت حالتها الصحية بشدة، وارتفعت درجة حرارتها وعانت مشاكل في التنفس». استقلت إنديرا أول قطار متجه إلى كلكتا ثم إلى مدينة الله آباد. وصلت في التاسع من أغسطس لتجد المنزل يعج بأقاربها وبالأطباء والمرضات يرتدين ملابسهن البيضاء. ونظرًا لحالة كامالا الصحية الحرجة أُفرج عن نهرو وخرج من السجن بعد وصول إنديرا ببومين. أدرك نهرو وإنديرا أن كامالا ربما لن تتعافى، وعن هذه الفترة كتب نهرو فيما بعد يقول: «إن التفكير في أنها ربما ترحل وتتركني كان يمثل هاجسًا لا يحتمل»، ولكن برغم قلقهما البالغ لم يتحدثا معًا بشأن مخاوفهما.<sup>46</sup>

تحسنت صحة كامالا بعض الشيء في الأسبوع التالي، وفي ٢٣ أغسطس أرسلت السلطات البريطانية خطابًا لنهرو تخبره أن فترة الإفراج عنه قد انتهت، ويجب أن يعود إلى سجن ديهرا دون. وبعد ذلك بعدة أيام رحلت إنديرا إلى شانتينيكيتان وهي متلهفة على

العودة برغم قلقها على صحة أمها. واعترفت فيما بعد قائلة: «الحقيقة أن حياتي [عندئذ] كانت قاسية وكنت بحاجة لأن أنعم بالحرية حتى أستطيع الاستمرار.» وفي أغسطس عام ١٩٣٤ كان لآناند بهافان الرائحة نفسها والمناخ نفسه القابض للصدر الذي كان به قبل ثلاثة أعوام عندما كان موتيلال يرقد فيه وهو يُحتَضَر قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ولكن إنديرا رأت أنها لا يمكنها أن تترك وراءها كل شيء بهذه السهولة. وفور عودتها إلى شانتينيكيتان حلمت ذات ليلة أنها «تطفو فوق بحر شاسع مظلم ووجدت أنها لا تستطيع السباحة. ثم غشيها الموج وعندها استيقظت من نومها»<sup>47</sup> سيطرت على إنديرا فكرة أن أمها تُركت وحيدة وأهملت في غرفتها بالطابق الأعلى في آناند بهافان. فكتبت الرسالة الآتية إلى نهر و هو في سجن ديहरادون:

هل تعرف أي شيء عما حدث بالمنزل وأنت غائب؟ أتعرف أن المنزل امتلأ بالناس عندما كانت حالة أمي الصحية سيئة للغاية، ومع ذلك فلم يقيم أي منهم برؤيتها أو الجلوس معها بعض الوقت، وقد كانت تتألم وحدها ولم يوجد أحد ليمد لها يد العون. ولم تحظَ ببعض الراحة إلا عندما قدم ابن عمها الطبيب مادان أтал، وعندما أُفرج عنك تغير كل شيء؛ إذ وفد الناس من كل حذب وصوب يسألون عنها ويجلسون معها. أما الآن وقد عدت مرة أخرى إلى السجن ولم يعد مادان أтал يأتي للمنزل كثيراً كما كان من قبل، فهناك خطر في أن تُترك أمي وحيدة ... وفور أن تقوى أمي بالقدر الكافي ينبغي نقلها إلى أي مكان خارج مدينة الله آباد.

وقبل أن تنهي خطابها قالت لأبيها:

«أنت نفسك لا تبدو بصحة جيدة.» وعلى النقيض من هذه الجملة الأخيرة جاءها خطاب من والدها قال فيه: «سأني للغاية أن أعلم مدى ضعفك الجسماني حتى لم تعودي قادرة على أداء التدريبات الرياضية البسيطة ... كم أود لو لم تتركي لجسدك الفرصة في أن يصبح ضعيفاً ومترهلاً. وإن عدم اكتمال لياقتك البدنية هي لي بمنزلة خطيئة كبيرة يرتكبها المرء»<sup>48</sup>

ومن الواضح أن قلقهما بشأن كامالا أثر على وجهة نظر كل منهما لصحة الآخر. فزع نهر و من حديث إنديرا عن تعرض أمها للإهمال في آناند بهافان، ولكنه كره أن يشير بأصابع الاتهام إلى أحد. رأى نهر و أن نان بانديت، بطبيعة الحال، هي السبب

الرئيسي وراء هذا الإهمال، ولكنه لم يذكر ذلك صراحة، وأثار نهرو الموضوع مع أخته، على مضض، في خطاب أرسله لها من سجن نايني في مطلع سبتمبر. إذ قال إنه لاحظ في آخر زيارته أن «هناك في بعض الأحيان اهتمامًا بتمريض كامالا والعناية بها، وفي أحيان أخرى يكون هذا الاهتمام أقل مما ينبغي». وأضاف أنه بشكل عام يحزنه «انعدام الانسجام الذي يحدث بين الحين والحين، وأي مقدار طفيف من عدم التعاون ... في أسرتنا ... ولذا فإنني أرجو أن تتخلصي من أي نغمت متنافرة ربما تكون تسربت على نحو عفوي».<sup>49</sup>

لم يكن من المستغرب أن تظل حياة كامالا في آناند بهافان منعزلة ومختلفة. استدعت إنديرا من جديد للمنزل في شهر أكتوبر حتى ترافق أمها في رحلتها إلى بهوالي حيث ستعالج في مصحة الملك إدوارد الخامس التي يديرها البريطانيون. أعدت إنديرا حقيبة والدتها، وبدأت هي وأمها ومادان أтал وفيروز غاندي وهاري لال خادم نهرو رحلة طويلة بالقطار ثم بالسيارة إلى مدينة بهوالي في ١٠ أكتوبر. وبعد ذلك بأسبوع نُقل نهرو من سجن ديها دون إلى سجن ألمورا بالقرب من بهوالي حتى يمكنه زيارة كامالا مرة كل ثلاثة أسابيع (وليس مرة أو مرتين أسبوعياً مثلما أعلن صمويل هوار وزير الدولة لشئون الهند في البرلمان في لندن).

قضت كامالا الشهور التسعة التالية على فراش المصحة في بهوالي. وأظهرت صور الأشعة أن رئتها اليسرى مصابة بدرجة كبيرة، وبدأت في تلقي العلاج بطريقة الاسترواح الصدري الصناعي، وهي طريقة بشعة وخطيرة للعلاج؛ إذ يجري إدخال إبرة إلى صدر المريض كل بضعة أيام حتى يُقلل الهواء في الرئة [انخماص الرئة] عن طريق إدخال الهواء في الغشاء البلوري المحيط بالرئتين. تناولت كامالا المورفين في الليلة التي سبقت «تزويد رئتيها بالهواء»، وفي اليوم التالي خُدِّرت تخديراً موضعياً قبل أن يضع الطبيب إبرة مجوفة في صدرها ويضخ فيه الأوكسجين. لم يكن تأثير الاسترواح الصدري الصناعي يظهر على الفور بل في بعض الأحيان لم يكن يظهر لها أي تأثير على الإطلاق، وعندما تنجح هذه العملية فإن الأمر يتطلب الحقن خمس مرات أو ستاً خلال أسبوعين حتى يقل الهواء في الرئتين ثم يتم بعد ذلك «إعادة ملء الرئتين». وكان من الشائع أن تتسبب هذه العملية في آثار خطيرة مثل الانسداد الغازي للأوعية الدموية، وصدمة الجنبه، والتهاب الغشاء البلوري (وهي آثار كانت تؤدي كثيراً للوفاة قبل ظهور المضادات الحيوية). ولكن على الرغم من كل هذه المخاطر فقد كان الاسترواح الصناعي من الجراحات الشائعة؛

لأنه كان يُظن أن الرئة لو فُرغت من الهواء فيمكنها أن تستريح وتشفى نفسها بنفسها، وبذلك يشفى المريض تمامًا.<sup>50</sup>

أقامت إنديرا مع أمها في بهوالي لمدة قاربت الشهر. وفي الثاني من نوفمبر أرسلت لأبيها خطابًا قالت فيه: «لم تكن أُمي بصحة جيدة خلال الأيام الأخيرة الماضية؛ فدرجة حرارتها ارتفعت ... وشعرت بالوهن والضعف. أجرت أُمي أمس الأول العلاج بالاسترواح الصدري الصناعي للمرة الخامسة.» ثم أضافت أن أمها رغم ذلك زاد وزنها ثلاثة أرطال، وأصبح وزنها ثمانين رطلاً.<sup>51</sup> وخلال هذه الإقامة الطويلة في بهوالي زارت إنديرا والدها مرة واحدة في سجن المورا. ولكن الاثنين تشاجرا أثناء هذه الزيارة، غير أن سبب هذا الشجار غير معلوم. وهددت إنديرا «بعدم مجيئها مرة أخرى [لزيارته] لمدة ستة شهور»، ثم التزمت الصمت وأدارت له ظهرها وغادرت المكان.<sup>52</sup>

لم يحظَ فيروز باهتمام إنديرا ويصبح جزءًا من حياتها إلا عندما ذهبت إلى بهوالي مع أمها والآخرين، مع أنه في ذلك الحين كان قد تقدم لخطبتها مرتين على الأقل. فمن يا ترى فيروز غاندي، ذلك الرجل الذي يوجد في كل مكان، الذي كان فيما سبق من الزوار الدائمين لأناند بهافان وأصبح الآن رفيق كامالا وملازمًا لها في المصحّة؟ وفيروز هذا لا تربطه أي صلة قرابة بالمهاتما غاندي، فهو رجل بارسي مجوسي يحمل اسمًا لعائلة جوجاراتية، وهو آخر العنقود في أسرة مهندس بحري يدعى جيهانجير فاريدون غاندي وزوجته راتيمي. عاش جيهانجير غاندي وأسرته في بومباي، ولكن فيروز قضى معظم حياته في مدينة الله آباد مع خالته غير المتزوجة الطيبة «شيرين كوميسارات» التي تبنته وتولت مسئولية تربيته. كانت خالته جراحة بارة، وفي الله آباد، كانت مسئولة عن اثنتين وخمسين ضاحية يخدمها مستشفى دافرين للسيدات. وتبوأ مكانة اجتماعية رفيعة في الله آباد. ولكن ترى لماذا تتحمل هي المسئولية الكاملة عن ابن شقيقتها؟ الإجابة هي أن ابن أختها من المحتمل أن يكون في حقيقة الأمر ابنها هي شخصيًا. وإذا ما صح هذا الأمر فإن أحد المرشحين المحتملين لأن يكون أباه هو محام شهير يمارس مهنته في المدينة ويدعى راج بهادور براساد كاكار.<sup>53</sup>

وحقيقة عدم العثور على شهادة ميلاد لفيروز غاندي، وأيضًا حقيقة أن مستشفى الولادة في بومباي لم تسجل في دفاتها أن راتيمي غاندي قد وضعت طفلًا بها في ١٢ سبتمبر ١٩١٢ يشيران إلى أن شيرين كوميسارات قد تكون بالفعل أم فيروز الحقيقية.

ومهما يكن والدها فيروز فإن جيهانجير فاريدون غاندي زوج راتيماي توفي في مطلع عشرينيات القرن العشرين. وبالتالي انتقلت راتيماي وأطفالها الأربعة إلى الله آباد ليعيشوا جميعاً مع شيرين وفيروز. كان فيروز طالباً في مدرسة «بيديا ماندير» الثانوية، وبكلية إيونج كريستيان، ومن الواضح أن فيروز ليست له أي اهتمامات سياسية بالمرة قبل مظاهرة كلية إيونج كريستيان التي ألقت به في مدار عائلة نهرو، وجعلت منه على الأخص تابعاً وفياً لكامالا.

غير أن فيروز لم يكن تابعاً وفياً لكامالا فقط. فعندما اتخذ البريطانيون عام ١٩٣٠ قرارهم بحظر حزب المؤتمر قبض عليه وسُجن في سجن فايزه آباد جنباً إلى جنب مع لال بهادور شاستري، رئيس لجنة حزب المؤتمر في الله آباد، الذي سيشغل فيما بعد هذا الحادث بسنوات طويلة منصب رئيس وزراء الهند لمدة تسعة عشر شهراً في الفترة بين رئاستي جواهر لال نهرو وإنديرا غاندي للوزراء. وعقب الإفراج عن فيروز صار من الناشطين في الحملة المناهضة بعدم دفع إيجارات الأراضي الزراعية في الأقاليم المتحدة خلال مطلع ثلاثينيات القرن العشرين. وهكذا سُجن فيروز للمرة الثانية عام ١٩٣٢، ثم سُجن أيضاً عام ١٩٣٣ بعد أن أرسله نهرو إلى القرى ليعرف أحوال الفلاحين الذين شاركوا عام ١٩٣٢ في حملة عدم دفع الإيجارات، ويتحقق بنفسه من قدر معاناتهم على يد السلطات.<sup>54</sup> يخلص كل البارسيين تقريباً للحكم البريطاني في الهند، وقد غضبت أسرة فيروز بشدة بسبب مشاركته السياسية وتقرّبه من عائلة نهرو. زعموا أن نشاطه السياسي سيتسبب في تعريض منصب خالته الحكومي الطبي للخطر، وسيمنع شقيقه «فاريدوم» من إنهاء دراسة القانون، وسيحرم شقيقته «تيهmina» من إمكانية الحصول على درجة الماجستير من جامعة الله آباد. وعندما جاء المهاتما غاندي إلى مدينة الله آباد عند موت موتيلال نهرو توسلت إليه راتيماي أن يقنع فيروز بالابتعاد عن السياسة ومواصلة دراسته. ولكن غاندي عندما سمع ذلك رد على الفور قائلاً باللغة الجوجاراتية: «إذا كان بالإمكان أن يعمل معي سبعة أولاد مثل فيروز فسأحصل على الاستقلال في سبعة أيام. وفي هند المستقبل لن يسأل أحد هل حصل ابنك على الليسانس أو الماجستير، ولكن الجميع سيسأل كم مرة سجن فيها بسبب أنشطته الوطنية.»<sup>55</sup>

وعلى نحو شخصي فإن فيروز كان يختلف اختلافاً شديداً عن جواهرلال نهرو. ولعل الصفة الوحيدة المشتركة بينهما هي قصر قامتهما؛ ففيروز كان طوله خمس أقدام وست بوصات. ولكن على النقيض من نهرو كان فيروز بديناً ذا شعر أسود كثيف. واتصف بالسامة، ولكن سلوكياته لا تمت بصلة لسلوكيات عائلة نهرو الأرستقراطية المهذبة. لم



يكن فيروز مثقفًا، وكان طالبًا لا يبالي بدراسته شأنه شأن إنديرا، غير أنه كان يشترك مع إنديرا في عشقها للموسيقى الكلاسيكية وللزهور. ويرى البعض أن فيروز كان قاسيًا يحدث صخبًا وضجيجًا، في حين يرى البعض أيضًا أنه كان صريحًا على نحو محبب. وفي حقيقة الأمر فإنه بالطبع كان شخصًا عاطفيًا، يحدث صخبًا وضجيجًا، ومقبلًا على الحياة بدرجة هائلة، ولديه شهية كبيرة للطعام والشراب والجنس.

ظل فيروز زير نساء طوال حياته، وهي حقيقة من الصعب أن تنسجم مع إمكانية إخلاصه لكamالا نهرو الزاهدة بالغة الرقة التي أصبحت في أيام مرضها متدنية للغاية، وفي حقيقة الأمر فإن المشاعر التي حملتها كامالا لفيروز غير واضحة. وقد جرى تفسير علاقتهما المثيرة للريبة على أنها أشبه بعلاقة الحب التي جمعت دانتى وبياتريس تلك المرأة الإيطالية العفيفة التي ألهمته كتابة الكوميديا الإلهية، حيث جرى تشبيه فيروز بعاشق كامالا الطاهرة الورعة. ومع ذلك قام أحد زعماء حزب المؤتمر ورفيق نهرو في السجن ويدعى مينو ماساني (الذي ترك حزب المؤتمر فيما بعد ولعب دورًا مهمًا في تكوين حزب سواتانتر ندي الاتجاه اليميني) بترديد شائعات تفيد بوجود علاقة غرامية تجمع بين كامالا وفيروز الذي يصغرها باثني عشر عامًا.<sup>56</sup> ولم يكن ماساني الوحيد في مدينة الله آباد الذي يعلم بأمر هذه الشائعات. ففي حقيقة الأمر وُضعت ملصقات على الجدران في المدينة تؤكد على وجود هذه العلاقة غير الشريفة، والمفارقة أن من وراء حملة تشويه السمعة هذه لم يكونوا ممن يتعاطفون مع البريطانيين، بل من أعضاء حزب المؤتمر.<sup>57</sup>

وفي حقيقة الأمر فإن الحديث عن وجود علاقة عاطفية تربط بين كامالا وفيروز هو أمر لا يصدقه عقل؛ نظرًا لحالة كامالا الصحية وأيضًا لقيمتها وللانعدام المطلق للخصوصية في قصر آناند بهافان، وإن كان هذا لا يمنع أنهما سافرا معًا. وبالإضافة إلى ذلك فمن غير المحتمل أيضًا أن يكون فيروز قد تقدم لخطبة ابنة المرأة التي يرتبط معها بعلاقة عاطفية. والاثنتان في نهاية المطاف كانا يعيشان في ريف الهند خلال ثلاثينيات القرن العشرين وليس في باريس خلال القرن الثامن عشر التي صورها الروائي دي لاكلوس في روايته «علاقات خطيرة» مكانًا للعردة والفسوق. ومع ذلك فإن نيران الشائعات التي قالت بوجود علاقة حميمية بين كامالا وفيروز لم تخدم قط.

ولو تنامى إلى سمع إنديرا أنباء هذه الشائعات المزعومة (سواء في ذلك الحين أو فيما بعد) فما كانت ستصدقها. فعندما التقت بفيروز للمرة الأولى في بهوالي، وبدأت في النظر إليه بعين الاهتمام بدا كأنه وجود أساسي ينبض بالحياة وسط عالم من المرض والموت

في مصحة. وفيروز كان وسيماً مفعماً بالأمل ونافعاً ومخلصاً لكامالا بنفس قدر إخلاص إنديرا لها. وهكذا فقد كان اقترابهما أمراً محتوماً. وكان فيروز لإنديرا بمنزلة حليف هي في أمس الحاجة إليه.

وفي ليلة ٣١ ديسمبر عام ١٩٣٤ كان جواهرلال وإنديرا مع كامالا (وفيروز) في بهوالي لاستقبال العام الجديد. ومن الغريب أنه مع وجود كامالا في المصحة ونهرو في السجن فإن معنوياتهما كانت مرتفعة وهما يتطلعان بأمل شديد لقدوم عام ١٩٣٥ وما يتلوه من أعوام. وفي اليوم التالي عاد نهرو إلى سجن ألما وسجل في يومياته بالسجن الكلمات الآتية:

«لم يسبق لي أن قضيت مثل هذا الوقت الطويل والممتع مع [كامالا] ... تحدثنا كثيراً عن الماضي والحاضر والمستقبل ... تركتها اليوم وهي مشبعة بالرضا وبالسلام ... أدهشتني حقيقة كم نحن مرتبطان كل إلى الآخر، وكم تعني لي وأعني لها ... ولأندو يبدو أنها تتكيف جيداً مع الجميع في شانتينكيتان. وبصفة عامة فإنها تكبر وتنضج كما ينبغي ... وفيروز، يا له من شخص حلو المعشر! فبدونه لتحول الأمر إلى كارثة ... ولم يعد لديها [أي كامالا] سوى أصدقاء قليلين، في الحقيقة لم يعد هناك سوى فيروز والمرضة.»<sup>58</sup>

لكن عندما زار نهرو كامالا بعد ذلك في نهاية شهر يناير وجدها قد تغيرت كثيراً، في البداية كانت لا تستجيب له فحسب فظن أن ذلك بسبب مرضها، ولكن فيما بعد قالت له، كما أخبر بنفسه، إنها «تريد أن تعرف الرب حق المعرفة وستركز كل تفكيرها في ذلك، واستعداداً لهذا الأمر ينبغي لعلاقتنا أن يعتريها بعض التغيير. يبدو أنني كنت أسير في درب بعيد عن طريق الرب». وقالت كامالا لنهرو إنها لن تقيم معه أي علاقة جنسية بعد ذلك؛ إذ إنها ترغب في الالتزام بعهد البراهمشاريا «العزوبة». ذهل نهرو من رفضها له، وخاصة بعد العلاقة الحميمة بينهما في ليلة رأس السنة. ولطالما غضب نهرو من التزام كامالا الديني لأن هذا الالتزام ليس ذا فائدة للدين نفسه، وأنه في الوقت نفسه «أصبح يشغل مكاناً أقل فأقل في ذهنها المعاد تشكيكه. بدا الأمر كما لو كنت في طريقي لأن أفقدها، كانت تتسرب من بين أصابعي في الوقت الذي كرهت فيه هذا الأمر وشعرت باليأس». وإذا عدنا إلى سجن ألما نجد نهرو يكتب في اليوم التالي: «الوحدة في كل مكان. لا شيء يمكن أن أعلق به: لا قوارب نجاة أو ألواح خشب طافية يمكن أن أتشبث بها في

مواجهة الأمواج العاتية.» كان يغرق ولكن ما من شيء يستطيع فعله ... سوى الجلوس في ثكنات السجن وحيدًا والتفكير في مدى الفضاة التي يمكن أن تكون عليها الحياة.<sup>59</sup> قد يساء تفسير مسألة رفض كامالا إقامة علاقة جنسية مع نهرو واتخاذ ذلك دليلًا على أنها كانت على علاقة عاطفية بفيروز، وخصوصًا عند النظر إلى ما حدث خلال الزيارة التالية لنهرو؛ إذ انتابت فيروز آلام شديدة في المعدة في المساء، واضطر نهرو إلى الجلوس معه وتمريضه طوال الليل بدلًا من قضاء الليل مع كامالا. وعن هذه الليلة قال نهرو: «كانت ليلة مرهقة لم أحظَ فيها إلا بقدر يسير من النوم.»<sup>60</sup> غير أن إحدى الرسائل التي أرسلتها كامالا لصديقة مقربة لها تظهر أنها كانت تمر بمرحلة من التقوية لمعتقداتها الدينية. قالت كامالا في هذه الرسالة: «إن جواهرلال غاضب مني. لا يوجد أحد معي الآن إلا الرب. العالم شبكة وإذا وقع المرء في شراكها فلن يكون هناك سوى المزيد من الحزن والأسى. ولقد ارتكبت خطأ كبيرًا إذ قضيت ... سنوات من حياتي وأنا ربة بيت. فإذا كنت قد بحثت عن الرب خلال تلك الفترة كنت سأجده.»<sup>61</sup>

وبعد أن زاد اعتلال صحتها وأصبح احتمال اقتراب موتها أمرًا حقيقيًا لها نأت كامالا بنفسها عن «شبكة» العالم. وبدأت تدريجيًا في التخلي عمّا يربطها بالحياة وفي ذلك ما يربطها بزوجها وابنتها. وفي ذلك الحين بدأت كامالا تتصرف باعتبارها سترحل عن دنياهم. وباتت تفكر في أنها ستكون حرة عندما تموت. ولكن جواهرلال وإنديرا كانا لا يزالان غارقين في هذه الشبكة وانحنيا «للمزيد من الحزن والأسى».

وفي الوقت نفسه انشغلت إنديرا بعاصفة عاطفية هبت عليها في شانتينيكيتان. إنه فرانك أوبردورف، الألماني الذي يدرس لها اللغة الفرنسية بالجامعة، الذي صارحها بحبه، ووجدت إنديرا نفسها للمرة الأولى في حياتها منجذبة لرجل. لم يكن حبًا من ذلك النوع الذي يحدث في سن المراهقة. فقد كانت إنديرا ناضجة تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وأوبردورف في منتصف الثلاثينيات. وقد التقى أوبردورف مع طاغور في أمريكا الجنوبية عام ١٩٢٢ وجاء للتدريس في شانتينيكيتان عام ١٩٣٣. بدا واضحًا أنه أحب إنديرا لشخصها وليس لأنها تنتمي إلى عائلة نهرو. وربما كان هو أول رجل ينظر إليها باعتبارها إنسانة. ظلت إنديرا تردد على مسامعه مرارًا وتكرارًا أنها إنسانة عادية في كل شيء باستثناء مصادفة «ميلادها وكونها ابنة لرجل رائع وامرأة استثنائية»، وفي حقيقة الأمر فإن هذه الكلمات تعبر عن تقييم لاذع ودقيق للنفس.<sup>62</sup>

وفي مارس عام ١٩٣٥ أصدر المشرف الطبي على مصحة بهوالي تقريرًا بشأن حالة كامالا. جاء في التقرير أن وزنها زاد من ٧٧ رطلاً إلى ٩٤ رطلاً في حين انخفض

نبضها من ١٢٠ إلى ١٠٠ نبضة في الدقيقة، واستقرت درجة حرارتها في المساء عند ٣٧.٧٤، وتحسنت شهيتها وقدرتها على الهضم، وقلت نوبات عدم قدرتها على التنفس. ولكن في الوقت نفسه كان هناك ما يسوء. فالأطباء كانوا لا يزالون «يتوقعون إصابتها بمرض السل ... وأظهرت صور الأشعة التي أُجريت على صدرها ... انخفاضاً جزئياً في كمية الهواء الموجودة برئتها اليسرى، وأظهرت أيضاً وجود التصاقات في الجزء العلوي من التجويف الصدري، إضافة إلى وجود السوائل حتى مستوى الضلع الرابع في الجزء القاعدي».<sup>63</sup> وجعلت هذه الالتصاقات من المستحيل مواصلة الاسترواح الصناعي، وهكذا تحولت كامالا إلى العلاج بالنوردولين، وأُخبرت أنه إن لم يطرأ على حالتها تحسن بعد استخدامها النوردولين فسيتم عليهما السفر لأوروبا وإجراء جراحة.<sup>64</sup>

لم تكن حالتها قد تحسنت بحلول شهر أبريل وبات من المحتم أن تسافر للخارج. كانت هذه المسألة صعبة؛ إذ كان نهرو خلف جدران السجن ولم يكن قادراً على مصاحبته. وعندما علم نهرو بالأمر تطرق إلى مسألة أن تصاحبها ابنتها في رحلتها للخارج، غير أن إنديرا لم تكن تريد الرحيل عن شانتينيكيتان، وكتبت إليه تقول: «لست حريصة على الذهاب ... وإن كان هذا لا ينفي أنني أرغب في أن أكون بجوار أمي، ولا سيما أثناء إجرائها الجراحة».<sup>65</sup> لم يكن لدى إنديرا الرغبة في الرحيل عن قصر السلام أو ربما عن فرانك أوبردورف أو كليهما.

وفي ١٣ أبريل، عندما كانت إنديرا تتدرب على أداء أول رقصة بمفردها في أحد عروض الرقص الكلاسيكي الهندي المستمدة من ولاية مانيبوري، استدعاها طاغور إلى مكتبه وكان قد تسلم لتوه برقية من نهرو، أخبرها طاغور بحالة أمها السيئة وأن عليها الذهاب على الفور إلى أوروبا بأسرع ما تستطيع. وعندئذ توجهت من فورها إلى سكن الطالبات وحزمت حقائبها. غادرت شانتينيكيتان في اليوم التالي واستقلت القطار إلى كلكتا ثم إلى بهوالي. وبعد ذلك بأسبوع كتب طاغور رسالة إلى نهرو يقول فيها: «ودعنا إنديرا بقلوب مثقلة ... فقد كانت مصدر زهو لهذا المكان ... وإن جميع أساتذتها — بصوت واحد — يمدحونها وإنني أعرف أنها محبوبه للغاية لدى زميلات الطالبات. وكل ما أرجوه أن تتحسن الأمور وأن تعود إلينا لتستأنف دراستها».<sup>66</sup> غير أن صفحة شانتينيكيتان في حياة إنديرا ستطوى دون رجعة.

وجدت إنديرا في بهوالي فيروز وبالطبع كامالا، أخبرها فيروز أنه يحاول تدبير وسيلة للذهاب معهما إلى أوروبا. وفي الوقت نفسه كتب نهرو من سجن المورا إلى ابنته «رسالة

وداع» على الرغم من أنه سوف يراها في بهوالي عند الرحيل. قال نهرو في هذه الرسالة: «إنني أود أن تغادري الهند وأنت في حالة ذهنية صافية ويحدوك الأمل. وفي عمرك هذا يجب أن تنشئي في سعادة وإلا فإن شبابك ستثقله الهموم والقلق ... وإنني لا أريدك أن تصبحي عدوانية أو ساخطة.»<sup>67</sup>

وبالنظر إلى الظروف لم يكن من المنطقي أن يتوقع المرء أن إنديرا ما إن ترحل عن الهند حتى تغمرها روح الشباب وتشعر بالأمل وتصبح خالية من الهموم. لقد أبعدت إنديرا عن أول فترة في حياتها نعمة فيها بالسلام والبعد عن صخب السياسة. لم تكن ترغب في الرحيل عن شانتينيكetan والذهاب إلى أوروبا. فقد كان أبوها يقبع خلف قضبان السجن وأمها تعاني مرضًا شديدًا. وبالإضافة إلى ذلك فقد أُلقيت مسؤولية كبيرة على عاتق إنديرا حتى بالرغم من أن ابن عمها الطبيب مادان أثال سيسافر للخارج معهما. وقد كتب نهرو في خطاب لها: «أنت من سيتخذ جميع القرارات هناك ... أريدك أن تتولي [مسؤولية] الترتيبات سواء فيما يخص حجز غرف الفنادق [أو] حجز الإقامة في القطار ... عليك أن تعتادي على تدبر أمورك وحدك.»<sup>68</sup>

ذهب نهرو إلى بهوالي في ١٥ مايو ليودع كامالا وإنديرا، وبينما يجلس أمام فراش كامالا كتب تاريخًا طبيًا مفصلاً عنها ليأخذه معه إلى أوروبا ليطلع عليه الجراحين والأطباء هناك. لم يكن هذا اللقاء الأخير حميمًا أو حتى يتسم بالعاطفة المشبوبة. لقد تم على مرأى ومسمع سواروب راني وبيتي هاشينج اللتين حضرتا إلى بهوالي لتصطحبا كامالا للمنزل. ورحل الجميع بالسيارة إلى مدينة الله آباد ظهر ذلك اليوم. وفي مذكراته التي كتبها في السجن قال نهرو: «ودعتهم وسرعان ما بدأت رحلتي إلى ألورا. ذهبت عبر الطريق السريع بينما ذهبت هي عبر الطريق البطيء. ترى هل سنلتقي مرة أخرى؟ وأين؟»<sup>69</sup>

وبعد ذلك بـ عدة أيام استقلت إنديرا وكامالا القطار إلى بومباي ومعهما فيروز الذي كان عندئذٍ يخطط للسفر إلى أوروبا. وفي بومباي زاروا غاندي الذي أرسل لجواهرلال رسالة في ألورا يخبره فيها أنه لم يسبق له رؤية كامالا بمثل هذا القدر الكبير من الإيمان، غير أن هذه الرسالة لم تسر عن عقل نهرو الذي يتبع مذهب اللاأدرية. وفي ٢٣ مايو أبحرت كامالا وإنديرا ومادان أثال إلى ألمانيا على متن الباخرة «كونتي روسو» التي يعني اسمها «الكونت الأحمر». واستقل فيروز القطار عائداً إلى مدينة الله آباد وهو عازم على أن يتبعهم بأسرع ما يمكن.



## الفصل السادس

# في الغابة السوداء

«الصحبة على ظهر الباخرة ليست مشجعة على الإطلاق»، هكذا كتبت لوالدها بعد خمسة أيام من الإبحار فور أن دخلت الباخرة الإيطالية الكونت روسو البحر الأحمر. كانت معظم قمرات السفينة الخاصة بالدرجة الأولى مشغولة بالهنود الأغنياء، «والذين كانوا جميعاً يعانون مرضاً أو آخر وكانوا قاصدين فيينا لاستشارة ... الأطباء»<sup>1</sup> أما البقية الباقية — المكونة من الإيطاليين والأوروبيين الأصحاء — فكانوا يبقون على مسافة بعيدة من المرضى الموجودين على متن السفينة.

لم تعرف إنديرا الكثير عن شخصيات الركاب الآخرين. فقد كتبت تقول: «كل يوم توجد إما حفلات راقصة متنوعة أو سينما أو أي شيء آخر [ولكني] لا أحضر هذه الأنشطة، وأنا واثقة أنني لم أفقد الكثير، مع أن أُمي تعتقد أنني محبوسة في القمرة بسببها»<sup>2</sup> عندما وصلوا إلى قناة السويس انجذبت إنديرا لفكرة الذهاب إلى القاهرة وزيارة الأهرامات، ولكنها قررت ألا تفعل؛ لأن هذا يعني أن تترك والدتها يوماً كاملاً بليته. ولكن إنديرا زارت بورسعيد مع مادان أتا، وانطلقا للحصول على رسائلهم من مقر شركة توماس كوك، ولكنهما ضلا الطريق في متاهة من الأزقة الضيقة المتعرجة، وفي النهاية وجَّهت إليهما دعوة لدخول متجر هندي، حيث قام الرجل السندي الجالس على طاولة البيع «بالتعرف عليّ وسأل عن أُمي وعنك». ثم قادهما بنفسه إلى شركة كوك، واصطحبهما للتسوق، ورافقهما في العودة إلى السفينة، حيث قدم إليهما ثلاثة علب من حلوى اللبن، وقدم باقة من الزهور كامالاً.<sup>3</sup> ولم تستطع هوية إنديرا الاختباء حتى في شوارع بورسعيد المتربة التي تبعد آلاف الأميال عن منزلها. فقد كانت من عائلة نهرو.

كان هناك العديد من الرسائل التي بعثها والدها من سجن ألمورا ضمن الرسائل التي حصلوا عليها في بورسعيد. كان نهرو يريد أن يعرف بالطبع أحوال كامالا وإنديرا،

ولكنه كان شغوفًا أيضًا بمعرفة رأي إنديرا في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» الذي كان قد نُشر لتوه عندئذٍ. حرص نهرو على أن تكون هناك نسخة جديدة تمامًا بيد إنديرا في رحلتها من بمباي، ووقتئذٍ سألها عن أي الأجزاء في رسائله أعجبتها أكثر، وأخبرها عن تخوفه من أن تجد شرحه للاقتصاد مملًا؛ «إنه موضوع جديد عليك وسيستغرق وقتًا حتى تستطيعي تقبله.»<sup>4</sup> ومع دخولهم إلى البحر المتوسط كتبت له إنديرا: «أشتاق إليك كثيرًا. لا يوجد هنا من أتحدث إليه أو أتنزه معه، وعندما لا أكون مع أمي أشعر أنني وحيدة للغاية.»<sup>5</sup> وبرغم شعورها بالوحدة والملل على ظهر السفينة ظل كتاب «لمحات من تاريخ العالم» كتابًا مغلقًا في قمرتها، وبعد ذلك ظل مغلقًا أيضًا في حجرات الفنادق والقطارات والنُّزل في أنحاء أوروبا.

نزل الجميع في ترييستي في ٣ يونيو. وأقلت عربة الإسعاف كامالا وإنديرا ومادان أثال إلى محطة القطار حيث انطلقوا في الحال في عربة نوم في القطار متجهين إلى فيينا. وعند وصولهم في تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي قابلهم سوبهاش تشاندرا بوس — العضو الراديكالي البنغالي في حزب المؤتمر — الذي قادهم إلى فندق بريستول واستمر في زيارة كامالا يوميًا أثناء إقامتهم في فيينا. وكان الزميل والصحفي الهندي نامبيار (أو نانو كما كانوا يدعونه) يصحب بوس في زيارته لكامالا. كان نامبيار — الصديق المخلص لأسرة نهرو وأخو زوج القائدة الوطنية سروجيني نايدو — واحدًا من المجموعات الهندية المنفية لوقت طويل في أوروبا. أما بوس فكان في الخارج منذ عام ١٩٣٣ فقط. وجاء إلى فيينا في الأساس بسبب حالته الصحية الضعيفة، ولكنه استغل منفاه في الدفاع عن استقلال الهند، وقد كان في ذلك الوقت مشغولًا في تكوين تحالفات مع الفاشيين الإيطاليين والألمان.

في ١٠ يونيو كتبت إنديرا لوالدها أنها اصطحبت كامالا مع مادان أثال لاستشارة العديد من الاختصاصيين الطبيين في فيينا، ولكنها بعيدًا عن هذه الزيارات لم تعرف الكثير عن المدينة. فكانت تبقى حتى تلزم كامالا، ولكن أيضًا لأنه «كان من المرعب الخروج بالساري. فالك يستدير ويحدق ويرمقني من أعلى لأسفل حتى أشعر وكأنني أريد أن تبتلعني الأرض أو أعود ركضًا إلى الفندق.»<sup>6</sup> في الوقت نفسه صممت كامالا على أن تستكشف إنديرا فيينا وأن تتجنب شعورها بأنها غريبة، فذهبت إنديرا إلى محل ملابس وابتاعت ثوبين، ثم ذهبت إلى مصفف الشعر لتقص شعرها. لم يعد الآخرون يحدقون في



إنديرا عندما كانت تخرج في ثيابها الأوروبية وقصة شعرها القصيرة. أما بوس ونامبيار فقد انتقدا إنديرا لقيامها «بخلع الساري»، مع أنهما بالطبع كانا يرتديان الثياب الغربية بالخارج. ولكن نهرو كتب إليها: «أنا سعيد بأنك قصصت شعرك ... إنه من الأفضل أن تلتزمي بارتداء الفساتين ... فالساري ... ليس رداء امرأة عاملة، بل هو رداء الكسالى».<sup>7</sup> لكن إنديرا لم تنظر أبداً إلى الرداء من وجهة نظر وظيفية مطلقة. فقد كانت الملابس من وجهة نظرها تمثل وسيلة من وسائل التنكر أو العرض، فكانت توفر لها إما الاختباء أو الظهور. لم تكن الخيلاء من سمات إنديرا، ومع ذلك فحسها الفني القوي — حساسيتها العالية للألوان الملابس وأنسجتها وملمسها — يعني أن الملابس دائماً كانت تمثل شيئاً مهماً للغاية لها، حتى إنها لم تكن تهمل أبداً فيما يخص ارتداءها الثياب. ففي فيينا ترتدي الثياب وتصف شعرها بما يسمح لها بالاختلاط. وفي أوقات أخرى في أوروبا ترتدي الساري حتى تكون مميزة وسط الجميع. وبعد ذلك بكثير في الهند تطور معنى الأثواب من الساري الذي كانت إنديرا ترتديه — بألوانه وخامته وتصميمه — إلى شكل معقد من أشكال التعبير الشخصي والتواصل السياسي.

بحلول منتصف يونيو عام ١٩٣٥ كانت إنديرا وكامالا ومادان أтал قد غادروا فيينا إلى برلين حيث نُصحت كامالا بإجراء جراحة. وفي التاسع عشر أجرى البروفيسور أونفريشت عملية كي وإزالة للأورام الليفية الملتصقة والمتكونة في رئتيها. شاهد مادان أтал العملية المعقدة وكتب شرحاً مفصلاً بها إلى نهرو الذي أبهرته التكنولوجيا الطبية المتقدمة وكتب في مذكراته بالسجن يقول: «جرى إدخال مصباح كهربائي إلى الصدر عبر ثقب صغير، وهكذا شوهد ما بداخل الجسد، وأدخلت أيضاً عدسة مجهر».<sup>8</sup> وبعد استئصال الأورام الليمفاوية الملتصقة في صدرها كان من المرجو أن تستطيع كامالا الاستفادة من إجراءات لجراحة استرواح الصدر التي كان من المفترض أن تجريها عندما كانت في بهوالي. أحالها الأستاذ أونفريشت إلى مصحة في بادن فيلر في جنوب غرب ألمانيا من أجل «إجراء جراحة استرواح صدري أخرى»، وبعد أسبوع من الجراحة غادرت كامالا ومادان أтал برلين مباشرة.

أما إنديرا فقد ظلت هناك من أجل تفصيل فساتين أخرى. هكذا أخبرت والدها، ولكن في حقيقة الأمر كانت إنديرا نفسها مريضة بآلام حادة في المعدة، مثلما كتب مادان أтал بالفعل إلى نهرو (دون علم إنديرا). خضعت إنديرا لفحص بأشعة إكس، وتناولت

جرعة علاجية من مركب البزموت، وقيل لها إن عليها الخضوع لجراحة استئصال الزائدة الدودية. ولكن بعد رحيل والدتها ومادان أтал اختفت آلام معدة إنديرا فجأة وشعرت، لدهشتها، بأنها على ما يرام تمامًا. فألغيت عملية استئصال الزائدة الدودية، وحجزت لنفسها في فندق أدلون وقضت يومين من الإجازة في التسوق وزيارة حديقة الحيوان والتجول في الشوارع.

لكن جواً منذراً بالسوء كان يجتاح برلين، وهو ما بدا لها «إيذاناً بالحرب». فقبل ثلاثة أشهر، ورداً على معاهدة فيرساي، أنشأ هتلر وغورينغ القوات الجوية الألمانية (لوفتواف)، وبحلول يونيو كانت الطائرات تحلق فوق الرءوس طوال اليوم. وفي المساء «كانت الطائرات تحلق على مستوى منخفض وكان صوتها وأضواء البحث الصادرة منها تجعل النوم أمراً صعباً»<sup>9</sup> هذا بالإضافة إلى أن الصحف كانت تعج بأخبار خطط هتلر لضم النمسا. كانت إنديرا مثقلة بإحساس أن أمراً ما مشئوماً سيقع.

غادرت إنديرا فيينا وهي تشعر بالراحة لذلك واستقلت القطار الذي سيأخذها وكامالا بعيداً إلى بادن فيلر في الغابة السوداء بالقرب من الحدود السويسرية والفرنسية. كانت المدينة — وهي منتجع توجد به ينابيع مياه ساخنة تشتهر بخصائصها العلاجية — لا تزيد عن كونها قرية عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة مقسمين بين سكان دائمين وزوار مرضى. كان الرومان قد بنوا فيها حمامات وصل عمرها إلى ألفي سنة. وفي القرن الثامن عشر أُعيد اكتشاف الينابيع الحارة، ومنذ ذلك الحين وبادن فيلر تجذب إليها المعتلين والكسالى والأثرياء والمشاهير، والمحتضرين. حيث مات هناك عام ١٩٠٠ الروائي الأمريكي ستيفن كرين، وفيها أيضاً مات الأديب الروسي تشيخوف، أحد الكتّاب المفضلين لكامالا، عام ١٩٠٤.

وجدت إنديرا كامالا تعيش في أكثر المصحات خصوصية في بادن فيلر وهي مصحة هانز فالديك، كانت كامالا ترقد في المصحة تحت رعاية دكتور ستيفان، وممرضة اسمها أنيت، ومرافقة بالأجر وهي امرأة ألمانية شابة مرحة اسمها لويز جيسلر. أصبحت كامالا وإنديرا مغرمتين بلويز ولم يمر وقت طويل على وصولهما إلى بادن فيلر حتى تركت إنديرا البنسيون الذي كان مادان أтал يقيم به وأقامت في حجرة مشتركة مع لويز في بنسيون إيرهاردت. كان العيب الوحيد في ذلك المكان أن السيدة إيرهاردت رفضت أن يستخدم النزلاء الحمام؛ إذ إن «النزلاء» — كما نقلت إنديرا عن صاحبة العقار لنهر

قولها — «لا يجب أن يستحموا في مكانها». لحسن الحظ، كان لكامالا حمامها الخاص في المصحّة، ومن ثم استطاعت إنديرا أن تستحم هناك عندما كانت تذهب لزيارتها. وفيما بين الزيارتين اليوميّتين لوالدتها تتجول إنديرا في المدينة، بين الفنادق والبنسيونات، والعيادات والمصحات. كانت تتنزه في حدائق فندق «كوربارك» حيث توجد فرقة موسيقية تعزف موسيقاها يوميّاً في الهواء الطلق. وكانت تمشي أيضاً في الريف، عبر الحقول والبساتين ومزارع العنب، وداخل غابات الصنوبر. يُقال عن بادن فيلر إنها أكثر منطقة مشمسة في ألمانيا؛ حيث هواؤها النقي كافٍ لشفاء أكثر المرضى ضعفاً. ولكن الغابات مظلمة مما ذكر إنديرا بالقصة الأسطورية التي كتبها الأخوان جريم التي حملت عنوان «هانسيل وجريتل»، والتي قرأتها عندما كانت طفلة. لم تكن بادن فيلر مكاناً مناسباً لشابة صغيرة ينتابها القلق بشأن صحة والدتها، ويعتريها الخوف بشأن صحتها هي نفسها. فقد كانت الأطلال الرومانية والغابة السوداء المحيطة (شفارتز فالد) لا تقل فيما تضيفه من شؤم عن أضواء البحث الصادرة من الطائرات المحلقة فوق الرؤوس في برلين.

هذا بالإضافة إلى أن الأجواء الاجتماعية والسياسية لم تكن توحى بالسُرور. كانت بادن فيلر صغيرة جداً مما أجبر إنديرا على الذهاب إلى فرايبورج للتسوق، حيث شاهدت ما وصفته بـ «كيفية التعامل مع اليهود». فقد صادقها زوجان ألمانيان كبيران في السن وأخبرها أنهما واثقان من كونها من «الجنس الآري الخالص».<sup>10</sup> ولكن أسلوب هذين الزوجين كان استثنائياً. فإنديرا كانت تعلم جيداً أن الهنود في عقول الألمان ينقسمون إلى طبقتين: السود واليهود. فأخبرت والدها أيضاً أن «هناك دعاية كبيرة ضد الهنود في الصحف بسبب السياسة الخارجية لإقامة صداقات مع بريطانيا. ومن ثم لم يكن الأمر مقبولاً في بعض الأحيان».<sup>11</sup>

لغربة الأمر لم يعلق نهرو حول الموقف السياسي الأوروبي في خطاباته لإنديرا في بادن فيلر مع أنه كان أحد النقاد المبكرين والحادين فيما يخص موسوليني وهتلر في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» (الذي لم تعبأ إنديرا بفتحه حتى تلك اللحظة). وبدلاً من هذا بعث لها نهرو خطاباً وعظيماً آخر — الأقوى في كل ما بعث حتى ذلك الوقت — يسدي فيه النصائح بشأن صحتها، رداً على تقرير مادان أتا عن مرض إنديرا في برلين. فكتب إليها: «أنا لا أظن أنك على الأخص ستختلطين ... بمعشر الأطباء». وأعاد عليها عبارته القديمة التي اعتاد تكرارها أمامها بأن الصحة الجيدة تتحقق عن طريق «نسيان

الجسد بدلاً من العناية به كثيراً مثل نبات ينمو في الدفيئة». في الماضي كان نهرو قد أخبر إنديرا أنه يعتبر المرض «خطيئة»، والآن ها هو يقترح أن «الكلام عن الأمراض والمرض، إذا لم تكن هناك ضرورة، يجب أن يحظره القانون»، وحثها على قراءة رواية «إيرون» لصامويل بتلر التي يكون فيها المرض «جريمة، وكلما خَطُرَ المرض تغلظت عقوبته».

كذلك كان نهرو يعتبر نفسه مثلاً مضيئاً لابنته فيما يخص سلامة الصحة؛ إذ كتب لها قائلاً: «خلال السنوات العديدة التي قضيتها في هارو وكمبردج ولندن لم أقض يوماً في المنزل بسبب المرض. ولم أكن أعير صحتي انتباهاً كبيراً. لقد كنت أعيش حياة طبيعية ببساطة وأزدرى هؤلاء الذين غالباً ما يعانون المرض أو يشكون كثيراً من علل جسدية». وفي النهاية أضاف نهرو أن مادان أтал قد أخبره أن الأطباء الألمان الذين فحصوا إنديرا «كان رأيهم أنك لا تعانين مرضاً خطيراً».<sup>12</sup>

كان نهرو وكامالا يشعران أن إنديرا لا يجب أن تبقى في جو بادن فيلر الكئيب، محاطة بالحالات المرضية المزمنة، دون أي نشاط غير زيارة والدتها والتجول في المنتجع والضواحي. ومن ثم انطلقت إنديرا في يوليو إلى سويسرا. استقلت إنديرا سلسلة من القطارات وحدها من بادن فيلر إلى مولهايم، ومن مولهايم إلى بازل ثم إلى لوزان، مرة بذلك على بحيرتي بيل ونيوشاتل بمنظرهما الساحر. وبعد لوزان ظل الطريق قريباً من بحيرة جنيف مع اتجاهه في المنحدر شرقاً إلى مونترو وقصر تشيلون. «وبالنظر إلى البحيرة الجميلة، المليئة بالبحج والنورس وسلاسل الجبال ومن ورائها القمم الجليدية لجبال دونت دي ميدي»، كتبت إنديرا إلى والدها معبرة عن كيفية تذكرها لحياتهما معاً في سويسرا في جبال الألب، منذ تسعة أعوام من ذلك الوقت، و«تذكرتك أنت وأمي واشتقت إليك». ومن مونترو انتقلت إنديرا إلى بيكس لزيارة مديرة مدرستها السابقة السيدة هيمرلين التي لم تكن قد رأتها منذ أن تركت مدرسة إيكول نوفيل منذ ١٩٢٧. كانت بيكس هي الأخرى مليئة بالذكريات، ودار بينها وبين والسيدة هيمرلين «حديث عن الأيام الخوالي (قد يعتقد المرء أنني في الستين من العمر على الأقل) وعنك وعن بابو».<sup>13</sup>

بعد بيكس ذهبت إنديرا إلى أسكونا في جنوب سويسرا على بحيرة ماجيوري لحضور مؤتمر يحمل اسم «لقاء بين الشرق والغرب». وعن هذا المؤتمر كتبت إنديرا لنهرو تخبره أنه كان هناك جدول لما سيقوله «الكثير من الشخصيات المهمة التي وفدت من جميع أنحاء أوروبا»، من بينهم لفيف من أساتذة الجامعة أرادت إنديرا أن تناقش معهم إمكانية التحاقها بجامعة في سويسرا. ولكن نهرو عارض هذه الفكرة، فهو يريد أن يلتحق بجامعة أكسفورد وبالفعل كتب لصديق غاندي المقرب تشارلز فرير أندروز يطلب منه

أن يقوم ببعض الاستعلامات. وكان أندروز بدوره قد تحدث مع هيلين داربيشاير، مديرة كلية سومرفيل التابعة لجامعة أكسفورد، التي عبرت عن «أنها ترحب بالتحاق إنديرا إذا كانت مؤهلة لذلك».<sup>14</sup> وهنا تكمن المشكلة، هل إنديرا مؤهلة؟ فمُنذ المرة الأولى التي تطرّقا فيها لموضوع كلية سومرفيل، وهي ونهرو يملؤهما القلق حيال امتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد الذي كان على إنديرا اجتيازه.

وعندما ذهبت إنديرا إلى سويسرا في صيف عام ١٩٣٥ أخذت إنديرا معها نسخة ضخمة من كتاب «لمحات من تاريخ العالم». ولكنها كتبت إلى نهرو تقول: «غير ملائم تمامًا للسفر [فهو] ... يشغل نصف مساحة حقيقية سفر صغيرة. ومع ذلك فقد أعجبتني الأجزاء التي قرأتها — ولكني لا أقرأ من البداية — مع أنني أعتقد أن هذا ما يجب أن تكون عليه الحال مع كتاب في التاريخ».<sup>15</sup> كان هذا الرد المتميز بالفتور هو العائد الوحيد لوقت طويل لعمل نهرو الشاق الشغوف الذي وضعه في كتابه هذا لابنته.

وهناك في بادن فيلر في أغسطس كانت إنديرا قلقة حول صحة والدتها لدرجة لا تسمح لها باستكمال قراءتها المتقطعة لكتاب والدها. فقد كانت كامالا «نحيفة و... وضعيفة للغاية»، وكتبت إنديرا إلى والدها في قلق: «إن أُمي دائمًا مجعدة بشدة ومنهكة بسبب ... الحرارة المرتفعة على نحو مستمر، وهي لا تتحدث، وتستمتع بصعوبة عندما يتحدث إليها شخص آخر».<sup>16</sup> وبرغم عدم تواصل كامالا وشرودها كانت إنديرا تذهب لرؤيتها كل صباح في المصحة ثم تعود مرة أخرى لزيارتها كل مساء. وبينما تمشي إنديرا في المساء عائدة إلى البنسيون الذي تقطنه «تشعر بأشجار الغابة السوداء تقترب وتحيط بها». كانت هناك عواصف رهيبة في منتصف الليل طوال شهر أغسطس، وعندما تعود إنديرا إلى غرفتها تجلس في حالة مزرية أقرب إلى الهلع وهي تستمع إلى صوت الرعد والرياح بينما ستائر غرفتها مغلقة. وبعد ذلك بسنوات عندما هبت عاصفة عنيفة على دلهي ذات مساء أخبرت أحد أصدقائها الذين هالهم رعبها: «منذ أن كنت في بادن فيلر وأنا لا أستطيع احتمال الرعد أو البرق أو صوت الرياح العالي في الأشجار ... فقد كنت وحيدة في الغابة السوداء، أُمي على فراش الموت ... ولم أستطع أبدًا أن أحرر نفسي من هذا الرعب».<sup>17</sup>

لم يكن هناك من يشارك إنديرا مخاوفها. فعن فيروز كتب أنه يود لو يقنع عمته بإرساله إلى كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، ولكن شيئًا لم يتم. وفي الوقت نفسه ظهر فرانك أوبردورف في أوروبا، غير أن سبب ظهوره غير واضح؛ فقد يكون قد ذهب إلى هناك متبعًا إنديرا، وقد يكون فعل ذلك لكونه في إجازة من شانتينيكتان. كان أوبردورف

على اتصال بها، ولكنه لم يكن قد قابلها. ومن الواضح أنه لم يستطع الذهاب إلى بادن فيلر (ولم يعرف أي من كامالا أو مادان أтал بوجود أوبردروف) وكانت كامالا مريضة بشدة لدرجة لا تسمح لإنديرا بتركها.

وفي أواخر أغسطس، حدثت المعجزة — التي من شأنها أن تبدأ سلسلة الأحداث التي قادت إلى إطلاق سراح نهرو من السجن — في شخص أميا شاكرافارتي. السكرتير السابق لرابيندرانات طاغور. كان شاكرافارتي — الذي قابل نهرو وكامالا عندما جاء إلى شانتينيكيتان — يدرس في ذلك الوقت في كلية باليول في أكسفورد. وجاء إلى ألمانيا في إجازة، وعندما عرف من الصحف أن كامالا في بادن فيلر قرر زيارتها. صُدم شاكرافارتي بحالة كامالا وتحذث بصراحة مع الأطباء المسؤولين عن حالتها والذين أخبروه أن حالتها «ميئوس منها» و«إذا كان زوجها يود زيارتها وهي لا تزال على قيد الحياة، فعليه أن يستقل أول طائرة». كذلك كان شاكرافارتي قلقاً حيال إنديرا التي وجدها «في حالة مزرية»، والهلح يساروها على والدتها.

غادر شاكرافارتي مباشرة إلى لندن كي يستشير أجاثا هاريسون، وهي ناشطة اجتماعية من أعضاء جمعية الكويكرز في الخمسين من عمرها زارت الهند مرتين، وانضمت تحت تأثير غاندي وشكّلت بناءً على طلبه مجموعة المصالحة الهندية للعمل في إنجلترا من أجل استقلال الهند. ومن ثم، بعث شاكرافارتي وأجاثا هاريسون برقية إلى دكتور ستيفان في بادن فيلر وطلبا منه أن يعلم نائب الملك في دلهي بمدى خطورة حالة كامالا. ثم كتباً خطاباً عاجلاً إلى وزارة الهند في لندن.<sup>18</sup> وبعد عدة أيام تلقت أجاثا هاريسون خطاباً من إنديرا (التي لم تكن قد قابلتها بعد) تقول فيه إن دكتور ستيفان قد بعث برقية إلى نائب الملك ورئيس وزارة الهند في لندن ولورد زيتلاند ووالدها، وقالت إن كامالا لم تكن أحسن حالاً: «لا تزال تعاني الحرارة المرتفعة، وغير قادرة على تناول أي طعام مما يجعلها أكثر ضعفاً».<sup>19</sup>

بعد قراءة خطاب إنديرا كتبت أجاثا إلى المهاتما غاندي عبرت فيه عن قلقها بشأن كامالا وإنديرا، ثم قررت الذهاب بنفسها إلى بادن فيلر لترى هل بإمكانها أن تقدم أي شيء لهما. وكانت النتيجة أنها وجدت كامالا «مريضة على نحو ميئوس منه وضعيفة بشدة» ووجدت إنديرا «شخصاً مثيراً للشفقة، مع صغر سنها كبيرة بتجربة المعاناة بما يفوق عمرها».<sup>20</sup> تأثرت أجاثا كثيراً بالمزيج الغريب في شخصية إنديرا الذي يجمع بين الوحدة والاعتماد على النفس، وتكوّنت بين السديتين — إحدهما إنجليزية غير متزوجة في أواسط العمر والأخرى مراهقة هندية قلقة — رابطة متينة استمرت طويلاً.

عندما تلقى نهرو برقية دكتور ستيفان في سجن ألمورا كتب في مذكرته في السجن: «إذن هذه هي النهاية.» وفي ٤ سبتمبر أطلقت حكومة الهند سراحه قبل انقضاء فترة عقوبته مراعاة لظروفه؛ إذ غادر نهرو بعدها على الفور لبدء رحلته الجوية إلى أوروبا؛ من دلهي إلى كراتشي، ثم بغداد والقاهرة، ثم مستقلاً طائرة بحرية من الإسكندرية إلى برينديزي حيث استقل قطاراً إلى بازل. وفي بازل التقى بسوباس تشاندرا بوس، حيث ركبا معاً إلى بادن فيلر، ووصلا في ساعة مبكرة من صباح يوم ٩ سبتمبر، فقط بعد خمسة أيام من مغادرة نهرو لسجن ألمورا.

كتب نهرو إلى أخته نان بانديت قائلاً: «لقد راعني رؤية كامالا، فقد تغيرت كثيراً إلى الأسوأ.» منذ آخر مرة ودعها في بهوالي منذ أربعة أشهر. أما الآن فكانت كامالا تعاني ارتشاحاً بلورياً، وكانت حرارتها تصل إلى ٤٠,٢ درجة مئوية. كانت شبه محمومة ومصابة بالغثيان وغير قادرة على تناول أي طعام، وبعد رؤية زوجته كانت لنهرو محادثة طويلة مع دكتور ستيفان التي «كانت أبعد ما تكون عن التفاؤل».<sup>21</sup>

كان اجتماع شمل نهرو وإنديرا من جديد هو البلمس لأعصابه المدمرة بعد إطلاق سراحه المفاجئ من السجن، وانتقاله إلى أوروبا، وصدمة رؤية حالة كامالا. وهذا اجتماع شملهما من روع إنديرا. ففي اليوم التالي وجدت أجاثا هاريسون نهرو وإنديرا واقفين معاً بالخارج في الهواء الطلق: «كانت إنديرا متشبثة بذراعه، ومن حين لآخر تسمح برأسها على كتفه ويبدو أن بعضاً من «السنين» التي لاحظتها [عليها] قد انسابت بعيداً وأصبحت شخصاً مختلفاً».<sup>22</sup>

لأكثر من شهر بعد وصول نهرو إلى بادن فيلر ظلت كامالا مريضة بشدة. وفي أواخر سبتمبر ارتفعت حرارتها إلى ٤١,١ درجة مئوية. وبدأ دكتور ستيفان في إصدار تقارير عن حالتها الصحية لوكالة أنباء رويترز التي كانت بدورها ترسلها إلى الهند. واستدعي اختصاصي في مرض السل من فرايبورغ قال: «إنه مع خطورة الحالة فهناك فرصة للتعافي.» ولكن، كما أشار نهرو في أحد خطاباته إلى أخته، بالرغم من أن بارقة الأمل التي أتت بها جلبت بعضاً من «الراحة ... لم يحقق لنا هذا الكثير».<sup>23</sup>

وفي كل صباح كان نهرو وإنديرا يقطعان المسافة من بنسيون إيرهاردت إلى المصحّة في جو من الكآبة. كانت كامالا معظم الوقت في غاية الضعف لدرجة لا تجعلها قادرة على التحدث، لذلك كان نهرو يقرأ لها وإنديرا بصوت عالٍ رواية «الأرض الطيبة» للروائية الأمريكية بيرل بك. ثم كان الأب والابنة يعودان كلٌّ إلى غرفته في البنسيون، وكلٌّ إلى أفكاره

المتشائمة. حاول نهرو أن يقوم بمراجعات لسيرته الذاتية، ولكنه وجد نفسه يفكر ملياً بكامالا وزواجهما. لقد بدأت صورة كامالا تتشكل في عقله بجانب رؤيته للهند. فلم تعد مجرد فرد، لقد أصبحت «رمزاً للمرأة الهندية نفسها ... تشوبها أفكار حول الهند على نحو غريب ... محيرة للغاية ومليئة بالغموض».<sup>24</sup>

في أواخر أكتوبر كتب نهرو لصديق له أن صحة كامالا انتقلت فجأة في «منعطف إلى التحسن» «ليس ملحوظاً» ولكنه ظل سبباً للراحة. كان التوتر الذي صاحب مرض كامالا قد استنفد قواهما، وبناءً على هذا الهدوء الجزئي قررا زيارة لندن في نهاية الشهر في رحلة قصيرة نظمها أجاثا هاريسون وزيارة كلية سومرفيل في أكسفورد أيضاً. وما إن وصلا إلى محطة فيكتوريا حتى وجدا حفل استقبال يضم أجاثا وبرتراند رسل وهوراس ألكسندر وعضو البرلمان العمالي إلين ويلكينسون وكريشنا مينون (الذي كان قد أتى مباشرة إلى المحطة من مستشفى سانت بانكراس حيث كان يُعالج من انهيار عصبي). وتظهر إنديرا في إحدى صور استقبالهم في فيكتوريا شاحبة بعينين غائرتين ممسكة بباقة ضخمة من الأزهار وتحاول رسم ابتسامة على شفيتها.

أقام الاثنان في فندق مونتريال المطل على قوس الرخام ثم بدأ على الفور في مباشرة مجموعة من التجمعات واللقاءات السياسية. وفي كل مكان ذهب إليه كان الناس يحتفلون بنهرو، أو كما وصف هو في خطاب لنان بانديت: «كان الناس على مختلف أشكالهم يلتفون حولي محاولين التودد لي».<sup>25</sup> وبرغم وقتهم المحدود استطاع نهرو وإنديرا أن يشاهدا أربع مسرحيات هي: «روميو وجوليت»، و«١٠٦٦ وكل ذلك»، «الليل آتٍ لا محالة»، و«الحب أثناء تلقي إعانة البطالة» بالإضافة إلى نسخة جديدة من فيلم «حلم ليلة صيف» قام ببطولته جيمس كاجني وأوليفيا دي هافيلاند.

وفي ٥ نوفمبر ذهبوا إلى أكسفورد حيث كانت لهما مقابلة ودية مع مديرة كلية سومرفيل، هيلين داربيشاير، وعميدة الكلية، فيرا فارنيل، التي ناقشا فيها تقديم إنديرا لطلب التحاق للسنة الدراسية التالية التي ستبدأ في أكتوبر عام ١٩٣٦. وها هي مشكلة امتحان الالتحاق تلقي بظلالها ثانية، ثم قررت المديرة والعميدة في كلمات اجتماع اللجنة الدراسية الذي استغرق وقتاً قصيراً في اليوم التالي أنه «نظراً لمرض والدتها الخطير في سويسرا فإن الأنسة نهرو لن يكون بمقدورها أن تفي بالشروط التي يجب على الطلاب الهنود أن يكونوا مؤهلين بها في الهند للالتحاق بالدرجة التعليمية الأعلى. واتفق على أن يُسمح للأنسة نهرو بالدخول للامتحان [الالتحاق] في مارس ١٩٣٧ وستؤدي في الوقت



نفسه [أي بدءًا من أكتوبر ١٩٣٦] الامتحان العام الخاص باللغات الحديثة والتاريخ.<sup>26</sup> بمعنى آخر كانت هيلين داربيشاير تود تيسير لوائح الدخول لإنديرا، أو على نحو أكثر دقة لابنة جواهرلال نهرو.

ومع أن أبواب كلية سومرفيل قد فتحت ذراعها لها فقد ظلت إنديرا متخوفة من امتحان الالتحاق، خاصة جزأه المتعلق باللغة اللاتينية، وكذلك كان نهرو. هذا بالإضافة إلى أن نهرو كان قلقًا من احتمال أن تدفع إنديرا ضريبة مرض كامالا من دراستها إذا حاولت أن تستعد للامتحان في ذلك الجو الحزين المشحون في بادن فيلر. واقترح أن تعود إنديرا إلى مدرسة إيكول نوفيل في سويسرا — مكان تحبه — للاستعداد لامتحان الالتحاق بسومرفيل.

من ثم عادت إنديرا ثانية إلى مدرسة مدام هيمرلين في بيكس بعد وقت قصير من عودتهما إلى بادن فيلر في آخر نوفمبر. من الناحية النظرية كانت تلك فكرة جيدة، ولكن إنديرا ما لبثت أن شعرت «بالغربة» هناك؛ لأنها كانت أكبر عمرًا بكثير من الطلاب الآخرين وأصغر بكثير من المعلمين. وكان من الطبيعي بعد سفرها وعيشها وحيدة في ألمانيا وسويسرا أن تجد الحياة في المدرسة مضجرة. كان يومها مقسمًا إلى فترات للدروس والأنشطة الأخرى، ولم يكن هناك الكثير من وقت الفراغ لكتابة الخطابات أو القراءة أو التنزه المنفرد. وكانت تستاء مما تعتبرها ساعات ضائعة في الدروس الإلزامية الخاصة بالغناء والرسم والحياسة وأشغال الإبرة. ولكن حالتها تحسّنت على نحو طفيف عندما انهمرت الثلوج في ديسمبر وأصبح بمقدورها ممارسة رياضة التزلج من جديد، على نحو أقل إتقانًا بعد فترة انقطاع عن ممارستها بلغت تسع سنين. أما ما كان أكثر إبهاجًا لها فهي أخبار فيروز التي عبر فيها عن أنه يأمل أن يصل إلى أوروبا قبل نهاية العام، وأنه سيذهب مباشرة إلى بادن فيلر لرؤية أسرة نهرو قبل الذهاب إلى لندن.

في الوقت نفسه، هناك في المصحّة، كانت حالة كامالا قد ازدادت سوءًا على نحو خطير. فقد عاد إلى صدرها الارتشاح البلوري، بالإضافة إلى ارتفاع حرارتها وإصابتها بحالة أشبه بالهذيان. أزال الأطباء السائل من رثتها عن طريق مضخة ماصة، ولكن العملية لم تحدث تأثيرًا كبيرًا. قضى نهرو معظم الأيام نهارًا وليلاً بجوارها. وفي المساء كان يجلس حتى وقت متأخر في النُّزل يراجع سيرته الذاتية التي تعهد كريشنا مينون — الذي لم يكن فقط يُدير الرابطة الهندية في لندن ولكن كان أيضًا رئيس تحرير دار بودلي هيد للنشر — بنشرها من خلال دار النشر.

وفي ٢١ ديسمبر وصلت إنديرا من بيكس إلى بادن فيلر لقضاء عيد الميلاد مع والديها. وقد صدمها مرأى والدتها بهذا الضعف والمرض، وكتبت في يأس إلى مديرة مدرستها، مدام هيميرلين، في بيكس أن «أمي ... تقريباً في غير وعيها. فهي تتعرف على أي شخص بصعوبة وتحدث في ألم كبير ومن الصعب علينا أن نفهم ما تقول، فكلماتها غير واضحة بالمرّة. لم تأكل أو تشرب أي يوم في اليومين الأخيرين غير ملعقتين صغيرتين من عصير أو شاي. ولا يمكنك أن تجبريها حتى لا تقع في خطر الاختناق. لا يوجد ما يمكن عمله سوى الدعاء».<sup>27</sup> وفي يوم عيد الميلاد كتب نهرو لصديقه القديم سيد محمود في لهجة تشع كآبة: «يبدو المستقبل مظلماً. [فكامالا] ضعيفة وهزيلة على نحو مرعب وإذا لم يكن باستطاعتها اكتساب القوة فلن يكون بمقدورها مقاومة المرض».<sup>28</sup> كان نهرو وإنديرا يتساءلان كم من الأيام قد تبقى لكامالا. بالنسبة لنهرو، وربما أيضاً لإنديرا، «كان مشهد الشتاء الهادئ» في الغابة السوداء «بعباءته البيضاء من الثلوج يبدو ... وكأنه هدوء الموت البارد».<sup>29</sup>

كان لدى نهرو سيرته الذاتية لمراجعتها، وكان أيضاً يبقى على اتصاله بالتطورات السياسية هناك في الهند، ولكن إنديرا لم يكن هناك ما يشغلت انتباهها من ترقب ما بدا في ذلك الوقت الموت نهاية والدتها المحتومة. ومن ثم حثها نهرو على الذهاب للتلّج. ولكن إنديرا اعترضت لأنها لا تريد ترك كامالا. صمم نهرو، وبعد ذلك تلقت إنديرا خطاباً في السر من فرانك أوبردورف. ومع اعتراضها الأول على ترك والدتها كتبت إنديرا الآن إلى السيدة هيميرلين في مدرسة إيكول نوفيل وطلبت منها أن تبعث إليها معدات التلّج الخاصة بها (التي كانت قد تركتها في المدرسة) إلى بادن فيلر. ومع حث نهرو المستمر لها على الذهاب للتلّج لبعض الأيام رتبت إنديرا سرّاً للقاء فرانك أوبردورف في وينجن، منتجع في جانجفراو في سويسرا.

غادرت إنديرا بادن فيلر في ٢٧ ديسمبر. وبعد يومين ظهر فيروز غاندي في بادن فيلر دونما سابق إنذار، مما سبب الدهشة لكامالا ونهرو. في ٣١ ديسمبر تبع فيروز إنديرا في وينجن. وليس من الواضح ما حدث بينهما بعد لقائهما في وينجن بعد سبعة شهور من الانفصال. هل قابل فيروز منافسه الخفي (أم أنه لم يعرف حتى بوجود أوبردورف)؟ وهل كانت هناك مواجهة — أو انفجار — مع إنديرا؟ وهل كان هناك ما انكسر بينهما أو تقرر على نحو وثيق؟ كل ما هو معروف بدقة أن فيروز غادر وينجن في الليلة نفسها، عشية رأس السنة، وأنه ذهب إلى بادن فيلر وبقي هناك بدلاً من الذهاب إلى لندن، كما كانت خطته الأساسية.<sup>30</sup>

حاولت كامالا بعد وصول فيروز غير المتوقع إلى بادن فيلر واتباعه لإنديرا إلى وينجن أن تناقش مستقبل إنديرا مع نهرو، وهي محادثة تمت في حضور نامبيار الذي حضر إلى بادن فيلر لزيارة كامالا ورؤية نهرو في أوائل يناير ١٩٣٦. وحسبما قال «نانو» أخبرت كامالا زوجها أنها قلقة للغاية حول علاقة إنديرا بفيزوز، وقالت إنها لا تريد أن تتزوج إنديرا فيروز لأنها متأكدة من أنه شخصية غير مستقرة. ولم تعتقد كامالا أن فيروز سيدخل في أي وظيفة ويحقق مكانة تدعم إنديرا. حاول نهرو تهدئتها وطرد مخاوفها. ولكن عندما غادر الغرفة التفتت كامالا إلى نانو قائلة: «لن تستمع إنديرا لأحد سواي. فأنا أستطيع أن أبعداها بلطف عن فيروز. ولكن نهايتي محتمة. وجواهر لن يرشد إنديو. بل سوف ... يسمح لها بارتكاب خطأ حياتها.»<sup>31</sup>

لم هو «خطأ حياتها؟» بالطبع كانت كامالا تعرف فيروز أكثر من نهرو (وربما أكثر من إنديرا)، وكانت لها فكرة أفضل عن شخصيته. ولكن لا يوجد أي دليل على أنها أظهرت أي تحفظ عليه قبل هذه الثورة. وبالطبع أيضًا كانت كامالا تستطيع أن تتوقع اعتراض العائلة والنطاق الاجتماعي على زواج «مختلط» بين كشميرية من طائفة البراهمة ورجل بارسي مجوسي.

وأيًا كان السبب أو الأسباب خلف قلقها الشديد حول علاقة إنديرا وفيزوز، لم ينسَ نهرو، مع عدم مبالاته الظاهرية في ذلك الوقت، استغاثة كامالا.<sup>32</sup>

استيقظت إنديرا في بيكس في صباح يوم أحد في يناير ١٩٣٦، وهي تشعر، كما عبرت لوالدها، «باختلاج غريب في القلب». لم تستطع أن تحدد ما إذا كان «يدل على الفرح أم الحزن» ولكنها «قررت أنه من الأفضل دائمًا افتراض أنه شعور بالفرحة». فبعد السبات الذي كانت تعيشه، في بحر من المسؤولية لشهور وحيدة، كان شعور قوي بالحيوية الشديدة يغمرها، نوع من الابتهاج واليقظة القوية تولد داخلها، ربما هو نتاج من مشاهد الموت والحب في حياتها. «أستلقي في الفراش حتى التاسعة»، هكذا كتبت إنديرا، «أفكر في جميع ما كان في الماضي وما ستجلبه السنون. أفكر فيك وفي أمني. شعرت بهدوء غريب ... ومنذ ذلك الحين وبقي داخلي هذا الشعور. أحب كل شيء — حتى رياح الجنوب الفظيعة — وأشعر بسعادة وتفاؤل كبير نحو كل الأشياء.»<sup>33</sup>

ومما لا شك فيه أن ميلاد هذه المشاعر من السعادة والهدوء كان نابغًا من وصول فيروز غاندي إلى أوروبا. ولكن اكتشاف هذا المخزون من الأمل والحيوية في ذلك الوقت العصيب كان سبيلًا أيضًا لكشف موطن من مواطن قوة شخصيتها. ففي حقيقة الأمر

أصبحت قدرتها على بعث روحها من جديد — أو بدقة أكبر من وجهة نظرها الشعور بأنها تستعيد نفسها من جديد — نموذجاً مستمراً لشخصيتها أنقذها في أكثر الظروف صعوبة فيما تلا ذلك من السنين. ومع أنها كانت غالباً تظهر هشة وضعيفة، كان جوهرًا قويًا مرناً يقبع داخلها، فلا تنهار أبدًا.

مع ذلك كان هناك القليل في الأيام الأولى لعام ١٩٣٦ مما يبعث على البهجة لإنديرا، وتقريبًا لم يكن هناك أي مما يدعو للتفاؤل. فلم يعد باستطاعة فيروز تأجيل ذهابه إلى لندن أكثر من ذلك، وبدأ نهرو في الحديث حول العودة إلى الهند، في الوقت نفسه كانت حالة كامالا المرضية تنذر بالخطر، وحالتها النفسية تهبط مع صعود حالة ابنتها. ومع أن كامالا لم تكن في حالة تسمح بالحركة فقد صرحت عن رغبتها في مغادرة بادن فيلر والذهاب إلى سويسرا. لقد أصبحت الغابة السوداء مكانًا مخيفًا لها هي الأخرى، خاصة بعد موت أحد المرضى الذي كان قد أصبح صديقها، وهو أيرلندي شاب بعث لها الأزهار وزارها وكان في حالة صحية أفضل بكثير مما كانت عليه كامالا حتى انهارت حالته فجأة وتوفي.

لكن حركة كامالا كانت تمثل خطورة طبية وكذلك كانت تعد في وقت غير مناسب؛ إذ إن نهرو، الذي كانت زيارته لباريس مرتبة في ذلك الوقت، لن تكون باستطاعته الإشراف على عملية النقل بنفسه. ومع ذلك غلب رأي كامالا، ربما بسبب إصرارها على رغبتها بأن تكون قريبة من إنديرا في بيكس. رحل نهرو إلى باريس وفي ٣١ يناير، انطلقت كامالا وممرضتها أنيتا ومادان أثال بعربة الإسعاف إلى عيادة سيلفانا في لوزان، التي تبعد أقل من ساعة عن إنديرا التي ذهبت لزيارة والدتها في اليوم التالي. في ذلك الوقت شق فيروز طريقه إلى لندن، ولكن خلال أيام كان هو الآخر في لوزان. عاد نهرو من لندن إلى سويسرا ليلة عيد زواجه العشرين هو وكامالا في ٨ فبراير ١٩٣٦.

وبدأت رحلة الكفاح الأخيرة؛ في لندن كان نهرو قد عرف أنه قد انتخب ليكون رئيسًا جديدًا لحزب المؤتمر. ومع عودة نهرو ثانية مع كامالا إلى لوزان كان ممزقًا بين اختيار البقاء معها ورفض رئاسة الحزب أو تركها والعودة للهند وقت اجتماع حزب المؤتمر السنوي. لكن كامالا حثته على الذهاب قائلة إن بإمكانه دائمًا العودة إلى سويسرا، وعلى غير رغبة منه حجز نهرو تذكرة سفر إلى الهند يوم ٢٨ فبراير. بعد ذلك، وبعد أن تم التنظيم لكل شيء، وجد نهرو أن «كامالا لم تكن تحب فكرة تركي لها تمامًا. ومع ذلك لم تكن لتسألني أن أغير من خططي».<sup>34</sup>

لم تكن إنديرا هي الأخرى تريده أن يذهب. وكانت تزور والديها (وفيروز) في عطلة نهاية كل أسبوع في لوزان وكتبت لهما في ١١ فبراير: «إنه لمن الجميل رؤيتكما أنتما الاثنين ... وأعتقد أن أسبوع فترة طويلة للغاية للانتظار [لأراكما مجددًا] ... لقد اكتسبت كل الصفات السيئة للطفل الوحيد، وأشعر أنني أعتمد عليكم كثيرًا. ولا أعرف ما سأفعل عندما أكون وحيدة تمامًا.»<sup>35</sup> ذهبت إنديرا في عطلة الأسبوع التالي وكذلك في ٢٤ فبراير في زيارة أطول لوداع والدها الذي كان لا يزال سفره مقرراً في الثامن والعشرين.

كان جو الأسرة في إطاره المعهود ولكنه كان موحشاً؛ فها هي مأساة نهرو المتمثلة في الواجب السياسي وقت الحرب والحاجات الشخصية، صراع دائماً ما انتصر فيه الواجب. بعد وصول إنديرا بوقت قصير في الرابع والعشرين من فبراير بدا وكأن كامالا تسحب نفسها عن حولها، إنديرا ونهرو وفيروز. فقد أصبحت بعيدة ومنعزلة ولم تكن تستجيب إليهم إلا فيما ندر. كان الشيء الوحيد الذي رفع من معنوياتها قليلاً هو خطاب من مرشدها الروحي في كالكتا السوامي (المرشد الديني) ابهيانانداجي الذي قرأه نهرو لها. كتب نهرو للسوامي عما فعله خطابه إذ «منحها الهدوء والسعادة ونسيان الألم لوهلة ... ولكن جسدها، بعد هذا الكفاح الرهيب الطويل الذي خاضه، بدا وكأنه قد استنفد كل قواه وينهار ... ولا أحد يعلم ما هي قادرة على فعله الآن، ولكن في الواقع تبدد الأمل».<sup>36</sup> ارتفعت حرارة كامالا أكثر فأكثر، وبدأت في الهلوسة مصممة على أن شخصاً ما يناديه. وبناءً على نصيحة أطبائها ألغى نهرو رحلته، ولكن الألوان كان قد فات.

ماتت كامالا في تمام الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٨ فبراير، نفس اليوم الذي كان نهرو يخطط فيه للرحيل. كان كلٌّ من إنديرا ونهرو بجوارها لحظة وفاتها، وفيروز أيضاً. كان وجود فيروز حاسماً في أصعب لحظة في حياة إنديرا. فقد عملت مشاركته لها في وفاة والدتها وحزنها الشخصي العميق على خلق قدر كبير من الألفة والثقة بينهما. وبعد هذا الحدث بأعوام كثيرة قالت إنديرا إن فيروز «كان دائماً موجوداً من أجلي». كان هذا سبباً قوياً للوقوع في هواه، وسبباً أدعى للموافقة على الزواج به. فقد اختفى كل من في حياة إنديرا، وفيهم كامالا. فبعد وقت قصير سيكون والدها قد رحل. ولكنها لن تُترك وحيدة تماماً؛ إذ شكّل فيروز جزءاً دائماً من حياتها.

في عصر يوم الثامن والعشرين بعث نهرو برفقية إلى أجاثا هاريسون في لندن يقول: «ماتت كامالا هذا الصباح. نهرو». وبدورها أبلغت أجاثا الصحف البريطانية والشخصيات السياسية القوية، وأصدقاء نهرو في بريطانيا. ثم في نهاية اليوم الطويل كتبت إليه:

«أرجوك حادثني إذا كان هناك أي شيء [أستطيع القيام به] فأنت ... تعلم أن إنديرا لها أصدقاء هنا.»<sup>37</sup> كان هذا وعدها بأن تعتني بابنته في أوروبا.

بعد يومين من وفاة كامالا أُحرقت جثتها في محرقة لوزان. عاد فيروز إلى لندن وذهبت إنديرا ونهرو إلى مونترو لقضاء العديد من «الأيام السوداء»، كما وصفها نهرو، قبل سفره إلى الهند. كان نهرو «محطماً»، لم يكن يستطيع التفكير على نحو سليم.<sup>38</sup> وتبدد تفاؤل إنديرا وأملها. كان عام تقريباً قد مر منذ مغادرتها بيتها إلى الغابة السوداء، وكانت هذه هي نهاية تلك الرحلة؛ في منتجع ساحر مليء بالحيوية وكأنه يسخر من حزنها. منذ تسعة أعوام، كانوا هناك مع كامالا، وطاردت إنديرا أشباحهم السعيدة حينها. وفي ٥ مارس، افترقت هي ونهرو — دونما حديث حول ميعاد لقائهما القادم — في محطة مونترو. استقلت إنديرا القطار إلى بيكس وحدها.

في اليوم التالي بدأ نهرو رحلته الجوية إلى الهند مع جرة تحوي رماد كامالا، وشعور بأن «أحلامنا الوردية قد ماتت هي الأخرى وتحولت إلى رماد».<sup>39</sup> وعندما هبطت الطائرة في بغداد بعث برسالة إلى ناشره في بودلي هيد في لندن، الذي كان يعد لنشر سيرته الذاتية. لم تكن هذه الرسالة سوى برقية قصيرة تحمل الكلمات التي ستتصدر سيرته الذاتية وهي إهداء لكتابه قال فيها: «إلى كامالا التي لم تعد معنا».

## الفصل السابع

### خبرة الفراق

في صباح الثامن من مارس أدارت إنديرا المذيع في لابلوز واستطاعت أن تميز صوت هتلر الحاد في بث مباشر. كانت لغتها الألمانية جيدة بما يكفي لفهم ما يقال؛ علمت أن القوات النازية تقترب من راينلاند. فكتبت إلى نهرو أن صوت هتلر بدا «مهددًا جدًا»، وأن الفرنسيين قد أرسلوا بالفعل قواتهم إلى الحدود. تقول إنديرا: «كانت كراهية الألمان في بيكس ... بالوضوح نفسه الذي كانت عليه في أي مكان آخر.»<sup>1</sup> آنذاك باتت سويسرا ملاذًا لأوروبا التي كانت على شفا الحرب.

ما إن عادت إنديرا إلى الاستقرار في بيكس حتى اعترها الحزن وأصابها الإحباط. كانت قد حاولت أن تعكف على المذاكرة لامتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد، ولكنها عجزت عن التركيز. كان الحل الوحيد أمامها لتصرف عن ذهنها فكرة وفاة كامالا هو العكوف على قراءة كتاب مشوق، وهو ما كان مجديًا لساعة أو اثنتين؛ إذ كان بمنزلة تناول عقار مهدئ أو مخدر. كانت إنديرا منذ طفولتها واسعة الاطلاع وسريعة القراءة، وبحلول هذا الوقت كانت تلتهم الكتب واحدًا تلو الآخر. وهو الأمر الذي كانت ميل هيمرلين تجده مزعجًا. تقول إنديرا في هذا الصدد في رسالتها إلى نهرو: «الوحدة لا تناسبني، فهي تدفعني إلى الاستغراق في الكتابة. والكتب في رأي ميل هيمرلين تسبب لي الإحباط. فماذا عساي أن أفعل؟!»<sup>2</sup>

لم يكن بيدها حيلة، ولكن من حسن الحظ أن فتيات المدرسة ذهبن جميعًا في عطلة لثلاثة أسابيع إلى إيطاليا في أول أبريل، فزارت إنديرا في هذه الرحلة روما وفلورنسا ونابولي، وبومباي وصقلية. حكّت إنديرا إلى نهرو بفتور أن روما خذلت كل توقعاتها، وقد زارت الفتيات مقر الفاتيكان وقابلن البابا، أما فلورنسا فرأت إنديرا أنها «ساحرة إلى

أقصى حد». ولاحظ الجميع أنهم حيثما ذهب، كانت صور «القائد (موسولينى) واضحة للعيان».<sup>3</sup>

في صقلية بدأ الحزن يتسرب من جديد إلى عقل إنديرا الذي كان قد تناسى أحزانه. ففي حين كانت سعادة بقية الطلاب بمشاهدة المعابد والمتاحف والكنائس الإغريقية «غامرة»، رأت إنديرا صقلية من منظور مختلف تمام الاختلاف. تقول إنديرا عن صقلية في خطابها لنهرو: «الناس هنا فقراء، والشوارع قذرة تملؤها العربات المتهالكة التي تجرها الخيول والعربات المكشوفة. يوجد شحاذون كثيرون ... والناس ذوو بشرة داكنة، ويحذقون بنا كما لو كنا تحفاً غريبة، أما في القرى فنادرًا ما تجد السيارات؛ إذ عندما نمر بالسيارة يتصايح الناس ويهرعون للمشاهدة كما لو أنهم أمام أعجوبة. هذا ذكرني بالهند، لشد ما أشعر بالحنين إليها!» وحتى في الأطراف النائية من صقلية «تجد عبارات موسولينى مطبوعة بأحرف كبيرة على حوائط القرى».<sup>4</sup>

وعقب عودتها إلى بيكس توجهت إنديرا إلى إنجلترا لتخضع لامتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد. سافرت إلى هناك عبر باريس حيث التقت بفيروز لأول مرة منذ وفاة كامالا قبل ثلاثة أشهر. وبعدها قصدت لندن حيث نزلت لبعض الوقت عند أجاثا هاريسون قبل أن تصل إلى أكسفورد في أواخر يونيو. وفي التاسع والعشرين من يونيو — وهو نفس اليوم الذي أدت فيه امتحان أكسفورد المرهق الذي استغرق سبع ساعات — كتب لها نهرو خطابًا من الهند يطمئنها قائلاً: «الامتحانات مزعجة. وكل ما يمكن أن يقال عنها هو أنها تدفعنا ... إلى مواصلة السعي ... ولكنها ليست مقياساً حقيقياً لأي شيء مهم».<sup>5</sup>

قد تكون كلمات نهرو هي التي عزّت إنديرا عندما تسلمت نتائج الامتحان وعلمت برسوبها، خاصة في الجزء الخاص باللغة اللاتينية. لم يكن أمامها خيار آخر سوى الانتظار إلى أن تخضع ثانية للاختبار، لكن كان واضحاً أن مدرسة لابلوز — وهى أصلاً مدرسة لتعليم آداب السلوك في المجتمعات الراقية — لم تكن لتؤهلها لاجتياز امتحان المرة القادمة. اقترحت أجاثا هاريسون استشارة صديقتها القديمة بياتريس ماي بيكر، مديرة مدرسة بادمينتون للفتيات القريبة من بريستول. للتوصل إلى حل لهذه المشكلة، الأنسة بيكر — التي كانت شديدة الإعجاب بنهرو — التقت بإنديرا على الغداء وأقنعتها بالعودة معها فوراً إلى مدرسة بادمينتون لتنضم إلى الصف الدراسي السادس لدراسة اللغة اللاتينية حتى آخر الفصل الدراسي الصيفي. احتجت إنديرا بأن ملابسها وأغراضها كانت لا تزال ببيكس. ولكنها وافقت في النهاية، وفي الطريق إلى محطة قطار بادينجتون توقفت إنديرا والأنسة بيكر لشراء فستانين بعشرة شلنات، وبعدها استقلتا قطار الرحلة



التالية إلى مدينة بريستول. وبذا تسجلت إنديرا في مدرسة حكومية إنجليزية راقية في شهر يوليو من عام ١٩٣٦، وهو الشهر نفسه الذي اندلعت فيه الحرب الأهلية الإسبانية. كانت الدراسة بمدرسة بادمينتون لإنديرا مختلفة تمامًا عن جامعة شانتينيكيتان أو أي مدرسة أخرى ارتادتها. لكن كانت مختلفة أيضًا عن مدرسة هارو التي درس فيها نهرو قبل أكثر من ثلاثين عامًا. لربما بدت بياتريس ماي بيكر ذات الثمانية والخمسين عامًا — بشعرها الرمادي الممتزج باللون النحاسي والمعقود إلى الخلف في شكل كعكة ومواظبتها على الاستحمام بالماء البارد وممارسة التمارين — نموذجًا تقليديًا لناظرة المدرسة العانس، لكنها كانت أبعد ما تكون عن التقليدية. فقد كانت اشتراكية مخرصة لمذهبها، وداعية سلام، ومناصرة لحقوق المرأة، ونباتية. وقد حددت المبادئ التي تشبثت بها بقوة ملامح مدرسة الفتيات التي أدارت شؤونها لما يقرب من أربعين عامًا. كانت بي إم بي — كما كانت تدعى (اختصارًا لاسمها؛ بياتريس ماي بيكر)، مع أن طالبات مدرستها كن طبعًا ينادينها بـ «الآنسة بيكر» — عضوًا مخرصة بعصبة الأمم وبنادي الكتاب اليساري، وقد نجحت في ضم الكثير من الطالبات الأجنبية إلى مدرستها. كانت تعقد أسبوعيًا مناقشات حول الأحداث الجارية على الصعيد الدولي، وتدعو اللاجئين من الحرب الأهلية الإسبانية للقدوم إلى بادمينتون لإلقاء كلمة، وتصطحب الطالبات في رحلات ميدانية إلى مصنع سجاير «ويلز» المحلي لتنبهن إلى ظروف العمل الحالية. وكانت مدرسة بادمينتون إبّان الثلاثينيات ملاذًا أيضًا للطالبات من اللاجئين اليهود الألمان. ولكن بياتريس بيكر — مع معتقداتها الثورية — أدارت مدرستها بقبضة من حديد. فما إن وصلت إنديرا إلى مبنى مدرسة بادمينتون الذي يتوسط حديقة من الأزهار، بدرازين تعرض أحجاره نبات الوستارية وأشجار الطقسوس، حتى وجدت لائحة عريضة من القواعد معلقة بقاعة استقبال المبنى الرئيسي للمدرسة؛ مبنى نورثكوت المبرّج الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، تقول اللائحة:

- (١) الجوارب يجب أن يغطيها دائمًا حذاء يصل إلى الركبة.
- (٢) أثناء الفصل الدراسي يحظر على الطالبات ارتداء زي مخالف للزي المدرسي إلا في غرفهن. ويمنع منعًا باتًا ارتداء الأزياء المخالفة في بريستول.
- (٣) يمنع إحضار مساحيق التجميل إلى المدرسة.
- (٤) يسمح لطالبات الصف السادس بالاستماع إلى المذياع في الأوقات الآتية: يوم السبت ابتداءً من الساعة السادسة مساءً إلى آخر اليوم، ويوم الأحد من الخامسة إلى السادسة مساءً، ومن الثامنة وأربعين دقيقة إلى التاسعة مساءً بقية أيام الأسبوع.

- (٥) يسمح للطالبات المفوضات ومساعداتهن بالاستحمام كل ليلة شريطة إخلاء دورة المياه قبل التاسعة وخمس وأربعين دقيقة.
- (٦) يسمح لطالبات الصف السادس باستخدام أحواض الاغتسال، وليس أحواض الاستحمام، شريطة إخلاء دورة المياه قبل التاسعة والنصف.
- (٧) يحل موعد نوم طالبات الصف السادس في التاسعة مساءً في جميع أيام الأسبوع، عدا السبت فيكون في التاسعة والنصف مساءً.

وبالطبع وجدت إنديرا هذا المناخ المتزمت خانقاً، واشتكت إلى أبيها من «كل هذه القواعد والقوانين السخيفة».<sup>6</sup>

في أول أغسطس استطاعت إنديرا التلمص من المدرسة التي بدأت تبدو لها كما لو كانت معتقلاً، وعادت إلى بيكس لاستعادة أغراضها، وفي الطريق إلى بيكس نزلت بباريس حيث أمضت يومين برفقة فيروز. ومعاً زارا قصر فيرساي «وسارا كثيراً حتى شاهدا كل المعالم السياحية التي يزورها السياح الأمريكيون».<sup>7</sup> وفي نهاية أغسطس عادا إلى لندن؛ حيث استأجرت إنديرا غرفة في العقار رقم ٢٤ من شارع فيرفاكس القريب من منطقة سويس كوتيدج، وهناك بدأت في تلقي دروس خصوصية في اللغة اللاتينية للاستعداد لامتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد في سبتمبر. نقلت إلى نهرو في خطابها مدى سعادتها بالإقامة في لندن قالت فيه: «أنا ... أعشق زحامها وحدائقها وكل ما فيها. لربما كان هذا لأنها المرة الأولى التي أعتمد فيها على نفسي تماماً. أنا في غرفة صغيرة ولكن لديّ المدينة بأكملها لأختبر الحياة فيها، ولا يوجد هنا من يزعجني؛ يمكنني الذهاب والمجيء وعمل كل ما يحلو لي متى شئت وكيفما شئت. أحياناً ... أشعر بالوحدة، ولكن هذا يروق لي».<sup>8</sup>

في الواقع لم تذكر إنديرا في خطابها الحقيقة كاملة. فحياتها في لندن كانت أبعد ما تكون عن الوحدة. فعلى مقربة منها كان يسكن فيروز وشانتا غاندي — صديقتها القديمة من مدرستها بمدينة بونا في الهند، التي كانت تحمل نفس لقب فيروز لكنها لم تكن من أقاربه — تسكن بالإيجار في غرفة مقابلة لدخل فندق بشارع فايرفاكس؛ الذي تقطن فيه إنديرا. كان ثلاثتهم يذهبون إلى الحفلات الموسيقية والمسارح ودور الأوبرا في منطقة كوفنت جاردن، وإلى هايد بارك كورنر للاستماع إلى من يلقون الخطب، وإلى مطعم هندي يقع في ١٢ جاور ستريت حيث عاش داروين فيما مضى، وإلى سوق في سوهو يبيع البان المستورد (وهو خليط يسبب الإدمان بعض الشيء، يتكوّن من جوزة نبات التنبول والليمون الحامض واليانسون ملفوفين في ورقة شجر)، وقد وصل ثمنه

الباهظ إلى ستة شلنات، كانت إنديرا وفيروز وشانتا يمضغونه ببطء حتى يبقى أثر جوزة التنبول في فمهم لأطول مدة ممكنة.

كان فيروز يحتل مكانة متميزة في قلب إنديرا، وعلمت شانتا غاندي بحب كل منهما للآخر. لكن فرائك أوبردورف ظل يهدد علاقتهما. ففي سبتمبر من العام نفسه زار أوبردورف إنديرا في لندن، وألح عليها للقدوم إلى ألمانيا في الكريسماس. فاحتارت إنديرا في أمرها لفترة قصيرة. لكن بعد مغادرته بوقت قصير كتبت إليه أنها لن تأتي إلى ألمانيا لرؤيته لأنها أدركت أنها لا تحبه، بل أضافت في قسوة أنها حتى لا تريد أن تحبه، «حتى لو كان آخر رجل على وجه الأرض».<sup>9</sup> وبهذا أصبح طريق فيروز إلى قلب إنديرا خالياً، لكنه أفضى إلى شانتا بسر، وهو أنه مع عزمه على الزواج من إنديرا فإنه يخشى أن تستخف به عائلتها وأن تمتصه عادات عائلتها وتقاليدها، فيصبح واحداً منهم بدلاً من أن تتخلق إنديرا بعادات عائلته وتقاليدها. وأقلقه أيضاً تحفظ إنديرا وضبطها لنفسها وعدم قدرتها على إظهار عواطفها، فهي كما يقول: «لم تكن مستعدة للتضحية بهويتها المستقلة والاندماج مع هوية أخرى بالزواج».<sup>10</sup>

جلست إنديرا لأداء امتحان الالتحاق بجامعة أكسفورد للمرة الثانية في أواخر شهر سبتمبر، واجتازت الجزء الخاص بمادة اللغة الإنجليزية والفرنسية والرياضيات. أما اللغة اللاتينية فلم تؤدِّ امتحانها لأنها أدركت أنها قد ترسب فيها ثانية نظراً لأنها لم تحرز إلا تقدماً بسيطاً بعد الدروس الخصوصية التي تلقتها في لندن. وبما أنها لم تجتز اختبار اللغة اللاتينية فلم تتمكن من بدء الدراسة في كلية سومرفيل بجامعة أكسفورد في أكتوبر كما خططت. لذا لم يكن أمامها خيار سوى العودة إلى مدرسة بادمينتون وحشو رأسها باللغة اللاتينية التي صارت تمقتها تماماً بحلول ذلك الوقت، للجلوس لامتحانها مرة أخرى في مارس.

في نوفمبر عام ١٩٣٦ كانت الحرب الأهلية الإسبانية تدخل شهرها الرابع. وفي السابع من هذا الشهر كتبت إنديرا إلى أبيها وهي في مدرسة بادمينتون تخبره أن القوات الفاشية كانت تهاجم مدريد. وفي رسالتها تقول: «ماذا سيحدث بعد؟ ... تبدو الفاشية كما لو أنها تنتشر انتشار النار في الهشيم.» وفي اليوم التالي نقلت لأبيها خبر غزو فرانكو لمديرد، ووصفت الأجواء بين طالبات مدرسة بادمينتون بأنها «مناهضة جداً للفاشية والحرب ...» وأضافت: «لكن بوجه عام يبدو أن الإمبريالية تجري في دم هؤلاء الفتيات ... مع أنهم يكرهن سماع ذلك. فهن يعشقن الملك، ويبدن إعجابهن بالالدوين، ومع أن شعبية إيدن

أخذة في التدهور ... فإن البعض لا يزال يعتبره آخر رسل السلام.<sup>11</sup> وعندما تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش في ديسمبر استمعت إنديرا إليه مع باقي فتيات المدرسة وهو يعلن الخبر عبر المذياع. بكت الكثيرات تأثرًا بخبر تنازله، أما إنديرا فقد كتبت إلى والدها في ابتهاج تقول: «ربما كانت هذه بداية نهاية الملكية في إنجلترا».<sup>12</sup>

أراد نهرو لإنديرا أن تشعر بأنها جزء من الأحداث السياسية التي شغلت بال كل منهما. لذا كتب إليها في طريقه وهو مستقل القطار إلى ملطان يخبرها كيف أنه اكتشف وجود بوابة سُميت باسمها في إحدى القرى في السند. كانت إنديرا نفسها تقف على أعتاب مرحلة مهمة في تاريخ حياتها. ف خلفها «ميراث من المشكلات والمصاعب» التي لا يسعها الهرب منها، حتى لو أرادت. وكى يحملها نهرو المسئولية كان يقول لها: «ليس بمقدور أحد في عصرنا الحاضر أن يحظى بحياة سهلة خالية من المصاعب أو المشكلات. ولكن قد يقسم للبعض نصيب أكبر ... من المشكلات والمصاعب مقارنة بالآخرين ... وقدرك بسبب أسرتك ... هو أن تحملي هذا العبء الثقيل».<sup>13</sup>

والحق أن إنديرا كانت متلهفة للمضي قدمًا، لكنها ظلت عالقة في بادمينتون. وبمرور الشهور تزايد شعورها بالغربة، خاصة بين الفتيات الإنجليزيات من الطبقة الأرستقراطية، ومع ذلك فهي لم تصنع صداقات مع غيرهن، باستثناء ثلاث فتيات هنديات. ولم تنضم لأندية وجماعات المدرسة. وغاب اسمها تمامًا عن مجلة المدرسة، بعكس خريجة المدرسة الشهيرة إيريس مردوخ التي لمع اسمها في صفحات المجلة. وتعددت أوصافها بين: تلميذة ومفوضة ومناظرة وحائزة على جائزة أحسن مقال ومحرة مجلة المدرسة الأدبية. ومع أن إيريس لم تكن وثيقة الصلة بإنديرا — كما هي علاقة الجميع بإنديرا — فإنها أدركت أن إنديرا كانت «تعيسة جدًا ووحيدة جدًا وقلقة للغاية بشأن أبيها ووطنها، وكانت متخوفة بكل ما في الكلمة من معنى من المستقبل».<sup>14</sup>

رأت بي إم بي بدورها كل ذلك في إنديرا، فحاولت أن تشركها في رحلة المدرسة السنوية إلى مقر عصبة الأمم المتحدة. لكن إنديرا لم تكن تريد العودة إلى جنيف — حيث عاشت من قبل مع والديها — مع مجموعة من فتيات مدرسة بادمينتون. ومع أن بي إم بي لم تكن أمًا حانية لفتيات مدرستها مثل هيمرلين أو أجاثا هاريسون، فقد حاولت بطريقتها المباشرة الجادة أن تبدي تعاطفها تجاه إنديرا بسؤالها عما إذا كان البعد الشديد عن وطنها وأسرته قد أصابها بالحزن. فردت عليها إنديرا بحدة: «لا أحبذ أن أكون بعيدة عن وطني في مثل هذا الوقت، ولكن عليّ أن أتعرّف على البريطانيين كي أحاربهم».<sup>15</sup>

وبمناسبة عيد ميلاد إنديرا التاسع عشر أرسل نهر إلى قصيدة مكتوبة باللغة السنسكريتية باسم ميجادوتا. عن هذه القصيدة تقول إنديرا لنهر: «لا يمكنك أن تتخيل حجم السرور الذي أدخلته هذه القصيدة على قلبي؛ إذ شعرت فيها بشمس الهند ودفئها في هذا البلد الرطب الكثيب.» كانت إنديرا مشتاقة لوالدتها. وهي تقول لنهر: «عندما توفيت أُمي لم أستوعب في بادئ الأمر ما حدث، لكن بمرور الوقت، ومع كل يوم جديد، تعتصر حقيقة وفاتها قلبي أكثر فأكثر.» اعترفت بأنها شعرت كما لو كانت «ميتة»، مشيرة إلى أن هذه الكلمة هي الوحيدة التي تقترب من وصف المعنى الذي تريد أن تسوقه.<sup>16</sup>

وكاد الغيظ أن يقتلها لابتعادها لمدة طويلة عن فيروز الذي كان وقتها يدرس في مدرسة لندن للاقتصاد. شعرت بالإحباط عندما أخبرتها بي إم بي أنها لا تستطيع الذهاب إلى لندن لقضاء عطلة عيد الميلاد، وإنما بإمكانها الذهاب إلى كورنوال، لأن لندن ستضر بصحتها. وعارضت بي إم بي ذهاب إنديرا إلى سويسرا أيضًا حيث أرادت قضاء عطلة الكريسماس مع فيروز. ثم طلبت إنديرا من نهر التدخل بالكتابة إلى بي إم بي لتأييد فكرة سفرها إلى لندن وسويسرا، وقالت له في رسالتها: «أعدك بأن أعني بنفسي ... لا أود الذهاب إلى كورنوال لقضاء العطلة مع غرباء.»<sup>17</sup>

سارت الأمور حسبما أرادت إنديرا، وأدعت بي إم بي لرغبتها؛ ففي منتصف ديسمبر ذهب إنديرا إلى لندن حيث أقامت لدى جمعية الشابات المسيحيات بشارع جريت راسل في بلومزبري. وبعدها سافرت مع فيروز وشانتا غاندي إلى فينجن بسويسرا للترجل على الجليد. كتبت إلى نهر أنها برفقة «بعض الأصدقاء»، دون أن تكشف عن هوية هؤلاء الأصدقاء. كان قد مضى عام بالضبط على وفاة كامالا في بادن فيلر وذهب إنديرا إلى فينجن للمرة الأولى برفقة فرانك أوبردورف، عندما حضر فيروز عشية رأس السنة فجأة بلا مقدمات. لكن الآن أصبح أوبردورف خارج الصورة وكانت كامالا قد توفيت.

في نهاية يناير عادت إنديرا رغبةً عنها إلى بادمينتون. وبدأت تقلق جدًّا بشأن امتحان اللغة اللاتينية الذي شارف ميعاده، وحاولت من بعيد متابعة انتخابات الولايات الهندية (التي أقرها قانون الحكومة الهندية لعام ١٩٣٥) بقراءة صحيفتي «مانشيستر جارديان» و«ذا تايمز». عارض نهر الانتخابات التي اعتبرها بمنزلة مخدر استخدمه البريطانيون لصرف النظر عن مطالب أخرى أكثر أهمية. لكنه أدار الحملات الانتخابية بلا كلل في كل ربوع الهند، وعاش هذه المدة — كما كتب إلى إنديرا — «فيما يشبه الدوامة المتحركة بين القطارات والسيارات واللقاءات».<sup>18</sup>

في منتصف مارس استقلت إنديرا القطار من بريستول إلى أكسفورد لحضور مقابلة طلب التحاقها بكلية سومرفيل. وفي المقابلة أخبرتها هيلين داربيشاير واثنتان من أساتذة التاريخ هما ماي ماكيساك ولوسي ساذرلاند أن المقالات التي كتبتها في امتحان الالتحاق بالجامعة كانت «مثيرة للاهتمام» و«ممتعة»، وأن لغتها الفرنسية ممتازة. أمّا لغتها اللاتينية فقد حكمتا عليها بأنها «رديئة».<sup>19</sup> وبعد أسبوع بالضبط عادت إنديرا إلى أكسفورد لتخضع من جديد لامتحان اللغة اللاتينية الذي صارت ترهبه بشدة، وكلمات ماي ماكيساك وهيلين داربيشاير تتردد في أذنيها، وعندما علمت باجتيازها الامتحان شعرت بالدهشة والسعادة الغامرة؛ إذ صار باستطاعتها الفرار من سجن مدرسة بادمينتون، وباتت تتطلع إلى مستقبلها في كلية سومرفيل.<sup>20</sup>

لكن كان عليها أولاً أن تقصد الهند. ولكي تفعل سافرت في أواخر مارس بالقطار إلى أمستردام، ومن هناك سافرت في ٣١ من يناير على متن إحدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية الملكية الهولندية. كانت هذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها بالطائرة. وبعد أربعة أيام وصلت إلى منزلها آناند بهافان في الله آباد، وحاولت أن تقاوم دموعها لأن كل شيء هناك يذكرها بكامالا.<sup>21</sup> كان قد مضى عامان تقريباً على مغادرتها هي وأمها لسانتينيكيتان بحراً إلى أوروبا. كل شيء — وفي ذلك إنديرا نفسها — كان قد تغير تماماً. فقد بلغت التاسعة عشرة من العمر وأصبحت أكثر حكمة وأكثر حزناً لكنها كانت مغرمة سراً.

كذلك فقد تغير الوضع السياسي في الهند تغيراً جذرياً. إذ أحرز حزب المؤتمر انتصارات رائعة في انتخابات الولايات في فبراير. فازت فيجايا لاكشمي بانديت وزوجها رانجيت في انتخابات الولايات الاتحادية، وصارت السيدة بانديت وزيرة، فكانت بذلك أول وزيرة في الإمبراطورية البريطانية. أما نهرو فقد أصابه التعب والإحباط. ففي أثناء الاستعداد للانتخابات — بين يوليو عام ١٩٣٦ وفبراير عام ١٩٣٧ — جاب نهرو جميع ولايات الهند وقطع ٥٠٠ ألف ميل إما بالقطار أو بالسيارة أو بعربة تجرها الثيران أو سيراً على الأقدام، وخطب في نحو ثلاثين اجتماعاً يومياً، وتواصل مع عشرة ملايين شخص. وبعد الانتخابات أدى صعود حزب المؤتمر للسلطة إلى تدافع أعضائه عليها، مما خلق جواً من التوتر والانقسام داخل الحزب الذي صار نهرو رئيساً له من جديد عام ١٩٣٧. وعقب وصول إنديرا إلى أرض الوطن كانت قوى نهرو المعهودة قد خارت تماماً وأصبح طريح الفراش. كان بحاجة إلى الراحة، بل بحاجة إلى الابتعاد عن الهند وشئونها

السياسية. وعندما استرد عافيته في أوائل مايو سافر مع إنديرا إلى بورما وشبه جزيرة الملايو وسنغافورة فيما أسماه «عطلة عمل».

بدأت رحلة إنديرا ونهرو التي استغرقت شهرًا بداية مشؤومة؛ إذ عندما وصلا إلى محطة هاوراه في كلكتا سقط أحد معجبي نهرو المتحمسين بين القطار والرصيف وبُترت قدمه، وصف نهرو مشهد القدم المبتورة بأنه «مشهد مروع»، وأضاف: «ومع هذا ومع ألمه الشديد فإن الرجل تشبث بي وسر لرؤيتي، بل أراد أن يضع رأسه عند قدمي.»<sup>22</sup> وبعد أن أبحر نهرو وإنديرا من كلكتا انتحر أحد ركاب سفينتهما بالقفز من متن السفينة. بعكس نهرو كانت إنديرا تؤمن بالنذر والتنبؤات التنجيمية، فحاولت الوصول لدلالة ما حدث. كانت — بالطبع — مصدومة من هاتين الحادثتين، لكنها كانت أيضًا قلقة مما قد تحملانه من نذر لها ولأبيها.

وبعدما وصلت إنديرا ونهرو إلى رانجون أمضيا أسبوعين في التجوال في أنحاء بورما في «وسائل النقل المترفة». وفي هذا يقول نهرو لأحد أصدقائه: «لم نكن لنركب عربات الدرجة الثالثة أو سيارات الفورد القديمة المتهاكة، بل استعنا بالسيارات الباهظة أو الطائرات أو عربات السكك الحديدية المكيفة.»<sup>23</sup> زارا معًا المعابد والأديرة، ولكن كما كانت الحال في سيلان قبل ستة أعوام ضاع معظم وقتهما بين «الحشود المتتابعة والمواكب والحفلات الرسمية الضخمة».<sup>24</sup> ذابت إنديرا في حرارة بورما الاستوائية، وارتجفت برذاً في القطارات المكيفة، وعمومًا لم تتمكن من النوم جيدًا. وبحلول موعد إبحارهما من بورما كان حلقها قد بدأ يؤلمها وحرارتها مرتفعة.

في شبه جزيرة الملايو وسنغافورة لازمها الشعور بأنها ليست على ما يرام، وكانت حسبما قال نهرو: «بحال صحية سيئة جدًا». كان قد مضى أكثر من عام على افتراقهما في سويسرا بعد وفاة كامالا. والآن لم يكن بمقدورهما التواصل أحدهما مع الآخر، حتى مع كونهما خارج بلادهما وبعيدًا عن الضغوط الأسرية والتوترات السياسية. حاولا بلا جدوى إعادة توثيق عرى الصداقة الحميمة التي جمعت بينهما في الرسائل، عندما اعتاد كل منهما الإفضاء بمكنون قلبه للآخر. ولكن بلا فائدة. فإنديرا لم تنبس ببنت شفه عن فيروز لأبيها. وهو من ناحية أخرى لم يتحدث عن إجهاده من الصراعات السياسية داخل حزب المؤتمر ومع البريطانيين، ولم يعترف لها بأنه أحس بالكبر والهرم. وبعد عودة إنديرا إلى أوروبا كتب لها نهرو يحدثها عن الوقت الذي أمضياه معًا في الهند والشرق الأقصى قائلًا: «أليس غريبًا أنه على مدى كل هذه الشهور — بصرف النظر عن المحادثات المقتضبة عن الأنشطة اليومية — نادرًا ما دارت بيننا محادثة حقيقية؟ لقد

شعرت بالفجوة التي اتسعت بيننا ... ولم أتمكن من تجاوزها.» وأضاف أنه من تلك اللحظة فصاعدًا قد يكون من الأفضل لو كانت لقاءاتهما أقل.<sup>25</sup>

كان لنهرو سره الخاص. فمثل إنديرا كان يعيش قصة حب، وقد صار الأمر واضحًا لابنته في ربيع وصيف عام ١٩٣٧. كان التباعد الذي طرأ على علاقتهما يعود إلى حد بعيد لارتباط نهرو بعلاقة مع امرأة تدعى بادماجا نايدو، وهي علاقة بدأت بعد وقت قصير من عودة نهرو إلى الهند إثر وفاة كامالا. كانت بادماجا — ابنة صديقة نهرو القديمة سروجيني نايدو — تصغر كامالا بعام واحد فقط، ولكن بصرف النظر عن هذا التقارب في عمريهما كانت كامالا زوجة نهرو ونايدو عشيقته مختلفتين تمام الاختلاف في جميع النواحي الأخرى. فبعكس كامالا الرقيقة المتحفظة البسيطة العاطفية كانت بادماجا ضخمة الجسم معتدة بنفسها حسنة التعليم سريعة البديهة مفعمة بالحيوية ومتفتحة. ومع أنها كانت متحمسة لقوميتها فإنها تجنبت ارتداء الخادي الأبيض، واعتادت ارتداء الساري الحريري بألوان براقّة كاللون الأخضر أو الذهبي أو البنفسجي، وتزيين شعرها بزهور كبيرة. وقد وصفها أحد الأصدقاء قائلًا: «ثمة شيء فيها يذكرني بزهرة عصفور الجنة.»<sup>26</sup>

ظلت إنديرا مقربة من بادماجا ووالدتها سروجيني نايدو لسنين، وكان من المتوقع أن تظل وثيقة الصلة ببادماجا حتى آخر حياتها، لكن عندما علمت بشأن العلاقة التي جمعت بين بادماجا وأبيها انزعجت جدًّا، فقد بدت لها هذه العلاقة كما لو أنها خيانة لذكرى أمها، مع أن إنديرا وجدت هي الأخرى في علاقتها بفيروز ما ينسيها حزنها على أمها. وعندما أدركت إنديرا أخيرًا أنها مضطرة لمشاركة قلب والدها مع بادماجا فضلت الابتعاد، مما خلق «الفجوة» التي تحدّث عنها نهرو.

ووفقًا لنان بانديت — أخت نهرو — فقد استمرت العلاقة بين نهرو وبادماجا لأعوام. لكن نهرو أخبر أخته أنه شعر بأن الوقت غير ملائم ليتزوج بادماجا لأن «إندو تأملت بما فيه الكفاية». وهو لم يشأ أن يسبّب لها المزيد من الآلام.<sup>27</sup>

وبعد عدة أعوام شعرت إنديرا غاندي بالغضب الشديد عندما نشر الكاتب الرسمي لسيرة نهرو — سارفيبالى جوبال — الرسائل الغرامية التي أرسلها نهرو إلى بادماجا نايدو في كتاب «الأعمال المختارة» لنهرو.<sup>28</sup> رأت إنديرا أن الرسائل كتبت بعفوية وأنها مشبوبة بالعاطفة وكاشفة جدًّا، وأنها تتيح فرصة نادرة للاطلاع على الجانب الضعيف والحساس من نهرو. كان نهرو وبادماجا يلتقيان بصورة غير منتظمة. فطوال عام ١٩٣٦ كان نهرو يطوف الهند، في حين كانت بادماجا تنتقل في الأغلب بين حيدر آباد



وكلكتا. لطالما وجد نهرو التعبير عن نفسه في الرسائل أسهل مما لو تحدث، وكان أغلب الوقت يكتب رسائله في وقت متأخر من الليل وهو في حالة من التعب والاستغراق في التفكير الحالم. ومن هنا كانت رسائله إلى «بيبي» (وهو الاسم الذي اعتاد نهرو وإنديرا أن يطلقاه على بادماجا) نابغة من قلبه وتحمل طابع الاعتراف. في إحدى رسائله إلى بادماجا يقول نهرو: «لا رغبة لي في أن أكون بلا رغبة»، ويضيف أنه خلف «قناع هذا الوجه الشاحب دائماً» تكمن «كل أنواع الرغبة والأهواء والغرائز». وفي ربيع عام ١٩٣٧ قبل شهرين من عودة إنديرا إلى الهند كتب نهرو إلى بادماجا: «أنت في التاسعة عشرة من العمر (كانت — في الحقيقة — في السابعة والثلاثين من العمر، في حين كانت إنديرا هي التي تبلغ فعلاً التاسعة عشرة) وأنا؟ عمري مائة عام أو أكثر. فهل سأعرف يوماً مقدار حبك لي؟»<sup>29</sup>

وفي الحقيقة كان نهرو يعلم مبلغ حب بادماجا له، وقد صارت هذه مشكلة. إذ كانت بادماجا تتوقع من نهرو أكثر مما يمكنه منحها، فهو — كما أوضح — ومع مبادلتها الحب، تحتل أمور أخرى المقام الأول في حياته. وفي هذا يقول: «هؤلاء الذين أحبهم مضطرون للمعاناة ... ليس حبي هو ما يزعزعني، بل هو طغيان عاطفة أو هاجس آخر ... فحتى وأنا أضم من أحب بين ذراعي يشرذ ذهني متناسياً الحاضر، وأصير غريباً ... أنظر إلى العالم كما لو كنت منفصلاً عنه.»<sup>30</sup>

كان الألم الذي يسببه نهرو لبادماجا يؤرقه باستمرار. ففي خضم اجتماع لجنة عمل حزب المؤتمر كانت «صورتها هي كل ما يشغل باله»، ويقول لها عن الاجتماع: «وقاطعتني عينك الحزینتان، حتى نسيت ما يجري حولي.»<sup>31</sup> وقد أقلقه ذلك؛ فالشيء الوحيد الذي لم يكن نهرو مستعداً لتقديمه لأي امرأة (وفي ذلك إنديرا) هو التضحية بعمله ومسئوليته السياسية لإشباع رغبات واحتياجات شخصية. لذا اضطر هو وبادماجا للتوصل إلى نوع جديد من التفاهم. فمن ناحيتها توقفت عن مطالبة بمنحها أكثر مما يمكنه، الأمر الذي أطلق العنان لنهرو لمواصلة علاقتهما وهو يكن لها كل الامتنان والحب. وقبل عدة أيام من وصول إنديرا إلى الله آباد في أبريل عام ١٩٣٧ كتب نهرو إلى بادماجا: «كم تحركين مشاعري! ... فوحده التفكير فيك يشعرنني بالحوية.»<sup>32</sup> وحينما كان مع إنديرا في شبه جزيرة الملايو كتب لبادماجا يقول: «كم أتوق لسماع أخبارك ... كم أطلع لرؤيتك وضمك والنظر في عينيك.»<sup>33</sup>

وعندما وصلت إنديرا ونهرو إلى كلكتا في نهاية رحلتها إلى الشرق التي استغرقت شهراً كانت إنديرا لا تزال مريضة، فاستشارا العديد من الأطباء، الذين أخبروا إنديرا أن التهاب حلقها راجع إلى التهاب شديد في اللحمية، التي يجب إزالتها جراحياً قبل عودتها إلى أوروبا. (كانت إنديرا قد خضعت في طفولتها لجراحة إزالة اللوزتين). معنى هذا أنها ستضطر لتأجيل موعد مغادرتها ولقائها بفيروز. فعادت إلى الله آباد واستراحت في منزلها لعدة أسابيع، ثم غادرت مع نهرو في أوائل أغسطس إلى بومباي حيث تقرر إجراء الجراحة. وبعد الجراحة أمضت فترة النقاهة في بيت عمته بيتي هاتيسينج في بومباي في مالابار هيل.

في الحادي عشر من سبتمبر أبحرت إنديرا على متن السفينة «إس إس فيكتوري» المتجهة إلى أوروبا. كانت السفينة تغص بالطلاب الهنود — أكثرهم من الرجال — لكن كان هناك أيضاً امرأتان هندية هما: كاميليا تياجي (المتجهة إلى كلية سانت هيو بجامعة أكسفورد) وأرونا موخيرجي. شعرت كاميليا التي لم تفارق عائلتها أو وطنها قط بالدهشة من الهدوء الذي اتسمت به إنديرا وهي تودع نهرو في ميناء «بالارد بير» في بومباي. وعن هذا تقول أرونا: «كانت بالفعل متمرسة على الفراق. كنا نقف جنباً إلى جنب على (سطح السفينة) نلوح بأيدينا مودعين. بدت متماسكة تماماً، أما أنا ... فلم أدر كيف أغالب دموعي.»<sup>34</sup> وبعدها بأعوام كانت أرونا موخيرجي لا تزال تذكر إنديرا وقتما كانت على متن السفينة بقرطيبها المتدليين وفصوصهما الخضراء، وكيف تنبأ طالب يقرأ الكف بحظها. تنبأ الطالب بأنها ستكون «مشهورة في العالم أجمع ... وصاحبة منصب ذي جاه وسلطان».<sup>35</sup> وعلى فرض صحة هذه القصة لم يكن العراف ليحتاج إلى معرفة كبيرة بالغيب ليتنبأ لابنة جواهرلال نهرو بمستقبل باهر. وقد تحدثت إنديرا نفسها عن الرحلة البحرية وقالت إنها كانت تقضي ما لا يقل عن ساعتين يومياً في حمام سباحة السفينة مرتدية ثوب سباحة برتقالي فاتح اللون. ونتيجة الشعور بالذنب ربما بسبب الفجوة الجغرافية والعاطفية التي صارت تفصل بينها وبين أبيها، والفتور الذي أظهرته وهي راحلة عنه، كتبت إنديرا إلى نهرو: «أفتقدك أشد الافتقاد، وأحبك حباً جماً، أكثر من أي وقت مضى.»<sup>36</sup>

وبعدما رست سفينة إنديرا في مرسيليا ذهبت مباشرة إلى باريس للقاء فيروز كما رتباً. كانت ستة أشهر قد مرت دون أن يرى أحدهما الآخر، وكانا وحدهما أخيراً، بعيداً عن فضول الأصدقاء والأهل والمعارف. كانت باكورة هذا الخريف الذي تجدد فيه لقاؤهما رائعة الجمال، شعرا فيها بطريقة ما كما لو كانا قد انفصلا عن الزمان. وكما هو

متوقع عرض فيروز عليها الزواج من جديد، ولكن هذه المرة كان كل شيء قد تغير وبدا الأمر ممكناً لإنديرا. وعن ذلك قالت إنديرا لأحد أصدقائها المقربين بعد عدة أعوام: «على درجات «باسيليقا» كنيسة القلب الأقدس، حسمنا الأمر أخيراً ... كانت باريس تستحم في أشعة الشمس الرقيقة، وبدت لنا شابة القلب ومبتهجة، ليس فقط لأننا كنا شابين نعيش الحب، بل لأن المدينة بأكملها كانت ممثلة بالقلوب الشابة التي تحلت بروح الإجازة ... كانت الحرب التي ستستتبع هذا القرار ... غائبة عن ذهنينا»<sup>37</sup> لم يكن الأمر أن إنديرا استسلمت لرغبة فيروز في النهاية، بل كما قالت: «كنا أخيراً متأكدين من قرارينا».

وبعدها بأسبوعين وصلت إنديرا إلى كلية سومرفيل وهي «تشعر بالتوتر والقلق» حاملة معها «أكواماً من المتاع» في عصر خميس بارد وممطر من شهر أكتوبر. كانت تكبر زميلاتها في الفصل؛ فصل عام ١٩٣٧، بعامين تقريباً، وكانت الوحيدة التي تنحدر من أسرة شهيرة. والحق أن كثيراً من زميلاتها كن يعلمن مسبقاً عند قدومهن إلى كلية سومرفيل أنهن «سيسعدن بصحبة ابنة نهرو». ساد شعور بالفضول حول «ابنة نهرو» بين الطالبات، وشعور بالارتياح لأنها بدت قلقة كبقية، وشيء من الدهشة لارتدائها السترات الصوفية والتنانير والأحذية العادية مثلهن.<sup>38</sup>

خصصت لها غرفة بالطابق الأرضي في جناح بالمكتبة (كانت جميع غرف الطالبات فردية)، وكانت غرفتها مؤثثة بفراش ومنضدة ومقعد بمسند ظهر مستقيم. كما كانت بها مدفأة فحم، وكانت الطالبات يحصلن على دلو واحد من الفحم يومياً، الذي كان يبعث من الحظ يدفئ الغرفة من بداية المساء حتى موعد النوم. (شعرت إنديرا بالبرد دائماً طوال مدة إقامتها بكلية سومرفيل). كان يفصلها عن دورة المياه ممر يضم عدة غرف، وكانت دورة المياه تحتوي على حوض واحد للاستحمام وآخر لاغتسال الثماني الفتيات اللاتي تشاركن الإقامة في الرواق. في حين قبعت المراحيض «في منطقة الظلمة الخارجية» خلف دورة المياه، وكانت باردة جداً.<sup>39</sup>

كان مقرراً أن تبدأ الدراسة يوم الإثنين التالي. وقبل حلول هذا الموعد كانت إنديرا وغيرها من طالبات السنة الأولى قد ارتدين الرداء الجامعي، والتقين كلٌّ على حدة بهيلين داربيشاير وأساندتهن. وحضرن أول اجتماع لصاحبات الغرف المشتركة في مرحلة ما قبل التخرج، الذي حضرته جميع الطالبات المعنيات. ذهب معظم وقت الاجتماع — الذي عقد في الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٣٧ — في مناقشة قضية غريبة ومثيرة للجدل هي قضية طالبة السنة الثانية ماري بريجنولي التي ضبطتها صاحبة النزل في غرفة

صديقها الحميم، وأبلغت سلطات الكلية بهذه المسألة. كان مصير صديق ماري بريجنولي قد تقرر بالفعل؛ إذ حصل على فصل مؤقت من الجامعة لمدة فصل دراسي واحد، كان بمقدوره بعده معاودة الدراسة بجامعة أكسفورد. أما ماري بريجنولي فأنزلت قوانين وقواعد كلية سومرفيل عليها عقوبة أثقل من صديقها، وهى الفصل النهائي والحكم على مستقبلها الأكاديمي بنهاية مشينة. فقدّم التماس احتجاجاً على عدم المساواة في عقاب ماري وصديقها الحميم، وقد خضع لمناقشة ساخنة في اجتماع صاحبات الغرف المشتركة. لم تؤخذ الأصوات، ولكن في نهاية الاجتماع وقّعت معظم الحاضرات على الالتماس، وفي ذلك إنديرا نهرو. وبعدها قدم الالتماس إلى هيلين داربيشاير التي أشيع أنها متعاطفة مع ماري بريجنولي. هذا على عكس العميدة فيرا فارنل. وبعد عدة أيام ذاع خبر فصل ماري فصلاً مخزياً.<sup>40</sup>

وفي الأسبوع التالي صارت إنديرا رسمياً طالبة بكلية سومرفيل بزيها الأكاديمي ذي القلنسوة والقميص الأبيض وربطة العنق السوداء والتتورة السوداء. سار طلاب السنة الأولى في موكب من سومرفيل إلى مسرح شيلدونيان حيث أشرف عميد كلية باليول؛ إيه دي ليندساي — وهو اسكتلندي ضخم البنية محمر الوجه بساقين مشعرتين تبرزان من تحت رداءه — على مراسم «حفلة غاية في الضجر والملل».<sup>41</sup> وبعدها انهمكت إنديرا في الدراسة التي رأتها مرهقة وقاسية؛ فقد كان أمامها جدول مزدحم بالمحاضرات والدروس في المجالات الأربع التي كانت تدرس لها من أجل مجموعة الاختبارات الأولى. كانت تتلقى دروساً في التاريخ بصحبة طالبة أخرى تدعى كاي دافيز في غرفة جلوس مدرّستهما ماي ماكيساك. اشتمل مقرر التاريخ للسنة الأولى على التاريخ الروماني والأنجلوسكسوني وتاريخ القرون الوسطى، وعليهما كتابة مقال كل أسبوع وتقديمه لماكيساك وهي مؤرخة دساتير تتناول ما يكتبانه بالتحليل الدقيق أثناء الدرس. اشتكت إنديرا في الخطاب الذي أرسلته إلى أبيها في منتصف أكتوبر من أن الأساتذة يدفعونهن إلى العمل دفعاً كالعبيد، ولكن بعدها بعدة أسابيع كتبت له أنها بدأت تتكيف مع الوضع، وأنها وجدت العمل المتواصل طوال الصباح أسهل من ذي قبل.<sup>42</sup>

كانت الدراسة بكلية سومرفيل ستضنيها، ولكنها اكتسبت بالتدريج ثقة بأنها على قدر المسؤولية. لم تكن إنديرا يوماً طالبة فذة، ولكنها كرسّت جهودها لتكون كذلك في سومرفيل؛ فكانت تستعد وتشارك في دروسها دائماً. كانت مجدة في العمل وذكية وكانت تجيد الكتابة.<sup>43</sup> ولكنها ظلت قلقة بشأن مستواها في اللغة اللاتينية، ولتقويم لغتها

اللاتينية كانت تذهب أسبوعياً للتدرب على يد مدرس متقاعد ثقيل السمع يرتدي طقم أسنان. كان المدرس الوحيد الذي لا يعلم أنها ابنة جواهرلال نهرو، ولم تحاول أن تصح له عندما كان يناديها باسم «الآنسة دنفر».

كان على إنديرا أن تجتاز مجموعة الاختبارات الأولى كي تتمكن من الانتقال إلى الدراسة للحصول على البكالوريوس في مادة التاريخ، فأصبحت طوال فصل الخريف الدراسي لا تكف عن القلق بشأن هذا الاختبار. كان بإمكانها أن تجلس للاختبار في أي وقت من السنة الأولى، لكن جميع طالبات السنة الأولى تقريباً كن يسجلن له في أول فرصة في شهر ديسمبر. وفي أوائل نوفمبر — بعد أن أمضت إنديرا أقل من شهر في سومرفيل — كتبت إلى نهرو تقول: «بدأ شبح مجموعة الاختبارات الأولى يلوح». وبعدها بعدة أسابيع كتبت: «بدأ الاختبار يقترب أكثر فأكثر، وأنا في رحي المراجعة».<sup>44</sup>

وسرعان ما وجدت إنديرا نفسها وسط دوامة لا تنتهي من الأنشطة الاجتماعية والسياسية التي استغرقتها بين حضور اجتماعات ومحاضرات عامة وحفلات موسيقية وعروض مسرحية، فضلاً عن أعضاء المجتمع الجامعي البارزين الذين كانوا جميعاً متشوقين لمصادقة ابنة نهرو واستضافتها. وانضمت إنديرا إلى نادي العمل بالجامعة وإلى المجلس الهندي، وهو منظمة تضم الطلاب الهنود بجامعة أكسفورد (الذين بلغ عددهم عام ١٩٣٧ مائة طالب، مثلت النساء نسبة ضئيلة منهم). وفي ٨ نوفمبر وصفت إنديرا في خطاب إلى أبيها أحداث اليوم السابق. ذكرت أنها قضت الفترة الصباحية كلها في المحاضرات والدروس، وبعدها ذهبت في بداية فترة ما بعد الظهر إلى اجتماع نادي طبقة العمال.

«في تمام الثالثة والربع حضر باسل ماثيوز (وهو باحث بارز بجامعة أكسفورد) وزوجته ودعياني لشرب الشاي معهما. عدت في السابعة إلا الربع؛ في السابعة كنت أتناول العشاء — على مائدة الشخصيات الرفيعة بالجامعة — مع «دارب» (الناظرة هيلين داربيشاير، وأستاذة سومرفيل الآخرين)، وفي الثامنة والنصف كان عليّ حضور اجتماع بالمجلس الهندي؛ إذ من المرتقب أن يلقي كريشنا مينون كلمة. وبعدها تناولت القهوة مع كريشنا ثم عدت إلى غرفتي في الحادية عشرة والربع في ميعاد حظر الدخول بالضبط. كان عليّ أن أعد مقالاً عن تطور البرلمان لأقرأه على الفصل في العاشرة صباح اليوم التالي، ولكنني حتى الحادية عشرة والربع لم أكن قد قرأت شيئاً عن الأمر بعد. على كل حال أخذت أقرأ

حتى الواحدة إلا ربعا، ثم أخذت أكتب في المقال حتى الثالثة والربع صباحاً. أصبح النهوض من الفراش صباح اليوم التالي صعباً، ولأنني نهضت متأخرة فأتاني موعد التوقيع في السجل وفاتني الإفطار ... ولكن مقالي حصل على علامة جيد جداً.<sup>45</sup>

لم تكن إنديرا متفرغة للمشاركة في الحياة الاجتماعية العفوية بكلية سومرفيل؛ حيث تجتمع الطالبات لتناول الطعام، وفي المساء عندما تتردد الطالبات بعضهن على غرف بعض لشرب الشيكولاتة الساخنة أو شي ثمار أبي فروة على نيران المدفأة وأكلها. كانت هناك نوافذ زجاجية أعلى أبواب الغرف التي توجد بالمكتبة، وفي المساء كانت النافذة أعلى باب غرفة إنديرا مظلمة دائماً لأنها كانت دوماً بالخارج.<sup>46</sup> ولم تعتد غالباً «تناول العشاء في قاعة طعام الكلية» كبقية الطالبات، إلا مرة في كل فصل دراسي عندما تدعى — كجميع طالبات كلية سومرفيل — لتناول وجبة العشاء بملابس رسمية على مائدة الشخصيات الرفيعة. على هذه المائدة تتعشى هيلين داربيشاير — التي كانت باحثة بكلية ميلتون والتي قد يكون العشاء الرسمي معها محطماً للأعصاب لأنها كانت على حد قول إنديرا «تتفنن في التزام الصمت لمدة طويلة» في المناسبات الاجتماعية — والعميدة فيرا فارنيل التي وصفتها إنديرا بأنها «امرأة طويلة ونحيلة، تحت عينيها هالات مخيفة وداكنة». وأحياناً يحضر على مائدة الشخصيات الرفيعة ضيف مرموق مثل الروائية دوروثي إل سايرز التي حضرت ذات مرة «متشحة بقطعة سوداء من القطيفة». وقتها كان قد نشر لها حديثاً رواية «جودي نايت»،<sup>47</sup> وهي قصة بوليسية تجري أحداثها في كلية سومرفيل. لكن الإنجليزية الوحيدة التي صارت صديقة مقربة لإنديرا في كلية سومرفيل هي كاي دايفس، ويعود ذلك جزئياً إلى أنهما كانتا تحضران بعض الدروس معاً. بخلاف كاي دايفس كان هناك صديقتان أخريان كتبت إنديرا عنهما في خطاباتها بحماس، إحدهما كانت سورية تدعى ماري دمشقي، أما الأخرى فطالبة كفيفة من موريشيوس تدعى مونيك رافراي.

ولكن أهم من جمعتهم علاقة بإنديرا كانوا من خارج الجامعة، من الجالية الهندية وبالأخص من دائرة أصدقاء فيروز اليساريين في لندن. وفي الواقع شعرت زميلات إنديرا في كلية سومرفيل أنها تعيش حياة مزدوجة. ففي الكلية تبدو واهنة — لكن جميلة — ومتحفظة، تظهر عليها النحافة الشديدة عندما ترتدي بذلة صوفية وقميصاً، أو تنورة وسترة من قطعتين. كان واضحاً أن قلبها ينتمي إلى مكان آخر. فقد كانت الطالبات

يلمحها خارج الكلية وهى تهرع مساءً إلى اجتماع المجلس الهندي مرتدية الساري الحريري بألوان تنبض بالحياة، أو في محطة أكسفورد عندما تكون في انتظار القطار ليحملها إلى لندن لحضور وقائع اجتماع حزب المؤتمر الوطني الهندي.<sup>48</sup>

أثناء إقامتها بأكسفورد ظلت إنديرا على وعي شديد بدورها ومكانتها بصفتها ابنة نهر، ولكنها كانت شخصية ذات حضور سياسي، وليس شخصية قيادية. فعندما تصل إلى المجلس الهندي أو اجتماع نادي طبقة العمال يصطف الأعضاء الهنود لتحياتها. لكنها لم تتحدث في أي نادٍ سياسي سوى مرة واحدة في اجتماع حزب المؤتمر الوطني الهندي في لندن، وتحت إصرار من السيد كريشنا مينون. وقد أخفقت فيها إخفاقاً ذريعاً؛ إذ تسمرت في مكانها من التوتر وعجزت عن الكلام، ولما تمكنت أخيراً من فتح فمها أصدرت أصواتاً غير مفهومة، وصاح أحد الحضور: «إنها لا تتحدث، بل تصدر صريراً».<sup>49</sup>

ولكن إنديرا لم تسمح لهذه التجربة المهينة بكبح نشاطها الذي كان يحركه إخلاص صادق وشعور بالمسؤولية. أخبرت إنديرا نهر و كيف وجه لورد زيتلاند — وزير خارجية الهند — بمنتهى العلو والتكبر خطاباً إلى جمهور المجلس الهندي بعنوان «رجاء حاولوا أن تفهمونا»، وكيف أن الشيوعي الهندي بالم دات تولى الرد عليه في الأسبوع التالي في خطاب بعنوان «لماذا نفهم الحكومة البريطانية فهماً دقيقاً؟» لكن لم تكن السياسة الهندية وحدها هي التي شغلت إنديرا؛ فقد عملت لمصلحة اللواء الدولي للدفاع عن إسبانيا في تسجيل أسماء المتطوعين، وعرضت إحدى أساورها للبيع في مزاد لجمع أموال للجمهوريين (جنت من بيعها خمسين جنيهًا استرلينياً)، وقاطعت المنتجات اليابانية في أكسفورد بعدما هاجمت اليابان الصين، وساعدت في تنظيم عرض خيري لراقص الفلكلور الهندي أوداي شانكار لجمع أموال لتقديم المساعدات الطبية إلى الصين. أما فيروز فقد كان أكثر نشاطاً، فمع خوف إنديرا عليه حاول الذهاب إلى إسبانيا للمشاركة في القتال، ولكن المخابرات البريطانية التي تراقب عن كثب جميع أعضاء حزب المؤتمر الوطني الهندي — وفي ذلك فيروز وإنديرا — احتجزت جواز سفره.<sup>50</sup> في الحقيقة كان فيروز على وشك ترك كلية لندن للاقتصاد ليكرس نفسه ووقته بالكامل لأنشطة حزب المؤتمر الوطني الهندي وغيرها من الأنشطة السياسية.

وفي السادس من ديسمبر بدأت اختبارات المجموعة الأولى التي كانت إنديرا ترهبها بشدة، واستمرت لثلاثة أيام. وفور انتهائها قصدت إنديرا لندن، ثم ذهبت مع فيروز وشانتا غاندي إلى «جارميش بارتنكيرشن» في ألمانيا للتزلج. وزاروا «إنزبروك» وقضوا يوم رأس

السنة بميونخ، حيث زاروا المتحف الألماني. كتبت إنديرا إلى أبيها أنه يوجد قبالة الشارع من المتحف الألماني «معرض معادٍ لليهودية» تتدفق عليه حشود الناس. وتصف إنديرا المعرض فتقول: «ظهرت في اللوحات الإعلانية وفي مدخل المعرض صور عملاقة لليهودي بشع الخلقة يحمل حقيبة نقود في يد، وخريطة الاتحاد السوفييتي والمطرقة والمنجل (شعار الاتحاد السوفييتي) في اليد الأخرى ... أشعرتني تلك الصور بالتقزز. كانت بكل ما في الكلمة من معنى مثيرة للاشمئزاز»<sup>51</sup>

وبعيدًا عن ألمانيا — وبالتحديد في الله آباد — أصيبت جدة إنديرا وعمتها الكبرى سواروب راني نهرو وأختها الأرملة بيبي أما («الساحرة الشريرة» من طفولة إنديرا) بسكتة دماغية مميتة في يناير عام ١٩٣٨. وقبل أن تعود إنديرا من ألمانيا إلى كلية سومرفيل وتقرأ التلغراف الذي أرسله إليها والدها علمت بخبر وفاة جدتها وعمتها من الصحف في محطة فيكتوريا في لندن. قد تكون الصدمة التي خلفها خبر وفاة جدتها وعمتها الكبرى فيها هي ما خفف من وقع الخبر السيئ الذي ينتظرها في أكسفورد؛ لقد رسبت في اختبارات المجموعة الأولى، وهي مضطرة إلى الخضوع لها من جديد في مارس.<sup>52</sup>

شعرت إنديرا بالإحباط عقب الرسوب في هذه الاختبارات؛ فتقريبًا اجتاز الجميع عداها الاختبارات من أول محاولة. وبهذا أدركت أنها ستضطر فعلاً إلى ألا تألو أي جهد في الاستذكار. فقللت من أنشطتها الاجتماعية والسياسية، وعكفت على الاستذكار في غرفتها مساءً، وكما هو متوقع هبطت معنوياتها. تقول إنديرا في خطابها لأبيها المرسل في أواخر يناير: «لقد بدأ الفصل الدراسي الجديد، ويا له من فصل! لكم سيكون شاقاً ... أخشى أنني قد فقدت حماسي للجامعة، ولم تعد الحياة في أكسفورد — كما هي في حقيقتها — تستهويني».<sup>53</sup> أخذت تعاستها تتزايد، وفقدت الكثير من الوزن، وظهرت هالات داكنة تحت عينيها. وشيئاً فشيئاً بدأت تعتاد ارتداء الملابس الهندية بدلاً من الغربية. كانت وحيدة رغم صداقتها لماري دمشقكي وكاي ديفيس. تذكر جينيفر واين التي لم تكن على علاقة وثيقة بإنديرا كيف أن الطالبات كن يشرن إلى إنديرا قائلات: «ها هي ابنة نهرو» عندما يلمحنها تسير بخفة في فناء الجامعة حاملة دفاترها ... «نحيلة كالعصا، تظهر كطيف بعيد وهي مرتدية الساري الجميل ... غامضة ... لم تكن عدوانية وإنما ببساطة انعزالية».<sup>54</sup> إلى جانب اختبارات المجموعة الأولى كان القلق يساور إنديرا بشأن علاقتها بفيروز. فقد ظلت خطبتها لفيروز سرية لا يعلم عنها أحد سوى شانتا غاندي. لكنها بدأت تقلق بشأن رد الفعل في الهند، وخصوصاً رد فعل عائلتها إن ذاع السر. ومن المحتمل أن معرفتها بوجود صديقات لفيروز في لندن<sup>55</sup> كان بدوره أمراً مقلقاً.



في مارس عام ١٩٣٧ تقدمت إنديرا لاختبارات المجموعة الأولى من جديد، في نفس اليوم الذي غزا فيه هتلر النمسا. وكانت المفاجأة أن اجتازت امتحان اللغة الفرنسية والقانون الدستوري والتاريخ والاقتصاد السياسي، ولكنها لم تجتِز امتحان اللغة اللاتينية. وهو ليس بالأمر المستغرب. فطالبات جامعة أكسفورد درسن اللغة اللاتينية لسنوات في المدارس قبل الالتحاق بالجامعة، أما إنديرا فلم تتعدّ مدة دراستها للغة اللاتينية سوى سبعة شهور أخذت تحشو فيها رأسها بها بمدرسة بادمينتون. لو كانت حصلت على تعليم إنجليزي — وهو ما كان ممكناً لو أنها درست في المدارس التبشيرية الممتازة التي أدارها البريطانيون في الهند — لاجتازت هي أيضاً امتحان اللغة اللاتينية. ولكنها درست في جامعة شانتينيكيتان لغة ميتة أخرى هي السنسكريتية، التي سببت لها نفس القدر من المشكلات. استمر امتحان اللغة اللاتينية ثلاث ساعات، وكان مبنياً على نص لاتيني يعود إلى القرون الوسطى اجتهدت إنديرا في دراسته لفصلين دراسيين كاملين. وتضمن الامتحان أيضاً ترجمة فقرة من نص لم تَره إنديرا من قبل، وهي ما تسببت في رسوبها للمرة الثانية.<sup>56</sup> لكن كان عليها — إن رغبت في البقاء بكلية سومرفيل — أن تخضع للامتحان للمرة الثالثة في شهر يونيو، وتلك كانت فرصتها الأخيرة.

وفي هذه المدة كتب نهرو إلى إنديرا يخبرها بأنه يخطط لزيارة أوروبا في أوائل الصيف، الأمر الذي أثار في نفسها مشاعر مختلطة. ومع هذا شرعت هي وكريشنا مينون وأجاثا هاريسون على الفور في التخطيط لزيارته لإنجلترا. وقد انزعجت إنديرا عندما علمت أن والدها كان مدعواً لقضاء أسبوع بمنزل فيليب هنري كير، المركز الحادي عشر لمنطقة لوثيران والمعروف باسم اللورد لوثيران. كان اللورد لوثيران صحفياً وسياسياً محنكاً ووكيلاً لوزارة الخارجية الهندية في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين. وكان شديد الإعجاب بنهرو، ومع اختلافه معه حول قانون الحكومة الهندية لعام ١٩٣٥ اعتادا تبادل المراسلات الودية لعدة أعوام. وأسعده استعراض سيرة نهرو الذاتية، وعندما حضر إلى الهند عام ١٩٣٧ التقى بنهرو في اجتماع ودي بالله آباد. غير أن اللورد لوثيران كان عضواً في منظمة كليفيدين سيت التي أيدت سياسة التهدة لرئيس الوزراء البريطاني تشمبرلين. وفي الحقيقة كان اللورد لوثيران قد كتب إلى الأغا خان أنه على ألمانيا أن تتبع سياسة أكثر هدوءاً، وإلا فستتحالف مع إيطاليا واليابان ضد الإمبراطورية البريطانية، «وهو ما سيروق تماماً لجواهرلال نهرو».<sup>57</sup>

في أواخر أبريل كتبت إنديرا إلى نهرو بخصوص الرحلة التي يعتزم القيام بها إلى إنجلترا، تقول:

«الأمر الوحيد الذي يقلقني بشأن زيارتك لإنجلترا هو أنك تعتزم المكوث لدى لوثيان ... فلوثيان ليس مجرد عضو عادي بحزب المحافظين. إنه عضو بارز بمنظمة كليفيدين سيت؛ المنظمة عينها التي أجبرت إيدن على الاستقالة، ويُعرف أعضاؤها بأنهم أصدقاء هتلر في إنجلترا. إنه فاشي بكل ما في الكلمة من معنى، ولا يتحرج على الإطلاق من كونه كذلك. حتى إنه امتدح غزو هتلر للنمسا ... إن مكوثك لديه بمنزلة تمضية عطلة نهاية الأسبوع مع هتلر أو موسوليني. سيخلف هذا انطباعاً سيئاً في كل من يؤمن ولو قليلاً بقضايا اليساريين أو لديه ذرة من التعاطف مع الهند وحزب المؤتمر في هذا البلد ... هذا مع الأخذ في الاعتبار أن لوثيان يقف ضد كل ما تمثله وتؤمن به، وستجد كل من ستقابلهم في منزله على نفس الشاكلة، مجموعة من أعضاء حزب المحافظين والفاشيين المتعصبين. أخشى أنني متمسكة برأيي بخصوص هذه النقطة، وإن ذهبت، فسيكون على اللورد لوثيان أن يعذرني لعدم مصاحبتك لك ... أتمنى أن تعيد النظر في المسألة وأن تعدل عن رأيك.»<sup>58</sup>

كانت هذه أول واقعة مدونة تعارض فيها إنديرا أباهها معارضة صارخة، وتحاول أن تؤثر على قراره. ولكنه لم يتقبل الأمر بصدر رحب. رد قائلاً: «أعلم بشأن منظمة كليفيدين سيت، وأعلم بأنشطة لوثيان المناصرة للفاشية ولهتلر. وأعتقد أنها أنشطة خطيرة ... ولكن بعد إمعان التفكير قررت أن أقبل دعوته.» واستطرد نهرو مذكراً إنديرا بمكانتها قائلاً:

«أنا أكثر من مجرد قائد بارز لجماعة أو حزب. فأنا أحتل مكانة خاصة في الهند ومكانة دولية معينة ... وإنني أتقن عملي ولست حديث عهد بالقضايا الدولية. وخبرتي تقتضي أن أقرر بنفسني ما ينبغي لي فعله وما لا ينبغي ... وأنا واثق بقراري بقبول دعوة لوثيان، وليس لدي أي نوع من الغموض بهذا الشأن. وإذا كنت على درجة من ضعف الشخصية قد تدفعني للتأثر بآرائه، فأنا إذن غير أهل لما أنا عليه ... أشعر بضرورة قبول دعوته. ولقد قبلتها بالفعل. وسأكون أسفاً إن لم تتمكني من مصاحبتك.»<sup>59</sup>

صعق هذا الجواب إنديرا، ولكنها احتفظت برباطة جأشها:

«عزيزي، لم أفترض ولو للحظة في نفسي الحق لتوجيه أفعالك، ولم أرمِ حتى إلى أنك لا تتابع سياسات وممارسات لوثيان، فأنت بالطبع الوحيد القادر على البت فيما ينبغي فعله. إنما كنت أعبر عن رأيي الشخصي في المسألة. وأخشي أنني ما زلت على رأيي. يؤسفني أن أكون بعيدة عنك ولو حتى ليومين، ولكن لا أظن أنني سأحتمل المكوث مع لوثيان. ومن ناحية أخرى لا أريد أن أبدو فظة، لذا أرى أن أفضل ما يمكنني فعله ... هو أن أتدبر أمر دعوتي لدى بعض الأصدقاء في عطلة نهاية الأسبوع التي ستمكث فيها عند لوثيان.»<sup>60</sup>

وكان هذا ما قامت به بالفعل، فكتبت رسالة قصيرة إلى اللورد لوثيان تعتذر فيها بأدب عن قبول دعوته. وما لبثت أن بعثت رسالتها حتى تسلمت رسالة حارة منه يطلب فيها منها أن تؤجل ما ارتبطت به من مواعيد سابقة، وأن تتفضل بالقدوم مع أبيها إلى عزبته الإليزابيثية الطابع؛ بليكينج هول في نورفولك.

كان من المقرر أن تؤدي إنديرا اختبارات المجموعة الأولى من جديد في ٢١ من يناير. والرسوب هذه المرة يعني أنها لن تتمكن من دراسة التاريخ وستضطر لترك الدراسة في أكسفورد. كانت صديقتها ماري دمشقي — التي تتلقى معها دروس اللغة اللاتينية مع نفس المدرس المسن الأصم — قد مرت بهذا الموقف بالفعل؛ إذ رسبت في امتحان يونيو وعليه فصلت من الجامعة. ولكن إنديرا قررت في النهاية ألا تخضع للامتحان. ذلك لأنها لم تكن على استعداد لتحمل عواقب الرسوب للمرة الثالثة، التي من شأنها أن تفضي بمستقبلها الجامعي إلى نهاية مخزية ومفاجئة. وكانت هذه النهاية المخزية ستتزامن مع زيارة نهرو لإنجلترا. لم تشاور إنديرا أباهما بشأن عدم أدائها للامتحان، بل كان كل ما فعلته هو أن كتبت له تقول: «الحياة هنا في الشوط الأخير من الفصل الدراسي مليئة بالضغوط ومنهكة. ثم إن مشكلتي مع اللغة اللاتينية لا تزال قائمة. أشعر وسط كل هذا برغبة شديدة في النوم لأسابيع ... سوف أذهب إلى لندن صباح الثلاثاء ٢١ من هذا الشهر (يوم اختبارات المجموعة الأولى) وأمضي اليوم كله في أوتر فراش لدى أجاثا (هاريسون) لأستعيد ... حيويتي استعدادًا لاستقبالك.»<sup>61</sup>

كانت بحاجة إلى الراحة. تشعر بالتوعك منذ عودتها من ألمانيا في يناير. فقد لاحظ أصدقائها أنها صارت أنحف وأن الهالات تحت عينيها صارت داكنة أكثر وأن بشرتها صارت تبدو شاحبة وهو دليل على ضعف صحتها، وتعاني سعالاً مستمراً. لم تشتك يوماً من شعورها بأنها على غير ما يرام. لكنها صارت بحلول أواخر ربيع عام ١٩٣٨

غاية في الإرهاق الجسدي والنفسي، وقررت في اللحظة الأخيرة أن تتغيب عن امتحان اللغة اللاتينية في اختبارات المجموعة الأولى.<sup>62</sup>

في ١٤ يونيو وصل نهرو إلى جنوة حيث استقبله كريشنا مينون. وفي اليوم التالي سافر الاثنان إلى برشلونة في الوقت الذي كانت فيه الحرب الأهلية الإسبانية مستعرة، ونزلا ضيفين على الحكومة الجمهورية. وبعدها بأسبوع استقلا الطائرة إلى لندن، حيث اجتمع شمل نهرو وإنديرا في منزل أجاثا هاريسون. ثم انتقلا للإقامة في شقة بالإيجار في شارع سانت جيمز الذي وصفه نهرو لأخته نان بانديت بأنه «جيد، ولكن الإقامة فيه مكلفة». ويشرح ذلك فيقول: «فنحن ندفع تسعة جنيهات أسبوعياً مقابل الإقامة في شقة مكونة من غرفتي نوم وغرفة معيشة».<sup>63</sup>

كان كريشنا مينون قد وضع جدولاً حافلاً بالأنشطة التي سيقوم بها نهرو في لندن، يبدأ باجتماع عام للترحيب بجواهرلال نهرو في قاعة كينجزواي، حيث سيلقي كلٌّ من بالم دات وهارولد لاسكي وإيلين ويلكينسون كلمته على المنصة، وسيقدم المطرب والمغني الأمريكي ذو الأصول الأفريقية بول روبسون حفلاً موسيقياً للترحيب بنهرو. ألقى نهرو خطاباً في لجنة المساعدات الإسبانية بقاعة رويال ألبرت وميدان ترافلجار، وشارك في سلسلة من لقاءات الرابطة الهندية، وحضر أحد اجتماعات نادي الكتاب اليساري، وتناول الغداء مع رئيس تحرير مجلة «نيوستاتسمان» بمجلس العموم البريطاني، وعقد نقاشات مع أعضاء الحزب الشيوعي وقادة حزب العمال، وفيهم كليمنت أتلي. وخطب نهرو في معهد «تشاثام هاوس» الذي وصفه بأنه «مركز بارز ومشهور متمسك بمبادئه»، حيث قام «بأدب وهدوء بامتداح كبار الهنود البريطانيين وغيرهم على نحو مغالٍ فيه حتى احمرت وجوه الحاضرين وصاروا في شدة الانزعاج».<sup>64</sup>

وفي أول عطلة نهاية أسبوع يقضيها في لندن قام نهرو وإنديرا بما سمّاه نهرو «رحلة حج»، شملت تناول الشاي مع السيدتين البالغتين ثمانين عاماً؛ سيدني وبياتريس ويب. أخبر نهرو أخته أن كلتا السيدتين كانتا «في أقصى درجات النشاط الذهني». كانت سيدني ويب تعاني «صعوبة في الكلام، أما بياتريس»، فكانت «حاضرة الذهن على نحو مذهل»، وعندما اصطحبت نهرو وإنديرا للمشي «كانت تسير بسرعة وعلى نحو جيد». أعجب نهرو بجمال مضيافته بياتريس ويب، فعنها يقول لأخته: «كانت جميلة في شبابها، ولا تزال كذلك».<sup>65</sup> وكتبت بياتريس ويب عن نهرو وإنديرا في مذكراتها: «أمضى نهرو رئيس حزب المؤتمر الهندي وابنته الجميلة بضع ساعات هنا يوم السبت ... إنه أعظم

مثال للأرستقراطي المهذب والمثقف؛ فهو يكرس نفسه لنجدة ضحايا الاضطهاد، سواء العرقي أو الطبقي.» ولكن بياتريس شككت في قدرته على أن يكون قائداً ثورياً.<sup>66</sup>

وفي أواخر يونيو أمضى نهرو وإنديرا عدة أيام مع «ستافورد كريس» عضو البرلمان البريطاني من حزب العمال في ضيعته الريفية؛ جودفيلوز بمنطقة جلوسيسترشاير.<sup>67</sup>

التي سيتضح فيما بعد أنها كانت تجربة أمتع بكثير من حضور الحفل المنزلي الذي كان اللورد لوثيان سيقمه في عطلة نهاية الأسبوع يومي التاسع والعاشر من يوليو. ومع أن إنديرا بثت حيرتها لصديقتها كاي دافيس من كلية سومرفيل في أمر دعوة اللورد لوثيان فإنها وافقت في النهاية على مضض على مصاحبة أبيها إلى عزبة اللورد لوثيان.<sup>68</sup> كان لوثيان قد دعا مجموعة من صفوة القوم للقاء نهرو وإنديرا، وفي ذلك عضو البرلمان المحافظة نانسي أستور (أول امرأة تُنتخب عضواً بمجلس العموم البريطاني) والجنرال ويليام، والليدي إيرونسايد، والسير آرثر سالتير عضو البرلمان من أكسفورد، وتوماس جونز المستشار الرئيسي لرئيس الوزراء وستانلي بالدوين. وافق الحفل أسوأ توقعات إنديرا. فعنه قالت: «أكرم اللورد لوثيان ضيافة المدعوين، لكن الحادثات التي دارت في الحفل كانت مثيرة للاستفزاز إلى حد يفوق الوصف، سواء لاستهانتها بالفظائع التي تُرتكب في حق اليهود ... أو لتناولها لنضالنا من أجل الحرية باحتقار شديد.» وعلى مائدة العشاء جلست إنديرا إلى جانب ليدي أستور التي انهالت على الاشتراكية بسيل مطول من التقرير، ثم التفتت إلى إنديرا وقالت: «ليتك تتزوجين من مهراجا، عندها ستحل مشكلة الهند.»<sup>69</sup>

وفي الليلة السابقة لبدء إنديرا ونهرو جولتهما في أوروبا أسدى هارولد لاسكي — الذي حضرت إنديرا محاضراته أحياناً مع فيروز في كلية لندن للاقتصاد — نصيحته الشهيرة إلى إنديرا بعدم مصاحبة والدها في جولته. كان لاسكي وقتها واحداً من القلائد الذين فطنوا إلى أن مكانة نهرو وعبقريته وحضوره القوي كانت عوامل تهدد بحجب الضوء عن إنديرا. لذا قال لها: «أصغي إليّ، إن شخصيتك ما زالت في طور التكوين، وإذا لازمت أبائك فلن تكوني أكثر من تابع. لذا يحسن ألا تصاحبيه. عليك أن تشقي طريقك بنفسك.» كانت هذه النصيحة تنم عن بصيرة نافذة وتحمل في طياتها تحذيراً مستقبلياً، لكن إنديرا لم تكن في مزاج يسمح بتلقي الأوامر. وأرادت أن تكون مع والدها طوال مدة وجوده في أوروبا وفي أغلب سفرياته. فانزعج لاسكي من تجاهلها لنصيحته، وحول هذا الأمر تقول إنديرا إنه انتقد فيها ما سماه رغبتها الوجلة في الذوبان في شخصية أبيها. وقال إنه أهدر عليها الكثير من وقته، وكانت النتيجة أنها أدارت ظهرها لنصيحته. وافترق هو وإنديرا وهما متخاصمان.<sup>70</sup>

لقد خيبت إنديرا أمل آخرين غير هارولد لاسكي. فقد اعتبرتھا السيدة لاسكي «فتاة صغيرة ضعيفة الشخصية وخجولة، لا يبدو عليها أنها تحمل أي آراء سياسية»، بينما يصفھا ريجينالد سورينسون عضو البرلمان من حزب العمال بأنها «صورة طبق الأصل من أبيھا ... فهي بالفعل ابنة أبيھا».<sup>71</sup> أما كريستين تولر — زوجة الشاعر اليهودي إرنست تولر — فقد كانت من القلائل آنذاك الذين رأوا في إنديرا ما يميزھا. فبعد أن زارت إنديرا ونهرو على الغداء كتبت كريستين إلى نهرو تقول عن إنديرا: «أريد أن ... أخبرك بمدى سعادتي بلقائھا. فهي ليست جميلة فحسب، ولكنها أيضًا في غاية البراءة ... تبدو لي كزهرة صغيرة قد تعصف بها الرياح بسهولة، ولكنني لا أظنھا تخشى الرياح».<sup>72</sup>

وفي منتصف يوليو عبر نهرو وإنديرا القنال الإنجليزي الذي يربط إنجلترا ببقية أوروبا، القارة التي قال عنها نهرو في خطابه إلى بادماجا نايدو إنها: «تهرع بأقصى سرعة إلى طرق الشيطان».<sup>73</sup> فزارا فرنسا وميونخ (حيث رفض نهرو لقاء الضباط النازيين) وتشيكوسلوفاكيا والمجر. وفي باريس حضرا مؤتمر السلام العالمي الذي شهد مظاهرات احتجاجًا على قذف المدنيين الإسبان بالقنابل. كان منظمو المؤتمر قد منعوا «لا باسيوناريا» البطلة الإسبانية العظيمة دولوريس إباروري — قائدة الحزب الشيوعي بإسبانيا — من إلقاء كلمة في المؤتمر، لذا عندما رآھا الحاضرون تأثروا جميعًا وانهالت دموعهم، واستقبلوها باللهفة والتهاف. كانت تشيكوسلوفاكيا تعيش أزمة حقيقية؛ إذ كانت تتوقع بين لحظة وأخرى أن يهاجم النازيون منطقة السودان الغربية. وفي براغ نزل نهرو وإنديرا في الفندق نفسه الذي نزل فيه وفد رونسيما الذي أرسله رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشمبرلين. آنذاك بدا على وجوه أبناء تشيكوسلوفاكيا — على حد قول إنديرا — «أنهم يشعرون بالحصار. الكآبة الشديدة تحاصرهم من كل جانب ... لقد ساد شعور حاد بالأسى تقشعر منه الأبدان». كانت إنديرا تشعر حينھا بالإرهاق التام؛ فتقول: «أخبرني الجميع أنني أبدو بحال سيئة، وكنت وقتھا في غاية النحول، ولكن لأن برنامجنا كان مزدحمًا جدًّا شعرت بأن عليَّ أن أصمد».<sup>74</sup>

لكن إنديرا انهارت تمامًا عند وصولها هي ونهرو إلى بودابست، وأودعت المستشفى لمدة أسبوعين للإصابة بحالة حادة من مرض ذات الجنب، المرض الرئوي نفسه الذي كان بداية نهاية كامالا نهرو في بهوالي عام ١٩٣٤. وفي هذا الوقت العصيب حضرت نان بانديت (التي لم تتفق قط مع إنديرا) إلى بودابست على متن أول رحلة إلى أوروبا. وفي بداية سبتمبر سافر نهرو وإنديرا وبانديت جوفًا إلى لندن. أودعت إنديرا مستشفى

برينتفورد في مقاطعة ميدلسكس في اليوم نفسه — ١٥ سبتمبر — الذي سافر فيه نيفيل تشمبرلين إلى بيرختيسجاردن لدعوة هتلر إلى عقد تسوية سلمية. كان التعب قد أعيا إنديرا، وانخفض وزنها إلى خمسة وثمانين رطلاً، ولكن هذا لم يمنعها من القلق بشأن مساعي تشمبرلين، فتقول: «لا أنفك أشعر بأنه لا يعتزم خيراً وبأنه سيخلف فوضى ... فيما يخص تشيكوسلوفاكيا.» وبعدها بستة أيام أرسلت خطاباً آخر إلى نهرو في فندقه بلندن تقول فيه: «ألا يصيبك الوضع في أوروبا بالاشمئزاز؟ ... كنت متأكدة أن تشمبرلين لا ينوي خيراً عندما سافر إلى ألمانيا، ولا أستبعد أن تكون صاحبتنا نانسي (أستور) هي صاحبة هذه الفكرة النيرة.»<sup>75</sup>

وقد أثبتت الأيام صحة توقعات إنديرا. انتهت أزمة تشيكوسلوفاكيا باستيلاء هتلر على منطقة السوديت بموجب مؤتمر واتفاقية ميونيخ. قال نهرو عنها إنها كانت «آخر وأبغض ما قام به تشمبرلين في إطار سياسة التهدئة»؛ وفيما بعد وصف نهرو الاتفاقية بأنها «اغتيال لتشيكوسلوفاكيا قامت به ألمانيا بمؤازرة إنجلترا وفرنسا».<sup>76</sup>

ومع بداية أكتوبر بدأ الفصل الدراسي بكلية سومرفيل، لكن مرض إنديرا الشديد منعها من الذهاب إلى أكسفورد، حتى لو كانت مشكلتها مع امتحان اللغة اللاتينية في اختبارات المجموعة الأولى قد حُلّت، وهو ما لم يحدث. كان الأطباء بمستشفى برينتفورد قد نصحوها بالاستراحة لفصل دراسي واحد على الأقل لتتعافى في مناخ صحي. وهو ما يعني الابتعاد عن لندن وأكسفورد، وألح نهرو عليها للعودة معه إلى الهند لتتعافى في أحد المنتجعات الصحية على التلال. كانت وقتها مترددة جداً حيال الانفصال عن فيروز، لكنها كانت أيضاً متخوفة من أن يكون لها نفس مصير أمها. أرعبتها نوبات المرض التي أصابتها، وكانت لا تزال صغيرة تعيش قصة حب وتأمل أن تطول أمامها الحياة. لذا أبحرت إنديرا مع والدها من مرسيليا إلى الهند في بداية شهر نوفمبر، وقد توقفا أثناء رحلتهما في القاهرة لزيارة الأهرامات على الأقل، وفي ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٨ وصلت إنديرا ونهرو إلى بومباي، قبل عيد ميلادها الحادي والعشرين بيومين.

وأعقبت هذه المدة خمسة شهور — بدت أحياناً لإنديرا كخمسة أيام — وفي أحيان أخرى كخمسة أعوام؛ فتشابه الأيام كان يسرع من الوقت تارة، ويثقله تارة. وغالباً ما كانت إنديرا تمضي وقتها بين الجبال، لكن قبل كل شيء توجهت إنديرا إلى الله أبداً. حيث سجلت اسمها — عندما بلغت سن الرشد في عيد ميلادها؛ يوم ١٩ نوفمبر — لعضوية حزب المؤتمر بمقره في سواراج بهافان.

وبعدها بأسبوعين قصدت مدينة ألمورا في أقصى شمال المقاطعات الاتحادية مع عمتها كريشنا هوثيسينج وابنيها الصغيرين هارشا وأجيت. لم تكن ألمورا بعيدة عن بهوالي حيث المصححة التي أخذت صحة كامالا في التدهور فيها قبل أن تذهب إلى أوروبا قبل أربع سنوات. وكانت ألمورا أيضًا هي مقر سجن نهرو خلال الشهور الأخيرة التي قضتها كامالا في الهند. والمدينة قائمة على سلسلة من الجبال وتطل على الجانب الداخلي لسلسلة جبال الهيمالايا، شوارعها مرصوفة بالحصى وبيوتها الخشبية المنحوتة بدقة مزدانة بلوحات جدارية من التراث الهندي. ومع انتصاف الشتاء كان الثلج يعزل المدينة عن العالم الخارجي ليتركها نظيفة وهادئة.

هناك مكثت إنديرا في كوخ مؤجر يدعى «سنو فيو» حيث شعرت بأنها علققت في المكان والزمان. أزعتها عمتها وابناها باستمرار، فمن ناحية كانت عمتها تثرثر طوال الوقت، ومن ناحية أخرى لم يكف ابنا عمتها عن إحداث ضجيج والإلحاح للعودة إلى بومباي. أصيبت إنديرا بسعال شديد وارتفعت حرارتها. فعزت ذلك إلى عدم كفاية قطع خشب المدفأة في الكوخ الذي كان أكثر برودة من غرفتها بكلية سومرفيل. ومع أن إنديرا كانت تقيم في مناخ صحي ومع أنها اتبعت لائحة التعليمات التي أرسلها إليها نهرو (عن طول خبرة بأنظمة المصحات) لم تتحسن صحتها، في هذه اللائحة الأخيرة وجه نهرو إلى إنديرا النصائح الآتية:

- (١) أن تقيس حرارتها ليلاً ونهاراً.
- (٢) أن تستريح لثلاث ساعات بعد الظهر، وقبل وبعد الوجبات.
- (٣) أن تحصل على مزيد من الراحة إذا شعرت بالتعب. وأيضاً أن تحصل على الراحة إذا ارتفعت حرارتها.<sup>77</sup>

وزاد بُعد إنديرا عن فيروز من معاناتها. كان نظام البريد يتسم بالبطء الشديد ولا يمكن الاعتماد عليه. فكان على رسائل فيروز أن تعبر المحيط العريض، وبعدها تستغرق أسابيع عدة، أو حتى شهوياً لتجد طريقها إلى أعلى جبال ألمورا المغطاة بالثلج. وحينما تصل في النهاية تضطر إنديرا إلى قراءتها خلسة، بعيداً عن عمتها الفضولية. وقتها ساور إنديرا شعور بالندم المرير لعودتها إلى الهند.

إحدى الرسائل التي وصلت إنديرا في أواخر ديسمبر كانت من أسفل جبال ألمورا، أرسلها نهرو الذي كان آنذاك يتبع جدولاً سياسياً منهكاً. كانت هذه الرسالة على النقيض تماماً من تلك التي بعثها إليها أيام دراستها في بادمينتون يحدثها فيها عن ميراثها من



المشكلات والمصاعب. فبعد أن أعيا نهره التعب وأفاق من حلمه كتب إلى إنديرا وهو على متن قطار مسرع من بومباي إلى الله آباد:

«كنت أتمنى أن تضطلعي عندما تكبرين ... بدور جريء فيما يدعى بالحياة العامة بالهند، وأن تحملي هذا العبء الثقيل عن كاهلي، وأن تسهمي في بناء الهند التي لطالما حلمنا بها. أردتك أن تهيتي نفسك ذهنياً وبدنياً لهذه المهمة الشاغلة. ولكنني لم أعد متأكداً من رغبتني في ذلك الآن، فلا أريدك أن تختبري آلام هذه التجربة وإحباطاتها ... بالنسبة لي لم يعد هناك مهرب ولا ملجأ ... فلماذا أشجع من أعتز بهم على الدخول في هذه التجربة الصعبة.»<sup>78</sup>

لم تجب إنديرا على الرسالة لأنها كانت تتوقع زيارة من والدها في أواخر يناير. وما كاد يصل حتى أخبرته أنها تشعر بتحسن، وأنها مصممة على العودة إلى إنجلترا بأسرع ما يمكن. كانت مصرة على العودة مع نهره إلى الله آباد بنهاية الشهر، وحجتها التي لا تتغير هي ضرورة عودتها إلى أكسفورد قبل بداية الفصل الدراسي الصيفي. كان الدافع الحقيقي وراء إلحاحها بالطبع هو رغبتها في أن تكون مع فيروز. تحدث نهره مع مادان أتا ابن عم كامالا وطبيبها وصارحه بأنه لا يشعر بأن صحة إنديرا قد تحسنت أو أنها قد أصبحت قوية بالقدر الكافي الذي يسمح بالعودة إلى إنجلترا، بالإضافة إلى أنه يرفض بشدة فكرة عودتها إلى أوروبا التي كانت — على حد قوله — «على شفا هاوية». فقد بات اندلاع الحرب أمراً حتمياً. لكن إنديرا ظلت على عنادها بشأن العودة إلى إنجلترا، وهذه المرة تحدث نهره حتى حصلت على مبتهاها. وفي أبريل عام ١٩٣٩ ذهبت إلى مومباي ثم أبحرت إلى أوروبا على متن السفينة إس إس ستراثيرد.

وبعد أن رست سفينتها في مرسيليا توجهت إنديرا إلى باريس، وهناك كانت الإضاءة كثيراً ما تنقطع ليلاً أثناء الغارات الجوية، و«عواء صفارات الإنذار ... يُسمع من بعيد». وعندما وصلت إنديرا إلى لندن بدت لها بدورها في حالة من التأهب للحرب، ووجدتها قد اكتسبت شكلاً «في غاية القبح». فعلى عمود نيلسون وخارج دور السينما وعلى نوافذ المتاجر «منشورات مرعبة» تحمل مثل هذه العبارات: «علينا أن نكون مستعدين» و«الخدمة العسكرية — سجل اسمك الآن» و«هل أديت واجبك نحو وطنك؟» و«كيف تخدم وطنك؟» كما كانت لافتات إجراءات الوقاية من الغارات الجوية معلقة في جميع الأماكن العامة.<sup>79</sup>

مكثت إنديرا في غرفة لدى جمعية الشابات المسيحيات في بلومزبري لتكون على مقربة من فيروز الذي كانت تلقاه بصفة تكاد تكون يومية. كان فيروز وقتها قد ترك الدراسة في كلية لندن للاقتصاد، وعمل لدى مجلس مقاطعة لندن، والمعهد الملكي للشئون الدولية. لكنه كرس الجانب الأكبر من وقته لأنشطة الرابطة الهندية بقيادة كريشنا مينون؛ أكثر المنظمات تطرفاً بين المنظمات في بريطانيا التي تنادي باستقلال الهند. واضطلع بأنشطة أخرى، منها أنه أصدر بمفرده مجلة الرابطة الهندية الأسبوعية. ثم بدأت إنديرا نفسها تخصص جزءاً من وقتها لمكتب الرابطة الصغير في شارع ستراند الذي لا يبعد كثيراً عن جمعية الشابات المسيحيات. وبصفتها ابنة نهرهو كان وجودها مهماً ومقدراً. ومع ذلك انتهى بها الحال إلى القيام بالأعمال المكتبية المملة، مثلها في ذلك مثل بقية المتطوعات من النساء.

وفي هذه المدة — في ربيع وأوائل صيف عام ١٩٣٩ — سنحت الفرصة لإنديرا لتتعرف جيداً على كريشنا مينون الذي سيصير شخصية مؤثرة في حياتها على مدى الخمسة والثلاثين عاماً المقبلة. ولد فينجاليل كريشنان كريشنا مينون في كيرالا عام ١٨٩٦، وكان الابن الأكبر لإحدى أسر نير العريقة التي تنتمي لطائفة الدرافيديين من طبقة السودرا. وكان ثيوصوفاً في شبابه مثل نهرهو، وأثناء دراسته في كلية بريزيدنسي بجامعة مدراس أصبح تحت رعاية الكاتبة البريطانية «آني بيسانت» التي تكفلت بنفقات سفره إلى إنجلترا للدراسة عام ١٩٢٤. كان مينون يعتزم قضاء ستة شهور فقط في إنجلترا، لكن انتهت به الحال إلى البقاء فيها ثمانية وعشرين عاماً. وفي لندن كان أحد ألمع الطلاب الذين درسوا على يد المفكر والسياسي الشهير هارولد لاسكي بكلية لندن للاقتصاد، حيث تخرج حاصلاً على أعلى تقدير. انضم مينون إلى حزب العمال عام ١٩٣٠، وعمل عضو مجلس بلدة سانت بانكراس في لندن لما يزيد عن عقد. ودرس القانون، وحصل على ترخيص العمل بمهنة المحاماة من هيئة ميدل تمبل عام ١٩٣٤، وهو العام نفسه الذي حصل فيه على درجة الماجستير من جامعة يونيفرسيتي كوليدج في لندن.

عام ١٩٣١ غيّر مينون اسم كومنولث الرابطة الهندية ليصبح الرابطة الهندية فحسب، وصارت هذه الرابطة إلى جانب السعي نحو استقلال الهند هما الدافعان المحركان لحياة مينون. ولكي يحصل على الأموال اللازمة لدعم الرابطة عمل مينون محرراً صحفياً في البداية لدى «دار نشر بودلي هيد» التي تولت نشر سيرة نهرهو، ثم عمل بعدها في دار بينجوين للنشر التي أسسها بالاشتراك مع ألين لين. وبذل راتبه كله للرابطة؛

فكان هو من استأجر غرفة مكتب الرابطة الضيق بشارع ستراند، واشترى جميع معدات وتجهيزات المكتب. في البداية كان ينام على منضدة في مكتب الرابطة حتى لا يضطر إلى الإنفاق على سكن. ويتجلى إخلاص مينون للقضية الهندية في عبارة قالها أثناء زيارته للصحفي روميش ثابار. فيومها فتح صهر ثابار — وهو «رجل شديد التهذيب والاحترام» — الباب لمينون، ودعاه للدخول ثم سأله عما يعمل له لكسب رزقه. فأجاب مينون بسرعة: «أنا لا أعمل لكسب رزقي. وإنما أعمل من أجل استقلال الهند».<sup>80</sup>

في لندن سرعان ما جذب مينون جماعة من الأتباع من شباب الهند الراديكالي مثل فيروز غاندي وبي إن هاكسار الذي درس الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكلية لندن للاقتصاد على يد مالفينوفيسكي وكان وقتها يدرس القانون بهيئة لينكولن القانونية، والصحفي نيكيل شاكرافارتي الذي كان قد جاء لتوه من أكسفورد، وموهان كامارامانجلال خريج جامعة كامبريدج، الذي سيقدر له فيما بعد أن يكون واحدًا من أعضاء مجلس الوزراء الذي سترأسه إنديرا، وملك راج أناند الذي كان يكبرهم قليلًا، والذي نُشرَ له روايتان في غاية الروعة عن الطبقات الدنيا في المجتمع الهندي هما «المنبوذون»، و«كولي». كان مينون معلمًا لافتًا للانتباه بقامته الطويلة وجسده الهزيل وشعره الأشعث وعينيه الشبيهتين بعيني الصقر. وقد وصفته ماري سيتون — وهي سيدة إنجليزية كانت تعمل لدى الحزب — بأنه رجل «وسيم جدًا كأنه تمثال نُحت على عجالة ... لكن النظر إليه مخيف. لو اصطبغ شعره باللون الأحمر بدلًا من لونه الأسود لبدأ كأن النار تشتعل فيه».<sup>81</sup>

كان مينون رجلًا حاد الذكاء متقد العاطفة، لكنه يفتقر إلى المهارات الاجتماعية. في عام ١٩٣٥ أصابه انهيار عصبي إثر فشل علاقته بامرأة إنجليزية تدعى باربارا ماكناميرا. حدث ذلك بالضبط قبل زيارة نهرو وإنديرا للندن في نوفمبر عام ١٩٣٥. وفي الحقيقة غادر مينون فراشه بمستشفى سانت بانكراس خلafًا لنصيحة الأطباء ليلقى نهرو وإنديرا بمحطة فيكتوريا. صحيح أن مينون قد تعافى من الانهيار العصبي، إلا أنه أصبح رجلًا ساخرًا، فاقد الثقة في كل شيء، يعتمد على المنشطات والمهدئات إلى حد بعيد ليواصل حياته.

بعد الانهيار العصبي الذي أصيب به اتسمت حياته بالتنقل بين سلسلة من الفنادق الرخيصة بمدينة كامدن. وتحول إلى عدو للمرأة وأقسم ألا يتزوج أبدًا، مع أن كثيرًا من النساء اللاتي عملن في الرابطة الهندية — مثل ماري سيتون وأليس ثورنر — وجدنه رجلًا شديد الجاذبية. غير أنه كان منعزلًا لا يظهر مشاعره، فيبدو بالفعل كما لو أنه يفتقر إلى الحياة الشخصية أو الاجتماعية. صار يعيش بصورة أساسية على شرب الشاي

الثقيل ويتبعه مباشرة بشرب اللبن الدافئ، ويتناولهما أحياناً مع الكعك أو البسكويت. فلم يكن مستغرباً أن يصاب — إلى جانب مرض سل الكلى والسعال الدائم — بعسر الهضم المزمن. ووصل دأبه على العمل إلى حد الهوس، فلم يعد يحتاج إلا إلى القليل من النوم. لكنه كان كثير الإصابة بنوبات الإغماء، وأحياناً يتمدد في الفراش لأيام بسبب معاناته من نوبات الصداع النصفي.<sup>82</sup>

وقد تفاوتت آراء الناس في مينون طوال حياته. فمنهم من كان يعشقه ومنهم من كان يبغضه. أما نهرو فكان يثق به تماماً، وهو ما حير الكثيرين وجعله هو شخصياً يأسف فيما بعد، فقد كان يعتمد عليه ويأتمنه على أسراره أكثر من أي شخص آخر، بل حتى أكثر من إنديرا وبادماجا نايدو.<sup>83</sup> أما إنديرا فكانت مشاعرها تجاهه مختلطة. فعلى عكس فيروز وغيره من أتباع وأعوان مينون لم تتأثر بهيبته، وكانت تستاء من أسلوبه الفظ المتسلط. ولم تنس له قط أنه كان السبب في إحراجها في أول خطبة سياسية لها يوم أن أصدرت أصواتاً تشبه الصرير. هذا إلى جانب أنها انتبهت لطبيعة نوازعه الشيطانية المضطربة. ولكنها من جانب آخر كانت معجبة بإخلاصه التام لقضية استقلال الهند، وبالطريقة التي أدار بها شئون نهرو في إنجلترا، وفي ذلك الترتيبات المالية التي قام بها لتوفير نفقات إعالتها، التي اعتمدت في أغلبها على عائدات مبيعات كتب نهرو.

لعب مينون دوراً أيضاً في علاج إنديرا في ربيع عام ١٩٣٩. طلب من الطبيب بي سي بهانداري — وهو صديق مقرب لنهرو — أن يدبر لإنديرا موعد استشارة مع اختصاصي الأمراض التنفسية الشهير الطبيب هيربرت بشارع هارلي. أجرى الدكتور هيربرت كشفاً وفحصاً بالأشعة السينية لإنديرا، ثم أخبرها بظهور ظل على رئتها اليسرى في صورة الأشعة السينية، وأعلمها بضرورة أن «تتنبه جيداً لنفسها»، وطلب منها أن تجري فحصاً بالأشعة السينية كل ستة شهور. لم يأت أحد على ذكر الإصابة بالسل، ولكن من الواضح أنه كان يمثل تهديداً محتملاً على صحة إنديرا.

وفي هذه الأثناء عندما علمت هيلين داربيشاير بعودة إنديرا إلى إنجلترا أرسلت إليها من لندن تعرب عن أملها هي ولوسي ساذرلاند (معلمة التاريخ الخاصة بإنديرا) في أن تعود إنديرا إلى كلية سومرفيل لقضاء ما تبقى من الفصل الدراسي الحالي. هاتفت إنديرا طبيبها الدكتور بهانداري لتستشيره في إمكانية تلبية رغبة دارب (هيلين داربيشاير). فكان جوابه هو أن غمغم: «مستحيل». على كل حال ذهبت إنديرا فعلاً إلى كلية سومرفيل في زيارة لليلة واحدة. وتصف إنديرا استقبال دارب لها فتقول: «كانت لطيفة جداً، إذ قبلتني على كلا وجنتي، وطلبت إليّ اختيار الغرفة التي أود أن أمكث فيها في شهر أكتوبر.»

وبعد أن استقبلت هيلين داربيشاير إنديرا أخبرتها بأنها هي ولوسي ساذرلاند تعتقدان أن عليها — بدلاً من استكمال الدراسة لنيل درجة شرفية في التاريخ — أن تدرس لنيل شهادة في الإدارة الاجتماعية والإدارة العامة، والتي من شأنها أن تؤهلها لشغل منصب إداري في الحكومة أو في أي منظمة دولية. والأهم من ذلك هو أن هذه الشهادة لم تتطلب درجة علمية معينة ولا الإلمام باللغة اللاتينية.<sup>84</sup> كان هذا هو الحل الذي توصلت إليه هيلين داربيشاير لمشكلة إنديرا العويصة بعد رسوبها مرتين في امتحان اللغة اللاتينية ضمن اختبارات المجموعة الأولى. كان واضحاً أن القائمين على كلية سومرفيل مترددون بقدر إنديرا نهرو بشأن تحمل مخاطرة جلوسها للاختبار وفشلها فيه للمرة الثالثة والأخيرة.

حث الطبيب هيربرت من شارع هارلي والطبيب بهانداري إنديرا على قضاء عطلة صيفية مريحة في سويسرا قبل العودة إلى كلية سومرفيل في أكتوبر، وقد أسعدت هذه الوصفة الطبية إنديرا وفيروز. فغادرت إنديرا لندن في ٢٤ من مايو إلى منتجع ستانشتاد الصحي الواقع على بحيرة لوسيرن الذي أوصى به الطبيب بهانداري. وبعدها بشهر قصدت منتجع بيرجينستوك القريب من منتجع ستانشتاد (الذي زكاه أيضاً الطبيب بهانداري)، وهناك أتى فيروز ومكث معها في فندق بارك. وفي بيرجنستوك كتبت إنديرا إلى نهرو خطاباً تخبره فيه بمدى شعورها «بالوحدة القاتلة»، وكيف أنها أحست بمقدار اعتمادها عليه، لكنها ألحقت بالخطاب مجموعة من الصور التي التقطتها فيروز بكاميراه من طراز لايكا التي أظهرت بوضوح أنها لم تكن وحيدة. ووصفت لنهرو كيف أنها تسلمت هي وفيروز جبل يوخ إلى ارتفاع ٧٣٠٣ أقدام فوق سطح البحر، وإلى قمة يوخستوكلي التي تزيد عن الارتفاع السابق بـ ١٣٠٣ أقدام.<sup>85</sup>

كانت هذه من المرات النادرة التي أتت فيها إنديرا على ذكر فيروز، فطوال الخمسة الأعوام ونصف العام التي أمضتها إنديرا في أوروبا كان فيروز إما معها أو على اتصال دائم بها، ومع هذا لم يرد ذكره في رسائلها إلى أبيها سوى مرتين أو ثلاث. والأعجب من ذلك أنها باحت لأبيها بأن فيروز كان معها في سويسرا؛ مع أنهما كانا بمفردهما. والأوصياء على إنديرا — سواء أجاثا هاريسون أو كريشنا مينون في لندن أو هيلين داربيشاير في أكسفورد — بمنأى عنهما. كاتب فيروز نفسه نهرو، وألحق بخطابه صوراً كثيرة على شرائح عرض ملونة، يشرح فيروز لنهرو في خطابه كيفية مشاهدة شرائح العرض المرسله. فيقول: «الصور بالألوان. لكي تتمكن من رؤيتها بوضوح ما عليك سوى وضعها أمام مصدر ضوء ... ويمكنك أيضاً عرضها على الشاشة.» صنف فيروز شرائح العرض بدقة، وكتب معلقاً على إحداها: «مدينة لوسيرن كما تبدو ليلاً من نافذة إندو في

بيرجنستوك». وأضاف ملاحظة تفيد أن مدة عرض الصور تبلغ خمس ساعات ونصف الساعة. من الواضح أن خطابي إنديرا وفيروز بالإضافة إلى الصور والشرائح المرفقة كانت تحمل رسالة خفية إلى نهرو، التي أقر نهرو بتسليمها عندما أجاب فيروز قائلاً: «إنها حقاً صور رائعة، وإذا صدق ظني وكنت أنت من التقطها، لكان لزاماً عليّ أن أهنتك».<sup>86</sup>

مكثت إنديرا وفيروز في بيرجنستوك قرابة شهر قبل العودة إلى إنجلترا في أغسطس. وقتها قررت إنديرا أن العودة إلى أكسفورد ستكون «بلا جدوى»، وأنها تريد المساهمة في بعض الأعمال التطوعية في الحرب. لذا قصدت مركزاً للتجنيد في لندن، وهناك نصحتها القائمون عليه باستكمال دراستها في كلية سومرفيل قبل المباشرة في أي أعمال، غير أنهم أخبروها بأنها إن كانت مصممة على الشروع فوراً في هذه الأعمال فبمقدورها المشاركة في التمريض أو الانضمام إلى «جيش الأرض النسائي» (الذي مارس الزراعة عوضاً عن الرجال المشاركين في الحرب) أو تأدية غير ذلك من الخدمات.<sup>87</sup> كانت إنديرا مصممة على الشروع فوراً في تلك الأعمال، لكن عندما أخضعها الطبيب هيربرت لفحص الأشعة السينية من جديد عارض بشدة قيامها بأعمال تطوعية، غير أنه أخبرها أن بإمكانها العودة إلى كلية سومرفيل إن ظلت حالتها الصحية مستقرة. فلاح أمامها من جديد شبح الذهاب إلى أكسفورد، والابتعاد عن فيروز.

قبل أن تتخذ إنديرا قراراً رتب كريشنا مينون وإلين ويلكينسون لها أن تمضي شهر سبتمبر مع عائلة أستاذ يدعى ماكميلان يعيش في قرية «بن» بمقاطعة باكينجهامشير. وفي أغسطس وقعت ألمانيا وروسيا معاهدة عدم اعتداء، في حين وقعت بريطانيا معاهدة مع بولندا. وفي أواخر صيف ١٩٣٩ بدت الحرب وشيكة أكثر من أي وقت مضى، وكان هذا أحد الأسباب التي دفعت مينون وأجاثا هاريسون وإلين ويلكينسون للإسراع بإخراج إنديرا من لندن. هذا بالإضافة إلى أن طبيب شارع هارلي — هيربرت — أوصى إنديرا بالذهاب إلى قرية بن، وكما قالت إنديرا لنهرو: «حيث الهواء ... أفضل قطعاً منه في لندن».<sup>88</sup> ولكن يحتمل أيضاً أن يكون أحد أسباب التعجيل بخروج إنديرا من لندن هو علاقتها بفيروز التي أصبحت وقتها — مع أنهما عملاً جاهدين على إخفائها — واضحة للعيان، خاصة لمينون الذي كان يعمل إلى جانب فيروز في الرابطة الهندية. وبهذا فإخراج إنديرا من لندن لم يكن ليبعدها عن موطن الخطر فحسب، بل كان سيبعدها عن فيروز أيضاً. وفي ٢ سبتمبر في اليوم التالي لغزو هتلر لبولندا واليوم السابق لإعلان إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا كتبت إنديرا إلى نهرو تخبره أن قرية بن بدأت بالفعل تكتظ بالأطفال

الذين هُجِّروا من لندن. وتحكي إنديرا لنهرو في خطابها كيف أنها خلال الثلاثة الأيام الماضية — وهي التي كرهت دوماً استخدام الإبرة والخيوط — ظلت تحيك الستائر الحاجبة للشمس والأغطية لهؤلاء الأطفال.<sup>89</sup> وتطوحت إنديرا للعمل في المخازن العسكرية. لكنها كانت تتطلع إلى الوظائف الشاقة الحافلة بالإثارة التي تستغرق كامل وقتها، لكن رغباتها هذه قوبلت كلها بالرفض من الطبيب هيربرت والطبيب بهانداري وأجاثا هاريسون. فوافقت على مضض على العودة إلى جامعة أكسفورد لتدرس لنيل شهادة في الإدارة الاجتماعية والإدارة العامة. وقد أرسلت إليها الكلية قائمة بالمتطلبات الضرورية التي يجب أن تحضرها مع بداية الفصل الدراسي في ١٦ أكتوبر، شملت هذه القائمة قناع غاز وكشافاً كهربائياً وأقمشة معتمة للنوافذ. ومع نهاية سبتمبر كانت الجامعة قد أصدرت بطاقة هوية وقسائم طعام لإنديرا.

وفي بداية أكتوبر قبل موعد عودتها إلى كلية سومرفيل بأسبوعين أصيبت إنديرا ببرد شديد سرعان ما تطور إلى نوبة حادة من مرض ذات الجنب. وارتفعت درجة حرارتها إلى ٣٩,٥ درجة مئوية، وانخفض وزنها من اثنين وتسعين رطلاً إلى سبعة وسبعين رطلاً. كانت تعاني ألماً حادة في صدرها الذي كان محتقناً بالسوائل. تدرت أجاثا هاريسون أمر نقل إنديرا في عربة إسعاف من قرية بن إلى مستشفى برينتفورد. وبناءً على ذلك ألغيت خطط عودة إنديرا إلى جامعة أكسفورد، ونصحها اختصاصي شارع هارلي الطبيب هارلي والطبيب بهانداري وجميع أطباء مستشفى برينتفورد بالذهاب إلى إحدى مصحات سويسرا حالما تتحسن حالتها بما يكفي لمغادرة المستشفى.

لم يأت أحد على ذكر مرض السل الرئوي، ولكن احتمال إصابتها بهذا المرض أقلق الجميع، وفي ذلك إنديرا نفسها. كانت أجاثا هاريسون تزور إنديرا يومياً في مستشفى برينتفورد، وفي مكاتب سرية بين أجاثا هاريسون ومعاون غاندي — سي إف أندروز — تقول أجاثا: «إنديرا لا تزال مريضة ... احتمال الإصابة (بالسل الرئوي) وارد ... ولكنني أعتقد أنها إن حصلت على الرعاية الجادة الآن فستستعيد صحتها وتعود إلى سابق عهدها.» ولكن ليتحقق هذا كان على إنديرا الذهاب إلى سويسرا، وفي ذلك تقول أجاثا هاريسون لنهرو إن الحصول على تأشيرة الذهاب إلى سويسرا وتأشيرة الخروج من إنجلترا لم يكن وقتها بالأمر اليسير. أمضى فيروز — الذي وصفته أجاثا بأنه «مساعد مخلص كالكلب الوفي» — أياماً كاملة بالمفوضية السويسرية، في حين حاولت أجاثا هاريسون ممارسة تأثيرها في مكاتب السفارة الهندية والحكومة البريطانية.<sup>90</sup>

تطلب كل هذا وقتاً طويلاً، فظلت إنديرا في مستشفى برينتفورد إلى يوم عيد ميلادها الثاني والعشرين؛ يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٣٩، ويومها سُمح لها بالنهوض والحصول على «أول حمام حقيقي» منتظم منذ مرضها منذ خمسة أسابيع. لم يُسمح لها بالبقاء طويلاً في الحمام، ولكن هذا الحمام ظل مع ذلك حدثاً جلياً،<sup>91</sup> إذ كان يحظر عليها مغادرة الفراش، حتى عندما تدوي صافرات إنذار الغارات الجوية.

وأخيراً في أوائل ديسمبر كان جواز سفر إنديرا وتأشيرة خروجها من بريطانيا وتأشيرة دخولها إلى سويسرا جاهزين. أراد نهرو من إنديرا أن تذهب إلى دافوس حيث تقع أحداث رواية «الجبل السحري» للكاتب الإنجليزي توماس مان عن إحدى مصحات مرض السل الرئوي. ولكن غاندي كتب إلى أجاثا هاريسون والطبيب بهانداري أنه من الأفضل لإنديرا أن تذهب إلى مصحة الطبيب أوجست روليه بقرية ليسين بين جبال الألب الفرنسية السويسرية. كان غاندي نفسه قد زار الطبيب روليه في قرية ليسين عام ١٩٣١، وقد أثار إعجابه استخدام نظام الاستشماس (المعالجة بأشعة الشمس) لعلاج السل الرئوي، ويستلزم هذا النظام التعرض لساعات طويلة لأشعة الشمس طوال السنة، حتى في منتصف الشتاء. كان غاندي قد حاول قبل ذلك — ولكن بلا جدوى — أن ينصح بتجربة العلاج بالحمامات الشمسية مع كامالا، والآن كان يكرر لنهرو وأجاثا هاريسون النصيحة نفسها من أجل إنديرا. ومن ثم استقر الرأي على اتباع نصيحة غاندي.

سافرت إنديرا وأجاثا جواً إلى باريس في صباح يوم ١٤ ديسمبر عام ١٩٣٩. استراحتا في أحد الفنادق ليوم كامل، وبعدها استقلتا القطار الليلي إلى جنيف. وفي وقت مبكر من يوم ١٥ ديسمبر سافرتا إلى ليسين، وهي قرية صغيرة في أعلى جبال الألب تشبه القرى المذكورة في قصص الأطفال. كانت آخر مرحلة في الرحلة استقلال قطار ذي عجلات مسننة لتسلق منحدرات جبال الألب مروراً بأحزمة الأشجار إلى قمتي جبلي دنت دو ميدي ومون بلون ذوي الحواف. ومع حلول الظلام وصلتا إلى عالم غارق في الثلج الأبيض والمرض والموت.





جواهرلال نہرو وکامالا نہرو یوم زفافہما ۸ فبرایر ۱۹۱۶.



صورة في أحد الاستوديوهات لإنديرا نهرو في عامها الأول مع والديها.



إنديرا في السادسة من العمر مع المهاتما غاندي عام ١٩٢٤. ويبدو غاندي هزيلًا وضعيفًا من أثر الصيام لكنه سعيد.



عائلة نهرو عام ١٩٢٩ تقريبًا، في الصف الأمامي: ساراب راني، وموتيلال وكامالا، وفي الصف الثاني: جواهرلال نهرو فيجايا لاکشمي باندیت وکريشنا هائيسينج وإندیرا ورنجيت باندیت.



جواهرلال نهرو وإنديرا (في الثالثة عشر من العمر) وكامالا نهرو في ثوب الخادي الأبيض  
الخاص بحزب المؤتمر أمام قصر آناند بهافان عام ١٩٣١.



منزل سواراج بهافان الفخم؛ مقر إقامة موتيلال نهرو المكون من اثنين وأربعين غرفة، حيث ولدت إنديرا يوم نوفمبر عام ١٩١٧.



قصر آناند بهافان الفخم، الذي كان ثاني أصغر مقر أقامت فيه عائلة نهرو، انتقل إليه موتيلال نهرو مع عائلته عام ١٩٣٠.



إنديرا (الخامسة من اليمين) وبعض الطالبات يحطن براييندراناث طاغور في سانتينيكيتان.





إنديرا بشعر مموج بعد وقت قصير من وصولها إلى سويسرا مع والدتها المريضة ١٩٣٥.



نهر و إنديرا التي تبدو نحيلة وتحيط الهالات الداكنة بعينيها في طريقهما إلى إنجلترا حيث  
ستلتحق بكلية سمرفيل في سبتمبر عام ١٩٣٧.



إنديرا (الثالثة من اليسار في الصف الرابع) مع زميلاتها في السنة الأولى بكلية سمرفيل في جامعة أكسفورد.



## الفصل الثامن

# الجبل السحري

ما إن وصلت إنديرا مع أجاثا هاريسون إلى مصحة «لي فرين»<sup>1</sup> التي تقع أعلى أحد تلال قرية ليسين حتى خلدت للنوم. وعلى عكس الغرف الضيقة التي نزلت بها في كلية سومرفيل كانت غرفتها في لي فرين متسعة ذات هواء طلق، ونوافذ طويلة وشرفة تطل على جبال الألب. وفي الغرفة المجاورة لها كان يقيم زوجان هنديان ودودان من بومباي هما السيدة نانافاتي وزوجها المريض بالسل الرئوي. وفي اليوم التالي جاء الطبيب روليه — وهو رجل متورد الخدين في الستينيات من عمره لم يسئ أبدًا إلى مريض — وفحص إنديرا. وأخبرها أنها غير مصابة بمرض، وإنما بندبة من أثر مرض ذات الجنب، لكن أقلقته «ضعفها الشديد»، الذي ظهر في «نحولها وافتقارها إلى العضلات». أوصاها مبدئيًا بأن تلزم الراحة التامة في الفراش لثلاثة أشهر، وأشار بسرور إلى أن جميع أسرّة مصحة لي فرين مزودة بعجلات، وأن إنديرا لن تضطر للبقاء وحيدة في غرفتها. كانت أبواب المصحة وأروقتها الواسعة قد صُممت خاصة للسماح للمرضى طريحي الفراش بالتنقل بأسرتهم للاختلاط بالآخرين.

وعندما انفرد روليه بأجاثا هاريسون أطلعها باختصار على نظامه المعتاد في علاج السل الرئوي، الذي ستتبعه إنديرا، فقال إنه يشمل: «العلاج بالاستشماس، والراحة وممارسة التمارين لتقوية عضلات الصدر، والتغذية الجيدة». ظلت أجاثا مع إنديرا في ليسين لثلاثة أيام لتساعدها على الاستقرار في المصحة. فاشترت لها مذياعًا «لتظل على اتصال بالعالم»، واقترحت عليها أن تعكف على تأليف كتاب يضم رسائلها إلى أبيها، تنمة لكتابه «رسائل من أب لابنته». وفي الليلة السابقة على مغادرة أجاثا انهارت إنديرا وأعلنت أنها تشعر بأنها «حبيسة» المصحة. غير أن أجاثا كتبت إلى نهرو تطمئنه أنها تركت إنديرا

في اليوم التالي مسرورة وهي في فراشها مرتدية «كابًا صوفيًا بلون أحمر متوهج ... كانت قد حاكته بنفسها».<sup>2</sup>

وبعد مغادرة أجاثا كتبت إنديرا برضا إلى أبيها في ٢١ ديسمبر تقول:

«هذا المكان ليس سيئًا على الإطلاق؛ فالغرف أنيقة جدًا ومريحة والطعام طيب جدًا. أقيم في غرفة باهظة إلى حد ما ... بشرفة تطل على منظر رائع لجبل دنت دو ميدى. هذا المنظر تنعكس صورته في مرآة غرفتي أيضًا ... وبهذا فإنني أراه بالفعل على كلا جانبي ... ستعجب بالطبيب روليه إن التقيته ... فأجاثا كانت شديدة الإعجاب [به] ... إنه يريدني أن أمكث هنا نحو ثلاثة أشهر، وقد وعد بأنني سأصبح بعدها مثلاً للصحة الجيدة! قال لي الطبيب روليه: «أنت كالسيارة المتقنة الصنع، كل ما فيها من محرك وإطارات سليم، ولكن ينقصك الوقود الذي يساعدك على الحركة.» إنه يؤمن بأهمية ممارسة التمارين، كتمارين التنفس وما إلى ذلك ... ويقول إن رثتي اليسرى أصغر بكثير من اليمنى ... ولا يسعنا فعل شيء إلى أن يزداد حجمها بمساعدة تمارين التنفس ... وهو يؤمن كذلك بالعلاج بالشمس ... وبأهمية العمل اليدوي في تحسين الصحة، لذا من الجيد أنني تعلمت الحياكة ... أملك جهاز راديو ... وإلى الآن لا يصلني بالعالم خارج المصححة سوى الصوت الحاد للمذيع الألماني بمدينة بريمن وهامبورج ... والأخبار بإذاعة بي بي سي».<sup>3</sup>

كانت شكوى إنديرا الوحيدة هي أنها كانت تُنقل بسريرها إلى شرفة غرفتها لتمضي وقتًا طويلًا من النهار، حيث لا يساعد البرد الشديد على الكتابة أو الحياكة أو حتى قراءة كتاب.

ولكن ما نوع العالم الذي كان يحتجز إنديرا؟ حتى أواخر القرن التاسع عشر كانت ليسين الواقعة في أعالي جبال الألب فوق وادي الرون قرية زراعية صغيرة نائية. وكانت ستظل مغمورة تمامًا لولا قيام العالم الإنجليزي توماس مالتوس — قبل مائة عام — بإفراد ست صفحات كاملة في كتابه الشهير «مقال في مبدأ السكان» للحديث عن مناخ ليسين الصحي وارتفاع متوسط أعمار سكانها. وفي العقد الأول من القرن العشرين تحولت ليسين إلى مقصد رائج لمرضى السل الرئوي، وعام ١٩٣٩ كان عدد سكان ليسين قد وصل إلى ٥٦٩٨ نسمة، من بينهم ثلاثة آلاف مريض موزعين على سبعين

عيادة ومصحة. كانت ثماني عشرة عيادة ومصحة منها يملكها ويديرها الطبيب أوجست روليه، المدير العبقري لشئون لي فرين؛ أكبر وأفخم مصحة.

في عام ١٩٠٣ قَدَّم الطبيب روليه — الذي كان جراحًا شابًا في ذلك الحين — إلى ليسين مع خطيبته التي كانت تعاني سلًا رئويًا. وكان مرض خطيبته هو السبب فيما أصبح عليه. عندما شفيت خطيبته من السل الرئوي تزوجها وتحول من جراح إلى اختصاصي سل، وصار مناصرًا قويًا وداعيًا ناجحًا بدرجة كبيرة إلى الانتفاع من الهواء الطلق والعلاج بالشمس — أو الاستشماس — في علاج السل الرئوي، نال درجة الأستاذية، وأدخل برامج علاجية أخرى حديثة إلى جانب نظام العلاج بالشمس مثل تمارين التنفس، وحركات الرقص الحديث الخاصة بالراقصة مارجريت موريس (التي تُمارس في الفراش) ونظام التغذية النباتية، والعلاج الوظيفي من نسج السلال والحياسة وأشغال الإبرة والطباعة. ووعد — وادعى — أن تحقق هذه الأنواع من العلاج معدل شفاء مرتفعًا.<sup>4</sup>

في الواقع كان السل الرئوي لا يزال إلى عام ١٩٣٩ يسمى «بالطاعون الأبيض»؛ فقد كان مرضًا عضالًا تسبب في قتل ما لا يقل عن مليون شخص سنويًا في أوروبا وحدها.<sup>5</sup> في عام ١٨٨٢ تمكن عالم ألماني يدعى «روبرت كوخ» من عزل بكتيريا السل العصوية، ولكن قبل اكتشاف المضادات الحيوية في الأربعينيات لم يكن السل الرئوي مرضًا يمكن اتقاؤه أو إضعافه أو علاجه. كان هذا المرض ينتشر في المناطق القذرة والمزدحمة التي تفتقر إلى الظروف الصحية الملائمة، لذا كان ضحاياه الأساسيون من الفقراء. وكان المرضى الموسرون — أمثال إنديرا نهرو — يسافرون إلى المصحات الجبلية، «كلاجئين إلى الإشراف الطبي»، حيث يخضعون لعلاج من الراحة التامة والتغذية المكثفة.<sup>6</sup> كان المنطق الطبي وراء هذا العلاج هو أنه يحسن عمل الرئة ويمكنها من شفاء نفسها. كانت إضافة روليه الفريدة لعلاج الاستشماس إلى أساليب معالجة السل الرئوي نابعة من اكتشاف أن أشعة الشمس تقتل بكتيريا السل العصوية. وصحيح أن أشعة الشمس كانت تخفف من حدة السل، بل تقضي عليه أحيانًا في الجلد وغيره من أجزاء الجسم المعرضة لها. لكنها كانت تعجز عن الوصول إلى الرئتين، وكانت تُلث حالات السل لدى روليه لمرضى بالسل الرئوي.<sup>7</sup>

بنى روليه — المعروف باسم «طبيب الشمس» — مصحة لي فرين عام ١٩١١ لتكون نموذجًا لمصحة العلاج بالاستشماس، ولكنها لم تكن تدعى مصحة. ولم تكن أي

مصحة في ليسين تدعى بذلك أيضًا. كانت أغلب المصحات والعيادات في ليسين تسمى من باب التخفيف بـ «الفنادق» (مثل جراند هوتيل، وبيلفيدير هوتيل، وشاموسير هوتيل)، ولم يمنع هذا أن تتخذ بعض المصحات لها أسماء جذابة ورنانة مثل لي فرين (أي أشجار الدردار، إشارة إلى نوع الشجر الذي أحاط بها). ومما لا شك فيه أن لي فرين برواقها (الذي كانت تعرض فيه الأفلام وتقام فيه الحفلات الموسيقية وغيرها من الأنشطة الترفيهية) وحجرة طعامها وصالون السيدات وحجرة التدخين وقاعة البلياردو كانت أشبه بالفنادق الراقية منها إلى المستشفيات. فغرف الاستشارات والمعمل وغرف العمليات الصغيرة وقسم الأشعة تخبئ جميعًا في أحد أجنحة المصحة. وكانت غرف المرضى الفاخرة تقع في جناح آخر. كانت المصحة بأكملها مزودة بنظام التدفئة المركزية وذات نوافذ كبيرة تتدفق منها أشعة الشمس التي اشتهرت بها ليسين. وكان لأغلب غرف المرضى شرفات واسعة، حيث كانوا ينقلون يوميًا لقضاء عدة ساعات من التعرض لهواء جبال الألب البارد وأشعة الشمس. وباستخدام مصعد كهربائي بإمكان المرضى الصعود إلى السطح، حيث توجد مَشَمْسَة كبيرة تطل على جبال الألب من كل اتجاه. تكلفت إنديرا مبلغًا باهظًا يبلغ ٢٥ فرنكًا في الليلة لتحصل على غرفتها ذات التدفئة المركزية (مع أن رولييه كان يصر على أن تبقى الغرف باردة والنوافذ مفتوحة أغلب اليوم) وأربع وجبات كبيرة يوميًا إلى جانب الرعاية الصحية من الطبيب رولييه وطاقمه الطبي. كانت فحوصات الأشعة السينية والأنشطة كتمارين الرقص الخاصة بمارجريت موريس ودروس الطباعة تكلف مبالغ إضافية.<sup>8</sup>

كانت مصحة لي فرين كغيرها من مصحات مكافحة السل — كما جاء في وصف أحد المؤرخين — مكانًا «للآمال المؤجلة». وكان جوها العام مربكًا وغير معتاد، تبدو فيه الكثير من الأشياء على عكس حقيقتها. كانت مصحات علاج السل آنذاك تبدو في ظاهرها كمنتجعات عصرية، «حيث يلتقي المرء بأناس من طبقات راقية ... وقد مكث فيها كثيرون لسنوات. وألغوا جماعات غريبة من مختلف الأجناس أغلبها من الشباب من الجنسين»<sup>9</sup> ولكن بعيدًا عن المظاهر كان أفراد هذه الجماعات يعانون غالبًا من عقدة المجذوم. كان السل مرضًا معديًا، لذا كانت الإصابة به وصمة. وكانت مصحة لي فرين كأغلب المصحات منعزلة جغرافيًا واجتماعيًا ونفسيًا عن «العالم الواقع أسفلها».<sup>10</sup> كذا كان نزلوها منعزلين عن الحياة القروية في ليسين. وكان المرضى فيها يلزمون الفراش لشهور وأحيانًا لسنين. ومع الوقت يصبحون مهوسين بدرجة حرارتهم (التي كانت



تقاس أربع مرات يوميًا) ووزنهم (المراقب بدقة). أما إحساسهم بالزمن فقد كان مشوهًا على نحو غريب، وبدا لهم لا متناهيًا ومتناهيًا في الوقت نفسه. كذلك كان إدراكهم الحسي مبالغًا من أثر مجيء الحمى ورواحها. وكان الطبيب رولييه وغيره من الأطباء نادرًا ما يذكرون كلمة «السل» المخيفة، هذا إن نطقوا بها. ذلك لأن السل كان يرتبط في الأذهان بالفقر والقذارة والافتقار إلى العادات الصحية المناسبة و«الدماء الفاسدة» (فكان يعتقد أنه وراثي)، والمصابون به يحاولون إخفاء إصابتهم بادعاء الإصابة بأمراض أقل ترويعًا وذات أعراض شبيهة، كذات الجنب على سبيل المثال.<sup>11</sup>

مع وجود هذه المصحات الكثيرة التي يعاني أكثر من نصف نزلائها السل «كانت قرية ليسين كلها مستشفى».<sup>12</sup> ولكن مصحة لي فرين تميزت عن باقي المصحات لعدة أسباب. فقد كانت أرقى وأكثر مراكز العلاج في قرية ليسين تكلفة. وعندما كان المهاتما غاندي يجوب سويسرا عام ١٩٣١ زار لي فرين. وكان مبهورًا بالمداداة وأساليب العلاج المعتمدة على «الطبيعة»، وأراد أن يتعرف على نظام العلاج بالشمس الذي يقدمه الطبيب رولييه. وبعد زيارة غاندي لي فرين وثنائه عليها اجتذبت هذه المصحة أعدادًا هائلة من المرضى الهنود من بينهم أمير هندي شاب وصل مع كامل حاشيته، واستأجر طابقًا كاملًا من المصحة. وأخيرًا فقد انفردت لي فرين عن غيرها من المصحات لكونها تضم العديد من حالات السل غير الرئوي.<sup>13</sup> شملت هذه الحالات سل العظام أو المفاصل أو الغدد أو الأطراف. كان مرضى السل الرئوي يتسمون عادة بالنعافة الرائجة، وبلون شاحب جذاب يزيد من حدته تورده الوجه من أثر الحمى. أما مرضى السل غير الرئوي فمظهرهم مشوه عادة بالعرج أو الإصابات القبيحة. وهؤلاء مثلوا نسبة كبيرة من مرضى لي فرين، ولأنهم كانوا يتبعون نظام رولييه العلاجي الذي يقضي بتعريض الجسم بالكامل لأشعة الشمس لفترات طويلة بمختلف الأحوال الجوية فقد كانوا في الغالب يتخففون جدًا في ثيابهم، وبالتالي لم يكن بمقدورهم إخفاء تشوهاتهم.

وفي أوائل يناير عام ١٩٤٠ كتبت إنديرا إلى نهرو أنها صارت تزن أربعة وثمانين رطلاً فقط، في حين أخبرها الطبيب رولييه بأنها يجب أن تزن على الأقل مائة وعشرة أرطال ليتناسب وزنها مع طولها الذي يبلغ خمس أقدام وبوصتين. لم تكن قد غادرت الفراش منذ وصولها إلى لي فرين، وبدأت تشعر بالإحباط. فكتبت إلى نهرو تقول: «كلما زاد مكوثي في الفراش زاد شعوري بالضعف، وقلت رغبتني في عمل أي شيء. تمضي الأيام

برتابة مخيفة إلى أقصى حد، خاصة مع عدم وجود من يمكنني التحدث إليه»<sup>14</sup> كان جيرانها الودودون في الغرفة المجاورة — آل نانافاتي — قد رحلوا إلى مصحة أخرى بمونترو، وظلت إنديرا منعزلة عن بقية المرضى، وكان ذلك يرجع إلى حد ما إلى تداول نزلاء المصحة لمقال كتبه جون جونثر في مجلة «لايف» بعنوان «نهر الهند» الذي تضمن صورًا لعائلة نهر، الأمر الذي أشعر إنديرا بالخجل.

وصف الطبيب رولييه لإنديرا علاجًا يقضي بممارسة تمارين التنفس واتخاذ «وضعية الاستلقاء» التي تطلبت من إنديرا الاستلقاء على بطنها متكئة على ساعديها ومرفقيها ورافعة صدرها ورأسها. كانت هذه وضعية مناسبة للقراءة في الفراش، لكن لم تفلح وضعية الاستلقاء ولا تمارين التنفس في تحسين كفاءة رئتها أو في تخفيف آلامها الصدرية. ولم تشعر أنها أحسن حالًا بحلول فبراير. ففي التاسع من الشهر نفسه بعد قرابة شهرين من دخولها مصحة لي فرين كتبت إلى أبيها تقول: «لا يبدو أنه يوجد تقدم ظاهري في حالتي»، لكنها أضافت: «ولكنني بالطبع لا أعرف شيئاً عن حالة رئتي، فكل ما أعرفه هو أن آلام رئتي اليسرى لا تزال مستمرة»<sup>15</sup>.

لم يناقش رولييه إنديرا صراحة في حالتها أو المنحى الذي يتخذه مرضها. كانت إنديرا تقيم في مصحة شهيرة، يحيطها السعال ومرض السل المشوهين من كل جانب. ومع هذا لم يكن الأطباء لينطقوا بكلمة «سل» قط. وكان هذا التكتّم مقصودًا حسبما كان شائعًا وقتها. كان المنطق وراء هذا الغموض الطبي من الأطباء والمرضى هو خوفهم من أن يفقد المريض عزيمته على البقاء إذا علم أنه مصاب بمرض قد يتسبب في موته. ولكن تجنب مواجهة الحقيقة كان ذا أثر سلبي في حالة إنديرا وكثير من المرضى. فإنديرا تعلم أن والدتها توفيت بمرض السل، وأنها قد تعرضت لفترة طويلة للجراثيم المسببة للسل خلال مرض كامالا. كانت تعي جيدًا الأعراض التقليدية لهذا المرض، وتدرك أنها مصابة بالكثير منها: مثل فقدان الوزن والتعرق الليلي والسعال وصعوبة التنفس. هذا بالإضافة إلى أنها أدركت أن برنامج رولييه العلاجي في واقعه نفس العلاج الذي تلقته كامالا. حتى إن رولييه قد قلص بالفعل من فترات علاجها بالحمامات الشمسية، وفي الوقت نفسه حرص على أن تتعرض كثيرًا للهواء البارد المنعش. وفي هذا الصدد كتبت إنديرا إلى أبيها تقول: «من المعروف — حتى لأنصار العلاج الشمسي كالأستاذ رولييه — أن الشمس مضرّة للرئة الضعيفة. لذا يسمح لي بأخذ حمام شمسي بمنطقة أسفل الردين فقط لمدة لا تتجاوز النصف ساعة»<sup>16</sup> يقول رولييه في كتابه الشهير الذي حمل اسم «العلاج بأشعة

الشمس» والذي يدرس في الجامعات إن «العلاج بالشمس» لا ينصح به للحالات المتأخرة من السل الرئوي التي تعاني الحمى، وفي لي فرين كثيرًا ما أصيبت إنديرا بالحمى.<sup>17</sup> وكانت إنديرا ونهرو يسايران رولييه إلى حد ما في خداعه، فهما بدورهما لم يأتيًا على ذكر كلمة «السل» في أي من رسائل أحدهما للآخر خلال المدة التي مكثت فيها إنديرا في لي فرين. كادت إنديرا تخبر فيروز بالحقيقة كاملة في رسائلها إليه، أما في رسائلها إلى والدها فلم تكتب إلا عن فقدانها الدائم للوزن واكتئابها المتزايد. فكتبت إليه عن الظلمة والكآبة اللتين ملأتا أفكارها. كانت تشعر بالضجر من ملازمة الفراش والمعاناة من الوحدة القاتلة. وحتى المناظر الطبيعية المؤثرة التي كانت تحقق فيها لساعات صارت تبدو لها كثيية، ففي وصفها لها تقول إن «الشوارع غارقة في الوحل، والأشجار موحشة تعرت من أوراقها ... وأسوأ ما في المنظر هو الضباب الكثيف ... الذي يتصاعد من الوادي» ليحجب الجبال «ويلف كل شيء بالغموض».<sup>18</sup>

رأت سوزان رولييه — ابنة رولييه الصغرى التي كانت تدرّس لإنديرا تمارين الرقص الحديث في الفراش مرة كل أسبوع — أن إنديرا متحفظة جدًا، بل يصعب التقرب إليها. كانت إنديرا وسوزان في العمر نفسه تقريبًا، وسوزان مثل إنديرا عادت لتوها من إنجلترا حيث درست هناك الرقص الحديث لثلاثة أعوام في مدرسة موريس مارجريت للرقص، ولكنها لم تصبح هي وإنديرا صديقتين. كانت إنديرا — على حد وصف سوزان — «مغتمة جدًا وحزينة» و«ميالة بشدة إلى العزلة»؛ إذ تتجنب المرضى الآخرين، وفيهم الهنود الذين كثروا بعد مغادرة آل نانافاتي لي فرين. لم تكن سوزان وطاقم التمريض الذي يضم أختها «أوديت» على علم بأن والدة إنديرا توفيت تأثرًا بإصابتها بمرض السل (مع أن الأستاذ رولييه كان حتمًا على علم بذلك)، ولم يعلمن أيضًا أنها تركت خطيبها في إنجلترا. ففيروز لم يزرها في لي فرين قط، ولم يزرها غيره، باستثناء شخص أو اثنين.<sup>19</sup> كان من بين زوار إنديرا النادرين ليدي هيمرلين، ناظرتها السابقة ببيكس الواقعة في الوادي أسفل قرية ليسين. لم يكن لدى إنديرا سوى القليل لتقرؤه؛ إذ لم يتسنَّ لها إحضار أي كتب من إنجلترا. فطلبت من ليدي هيمرلين أن تعيرها كتاب نهرو «لمحات من تاريخ العالم»، وأخذت تقرؤه «من البداية» للمرة الأولى منذ نشره قبل خمس سنوات. كانت تعكف على قراءته بنهم كل يوم بعد الظهيرة وهي متخذة وضعية الاستلقاء على البطن في سريرها بشرفة غرفتها، فكان يخرجها من عالم لي فرين المنغلق، ويصلها بالعالم الخارجي ووالدها والهند.

لكن معنوياتها ظلت منخفضة جدًا. شعر روليه بالقلق من انخفاض وزنها المستمر — فقد صارت أقل من المطلوب بثلاثين رطلًا — فقرر دعم «عملية علاجها بالطبيعة» بإعطائها جرعات منتظمة من زيت كبد الحوت، وحمض الفيتيك الذي ذكرت إنديرا أنه قد ساعد في فتح شهيتها بعض الشيء. ووصف لها الطبيب روليه إحدى طرق علاج السل القديمة، وهي «الحجامة» التي شاع استخدامها في القرن التاسع عشر. ولا عجب في أن إنديرا رأت أن هذا العلاج «لم يحدث ولو فارقًا ضئيلًا».<sup>20</sup> فهي مريضة تحرص على اتباع العلاج بحذافيره؛ فكانت ترغم نفسها على تناول الأطباق الشهية والدسمة التي تأتي إليها في فراشها على صينية، وتتمدّد على الفراش في وضعية الاستلقاء على البطن، وتحمل البرد القارص في غرفتها، والصقيع في شرفتها، ولكن كل هذا لم يثمر إلا القليل. وفي هذا كتبت إنديرا إلى أبيها في أواخر فبراير تقول: «أمضيت شهرين في قرية ليسين، وأربعة ونصف في الفراش (مشيرة إلى المدة التي أمضتها في مستشفى بريننفورد). عندما وصلت إلى هنا في البداية حدد الطبيب روليه لي مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر ... لأسترد عافيتي. أعتقد أن هذه المدة قد طالّت ... لو أنني رأيت أو شعرت فقط — أو لو رأى أو شعر الطبيب روليه حتى — بأي تحسن في حالتي لكان بقائي في الفراش وكل شيء آخر غير مهم. لكنني أقول لو.»<sup>21</sup>

ومع مرور الوقت وامتداد الطريق إلى الأمل بلا منتهى بدأ القلق ينتاب إنديرا إزاء تكاليف علاجها الباهظة. إذ بلغ متوسط تكلفة علاجها الأسبوعية ١٨٠ فرنكًا. فأخبرها نهرو بآلا تقلق لأن علاجها استثمار في مستقبلها وأن صحتها لا تُقدّر بثمن. ولكن هو نفسه كان قلقًا. كان كريشنا مينون قد أخبره بأن الدار الناشرة لكتبه في لندن، دار ذا بودلي هيد، قد آلت إدارتها إلى إدارة أموال التفليسة، وأنه لن يحصل مستقبلًا على أي إيرادات من مبيعات مؤلفاته، وكان نهرو يسدّد فاتورة علاج إنديرا من هذه الإيرادات.

كان رد فعل نهرو إزاء اكتئاب إنديرا ينم عن شهامة مماثلة لتلك التي صرف بها مخاوف إنديرا المالية. إذ أرسل إليها طردًا من الكتب، واقترح عليها أن يرسل لها تاكلي (مغزلًا) لتغزل عليه. كان نهرو مثل غاندي يجد الغزل «مريحًا جدًا» للأعصاب، فأمل أن يهدئ الغزل من مخاوف إنديرا الصحية والمالية. فهو يقول لإنديرا: «مارسي الحياكة كما كنت تفعلين في إنجلترا. أو استمتعي بعمل أشغال يدوية بالورق المقوى. سمعت أن الأطفال في مدارس التعليم الأساسي يصنعون صناديق جميلة وأشياء أخرى باستخدام الورق المقوى. إنها وسيلة مشوقة لقضاء الوقت.» وأضاف بلا داع أنه في الوقت الذي أخذ

فيه وزن إنديرا في الانخفاض مهما أكلت أخذ هو في الامتلاء على نحو قبيح. فيقول: «منذ بضعة أيام ... وزنت نفسي، وصعقت عندما اكتشفت أن وزني وصل إلى ١٤٣ رطلاً ... أي أكثر بثلاثة أرطال من أثقل وزن وصلت إليه.»<sup>22</sup>

وفي أوائل مارس شعرت إنديرا أنها أفضل بعض الشيء، وسمح لها رولييه بمغادرة الفراش والسير لربع ساعة في وقت العصر في المشمسمة على السطح، ثم الجلوس في الاستراحة في الطابق السفلي. وسمح لها أيضًا بأن تأخذ حمامًا حقيقياً مرة كل أسبوع. وصار يومها يسير على نفس نظام المرضى المسموح لهم بالمشي كالتالي: الإفطار في السابعة والنصف، ثم الاستلقاء على البطن في السرير في شرفة الغرفة صباحاً، يعقبه احتساء الشاي في الحادية عشرة صباحاً، ثم تناول الغداء في الواحدة بعد الظهر، وبعد ذلك يأتي دور «علاج الصمت» من الثانية إلى الرابعة بعد الظهر، وفي أثنائه ترقد إنديرا بلا حراك على الفراش في غرفتها. ويمنع الكلام أو القراءة في هذا الوقت، ولضمان هدوء المكان كان الطريق أمام المصحّة يغلق لساعتين، ويمنع المزارعون المحليون من العمل في الحقول القريبة من لي فرين. وفي الرابعة بعد الظهر يقدم الشاي، ثم في الرابعة والنصف تذهب إنديرا للتمشية قليلاً، وبعدها تجلس في الاستراحة لتحريك حتى السادسة مساءً. يعقب ذلك تناول العشاء في السابعة، وبعده تستمع إنديرا إلى الراديو. وعندما يحين موعد النوم أخيراً في التاسعة يؤتى إليها بكوب من الحليب على صينية. وبعدها تُظلم ممرات المصحّة طوال الليل، وتطفئ إنديرا نور المصباح المجاور لسريها وتحاول النوم. مرت إنديرا هناك بليالٍ سيئة؛ إذ كثيراً ما تستيقظ شاعرة بالظماً الشديد والسخونة من أثر الحمى.<sup>23</sup>

وسرعان ما اكتشفت إنديرا أن النظام اليومي الذي يتبعه المرضى القادرون على المشي في لي فرين بنفس رتبة الشهور التي مكثتها في الفراش. فلكي يصبح المريض قادراً نفسياً على الحياة في المصحّة، عليه الاختلاط بغيره من المرضى وممن هم في المصحّة؛ لبناء العلاقات أو الاستماع إلى القيل والقال أو تكوين مشاعر قوية تجاه المرضى والأطباء. باختصار كان عليه أن يدير ظهره للحياة خارج المصحّة، وينظر بجدية إلى الحياة بداخلها، وهو ما لم تتمكن إنديرا من فعله. فلم تكن مهتمة بما يجري بلي فرين. ولم تكوّن صداقات وطيدة هناك. وأهم ما يشغلها هناك هو استلام خطابات — فيروز من لندن ونهرو من الهند — والاستماع إلى نشرات أخبار هيئة الإذاعة البريطانية.

غير أن موعد وصول البريد كان غير ثابت، فقد تمر عليها أيام، بل أسابيع دون أن تردّها أي رسائل. أما نشرات الأخبار فتذاع عدة مرات يومياً وإنديرا تتابعها عن كثب.

وفي أوائل ربيع عام ١٩٤٠ بدأت ملامح الحرب الزائفة تنقشع. ففي نوفمبر عام ١٩٣٩ قام الاتحاد السوفييتي — الذي كان قد وقع معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا النازية — بغزو فنلندا، وانتصر عليها في نهاية الأمر بعد أن خرج ظافراً من حرب الشتاء الشرسة في مارس عام ١٩٤٠. فكتب نهرو في الهند مقالاً بجريدة «ناشيونال هيرالد» يتعاطف فيه مع الشعب الفنلندي في محنته. وأرسل لإنديرا القصاصة التي تحوي المقال. عارضت إنديرا آراءه في المقال بشدة وفندت الأسباب في خطاب مطول أرسلته إليه. في الخطاب حملت إنديرا سياسة بريطانيا الخارجية على مدى ثماني سنوات مسئولية التسبب في تحالف روسيا مع ألمانيا وغزو فنلندا. كانت تتبنى وجهة نظر متعصبة ومؤيدة للاتحاد السوفييتي ترى أنه لا يزال يعارض النازية والإمبريالية، وأن مطالبه تجاه فنلندا كانت مبررة. وأدانت أيضاً السياسة البريطانية التي أيدت فنلندا عسكرياً في الوقت الذي رفضت فيه تقديم العون في السابق لإسبانيا الجمهورية. تقول إنديرا: «هل كان سبب [امتناع بريطانيا عن مساعدة إسبانيا] هو أن فرانكو — كما وصفته ليدي إيرونسايدي في حفل معين [حفل اللورد لوثيان] — رجل شديد التهذيب؟»

كان كلام إنديرا هذا تمهيداً — ليس إلا — للفكرة الرئيسية في خطابها. فقد ذكّرت نهرو في الخطاب بقيام قوات الجناح الأيمن الفنلندية بقيادة البارون مانرهايم بقمع وذبح ١٥ ألف شيوعي في إحدى الثورات الشيوعية عقب الحرب العالمية الأولى. واستطردت تقول ساخطة: «هذه هي الديمقراطية التي تمد لها قوى العالم الإمبريالية يد العون ... كل هذا الكلام عن فنلندا المسكينة يشعروني بالاشمئزاز. فهل يقلل صغر حجم دولة من حجم الجرائم التي ترتكبها حكومتها، فتصبح ممارساتها القمعية والدكتاتورية أقل وطأة وحدة؟»<sup>24</sup>

لم تظهر هذه الرسالة مدى حرص إنديرا على متابعة تفاقم الموقف الأوروبي المشتعل فحسب، بل كانت أيضاً إشارة واضحة إلى أحد المواقف الفكرية التي اختلفت فيها إنديرا مع أبيها. مما يدل على أن لاسكي ومعجبي نهرو الآخرين في لندن كانوا مخطئين بشأن إنديرا. فهي أكثر من مجرد مردد ضعيف لآراء أبيها. في هذا الخطاب وقفت إنديرا على طرف النقيض من نهرو. وقد ظهر اعتدادها برأيها بوضوح من قبل عند اعتراضها على زيارة لوثيان، الزيارة التي لم تتوقف عن الشكوى منها كما هو واضح من إشارتها إلى ليدي إيرونسايدي في الخطاب. غير أنها كانت لا تكتفي بالتعبير عن مقتها لتشمبرلين فحسب، بل تتكلم بسخرية عن السيد «أتلي» وأعضاء حزب العمال الذين أسمتهم خلفاء

«هيو دالتون» في العالم. فمن وجهة نظرها، لم تكن بريطانيا الاستعمارية تستطيع أن تفعل شيئاً بطريقة صحيحة وسرعان ما ستجر الهند إلى الحرب.

ولم يكن واضحاً إلى أي مدى كان ميل إنديرا إلى التعاطف مع الشيوعية واليسارية مبنياً على تفكير ودراسة واعية. فهي شديدة التأثر بفيروز وأصدقائه وزملائه الراديكاليين في لندن، الذين أكثرهم من الشيوعيين. كان استياء أهل الفكر من سياسات روسيا وستالين قد بدأ بلا شك عام ١٩٣٩، لكنه لم يسر إلى كل اليساريين. وإنديرا — مثلها مثل العديدين من أعضاء الرابطة الهندية — لا تزال تؤمن بالاتحاد السوفييتي، حتى بعد محاكمات ستالين الصورية، وتحالف الاتحاد السوفييتي مع النازية. بدا الاتحاد السوفييتي برئاسة أسمته إنديرا بـ «الإمبريالية العالمية» وتشمبرلين وسياسات التهذؤة. وحسبما ذكر أحد المؤرخين ظل عدد لا بأس به من أنصار مؤيدي الشيوعية على ولائهم للاتحاد السوفييتي، وقد أسدت «مكانة مفكري الغرب — وسذاجتهم — خدمة كبيرة لستالين».<sup>25</sup>

لم يرد نهرو على خطاب إنديرا عن روسيا وفنلندا، ولكنه كتب إليها في النهاية عن اكتئابها في مصحة لي فرين، أو بالأحرى عن عجزه عن نصحتها بما يجب عليها فعله. فيقول عن حياته الحافلة بالأنشطة المستمرة والتنقل بين الحشود «... ربما جعلني ذلك أفهم الحشود بعض الشيء ... [لكنني] ما زلت غير قار على فهم الأفراد» فلطالما ضحى بعلاقاته الشخصية ليكون على قدر مسؤولياته السياسية، مما أشعره بأنه «فشل في أصعب اختبارات الحياة»، ويستطرد: «لقد طاردني هذا الإحساس بالفشل في كل ما أقوم به. فإذا كانت ثقتي بنفسي ضعيفة إلى هذا الحد، كيف لي أن أنصح أي شخص؟ ... لذا اعلمي يا عزيزتي أنني آخر من يمكنك طلب نصيحتته. سأهيك أي شيء فور أن تطلبه، ولكن لا تأتيني طلباً للنصيحة، فأنا مشوش البال، يعوزني صفاء الذهن».<sup>26</sup> كان نهرو أكثر صراحة في هذا الصدد مع كريشنا مينون عندما اعترف له قبل شهور بأن «عقله معتل جداً».<sup>27</sup> ألم هذا الخطاب إنديرا، لكنه أقلقها بدرجة أكبر، فكتبت تقول: «لقد أذهب عني (خطابك) أي صفاء أو سعادة شعرت بها. وملأني بالحزن، وفوق كل شيء ملأني بالرغبة الشديدة لأكون معك».<sup>28</sup>

في ربيع عام ١٩٤٠ كان نهرو في الخمسين، في حين كانت إنديرا في الثانية والعشرين من العمر، فهو من ناحية عالق في أواسط العمر، وهي من الناحية الأخرى كانت نظرياً في مقتبل العمر، ولكنها تعيش في انتظار «الآمال المؤجلة». كان العالم على شفا الحرب، وفي الهند بدا الاستقلال أملاً بعيد المنال أكثر من أي وقت مضى، فقد اختلف أعضاء حزب

المؤتمر فيما بينهم، واشتد خلافهم بدرجة أكبر مع حزب الرابطة الإسلامية الذي ينتمي إليه محمد علي جناح. ولكل هذه الأسباب كان كلٌّ من إنديرا ونهرو مستغرقًا في مشاكله الخاصة وغير قادر على عون الآخر؛ فمن ناحية يشعر نهرو بالفشل، ومن الناحية الأخرى إنديرا حزينة على فراقه. وكانت عدم قدرتهما على التواصل أحدهما مع الآخر آنذاك بمنزلة نقطة تحول في علاقتهما. فلم يكونا يتصارحان أو يفضيان أو يركن أحدهما إلى الآخر بذات الدرجة مجددًا. فمئذ تلك اللحظة حرصا على ألا ينقضا ميثاقًا ضمنيًا بينهما بآلا يتصارحا.

ولكن ماذا عن فيروز؛ هل كان بمقدوره أن ينجح حيث فشل نهرو؛ هل استطاع أن يمنح إنديرا الأمل أو يسرّي عنها؟ على الأرجح أنه حاول، غير أن رسائله إلى إنديرا خلال تلك المدة — وبعدها — تتسم بالتحفظ، مما يستدعي التأمل في طبيعة ومدى دعمه لإنديرا.<sup>29</sup> لا شك أن ابتعاد فيروز عن إنديرا قد ألمها جدًّا، ومن المؤكد أن عدم وصول الرسائل بانتظام كاد يدفعها إلى الجنون. غير أن فيروز قد أظهر بلا شك تفهمًا لوضع إنديرا وحاول التسرية عنها. وحتى مع بداية الحرب بدا لفيروز المتفائل أن علاقته بإنديرا ذات مستقبل مشرق وواعد. لكن من الناحية الواقعية كان شبح مرض إنديرا يمثل تهديدًا خطيرًا لعلاقتهما. وأسوأ ما قد يحدث هو أن تموت إنديرا كوالدتها. وحتى إن بقيت على قيد الحياة فقد يظل مرضها الموهن المزمّن يعتصرها. لذا كان مرضى السّل يُنصّحون بعدم الزواج، وإن كانوا متزوجين بالفعل يُنصّحون بعدم الإنجاب. وأنّاذ كانت إنديرا ترغب في كل من الزواج والإنجاب بشدة. وقد دل تفاني فيروز في مساعدة كامالا في الهند وسويسرا على أن مرض إنديرا لم يكن ليُجعله يتراجع عن عزمه على الزواج منها. لكن المسألة لم تكن رهنًا برغبة فيروز وإنديرا فحسب. فإلى جانب الأطباء كان الكثير من أفراد عائلتيهما ممن يعارضون زواجهما سيتخذون من مرض إنديرا ذريعة للوقوف في وجه هذا الزواج.

بنهاية مارس كانت إنديرا قد أمضت الثلاثة الشهور التي شرط رولييه أن تمكثها في ليسين لتسترد عافيتها، لكنها كانت أبعد ما تكون عن مثال الصحة الذي وعدها رولييه بأن تصبحه. فكتبت إلى نهرو تقييماً صريحاً لدى «تحسن حالتها الصحية»، وقالت فيه:

«لا شك لديّ في أنني صرت أفضل حالاً عما كنت عندما وصلت إلى هنا ... ولكن لست أفضل بكثير. فأنا أبداً أفضل بعض الشيء، وأتتنفس على نحو أفضل. أما وزني فقد اكتسبت ثلاثة أرطال ليصبح وزني خمسة وثمانين رطلاً. قبل



شهر بدأت أغادر الفراش لخمس عشرة دقيقة في فترة بعد الظهر، والآن صار بإمكانني أن أمكث خارجه لساعتين ونصف الساعة، وفي هذه المدة أخرج للتمشية قليلاً. لكن من جانب آخر لا يزال الإرهاق الدائم الذي اعتدت الشعور به يلازمي، شهيتي ليست في تحسن؛ فما زلت أتناول القليل من الطعام بعد لأي، ولا أنام جيداً على الإطلاق».<sup>30</sup>

كما هو متوقع أخبر روليه إنديرا بأن عليها فقط أن تمكث في لي فرين ثلاثة شهور أخرى، غير أنه صارح ليدي ماهاراج سينج (التي كان ابنها المصاب بالسل يعالج في إحدى مصحات مونتانا) والتي حضرت لزيارة إنديرا بأنه يريد أن تمكث في الواقع لعام آخر في لي فرين. ولما أعلمت ليدي سينج إنديرا بهذا ارتعبت هذه الأخيرة على نحو يمكن تفهمه من فكرة البقاء حبيسة في مصحة لي فرين حتى ربيع عام ١٩٤١. هذا بالإضافة إلى أن الطبيب روليه لم يكن واثقاً من تمام شفاء إنديرا بحلول هذا الوقت. وعندما غادرت إنديرا سويسرا في النهاية أخبرها روليه بأنها ستحتاج إلى الإقامة لسنتين على الأقل بين جبال الهند. فلاح أمامها شبح حياة طويلة من العجز.<sup>31</sup>

بعدما باحت ليدي سينج لإنديرا بتقييم روليه الحقيقي لحالتها الصحية بدأت إنديرا تخطط لمغادرة لي فرين بأي ثمن، حتى لو اقتضى الأمر مخالفة نصيحة الأطباء. فأخبرت نهره بأن لديها رغبة قوية — تكاد تكون ملحة — في الذهاب إلى الهند؛ رغبة «تستبد» بها. وأضافت أنها ترى أن مرضها يعود في جزء كبير منه إلى أسباب نفسية، فتقول: «أعتقد أن إرهابي وأرقي يعودان في الأغلب إلى حالتي العصبية». ولم تكن حالتها العصبية هذه بالطبع إلا نتاج «الشهور التعسة» التي أمضتها في لي فرين والضجر الذي لا يحتمل «لمجموعة مرضى لي فرين القليلين الذين يمضون وقتهم في القيل والقال، ولا يتحدثون عن شيء أهم من الطعام والغرباء الذين يمرون بالشارع أسفل منهم».<sup>32</sup>

لم يشجع نهره إنديرا على مغادرة لي فرين مطلقاً. وأخبرها بأنه لا بد أن تكون «الكلمة الأخيرة» للأطباء. لذا طلب من الطبيب بهانداري بلندن والطبيب جيفراج ميها — وهو طبيب هندي بارز — مكاتبة روليه. كان نهره واثقاً من أنهما — مثل الطبيب روليه — سيحثان إنديرا على البقاء قدر استطاعتها في لي فرين ... إذ إن الإقدام على أي شيء من شأنه إضاعة التقدم الذي أُحرز سيكون ضرباً من الحماقة. أما نهره نفسه فقد كتب إليها يقول: «أتمنى بشدة لو أراك، ولكنني لست بالحمق الذي يدفني إلى السماح لأمانني بالتدخل في علاجك. لا شك أن علينا إرساء أساس صحي قوي هذه المرة، وإن كان

لا بد لنا من الخطأ، فعلينا أن نقترف خطأ لا نندم عليه. فأنت تعلمين جيدًا أن الرئة الضعيفة أو غشاء الجنب يتطلب وقتًا طويلًا ليقوى.»<sup>33</sup>

كان شبح أن تلقى إنديرا نفس مصير والدتها كامالا يطل من بين أسطر خطاب نهرو. لم يكن نهرو على استعداد للقيام بمجازفات فيما يتعلق بصحة إنديرا، مهما كانت رغبتها في مغادرة مصحة لي فرين؛ لذا استعان بأراء متخصصين في الطب وقائمة طويلة من الضرورات التي بدأها بعبارة «علينا أن» لإقناعها. وأصر أيضًا في خطابه على أن «الصحة ليست جسدية فقط. إنما هي نفسية أيضًا إلى حد بعيد. أنت تشتكين من توتر أعصابك. وكل منا يشكو إلى درجة ما من توتر أعصابه. لكننا لا نسمح لأعصابنا بالتحكم فينا ... لذا عليك أن تعزمي على أن تديرِي ظهرك للخوف والتوتر. ولتعلمي أن الأمر ممكن، وقد حُقق من قبل.»<sup>34</sup>

وفي أواخر أبريل حضر الطبيب بهانداري من لندن إلى ليسين لرؤية إنديرا، ومناقشة حالتها الصحية مع الطبيب رولييه. وبعد المناقشة كتب بهانداري إلى نهرو أنه وصل هو والطبيب رولييه إلى القرار نفسه، وهو أنه يجب على إنديرا المكوث في لي فرين لبضعة شهور أخرى على الأقل.<sup>35</sup> أحبط هذا القرار إنديرا، فكتبت إلى نهرو معترضة، لكن نهرو أساء تفسير رغبتها في مغادرة سويسرا. فمع أنه سلّم بأن «حياة المصحة ... مرهقة ذهنيًا» — حتى إنه سألها: «هل قرأت رواية الجبل السحري التي ألفها توماس مان؟» — كان يرى أن السبب الحقيقي وراء لهفتها للعودة إلى الهند هو إحساسها المفرط بالواجب تجاهه ورغبتها في أن تعاونه وتؤازره. ولا شك أنها رغبت في القيام بذلك، ولكنها ترغب أكثر من أي شيء آخر في أن تجتمع بفيروز من جديد؛ لا سيما بعد مرور خمسة شهور دون لقاء. كذلك منحها نهرو عن غير قصد سببًا آخر لتغادر لي فرين؛ إذ أقر في ربيع عام ١٩٤٠ أن تدبير أموال علاجها صار مع كل شيء مشكلة؛ لأن الحرب أوقفت إيرادات مبيعات كتبه. وفي الواقع حتى نهرو لم يكن واثقًا من قدرته على تسديد أجور خدم أناند بهافان للشهر التالي.<sup>36</sup>

لكن كان أكثر ما ألم إنديرا وسط كل هذا الجدل حول الموعد الأمثل لتغادر لي فرين هو عجز نهرو عن طمأننتها ومد يد العون إليها. ففي أوائل مايو كتب لها صراحة عن آرائه ومشاعره في خطاب استهله بقوله: «ليس من السهل الكتابة عن هذه الأمور، خاصة مع وجود الفضوليين [من المراقبين] الذين يتفحصون رسائلنا». واستطرد يقول: «من الواضح أنك اضطررت لاحتمال الكثير من المشاكل والصراعات الداخلية». ولكنه أكد أن:

«هذه الصراعات لا بد من مواجهتها دون انتظار مساعدة من أحد. فليس بمقدور أحد أن يساعدك، وبالطبع ليس بمقدوري أنا ذلك، مهما حاولت ... فأنا لا أعرف حتى كيف تفكرين، مع أنني قد أستطيع أن أحاول التخمين في بعض الأحيان. لقد كنت على حق إذ أخبرتني ذات مرة بمدى جهلي بك. هذا صحيح تمامًا ... فقد صار جهل أحدنا بالآخر يتزايد باطراد، وحتى حب كل منا للآخر لم يثمر أي تفاهم. كم أنت غريبة عني، ولعلك أنت أيضًا لا تعرفين الكثير عني.»<sup>37</sup>

في أبريل عام ١٩٤٠ غزت ألمانيا الدنمارك والنرويج، وفي ١٠ مايو — في اليوم نفسه الذي حل فيه ونستون تشرشل محل نيفيل تشمبرلين في رئاسة وزراء إنجلترا — اجتاحت ألمانيا هولندا وبلجيكا ولوكسمبورج. وبالتالي صارت معابر البحر المتوسط مغلقة، واضطرت السفن في الهند إلى السفر إلى أوروبا عبر طريق رأس الرجاء الصالح. ويعني هذا أن البريد سيصل على نحو أبطأ وأقل انتظامًا. فكتب نهرو إلى إنديرا: «الحواجز بيننا تتزايد، وهذا العالم الصغير الضيق الذي انكمش بفضل الطيران ونحوه وصار الوصول إلى جميع ربوعه سهلًا ... ترامت أطرافه من جديد ... ليعبدك أكثر عني.» فكتبت إنديرا إلى أبيها في العاشر من مايو «رسالة طمأنة قصيرة عاجلة»، مع أنها كانت تعلم: «ستفقد هذه الرسالة مغزاها وقت وصولها إليك.» تقول إنديرا في هذه الرسالة: «لا تقلق عليّ يا حبيبي.» لكنها أضافت أن مدينتي سويسريتين قد تعرضتا للقذف بالقنابل صباح ذلك اليوم، وفي هذا قالت: «يقال إنه كان خطأ غير مقصود.»<sup>38</sup>

وبعدها بأسبوع كتبت إنديرا من جديد إلى أبيها تقول: «لا ينشغل بالك ولا تقلق عليّ ... سأكون بخير حال. وأضافت ما يدل على دقة معرفتها بذاتها: «فأنا لا أتجلد إلا في وقت الأزمات.» ثم أطلعت إنديرا أباه على خطتها. فذكرت أنها «ما لم، وحتى تشترك سويسرا في الحرب» ستمكث في ليسين. فإن حدث واشتركت سويسرا في الحرب فسيتعين عليها — حسبما قيل لها — أن تغادر ككل الأجانب. كانت قد اتصلت بالقنصل البريطاني لترتيب الحصول على تأشيرة للعبور عبر فرنسا، حتى إذا ما اضطرت لمغادرة سويسرا اتجهت مباشرة إلى إنجلترا، وحاولت ركوب إحدى السفن المتجهة للهند «عبر طريق رأس الرجاء الصالح طبعًا». لكن ما كان يقلق إنديرا «بعض الشيء» هو أنها قد تستنفد أموالها ولا تقدر على دفع آخر فواتير علاجها في لي فرين. كانت قد كاتبت كريشنا مينون تخبره بالأمر، وهو الذي كان يواظب على إرسال المال إليها من لندن، لكن في حال ما إذا اضطرت

لمغادرة سويسرا قبل أن يتمكن كريشنا من إرسال المال، فستلجأ إلى الاقتراض للذهاب إلى إنجلترا.<sup>39</sup>

استشرت الحرب كالنار في الهشيم، وصارت الآن تهدد الحدود السويسرية. ففي أواخر مايو بدأ إخلاء القوات البريطانية لميناء دونكيرك. وفي ١٤ يونيو سقطت فرنسا في يد الألمان، ثم في ٢٢ من الشهر نفسه وقّع الفرنسيون هدنة مع ألمانيا. وبعدها — على حد قول إنديرا — «صارت الحرب فجأة قاب قوسين أو أدنى من إنجلترا»، وبالفعل بدأت معركة بريطانيا في ١٠ يوليو. وبدا أن اجتياح القوات الألمانية لإنجلترا هي الأخرى لم يكن إلا مسألة وقت. ومع أن الحرب كانت تحاصر إنجلترا من كل جانب فإنديرا كانت متلهفة إلى الذهاب إليها، سواءً بموافقة روليه أو من دونها؛ والسبب هو — كما اعترفت بعدها بزمان طويل — «أن فيروز كان وقتها في لندن التي كانت تتعرض يومياً لقذف القنابل، وقد شعرت بأنني يجب أن أكون إلى جانبه».<sup>40</sup>

وفي شهري يونيو ويوليو من عام ١٩٤٠، توقفت الاتصالات البريدية تمامًا، فبعثت إنديرا خلال هذه المدة برقيتين مشفرتين لنهره تقول له في إحداهما: «لا تقلق، أنا على ما يرام»، وفي الأخرى: «أنا بخير». وحينما تسنى لها أخيراً أن ترسل له خطاباً في نهاية يوليو كتبت تصف له مدى تسمم الجو العام في لي فرين وقتها. فنقول: «في لي فرين، تشاجر اثنان من الإسبان من أجل فرانكو، وصرخ اثنان من الفرنسيين مطالبين بالديكتاتورية العسكرية، حتى قبل أن يؤلف بيتان (رئيس الحكومة التعاونية الفيشية) حكومته ... وبالغت أسرة روليه في مديح الإمبريالية، الفرنسية والإنجليزية. فكانت النتيجة أنني لم أعد قادرة على التفوه بأي كلمة عن أي موضوع». في الواقع كانت إنديرا تجد الجو العام في المصحّة لا يطاق، حتى إنها أوشكت على مغادرتها حالما افتُتح طريق عبر البرتغال إلى لندن. لكنها لم تفعل، وبررت ذلك بقولها: «كنت أخشى المرض من جديد ... حتى إنني لم أرغب حتى في المخاطرة. لذا، ها أنا ذا (في ليسين)».<sup>41</sup>

استغرق هذا الخطاب ثلاثة أشهر ليصل إلى نهره في الهند، وأثناء هذه المدة لم تتسلم إنديرا رسالة واحدة من نهره. نظرياً كانت الاتصالات البريدية قد عادت إلى العمل، لكن العديد من الرسائل قد تأخر أو ضاع. وفي ١٠ من سبتمبر أوبرق نهره لإنديرا قائلاً: «لا تردني أي رسائل. الوضع هنا [في الهند] يتفاقم بسرعة ويقترب من مرحلة الأزمة. من المحتمل أن أستاذ قريلاً رحلتي القديمة (في السجون)».<sup>42</sup> لكن اعتقاله كان بعد شهر، حيث قبض عليه في ٣١ أكتوبر عام ١٩٤٠ بتهمة إلقاء خطب تحريضية. وتمت محاكمته سريعاً وحُكم عليه للمرة الثامنة بالسجن لأربع سنوات في سجن جوراكبور.

وبالمثل شعرت إنديرا في مصحة لي فرين بأنها حبيسة، وأرادت الخروج منها بشدة. وفي نهاية أكتوبر وجدت في نفسها القوة الكافية لتعلن للطبيب رولييه عزمها على مغادرة لي فرين خلافاً لنصيحة الأطباء. كان كريشنا مينون قد أرسل إليها بعض المال، فدفعت فاتورة علاجها، وفرت بسرعة إلى مدرسة ميل هيمرلين بلا بيلوز في بيكس. وهناك بذلت إنديرا جهوداً خارقة للوصول إلى إنجلترا قبل إغلاق حدودها. كان الطريق الوحيد الآمن لإنجلترا يمر عبر فرنسا وإسبانيا والبرتغال. وكانت تحتاج إلى تأشيرات عبور لكل هذه الدول. وكان يتعين عليها أن تشتري تذكرة طيران من لشبونة إلى إنجلترا. انتظرت إنديرا تأشيرة البرتغال لأسابيع في بيكس. وهناك كانت الكهرباء تنقطع ليلاً من العاشرة إلى السابعة صباح اليوم التالي، وكان الطعام والملبس مقننين.

وبنهاية نوفمبر كانت كل أوراق سفر إنديرا جاهزة أخيراً، فاستقلت حافلة من جنيف سارت عبر فرنسا إلى الحدود الإسبانية، ثم إلى برشلونة. وهناك أمضت الليل ثم استقلت طائرة إلى لشبونة، وعندما وصلت إلى مطار لشبونة في اليوم التالي احتُجزت لنصف ساعة كانت — على حد قول إنديرا — «سيئة إلى أقصى حد»، لأن أحد ضباط الشرطة «قال بمجرد إلقاء نظرة على صورة جواز مروري ... إنني لست صاحبة الصورة، وبالتالي لا يعقل أن يكون ذلك جواز سفري»، وهذا دليل على الأرجح على التغير الكبير الذي طرأ على شكلها منذ إصابتها. ظلت قرابة شهرين حبيسة في لشبونة تنتظر رحلة إلى إنجلترا. وفي رسالتها إلى نهر — الذي كان قد نقل إلى سجن دهرادون — تقول: «البرتغاليون في غاية الفقر والقدارة. يسير الكثير من النساء والأطفال حفاة الأقدام، ويكثر الشحاذون. ويبصق الناس في كل مكان. ويكثر الصياح والباعة الجائلون على نحو مرعب ... يبدو لي كما لو أنني بالهند»<sup>43</sup> وكل يوم كانت إنديرا تقف في طابور أمام أحد مكاتب السفر الجوي لحجز تذكرة إلى إنجلترا، فيطلب منها أن تعود في اليوم التالي. كانت تفكر في تجربة السفر بحرًا، لكن في إنجلترا عارض كل من فيروز وكريشنا مينون والطبيب بهانداري هذه الفكرة، لتعرض الكثير من السفن للغرق. وفي النهاية نجح فيروز في الحصول على تذكرة طيران لها.

وفي يوم رأس السنة عام ١٩٤١ سافرت إنديرا أخيراً بالطائرة من لشبونة إلى بريستول، حيث كان بانتظارها فيروز، الذي لم تكن قد رآته منذ أكثر من عام. وعلى الفور استقلا القطار إلى لندن، ومباشرة قصدا شقة فيروز المكونة من غرفة واحدة بمنطقة سانت

جونز وود. وفي اليوم التالي أرسلت إنديرا لنهر برقية تقول فيها: «وصلت ليلة البارحة. أنا بخير. ليس لدي خطط مؤكدة».<sup>44</sup>

في الواقع كانت إنديرا قد خططت بالفعل لأن تمكث مع فيروز في لندن إلى أن يتمكنوا من الوصول إلى الهند بحرًا. صارت السفن تسافر في قوافل مصاحبة بالحراسة، وظلت معابر البحر المتوسط مغلقة، فكان الحل الوحيد أمام إنديرا للوصول إلى الهند هو المرور عبر جنوب أفريقيا وطريق رأس الرجاء الصالح، وهو الطريق القديم الذي كان يسلكه تجار شركة الهند الشرقية والمبشرون قبل افتتاح قناة السويس. كانت الغواصات الألمانية قد أغرقت الكثير من السفن، ومع ذلك كانت قائمة الانتظار طويلة للحصول على حق مرور.

في صباح الثالث من يناير دق جرس هاتف بي إن هاكسار في شقته بمنطقة بريمرز هيل. فإذا بفيزوز على الهاتف يقول: «إندو هنا! هل يمكنك القدوم والطهو لنا؟» كان هاكسار وقتها قد صار محاميًا تحت التدريب في «لينكولن إن»، لكن أصحابه كانوا يقدرون طهوه الرائع للأطعمة الكشميرية بقدر ما قدروا أفكاره وراديكاليته. كان يعيش على مقربة جدًا من فيروز؛ لذا قصد في المساء شقة فيروز في العقار رقم ٢٠ بشارع أبي رود لإعداد وجبة شهية ودسمة. وهناك وجد إنديرا نحيفة وشاحبة لكن «مشرقة»، يبدو عليها الفرح الغامر لأنها بصحبة فيروز. ولم تحاول إنديرا وفيروز التظاهر بخلاف حقيقة مكان إقامتها أو بشأن ترتيبات مبيتها في شقته الصغيرة التي تملؤها الكتب.<sup>45</sup> بالطبع لم يكن نهر على علم بمكان إقامة إنديرا بلندن. كانت وسيلة الاتصال الوحيدة بينهما تتمثل في برقيات مقتضبة، كان أحدهما يرسلها إلى الآخر كل أسبوعين عبر أجاثا هاريسون. فلعله كان يظن أنها تقيم مع أجاثا أو الطبيب بهانداري.

كانت هذه المدة لإنديرا وفيروز مفعمة بالحماسة والعواطف المتقدة. كان قد مر على خطبتهما سرًا ما يقرب من أربعة أعوام، تخللها الكثير من القلق والفراق. والآن اجتمع شملهما أخيرًا من جديد، وصارا وحدهما بعيدًا عن أسرتهما وأغلب أصدقائهما. وقد زاد من تعلقهما أحدهما بالآخر أنهما اجتمعا في عالم يعيش حرًا. ففي يناير عام ١٩٤١ كانت القنابل لا تزال تمطر لندن. وقد حدث ذات ليلة أن فوجئت إنديرا وفيروز عقب خروجهما من محطة مترو أنفاق بيكاديلي بأن المحطة قد تعرضت للقصف قبل دقائق قليلة.<sup>46</sup> وفي فبراير ازدادت حدة الغارات مع وصول عدد الطائرات الألمانية المهاجمة للمدن البريطانية إلى ٧٠٠ طائرة حربية شنت غارات متزامنة ليلة تلو الأخرى.

كانت الصور التي التقطها فيروز لإنديرا في لندن هي أكثر صورها جمالاً وإفصاحاً. إنها صور حميمية جداً، تفضح علاقة الحب بين ملتقطها ومن التقطت له. فمع هزالها الشديد كانت تبدو أبعد ما يكون عن المرض، بل بدت متوردة. في إحدى الصور كانت تسدد نظرها — على نحو مثير — إلى الكاميرا، مباشرة إلى فيروز الذي كان يلتقط صورتها، في حين أمالت رأسها بعض الشيء، ونظرت بثبات إلى الكاميرا بعينين تشعان دفئاً. كان التحفظ والتردد الباديان جداً عليها في جميع صورها تقريباً وهي شابة والوجه الخالي من التعبير الذي أظهرته في الكثير من صور مرحلة نضجها قد تبددت تماماً في هذه الصور. فلا يمكن لأي شخص يرى هذه الصورة أن يشك في أن العلاقة التي تجمعها بفيزوز علاقة غرامية.

كان غموض عالم فيروز وإنديرا — متعة الحياة على المحك — بمنزلة خلفية مهمة لعلاقتهم. لذا رأت إنديرا أن عليهما الزواج في لندن قبل العودة إلى الهند، وربما كان هذا القرار عائداً جزئياً إلى أنهما كانا يقيمان معاً بالفعل كرجل وزوجته، وإن لم تكن تعباً بالأعراف الاجتماعية. فهي ابنة شهيرة لرجل شهير، ووقتها كان العام ١٩٤١. لم يكن الوضع ملائماً.

بالإضافة إلى ذلك كان في عودتهما إلى الهند وهما متزوجان مزية كبيرة. كان زواجهما سيصبح أمراً واقعاً. فقد علما أن بانتظارهما الكثير من الجدل والمعارضة لو لم يقدموا على هذه الخطوة. ألحت إنديرا بشدة على فيروز لإتمام إجراءات تسجيل الزواج في إنجلترا. لكن فيروز نبهها إلى أنهما سيجرحان نهرو بعمق إن قاما بذلك،<sup>47</sup> وكان هذا سبباً قوياً. أضف إلى ذلك أن نهرو (وغيره) ربما يشكون أن فيروز قد أرغم إنديرا بصورة ما على الزواج منه في إنجلترا خشية أن تتعرض للإثناء عن ذلك في الهند. لكن إنديرا كانت عازمة على المضي في قرارها.

مرضت إنديرا في ذلك الوقت فتعلقت مسألة الزواج. ففي فبراير بدأت تعاني «ارتفاع الحرارة المعتاد وتملكها خوف شديد من عودة ظهور مشكلتها القديمة من جديد».<sup>48</sup> فاستشارت الطبيب بهانداري الذي اكتشف وجود ارتشاح في رتئها. لم يكن هناك أدنى شك في رغبة فيروز الصادقة في الزواج من إنديرا مع ظروف حالتها الصحية غير المستقرة. علم كلاهما أن مرضى السل يُنصَحون بعدم الزواج، النصيحة التي جعلت إنديرا أكثر إصراراً على الزواج. لكن في أوائل مارس ومع استمرار معارضة فيروز لفكرة تسجيل الزواج في لندن تمكنا في آخر لحظة من حجز مضجعين على ظهر إحدى السفن البخارية

المتجهة إلى الهند. وبحلول هذا الوقت كانت حمى إنديرا وأعراض مرضها الأخرى قد زالت إلى حد بعيد، وتحسنت صحتها بدرجة تسمح لها بالسفر.<sup>49</sup> فتأجل الزواج.

في ١٠ مارس أبحر فيروز وإنديرا على ظهر السفينة سيتي أوف باريس، وهي سفينة لنقل الجند تسافر ضمن قافلة طويلة من السفن. خصص قبطان السفينة لإنديرا كابينة لها وحدها؛ لأنها لم تكن قد تعافت تمامًا. لم تتسم الصحة والجو العام على ظهر السفينة بالود. فبالإضافة إلى الجند كان على متن السفينة الحاكم العام للمستعمرات البريطانية في بورما، ومجموعة من مسؤولي الحكومة البريطانية الذين أدانوا القوميين الهنديين، وقد حدثت «مشادات حامية» بين هؤلاء الأشخاص من ناحية وفيروز وإنديرا من ناحية أخرى. ذكرت إنديرا فيما بعد أنها تعرضت هي وفيروز آنذاك «للإذلال طوال طريق العودة إلى الوطن».<sup>50</sup>

وأثناء مرور سفينة إنديرا وفيروز بساحل أفريقيا الغربي كانت تسقط بصفة منتظمة قذائف أعماق أحدثت ضوضاء تصيب بالصمم، و«ترج الكيان كله».<sup>51</sup> وفي ٢٠ مارس عبرت السفينة خط الاستواء. وصار الحر أشد حتى من حر السهول الهندية في فصل الصيف. التزمت السفينة بإطفاء الأنوار طوال الليل. وكان الحر في الكبائن أشبه بحر الموقد لدرجة يتعذر معها المكوث فيها، حتى بعد غروب الشمس، فكانت إنديرا وفيروز يجلسان على سطح السفينة في الظلام يتحدثان حتى يغالبهما النعاس في وقت متأخر في الليل.

وفي نهاية مارس وصلت سفينة فيروز وإنديرا إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ورسد ليوم واحد في مدينة كيب تاون. فنزلت إنديرا وفيروز إلى الشاطئ وزارا البرلمان هناك، حيث التقيا بالجنرال سموتس الذي كان قد صرّح في خطاب مؤخرًا أن لون بشرة الفرد بمنزلة جواز مروره. وبعدها أبحرت سفينة سيتي أوف باريس إلى ديربان، حيث توقفت عن الإبحار لأسبوع.

وفي ديربان عثرت إنديرا بالمصادفة على صوتها السياسي. فهناك رحبت بها الجالية الهندية الكبيرة ترحيبًا حارًا وحماسيًا بصفتها ابنة نهر، وأقامت على شرفها حفل استقبال رسمي، طُلب إليها أن تلقي كلمة فيه. ولأنها كانت تذكر أدائها الكارثي في لندن رفضت الحديث، غير أنها وافقت على الجلوس على المنصة. وحتى ذلك الحين نزلت إنديرا في غرفة بأحد الفنادق استُؤجرت لها هي وفيروز لتغتسل قبل التجول في ديربان. فدق



أحد الحمالين في الفندق باب غرفتهما ليعلمهما بقدوم زائر. طلبت إنديرا إبلاغ الزائر بأن يلقيهما في استراحة الفندق، فرد الحمال بلا تحرج بأن هذا الأمر غير ممكن لأن الزائر هندي. كانت إنديرا وفيروز فاتحي البشارة، وكانا بالطبع ما زالا مرتدين ثيابهما الإنجليزية، فسألته إنديرا في غلظة: «وماذا تحسبنا؟» فقال الحمال «إنه لا يهتم بجنسيتنا ... لأننا لا نبدو هنديين، لذا فلا بأس».<sup>52</sup> فغادرت إنديرا وفيروز الفندق على الفور.

وأثناء تجوال إنديرا وفيروز في ديربان هالتهما الظروف المعيشية البائسة التي شاهداها في أحياء الأقليات السوداء المعزولة القذرة. كانت في سوء أحياء الفقراء في كلكتا وبومباي، كما أنها لم تكن مبنية على أساس من التمييز العنصري فقط بل التمييز ضد الفقراء أيضًا. وفي مساء ذات اليوم عندما وصلت إنديرا إلى قاعة السينما المقام فيها حفل الاستقبال على شرفها كانت تستشيط غضبًا مما قد رأياه مبكرًا في ذلك اليوم. تقبلت في برود تحيات الانحناء وأكاليل الزهور من مجموعة الهنود الأفارقة، ولدهشة الجميع أصرت على عكس المتوقع على إلقاء كلمة.

بدلاً من التعبير عن امتنانها لكلمة رئيس المجلس المرحبة بها تحدثت إنديرا بانفعال عن اضطهاد جنوب أفريقيا البيضاء للسود، الذي شبهته باضطهاد هتلر لليهود. وقالت: «قد لا يحدث الأمر اليوم، وقد تمر عشرة أو عشرون عامًا، لكنهم [الأفارقة السود] في النهاية هم من سيحكمون هذا البلد.» وذهبت في حديثها إلى إدانة خنوع الهنود للبيض بجنوب أفريقيا، ولا مبالاتهم بمحنة الغالبية السوداء. لم تكن هذه هي الكلمة التي توقعها الجمهور، لذا حين فرغت إنديرا من خطابها بدلاً من التصفيق ساد القاعة صمت ممتزج بالذهول. وطوال الأيام الباقية التي أمضتها إنديرا وفيروز في ديربان تحاشت هما الجالية الهندية هناك.<sup>53</sup>

كان خطاب إنديرا في ديربان هو أول عمل سياسي تقدم عليه بنفسها ودون إعداد مسبق. ولدهشة الجميع وفي ذلك إنديرا نفسها كشف هذا الموقف عن قوة كامنة وجرأة بداخلها. ثبت أن إنديرا كانت بالفعل كما وصفتها كريستين تولر قبل ثلاثة أعوام في لندن قائلة: «لا أظنها تخشى الرياح.» ومنذ ذلك الحين صارت إنديرا لا تتردد إن كان لديها ما تقوله. فإن حرك مشاعرها أمر ما خرجت منها الكلمات انفعالية وفصيحة أحيانًا.

ومن مدينة ديربان أبحر فيروز وإنديرا بالباخرة شمالاً باتجاه المحيط الهندي، مرورًا بمدغشقر وجزر سيشيل إلى بحر العرب، وفي ١٦ أبريل عام ١٩٤١ وصلا أخيرًا إلى بومباي. وهذه المرة كانت إنديرا عازمة على البقاء في الهند. فقد كانت لا تزال شابة تعيش قصة حب، على وشك أن تكتسب هوية جديدة؛ إنديرا غاندي.



الجزء الثاني

## إنديرا غاندي

«لم يكن في تاريخ السياسة الهندية ما هو أبعد عن التوقعات من صعود إنديرا غاندي إلى قمة السلطة. لكن كما يحدث كثيرًا في التاريخ، ما إن تحقق حتى كان أوقع ما يكون. فكان أهم وأبقى الأحداث في ذاكرة التاريخ الهندي المعاصر.»

سوديبتا كافيراج

«إنديرا غاندي والسياسة الهندية»



## الفصل التاسع

### لا حياة عادية وسخيفة ومملة

ما إن وصلت إنديرا إلى بومباي حتى تسلمت تلغرافاً من المهاتما غاندي يطلب منها أن تحضر فوراً للقاءه في مقر إقامته المعروف باسم «سيفاجرام أشرم» بالقرب من منطقة وردها. كان غاندي يعامل أفراد عائلة نهرو منذ زمن بعيد وكأنهم أفراد عائلته. ولم يكن قد قابل إنديرا منذ آخر مرة كانت فيها في الهند؛ أي منذ عامين. أما وقد عادت فقد أراد معاينتها وتقييم حالتها الصحية بنفسه. غير أن إنديرا رفضت الامتثال لطلبه، وأعلنت أنها ستذهب أولاً مع فيروز إلى مدينة الله آباد. ثم ستزور غاندي فيما بعد، لكن عندئذ وصلتها رسالة من أبيها يحثها فيها على الذهاب إلى بابو. فذهبت.

كان اجتماع شمل إنديرا وغاندي في سهول الهند الوسطى الجافة التي ضربها الفقر المدقع محرّجاً؛ إذ اندفعت إنديرا إلى داخل صومعة غاندي البسيطة وهي ترتدي ثوباً من الحرير وتضع أحمر شفاه. فأخبرها «الروح العظيمة» بأن ترتدي ثوب الخادي وتغسل وجهها. وجدت إنديرا الجو العام في سيفاجرام مشحوناً بالتملق و«الشجارات التافهة». كان مريدو غاندي يتشاجرون حول من سيقدم له الطعام، أو يحلب ماعزه، أو يحمل أوراقه، أو يكتب ما يمليه. ذات يوم أخذت السماء تمطر فجأة فهرعت إنديرا للخارج لجمع الملابس المغسولة، فوبخها أحد رجال الأشرم لأنها لمست ثياب غاندي. فمع أن غاندي نفسه — على حد تعبير إنديرا — لم يتغير بتاتاً، فكان يحيطه مجتمع من التابعين المتملقين، مجتمع سعدت إنديرا بتركه عندما غادرت بعدها بيومين إلى الله آباد.<sup>1</sup>

حظيت عودة إنديرا إلى الهند بتغطية صحفية واسعة. فعندما وصلت إلى الله آباد أجرت عدة مقابلات صحفية مع جريدة «ناشيونال هيرالد» التي يقع مقرها في لكناو، والتي أسسها نهرو عام ١٩٣٧، وأعيد نشر هذه المقابلات في الصحف القومية. وبذا قبل

أن تزور إنديرا أباهما في سجن ديहरادون علم هذا الأخير — الذي كان يُسمح له بقراءة الصحف في فترة سجنه — أن ابنته لا تزال ضعيفة و«أفقر ما تكون إلى الصحة».<sup>2</sup>

وفي ٢٧ أبريل عام ١٩٤١ التقت إنديرا ونهرو في غرفة المقابلات الصغيرة بسجن ديهرادون حيث تابعتهم عينا حارس السجن اليقظتين. كانت آخر مرة رأى أحدهما الآخر فيها عندما أبحرت إنديرا إلى إنجلترا عام ١٩٣٩. وكانت الهوة بينهما قد اتسعت أكثر من أي وقت مضى، وكاد ردم هذه الهوة يصبح مستحيلاً عندما قالت إنديرا لأبيها إنها تنوي الزواج من فيروز بأسرع وقت ممكن. وفي مذكراته بالسجن يذكر نهرو مدى الضعف الذي بدت عليه إنديرا، ومدى قلقه «على مستقبلها»، غير أنه وصف ما حدث أثناء مقابلاتهما على نحو ملغز وغامض، فيقول: «بعيداً عن المشكلات الصحية ظهرت مشكلات أخرى. كنت سعيداً جداً برؤيتها، ومع هذا انشغل عقلي بتلك المشكلات ... لم تكن مشكلات يسهل حلها. كان لديها الإصرار والاعتماد على الذات، وهو أمر جيد. لكنها ما زالت ... غير ناضجة ... ومع هذا فلا بد أن لها خبرات ... بعد أن تركتني، انشغل عقلي بالتفكير فيها، وفي تصارييف الحياة الغربية.» وبعدها بعشرة أيام كتب نهرو في مذكراته: «كنت مشوش العقل ومضطرب البال، أفكر دائماً وأتأمل في مسائل شتى تدور بالدرجة الأولى حول إندو. كانت ليالٍ مؤرقة».<sup>3</sup>

بعد لقائهما في أواخر أبريل ظلت إنديرا بمنأى عن أبيها لقرابة شهر، كاتبت فيه لمرة واحدة فقط لتخبره بأنها لن تزوره في القريب «لأن الحر يرهقني تماماً، والرحلة إلى سجن ديهرادون طويلة وشاقة جداً».<sup>4</sup> وأخيراً، في نهاية مايو، بعثت إنديرا إلى أبيها رسالة وصفها بأنها «غاضبة وثائرة»، وهو ما دفعه إلى كتابة السطور الآتية التي تعبر عن ألمه في مذكراته في السجن، فيقول: «لا أستطيع حتى كسب ثقة ابنتي! ... لقد ركنت إلى ذاتها؛ أبعدتها هذه العشرة الأعوام الأخيرة عني، وإلى الآن ينظر أحدنا إلى الآخر كغريبين ... ما الحل؟ ما الحل؟»<sup>5</sup>

لماذا أزعج احتمال زواج إنديرا وفيروز نهرو إلى هذا الحد؟ يحتمل طبعاً أنه فكر في مدى قوة الأسباب التي تمنع هذا الزواج، سواء من الناحية العائلية أو الاجتماعية أو حتى السياسية. وكان إلى حد ما، يتفق مع هذه الأسباب؛ فمع إيمانه بالمساواة رأى أن فيروز لا يناسب إنديرا. ولم يهتم كثيراً بأن فيروز لم يكن كشميرياً أو حتى هندوسياً. فعلى سبيل المثال كان رانجيت زوج فيجايا لأكشميي بانديت من ماهاراشترا، وراجا زوج كريشنا هائيسينج كان جوجاراتياً، ومع هذا لم يعارض نهرو زواج هذين من أخته. لكن رانجيت بانديت وراجا هائيسينج كانا قد تعلموا في جامعة أكسفورد، وكانا رجلين

محنكين من أسرتين غنيتين. كان بانديت محامياً وعالمًا بارزًا في اللغة السنسكريتية أيضًا، ومن ناحية أخرى كان هاثيسينج محامياً ناجحًا. فبانديت وهاثيسينج كانا يبدوان بلا شك رجلين أرستقراطيين على الطريقة الإنجليزية.

أما فيروز فلم يكن ينتمي إلى أسر أو طبقات كريمة المحتد، ولم يكن له صلات أو معارف كتلك التي كان نهرو يقدرها، لم ينل فيروز شهادة جامعية، ولم يكن له وظيفة أو مصدر دخل ثابت. كان يعرف الكثير عن الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية والفن، ومن المرجح أنه تناول كتابات ماركس وغيره من واضعي النظريات الشيوعية بالتمحيص أكثر من نهرو. لكن شخصيته على النقيض تمامًا من شخصية نهرو. فهو صاحب وجامح ويكثر من السباب. أما نهرو، فعذب الكلام ورقيق لا يسب حتى لو أغضب. هذا بالإضافة إلى أن نهرو يرفض مثل الكثير من الآباء فكرة فقد ابنته، والشعور بأن أحدًا قد حل محله. ومما كان يمنع هذا الزواج أيضًا مسألة استمرار ضعف صحة إنديرا، وعدم استحسان فكرة الزواج والإنجاب لها من الناحية الطبية. وأخيرًا كان نهرو يذكر في ألم خوف كامالا وهي على فراش الموت من أن ترتكب إنديرا «خطأ حياتها» بالزواج من فيروز. كانت كامالا ترى أن فيروز غير مستقر وغير جدير بالثقة. وحتى إن كان نهرو قد صرف عن ذهنه فكرة إقامة كامالا علاقة مع فيروز، فمن المحتمل أن يكون قد طرأ على ذهنه أن فيروز قد تصرف تجاه كامالا على نحو يعوزه اللياقة.

وفي هذه المرحلة الحاسمة حاول فيروز نفسه التحدث إلى نهرو. فقطع الطريق إلى سجن ديहरادون مع ابن عم كامالا، الطبيب مادان أتال. لكن عندما قدم نفسه في السجن رفض مسئولو السجن السماح له بمقابلة نهرو لأنه لم يكن من أقاربه. غير أنه سمح لمادان أتال بالدخول بصفته مستشار إنديرا الطبي. كانت إنديرا قد بدأت لتوها علاجًا بالحقن، وأراد مادان أن يحدث نهرو عن «العلاج والنظام الذي ستتبعه». كان كل ما استطاع فيروز عمله هو أن أرسل عندما عاد إلى الله آباء قفصًا من مانجو الألفونسو إلى نهرو يسترضيه به.

وحتى تهرب إنديرا من حر السهول الشديد ذهبت في مايو إلى موسوري حيث استأجرت كوخًا من غرفتين «بحمامين صغيرين للغاية» لستة شهور. وفي نهاية ذلك الشهر زارت أباها ثانية في السجن. ووفقًا لنهرو جرت بينهما «مقابلة طويلة»، قال نهرو عنها: «بدا فيه أننا نقرب أحدنا من الآخر»<sup>6</sup> تصالحا بصورة ما، ولكن لم تطرأ أي تغيرات جذرية

على مواقفهما. كانت إنديرا مصممة أكثر من أي وقت مضى على الزواج من فيروز. ووقتها — مثلما كانت حالها طوال حياتها — كانت الاعتراضات والعقبات لا تزيدها إلا عزمًا على ما تريد.

كانت إنديرا تريد طمأنة أبيها مع إيضاح موقفها الذي لا يقبل التفاوض. ولكن كما في الماضي، اختارت القيام بهذا الأمر عن طريق الخطابات بدلاً من المواجهة الشخصية. فكتبت إلى نهرو من موسوري تقول: «حبيبي، لقد صدمت تمامًا حينما رأيت مدى التغير الذي طرأ عليك منذ رأيك آخر مرة. يجب ألا تسمح لهذه المسائل بإحباطك.» ثم ذهبت إلى التأكيد على أنه لا يوجد ما يستحق القلق. بل على العكس تقول:

«يتنامى داخلي إحساس بهنأة البال، لا يقدر أحد أو شيء على أن يفسده عليّ أو يسلبه مني ... يمضي أغلب الناس حياتهم في انتظار السعادة، ولكن كأسها دائماً ما تبدو لهم بعيدة قليلاً عن متناولهم. ولا يملكون الشجاعة لد أيديهم للإمسك بها. أما أنا فأمسكها بكلتا يدي ونهلت منها، وتشربت بها كل خلايا عقلي وجسدي، وغمرتني بإحساس بالدفع والسكينة. إنني أنعم بالسعادة الآن وسأنعم بها إلى الأبد.»

تجاهلت إنديرا رد نهرو عليها عندما كتب لها يقول: «السعادة هي بالأحرى شيء سريع الزوال، بل لعل الشعور بالإشباع أبقي منها.»<sup>7</sup>

وبعدها ثمة شيء ما أضعف ثقة إنديرا القوية وإيمانها بأنها يجب أن تكون من يرسم مستقبلها، وفي ذلك قرارها بالزواج من فيروز. غير أن طبيعة هذا الشيء ليست واضحة بالضبط، ففي الثاني من يونيو كاتبت نهرو من جديد، ولكنها كتبت له هذه المرة وهي «بين رحي الأسى والندم». فكانت لهجتها «أبعد ما يمكن عن لهجة فرض ما سيكون». وقالت إن نصيحة نهرو هي أقوى ما تركز إليه، فتقول: «كم أحتاجك، كم أنا ضالة تمامًا من دونك. لقد كنت في شدة الغطرسة والغباء. حاولت أن أشق طريقي بنفسي وأنا لا أعلم كيف أخطو.» وفي نهاية الخطاب أفضت إنديرا إلى نهرو بمكنون قلبها كما لم تفعل من قبل، لتكشف أثناء ذلك عن الصعوبات التي عانتها لأنها ابنة رجل عظيم. فتقول: «يبدو أنني قد بدأت أبصر أوجه جمالك وثرائك. في الماضي كان يصعب ... الاقتراب منك؛ إذ كنت دائم الانشغال بعملك ... وكنت أهابك جدًّا، فقد كنت تبدو لي شامخًا. أشعر بالضالة الشديدة في وجودك، وأعتقد أنني كرهت هذا الإحساس لا شعوريًا.»<sup>8</sup>



كان بإمكان هذه الرسالة التي تخلت فيها إنديرا عن تحفظها وأفضت فيها بما يعكس فهمها الصادق لذاتها أن تعيد الحميمة والدفاء إلى العلاقة التي كانت موجودة في السابق بين الأب وابنته. فقد فتحت إنديرا بابًا كان موصدًا من قبل، لكن لسبب ما خشي نهرو الدخول من هذا الباب. وبالتالي صارت إنديرا تبقي شكوكها بشأن زواجها من فيروز لنفسها. وقد تكون أدركت، حتى في ذلك الوقت المبكر من علاقتها بفيروز، أنه سيكون عليهما أن يواجهها معًا الكثير من الصعاب. وبعدها بعدة أعوام، في مقابلة مع الصحفية الإيطالية أوريانا فاللاتشي، كانت إنديرا صريحة على غير العادة في حديثها عن زواجها. قالت إنديرا لفاللاتشي: «تشاجرنا كثيرًا. هذا صحيح. فنحن من طبيعتين متكافئتين في القوة، على ذات الدرجة من العناد، ولم يُرد أينا أن يستسلم للآخر. ويطيب لي النظر إلى هذه الشجارات باعتبارها ... جعلت حياتنا مثيرة، صحيح أننا كنا سنحظى بحياة عادية دونها، لكنها كانت ستكون حياة سخيفة ومملة. ولم نكن نستحق حياة كهذه.»<sup>9</sup>

في يونيو ذهبت إنديرا إلى كالكتا لثلاثة أسابيع مع مادان أتا ل تخضع لـ «فحص دقيق شامل» على يد الاختصاصيين الطبيين هناك، وفيهم الطبيب بيدهان شاندر روي، الذي كان قائدًا في حزب المؤتمر وطبيبًا بارزًا. وحينما عادت إلى موسوري قدمت راجباتي كاول، جدتها لأمها، من دلهي للمكوث معها. اعترفت إنديرا لجدتها أنها ترغب في الزواج من فيروز، ولدهشتها لم تبد جدتها أي اعتراض. فمع أن الجدة أما — كما كانت إنديرا تدعوها — كانت هندوسية ملتزمة فقد قالت كما يأتي على لسان إنديرا فيما بعد: «بما أن فيروز وأنا لا نولي أهمية للدين فقد رأيت أن ديانتيانا ليستا مهمتين. أما إذا كنا متدينين فقد يكون للدين أهمية، وبما أن الحال ليست كذلك فليس له أهمية.»<sup>10</sup>

وفي ٦ يوليو زارت إنديرا والدها من جديد في سجن ديهارا دون، وفي اليوم التالي كتب نهرو إليها خطابًا طويلًا مليئًا بالنصائح التي كانت قد طلبتها منه الشهر السابق لكن لم تعد بحاجة إليها. بدأ نهرو الخطاب بقول فيهطمأنة لها: «لن أقف في وجه ما تختارينه لنفسك بأي وجه ... زواجك ... لن يكون إلا باختيارك.» لكنه انتقل بعدها إلى عرض ما قال إنه كان قد خططه لها منذ زمن. ذكر أنه كان يأمل أن تسافر إنديرا بعد الجامعة وتتعلم لغات أخرى:

«بعد أن تحصلي على التدريب العقلي وتتسع ثقافتك كنت أتوقع أن تعودني إلى الهند وتستكشفي أكثر الدول إندهالًا؛ الهند. وفي هذه المهمة أردت أن أساعدك

شخصيًا، وكنت أتوقع أن تساعدني أنت أيضًا إلى حد ما. فلا يوجد في الهند إلا القليلون جدًا — على حد اعتقادي — ممن يقدرّون على تقديم إسهامات مؤثرة، ليس في الحياة العامة فقط، بل في أي نشاط تقريبيًا ... أفضل مما أستطيع أنا. لقد رغب المئات، بل الآلاف، من الفتية والفتيات في الاشتغال بالسكرتارية لديّ أو في الحصول بطريقة ما على هذا التدريب. ومع هذا فلم أشجع أحدًا قط على هذا وتحملت أعبائي وحدي لأنني كنت أتصور دائمًا أنك ستكونين من سيحتل هذا المنصب. وإلى أن تقبلي عليه فسيكون عليّ أن أتركه خاويًا. فليس لأحد أن يأخذ مكانك. ولأن هذه الفكرة ظلت دومًا مسيطرة على عقلي كنت أكتب لك أكوامًا وأكوامًا من الخطابات عن التاريخ وغيره. أردت بهدوء وشيئًا فشيئًا، لكن بحزم، أن أضمن إعداد عقلك للفهم الشامل للحياة والأحداث؛ هذا الفهم الضروري لكل من يضطلع بمسؤولية كبيرة. وبالطبع لم أكن أنظر إليك على أنك سكرتيرة أو تابعة لي طوال الوقت. كان هذا ليصير تصرفًا في غاية الأنانية مني. كنت أعلم أنك ستتزوجين يومًا، فأردت لك أن تضطلعي بهذا المنصب، ثم تمضي في حياتك الخاصة. ما أردت إلا أن أمنحك تدريبًا خاصًا سينفك نفعًا كبيرًا فيما بعد. كان تدريبًا يتوق الكثيرون إليه بشدة لكن دون أن ينالوه.»<sup>11</sup>

لكن بعدئذٍ استطرد نهرو في الخطاب: «يبدو أننا مختلفان تمامًا في تقدير أهمية الأشياء. وهو أمر مؤلم.» ثم عاد إلى عزم إنديرا على الزواج بأسرع وقت ممكن. كان لديه شعور قوي بأن عليها أن تتمهل قبل الإقدام على الزواج، ولإقناعها بأن هذا هو الأصلح أثار نقطة مرضها. كذلك كان واضحًا أنه يشعر أن زواجها سيقطع الطريق على تجارب أخرى قيّمة: «الزواج أمر مهم في الحياة. فهو قد يبني حياة المرء أو يهدمها. ومع هذا فالزواج ما هو إلا جزء صغير من الحياة. فالحياة أكبر بكثير ... إن صحتك في الوقت الحالي تشير إلى ... أن عليك اجتناب الزواج لبعض الوقت، على الأقل لبضعة شهور ... فإن العودة من أوروبا بصحة ضعيفة ثم الزواج فجأة ينمان عن ضرب من العجلة التي تنافي التفكير السليم.»

وفي النهاية أخبر نهرو إنديرا بأنه كان يريد منها أن تناقش هذه المسألة مع آخرين، ومنهم والدته كامالا راجباتي كاول وغاندي ونان بانديت وكريشنا هاتيسينج، وغيرهم من أفراد العائلة الراشدين، الذين رأى أنهم سيؤيدون رأيه. وقال لها: «تجنبي ... قدر الإمكان الانشاقاق عن معارفك القدامى وتقاليديك. فأنت لا تعرفين كيف سيكون الجدد،

وثمة احتمال كبير أن تجدي نفسك وحيدة. لا أقصد بذلك فيروز، وإنما أقصد المعارف الآخرين، وفيهم عائلة فيروز. بالطبع لا يتزوج المرء عائلة شريك حياته، ومع هذا فلا يمكن تجاهلها، وقد تكون تلك العائلة لطيفة أو غير لطيفة. أنا لا أعرف شيئاً عن عائلة فيروز أو المعارف الآخرين.<sup>12</sup> كانت رسائل نهرو الطويلة والتنقل بين كل أنحاء الهند لاستشارة أفراد الأسرة واحتمال معارضتهم هي تحديداً السبب الذي جعل إنديرا ترغب في الزواج في لندن.

في أغسطس جاءت كريشنا هاثيسينج وولداها للمكوث لدى إنديرا بموسوري. وفي السابع من الشهر نفسه زارت إنديرا نهرو ثانية، وكانت تود أن تخبره أن حالتها المزاجية لا تسمح بالخوض في مسألة الزواج من فيروز مع عمتها، لكن أثناء لقائهما سمعا عبر راديو حارس السجن أن رابيندرانات طاغور قد مات، فأمضيا بقية الوقت في الحديث عن طاغور «المعلم الأعظم». وعادت كريشنا هاثيسينج إلى بومباي في أكتوبر دون أن تعرف شيئاً عن نية إنديرا في مسألة زواجها.

ظلت إنديرا في موسوري إلى آخر نوفمبر. ووفقاً لمذكرات نهرو لم تكن بحال جيدة، فكانت تبدو «معتلة الصحة وضعيفة». ولكنها لم تكن في عجلة من أمرها للعودة إلى آناند بهافان لأن نان بانديت وأسرتها كانوا وقتها يقيمون هناك. كتب نهرو في مذكراته كيف أن إنديرا عارضت خطة عمتها لإقامة حفل عيد ميلاد لها، وكيف أنها «تريد بالكاد أن تمكث في آناند بهافان، فجل ما تريده من هناك هو أن تجمع ثيابها وما إلى ذلك لتذهب إلى واردا ثم بومباي. أو أي مكان آخر غير آناند بهافان».<sup>13</sup> فبالنسبة لإنديرا، لم تكن جراح الماضي تندمل قط، إضافة إلى أنها لم تكن لتنسى أو تصفى سريرتها تجاه أحد. فحتى بعد مضي ما يقرب من ستة أعوام على وفاة كامالا، ومرور أكثر من عقد على يوم أن سخرت نان بانديت من كامالا ووصفت إنديرا بأنها «دميمة وغبية»، ظلت إنديرا على عدائها لنان بانديت، رافضة أن تغفر لها.

عندما عادت إنديرا إلى الله آباد من موسوري في نوفمبر عكفت على تنفيذ نصيحة والدها بالتماس آراء العائلة والأصدقاء، وهي مصممة طوال الوقت على المضي فيما تريد. فأولاً ذهبت لرؤية غاندي من جديد في سيفاجرام. وكان هذا اللقاء محرّجاً كسابقه. فمثل نهرو نصحها غاندي ألا تتعجل الزواج، وهو غير معتاد أن يأنف أحد من اتباع نصيحته. لكن إنديرا ظلت على عنادها، فسألها غاندي عن حقيقة مشاعرها الجنسية تجاه فيروز، وأكد لها أن الانجذاب الجنسي ليس أساساً للزواج. وعندما أكدت له إنديرا

أن حبها لفيروز أعمق من ذلك بكثير، اقترح غاندي عليها أن تتعهد هي وفيروز باتباع فلسفة البراهماشاريا الزوجية (النذر بالعفة)، والإمسك عن ممارسة الجنس بعد الزواج. فرفضت إنديرا — التي أغضبته هذه النقطة — رفضاً باتاً قائلة: «يمكنك أن تطلب من اثنين ألا يتزوجا ... لكن إذا تزوجا، فمن غير المنطقي أن تطلب منهما الإمساك عن ممارسة الجنس، فهذا سيتسبب في المرارة والتعاسة.»<sup>14</sup>

ما إن اقتنع غاندي بأن إنديرا لن يثنى شيء عن موقفها حتى وافق على زواجها من فيروز، غير أنه أصر على مناقشة أمر الزواج مع فيروز أيضاً الذي أكد له أنه لن يتزوج هو وإنديرا إلا بموافقة نهر. <sup>15</sup> وفوق ذلك أصر غاندي على أنه إن أصبح الزواج حقيقة واقعة، فعليهما ألا يقيما حفل زفاف صغيراً وبسيطاً كما خططا؛ إذ قال لهما: «ستكون هناك معارضة لهذا الزواج، فإن تم في هدوء فسيقول الناس إنه تم دون موافقة العائلة ... لذا عليكما بدعوة الناس.»<sup>16</sup> وحتماً كان زفاف ابنة جواهرلال نهر ليكون حدثاً مهماً على المستوى القومي، لا بد أن يُحتفل به علناً.

بعد أن حظيت إنديرا بموافقة غاندي ذهبت إلى بومباي للقاء عمته كريشنا هاثيسينج، وأفضت لها أخيراً بمسألة زواجها من فيروز. وكما هو متوقع حثتها كريشنا على أن تتحمل في قرارها، وأن تلتقي بالمزيد من الرجال قبل أن تستقر مع فيروز، ونصحتها أيضاً بأن تحاول الزواج من شخص من خلفية مماثلة. مع أنها هي نفسها تزوجت من شخص يدين بالجينية — من خارج طائفة الكشميريين البراهمانيين — بعد علاقة غرامية قصيرة. فلم يكن رد إنديرا على اعتراضات عمته كريشنا إلا أن قالت: «ولم عليّ الانتظار؟ لم تستغريقي سوى عشرة أيام لتقرري الزواج من راجا بهاي، وأنا أعرف فيروز منذ سنوات. فلم عليّ الانتظار، ولم عليّ أن ألتقي بمزيد من الرجال؟»<sup>17</sup>

وفي النهاية عادت إنديرا إلى الله آباد لمواجهة خصمها القديمة نان بانديت التي كانت تعدد بدرجة شديدة بعائلتها الأرستقراطية، وتعتبر فيروز بالتأكيد «من العامة». اقترحت نان على إنديرا بأسلوب فج أن تقيم علاقة مع فيروز بدلاً من الزواج منه. أحق هذا الاقتراح إنديرا؛ إذ شعرت أنه مهين لها هي وفيروز. وهكذا باتت الحياة في آناند بهافان في غاية التوتر.<sup>18</sup>

حينما استشارت إنديرا الجميع كما توجب عليها استسلم نهرو لرغبتها ووافق على الزواج، لكنه طلب من إنديرا وفيروز الانتظار إلى أن يطلق سراحه من السجن. وعام ١٩٤١ كان لا يزال أمامه ثلاثة أرباع مدة سجنه. لكن عندئذٍ أطلقت السلطات البريطانية

سراحه فجأة في ٤ ديسمبر مع غيره من قادة حزب المؤتمر المسجونين. وبدا أخيراً أن إنديرا وفيروز قد فازا في حربهما للزواج.

غير أن هذه الحرب لم تكن كل ما شغل إنديرا وفيروز منذ عودتهما من إنجلترا. ففي ربيع عام ١٩٤١ كان كلاهما ناشطاً سياسياً. كان فيروز عضواً في اتحاد أصدقاء الاتحاد السوفييتي، وقد نظم معرضاً للاتحاد السوفييتي بلكناو. وكان هو وإنديرا أيضاً مشتركين في اتحاد طلاب عموم الهند الذي انقسم إلى جناحين أحدهما يناصر حزب المؤتمر والآخر يناصر الحزب الشيوعي الهندي. خطبت إنديرا أمام الجناح الشيوعي في لكناو، وفي ديسمبر حضرت المؤتمر السنوي للاتحاد الشيوعي لطلاب الأقاليم المتحدة.<sup>19</sup>

بالإضافة إلى ذلك كانت إنديرا وفيروز أنشط من أي وقت مضى في حركة النضال القومي. وقد علما — كغيرهما من القوميين — أن النضال من أجل استقلال الهند سيتأثر بلا شك بالعالم الأكبر المنغمس في الحرب. ففي ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ تعرض ميناء بيرل هاربور للقذف بالقنابل، فدخلت الولايات المتحدة الحرب. وعلى مدى الشهور التالية أخذ الجيش الياباني يتقدم بانتظام في جنوب شرق آسيا، وبنهاية يناير كان قد طرد القوات البريطانية من شبه جزيرة الملايو. وفي ١٥ فبراير عام ١٩٤٢ سقطت القاعدة الإمبراطورية البريطانية العظيمة في سنغافورة في أيدي اليابانيين. وكانت جاوة وسومطرة ورانجون قد احتلت في أوائل مارس، فصار الطريق مفتوحاً أمامهم لاحتلال الهند.

لكن حتى هذه التطورات الخطيرة لم تفلح في حجب الأضواء عن ملحمة زواج سليلة نهرو. ففي ٢١ فبراير جاء في الصفحة الأولى من صحيفة «ذا ليدر»، أهم صحف الله آباد، مقالة بعنوان «خطوبة الأنسة إنديرا نهرو»، وفي اليوم التالي ذكرت الصحف في جميع أنحاء الهند أن إنديرا ستتزوج قريباً من فيروز غاندي. وقد أثار نبأ هذا الزواج عاصفة من الجدل، فقد كانت كل الآراء تقريباً تعارض هذا الزواج.

كان نهرو في كالكتا عندما نشرت صحيفة «ذا ليدر» الخبر، لكنه أصدر فور عودته إلى بلده بياناً عاماً نشر في صحيفة «بومباي كرونيكال» وغيرها من الصحف على النحو التالي:

«تناقلت الصحف خبر خطبة ابنتي إنديرا إلى فيروز غاندي. ولأن أسئلة وجّهت لي في هذا الصدد، أود أنؤكد صحة هذا الخبر. الزواج مسألة شخصية وعائلية، تمس بالدرجة الأولى الطرفين المقدمين على الزواج وعائلتيهما. ومع ذلك فأنا أعلم أن عليّ نظراً لارتباطي بقضايا الشأن العام أن أثق في أصدقائي الكثيرين

وزملائي والشعب عامة. لطالما اعتقدت أنه مع أن من حق الآباء وواجبهم نصح الأبناء في مسألة الزواج، فالاختيار والقرار الأخير يجب أن يرجع إلى الطرفين المعنيين. فإن تم التوصل إلى هذا القرار بعد دراسة متأنية يجب تنفيذه، وليس للآباء أو غيرهم الوقوف في وجهه. حينما تأكد لي أن إنديرا وفيروز يريدان الزواج قبلت بقرارهما عن طيب خاطر، وقلت لهما إن هذا الزواج قد حظي بمباركتي. كما بارك المهاتما غاندي — الذي أعتر برأيه لا في قضايا الشأن العام فقط، بل في المسائل الشخصية أيضًا — عرض الزواج ذاك. وكذلك وافق عليه أفراد عائلتي وأفراد عائلة زوجتي طواعة. ففيروز غاندي هو شاب بارسي وصديق وزميل لنا منذ عدة أعوام، وأتوقع أن يخدم وطننا وقضيتنا بفعالية وكفاءة. وأؤكد أنني كنت سأوافق على أي شخص يقع عليه اختيار ابنتي، وإلا كنت خائناً للمبادئ التي أعتنقها. آمل وأرجو أن يكون هذا الزواج رفقة حقيقية في الحياة وفي القضايا الكبرى التي نعزز بها ... سيقام حفل الزواج في غضون شهر تقريباً في الله آباد.»<sup>20</sup>

أصدر غاندي بدوره بياناً يؤيد به الزواج في صحيفته؛ صحيفة «هاريجان» التي أعيدت طباعتها في جميع أنحاء البلاد. لكن حتى بمباركة غاندي لهذا الزواج، لم تخف حدة الجدل والهجوم على زواج إنديرا وفيروز «المختلط»؛ إذ كان هذان الأخيران بزواجهما يستهينان بعادتين أصيلتين في الزيجات الهندية. ولا تزالان قائمتين إلى يومنا هذا. فهما لم يقبلا بزيعة تقررها لهما عائلتهما، وفوق ذلك سيتزوجان من خارج ديانتهما. وقد كانت أسرة نهرو تعد لسنوات الأسرة الأشهر في الهند. فالكل يعشق نهرو وكامالا لأن زيجتهما كان ينظر إليها على أنها الأمثل، وهي زيجة تمت باختيار الأهل. وشتان بين تحدي عوام الناس للأعراف وتحدي الشخصيات الشهيرة لها. فزواج إنديرا وفيروز كان سابقة ليست موضع ترحيب.

تدفقت على آناند بهافان آلاف الرسائل والبرقيات بعضها كان بذيئاً وأكثرها عدائي والقليل منها مهني. ونوقش أمر هذا الزواج في الصحف، وتحدث عنه عدة مواطنين بارزين. وحسبما ذكرت إنديرا بعدها بعدة أعوام، «كانت البلاد بأسرها تعارض الزواج».<sup>21</sup>

لكن فيروز وإنديرا مضيا في قرارهما بشجاعة. وبعد مشاورة العلماء الهندوس اختير يوم ٢٦ مارس لإقامة حفل الزواج. كان هذا التاريخ بالذات مبشراً؛ إذ يوافق عيد «رام نافمي» الذي يحتفل فيه بميلاد الإله راما بطل ملحمة رامايان. إلا أنه لم يكن مناسباً من

الناحية السياسية؛ إذ كان مقرراً أن يصل وفد بريطاني يرأسه السير ستافورد كريس إلى الهند يوم ٢٢ مارس حاملاً عرضاً من تشرشل بخصوص «الشأن الهندي». وحتماً سيصير نهرو والكثير من المدعويين مشغولين جداً بالتفاوض مع بعثة كريس.

ومع أن زواج إنديرا لقي احتجاجاً على مستوى البلاد وصلت إلى آناند بهافان في الأسابيع والأيام السابقة على زفافها هدايا من جميع أنحاء البلاد. و«صارت غرفة إنديرا مزدحمة بأوراق تغليف الهدايا التي تصدر خشيشاً وشرائط ساتان تبرز منها هدايا من الفضة والكريستال، وأحياناً علب مجوهرات مبطنة بالقטיפه تحوي حلياً مرصعة بالجواهر. على أن أغلب هذه الهدايا أعيد تغليفها بعناية وإعادتها إلى مرسلها لأنهم لم يكونوا معروفين للعائلة.<sup>22</sup>

كان يوم ٢٦ مارس ذا شمس ساطعة وسماء صافية. بدأ حفل الزفاف مبكراً، قبل أن ترتفع الحرارة. وفي التاسعة صباحاً نزلت العروس من غرفتها وهي ترتدي — في إشارة ذات مغزى — ثوباً من الخادي نسج يدوياً من خيوط غزلها نهرو في السجن إلى ساري مصبوغ باللون الوردي، وحواشيه مطرزة بزهور فضية رقيقة. كانت ترتدي في معصمها إكليلاً من الزهور الياقة وأساور زجاجية ملونة شفافة بدلاً من المجوهرات الذهبية الثقيلة المعتادة. لم تبدُ إنديرا بهذا الجمال من قبل، ولا بهذه الحال الجيدة منذ فترة طويلة جداً؛ كانت تبدو طويلة ورشيقة وبشرتها لم تعد صفراء شاحبة، بل اكتست بـ «لون ذهبي كلون القمح الياقة»، وكانت ملامحها الجميلة أقرب إلى صورة خطت على عملة إغريقية.<sup>23</sup> كان فيروز يرتدي الزي الأبيض التقليدي لأعضاء حزب المؤتمر، وهو الخادي الشيرواني وسروال شوريدار، وارتدى إكليلاً من الزهور.

أقيمت مراسم الزواج في آناند بهافان في الهواء الطلق تحت فسطاط يظلل شرفة مزينة بالخضرة في الطابق الأرضي. التفت إنديرا ونهرو وفيروز حول النيران التي تشعل تقليدياً في الزفاف فوق لوح من الرخام. وأشار الوثار الخالي إلى جانب نهرو إلى غياب كامالا. وجلس المدعون على البسط أو الكراسي حول الشرفة، ومن ورائهم من بعيد بامتداد آناند بهافان، وقف في حر الصباح مئات المتفرجين غير المدعويين. كان من بين الحشد مصور من مجلة أزياء أمريكية. وحضر أيضاً أمريكي آخر هو نورفين هاين الذي كان مدرساً شاباً بكلية كريستيان إيوينج، وقد بذل جهداً كبيراً ليصور الزفاف بعدسة كاميراته الفيلمية قياس ٨ ملليمتر.<sup>24</sup>

كانت المراسم التي جمعت بين فيروز وإنديرا في الزواج غير تقليدية وغير قانونية. فوفق القوانين الاستعمارية البريطانية بالهند لا يسمح لاثنين من ديانتين مختلفتين

بالزواج أحدهما من الآخر إلا إذا تخليا عن ديانتيهما. ومع أن إنديرا لم تكن قط ممارسة لهندوسيتها، وفيروز لم يكن بارسياً ملتزماً، فقد تردد كلاهما في التوقيع على إشهار يفيد بأنهما لا ينتميان لأي دين. قبل سبعة أعوام واجه ابن عم إنديرا بريج كومار نهرو المشكلة نفسها عندما أراد أن يتزوج من زوجته اليهودية المجرية فوري. وكما هي العادة استشار بريج كومار نهرو آنذاك المهاتما غاندي وأخذ بنصيحته. وتزوج بريج كومار نهرو من زوجته وفقاً للطقوس الهندوسية في مراسم أجراها أستاذ من جامعة دلهي يدعى «كالا» كان قد ابتكر سلسلة من الطقوس هي — حسبما قال — الطقوس الفيدية الأصلية للزواج. ومع أن قوانين الهندوسية تمنع الهندوس من الزواج من خارج ديانتهم فلم تتطلب الطقوس الهندوسية الجهر بالعقيدة، ويعني هذا أن بمقدور غير الهندوس المضي في مراسم الزواج الهندوسي. لكن القوانين، سواء البريطانية أو الهندوسية، لم تكن تعترف بمثل هذا الزواج، ومن هنا كانت زيجتا بريج كومار نهرو وإنديرا غير قانونيتين.<sup>25</sup>

وكما في زيجة بريج كومار نهرو أجرى طقوس زواج فيروز وإنديرا البروفيسور كالا واتبع نفس المراسم التي اتبعها سابقاً في زواج بريج كومار نهرو بالضبط، فيما عدا تلاوة سطر سنسكريتي اختارت إنديرا أن تتلوه لصداها السياسي في أحداث عام ١٩٤٢: «إن كان في أركان الأرض الأربعة من يجرؤ على حرماننا من حريتنا فليع كلامي جيداً! ها أنا ذا سيفي في يدي، ومستعد للمقاومة إلى الرمح الأخير! أدعو أن يغمرنا نور الحرية من كل جانب.»<sup>26</sup> استغرقت مراسم الزواج ساعتين، وكانت قصيرة وبسيطة وفقاً للمعايير الهندية. وطوال الوقت امتلأ الهواء بعبق البخور وتلاوة الكاهن وأزيز السمن الصافي المسكوب بملعقة فضية على النيران.

في البداية جلست إنديرا في الشرفة إلى جانب نهرو. ولما حان موعد كانيادان — وهب الأب ابنته للزواج — عبرت إلى الجانب الآخر من النار وجلست إلى جانب فيروز. أهدى فيروز لإنديرا صرة من الملابس، وأطعمته هي لقمة من الطعام ليرمزا بهاتين اللفتتين إلى أنهما سيعنيان بحاجات أحدهما الآخر الجسدية. ثم ربط بين معصميهما بإكليل من الزهر. زاد البانديت من أجيح النيران بأن سكب عليها المزيد من السمن الهندي، ونهضت إنديرا وفيروز لأداء طقس «سابت بادى» الذي يقضي بالسير حول النيران المقدسة لسبع مرات مع ترديد نذور سنسكريتية بالإخلاص أحدهما للآخر ولجتماعهما والعالم.<sup>27</sup> وضعت إنديرا قدمها على حجر لتقسم يميناً غليظة، ثم وُضع البانديت على



جبهتها البيندي الأحمر الذي تضعه الهندوسيات المتزوجات على جباههن. الآن لم تعد هناك رجعة في زواج فيروز وإنديرا. وأمطر العروسان بببتلات الزهور فيما اندفع أهلهما وأصدقاؤهما لمعانقتهما وتهنئتهما.

اتبع الزفاف في الأغلب الطقوس والممارسات الهندوسية بدقة، غير أنه أسفل الخادي الشيرواني المعتاد ارتداؤه في شمال الهند ارتدى فيروز خيط أجواده البارسيين،<sup>28</sup> ربما فعل ذلك استرضاءً لوالدته التي كانت معترضة على الزواج ومع هذا حضرت الزفاف. (حتى إن نورفين هاین استطاع مع خجلها من الكاميرا أن يظهرها في فيلم الزفاف). لكن من ناحية أخرى كان ارتداء فيروز للخيط البارسي المقدس أول عمل يدل على أن شخصيته لن تذوب في العائلة الشهيرة التي صاهاها.

تجول المدعوون في حدائق آناند بهافان طوال مدة ما بعد الظهيرة، وبعدها في أول المساء حضروا عشاء الزفاف. التقط نورفين هاین أهم مشاهد حفل العشاء وفيه مشهد المدعوين الذين جلسوا في صف طويل لتناول وجبة بسيطة من خبز الشاباتي والخضروات الطازجة، لم يحضر العشاء أعداد لا حصر لها من الأقارب والجيران والأصدقاء فحسب، بل حضر أيضًا أغلب قادة حزب المؤتمر (وفي ذلك سروجيني نايدو وابنتها بادماجا)، وعدد لا يحصى من موظفي حزب المؤتمر المحليين وإيف ابنة العائلة الشهيرة ماري كوري، التي لم يكن حضورها متوقعًا.

وكان واضحًا أن عددًا من الشخصيات المهمة قد تخلفت عن حضور زفاف إنديرا. فجدة إنديرا راجباتي كاوال التي ظلت تراسل نهرو بشأن الزفاف لأسابيع مرضت ولم تستطع القدوم.<sup>29</sup> ولم يحضر المهاتما غاندي إذ كان في ٢٦ مارس مسافرًا إلى دلهي للقاء السير ستافورد كرييس. وكثيرًا ما زعم أن كرييس نفسه كان مدعواً لحضور الزفاف، لكنه حقيقة لم يزر الله أبداً إلا فيما بعد. ففي يوم الزفاف كان في دلهي يشترى ثياباً خفيفة لتساعده في تحمل حرارة الهند وهو ينتظر وصول غاندي.<sup>30</sup> وفات الزفاف رئيس حزب المؤتمر مولانا أبو الكلام آزاد لأن قطاره تأخر في الوصول، لكنه تمكن من الوصول إلى آناند بهافان في الوقت المناسب للانضمام لحفل العشاء.

لم يتوقف نشاط حزب المؤتمر السياسي حتى في يوم زفاف إنديرا. التقى قادة الحزب قبل حفل العشاء بوقت قصير في قاعة استقبال الطابق الأرضي في آناند بهافان للتمهيد لاستراتيجيتهم تجاه بعثة كرييس. في عام ١٩٤٢ كان موقف بريطانيا في المفاوضات ضعيفاً؛ إذ كانت قواتها المسلحة قد تكبدت خسائر فادحة في الشرق الأقصى في الوقت الذي كان تشرشل يتعرض فيه لضغط متزايد من الولايات المتحدة لإيجاد تسوية للوضع

الهندي. ولهذا السبب أرسل تشرشل ستافورد كريبس الذي كان وقتها قد صار حاملاً للأختام الملكية وعضواً بمجلس الحرب لدلهي في محاولة يائسة لإحراز تقدم في المفاوضات مع حزب المؤتمر لمواجهة الغزو الياباني الوشيك. كان مفاد عرض تشرشل هو أنه إن أبدى حزب المؤتمر استعداداً لمساندة بريطانيا في جهودها الحربية فستمح الهند السيادة الكاملة بعد الحرب؛ بعبارة أخرى كان عرضاً «يمني الهند بالأمال في الغد في مقابل الحصول على تعاونها اليوم».<sup>31</sup>

بدأت المفاوضات في ٢٥ مارس — في اليوم السابق لزفاف إنديرا — واستمرت لثمانية عشر يوماً أخرى. خلال هذه المدة جاء كريبس الذي كانت إنديرا ونهرو يذكرانه من زيارتهما لإنجلترا للمكوث في آناند بهافان لعدة أيام. ولأنه كان نباتياً متمزناً (وهو ما جعله محبوباً لدى غاندي) وجد كريبس أنه النباتي الوحيد في منزل نهرو، ولأن سوق الله آباد لم يكن بها سوى القليل من الفاكهة والخضروات أرسل آل نهرو طلباً لإحضار البطيخ من كابول، والعنب من كويتا.

ومع أن بعثة كريبس كان يُتطلع إليها بلهفة فقد أسفرت عن «أكبر إحباطات عام ١٩٤٢».<sup>32</sup> ففي ٩ أبريل رفض حزب المؤتمر بعد مداوات عرض إنجلترا، ووضع الاستقلال الفوري للهند شرطاً أساسياً لمساندة إنجلترا في الحرب. فعرض بعثة كريبس — على حد وصف غاندي — كان في مجمله مثل «شيك مؤجل الدفع مسحوب على بنك متعسر».

وعقب الزواج انتقلت إنديرا وفيروز للسكن في بيت صغير مؤجر في عقار رقم ٥ بشارع فورت رود في الله آباد. لم يكن لدى فيروز وظيفة آنذاك، وعلى ما يبدو لم تمثل النقود في هذه المرحلة مشكلة. (فمما لا شك فيه أن جزءاً كبيراً من هدايا الزفاف جاء في شكل أموال نقدية). غير أن فيروز كان قد جنى بالفعل بعض المال على مرات متفرقة بكتابة مقالات مصورة من حين لآخر للصحف والمجلات، مستوحياً فكرة تلك المقالات من مجموعة الصور الضخمة التي يملكها. ويبدو أنه باع بعض وثائق التأمين، مع أنه لم يكن قط — كما قيل عنه كثيراً — بائع وثائق تأمينية.

وفي أواخر مايو مع بدء الحر الشديد ذهبت إنديرا وفيروز إلى كشمير لقضاء شهر عسل متأخر. وهناك في سريناغار نزلا ضيفين على القائد الكشميري المؤثر الشيخ عبد الله. وفي الثالث من يونيو كتبت إنديرا إلى نهرو تقول: «نحن نمضي وقتاً رائعاً». بدأت إنديرا وفيروز رحلتها إلى لداخ، وزارا بهالجام، ومنطقة سونمارج (مرج الذهب) التي

تقع على مرتفع كبير وتحيطها الأنهار الجليدية والنسور. وعن رحلاتها إلى تلك المناطق كتبت إنديرا إلى أبيها تقول: «أنا في غمرة السعادة لاستكشاف كشمير». ثم ذهبت إنديرا وفيروز في رحلة شاقة لأربعة أيام على ظهور الخيل إلى نهر كولاهوي الجليدي، وعندما عادا إلى سريناجار أمضيا «ثلاثة ليالٍ مقمرة رائعة على ظهر مركب للسكنى». ومن مدينة موهانمارج كتبت إنديرا إلى نهره تقول:

«حقاً إن كانت هناك جنة على الأرض لا بد أنها هذه ... لا يوجد في سويسرا ما يضاهي هذه المنحدرات المليئة بالزهور، ولا هذا النسيم العطر ... ولا هذه المياه الجارية التي تسكب في النفس عقار النسيان والطمأنينة ... وبما أنني لا أستطيع أن أحصي لك أوجه جمال موهانمارج أرسل لك تذكراً من زهرتين صغيرتين؛ زهرة لا تنسني، وزهرة إيدلفايس. وهما تكثران هنا إلى جانب نبات شقائق النعمان وعشب الحوزان وزهرة الخف الهولندية والكثير من الزهور التي تدعى هنا بزهور الألب».<sup>33</sup>

ظلت إنديرا وفيروز محرومين من الإذاعة ومن الصحف في كشمير لشهرين، ولم يصلهما إلا القليل من الرسائل. فشعرا بالحرية التامة وبالانفصال عن العالم الذي تركاه خلفهما؛ عالم السياسة وعالم الحرب الأكبر منه. وقد صار شهر عسلهما في كشمير علامة فارقة طوال مدة زواجهما المضطرب، فكان بمنزلة ذكرى دائمة لا تخبو بمر الأيام. ومرة تلو الأخرى في الأعوام التالية تعود إنديرا إلى كشمير، إما مع فيروز أو بمفردها لتحاول أن تستعيد جنتها من جديد.

في يوليو عام ١٩٤٢ اجتمعت لجنة المؤتمر العاملة في صومعة غاندي، سيفاجرام أشرم، وأصدرت قراراً يقضي بأن تسلم الحكومة البريطانية جميع السلطات السياسية إلى الهند دون أي تأخير. فإن لم تنفذ الحكومة البريطانية قرار «تحرير الهند» فسيرفض الشعب الهندي مساندة بريطانيا في جهودها الحربية. ولم يكن تحرير الهند يعني أن يرحل كل المواطنين البريطانيين — أو حتى الجيش البريطاني — فوراً عن الهند، بل يعني أن يتسلم الشعب الهندي المهام الحكومية. وتقرر عقد اجتماع للجنة حزب المؤتمر لعموم الهند لمناقشة القرار في أوائل أغسطس. وفي لندن تابع مجلس الحرب هذه التطورات بترقب، وفوض نائب الملك لورد لينليثجو في القبض على قيادات حزب المؤتمر كلها وتطبيق سياسة القمع الشامل إن استدعى الأمر ذلك.

ما إن عادت إنديرا وفيروز إلى الله آباد حتى قصدا اجتماع لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في بومباي. وحضرا الاجتماع مع المئات غيرهم في حديقة جواليا تانك في مساء ٨ أغسطس، عندما اقترح جواهرلال نهرو قرار تحرير الهند. حظي القرار بموافقة كاسحة، وبدأ من جديد الصراع الجماعي من أجل الحرية بقيادة غاندي. وفي حين أعلن غاندي في الاجتماع أن الوقت «قد حان للتحرك الجاد»، قال نهرو: «إنها ساعة الصفر في العالم».

وفي بومباي مكث نهرو وإنديرا وفيروز بشقة آل هاثيسينج بقصور ساكينا بشارع كارمايكال. وفي ليلة ٨ أغسطس لم يعودوا إلى الشقة قبل العاشرة مساءً. وبعدها تناولوا عشاءهم في وقت متأخر، وظلوا يتسامرون حتى الواحدة صباحاً. وبعدها بعدة ساعات، في الخامسة والربع من صباح ٩ أغسطس، دخلت إنديرا غرفة نهرو وأيقظته برفق قائلة: «لقد جاءت الشرطة». حذمت إنديرا حقيبة نهرو فيما حلق هو ذقنه واغتسل. ثم تناولوا الإفطار على مهل، وبعدها كتب نهرو خطاباً إلى البنك يمنح فيه إنديرا الحق في التصرف في حسابه. وعندها فقط ذهب إلى غرفة المعيشة للاقابلة رقيب الشرطة الذي قرأ عليه مذكرة اعتقاله، وأمره هو وزوج أخته راجا هاثيسينج بمصاحبته.

تبعث إنديرا وفيروز وكريشنا هاثيسينج ضباط الشرطة وهم يصحبون نهرو وزوج أخته إلى الخارج، في البداية وقفوا بلا حيلة يشاهدون نهرو وهاثيسينج وهم يقحمون على عجل داخل سيارتي أجرة. وبعدها قفزوا بسرعة إلى سيارة أحد الأصدقاء، وتبعوا سيارتي الأجرة وهما تسيران «في الصباح الباكر البارد والمدينة لا تزال تصحو». وحين وصلوا إلى مركز شرطة فيكتوريا في بومباي مضت سيارتي الأجرة أمامهم، في حين أوقفت الشرطة سيارة إنديرا وفيروز وكريشنا عند مدخل المركز. كان هناك زحام كبير واتضح أنه قبض على عدد كبير من رجال حزب المؤتمر. لم يكن هناك سبيل لأن تلقي إنديرا ومن معها نظرة أخيرة على نهرو وهاثيسينج قبل أن يُدفع بهم إلى القطارات لتحملهم إلى حيث لا يدري أحد.<sup>34</sup>

نُقل نهرو إلى حصن أحمد نجار وهو حصن مغولي بُني في القرن السادس عشر يقع بأحد أطراف إقليم بومباي النائية. ويحتوي على خندق مائي وجسر متحرك، لطالما استخدم البريطانيون هذا الحصن لاعتقال السجناء السياسيين لما به من تدابير أمنية قصوى. وفيه كانت الهيئة العليا للجنة حزب المؤتمر العاملة بكاملها معتقلة وفيهم: أساف علي، وأبو الكلام آزاد، وشنكارو ديو، وناريندرا ديف، وبي سي غوسيه، وجي بي كريبالاني، وسيد محمود، وهاريكريشنا ماهتاب، وجوفيند بالاب بانت، وفالابهبهاي باتيل،

وباتابهي سيتارامايا. كانت هذه آخر وأطول مدة سجن قضاها نهرو؛ إذ امتدت لعامين وعشرة شهور. أما غاندي وزوجته كاستوربا وسكرتيره وطبيبه وسروجيني نايدو، فقد سيقوا إلى قصر أغاخان في بونا الذي كان سجنًا فخماً بالمقارنة بحصن أحمد نجار.

وبعد القبض على لجنة حزب المؤتمر بستة أسابيع عمت حركات الإضراب والمظاهرات البلاد. وبدأت الهند موشكة على بدء حالة من العصيان المسلح والفوضى؛ فُقطعت خطوط التلغراف والتليفون وأُشعلت النيران في المباني العامة، ونُسفت خطوط السكك الحديدية والطرق والجسور. فكان هذا أخطر تهديد يواجهه الحكم البريطاني للهند منذ ثورة الهند عام ١٨٥٧. وبنهاية عام ١٩٤٢ كان قد قبض على أكثر من ستين ألف شخص. وقام نائب الملك لورد لينليثجو — وهو رجل كان نهرو يصفه بأنه «ثقل الوزن والفهم، جامد كالصخر يفتقر إلى الإحساس كالصخر تقريباً» — بالتغلب على بلادته وبعث ببرقية إلى تشرشل. لكن هذه القلاقل لم تزعزع تشرشل الذي أعلن: «لم أصبح رئيساً لوزراء الملك لأشرف على انهيار الإمبراطورية البريطانية».<sup>35</sup>

وفي ١٠ أغسطس صدرت مذكرة لاعتقال فيروز لأنشطته كمتطوع بارز بحزب المؤتمر. فتنكر فيروز في هيئة جندي بريطاني من أصل هندي في زي عسكري للتملص من الشرطة. لكنه خشي أن يُتعرف عليه في الله آباد، لذا استقل إحدى الشاحنات المتجهة إلى المدينة المليئة بالجنود البريطانيين والهنود الإنجليز. ولما كانت خدعة تنكر فيروز قد انطلت على هؤلاء الجنود، فقد حذروه قائلين: «إن السكان المحليين اللعناء كانوا سيقطعونو إرباً إن قبضوا عليه وحده وهو أعزل».<sup>36</sup> وبعدها بعدة أيام وصل فيروز إلى لكناو حيث انضم إلى حركة المقاومة السرية.

وبعد ذلك عاد فيروز إلى الله آباد حيث أقام في عدة نزل خاصة بأعضاء حزب المؤتمر، وأضاف إلى تنكره شارباً. وفي هذه الأثناء قادت إنديرا في آناند بهافان أنشطة خاصة بحركة تحرير الهند، وبحلول هذا الوقت كان قد قبض على نان بانديت وأُرسلت إلى سجن نايني. تُركت إنديرا في منزل آناند بهافان مع بنات نان بانديت الثلاث ومربيته الصينية السيدة تشو. وكان معهم أيضاً في آناند بهافان لال بهادور شاستري (الذي شغل فيما بعد منصب رئيس وزراء الهند) والذي كان مختبئاً في غرفة علوية مغلقة بالمنزل حيث كانت إنديرا تصعد له بصواني الطعام ليلاً. قيل للخدم إنه قريب لنهرو مريض، في حين شغل المنزل المجاور منزل سواراج بهافان ضباط الجيش الذين أبقوا على آناند بهافان تحت رقابة مشددة. وفي آخر يوم في شهر أغسطس جاءت الشرطة إلى آناند بهافان للقبض على

شاندراليكها بانديت التي تبلغ ثمانية عشر عامًا والتي بلغت لتوها سن الرشد وصارت ناشطة في تظاهرات المؤتمر بالله آباد. وساقتها الشرطة إلى سجن نايني لتنضم بذلك إلى والدتها.

وطوال الشهر التالي التقت إنديرا وفيروز على مرات متفرقة مستترين عادةً تحت جناح الليل في منازل أصدقائهما كمنزل طيبة إنديرا الجديدة في الله آباد، وهي امرأة تكبر إنديرا ببضعة أعوام تدعى فاتسالا سامانت. ولأن مذكره اعتقال فيروز كانت لا تزال قائمة كان في مجيئه إلى آناند بهافان مخاطرة كبيرة. إذ كان يدير جهاز إرسال لاسلكي غير قانوني خاص بمحطة راديو حركة المقاومة السرية التابعة لحزب المؤتمر التي كانت تنظم عمليات قطع خطوط التلغراف في الله آباد وتدير حركة العصيان المدني المحلية.

في أوائل سبتمبر هوجمت إنديرا بعصي الشرطة أثناء مشاركتها في احتفالية قومية لرفع الأعلام في كلية كريستيان إيونج، التي كانت قد التقت فيها هي وكامالا وفيروز لأول مرة قبل أحد عشر عامًا. وبعدها بعدة أيام بلغها أنها ستعتقل عما قريب، فأقسمت ألا تذعن لهذا. وفي ١١ سبتمبر نُظم اجتماع عام في الله آباد بـج الساعة خططت إنديرا لإلقاء خطبة فيه. وحضر فيروز أيضًا الاجتماع من بعيد وهو متنكر. وفي اليوم المحدد احتشد ما يزيد عن ثلاثة آلاف شخص بـج الساعة في الخامسة مساءً. وقبل أن تنهض إنديرا لإلقاء خطبتها بوقت قصير، وصلت عربة محملة برجال الشرطة المسلحين. وحينما صوب ضابط منهم سلاحه بالقرب من إنديرا اندفع فيروز للأمام صارخًا فيه ليخفض سلاحه. وهب الحشد للدفاع عن فيروز وإنديرا. لكن الشرطة أطبقت على كل هؤلاء، وقبضت على إنديرا وفيروز وعدد من المحتشدين ووضعتهم في شاحنة.<sup>37</sup>

وفي مساء اليوم نفسه كانت نان بانديت في ثكنة السيدات بسجن نايني عندما وصلت «إندو» التي كانت «تغطيها الكدمات وآثار الضرب وبعض ملابسها ممزقة».<sup>38</sup> كان سجن نايني — الذي زارت فيه إنديرا أباهما لمرات عدة في الماضي — له بوابة مهيبة شبيهة ببوابة الحصن، لكنه من الداخل كان شبيهًا بنواحي الإنجليز الرياضية لكثرة ما به من حدائق ونافورات بامتداد الأراضي الواسعة المعتنى بها جيدًا. غير أن ثكنة السيدات التي أودعتها إنديرا كانت ضيقة وحارة ومزدحمة. شغلت ست سيدات غرفة واحدة فقط نوافذها مغطاة بالقضبان، وكانت المراحيض الواقعة في أقصى الغرفة منفصلة بستائر. كانت السجينات ينمن على مراتب على الأرضية الحجرية. ولم يتمتعن بأي خصوصية وهناك الكثير من الجلبة.<sup>39</sup>

ومع أن السجن غير مريح فقد كان مرحلة انتقالية لا بد أن تمر بها إنديرا. فتقريباً كل من عرفته كان قد سُجن. وكانت هي — كما ذكرت بعدها بعدة سنين — قد عقدت العزم على دخوله. فالسجن كان نتاج كفاحها أو ثمرته. حتى إنها قالت: «لولاه ... لظل شيء ما ناقصاً ... لقد شعرت بالسعادة عندما قُبِض عليّ».<sup>40</sup>

في ١٩ سبتمبر حكم على فيروز بالسجن لعام في سجن نايني وبدفع غرامة قدرها ٢٠٠ روبية إن تأخر في دفعها فسيحتتم عليه قضاء ستة شهور إضافية في السجن. أما إنديرا فلم توجه إليها تهمة، بل اعتقلت بلا محاكمة وفقاً لـ «قانون الدفاع عن الهند».

طوال الستة الأسابيع الأولى من مدة سجن إنديرا كانت مريضة ومصابة بالحمى. وفقدت الوزن من أثر النظام الغذائي في السجن الذي يقتصر على العدس والأرز غير الطازجين. وبعدها ارتقت إنديرا وعمتها وابنة عمتها إلى سجناء «من الفئة الأولى»، وتحسّنت صحة إنديرا لتناول الطعام الأكثر تغذية الذي يشمل البيض واللبن. ومُيزت عن بقية السجناء بإمكانية النوم في فناء السجن لتفادي الحر.

من المدهش وسط هذه الظروف أنه لم يقع بين إنديرا وعمتها في السجن سوى القليل من الصدامات التي لا تُذكر. كانت نان بانديت مكتئبة قبل انضمام ابنتها وإنديرا إليها، لكنها ابتهجت حينما وصلتا إلى السجن. أطلقت إنديرا وابنة عمتها ليكها أسماء على الأجزاء الصغيرة التي حُصصت لهما في الثكنة. أطلقت ليكها على الجزء الخاص بها اسم «بيان فينو» [أي مرحباً باللغة الفرنسية] لأنه كان يطل نوعاً ما على البوابة الرئيسية. في حين سَمّت الجزء الخاص بأُمها باسم «المطل على الحائط»، ذلك لأنه لم يكن يطل على شيء سوى حائط. أما إنديرا فقد أطلقت على جزئها الصغير اسماً غريباً هو «تشيمبورازو». وسمت إنديرا وليكها المنطقة العامة ذات الفرش الزرقاء التي وصلتهن من آناند بهافان باسم «غرفة الاستقبال الزرقاء». في الواقع كانت إنديرا وليكها تسميان كل ما في الثكنة تقريباً، فكانتا تدعوان قطة السجن «مهيتابل» وتسميان إحدى صغارها «بارفاتي». في حين أسمتا مصباح السجن «لوسيفر»، وقنينة زيت الشعر التي فقدت غطاءها باسم «روبرت، الإيرل مقطوع الرأس».

كانت نان وليكها وإنديرا تكتبن مذكراتهن في السجن، لكن إنديرا كانت تكتب مذكراتها باللغة الفرنسية «لئلا يتمكن أحد من النظر إليها خلسة». كان يُسمح لإنديرا بلقاء فيروز مرة كل أسبوعين إلى أن نُقل إلى سجن فايزاباد في مارس، وفي عيد ميلاد إنديرا الخامس والعشرين في ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ التقت هي وفيروز للمرة الثانية. وأثناء

المقابلة اختلست ليكها النظر إلى مذكرة إنديرا — التي كانت تعلمها الفرنسية في السجن — وتمكنت ليكها من قراءة العبارة التالية المكتوبة بالفرنسية: «زوجي هنا وأنا في منتهى السعادة».<sup>41</sup>

أفقد انتهاك الخصوصية والضوضاء الدائمة في الثكنات إنديرا قدرتها على الاحتمال. كانت معتقلة مع ست مسجونات سياسيات أخريات، وخارج فناء السجن مباشرة كانت السيدات المتهمات بالسرقة والبغاء والقتل يتسكعن ويحدثن جلبه شديدة. وبعد شهر أو نحوه في السجن أعلنت إنديرا أنها لا ترغب في التكلم مع أحد ولا أن يكلمها أحد قبل الخامسة مساءً من كل يوم، وبهذا استطاعت أن تحصل لنفسها على بعض العزلة وسط الآخرين.

غير أن فترة العزلة هذه انقطعت مع انضمام طفلة حديثة الولادة تدعى سارالا إلى الثكنة. كانت سارالا ابنة سجينه سياسية تدعى كالافاتي ميشرا زوجة أحد موظفي المؤتمر، لكنها نفسها كانت غير متعلمة. وصفت نان بانديت كالافاتي بأنها «أكثر الشخصيات التي قابلتها غموضاً». رأت إنديرا أن كالافاتي أم غير مسئولة، لذا قررت أن تعتنى بطفلتها. وسرعان ما صارت شديدة التعلق بالطفلة حتى إنها أرادت أن تتبناها، والمدهش في الأمر أن والدة الطفلة لم تمنع في التخلي عنها لإنديرا، لكن عندئذٍ تدخلت نان بانديت وقالت لإنديرا: «لقد تزوجت لتوك وسترزقين بأطفالك. كيف سيكون شعورك تجاه هذه الطفلة عندما يصبح لديك أسرتك الخاصة؟»<sup>42</sup>

في أواخر نوفمبر في حصن أحمد نجار تسلم نهرو رسالة من حكومة الولايات الاتحادية تخبره بأن الطبيب المدني بسجن نايني فحس إنديرا وقال إن «صحتها بوجه عام ليست جيدة».<sup>43</sup> كان هذا أول خبر يسمعه نهرو عن ابنته منذ اعتقالها. إذ لم يُسمح لكل منهما بالاتصال بالآخر، ولم يكن لديهما أي صلة بالعالم الخارجي. لذا لم يعرفا بالمجاعة التي تفشت في البنغال، ولا باعتكاف غاندي على الصوم لثلاثة أسابيع في السجن. وفي أوائل ربيع عام ١٩٤٣ سُمح لهما أخيراً بالرد على الرسائل التي تصلهما، لكن لم يُسمح لأي منهما بابتداء المكاتبة.

وفي ٢٥ مارس سُمح لإنديرا أخيراً بمكاتبة أبيها وتحطيم جدار الصمت الذي فرض على علاقتهما لسبعة شهور. فكتبت تقول: «كل هذه الشهور وأنا أنتظر وأنتظر إلى أن فقدت الأمل في تسلم أي رسالة منك. وكل هذا الوقت وأنت بدورك تنتظر على بُعد أميال. أنت خلف مجموعة من الجدران وأنا خلف مجموعة أخرى».<sup>44</sup> حكّت له عن الطفلة سارالا (التي كانت قد غادرت السجن بعد إطلاق سراح أمها)، وعن قراءاتها في السجن،



لكتابات بالزك، وروسو، وجون ستيوارت ميل، ورواية توماس دي كوينسي التي تحمل اسم «اعترافات مدمن أفيون إنجليزي» بالإضافة إلى غيرها من «الكتب القديمة» ... وتقول إنديرا: «دائمًا ما أنوي القراءة، لكن بطريقة أو بأخرى أجد نفسي لا أنفك عن تأجيلها»<sup>45</sup> وكانت تقرأ في السجن للكتّاب المعاصرين أمثال جورج برنارد شو، وأبتون سينكلير، والروائي الصيني لين يوتانج. وفي خطاب لاحق وصفت إنديرا لنهرو النظام الغذائي «من الفئة الأولى» الذي تتمتع به، وكيف أنها صارت تنام في الخارج بما أن موسم الحر قد بدأ. وحكت له عن شعورها بالفرح عند الاستيقاظ ليلاً ومشاهدة نجوم كوكبة الدب الأكبر وهي مبعثرة فوقها وكأنها تواسيها وترعاها.<sup>46</sup>

صارت إنديرا ونهرو يكتبان أحدهما للآخر مرة كل أسبوع (وكان هذا أقصى عدد سُمح به من الرسائل) إلى أن يُطلق سراح إنديرا. كان مراقبو الحكومة يقرءون كل هذه المراسلات، وأحيانًا يقتطعون صفحات كاملة منها، خاصة إن كانت تشير إلى ظروف السجن، أو إن خرج أي منهما عن الشواغل الشخصية.

بمرور الوقت في السجن ومع تحسن صحة إنديرا ارتفعت روحها المعنوية، وظلت مبهجة حتى بعد نقل فيروز إلى سجن فايزاباد وإطلاق سراح عمته وابنة عمته ليكها. هذا إلى جانب أن وزن إنديرا قد زاد؛ ففي أوائل ربيع عام ١٩٤٣ كانت تزن خمسة وتسعين رطلاً، أي أكثر مما كانت تزن في لي فرين بعشرين رطلاً. وفي أواخر أبريل كتبت إنديرا لنهرو تقول: «في عيد النوروز ارتديت ساريًا جديدًا وكنت مبهجة طوال الوقت الذي قضيته بمفردي»<sup>47</sup> غير أنها انزعجت عندما بلغها من والدة سارالا أن الطفلة فقدت الكثير من وزنها، وتبكي كثيرًا، وظهر عليها بوضوح أنها تفتقد التدليل الذي أغدقته إنديرا عليها في السجن. فشعرت إنديرا بالندم الشديد على اقتناعها برأي نان بانديت وعدم تبنيها لسارالا. كانت سارالا — على حد قول إنديرا لأبيها — طفلة مفعمة بالحياة والذكاء، لكن إنديرا صارت موقنة بأنها ستعرض للإهمال وستشبه لتصبح «متبلدة كأمها»<sup>48</sup>.

أطلق سراح إنديرا من سجن نايني في ١٣ مايو عام ١٩٤٣، بعد مدة سجن قدرها ٢٤٣ يومًا. وفي رحلتها بالسيارة بمحاذاة نهر يومانا إلى الحي المخصص لسكنى البريطانيين في مدينة الله آباد وآناند بهافان، أفاض عليها العالم الخارجي بما حرك مشاعرها. فحتي في الحر الشديد (ومع وصول درجة الحرارة إلى ٤٧ درجة مئوية)، «بدت لها مدينة الله آباد المتربة خضراء وجميلة». فبعدها بسنوات عدة قالت: «أسوأ ما في السجن هو أن كل

شيء كان بلون الطين. لذا بعدما خرجت منه لم أستطع أن أنال كفايتي من الألوان، وكنت أشعر برغبة في لمس كل ما أراه. فبعد خشونة العيش الشديدة، كان لا بد لي أن ألبس الأقمشة الناعمة.»<sup>49</sup> لكن فيما تمتعت حواسها ذابت هي في الحر. وفي آناند بهافان، تابعت إنديرا ما تعودته من النوم في الهواء الطلق، وأرسلت في طلب حلاق الأسرة الذي قص شعرها قصيراً مثلما كانت تفعل في أوروبا وهي مراهقة. وفي ذلك كتبت إلى والدها تقول: «توقع الجميع أن يبدو شكلي بشعاً، لكنني أثرت الراحة والهروب من الحر على المظهر.» وفي الحقيقة ثبت في النهاية أن مظهرها في هذه القصة ليس سيئاً على الإطلاق.<sup>50</sup>

وفي ٢١ مايو زارت إنديرا فيروز في سجن فايزاباد، وأبلغت أباه أن فيروز محتجز في الحبس الانفرادي و«يبدو القوي». وقد حكّت زوجة سجين آخر أنها رأت إنديرا تبكي عندما حان لها أن تغادر. وأثناء عودتها إلى الله آباد أصيبت إنديرا بحمى وسعال وآلام صدرية، فأودعتها طبيبتها في الله آباد فأتسالا سامانت المستشفى لأربعة أيام. وبعد خروجها من المستشفى ظلت مصابة بالحمى، ووجدت صعوبة في التخلص من السعال. ولم تفلح زيارة سارالا لها مع أمها في إبهاجها. كتبت إنديرا إلى نهرى تقول إن «أسوأ مخاوفها» قد تحققت، فالطفلة الصغيرة قد انكمشت وعادت إلى جسدها النحيل «بدلاً من أن تمتلئ وتسمن كما يفعل كل الأطفال. لم تبدُ حتى على الذكاء نفسه الذي كانت عليه». رتبت إنديرا لأن ترتاد أم سارالا مدرسة، لكنها لم تعلق الكثير من الآمال على أن تحصل سارالا على المزيد من الرعاية والتحفيز من والدتها.<sup>51</sup> وفي هذه الأثناء تسلمت إنديرا ونان بانديت أمراً بالإقامة الجبرية في كهالي؛ منزل آل بانديت على التلال القريبة من ألمورا، والبقاء هناك حتى إشعار آخر. كانت إنديرا ونان بانديت ستذهبان إلى هناك بسرور — حيث الجو أبرد بكثير — ما لم تأمرهما الحكومة البريطانية بذلك. وفي ظل هذه الظروف رفضت كلتاها الذهاب إلى هناك. كانت كلتاها على وشك أن تُعتقلا من جديد، لكن عندها فحص الجراح العام إنديرا وسحب مذكرة اعتقالها نظراً لحالتها الصحية السيئة. (في حين أرسلت نان بانديت إلى السجن من جديد). وفي يونيو ذهبت إنديرا إلى بومباي حيث استشارت الاختصاصيين الطبيين وجرى فحصها بالأشعة السينية. وفي ١٠ يوليو أُطلق سراح فيروز من سجن فايزاباد، وبعدها مباشرة قصد بانتشجاني في جنوب بونا حيث تقضي إنديرا عطلة مع آل فاكيل، أساتذة مدرستها السابقين. أمضت إنديرا وفيروز بقية عطلة الصيف في بانتشجاني وعادا إلى الله آباد في أواخر أغسطس.

بحلول ذلك الوقت كانت نان بانديت تقيم في آناند بهافان بعد أن أُطلق سراحها من السجن للمرة الثانية، على حين ظل زوجها رانجيت بانديت في السجن في باريلي.

ومع أن نان وإنديرا استطاعتا التعايش في ثكنة السيدات المزدحمة في سجن نايني فقد وجدتا الإبقاء على حبل الود والعلاقات الطيبة بينهما في منزل الأسرة الكبير مستحيلًا. كانت علاقتهما متوترة على الدوام، تتفجر فيها ثورات الغضب باستمرار. ذات يوم، فجأة وبلا مقدمات، أعلنت نان بانديت لإنديرا أنها تخطط للانتقال إلى بيت آخر. وكتبت لنهرو تخبره بقرارها. حينما قرأ نهرو خطاب نان بانديت، وهو بعيد في حصن أحمد نجار، صعقته الدهشة من قرارها.<sup>52</sup> فكتب إليها يرجوها أن تعيد النظر في قرارها. يقول في خطابه لها: «هل فقدنا حتى القدرة على التماسك والتكيف مع أمور الحياة التافهة، إن كان الأمر كذلك فماذا عن المهام الكبرى التي أخذناها على عاتقنا حتى صارت جزءًا من كياننا؟» شعر نهرو أن رحيل نان عن آناند بهافان سيبرز للعلن الشقاق الذي وقع في العائلة. فذكر أخته بوالدهما موتيلال والبيت العامر الذي كان ربًّا له. وتوسل إليها ألا تنزل بمرتبة آناند بهافان إلى «رمز للخواء».<sup>53</sup>

انزعج نهرو من فكرة رحيل أخته عن منزل الأسرة، لذا ضغط على إنديرا لترسل لعمتها لترجأها أن تبقى في آناند بهافان. فأطاعت إنديرا أباه وأرسلت إلى عمتها رسالة قصيرة تقول فيها: «أتمنى حقًا ألا ترحلي ... هل يمكن من فضلك أن تعيدي التفكير في قرارك؟»<sup>54</sup> لكن نان بانديت صممت على قرارها. وفي أوائل نوفمبر عام ١٩٤٣ انتقلت للسكن في الله آباد في منزل صغير بالإيجار، تاركة لإنديرا وفيروز ملكية منزل آناند بهافان الذي اجتهدا في «ترتيبه وإعادةه إلى جماله وبهائه». تولت إنديرا تنظيف وتهوية وإعادة طلاء المنزل من الداخل، في حين تولى فيروز العناية بالحديقة ليعيد إليها بهاءها الذي كانت عليها أثناء حياة موتيلال نهرو.

وفي نوفمبر قرر نهرو — وهو لا يزال في السجن — كتابة وصيته. وكان وقتها في الرابعة والخمسين من العمر، ولم يكن قد فكر قبل ذلك في القيام بهذا؛ يعود ذلك إلى حد ما إلى أنه لم يتعامل في حياته — على حد تعبيره — «إلا مع ممتلكات محدودة»، وكان غير واثق «من أنه سيكون لديه ما يورثه عند موته. وكان هذا هو السبب» — على حد قوله — «في أنني لم أوْمُن قط على حياتي».<sup>55</sup> كان نهرو قد طُبع على عدم الاكتراث للمال وعدم البراعة في التصرف فيه، ومع أن طبائعه في المعاملات المالية لم تتغير فإنه صار قلقًا على مستقبل إنديرا. وقد عبر عن قلقه ذلك في مذكراته في السجن، ففيها يقول: «إن زواجها غير القانوني بمعنى الكلمة من وجهة نظر القانون الحالي قد يتسبب في مشكلات».<sup>56</sup> كان يريد أن يستوثق من أن إنديرا ستجد ما ترثه منه. لذا يقول في الوصية التي كتبها

في السجن: «تكون ابنتي الوحيدة إنديرا بريادارشيني زوجة فيروز غاندي هي وريثتي الوحيدة التي أترك لها كل ممتلكاتي وأصولي وأمتعتي.» ولم يكن يملك الكثير ليخلفه لها. فلم يكن لديه سوى منزل آناند بهافان ومحتوياته وبعض الاستثمارات والأسهم (وإن كانت قيمتها قد نقصت كثيرًا منذ وفاة موتيلال نهرو) ومبلغ نقدي صغير (كان بدوره قد نقص كثيرًا).

كانت رغبة نهرو في ضمان أن تكون إنديرا هي وريثته الوحيدة هي السبب الذي دفعه إلى كتابة هذه الوصية. وربما خشي نهرو — استنادًا إلى التوتر الذي ساد العلاقة بين إنديرا وعمتها نان بانديت — أن يشب خلاف قانوني بينهما بعد وفاته. إلا أنه عندما عكف على كتابة وصيته ضمن فيها شروطًا أخرى، ظهرت أهمية اثنين منها فيما بعد. لم يترك نهرو شيئًا لأختيه، لكنه ذكر في وصيته أن منزل آناند بهافان «يجب أن يظل مفتوحًا دائمًا» لهما، وأن بإمكانهما «المكوث فيه متى شاءتا وللمدة التي ترغبان فيها.» وذكر بوضوح أنه لا يريد أن تقام له جنازة ذات طقوس هندوسية، فيقول: «لا أريد أن تؤدي أي طقوس دينية من أجلي بعد موتي.»<sup>57</sup>

في يوم رأس السنة لعام ١٩٤٤ كانت إنديرا طريحة الفراش. وأنداك كتبت إلى نهرو تقول: «لا أشكو شيئًا بعينه، لكن كل ما في الأمر أنني أفقد الوزن، وأبدو بحالة سيئة، وينتابني إحساس بشع.» (وفي حقيقة الأمر كانت وقتها حاملًا لكنها لم تكن تُعرف ذلك بعد). وفجأة جاءت مكالمة تليفونية مضطربة من عمتها نان بانديت من لكانو، حيث كان زوجها رانجيت يرقد في أحد المستشفيات. كان رانجيت قد مرض بشدة في سجن باريلي، فنقلته سلطات السجن — لكن بعد تأخير — إلى مستشفى لكانو. وسرعان ما نهضت إنديرا من فراش مرضها وقصدت لكانو مع فيروز في اليوم التالي.

وبعدها بأسبوعين مات رانجيت بانديت وهو في الرابعة والأربعين من العمر. وكان من الممكن إنقاذه من الموت الذي يرجع بشكل مباشر إلى الظروف والمعاملة السيئة التي تلقاها في السجن. وبحلول ذلك الوقت كانت إنديرا وفيروز قد عادا إلى الله آباء تاركين أرملة رانجيت؛ نان بانديت وحدها تمامًا لتحاول مواجهة هذه الكارثة. كانت ابنتاهما الكبيرتان تدرسان في إحدى جامعات أمريكا وأختها في بومباي ونهرو في السجن. عادت نان بجثة رانجيت إلى الله آباء حيث زاد التقارب بينها وبين إنديرا وفيروز اللذين صدمتهما وفاة رانجيت. وأقلعا عن كل أنشطتهما لمواساة نان التي بدت لأول مرة في حياتها ضعيفة

ومحطمة. وقد أقرت نان نفسها بأنها لم تكن لتقدر على تجاوز أزمة وفاة رانجيت بدون إنديرا وفيروز.<sup>58</sup>

في أعقاب وفاة زوج عمه إنديرا وأوائل شهور حملها كانت محطمة جسدياً ونفسياً، و«على وشك الانهيار تماماً». فكانت تخلد إلى الفراش وتوقفت عن الكتابة لأبيها حتى أواخر فبراير. حينها وجدت صعوبة في تفسير هذا الانهيار، فتقول: «لا يسعني سوى تفسيره بأنه إنهاك شديد للغاية، كنت متعبة جداً لدرجة أن عقلي وجسدي رفضا العمل، حتى إنني لم أستطع الراحة ولا النوم ولا الأكل ... لم أشعر حتى أنني حية على الإطلاق ... شعرت كما لو أن ظلاماً مرعباً أو خواءً قد استولى عليّ». ارتاحت حينما عرفت بحملها وعزت — على الأقل — جزءاً من انهيارها إليه. أخبرت نهرو أن طبيبتها فاتسالا سامانت أرادت منها الذهاب إلى بومباي لتكون تحت رعاية وإشراف الطبيب إن إيه بوراندار، وهو طبيب نساء وتوليد مشهور، والإقامة مع كريشنا هاثيسينج إلى أن تضع طفلها في أواخر أغسطس أو أوائل سبتمبر.<sup>59</sup>

منذ أن كانت إنديرا مريضة في مصحة لي فرين، وهي تُنصح مراراً وتكراراً بألا تنجب أطفالاً. لكنها، كما ذكرت بعد عدة سنوات: «كنت أرغب دوماً في الإنجاب، لو كان الأمر بيدي، لأنجبت أحد عشر طفلاً، لكن زوجي هو الذي لم يرد سوى اثنين». غير أن الأطباء في سويسرا ولندن والهند رأوا أن عليها ألا تنجب «ولو طفلاً واحداً». كان هذا الرأي — على حد قولها — «يستفزني ويثير غضبي».<sup>60</sup> وكما كانت الحال في أغلب حياتها، كانت العوائق التي تقف في وجهها لا تزيدها إلا إصراراً. وعلى كل حال كان حدسها في مسألة الإنجاب مصيباً. فمع أن حملها بدأ بداية متعثرة فقد استمر بنجاح.

كان نهرو قد استخدم حجة خطر الإنجاب على صحة إنديرا كجزء من سعيه لإقناعها بعدم الزواج. لكن عندما أخبرته بحملها كان متفائلاً بعض الشيء، ومسروراً لها بلا شك. كتب نهرو في مذكراته بالسجن: «أنا مسرور لأنها سترزق بطفل، مع أن هذا سيلقي عليها بعبء كبير، ومخاطره واضحة ... لكنها تحب الأطفال، وأظن أن احتمال ألا تنجب لخطورة هذا على صحتها كان يضايقها ... غير أنه ينبغي عند تحمل هذه المخاطرة الاستعداد لها بكل الاحتياطات الممكنة».<sup>61</sup>

في مارس ذهبت إنديرا للمكوث مع آل هاثيسينج في شقتهم ببومباي. (في حين ظل فيروز في الله آباد ليشرف على أنشطة حزب المؤتمر المحلية ويدير شئون آناند بهافان). ولما اشتد وهج شمس الصيف في بومباي قامت إنديرا مع آل هاثيسينج وآل فاكيل بزيارات طويلة إلى ماثيران (منتجع صيفي صغير بالقرب من بومباي) وماهاباليشوار حيث جاء

فيروز وانضم إلى إنديرا لبعض الوقت. وقصدت إنديرا بونا حيث التقت بغاندي الذي كان قد أطلق سراحه لتوه من قصر أغاخان. فكتبت إلى نهرو تقول: «عندما وصلت كان (غاندي) جالساً يغزل، فابتسم لي ابتسامة عريضة وربت عليّ كالعادة، إلا أنها كانت تربيتة أخف بكثير. كان يبدو شاحباً وضعيفاً ومتعباً جداً.»<sup>62</sup> لم يكن قد مر على موت زوجته كاستوربا سوى ثلاثة أشهر، وكان هو في فترة نقاهة من مرض شديد. وقتها كان في الخامسة والسبعين من العمر تقريباً، أضعفه السجن والصيام على مر الأعوام، وأشعره موت كاستوربا بالوحدة والعزلة.

في ربيع عام ١٩٤٤ بدأ نهرو وهو لا يزال سجين حصن أحمد نجار كتابة آخر أعماله؛ كتاب «اكتشاف الهند». كان هذا الكتاب هو الوحيد بين كتب نهرو الذي نعلم أن إنديرا قرأته بعناية لأنها راجعت نسخة ما قبل الطباعة لأبيها. في بادئ الأمر كان الكتاب هو المجلد الثاني لسيرة نهرو الذاتية، ويضم فصلاً شديداً الخصوصية عن علاقة نهرو بكامالا وموتها في سويسرا. لكن الكتاب تطور إلى شيء لا يمكن وصفه بسيرة ذاتية بالمعنى الحرفي لها، بل أصبح يكشف عن الكثير. تناول كتاب «اكتشاف الهند» تاريخ الهند القومي، ووصفه سونيل خيلناني بأنه كتاب عن رجل صنع نفسه بنفسه. ففي الكتاب يصف نهرو رحلة الاكتشاف التي تحول فيها من رجل استقى الثقافة الغربية «ولازمه عبء ماضيه الإنجليزي» إلى رجل هندي.<sup>63</sup>

وكان هذا التحول هو لب القصة في الكتاب، لكن من وجهة نظر إنديرا تكمن أهمية الكتاب في نظرة نهرو إلى الهند. فمع أن نظرة نهرو إلى تاريخ الهند كانت رومانسية واعتمدت اعتماداً واسعاً على تحليلات المستشرقين البريطانيين، كان يرى أن تاريخ الهند — ومستقبلها بالتبعية — قابل للتكيف والاندماج والشمول، فيشبه تاريخ الهند بـ «الرَّق العتيق الذي نُقشت عليه طبقة فوق طبقة من الأفكار والتأملات، ومع هذا لم تنجح طبقة في إخفاء أو محو آثار سابقتها تماماً». ففي الهند «وحدة جوهرية» لم تدمرها قط أي «انقسامات سياسية أو كوارث أو نكبات».<sup>64</sup> كانت هذه النظرة الشاملة إلى الهند و«وحدتها» مع ما بها من تعدد واختلاف هي أهم ما ورثه نهرو لابنته.

وفي الوقت الذي عكف فيه نهرو على كتابة «اكتشاف الهند» كانت إنديرا — التي كانت حاملاً في الشهر السادس آنذاك — عاكفة على قراءة عدد كبير من الكتب المتخصصة في كيفية العناية بالأطفال. أعجبها بوجه خاص كتاب إيه إس نيل بعنوان «الطفل المشكلة»،

ورؤيته لمدرسته الشهيرة «المدرسة الحرة»؛ مدرسة سمرهيل في سوفولك. كتبت إنديرا إلى والدها تقول: «من وصف نيل لطريقته في التعامل مع الأطفال تبدو هذه الطريقة كأنها الوحيدة للتعامل معهم ... يقول نيل إن الطفل إن لم يجبر على التعلم ... قد يتعلم فيما بعد، لكنه يتعلم أسرع وتدوم استفادته لوقت أطول. ويقول إنه يجب ألا يُفرض على الطفل أي نوع من الانضباط.» فرد نهرو بأن شكك في جدوى الطريقة التي يقترحها نيل عند تربية الأطفال غير صعبى المراس أو غير المضطربين، وحث إنديرا على تذكر أنه لا يجب للطفل أن يكون سعيداً فحسب، بل يجب له أيضاً أن يصبح في حياته «كائنًا اجتماعيًا يعيش في سلام مع الآخرين ويتعاون معهم».<sup>65</sup>

وفي أواخر يونيو أجرت إنديرا الفحص الطبي للشهر السابع من الحمل، وبدأت تبحث عن المستشفيات ودور الرعاية المناسبة في بومباي. ووقتها كانت تذهب لزيارة الطبيب مرة كل أسبوعين. وفي الوقت الذي يفصل بين كل زيارة وأخرى كثيرًا ما تذهب في زيارة قصيرة إلى بونا أو ماهاباليشوار للهروب من حر الصيف. كانت صحتها أفضل مما كانت عليه لأعوام؛ ومع اقتراب موعد ولادتها تشعر بالحيوية والسعادة والأمل. وفي الشهر الثامن من الحمل تحولت إلى طبيب توليد آخر يدعى «فيثال ناجش شيروودكار» الذي وعدها بتوليد الطفل بنفسه. (في حين رفض الطبيب بوراندار أن يعدها بذلك).

وفي منتصف أغسطس جاء فيروز إلى بومباي ليكون إلى جانب إنديرا عندما تضع طفلها. وفي وقت مبكر من مساء التاسع عشر من الشهر نفسه شرعت إنديرا في كتابة رسالة إلى نهرو، لكن قاطعها زائر جاء للتحديث معها هي وفيروز. وفي الثالثة من صباح اليوم التالي استيقظت وأرادت إنهاء خطابها إلى أبيها، لكنها خشيت أن توقظ فيروز، لذا استلقت في الفراش والليل ينحسر تستمع إلى جسدها.

وعند الفجر شعرت أنها على وشك الولادة. فأيقظت فيروز واتجهوا في الصباح الباكر البارد مع كريشنا هاثيسينج إلى دار رعاية بيل فيو القريبة. واتصلوا بالطبيب شيروودكار ليستدعوه. كانت إنديرا جائعة مع أنها كانت في أولى مراحل المخاض، فتناولت إفطارها من الخبز المحمص. وبعدها وصل الطبيب شيروودكار. وبعد ولادة سهلة جدًا لم تستغرق وقتًا، جاء طفل إنديرا إلى العالم — وكان صبيًا (كما توقعت إنديرا) يزن ستة أرطال ونصفًا بكتلة كثة من الشعر الأسود — في تمام الثامنة واثنين وعشرين دقيقة صباحًا.





## تدهور الأوضاع

في السجن أخذ نهرو يفكر كثيرًا في اسم لحفيده، وأرسل إلى إنديرا قائمة بالأسماء المقترحة، لكنهما ظلًا وقتًا طويلًا دون الاتفاق على اسم.<sup>1</sup> ولهذا ظل الجميع يدعون المولود بـ «الطفل» — الذي نام خلال أول لقاء له مع غاندي في منتصف سبتمبر في بومباي — قبل أن يأخذه والداه إلى البيت في الله آباد. وظل حتى أواخر أكتوبر حينما كان عمره شهرين يدعى بـ «الطفل» أو «الصغير». فكتب نهرو إلى أخته نان بانديت يقول إنه إذا لم تقرر العائلة اسمًا للطفل عما قريب فسيضطرون لدعوته ... بـ «من لا اسم له»، أو «من له أسماء لا تحصى».<sup>2</sup> واقترح على إنديرا أن تتمسك باسم راجيفا راتنا [الذي كانت تفضله] ... وقال لها: «يمكنك أن تجعل اسمي الثاني بيرجيز إن شئت ... ماذا عن إضافة اسم نهرو إلى اسمه؟ لا أقصد أن يكون اسمه مركبًا؛ نهرو-غاندي. فهذا يبدو سخيًا ... ولكن أقصد إضافته كاسم منفصل».<sup>3</sup>

كان طلب نهرو يفصح عن الكثير، لكنه لم يقصد به التآسي بالأسر الحاكمة. يبرر نهرو اقتراحه بقوله: «إنها مسألة ميل حقًا؛ أمنية رجل بلا أبناء في أن يرى اسمه متوارثًا».<sup>4</sup> وعليه سجلت إنديرا اسم طفلها الأول في كتاب الأطفال الخاص به باسم «راجيف راتنا بيرجيز نهرو غاندي». كان اسم راجيف يعني اللوتس مثل اسم كامالا، وراتنا يعني الجوهرة مثل اسم جواهرلال.<sup>5</sup> وبهذا كانت ثلاثة من أسماء الطفل الخمسة مستوحاة من أسماء أفراد عائلة نهرو. أما اسم بيرجيز فيبدو أنه طرأ فجأة على خاطرهم. كان فيروز هو الوحيد الذي لم يكن له رأي في قصة تسمية الطفل الطويلة، لكنه بالطبع أسهم باسم عائلته الذي لا يُنسب؛ غاندي. والحق أنه اسم شهير جدًا، لدرجة أن الناس خارج الهند — حتى المثقفين منهم — كانوا يشيرون إلى إنديرا وابنها راجيف غاندي بوصفهما ابنة وحفيد المهاتما غاندي.

بدأ فيروز يجد نفسه فردًا مهمشًا في العائلة إلى حد ما، مما زاد من انزعاجه. فقبل الزواج كان قلقًا من ضياع هويته بين آل نهرو. وفي حفل زواجه قدّم إلى إنديرا صرة من الملابس ليرمز بها إلى أنه سيوفر لها العناية المادية. لكنهما اضطررا إلى التخلي عن منزلهما في ٥ شارع فورت رود عندما سُجنا عام ١٩٤٢ ومنذ إطلاق سراحهما في العام التالي وهما يعيشان في آناند بهافان. وبعد مولد راجيف كانت وظيفة فيروز الوحيدة هي العمل لدى لجنة المساعدات القانونية لحزب المؤتمر في الله آباد ولكنا والتي تختص بأعمال الإغاثة وتدير المساعدات المالية والقانونية لموظفي حزب المؤتمر المسجونين وأسرههم. ومقابل هذه الوظيفة يتقاضى فيروز مائة روبية شهريًا من حساب حميه نهرو. ومنح نهرو إنديرا وفيروز ألف روبية هدية. لكن حتى مع إقامة إنديرا وفيروز في بيت آل نهرو كانا لا يزالان يجدان صعوبة في تدبر أمرهما ماديًا، وكانت إنديرا — على الأقل — متحرجة من العيش على نفقة أبيها.

كتب نهرو لإنديرا من السجن مطمئنًا إياها يقول: «لا تترددي في السحب من رصيدي متى وجد فيروز ذلك ضروريًا»، ولأنها ظلت قلقة كتب يقول لها: «من الحماسة أن تظلي قلقة بشأن المسائل المالية ... لقد أخبرتك أن تستخدم رصيدي ... ولا أحتاج بالتأكيد إلى أن أكرر ذلك في كل ... مناسبة.»<sup>6</sup> كان تهاون نهرو فيما يتعلق بالشئون المالية جزءًا من شخصيته. قبل زواج إنديرا وفيروز حذرت أخت فيروز «تيهمينا غاندي» نهرو وقالت له بالحرف الواحد: «لم نكن قط أناسًا أغنياء ... وفيروز ليس لديه دخل ثابت، ولا أدري كيف سيتمكن من إعالة زوجته.» فقال لها نهرو إنه ليس قلقًا بشأن قلة دخل صهره المستقبلي. عندئذٍ حاولت تيهميني أن تحذر فيروز نفسه. فقالت له: «لا تغرق في الأحلام» وأخبرته أن عليه أن ينتظر قبل الزواج إلى أن يحظى بدخل ثابت يمكنه من إعالة زوجته، «وخاصة واحدة مثل إنديرا.»<sup>7</sup> لكن فيروز كان لا يكتثر للمال مثل حميه، وهو ما لم تدركه إنديرا حقًا إلا بعد أن تزوجته.

كان موقف نهرو اللامبالي بالمال يعكس زهده فيه. أما فيروز فكان يحب أن يحيا حياة مترفة. لم يكن شخصًا ماديًا لكنه كان يعاقر الخمر، ويدخن، ويتلذذ بتناول الأطعمة الفاخرة، وتأسره المعدات الميكانيكية والكهربائية والسيارات باهظة الثمن. ومع أنه كان عضوًا مميزًا في حزب المؤتمر فإنه لم يعرف التقشف. ومن هذه الناحية كانت طبائعه مختلفة جدًا عن طبائع إنديرا وحميه. فكان صاحبًا ومنطلقًا ومباهيًا وانفعاليًا يفقد أعصابه بسرعة، لكنه يتدارك ما يفعله بالسرعة نفسها. كان ينفجر ضاحكًا بضحكة

مدوية ومجلجلة عندما يطلق النكات البذيئة. أما إنديرا فكانت طبعا متحفظة وهادئة، ولا تنسى الإساءة أبداً. فحتماً كانت هناك مصادمات بينهما، وتفاقت بسبب مخاوف إنديرا المالية. كان واضحاً لبنتي بانديت عمة إنديرا أن علاقة إنديرا وفيروز الزوجية متوترة منذ أوائل عام ١٩٤٣.<sup>٨</sup> ويضاف إلى تلك الضغوط حقيقة أن حياة إنديرا وفيروز العائلية حفلت بعدم الاستقرار. فقد غزت السياسة حياتهما الزوجية وعكرتها كما هي الحال طوال حياة إنديرا.

وفي ٢٨ مارس عام ١٩٤٥ نُقل نهر من حصن أحمد نجار إلى سجن باريلي المركزي في الأقاليم الاتحادية. فسافر بالقطار من هذا السجن إلى ذلك تحت الحراسة عبر الله آباد، التي احتُجز فيها ليوم واحد في «منزله القديم»؛ سجن نايني المركزي. يعني هذا أن بإمكان إنديرا وفيروز رؤيته في زيارة خاطفة عند بوابة سجن نايني. لم تكن إنديرا ونهر قد رأى أحدهما الآخر منذ قرابة ثلاثة أعوام، بالتحديد منذ صباح ٩ أغسطس ١٩٤٢، عندما قُبض على نهر في بومباي. كتب نهر في مذكراته بالسجن يقول: «عند بوابة سجن نايني، كانت إندو ترتدي بنطال الشالوار ... وتقف على مسافة مني! ... فذهبت إليها — وبقيت معها لثوان — وبعدها اضطرت لركوب سيارة الشرطة.»<sup>٩</sup> وفي اليوم التالي لهذا اللقاء القصير كتبت إنديرا إلى أبيها تصف السعادة التي غمرتها برؤيته ثانية، مع أنهما كانا متباعدين، ومع أنهما لم يتمكنا إلا من تبادل بضع كلمات. ندمت جداً لعدم اصطحابها راجيف، فلم يكن نهر قد رأى حفيده بعد. وأخبرت إنديرا والدها بمدى حزنها إزاء ما بدا عليه «من نحول شديد ... [و] ضالة في الجسم».<sup>١٠</sup>

وفي الشهر التالي ذهبت إنديرا براجيف ذي الثمانية الشهور إلى كشمير مع حاضنة راجيف وامرأة ديمقراطية تدعى آنا أورنشولت عملت كمربية لبنتي بانديت، وستصير فيما بعد مربية لأبناء إنديرا. أما فيروز فظل في الله آباد ليعنى بشئون آناند بهافان وليواصل القيام بأعمال الإغاثة لحزب المؤتمر. نزلت إنديرا وراجيف في لاهور عدة أيام، ثم قصدا سارينجار حيث مكثا لدى آل هاثيسينج في بيت بشارع جوبكار رود يطل على «منظر غاية في الجمال لسلسلة الجبال الجليدية بأكملها». وبعدها استقرا في منزل بريجلال نهر (والد بريج كومار نهر) الذي كان المستشار المالي لمهراجا كشمير.

لم تقصد إنديرا كشمير منذ شهر غسلها قبل ثلاثة أعوام، وكما في السابق استسلمت على الفور لسحرها، وبعيداً جداً، أعلى السهول ذات الحر اللافح في سجن باريلي المركزي، حاول نهر أن يصحب بخياله إنديرا إلى الجنة الواقعة في ظلال جبال الهيمالايا:

«أي الزهور تتفتح وأي الثمار تتدلى من أفرع الأشجار المثقلة بها؟ ... لا بد أن اللوتس لا يزال في براعمه ... فهو يزهر على سطح بحيرة دال في يوليو ... وقريباً ما سينبت الكرز والمشمش والتفاح والخوخ ... أما زالت بحيرة دال كما كانت دائماً أم أن الشوارع الراقية قد أحدثت فارقاً كبيراً فيها؟ أي الطيور تزقزق وتغرد على الأشجار؟ أتأمل في كل هذه المناظر المدخرة في كنز ذكرياتي، بل فوق ذلك أتخيل منظر الأودية العالية التي تقود إلى الثلوج وأنهار الجليد بمياه جداولها الباردة كالثلج وهي تقرر وتندفع بسرعة إلى الأودية بالأسفل».<sup>11</sup>

وفي هذه الأثناء، بعيداً في العالم خارج جنة كشمير، كانت الحرب في مراحلها الأخيرة. ففي ألمانيا في عصر يوم ٣٠ أبريل وضع هتلر في مخبئه السري مسدساً في فمه ثم أطلق النار على نفسه منتحراً. وفي الوقت نفسه خسر الحرب أيضاً حليف هتلر الهندي سوبهاس شاندرابوس الذي كان على علاقة وثيقة بكامالا وإنديرا قبل تسعة أعوام في سويسرا. ففي ٣ مايو، سقطت رانجون في يد القوات البريطانية، واستسلم جيش سوبهاس الوطني الهندي الذي كان قد تشكل من القوات الهندية التي أسرها اليابانيون، وهرب بوس نفسه وبعض أتباعه إلى بانكوك، وفورموزا. وفي ٧ مايو استسلمت القوات الألمانية استسلاماً غير مشروط.

وفي ٢٦ يوليو عام ١٩٤٥ في بريطانيا فاز حزب العمال بالانتخابات العامة. وأصبح كليمنت أتلي — الذي كان عضواً في بعثة سيمون التي قوطعت على مستوى البلاد حينما زارت الهند عام ١٩٢٨ — خليفة تشرشل في رئاسة الوزراء. وفي الهند عم الفرح لفوز حزب العمال لأنه كان واضحاً أن حكومة بريطانيا ستكون متحمسة أكثر بكثير لأن تمنح الهند الاستقلال إن تألفت من أعضاء حزب العمال عنها إن تألفت من أعضاء حزب المحافظين، مع أن نائب الملك أرشيبالد ويفل بالغ عندما تنبأ بامتعاض «من الواضح أن أعضاء حزب العمل يعتمرون تسليم الهند إلى أصدقائهم في حزب المؤتمر بأسرع ما يمكن». صار انتهاء الحرب حتمياً عندما أُلقيت قنبلة ذرية على هيروشيما في ٦ أغسطس. وبعدها بثلاثة أيام ظهرت سحابة الفطر الفتاكة (التي تتولد من ذات القنبلة) مرة أخرى فوق ناجازاكي. وبعدها بتسعة أيام مات بوس إثر حادث طائرة في تايبيه، قبل وقت قصير من قبول نائب الأميرال لورد لويس ماونتباتن لاستسلام اليابانيين في جنوب شرق آسيا وسنغافورة. ولكن كما حدث مع هتلر انتشرت قصة تقول إن بوس قد نجا بمعجزة وأنه يعيش خارج الهند، وأنه سيعود ليكشف عن نفسه. لكن ما كان مؤكداً هو أن الحرب قد انتهت أخيراً، ويعني هذا تباطؤاً انتهاء حكم بريطانيا للهند.

في أوائل يونيو عام ١٩٤٥ نُقل نهرو من سجن باريلي إلى سجن المورا حيث سُجن قبل عشرة أعوام وقتما كانت صحة كامالا تتدهور في مصحة بهوالي. وفي الخامس عشر من الشهر نفسه أُطلق سراحه أخيرًا بعد فترة سجن بلغت ثلاثة أعوام تقريبًا. وأُطلق سراح جميع القيادات البارزة في حزب المؤتمر لعموم الهند، وفي اليوم السابق على إطلاق سراحها أعلن نائب الملك ويفل عن تأليف حكومة مؤقتة، يكون كل أعضائها من الهنود عدا رئيس الأركان البريطاني وويفل نفسه.

كانت إنديرا لا تزال في كشمير عندما سمعت في الإذاعة عصر يوم ١٥ يونيو أن والدها سيُطلق سراحه. فحجزت مقعدًا في القطار التالي، وغادرت على الفور إلى الله آباد تاركة ابنها راجيف في كشمير مع زوجة عمها رامشوري نهرو. كانت إنديرا وفيروز في آناند بهافان لاستقبال نهرو الذي عاد إلى منزله بعد سجن طويل وكأنه أوديسيوس العصر الحديث. وبعدها غادرت إنديرا وأبوها بسرعة إلى بومباي لحضور اجتماع لحزب المؤتمر، لكنها لم تلبث أن أصيبت بـإنفلونزا وأخذت درجة حرارتها في الارتفاع. فلما عادت إلى آناند بهافان اضطرت إلى المكوث أغلب الوقت في الفراش. لم تكن صحتها جيدة بما يكفي للعودة إلى كشمير حتى الأسبوع الثاني من يوليو، الذي علمت فيه أن راجيف أيضًا كان مريضًا وأنه صار في الوقت الذي غابت عنه فيه «نحيلًا جدًّا» و«فقد قوته بالكامل». فأخذته على الفور إلى باهالجام حيث أملت أن يعيد «الهواء الجميل المعبق برائحة الصنوبر» إلى كل منهما قواه.<sup>12</sup>

انضم نهرو إلى إنديرا وحفيده في كشمير بعد انعقاد أول مؤتمر للقوميين في سيملا في يوليو عام ١٩٤٥. فشل المؤتمر فشلًا ذريعًا في التوفيق بين مطالب حزب الرابطة الإسلامية وحزب المؤتمر، فكانت النتيجة أنه — وإن كان استقلال الهند قد صار مؤكدًا — فقد صارت وحدتها وهمًا. قدم نهرو إلى كشمير من سيملا لرؤية إنديرا وراجيف، لكنه لم يكن وحده ولم يكن في إجازة فحسب. فقد دعاه القائد الكشميري الشيخ عبد الله هو ومولانا أبو الكلام آزاد وممثل المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية في حزب المؤتمر خان عبد الغفار خان لحضور اجتماع لحزبه السياسي؛ حزب المؤتمر القومي الذي كان يعارض حزب الرابطة الإسلامية وحاكم كشمير الهندوسي المستبد؛ المهراجا هاري سينج. كانت إنديرا قد قابلت الشيخ عبد الله لأول مرة عندما مكثت هي وفيروز لديه في شهر عسلهما في عام ١٩٤٢، لكنها لم تتعرف حقًا إلى «أسد كشمير» — كما كان يلقب — الحازم، طويل القامة (كان طوله يبلغ ست أقدام، في حين كان طول نهرو خمس

أقدام وأربع بوصات) إلا عندئذٍ. مثل نهرو كان الشيخ عبد الله اشتراكياً وعلمانياً. ويعتقد مفهوم الكشميرية (سمو الهوية الكشميرية المشتركة على الديانة)، ولديه خطط لبناء «كشمير جديدة»، لكن هذه الخطط تتطلب تبني إجراءات جذرية منها على سبيل المثال إعادة توزيع الأراضي حالما يطاح بحاكم أسرة دوجرا المستبد؛ هاري سينج. حينما وصل نهرو إلى كشمير رتب الشيخ عبد الله لأن يشارك هو ونهرو وإنديرا وأبو الكلام آزاد في موكب رائع بالقوارب النهرية؛ أحد الطقوس السارينجارية التقليدية. لكنهم ذاقوا جزءاً مما ينتظرهم من مشكلات عندما قامت مجموعة من حزب المؤتمر الإسلامي المعارض بمظاهرة أسفرت عن مقتل واحد من أتباع الشيخ عبد الله على الأقل.<sup>13</sup>

كان الشيخ عبد الله أيضاً مضيف حفل تسمية الطفل راجيف في عيد ميلاده الأول، وقد تركت إنديرا بعد هذا الحفل راجيف ثانياً مع رامشوري نهرو، وذهبت مع أبيها في رحلة تسلق لجبال كشمير لعشرة أيام. باستثناء المرشدين والخدم كانت إنديرا ونهرو وحدهما أخيراً في أكثر مكان يحبانه في العالم. ولم يكونا وحدهما فحسب، بل كانا بمعزل تماماً عن العالم وهما يتسلقان ويخيمان ويتناولان بسيط الطعام المعد على النيران، وينامان في الخيم تحت السماء المرصعة بكويكبات النجوم التي كانا يميزانها عندما ناما في الهواء الطلق في السجن.

في خطاب إلى نان بانديت يصف نهرو كيف أنه عبر هو وإنديرا ممر يامبر باس الذي يصل بين واديا ليدار والسند.

«اضطررنا إلى عبور جرف شديد الانحدار يمتد لخمسين ياردة أو أكثر ويغطيه الجليد والثلج، إن انزلق أحد من عليه فسيهوي إلى عمق كبير يصل إلى ٤٠٠٠ قدم. شق المرشدون لنا طريقاً عبر الجبال الجليدية فعبرنا خلاله. وعلى غرار أغلب أمور الحياة اتضح أن الأمر أسهل مما يبدو. ومع هذا فعندما نظرت إلى الورا بدت فكرة العبور مرعبة جداً، فسعدت لأنني وإندو استطعنا العبور إلى الجانب الآخر ... ثم شاهدنا أحصنة الركوب وأحصنة نقل المتاع وهي تقاد لتعبر الجرف. فكدت أصاب بالغثيان من المنظر؛ إذ كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن يهوي أحدها إلى أسفل الجرف ... وتساءلت كيف كنت سأشعر إن رأيت إندو أو أي شخص آخر عزيز عليّ وهو يعبر هذا المنحدر شبه العمودي. لا أعتقد أنني كنت سأحتمل ذلك.»

يعيد هذا الموقف إلى الذهن المرة التي سقط فيها نهرو في صدع عميق سقطت كادت تؤدي بحياته أثناء تسلقه الجبال في شهر العسل. لا تقتصر جاذبية كشمير على عظم جمالها. فركوب المخاطر هناك ينطوي على إثارة كبيرة. لكن في خطابه إلى أخته يختم نهرو وصفه لعبوره هو وإنديرا لمر يامبر بتعليق ظريف، فيقول: «ليتني كنت أحمل كاميرا لألتقط صورة ... لي أنا وإنديو ونحن نعبّر؛ كان هذا سيمنحنا شهرة متسلقي الجبال الجسورين. لكنه لن يكون حقيقياً، كأغلب ما يشتهر عن الناس.»<sup>14</sup> وكتب نهرو إلى غاندي أنه قطع هو وإنديرا في رحلتهم في كشمير أكثر من ١٠٠ ميل، ووصلا إلى ارتفاعات يبلغ طولها ١٤٠٠٠ قدم، وعبرا مجازات خطيرة، وخيما في أودية نهريّة نائية، وعادا «مبتهجين من كل ذلك».<sup>15</sup>

وفي سبتمبر عادت إنديرا براجيف إلى الله آباد. وفي الشهر التالي مرضت بالنكاف، واضطرت إلى لزوم غرفة أرضية بأناند بهافان. وظلت لعدة أسابيع لا ترى ابنها أو زوجها أو أي أحد آخر عدا الخدم. كانت تشعر بالتعاسة والاكتئاب. فمئذ عودتها إلى الهند عام ١٩٤١ ونوبات الأمراض تهاجمها، وفيها السل الرئوي، «مشكلتها القديمة». كان الكل قلقاً من مرضها، ومع هذا لم يتحدث أحد عنه. وأثناء مرض إنديرا بالنكاف عكفت على مراجعة نسخة ما قبل الطباعة لكتاب «اكتشاف الهند» لنهرو الذي كان وقتها يدير الحملات الانتخابية في جميع أنحاء الهند استعداداً لانتخابات مجلس النواب المركزية والمحلية التي من المقرر إقامتها في جميع الولايات من نوفمبر عام ١٩٤٥ إلى مارس عام ١٩٤٦. وفي الواقع نادراً ما كان نهرو يمكث في منزله في هذه المدة.

وفي الانتخابات فاز حزب المؤتمر في جميع الولايات ما عدا ولاية البنغال في شرق البلاد، ووليتي السند والبنجاب في غربها. إلا أن حزب جناح؛ حزب الرابطة الإسلامية قد أبلى بدوره بلاء حسناً. وأنداك كانت بريطانيا مثل المؤتمر ترغب في وحدة الهند واستقلالها. فندبت في أوائل عام ١٩٤٦ ستافورد كرييس لبعثة إلى الهند من جديد، على الرغم من فشل بعثته إلى الهند قبل أربعة أعوام، فجاء كرييس على رأس بعثة وزارية مكونة من ثلاثة وزراء لوضع خطة لجعل الهند دولة فيدرالية. لكن بسبب العداء بين حزب المؤتمر وحزب الرابطة الإسلامية ولجاجة جناح كانت المفاوضات التالية صعبة وغير مثمرة إلى حد بعيد. ف «حكماء البعثة الثلاث» — كما وصفهم نائب الملك — قدموا العديد من التنازلات، لكن كما قال ويفل: «لم تثمر روح الود التي أتوا بها، وكلامهم المعسول الطيب، ووعودهم البراقة إلا القليل. فالسياسيون الهنود ليسوا أطفالاً غُرّاً حتى وإن كانوا يرتدون ثياباً شبيهة بقماط الرضع.»<sup>16</sup>

في مايو صار نهرو رئيساً لحزب المؤتمر الوطني، وكانت هناك مواجهة جديدة بين أعضاء بعثة كرييس الوزارة وقادة حزب المؤتمر وحزب الرابطة الإسلامية في مؤتمر بسميلا. حيث اجتمعت أطراف الخصومة المعتادة وتصرفت كسابق عهدها. رفض جناح مصافحة مولانا أبو الكلام آزاد ونعته بالعميل الهندوسي. مثل نهرو حزب المؤتمر في المفاوضات، غير أن غاندي — الذي جاء إلى سميلا في قطار خاص مع «خمس عشرة تابعاً شاحب الوجه» — اضطلع بدور مهم بمنأى عن الأنظار. وستافورد كرييس كان يفاوض غاندي النباتي مثله سرّاً، إلا أنه خرج صفر اليدين، وفي هذا يقول ويفل: «لست ... مقتنعاً بأن كرييس ... قد غرر بغاندي، بل أعتقد أن غاندي هو الذي أوقع بكرييس».<sup>17</sup> وإلى منتصف مايو لم يتوصل إلى أي اتفاق في المؤتمر، ولم يتحقق شيء، حتى وصلت المفاوضات إلى طريق مغلق. وصار واضحاً أن الهند ستخضع للتقسيم. وكان ذلك مفاجئاً لنهرو وغاندي على وجه الخصوص.

غير أنه في الثاني من سبتمبر عام ١٩٤٦ اتخذت أول خطوات نقل السلطة إلى الهند عندما أقسم أعضاء الحكومة المؤقتة الجديدة للهند يمين تقلد مناصبهم، ورأسهم نهرو الذي صار يملك جميع صلاحيات رئيس وزراء المستعمرة المستقلة، مع أنه رسمياً شغل منصب نائب رئيس المجلس التنفيذي. واضطلع نهرو بوزارة خارجية الهند. وقد كتبت إنديرا إليه من الله آباد في اليوم السابق على أدائه القسم تقول:

### أبي العزيز،

كم أشتاق لأن أكون في دلهي الآن لأشهد هذا؛ إنه نصر لك على الصعيد الشخصي، والأهم نصر لهذه المنظمة العظيمة التي تمثلها. سأكون معك بعقلي وروحي [في الثاني من سبتمبر]، أتمنى لك التوفيق في هذه المهمة الجديدة التي أخذتها على عاتقك. أتمنى أن تتمكن من محو المفاسد العديدة المخزية التي يعانها حكم هذا البلد حتى تستطيع الهند حقاً المضي إلى الحرية والاستقلال الحقيقي. النصر للهند!

مع خالص حبي، إندو<sup>18</sup>

لكن الخوف ومعه الأمل سيطرا على أجواء البلاد مع اقتراب الاستقلال. ففي ١٦ من أغسطس، الشهر السابق على إعلان الاستقلال، دعا جناح إلى إقامة «يوم الحسم» «لتقوم



دولة باكستان». فقام المسلمون في كالكتا بإضراب، ووقعت أعمال شغب ونهب. وبعد ثلاثة أيام من الفوضى كان ما لا يقل عن ٥٠٠٠ شخص قد قتلوا و ١٥٠٠٠ قد أصيبوا. فيما عرف بـ «مذابح كالكتا الكبرى»، التي كانت بمنزلة البوق الذي أُنذر بالمذابح الطائفية التي ستبتلع الهند في العامين القادمين.

في صيف عام ١٩٤٦ اكتشفت إنديرا أنها حامل ثانية. آنذاك كانت هي وفيروز يعيشان معاً حياة هادئة نسبياً في الله آباد. فقد كان أكثر ما تمنته إنديرا في ذلك الوقت — حسبما ذكرت بعدها بأعوام — هو أن تكون لها حياتها العائلية الخاصة مع زوجها وأطفالها. كان استقلال الهند يلوح في الأفق، وتصورت إنديرا أنها بعده ستتحرر من قبضة التاريخ وتهتم بمصيرها الخاص. إضافة إلى أن الاستقلال المادي والاستقرار بدواً — لأول مرة — ممكنين. فقد حصل فيروز على أول وظيفة حقيقية له؛ إذ عين مديراً لجريدة «ناشيونال هيرالد» التي تتخذ من لكانا مقراً لها والتي أسسها نهرو عام ١٩٣٧ لتكون ناطقة بلسان حزب المؤتمر والصراع من أجل الحرية. توقف إصدار الجريدة عام ١٩٤٢ في بداية حركة تحرير الهند بعد رفضها الخضوع للرقابة. لكنها عادت إلى الصدور من جديد في سبتمبر عام ١٩٤٦ مع تأسيس حكومة الهند المؤقتة، وقد رتب نهرو لأن يشغل فيروز وظيفة مدير عام الجريدة براتب شهري يبلغ ٦٠٠ روبية.

في نوفمبر انتقلت إنديرا وفيروز إلى لكانا وأجراً بيتاً من طابق واحد في منطقة هوزراتجانج، كان عيبه الوحيد هو احتواء حديقته على مقابر للمتمردين. كان فيروز يهوى النجارة ويبرع فيها، فصمم وصنع أثاثاً متقناً أثبت به هو وإنديرا منزلهما. في حين زينت إنديرا المنزل وفقاً لذوقها الجميل الذي يميل نحو البساطة، وحول فيروز — الذي كان بستانياً موهوباً — مقابر المتمردين إلى حديقة زهور وشجيرات. وبدا أن كل شيء صار مهياً لأن تحظى إنديرا وفيروز بحياة زوجية مثالية؛ ففيروز أصبح أخيراً عائل أسرته، وصار لديهما منزل مثالي، وطفل جميل وآخر في الطريق.

كان من الواضح أن وظيفة فيروز بجريدة «ناشيونال هيرالد» مناسبة له، في البداية كان نهرو راضياً عن أداء صهره في العمل. وبعد ستة شهور من تعيين فيروز في الجريدة كتب نهرو يقول: «هناك سلام في مكتب الجريدة، وتعاون بين أقسام التحرير والإدارة والنشر»<sup>19</sup> لكن هذا الوضع لم يدُم طويلاً. فلم يكن الجميع راضين عن أداء فيروز كما كان نهرو. ففيروز لم يكن صحفياً ولا رجل أعمال. وقد اشتكى «إم شالاباثي راو» رئيس تحرير جريدة «ناشيونال هيرالد» بعد عدة سنوات من «جهل» فيروز و«عدم خبرته وتهوره». ووفقاً لراو أدار فيروز الجريدة إدارة تعسفية وطائشة.<sup>20</sup>

غير أن وضع الجريدة المالي كان أكثر ما أثار القلق. فبعد وقت قصير من تولي فيروز لإدارة الجريدة بدأت تعاني عجزًا كبيرًا من فرط السحب البنكي، وهو ما أقلق نهرو فكتب إلى فيروز يحدثه فيه. وفوق ذلك يبدو أن فيروز قد استولى على مبلغ قدره ٢٠٠ ألف روبية كان براتب سينج مهراجا بارودا قد قدمه إلى الجريدة كقرض بلا فائدة. فلما علم الأمر بعث فيروز إلى سكرتير نهرو في دلهي ببرقية مبهمة تنم عن زعره، يقول فيها: «برجاء لقاء لأكسمان شخصيًا «نقطة» قرابة أربعين ألف روبية محتجزة للتحقيق فيها ولا شيء مؤكد «نقطة» يجب أن تساعدني وإلا غرقت «نقطة» أبرق الرد فورًا». لكن فيروز لم يسد القرض قط، وعندما تأسس ائتمان بعدها ببضع سنوات للإشراف على إدارة الجريدة المالية تنازل المهراجا براتب سينج عن قرضه ووهبه للائتمان كتبرع.<sup>21</sup>

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك مسألة معقدة أخرى، وهي مسألة إصدار طبعة في نيودلهي، التي كان نهرو متحمسًا لأن يبدأها فيروز. فتعاقد فيروز لشراء ماكينات طباعة باهظة الثمن من أمريكا بمساعدة من البنك التجاري المتحد من أجل مشروع طبعة دلهي. وصلت ماكينات الطباعة في موعدها، لكنها ظلت في أقفاص الشحن على أرصفة ميناء بومباي لسنتين فيما أخذت غرامة تأخير تفريغها وفوائد قرض البنك في التراكم. لم يُمكن العثور على مكان لتخزين الماكينات في دلهي. وفي النهاية أخفق فيروز في إطلاق مطبعة دلهي، غير أن المدير الذي خلفه أطلقها فيما بعد.<sup>22</sup> كان انشغال نهرو الشديد بالشئون المحلية والدولية يمنعه من مراقبة إدارة فيروز للجريدة عن كثب، لكن إنديرا اضطلعت بهذا، وسرعان ما أهمها الأمر، وأصبح سببًا يضاف إلى أسباب توتر علاقتهما الزوجية.

بعد شهر بالضبط من انتقال إنديرا مع فيروز إلى لكانا عادت إلى دلهي للمكوث لدى والدها في بيته الحكومي في شارع يورك رود. ظاهريًا ذهبت إنديرا إلى هناك لتساعد نهرو في إعداد البيت الذي سيقم فيه بصفته رئيس الحكومة المؤقتة، ولتضع طفلها في دلهي حيث الإمكانيات الطبية أفضل من لكانا. لكنها أرادت أيضًا أن تباعد قليلًا عن فيروز. فبعد وقت قصير من استقرارهما في لكانا بدأت إنديرا تدرك أن لفيروز علاقات مع عدة سيدات هناك. وقد أزعجها بوجه خاص علاقته بابنة عمته الصغيرة ليكها بانديت التي كانت آنذاك صحفية متدربة في جريدة «ناشيونال هيرالد». وفي الواقع كان فيروز هو من أمّن لليكها تلك الوظيفة، ووفقًا لنايانتارا أخت ليكها كان فيروز «مولعًا جدًا» بليكها، وكانت إنديرا «غيورة جدًا».<sup>23</sup> لاكت الألسنة الأمر، فتركت ليكها الجريدة. كان حدثًا مؤلمًا لإنديرا، وقد تحول في مجتمع لكانا الصغير الضيق إلى ما يشبه الفضيحة.

لكن أكثر علاقات فيروز الغرامية جدية كانت علاقته بفتاة مسلمة وهي ابنة علي زهير، أحد ساسة لكانو. كان فيروز قد التقى بهذه الفتاة في لكانو، إلا أنها في الواقع كانت تعمل في نيودلهي لدى إذاعة كل الهند. وقد كانت علاقة فيروز بابنة زهير جادة، بخلاف ما سبقها وما تلاها من علاقات. ففي العلاقات الأخرى كان فيروز يظل «بلا أي التزام»، وكانت إنديرا — عندما تعلم بعلاقاته الغرامية — تتجاهلها. لكن فيروز وقع في حب ابنة زهير، وأخبرها أنه يريد أن يطلق إنديرا ويتزوجها. وقد بادلت الفتاة الحب، وأخبرت أباه بنواياه.

كتب علي زهير الذي كان وزيراً من حزب المؤتمر في الأقاليم المتحدة إلى نهرو يبثه قلقه، وعليه أرسل نهرو في طلب فيروز. لم يجبن فيروز وأخبر نهرو أنه يريد أن يطلق إنديرا، وأنه يتحمل مسئولية فشل زواجهما. فاستدعى نهرو إنديرا وسألها عما تريد أن تفعل حيال الأمر. أوضحت إنديرا أنها لا ترغب في الطلاق. وعندها قرر نهرو أن يقوم بما يستطيع ليحافظ على زواجهما. فعهد بهذه المسألة إلى صديقه المقرب رافي أحمد كيداوي، وطلب منه أن يتدخل لينهي المسألة ويقطع الطريق على الفضيحة التي ستنتج عن علاقة فيروز الغرامية. فقام كيداوي بما يمليه عليه الواجب، فقصده لكانو وطمأن علي زهير إلى أن العلاقة بين فيروز وابنته لن تفضي إلى شيء. وبعدها حث فيروز على ترك ابنة زهير، وهو ما قام به فيروز على مضض شديد بعد مقاومة. وهكذا في آخر الأمر انتصرت إنديرا في هذه الجولة، لكنه كان انتصاراً أجوف. فمع أن العلاقة الغرامية انتهت وتزوجت ابنة زهير من رجل آخر، فقد زادت الطريقة التي أكره بها فيروز على الاستمرار مع إنديرا من توتر زواجهما.

وكما هو متوقع بدأت إنديرا تدريجياً تزيد من الأوقات التي تمضيها بعيداً عن لكانو. وكان نهرو يحتاجها في دلهي. وقد ذكرت إنديرا بعدها بأعوام، عندما سألها كاتب سيرتها دوم موراييس عن حياتها وقتما كانت مديرة ومضيفة منزل نهرو، أنه كان عليها بالطبع القيام بهذا الدور لأن أباهما كان مضطرباً بأعمال أهم من زوجها.<sup>24</sup> فسرت إنديرا لشخص آخر سبب مساعدتها لنهرو بأن قالت: «شعرت أن من واجبي أن أساعد [أبي]. وكان ... من المهم للدولة أن يعنى أحد به. ولم يكن هناك من يقوم بهذا سواي.»<sup>25</sup> غير أن العيش مع نهرو في دلهي كان يناسب حاجة إنديرا نفسها؛ إذ كان بمنزلة مخرج لها من مشكلاتها الزوجية. ولا بد أن طول غياب إنديرا وإقامتها لدى أبيها كان مذكلاً لفيزوز. لذا لجأ إلى غيرها ليسري عن نفسه.

كانت علاقتهما بمنزلة حلقة مفرغة. ومع هذا وطوال خمسة أعوام لاحقة إلى أن أصبح فيروز عضواً بالبرلمان وانتقل إلى دلهي، ظلت إنديرا تنتقل بين دلهي ولكناو بطفليها. من الواضح أن نهرو كان على علم بتوتر علاقتهما الزوجية، ومع أنه كان كثيراً ما يُتهم بأنه ساهم في توترها؛ لأنه كان يطلب من إنديرا المكوث معه في نيودلهي، فقد كان ذلك الاتهام أبعد ما يكون عن الصحة. ففي يونيو عام ١٩٤٧ على سبيل المثال كتب نهرو إلى نان بانديت يقول: «أتمنى بشدة أن تستقر إنديرا للوقت الحالي في لكناو. يجب أن يواصل فيروز عمله في جريدة «ناشيونال هيرالد»، ومن الأنسب أن تمكث إندو هناك لوقت طويل من السنة.»<sup>26</sup> لم يحدث خلال زواج إنديرا وفيروز أن انفصلا بصورة رسمية، لكن بمرور الوقت تناقصت المدة التي أمضيها معاً أكثر فأكثر. ويذكر أنه عندما كان زواج ابنة أخت نهرو ناياترا بانديت ساهجال يتداعى في أواخر الخمسينيات أخبرها نهرو بأن عليها إما أن تصلح علاقتهما الزوجية أو تنهيها، قائلاً: «لا تحذي حذو إندو التي تركت المسألة معلقة إلى الأبد، فلا هي متزوجة ولا هي منفصلة.»<sup>27</sup>

في ١٣ من ديسمبر عام ١٩٤٦ كانت إنديرا وفيروز مقيمين في دلهي في بيت نهرو بيورك رود لأن طفلهما كان على وشك القدوم. وفي عصر ذلك اليوم عرجت السيدة كرييس عليهما وطلبت من إنديرا أن تصحبها للتسوق لشراء شال كشميري. وقتها كانت إنديرا تشعر أنها ضعيفة ومتعبة، لكنها لم ترد أن تخيب رجاء السيدة كرييس، فركبت معها الطريق إلى سوق الحرفيين الكشميريين في دلهي القديمة. كان الجو بارداً مساءً ذلك اليوم، فلما رجعت إنديرا إلى البيت اتجهت إلى الفراش مباشرة. وقتها كان البيت مزدحماً لأن آل هاثيسينج وغيرهم من الأقارب كانوا قد جاءوا للزيارة. وربما لأن إنديرا كانت تشعر بالتعب في المراحل الأخيرة من الحمل — أو لأن علاقتهما هي وفيروز كانت متوترة — كانت إنديرا وفيروز لا يتشاركان غرفة نوم واحدة؛ فيضطر فيروز إلى النوم في خيمة بحديقة البيت، مما كان يزعجه.<sup>28</sup>

في الثالثة من صباح اليوم التالي أيقظت خادمة بالبيت كريشنا هاثيسينج قائلة: «السيدة غاندي لا تشعر أنها على ما يرام.» قصدت كريشنا غرفة إنديرا فوجدتها قد بدأت المخاض. فأرسلت الخادمة لإيقاظ فيروز في خيمته، وبعدها أوصلت كريشنا وفيروز إنديرا إلى مستشفى ولينجدون الخاص دون أن يوقظا نهرو. هاتفت كريشنا طبيب توليد إنديرا الإنجليزي، الذي وصل بعدها بساعة ونصف وهو عصبي المزاج لأنه أوقظ من نومه

في وقت غير ملائم. اختفى الطبيب في غرفة التوليد، في حين ذرع فيروز وكريشنا ممر المستشفى جيئةً وذهاباً. مرت ساعات. وبعدها في حوالي التاسعة والنصف من صباح ذلك اليوم، ظهر الطبيب أخيراً وقال: «حسناً، لقد أنقذتها ... الطفل على ما يرام، لكن السيدة غاندي مرت بوقت عصيب، وخسرت الكثير من الدم.» ثم دار على عقبيه، تاركاً فيروز وكريشنا ليعرفا بنفسيهما من إحدى الممرضات أن الطفل ذكر.

في الواقع كانت إنديرا قد أصيبت بنزيف حاد، وشارفت على الموت. وعندما دخل فيروز وكريشنا حجرتها بالمستشفى وجداها قد استحالت إلى جسد شاحب يرقد على الفراش بلا وعي تقريباً. «فمع كل ما نزفته من دم ... بدا أنها ليست ... على قيد الحياة.» فهاتفت كريشنا على الفور نهر، الذي وصل بعدها بوقت قصير، وجلس ثلاثتهم حول فراش إنديرا، والقلق يملكهم إلى أن بدأت تستفيق. غير أنه لم يعلن أن حالتها قد جاوزت مرحلة الخطر إلا بعد عدة أيام.<sup>29</sup>

وبذا جاء سانجاي غاندي إلى العالم. ومنذ لحظة وصوله وهو مثير للمشكلات.

بعد أن وضعت إنديرا ابنها الثاني ظلت في دلهي لتتماثل للشفاء، في حين عاد فيروز إلى لكانو. وسرعان ما غادر باقي الضيوف والأقارب أيضاً. وخلا البيت لإنديرا ونهر من الجميع، باستثناء الخدم وسكرتير نهر «إم أو ماثاي». كان ماثاي رجلاً قصيراً وسميناً يملك وجهاً يشبه في استدارته القمر، كان من جنوب الهند، وقد تسلسل إلى حياة إنديرا ونهر في العام السابق، دون أي إشارة للدور الذي سيلعبه في حياتهما فيما بعد. فبعدما أُطلق سراح نهر من السجن بوقت قصير، في صيف عام ١٩٤٥، كتب ماثاي (الذي لم يكن قد قابل نهر من قبل) إلى نهر يعرض عليه خدماته لأنه — كما ذكر — كان «يبحث عن هدف في الحياة».<sup>30</sup> حينما التقيا أعجب نهر بجديته وإخلاصه، وقبل بتوظيفه في وظيفة بلا تعريف محدد.

في البداية كان ماثاي منوطاً بمراسلات نهر و طباعة كتاباته، وبعدها تعقدت مسؤولياته واتسعت تدريجياً. فعلى سبيل المثال، عهد إليه نهر بشئونه المالية المعقدة (وفي ذلك تدابير نشر كتاباته) التي كانت إنديرا تتولاها سابقاً. وبعد الاستقلال عندما صار نهر رئيس وزراء الهند، عين ماثاي سكرتيراً خاصاً له، وصار مسؤولاً عن العديد من كتاب الاختزال وكتاب الآلات الطابعة. وبحلول هذا الوقت كان كل شيء يمر من تحت يديه قبل أن يصل نهر.

وفي الواقع طوال اثني عشر عامًا لاحقة كان ماثاي درعًا بشرية يحيط بنهره؛ فهو الذي يقرر من يقابله نهره، ومن يتحدث إليه على الهاتف، ويتحكم في كل ما يدخل إلى مكتب نهره ويخرج منه. فكان ينتقي الأوراق التي يطلع عليها نهره بعناية، وكثيرًا ما كان يرفق بها ملاحظاته ومذكراته الخاصة. وبالنسبة للأوراق التي يجدها ماثاي أتفه من أن يطلع عليها نهره يتصرف فيها من تلقاء نفسه باسم وصفة رئيس الوزراء. كان يرسل لنهره مذكرات حول العديد من القضايا، ويبلغه بالشائعات. وكما يشير كاتب سيرة نهره إس جوبال، يكون رئيس الوزراء عادة «شخصًا وحيدًا ... منقطعًا عن المجتمع». فنهره — لسبعة عشر عامًا — لم يدخل متجرًا أو بنكًا، ولم يوقف سيارة أجرة أو يستقل حافلة. ولم يحمل معه مالا أو يجري اتصالًا تليفونيًا بنفسه قط. كان ماثاي يتولى كل شيء، ودائمًا رهن إشارة نهره. كان نهره يعتمد على ماثاي في الحصول على المعلومات، ويستعين به «ليعفيه من الأمور الروتينية التافهة، ويحميه من الأصدقاء المزعجين، ويحذره من زملائه المتآمرين».<sup>31</sup> وبهذا كان ماثاي في موقف يمكنه من استغلال اعتماد نهره عليه، وتعزيز نفوذه الخاص، وجمع ثروة وسيطرة على حساب نهره. فلا عجب أن بعض أفراد عائلة نهره كإنديرا ونان بانديت وبنيتها وأصدقاء العائلة المقربين مثل بادماجا نايدو قد حرصوا على أن تظل علاقتهم طيبة بماثاي الذي كانت له يد في كل نواحي حياة نهره، وكان مقربًا منه.

لكن من كان هذا الرجل بالضبط؟ كان ماثاي مثل كريشنا مينون — الذي تحول ماثاي إلى كراهيته — يجذب وينفر نفس القدر من الأشخاص تقريبًا. لم يكن هناك حياديون مع ماثاي، فكانت النتيجة أن آراء الناس فيه كانت منحازة جدًا. بالإضافة إلى هذا، فإن الكثير مما نعرفه عن ماثاي يأتي من سيرته الذاتية المكونة من مجلدين، التي كتبها في منتصف السبعينيات بعدما صار مدمن خمر حائق، متلهفًا للنكايه بمن شعر أنهم أخطئوا في حقه، وخاصة إنديرا غاندي.

في سيرته الذاتية لا يذكر ماثاي متى ولد، لكنه كان على الأرجح يكبر إنديرا بحوالي عشرة أعوام. كان مسيحيًا من كيرالا، وقد قرر في وقت مبكر من حياته ألا يتزوج. ادعى أنه يحمل درجة علمية من جامعة مدراس، غير أن كاتب سيرة نهره يقول إنه كان «كاتب اختزال غير متعلم».<sup>32</sup> كانت لغته الإنجليزية جيدة وكان واسع الاطلاع. وقد عمل إبان الحرب لدى منظمة الصليب الأحمر الأمريكية على حدود منطقة آسام-بورما. كان يتقاضى راتبًا مجزيًا، وعندما انتهت الحرب حصد من منظمة الصليب الأحمر مبلغًا قيمًا يزيد عن حاجته. فادخر واستثمر هذا المبلغ، الذي أدر له دخلًا شخصيًا ضخمًا. وفي

مذكراته يفتخر بأنه لم يتقاضَ راتبًا من الحكومة أو من نهرو، وبأنه لم يُطلب منه قط أن يوقع على قسم سرية.<sup>33</sup> لذا شعر أن بمقدوره إفشاء بعض المسائل المثيرة للجدل في سيرته الذاتية. غير أن هذا لم يعطه الحق في أن يقوم بعمل نسخ من جميع أوراق نهرو والاحتفاظ بها، وهذا لم يُكتشف إلا بعد وفاة نهرو.<sup>34</sup> وقد زعم أيضًا أن ماثاي كان يعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.<sup>35</sup>

وسواء كان ماثاي (الذي كان يدعى بـ «ماك» في دائرة معارف نهرو) يعجب الناس أو لا، اتفق الكل على أن ماثاي في السنوات الأولى كان بمنزلة هدية لنهرو. كان ماثاي كفؤًا وجلودًا وبارعًا. وكان أول من يصل إلى المكتب صباحًا وآخر من يغادره مساءً. وكان تحت الطلب لأربع وعشرين ساعة فيمكن أن يُستدعى في أي وقت من غرفته ببيت نهرو. كان يسافر مع نهرو ويشرف على كل أنشطته تقريبًا، السياسية منها والشخصية، مما عنى أنه على اتصال دائم ومباشر بإنديرا. لم تكن لديه أسرة ولا مسئوليات ولا اهتمامات — ولا حياة على ما يبدو — تتجاوز حياة نهرو ومتطلباته.

لكن مكانة ماثاي كانت غير عادية، فسرعان ما تجاوز دور المستخدم العام. وقد كان رجلًا معتدًا بنفسه وماكنًا. وحينما يكون على سجيته يتصرف على نحو سوقي، لكنه حرص على ألا يكون فجًا أبدًا في وجود نهرو. كان نهرو يمقت السوقية، غير أنه علم بمعاقرة ماثاي للخمر، وتغاضى عنها.<sup>36</sup> وعندما ناور ماثاي ليكسب ثقة نهرو ويقترح دائرة مقربيه تصرف كما لو أنه أدرك المكانة التي يستحقها. ومع أنه من الناحية العملية سكرتير نهرو، ويؤدي — على الأقل في البداية — مهام الخدم كالكتابة على الآلة الكاتبة، أو إحضار نوع السجائر التي يفضلها نهرو (سجائر ستيت إكسبريس ٥٥٥)، لم يكن سلوكه يوحي بأنه تابع. وبالعكس نهرو لم يكن محصنًا ضد غرور السلطة. وحتى لو كان ماثاي يتمتع بأخلاق مثالية، فستظل المكانة التي حظي بها في بيت نهرو منذ عام ١٩٤٦ فما بعده تمثل خطرًا، وماثاي لم يكن ملائًا.

في ديسمبر عام ١٩٤٦ وقتما كان ماثاي قد رسخ قدميه بالفعل في بيت آل نهرو، وتقريبًا في الوقت نفسه الذي أتى فيه سانجاي غاندي إلى العالم، في لندن، كتبت إدوين ماونتباتن في مذكراتها عبارة مبهمة تقول: «مهمة مرعبة جديدة محتملة».<sup>37</sup> رأى رئيس الوزراء البريطاني الجديد كليمنت أтли أن نائب الملك في الهند أرشيبالد ويفل ذا الشخصية غير الجذابة، وزوجته المملة كويني غير مناسبين للإشراف على انسحاب بريطانيا من الهند.

لذا دعا زوج إدوينا؛ فيكونت بورما لويس ماونتباتن — أو «ديكي» كما كان مقربوه يدعونه — إلى تسلم مهام ويفل ليكون بهذا آخر نواب الملك في الهند.

قبل أربعة وعشرين عامًا، عندما كانت إدوينا أشلي وريثة شابة وفاتنة، خُطبت إلى ديكي ماونتباتن الجذاب في دلهي يوم عيد الحب عام ١٩٢٢؛ وقتما كان ماونتباتن يجول الهند مع أمير ويلز. ثم تزوجا في شهر يونيو التالي، وكان أمير ويلز قد شاهد العريس في الزفاف. وكما ذكر المؤرخ دافيد كانادين «كان زواجهما من الناحية الاجتماعية مثاليًا؛ فهي تملك الثروة، في حين يملك هو المكانة الاجتماعية، وكلاهما لديه الطموح.»<sup>38</sup> في الواقع كانت إدوينا قد ورثت مليوني جنيه استرليني عن جدها السير إرنست كاسل، في حين كان ماونتباتن يجني سنويًا ٦١٠ جنيهات استرلينية فقط، لكنه ولد أميرًا؛ الأمير لويس فرانسيس باتنبرج (لم يعد اسم عائلته ألمانيًا بناءً على مرسوم ملكي صدر إبان الحرب العالمية الأولى)، وكان ابن حفيد الملكة فيكتوريا. وفي العشرين عامًا الأولى من زواج إدوينا ولويس ماونتباتن عاشت إدوينا حياة كسل تافهة اتخذت فيها سلسلة من العشاق، في حين كان زوجها النشيط الذي لا ينطفئ عزمه يترقى في المناصب في البحرية الملكية.

غير أن الحرب العالمية الثانية هي التي صنعت كلا الزوجين. فقد صار ديكي الحاكم الأعلى لجنوب شرق آسيا وأوقفت قواته هجمات اليابانيين على الهند وأعادت احتلال بورما. في حين مرت إدوينا بنقطة تحول في حياتها؛ فأثناء قصف لندن ظلت إدوينا تواظب على جلسات تدريب الأظافر أسبوعيًا، وتستجلب كميات من أنواع أحمر الشفاه النادرة، لكنها اعتنقت كذلك قضايا اليساريين، وصارت مؤيدة للاتحاد السوفييتي، ومتعاطفة مع الحركات القومية، ومعادية للرأسمالية. وعملت بلا كلل لدى منظمة الصليب الأحمر وفرقة إسعاف سان جون، واضطلعت بغيرها من أعمال الإغاثة المهمة والأنشطة الاجتماعية. وفي أواخر عام ١٩٤٦ كانت في منتصف الأربعينيات وتعاني اشتداد أعراض سن اليأس. وفي أوائل العام التالي خضعت لجراحة استئصال رحم جزئي. فكانت قطعًا غير مستعدة جسديًا ونفسيًا للارتحال في «مهمة مرعبة» إلى شبه القارة الهندية لمساعدة زوجها في بدء الاستقلال بالهند.

لم يكن ديكي بدوره متحمسًا لقبول هذه المهمة الصعبة، وقد وضع العديد من الشروط، حتى إنه كان متأكدًا من أن أتلي سيلغي عرضه. لكن أتلي لم يفعل ذلك، وفي فبراير عام ١٩٤٧ وافق ماونتباتن أخيرًا على أن يخلف ويفل كنائب الملك في الهند. وخطط هو وإدوينا لأن يصحبا معهما ابنتهما باميلا ذات الثمانية عشر عامًا، ولما كانت إدوينا لا تزال تتعافى من عملية استئصال الرحم أرهقتها تعقيدات التحضير للسفر. فحاولت



السيدة ويفل أن تساعدنا برسائلها من دلهي؛ فتقول لها: «وجدت أن التاج في الحرب غير ضروري ... إلا أنني ارتديته عدة مرات هذا الشتاء. يصعب العثور على قفازات أنيقة هنا ... إن إنيد في كونوت بلاس هي أفضل خياطة ثياب.»<sup>39</sup>

وفي ٢٢ من مارس عام ١٩٤٧ وصلت إدوينا وبامبلا وديكي ماونتباتن إلى مطار دلهي بست وستين حقيبة سفر شخصية. ثم اصطحبوا كالمالك في عربة مكشوفة تجرها الخيول برفقة الخيالة إلى بيت نائب الملك الفخم الذي صممه المعماري لوتيان، وهناك قابلهم آل ويفل المغادرون أعلى درج عظيم مد عليه بساط أحمر.<sup>40</sup> وبعدها بأيام أثار آل ماونتباتن ضجة عندما ذهبوا إلى حفل في حديقة بيت نهرو في شارع يورك رود. وبعد ذلك دُعي نهرو وإنديرا وكريشنا مينون لغداء في بيت نائب الملك، ولم يكن ذلك إلا البداية. ففي كل الحفلات ومآدب العشاء التي أقامها آل ماونتباتن، كان ما لا يقل عن خمسين في المائة من المدعوين (لأن ديكي كان رجلاً يحب الدقة) من أصل هندي وكانت إدوينا تضيف بعض الأطباق النباتية إلى الأصناف المقدمة على الطريقة الهندية التقليدية على أطباق الثالي النحاسية. ولما دُعي غاندي إلى شرب الشاي قدمت له خثارة لبن الماعز في زُبديّة من القصدير. حظيت سروجيني نايدو وابنتها بادماجا وماننين باتل وسكرتير غاندي راجكوماري أمرت كاور بحفل شاي عادي. كانت إدوينا ماهرة دبلوماسياً حتى إنها عندما دعت نان بانديت وفاطمة جناح معاً لشرب الشاي، كانت تلك أول مرة منذ ثلاثة أعوام تتحدث فيها أخت نهرو مع أخت جناح.<sup>41</sup> كان انطباع إدوينا عن العشاء الذي أقامته لآل جناح أنه كان «مملّاً إلى حد لا يطاق»، في حين تعشى مساء اليوم التالي نهرو وإنديرا ونان بانديت في بيت نائب الملك، وكان العشاء حسبما ذكرت في مذكراتها «كله ساحراً جداً، أدخل البهجة بعد أمسية الليلة السابقة.»<sup>42</sup>

لكن ما هو الرأي الذي كونه إنديرا عن إدوينا ماونتباتن الفاتنة الذكية اجتماعياً — ومع هذا — الجافة جداً، وماذا كان موقفها من العلاقة الرومانسية التي نشأت آخر الأمر بين أبيها وزوجة نائب الملك؟ إذ بحلول وقت رحيل آل ماونتباتن عن الهند في يونيو عام ١٩٤٨ كانت إدوينا ونهرو قد وقعا في الحب.<sup>43</sup> قبل أحد عشر عاماً انزعجت إنديرا جداً من علاقة أبيها ببامبا نايدو، وكان ذلك يعود إلى حد ما إلى أنها بدأت بعد وقت قصير من وفاة كامالا نهرو، بالإضافة إلى رفض إنديرا أن يشاركها أحد في حب أبيها، وكان هناك احتمال قوي أن تتزوج بادماجا ونهرو. لكن لم تكن هذه هي الحال مطلقاً بين نهرو وإدوينا، لذا لم تكن علاقتهما تمثل تهديداً لإنديرا. غير أن إنديرا نفسها صارت متزوجة وأماً لطفلين صغيرين، وكونت روابط عاطفية قوية بعيداً عن أبيها.

التقى ديكي وإدوين ماونتباتن نهرو لأول مرة في عام ١٩٤٦. ونشأت بينهم في الحال علاقة وطيدة، وفي ربيع وصيف عام ١٩٤٧ صارت تجمعهما وابنتهما بامبلا أيضًا علاقة وثيقة بإنديرا. إن إدوين ماونتباتن — التي قد تتصرف تجاه النساء الجذابات مثل إنديرا بعدائية — كانت حكيمة بالدرجة الكافية لأن تكون دبلوماسية وودودة مع إنديرا. فاستطاعت أن تكسر تحفظ إنديرا، وبكياسة أسدت إليها نصائح عن إدارة منزل رئيس الوزراء. وكانت إنديرا تأخذ بنصائحها حينًا وترفضها حينًا. فعلى سبيل المثال قررت إنديرا أن تلغي ترتيب المقاعد وفقًا لمراسم التشریفات الدبلوماسية في حفلات العشاء الرسمية لأن زوجات الدبلوماسيين الهنود نادرًا ما يتحدثن الإنجليزية. وفي هذا قالت إنديرا لإدوين: «من المفترض أن يحظين بوقت ممتع كذلك، لذا سأجلس الناس حسب اللغة التي يتحدثونها، حتى يكون الناس من نفس المكان يجلسون متقاربين». حاولت إدوين أن تثنيها عن ذلك، لكن إنديرا كانت مصممة. ومع أن نواياها من هذا التغيير كانت نبيلة، إلا أنه أدى إلى كارثة. نهض الرجال الهنود من مقاعدهم — أزواج السيدات اللاتي كن «من المفترض أن يحظين بوقت ممتع كذلك» — واحتجوا على ترتيب المقاعد الجديد المهين لهم ولزوجاتهم.

رأت إدوين وبامبلا ماونتباتن أن إنديرا جذابة ومحركة اجتماعيًا ومثيرة للاهتمام لكنهما ذهلتا بعض الشيء من «حدة لسانها». فإنديرا صريحة جدًا في انتقاداتها التي تشجب فيها الأمراء الهنود ونمط حياتهم، إلا أن أعنف انتقاداتها وجهتها لعمتها نان باندیت. فعلى سبيل المثال، لما نصب نهرو أخته السيدة باندیت سفيرة للهند في موسكو عادت إلى دلهي بمعطف من فراء المنك. وهذا ما أدانته إنديرا بشدة مع أنه هدية من الحكومة السوفيتية. وانتقدت إنديرا بنتي عمتها شاندرليكا ونايانتارا لارتيادهما إحدى مدارس تعليم آداب السلوك في المجتمعات الراقية في أمريكا (كانت في الواقع جامعة ويليزلي) وقالت إنديرا أيضًا: «يناضل بقيتنا في السجن من أجل الاستقلال». لم يلتق آل ماونتباتن بفيروز كثيرًا، غير أنه كان يحضر من وقت لآخر، كحضوره احتفالات الاستقلال. كانوا يرون أن فيروز شخص «تافه»، وتساءلوا عن السبب الذي دفع إنديرا إلى الزواج منه، وعن السبب الذي يدفعها باستمرار إلى الذهاب بابنيتها على عجل إلى لكانو لرؤيته. بدا كما لو أنها «تجذب في اتجاهين متعاكسين»، وواضح لكل من هو مقرب لأسرتها أن زواجها يعاني مشاكل.<sup>44</sup>

في مايو عام ١٩٤٧ ذهب نهرو وكريشنا مينون إلى سيملا وماشوبرا مع آل ماونتباتن، وفي الحال عرض ديكي على نهرو «خطة البلقان»؛ مخطط بريطاني لتقسيم الهند إلى

اتحاد من الولايات الفيدرالية المفككة. درس نهرو الخطة في ساعة متأخرة من الليل بعد أن نام الجميع، ففزع من «صورة التفكك والصراع والاضطراب» التي تعرضها. فاندفع غاضباً إلى غرفة كريشنا في الثانية صباحاً، وأطلق مذكرة احتجاج إلى ماونتباتن قبل أن يذهب أخيراً للنوم.<sup>45</sup> فاستدعي في بي مينون مسئول الإصلاح التابع لماونتباتن لإنقاذ الموقف، وتوصل بعد ثلاث ساعات إلى «خطة مينون» لتقسيم الهند. اقتضت الخطة أن تنقل السلطة إلى حكومتين مركزيتين هما حكومة الهند وحكومة باكستان. وبذا يحصل جناح على دولته الإسلامية، لكنها ستكون منقوصة وبالية ومقسمة بين البنجاب والبنغال. وافق قادة الهند على خطة مينون في دلهي في الثالث من يونيو. وفي اليوم التالي أعلن ماونتباتن في مؤتمر صحفي أن الهند وباكستان ستكونان دولتين مستقلتين في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٤٧.

وفي مساء ١٤ أغسطس كانت إنديرا وفيروز ونهرو وبادماجا نايدو يتناولون العشاء لدى نهرو في بيته في العقار رقم ١٧ في يورك رود، عندما رد نهرو على مكالمة تليفونية من لاهور. أُبلغ نهرو بأن المدينة أضربت فيها النيران وأن أعمال الشغب والنهب والقتل اجتاحت شوارعها. هذا بالإضافة إلى أن إمدادات المياه قُطعت عن أحياء الهندوس والسيخ. وما إن حاول قاطنو منازلها الخروج بالدلاء بحثاً عن المياه حتى ذبحهم رعاة مسلمون. حطمت تلك الأنباء نهرو، لكنه أبقى على ترتيبات احتفالات الاستقلال التي ستقام في منتصف ليل ذلك اليوم.<sup>46</sup> كان في بي مينون الذي وضع خطة تقسيم الهند لماونتباتن جالساً في غرفة المعيشة بشقته في دلهي عندما علم بما يحدث في لاهور. فقال لابنته: «الآن تبدأ كوابيسنا بالفعل»<sup>47</sup>

وقبل أن ينتصف ليل ١٤ أغسطس عام ١٩٤٧ بدقيقة واحدة وقف نهرو أمام المجلس التأسيسي في دلهي وقال: «قبل أعوام طويلة واعدنا قدرنا، وها قد جاء الوقت لنفي بالوعد.» ومع أن الصالة الكبيرة كانت مكتظة بالمستمعين فقد خيم عليهم الصمت حتى إن الصوت الوحيد المسموع كان صوت أزيز مراوح السقف وهي تحرك هواء الصالة الساخن. مضى نهرو في خطبته يقول: «مع دقة الساعة معلنة منتصف الليل، عندما يخلد العالم للنوم، ستفتح الهند عينيها على الحياة والحرية. جاء وقت قلما يأتي في التاريخ نخرج فيه من عهدنا القديم ونخطو إلى الجديد، وينصرم العصر القديم، وتجدر روح الأمة التي لطالما كتبت صوتاً لها.»

كانت إنديرا بين جمهور المستمعين تصغي إلى كلمات نهرو وهو يعبر بصوته عن تلك الروح. قبل سبعة عشر عاماً ونصف كان صوتها هو أول صوت ينطق بقرار نهرو

للاستقلال بعدما أعد نسخته الأولى لاجتماع حزب المؤتمر في ديسمبر عام ١٩٢٩ في لاهور. قطعت إنديرا على نفسها عهد الحرية، مع الآلاف غيرها، على ضفاف نهر رافي. كان الكفاح من أجل الحرية هو الذي شكّل ولوّن حياتها كلها. ووقتها حان موعد حصاد ثمار هذا الكفاح. وفي هذا تقول إنديرا: «كان من المستحيل أن نصدق بعد كل هذه السنين أن الهدف الذي شغلنا، وراودنا في أحلامنا، وعملنا من أجله منذ زمن بعيد قد تحقق. لقد كان حدثاً قوياً.» بدا الاستقلال كما لو أنه معجزة. وفي غمرة البهجة التي عمت دلهي وأغلب الهند تولد لدى إنديرا شعور غريب بـ «الخطر». تقول عنه: «أتعلم كيف تصاب بالخطر عندما تشعر بالسعادة البالغة أو الألم البالغ. كان نيل الحرية حدثاً جليلاً، أكبر من أن تدركه الحواس، كان يملأ كيائك وعالمك كله.»<sup>48</sup>

وفي صباح اليوم التالي، صباح «اليوم الموعود» كما كتب نهره على عجل في مذكرة جيبه، أدى نهره اليمين كأول رئيس وزراء للهند المستقلة أمام ماونتباتن؛ الذي صار الحاكم العام للهند، وليس لباكستان لأن جناح صمم أن يحتفظ لنفسه بالمنصب، مما كدر ماونتباتن. ثم رُفِع علم الهند المستقلة ذو اللون الزعفراني والأبيض والأخضر في برينسز بارك أمام حشد صاخب يقارب نصف مليون شخص. وبعدها عاد آل ماونتباتن إلى قصرهم الذي صممه لوتيانز في عربة رسمية مذهبة والحشود تصطف في طريقتهم وتهتف لهم في سعادة. ثم أقيمت مأدبة فخمة استمرت حتى بواكير الصباح التالي وقف فيها خلف كل مقعد حامل طعام معمم يرتدي بزة خاصة. وحضرها كل من إنديرا وفيروز. بدت إنديرا بثوبها الحريري وبعض ما تبقى من حلي أمها متألفة، وقد جلست إلى جانب أبيها في حين جلس فيروز بعيداً في آخر المائدة إلى جانب ملحق ماونتباتن الصحفي آلان كامبل جونسون.<sup>49</sup>

استمرت احتفالات الاستقلال لأيام، في حين وصلت إلى دلهي أنباء مزعجة أكثر فأكثر إزاء وقوع أعمال شغب طائفية في بنجاب. فزال عن إنديرا «الخطر»، وبدأت تدريجياً تعي ما يحمله الاستقلال من بشائر ونذر. وفي نهاية أغسطس عاد فيروز إلى لكانا، واصطحبت إنديرا طفليها في عطلة قصيرة إلى موسوري.

صارت الهند حرة، ولكن مجزأة.<sup>50</sup> كان جزءا دولة باكستان التي رأسها جناح يقعان على جانبي الحدود الشرقية والغربية لشمال الهند، ويفصل بينهما أكثر من ١٢٠٠ ميل. وضع الحدود الفاصلة بين الهند وباكستان محام بريطاني يدعى السير سيريل رادكليف

الذي لم يكن قد ذهب قط إلى أبعد من جبل طارق شرقًا عندما وصل إلى دلهي في أوائل يوليو عام ١٩٤٧. ولم يكن أمامه سوى خمسة أسابيع من العمل في جو حار ورطب ليضع فيها الحدود بين ثلاثمائة مليون شخص، فلما فرغ من ذلك كتب إلى ربيبه يقول: «لقد كنت متعرقًا طوال الوقت».<sup>51</sup>

كانت أصعب مهمة واجهها رادكليف هي تقسيم البنجاب. ومع أنه حاول تحقيق أفضل النتائج في هذه المهمة الصعبة فقد ترك خمسة ملايين سيخي وهندوسي في إقليم البنجاب الباكستاني وأكثر من خمسة ملايين مسلم في إقليم البنجاب الهندي. وبعد أن شاهد رادكليف ماونتباتن وهو يؤدي قسم توليه منصب الحاكم العام للهند قصد مطار دلهي مباشرة واستقل الطائرة التالية إلى إنجلترا، وفسر رحيله بقوله: «لن يحبني أحد في الهند بسبب قراري في تقسيم البنجاب والبنغال، وسيكون هناك نحو ٨٠ مليون شخص متضرر يبحث عني».<sup>52</sup>

أجل ماونتباتن الإعلان عن حكم تقسيم البنجاب والبنغال حتى لا يسلب احتفاليات الاستقلال في الهند وباكستان جزءًا من فرحتها كما قال. لكن لم يتوقع أحد — ولا حتى رادكليف الهلوع — الفوضى والمجازر التي تفجرت لدى الإعلان عن الحدود الفاصلة بين الهند وباكستان في ١٦ أغسطس عام ١٩٤٧. فما أعقب الإعلان كان أكبر حركة هجرة عرفها التاريخ. إذ حزم الناس أمتعتهم ورحلوا بلا عودة عن مواطنهم التي عاش فيها أسلافهم جيلًا بعد جيل، ولم يصل أغلبهم إلى وجهتهم. غادر الأغنياء والفقراء وسكان القرى والمدن والعجائز والنساء والرضع والأطفال شذر مذر، إما سيرًا على الأقدام أو في عربات تجرها الثيران أو بسيارات أو في شاحنات أو بواسطة السكك الحديدية.

وفي الفوضى التي أعقبت الإعلان انقلب الهندوس والمسلمون والسيخ بعضهم على بعض بعدما كانوا يعيشون معًا في انسجام. فدمرت قرى بأكملها وذُبح أهلها. واغتُصبت النساء والفتيات واختطفن، أو تفادياً لهنّ المصيرين ألقين بأنفسهن في الآبار أو قتلن رجالهن. كانت الدماء تسيل على أرصفة محطات السكك الحديدية في لاهور. إلا أن البعض نجح في الصعود على متن القطارات المغادرة. لكن بعدها بساعات كانت عربات القطارات تصل إلى المحطات الأخيرة وهي محملة بجثث القتلى الذين ذُبحوا في الطريق على يد عصابات المسلمين والسيخ والهندوس. كان الهندي يقتل الهندي. وبلغ عدد القتلى ما لا يقل عن مليون هندي. ترك الإنجليز وهم ينسحبون على عجل بلا مساس. فكان الوحيدون القادرون على التجول في البنجاب بأمان نسبي في خريف عام ١٩٤٧ هم البيض.

وفي سبتمبر عام ١٩٤٧ مع تدفق الكثير من اللاجئين الهندوس والسيخ من البنجاب. اندلعت في دلهي فوضى طائفية؛ حيث اجتاحت المدينة أعمال الشغب، والقتل، والحرائق المتعمدة، والنهب، والاغتصاب. وأوشكت السلطات المدنية على فقدان سيطرتها بالكامل. وفي موسوري سمعت إنديرا عبر الإذاعة عن وقوع «اضطرابات» في دلهي، فهاتفت فيروز الذي كان وقتها يمكث لدى نهرو بعد مجيئه من لكانو. طلب فيروز من إنديرا ألا تعود إلى دلهي آنذاك نظرًا لندرة الطعام وخطورة الوضع هناك. قالت له إنديرا إنها ستجلب معها بعض أكياس البطاطس وصممت على أن تعود بأولادها في أول قطار. حينما توقف قطار إنديرا في ضاحية شهدارا، إحدى ضواحي مدينة دلهي، ألقت نظرة عبر نافذة عربة القطار فرأت حشدًا من الهندوس يطاردون رجلين مسلمين مسنين. فتركت ولديها مع حاضنتهما واندفعت إلى خارج القطار مع بعض المسافرين الآخرين وحاولت التدخل لإنهاء المشاجرة. نجح المسافرون في إنقاذ أحد الرجلين المسنين، أما الآخر فكان بعيدًا جدًا، وكان يطارده كثيرون.<sup>53</sup>

حينما وصلت إنديرا إلى بيت نهرو في شارع يورك رود وجدت أهل البيت قائمين على إطعام الكثير من اللاجئين وإيوائهم في خيام. وقد وظف العديد من هؤلاء اللاجئين البنجابيين الهندوس — ومن بينهم شابة تدعى فيمالا سيندهي التي فُرّقَ بينها وبين عائلتها — لدى نهرو في مكتبه وبيته آخر الأمر. كان المزيد من اللاجئين يصلون يوميًا، وكانت إنديرا تتحدث إليهم كل صباح فرادى أو جماعات لتحاول تدبير أمر رعايتهم. كان من الواضح أن بيت يورك رود لا يمكن أن يُتوي إلا القليلين، فنقلت إنديرا بقية اللاجئين إلى العديد من معسكرات اللاجئين بالمدينة. وطاف نهرو دلهي بسيارته الجيب. وكان كثيرًا ما يتدخل ملوحًا بعصاه عندما يشهد أعمال النهب والعنف، ويصيح في الغوغاء بأن يلزموا النظام. أما إدوينا ماونتباتن فقد ارتدت بذلة عسكرية وطافت معسكرات اللاجئين لتنسيق أعمال الإغاثة وتنظيم العمل مع لقاحات الكوليرا والمرافق الصحية.

وفي دلهي ألقت امرأة جوجاراتية من أتباع غاندي ومن أصدقاء نهرو تدعى مريدولا سارابهاي فيلق سلام. وقد انشغلت سارابهاي نفسها بإنقاذ النساء المختطفات في البنجاب واستعادتتهن، وأولت امرأة بنجابية تدعى سوبهادرا داتا (التي صارت فيما بعد عضوًا في البرلمان عرفت باسم سوبهادرا جوشي) مسؤولية تنظيم أعمال الإغاثة في دلهي. وحينما سمع غاندي بالأعمال التي قامت بها إنديرا من أجل اللاجئين في يورك رود أخبرها بأنه يريد أن تذهب إلى معسكرات اللاجئين المسلمين والهندوس في دلهي حيث كان ٢٠٠ ألف

شخص يعيشون في مناطق قذرة وظروف بائسة. كان من الممكن في هذه المعسكرات المكتظة التي تفتقر إلى الظروف الصحية ألا يتوافر سوى صنبوري مياه لعدد ٢٥ ألف شخص إلى جانب تلال من القمامة لم تجمع، ومراحيض طفحت بما فيها لأن الكناسين رفضوا الدخول إلى هناك للتنظيف. وانتشر في تلك المعسكرات مرض الكوليرا والتيفود وغيرهما من الأمراض المعدية. وكان الناس يتضورون جوعاً لعدم وصول الطعام إلى هناك. والكثير من قاطني تلك المعسكرات كانوا قد جرحوا في طريقهم إلى دلهي، وظلوا أسابيع دون أن تنظف جروحهم أو تغير ثيابهم.

انضمت إنديرا إلى سوبهادر في العمل بمعسكرات اللاجئين. في البداية أخبرت إنديرا سوبهادر أنها لن تستطيع القدوم إلى المعسكرات إلا ساعتين يومياً لأن سانجاي وقتها لا يزال رضيعاً وعليها أن ترضعه. لكن سرعان ما وجدت نفسها منغمسة في أعمال الإغاثة لثمانى أو عشر ساعات يومياً مع سوبهادر داتا. وكل صباح تصل إنديرا إلى بوابة المعسكر وحدها على قدميها لأن السائق الذي كان يوصلها من يورك رود يرفض الدخول إلى «أماكن الاضطرابات» بالمدينة. وقد أتت هي وسوبهادر بعمال التنظيف والكناسين وعملتا على توفير الإمدادات الطبية وحصص الطعام واستمعتا إلى شكاوى اللاجئين وطلباتهم. ووفقاً لسوبهادر (التي صارت فيما بعد ألد أعداء إنديرا غاندي) فإن إنديرا تمتلك الشخصية التي تتناسب مع أعمال الإغاثة. فهي جريئة وحاسمة لا تعرف الخوف وتجيد التنظيم. وتعرف كيف تخاطب الناس في محتهم. لم تكن انفعالية بل قوية تتعاطف مع الآخرين.<sup>54</sup>

كانت إنديرا كما أخبرت أباهما قبل بضعة أعوام تصمد أشد الصمود في الأزمات. وقد كان تقسيم الهند وما جلبه على دلهي من اضطرابات طائفية ومعاناة في خريف وشتاء عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ هو أسوأ كارثة وطنية حلت بالهند. ويذكر بعدها بعدة أعوام قيام الفنان ساتيش جوجرال برسم صورة لا تُنسئ لإنديرا يصورها فيها على أنها ضمن اللاجئين بعدما وجه لها السؤال الآتي: «لم تخفين مشاعرك؟ هل من أجل أن تخفي نفسك؟» أجابت إنديرا: «لأنه لا يجب على المرء أن يبدي كل ما في قلبه.» صحيح أن إنديرا لم تكشف عن مشاعرها أثناء اضطلاعها بأعمال الإغاثة لكنها بلا شك كانت تمتلك قلباً رقيقاً. ومن المحتمل أن عاطفتها دفعتها بقدر ما دفعها سخطها وغضبها.<sup>55</sup>

كان اندلاع العنف بين الطوائف واحداً فقط من تبعات التقسيم. وأحد التبعات الأخرى هو ضياع كشمير مسقط رأس نهرو والملتجأ الذي ظلت إنديرا طوال حياتها تلوذ إليه. كان من غرائب حكم البريطانيين للهند أن ثلث شبه القارة الهندية تقريباً يتكوّن

من ٥٦٥ إمارة؛ كانت ممالك قديمة متوارثة وَقَّع حكامها معاهدات مع التاج البريطاني كلٌّ على حدة. كان نهرو يبغض تلك الإمارات ويدين مجتمعاتها الإقطاعية ومهرجاتها وحكامها المستبدين في كتابه «لمحات من تاريخ العالم». لذا بعدها بأعوام جردت إنديرا الأمراء الهنود من امتيازاتهم وحرمتهم من روايتهم. إلا أن الخطر الفوري الذي مثلته تلك الإمارات عام ١٩٤٧ كان إشكالية وضعها بعد الاستقلال الهندي. فكان يصعب البت فيما إذا كانت ستندمج إلى الهند أم باكستان، وفيما إذا كانت الكثير من إمارتها الكبيرة مثل كشمير ستصبح مستقلة. وبحلول ١٥ أغسطس كانت كل الإمارات قد انضمت لحسن الحظ إلى الهند أو باكستان — عدا ثلاث — بناءً على وقوع الإمارة داخل حدود أي من الدولتين.

كان وضع إمارة جامو وكشمير (المشار إليهما عادة باسم كشمير فقط) هو الأكثر تعقيداً من الناحية السياسية من بين أوضاع الإمارات الثلاث التي لم يتقرر وضعها، لأن كشمير لها حدود مع كل من الهند وباكستان. ومع أن حاكمها كان مهراجا هندوسياً فقد كان المسلمون يمثلون نحو ٨٠ بالمائة من سكانها، ولهذا السبب توقع جناح أن تصير جزءاً من باكستان. غير أن نهرو أراد أن تظل كشمير جزءاً من الهند لأسباب سياسية واستراتيجية، ولأنه أيضاً شديد التعلق بهذه الإمارة. لكن جناح ونهرو أُحْطِبا حينما صارت كشمير من الناحية القانونية مستقلة في ١٥ من أغسطس لأن مهراجا الإمارة هاري سينج لم يقرر هل إمارته ستندمج إلى الهند أم باكستان.

انفردت كشمير عن غيرها من الإمارات بالاستقلال لثلاثة وسبعين يوماً فقط. ففي فجر ٢٢ من أكتوبر عام ١٩٤٧ عبر ما لا يقل عن ٣٠٠٠ شخص من قبيلة بشتون من منطقة الشمال الغربي الحدودية الباكستانية نهر جهلم إلى داخل كشمير. ظن الباكستانيون أن هؤلاء المغيرين قد أتوا للمشاركة في ثورة وطنية كشميرية عارمة ضد حكم هاري سينج الاستبدادي. ظن الهنود أنهم يمثلون غزواً باكستانياً أجازته أعلى المراتب الحكومية في باكستان.

حينما أطبق البشتونيون على سارينجار دُعر المهراجا هاري سينج. والتمس المساعدة العسكرية من دلهي لطرد هؤلاء الغزاة، ثم في ٢٤ من أكتوبر فر هاري سينج بعائلته وحاشيته الضخمة (وفيها صائغه الروسي فيكتور روزنتال) إلى قصره الشتوي في جامو. اشترط نهرو وماونتبانت على المهراجا أن تنضم كشمير إلى الهند ليرسلا قوات هندية لطرد البشتونيين. ولما لم يكن أمام المهراجا خيار آخر أذعن لشرطهما. وفي ٢٧ من أكتوبر



بدأ إنشاء جسر جوي على سارينجار، وفي غضون أيام وصل إلى كشمير ٣٥٠٠٠ جندي. إلا أن هناك اختلافاً حول ما إذا كان هذا التدخل العسكري قد وقع قبل أو بعد توقيع المهراجا هاري سينج فعلياً أصول معاهدة انضمام كشمير إلى الهند.<sup>56</sup>

بعد انضمام كشمير إلى الهند نُصب صديق نهرو الشيخ عبد الله رئيساً لحكومة كشمير الإدارية الطارئة. ولم يتنازل هاري سينج رسمياً عن العرش، لكنه نفى من كشمير وتخلّى عن السلطة في مايو عام ١٩٤٩، عندما صار الشيخ عبد الله رئيساً لوزراء كشمير. ولم يخلف ابن هاري سينج؛ كاران سينج — الذي كَوّن صداقة دائمة مع نهرو وإنديرا — والده أبداً، بل عُيّن وصياً على عرش كشمير. غير أن الشيخ عبد الله وحزبه — حزب المؤتمر القومي — كانوا المديرين الفعليين لشئون كشمير.

ومع أن هاري سينج قد وقع أصول معاهدة انضمام كشمير إلى الهند، فمن الواضح أنه فعل ذلك لأنه كان في حاجة ماسة إلى المساعدة العسكرية من الهند. ونظراً لأنه كان حاكماً هندوسياً مستبداً لإمارة أغلب سكانها من المسلمين، فلا يمكن بأي حال اعتبار رأيه تعبيراً عن إرادة شعب جامو وكشمير. لذا اشترط ماونتباتن ونهرو أن يتحدد مصير كشمير النهائي «بمشورة شعبها»، وفي الثاني من نوفمبر قال نهرو في إذاعة عموم الهند: «نحن مستعدون لإجراء استفتاء عندما يستتب الأمن ويطبق القانون ويحل النظام».<sup>57</sup> وأعاد نهرو تأكيد هذا العهد في برقيته إلى رئيس الوزراء الباكستاني لياقت علي خان التي قال فيها: «نحن موافقون على أن تشرف جهة دولية محايدة كالأمم المتحدة على أي استفتاء».<sup>58</sup>

لكن السلام لم يحل سريعاً، إذ استمر القتال في كشمير لعام قبل أن يصير قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النيران نافذاً في أول يناير عام ١٩٤٩. وقد نتج وضع خط وقف إطلاق النار عن وقوع ما يقرب من ثلث كشمير تحت سيطرة باكستان فيما عرف في باكستان باسم «أزاد كشمير» أي [كشمير الحرة] وفي الهند باسم «كشمير التي احتلتها باكستان». ولم يجز الاستفتاء الذي وعد به نهرو قط، فكانت النتيجة أن ظلت «تراجيديا الأخطاء» قائمة إلى اليوم في كشمير بلا حل، وبعبارة أخرى باتت كشمير مثار عداء مستمر بين الهند وباكستان.

لطالما حظيت كشمير بأهمية كبيرة في حياة عائلة نهرو التي تعود أصولها إلى هناك. صحيح أن نهرو وصف نفسه مازحاً فيما بعد بأنه «آخر إنجليزي يحكم الهند»، وأن إنديرا قالت في تهكم عن نفسها إنها «إمبراطورة الهند». إلا أن كليهما شعر في قرارة نفسه أنه كشميري قبل كل شيء، مع أن أسلافهما قد رحلوا عن سهول كشمير من أجيال، وكان

كلاهما لا يتحدث اللغة الكشميرية. غير أنه مع التقسيم اكتسبت كشمير أهمية مختلفة في حياتهما. ولطالما كانت كشمير مكاناً يقصدانه كلما شعرا برغبة داخلية ودعتهما الحاجة إلى ذاك. لكنها صارت بعد عام ١٩٤٧ مصدر ألم وفرح، ومشاكل ومخاطر، وفي الوقت نفسه مصدر سلوى وطمأنينة، وبمعنى آخر صارت كشمير جرحاً سياسياً عنيداً يأبى أن يندمل.

طوال خريف عام ١٩٤٧ كانت إنديرا وطفلاها مع فيروز في لكانا يحاولون إنجاح حياتهم. كان وقتاً تقيساً وعصيباً. شعرت إنديرا بالعزلة. ففيروز لا يزال على علاقة بغيرها من النساء. ومن ناحية أخرى كانت إنديرا تجد لكانا «كثيية» و«رجعية». وفوق كل هذا كانت تكره السياسة المتبعة في المدن القروية. فقد كتبت إلى أبيها في ديسمبر. تقول: «كم هو غريب الهمود الذي يسيطر على مدننا القروية، ما يثير السقم في المناخ هنا هو الفساد والتقصير وتكبر البعض وخبث البعض الآخر. لا تقدم الحياة هنا شيئاً». غير أن إنديرا فزعت من حجم النفوذ الذي تتمتع به منظمة «راشتريا سوايامسيواك سانغ» لإحياء الهندوسية (التي تعرف اختصاراً بـ «آر إس إس»)، وهي منظمة طائفية فاشية شبيهة بجماعة أصحاب القمصان البنية التابعة لهتلر.<sup>59</sup> لم تكن إنديرا بصحة جيدة في لكانا. فمع دخول برد الشتاء عاودتها الأعراض التي كانت تصيبها قديماً من سعال وارتفاع في درجة الحرارة وفقدان الوزن. وفي بداية السنة الجديدة عادت بطفليها إلى دلهي.

وبعدما استقرت إنديرا وطفلاها من جديد في بيت نهرو بيورك رود بدأ غاندي — الذي كان وقتها مقيماً في دلهي بمنزل رجل الصناعة الثري جي دي بيرلا — إضرابه السادس عشر عن الطعام احتجاجاً على استمرار العنف تجاه المسلمين بالمدينة. وهذه المرة أوشك غاندي على الموت، لكن حيل بينه وبين الموت جوعاً في آخر لحظة عندما قام قادة المجتمعات الدينية في المدينة بزيارته وهو في فراشه وتعهدوا بإيقاف العنف. ففسر غاندي صيامه في ١٨ يناير، بعد صيام دام ستة أيام. وبعدها بيومين نجا بأعجوبة من الموت للمرة الثانية عندما فجر أحد القتلة قنبلة أثناء الاجتماع اليومي للصلاة.

وفي عصر يوم ٢٩ يناير عام ١٩٤٨ زارت إنديرا مع طفليها راجيف ونايانترا بانديت (التي كانت وقتها تقيم مع نهرو في المدة التي عملت فيها والدتها سفيرة للهند في موسكو) وكريشنا هاتيسينج وبادماجا نايدو غاندي في بيت بيرلا. وقبل أن تغادر إنديرا منزلها بوقت قصير أعطاهما البستاني حزمة من الياسمين لتزين بها شعرها ولكنها قررت أن

تأخذها لتهدئها لغاندي. وفي بيت بيرلا جلس زوار غاندي في الحديقة وهو يأخذ حماماً شمسياً ويتناول الفاكهة المهروسة ولبن الماعز مرتدياً قبعة من القش ومئزرًا. طارد الصغير راجيف الفراشات في الحديقة كلها ثم جلس عند قدمي غاندي وبدأ يدس أزهار الياسمين بين أصابع قدم الرجل العجوز. ف جذب غاندي أذني راجيف وأخبره ألا يفعل ذلك قائلًا: «توضع الزهور عند أقدام الموتى فقط.»<sup>60</sup>

وفي ظهيرة اليوم التالي كانت إنديرا ونايانترا تتناولان الشاي في منزل يورك رود عندما دق جرس الهاتف. فأجابت عليه إنديرا لتتلقى رسالة عاجلة: تعرض غاندي لتوه لإطلاق الرصاص أثناء سيره إلى مكان الصلاة اليومية. فقفزت إنديرا ونايانترا على التو إلى السيارة وذهبتا إلى منزل بيرلا لتجدا غاندي فاقد الوعي بين حشد من الأهل والأتباع. ثم توفي دون أن يستعيد وعيه.

حينما شاع خبر وفاة غاندي في الهند أولاً، ثم في العالم أجمع، قوبل بعدم تصديق تحول بعدها إلى أسى، ثم إلى خوف. تساءل الناس عن القاتل. إن كان مسلماً، فقد كان العنف الطائفي سيندلع حتماً من جديد ويخرج عن السيطرة أكثر فأكثر، لكن سرعان ما ثبت أن القاتل هندوسي برهمي متعصب من بونا، أغضبه صيام غاندي من أجل المسلمين وألقى باللائمة عليه لتقسيم الهند. في تمام الخامسة وثلاث دقائق عصرًا في ٣٠ يناير خرج غاندي من منزل بيرلا للذهاب لاجتماع صلاة بعد الظهر في حديقة منزله الفسيحة. كان حشد من ثلاثمائة شخص قد ملئوا الحديقة، وما إن رأوا العجوز غاندي حتى اندفعوا نحوه لتحيته. وفي مقدمة الحشد ناثورام جودسي، وهو رجل قصير وبدين في الثلاثينيات من عمره. اقترب ناثورام من غاندي وانحنى له احتراماً، وهو ممسك بمسدس بيريتا عيار ٩مم. وبعدها أطلق ثلاث طلقات عن قرب في صدر العجوز غاندي البارزة عظامه.

للحظة تسمر الكل في أماكنهم. لم يبدُ صوت الطلقات كما لو أنه صادر عن مسدس، بل كصوت المفرعات النارية الصينية التي قد يطلقها طفل. ثم اندفع شاب أمريكي من الحشد إلى الأمام، وانتزع المسدس من يد جودسي. فأفاق الناس واندفع آخرون وتغلبوا على القاتل. وبعدها حُمل غاندي إلى داخل البيت في حين علا صوت عويل رهيب من الحشد بالخارج. مات غاندي بعدها بنصف ساعة.

في غضون دقائق من الاغتيال تدفق الآلاف من الناس على منزل بيرلا، وفيهم نهرو وآل ماونتباتن؛ إذ وصلوا ودخلوا إلى الغرفة المزدهمة التي استلقى فيها غاندي على مرتبة على الأرض. وحضر أيضاً فيروز غاندي (الذي كان وقتها في زيارة لزوجته وأطفاله في دلهي) وأخذ بسرعة يبحث عن إنديرا بين الحشد. على عتبة الغرفة التي مُد فيها جسد

غاندي كان هناك عدد كبير من الأحذية والصنادل (لأن النعال لا تلبس في حضرة الموتى). تعبق هواء الغرفة برائحة البخور النفاذة، وخيم الصمت. فما كان هناك إلا صوت نحيب النساء وترنيمهن للصلوات. ثم دلفت المصورة الأمريكية مارجريت بورك وايت إلى الغرفة، بحذاءها ذي الكعب العالي، وهي تتهادي في مشيتها، وكاميراها تتدلى من رقبتها. عبرت الغرفة وهي تقرع الأرضية بحذائها، وانحنت تلتقط صورًا لجثة غاندي الهامدة. عندما سُمع صوت الكاميرا نهض فيروز غاندي بسرعة وجذب الكاميرا من رقبتها، وانتزع الفيلم منها، ثم قادها إلى خارج الغرفة.<sup>61</sup>

قال برنارد شو عن اغتيال غاندي: «يحدث هذا عندما تكون طيبًا أكثر من اللازم.»<sup>62</sup> في حين قال نهرو للشعب الهندي عبر المذياع: «انطفأ النور من حياتنا، وعم الظلام كل مكان. لا أدري ماذا يسعني أن أقول ولا كيف أقوله. قائدنا الحبيب، بابو كما كنا ندعوه، أبو الأمة، لم يعد بيننا.»<sup>63</sup> كانت جنازة غاندي الأولى في سلسلة جنازات شهدتها الهند المستقلة بنفس الصورة: عربة محملة بالزهور تحمل الجثمان الواهن الذي اخترقه الرصاص، اصطفااف الآلاف على ضفاف نهر يامونا بطول الطريق من دلهي إلى راج جات، محرقة الجثمان المنصوبة من خشب الصندل، وابن الفقيد الذي يشعل النار فيها، والكهنة المترنمون، والحزن العام إزاء ميتة قاسية عنيفة.

بعد اغتيال غاندي صار أمن نهرو مسألة في غاية الأهمية. فمن العجيب أنه لم يكن لدى رئيس الوزراء في الهند حراس شخصيون، ولا أي تجهيزات أمنية لحمايته. فكان بإمكان أي شخص أن يدلف إلى شقته في يورك رود أو إلى مكاتبه في مبنى البرلمان بلا مساءلة ودون أن يعترضه أحد. وبعد جنازة غاندي مباشرة أحاطت شرطة دلهي بنهرو من كل جانب، مما أقلقه. فقد صار بيته وأرضه في يورك رود يبدوان كمعسكر مسلح يحيط به الكثير من خيام الشرطة. وتمركز الحراس على باب البيت وفي داخله أيضًا.

لكن لم يكن بيت نهرو الصغير ذو الطابق الواحد يتسع بيسر لكل أفراد شرطة الحماية، وقد اشتكى ضباط الشرطة أنفسهم من أن المنزل به الكثير من المخارج والمداخل، وأنه قريب جدًا من الشارع، وبحاجة إلى أن يحيطه جدار مرتفع، وإلى أن يجاوره مركز شرطة في نهاية الطريق الخاصة المؤدية إليه. لكن نهرو رفض كل هذه الإجراءات. وفي نهاية الأمر أخبر ماونتباتن نهرو بأن عليه الانتقال إلى بيت رئيس أركان الحرب الذي يضم عشرين غرفة، والذي يتميز بالكثير من الأراضي المغلقة وبوابة دخول حصينة. لكن نهرو رفض. فأخر ما كان يريده هو أن يعيش في أبهة القادة الوطنيين. فأقنعه وزير الداخلية ساردار باتل بالانتقال للعيش هناك. كان ساردار بصحبة غاندي قبل أن يخر

قتيلًا بدقائق، وقد ساعد في حمل جثمانه الذي ينزف من موقع الاغتيال. أخبر باتل نهرو أن فكرة مقتل غاندي سيطرت على تفكيره وطاردته في منامه. وبيوصفه زميل نهرو منذ زمن طويل في حزب المؤتمر، ويشغل منصب وزير داخلية، لم يكن مستعدًا للقبول باحتمال تعرضه لميثة مماثلة، ورفض تحمل مسؤولية أمن نهرو في منزل يورك رود. فوافق نهرو على مضض شديد على الانتقال إلى بيت رئيس أركان الحرب، غير أنه استطاع أن يؤجل الأمر سبعة شهور.

وأثناء هذه الشهور السبعة كانت إنديرا تنتقل ذهابًا وإيابًا بين دلهي ولكناو، ثم في مايو اصطحبت هي وفيروز ابنيهما إلى كشمير في محاولة للتمتع بعطلة أسرية وشهر عسل ثان. لكنهما تغيرا وكشمير أيضًا قد تغيرت. فهناك سارينجار والمناطق المحيطة بها قد امتلأت باللاجئين الذين تدفقوا على المدينة بعدما غزاها الباكستانيون العام السابق، فباشرت إنديرا أعمال الإغاثة لهؤلاء اللاجئين. ومع أن الشيخ عبد الله قام بإصلاحات في كشمير فإن حالتها الاقتصادية قد تدهورت. فلم يكن في سارينجار سوى القليل من السياح، حتى في ذروة «الموسم السياحي» لأن الناس شعروا بأنها لم تعد آمنة بعد الغزو الباكستاني. فكانت النتيجة أن صار أصحاب الفنادق والمتاجر ومراكب السكك الحرفيون والعمال يعانون ماديًا. كان الشيخ عبد الله نفسه محبوبًا، أما حكومته الجديدة فلم تكن كذلك. ذلك لأن الصحف الباكستانية كانت — كما كتبت إنديرا إلى أبيها — «ركزت على نشر أكاذيب خسيصة». وقالت إنديرا أيضًا: «إن الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يحفظ كشمير للهند وللكشميريين هو تدفق السياح هذا الصيف على سارينجار ... أنا متأكدة أنه لو توافرت دعاية كافية فسيتدفق الناس على سارينجار. لذا على كل من الحكومة الكشميرية والهندية أن تبذلا قصارى جهدهما لطمأنة الناس أن سارينجار «آمنة»».<sup>64</sup>

وفي منتصف مايو ذهب نهرو نفسه في زيارة قصيرة إلى سارينجار. وبعدما غادرها كتبت إنديرا إليه ثانية عن الوضع السياسي المشتعل في كشمير، فتقول له:

«يبدو أن هناك حالة يرثى لها من الافتقار إلى الدعاية السياسية الكافية للحكومة الكشميرية. فإذا «أزاد كشمير» تبث أفزع الأكاذيب ليلاً ونهارًا، دون أن يتصدى لها أحد ... على الشيخ [عبد الله] أن ينشئ إذاعة قوية هنا ... فكل يوم تُروّج مجموعة جديدة من الشائعات ... الإذاعة وحدها هي القادرة على الوصول إلى مجاهل سارينجار وبث الأنباء الصادقة وتكذيب القصص

السخيفة التي تروّجها إذاعة «أزاد كشمير». أتعلم أنه في اليوم الذي غادرت فيه سارينجار أذاعت «أزاد كشمير» أنه لدى وصولك إلى سارينجار استقبلك مائة ألف شخص بالأعلام السوداء وهم يصيحون: «عد من حيث أتيت!»<sup>65</sup>

غادرت إنديرا سارينجار في منتصف يونيو إلى دلهي لحضور عدد من الحفلات التي أُقيمت لآل ماونتباتن لدى رحيلهم عن الهند في ٢١ يونيو وللقيام كذلك بالاستعدادات اللازمة للانتقال إلى بيت رئيس أركان الحرب (بمساعدة بادماجا نايدو). وأخيراً انتقل نهرو وإنديرا وولديها إلى محل إقامة نهرو الجديد بصفته رئيساً للوزراء، الذي سُمّي منذ ٢ أغسطس عام ١٩٤٨ باسم تين مورتى. (يعني اسم تين مورتى «ثلاثة تماثيل»، وقد سمي البيت على اسم ثلاثة تماثيل لجنود تحيط بنبسب عند مدخل القصر). انتقلوا إلى البيت في وقت مبكر من الصباح، وهذا يعود إلى حد ما إلى أن إنديرا أرادت للحاق بطائرة مبكرة إلى لكانا. هذا إلى جانب سبب آخر يشرحه نهرو في خطابه إلى أخته فيقول:

«إندو انتابتها رغبة مفاجئة في الانتقال إلى البيت في لحظة مواتية. إذ أشار رجل دين من أوتار كاشي، واضح أنه مهتم بمستقبلي، إلى تلك اللحظة. فرأت إندو أنه ليس من الحكمة أن نتحدى علامات القدر. وعليه وصلنا إلى هنا في السابعة إلا ربعاً صباحاً ... لنجد سروجيني وليلاماني [نايدو] تحملان في أيديهما جوزة هند كبيرة. وقد أرسل حكيم أوتار كاشي ... موجزاً قصيراً لما سيحدث لي مستقبلاً. قال إنه ستقع لي عدة مشاكل، ستصل في بعض الأحيان إلى حد الخطر، إلا أنني سأنجو منها وأترقى. وعام ١٩٥٢ ... سأعتزل السياسة ... وأتولى أمر قضية عالمية. ها قد صرت الآن تعلمين كل شيء عن مستقبلي.»<sup>66</sup>

كان بيت تين مورتى الذي صممه المعماري «آر تي راسل» لرئيس أركان الحرب البريطاني وأتم بناءه عام ١٩٣٠ محل إقامة شبيه بالقصور، له أسقف شاهقة وأروقة طويلة يدوي فيها الصدى، وغرف فسيحة تضم قاعة رقص كبيرة وقاعة عشاء رسمية وصالات واسعة وغرف استقبال وأجنحة غرف النوم الرئيسية. وهناك لوحات زيتية لأبطال الإمبراطورية الإنجليزية على الحوائط، وستائر ثقيلة تحجب وراءها نوافذ طويلة ذات طراز فرنسي. وحول البيت كله امتدت حدائق ومروج مشذبة بعناية.

كان بيت تين مورتى ذا طابع رسمي فاتر وإنجليزي صرف، وقد تجنبت كل من إنديرا ونهرو العيش فيه. لذا قبل الانتقال إليه أمرت إنديرا بوضع لوحات الإمبراطورية

الإنجليزية في صناديق وإرسالها إلى وزارة الدفاع. وأبدلت بها الأعمال الفنية الهندية، وأمرت بطلاء الحوائط بأبيض، لون قشر البيض، وأزلت الستائر الثقيلة ووضعت مكانها ستائر من الحرير الهندي الخالص. ونسقت أثاث غرفة نهرو تنسيقاً بسيطاً لكنه راقٍ، فوضعت فيها سريرًا يشبه أسرة القش وملأته بكتبه المفضلة وصور العائلة. ومقابل البيت، في الجهة الأخرى لقاعة الرقص في الطابق الأول، اتخذت إنديرا لنفسها غرفة داكنة بنوافذ صغيرة في أعلاها بالقرب من السقف، وأنتهت بأثاث حكومي كئيب. فكانت غرفتها تشبه غرف الفنادق الموحشة التي لا يوجد ما يميزها والبعيدة كل البعد عن الفخامة. كانت غرفة نوم طفلي إنديرا مجاورة لغرفتها، ولربية الطفلين الدنمركية، أنا وأورنشولت، غرفة مجاورة إلى غرفتيهما.

كان يستحيل أن تدار شئون بيت تين مورتى بالعشوائية نفسها التي أديرت بها شئون بيت يورك رود. وأحد الأسباب أنه بحكم معايير ذلك الوقت هناك تدابير أمنية محكمة. فالحراس يتخذون مواقعهم على بوابة البيت الرئيسية، وموظف الاستقبال يسجل اسم كل زائر. فوجدت إنديرا أن عليها إدارة منشأة معقدة، والإشراف على عدد كبير من الموظفين والخدم. وفي الحقيقة خضع بيت تين مورتى لنظام إدارة مصغر من ذلك الذي خضع له منزل آناند بهافان أيام كان موتيلال نهرو مديراً لشؤنه، لكن إنديرا كانت بالكاد تذكر عهد الرخاء ذاك. وعليها هي ونهرو أن يستضيفا الكثير من الضيوف الرسميين، فاجتهدت في تحضير قوائم الطعام للضيوف وترتيب أماكن جلوسهم. ولأن نهرو كان يرفض أن يستغل الخمسمائة روبية المعفاة من الضرائب التي خُصصت له شهرياً بصفته رئيساً للوزراء لاستضافة الضيوف الرسميين. فكان أغلب الطعام الذي يُقدم للضيوف في بيت تين مورتى من الأطعمة الهندية البسيطة. ولم يكن الخمر يُقدم هناك. فيتولى نهرو الإنفاق على نفسه وعلى ضيوفه. ويرسل لفيروز غاندي فاتورة شهرية ليغطي تكاليف إعالة إنديرا وطفليها.

بعد عدة أعوام قالت إنديرا في وصف أيامها الأولى في بيت تين مورتى:

«لم يكن الأمر باختيارى حقيقة. طلب مني والدي القدوم وإعداد البيت لإقامته. لم يكن هناك من يمكنه القيام بذلك غيري. لذا أعددت المنزل، لكنني قاومت كل ما من شأنه أن يجعلني المضيفة فيه. كنت بكل بساطة مرعوبة من ... الواجبات الاجتماعية. فمع أنني التقيت بكثير من الناس، فإنني لم أكن أجيد «التواصل مع الآخرين» والانخراط في المحادثات الخفيفة ... لطالما كرهت الحفلات ... كنت

أمضي بعض الوقت في تين مورتى ثم أرحل. فيما بعد صار الرحيل أصعب أكثر فأكثر. كان زوجي ... في لكانا وكنت أذهب إلى هناك. لكنني دائماً كنت أتلقى برقية [من نهرو] تقول: «ضيوف مهمون قادمون، عودي فوراً» ... كانت مشكلة حقيقية لأن فيروز كان طبعاً لا يقدر دائماً رحيلي عنه. فكنت أمضي نصف الشهر تقريباً في لكانا ونصفه في دلهي.<sup>67</sup>

اعتاد رؤساء الحكومة الهندية الوافدون المكوث لعدة أيام في تين مورتى، ثم الذهاب إلى راشتراباتي بهافان محل إقامة الرئيس. فكان في تين مورتى سيل لا ينتهي من الضيوف على الإفطار والغداء وحفلات الشاي والاستقبال ومآدب العشاء، وفي هذا قالت إنديرا في مقابلة صحفية: «[لدينا] ضيوف على كل وجبة». ومع أن إنديرا لم تكن ترتاح قط من استقبال الضيوف في تين مورتى فقد كانت مضيفة تتقن عملها ولا تتوانى في أدائه. وفي هذا تقول: «إن كان على المرء أن ينجز عملاً، فمن الأفضل أن يتقنه، لذا طورت من نفسي لأكون على قدر العمل.»<sup>68</sup> فكانت تستوثق بنفسها من عمل كل لمبات المصابيح وكل صنادير المياه في الحمامات. وتحرص على أن يحظى الضيوف طوال القامة بمقاعد ذات مسند ظهر عالٍ وأن يحظى القصار منهم بمسند للقدمين. وتحرص على إعداد الطعام المناسب لكل من الهندوس الذين لا يأكلون اللحم، والمسلمين الذين لا يأكلون الخنزير، ومن يمتنعون عن أكل اللحم في أيام معينة في الأسبوع، والنباتيون ممن يتناولون البيض واللبن، وممن لا يتناولونهما.<sup>69</sup>

كان أفضل ما يميز بيت تين مورتى هو وجود مساحة كبيرة به لتربية الحيوانات. فكان لدى آل نهرو دوماً كلاب — كانت عادة من فصيلة جولدن ريتريفر — وقد أضافوا آنذاك إلى تلك الحيوانات النابية حيوان بندا الهيمالايا الأحمر وأسموه بهيمسا (انضمت إليه بعد ذلك أنثى سُميت باسم بيما، ورُزقا بصغار) وثلاثة من صغار النمر. وكان لدى طفلي إنديرا مجموعة كاملة من البط والبيغاوات والسلاحف والأسماك وغيرها من مختلف الحيوانات الصغيرة. ومع الوقت ضمت المرحلة الخلفية لتين مورتى حديقة حيوانات صغيرة.<sup>70</sup>

وبعد انتقال نهرو وإنديرا وطفليها بشهر إلى تين مورتى مات جناح متأثراً بمرض السل الرئوي في كراتشي في ١١ من سبتمبر في عام ١٩٤٨. ومع أنه كان رجلاً شاحباً وشديد النحول مصاباً بنوبات السعال المتكررة، فإنه أبقي مرضه سرّاً إلى النهاية. لربما اختلف



سير التاريخ لو كان نهرو — الذي عهد شخصياً طبيعة ذلك المرض القاتلة — وماونتباتن قد عرفا بمرض جناح. فعندها كان يمكنهما أن يؤجلا الاستقلال بدلاً من أن يصرا عليه وينتظرا إلى أن يزاح جناح — الرجل الذي مثل العقبة الكبرى في وجه وحدة الهند — عن طريقهما.

وفي أكتوبر عام ١٩٤٨ قصد نهرو إنجلترا لحضور أول اجتماع لدول الكومنولث، وهناك زار آل ماونتباتن في لندن وأمضى عطلتي نهاية أسبوع لديهما في بيت برودلاندز بيثهم الريفي بهامبشاير. أما في دلهي فقد كانت إنديرا وطفلاها طريحي الفراش من أثر الإصابة بالسعال الديكي. كان فيروز في لكانا. وفي يناير عام ١٩٤٩ انشغلت إنديرا بالإعداد لحفل زواج ناينترا بانديت من جاوتام ساهجال في آناند بهافان، وهذا أول زفاف يقام هناك منذ زواج إنديرا وفيروز في مارس عام ١٩٤٢. وبعد الزواج بثلاثة أشهر تزوجت ابنة نان بانديت الأخرى شاندراليكها من أشوك ميهتا الذي كان مبعوثاً خارجياً شاباً في تين مورتى. وفي فبراير عام ١٩٤٩ زارت إديونا وبامبلا ماونتباتن الهند ومكثتا في بيت تين مورتى، وبعد تلك الزيارة واطبتا على زيارة الهند سنوياً.

ومضت الحياة في طريقها. فبدأ ولدا إنديرا الذهاب إلى روضة الأطفال. وكان فيروز يزور إنديرا والوالدين بصفة دورية لأنه صار من الصعب عليها أكثر فأكثر أن تتصلص من مسؤولياتها بصفقتها مضيئة بيت نهرو. فظلت علاقتها الزوجية تتفسخ. غير أنه في أواخر ربيع عام ١٩٤٩ حبلت إنديرا.

وفي أغسطس وسبتمبر كانت إنديرا منشغلة بالتخطيط لرحلة قريبة إلى أمريكا مع أبيها، وستكون أول زيارة رسمية لها إلى الخارج بوصفها ابنة رئيس الوزراء. وفي إحدى العطلات الأسبوعية في سبتمبر ذهبت إنديرا إلى الله آباد وسقط حملها أثناء إقامتها هناك. وقتها كان نهرو في دلهي وفيروز في لكانا. فأسرع فيروز بالذهاب إلى الله آباد وأعاد إنديرا إلى دلهي.<sup>71</sup> استردت إنديرا بعضاً من عافيتها سريعاً وواصلت استعداداتها لزيارة أمريكا. لكن أطباء دلهي نصحوها بإلغاء هذه الزيارة لأنها لا تزال ضعيفة، لكن إنديرا أصرت على أنها بصحة جيدة وعلى أنها ذاهبة إلى هناك لا محالة. وفي نهاية الأمر، كما كانت الحال معها دائماً، ظفرت بما أرادت. وخسر فيروز.

سجل فقدان إنديرا لحملها وإصرارها على الذهاب مع أبيها إلى الخارج نهاية مرحلة مضطربة وعصيبة في زواجها، ومثل نقطة تحول في حياتها. كان هذا هو آخر حمل لها. ومن المحتمل — أو على الأقل من الممكن — لو ولد هذا الطفل أن تقضي المزيد من

الوقت مع فيروز في لكانا، وبعدها في دلهي حينما انتقل إلى هناك بعدما انتُخب عضوًا في البرلمان. فلربما «أنقذ» طفل آخر زواجهما، لهذا يتمني العديد من المتزوجين طفلًا آخر، ولعل هذه الأمنية كانت فعلًا الدافع وراء سعي إنديرا لأن تحمل بصرف النظر عن أن فيروز رغب في طفلين فقط.

وآنذاك كان ترتيب التزامات إنديرا الشخصية من الأهم إلى الأقل أهمية على الأرجح كالآتي: نهرو في المركز الأول، يليه الولدان، ثم فيروز، ثم نفسها في المركز الأخير. كان ترتيب المسؤوليات بهذه الطريقة يبدو لأغلب النساء في ظروف إنديرا سيرًا على قوانين الطبيعة وليس خيارًا شخصيًا. وربما — لو لم تفقد إنديرا حملها الأخير — لانتزع أطفالها وزوجها المركز الأول في أولوياتها من نهرو، وانتهى بذلك صراع الولاء في قلبها. وهو بكل بساطة صراع بين احتياجات والدها من ناحية واحتياجات زوجها من ناحية أخرى. لكن إنديرا فقدت الطفل، وبطريقة ما فقدت زواجها أيضًا. وفي أكتوبر عام ١٩٤٩ استقلت إنديرا طائرة متجهة إلى أمريكا، وودعت ما كان من المحتمل أن يحدث.

## الفصل الحادي عشر

# تحول

في ١١ أكتوبر عام ١٩٤٩ سافرت إنديرا ونهرو إلى عاصمة الولايات المتحدة واشنطن على متن الطائرة الخاصة بالرئيس الأمريكي هاري ترومان المعروفة باسم سيكريد كاو، التي أرسلها إلى لندن لنقلهما لواشنطن في المرحلة الأخيرة من رحلتها. قبلًا كانا قد سافرا جواً من دلهي إلى لندن على متن رحلة عادية من رحلات الطيران المنتظم، وقد تولى نهرو دفع تكاليف تذكرة إنديرا، مع أن وزير المالية الهندي وافق على دفع تكاليف تذكرتها، وعلى منحها مبلغًا يوميًا تنفقه أثناء إقامتها خارج البلاد.<sup>1</sup> لأنها كانت مع أبيها وهي تحمل صفة دبلوماسية شبه رسمية. على مدى العقد التالي ستصحب إنديرا أباه في أربع وعشرين رحلة إلى الخارج. فقد كانت آنذاك على أعتاب مرحلة جديدة — وانتقالية لا رجعة فيها — من حياتها.

قبل عدة شهور من رحلة إنديرا ونهرو إلى أمريكا كان نهرو قد نصب أخته نان بانديت سفيرة للهند لدى الولايات المتحدة، وكانت هي من أعد برنامج رحلتها التي بدأت باستقبال حفي في العاصمة. غير أن العداوة القديمة بين نان بانديت وإنديرا كانت على أشدها. فقد استثنت بانديت إنديرا من كل المناسبات الرسمية وتعمدت أن تسلبها دورها أثناء الرحلة التي دامت ثلاثة أسابيع، وذلك بأن اصطحبت نهرو إلى كل مكان، وفي ذلك «برينستون» التي التقى فيها نهرو بأينشتاين، مما أزعج إنديرا.

إلا أن إنديرا حضرت فعليًا بعض المناسبات الاجتماعية غير الرسمية مع أبيها، خاصة عندما كانا في نيويورك. أول هذه المناسبات حفل استقبال أقيم في الفندق الذي أقاما فيه — فندق وولدراف استوريا — وقد استضافته الروائية بيرل إس باك التي كانا قد قرأ روايتها «الأرض الطيبة» لكاملًا وقتما كانت في سويسرا. وكان بين ضيوف الحفل الكثيرين الذين دعتهم باك سيدة اسمها دوروثي نورمان ذات خمس وأربعين عامًا، وهي

امرأة ثرية تعيش في زواجها تعمل مصورة إضافة إلى كونها ناشطة سياسية يسارية، وراعية للفنون والآداب، تجمع وتشجع الكتاب والفنانين والمفكرين البارزين. وقد وجدت دوروثي — مثلها مثل العديد من النساء — نهرو جذابًا جدًا. وقد نالت بدورها إعجابه، حتى إنه قبل هو وإنديرا دعوتها المفاجئة لحضور «حفل شاي للأدباء» في اليوم التالي.

كانت دوروثي نورمان تجيد جمع الأثرياء والمشاهير، وللقاء نهرو دعت دبليو إتش أودن ولويس مامفورد وأنيس نين وغيرهم من المشاهير إلى بيتها في شارع إيست سيفينث ستريت، الذي كان ممتلئًا بأعمال فنية حديثة وصور فوتوغرافية من إبداع ألفريد شتيجليتز (الذي جمعت بينه وبين دوروثي نورمان علاقة حب طويلة) وسجاد شرقي وستائر جدارية من إبداعات فنانين ينتمون لبلدان مختلفة. افتتحت نهرو بالمكان. وكذلك افتتحت به إنديرا التي شعرت بالانسجام على الفور مع دوروثي. دعا نهرو وإنديرا دوروثي للسفر معهما إلى بوسطن، وعندما عادا إلى نيويورك أمضت إنديرا الكثير من الوقت مع دوروثي في حين كان نهرو يحضر اجتماعات ومناسبات رسمية مع نان بانديت. لقي نهرو وإنديرا ترحيبًا حارًا في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنهما مرا بوقت عصيب هناك. كانت هذه هي المرة الأولى التي يحتكان فيها بذلك البلد، وقد صدمتا على أثرها. فكما قال نهرو فيما بعد معلقًا، لا يصح للمرء أن يذهب لأمريكا للمرة الأولى أبدًا. وقد صدم نهرو وإنديرا بوجه خاص من المادية الصريحة التي تتسم بها الحياة الأمريكية، ومن التحدث بلا حرج عن المال و«الصفقات». وأزعجت أصوات الأمريكيين العالية ولكنهم المنفرة نهرو. بل وجد المناخ السياسي هناك بغيضًا، وهو المناخ الذي أنتج بعدها بوقت قصير السيناتور جوزيف مكارثي. علاوة على أن محادثات نهرو مع كل من ترومان ودين أكيسون وزير الخارجية الأمريكي — الذي شعر نهرو أنه يعامله باستعلاء — «قد فشلت في إقامة أي علاقة ودية أو أي تفاهم بينهم».<sup>2</sup> كان من المستحيل على الأمريكيين أن يتفهموا سياسة الهند الخارجية الحيادية لأن هاجس الشيوعية بدا أنه يسيطر عليهم.

غير أن انطباع نهرو وإنديرا عن أمريكا تحسن بعدما غادرا واشنطن. ففي شيكاغو بالغ الحاكم أدلاي ستيفنسون في الترحيب بنهرو قائلًا: «بضعة رجال فقط نجحوا في التأثير على قوى زماننا التي لا تعرف السلام. وإلى تلك الفئة القليلة من الرجال الذين ثبتت عظمتهم ينتمي ضيفنا ... بل إن البانديت جواهرلال نهرو ينتمي إلى فئة «أصغر» من الشخصيات التاريخية التي احتلت في حياتها مكانة مقدسة». وفي مدينة سانت لويس

كتبت صحفية في جريدة سانت لويس بوست ديسباتش: «غادرنا نهرو تاركًا خلفه حشدًا من النساء المغرورة أعينهن بالدمع»<sup>3</sup> وبعد أن زار نهرو وإنديرا غرب أمريكا الأوسط سافرا في عطلة قصيرة إلى كندا، ثم عادا إلى نيويورك حيث قامت إنديرا بواحدة من زياراتها الرسمية القليلة مع والدها، فقد زارا إلينور روزفلت في هايد بارك، ووضعًا إكليلاً من الزهر على قبر الرئيس الأمريكي الراحل فرانك روزفلت.

وفي نيويورك ذهبت إنديرا إلى معارض الفنون الراقية والمطاعم الفاخرة، وحضرت عروضاً مسرحية خارج منطقة برودواي، وتسوقت في متاجر ماسي مع صديقتها الجديدة دوروثي نورمان التي كانت — لأنها يهودية ويسارية — تنتمي إلى مجتمع ثقافي راقٍ أبهر إنديرا. كانت دوروثي أيضاً امرأة تولت زمام حياتها. كان لديها طفلان مثل إنديرا، لكنها تحاول أن تنتشل نفسها من زيجة متأزمة. تكتب بانتظام عموداً صحفياً لجريدة نيويورك بوست، وهي ناشطة في اتحاد الحريات المدنية الأمريكي، وفي الاتحاد الأمريكي لتنظيم الأسرة وفي غير ذلك من قضايا الحريات المهمة. ولم تكن مجرد مضيعة حفلات بل شخصية رفيعة المقام، بلغت مكانتها بنفسها، لم تكن فنانة مبدعة ولا قائدة، لكنها صنعت لنفسها حياة خلقة ذات شأن، لم تطغَ عليها حياة الآخرين.

وحينما عادت إنديرا إلى الهند بعد رحلتها إلى أمريكا بدأت في مراسلة دوروثي نورمان، وقد صارت مراسلاتهما — التي استمرت من آنٍ لآخر لثلاثة وأربعين عاماً — كالحبل الذي تستنجد به كلٌّ منهما بالأخرى. وتعد واحدة من النوافذ القلائل التي تسمح بالإطلاع على حياة إنديرا غاندي الشخصية بعد عام ١٩٥٠. حين أخذت رسائلها إلى أبيها تقل تدريجياً، والدليل على ذلك أن إنديرا نفسها قالت في إحدى رسائلها إلى دوروثي: «تدهشني الطريقة التي أكتب بها لك عن نفسي، فلم أفعل ذلك مع أحد من قبل»<sup>4</sup>

كان بين إنديرا ودوروثي الكثير من الصفات المشتركة، منها أن كليهما تعيشان في زيجتهما. غير أن إنديرا شعرت بإمكانية البوح بمكنونات صدرها إلى دوروثي لأنهما تنتميان إلى ثقافتين مختلفتين، وفي مكانين متباعدين. فالبوح لدوروثي نورمان آمن أكثر من أي شخص في الهند؛ فدوروثي بمعزل عن عالم إنديرا اليومي وما راج به من إشاعات ونميمة. أخبرت إنديرا دوروثي بشعورها أنها لا تملك خياراً إلا أن تضع حياتها في المرتبة الثانية بعد حياة أبيها، وتشرح إنديرا كيف أنه لم يكن أمامها خيار آخر فتقول: «بمعنى أنني «شعرت» بشدة بمدى وحدة أبي، وشعرت أيضاً أنني مهما بلغت من مراتب ومهما شعرت بالرضا من عملي الخاص، فكل هذا — من منظور أشمل — لن يكون نافعا كما

لو «لازمت أبي» [الأمر الذي حذرنا هارولد لاسكي من القيام به قبل عدة أعوام]؛ إذ أزل العقبات وأضطلع بالكثير من الأمور ... لكن عليّ ... أن أقوم بأشياء أخرى أيضًا. هل أكتب؟ ... لعل الكتابة تجلب النظام وتمهد الطريق نوعًا لحياتي الفكرية وأعمالي المستقبلية.<sup>5</sup>

وكتبت إنديرا إلى دوروثي عن تعاستها مع فيروز، ولكن ليس بصراحة تامة. فلم تتمكن من الإتيان على ذكر خياناته لها، بالضبط كما لم تتمكن دوروثي من الحديث عن اضطراب زوجها النفسي وسلوكه العنيف. ومن بين الموضوعات التي تكررت في الخطابات إلى دوروثي شعور إنديرا بالوحدة بين الآخرين في دلهي. وهي قلقة من أنها لا تعنى بالقدر الكافي بغيرها من الناس، واعترفت بأنها صارت تنزعج منهم بسهولة شديدة، وفوق كل شيء تشعر بأنها «مختلفة» عنهم. فهي تقول: «إنهم يسلونني ويزعجونني، وأحيانًا ما أجد نفسي أراقبهم كما لو أنني لست من جنسهم على الإطلاق.» وحينما وصل دلهي فيلم «كل رجال الملك» المأخوذ عن رواية روبرت بين وارين، وجدته إنديرا رائعًا، لكنها شعرت أن بقية من شاهدوا الفيلم لم يدركوا مغزاه، وهو ما أزعجها إلى أقصى حد، وفي هذا تقول: «من السخيف أن أنزعج بشأن هذه التفاهات ... ومع ذلك ألا يكون هناك من يشاركني نفس ميولي أمر يشعروني بالوحدة والعزلة، وهو شعور غير محبب على الإطلاق.»<sup>6</sup>

شاب علاقة إنديرا ودوروثي شيء من النرجسية. فقد ساندت كل منهما الأخرى في تصوير نفسها كأمراة فوق البشر صبرت كثيرًا على الأدنى وتعرضت للإهمال. كانتا تريان نفسيهما على أنهما سيدتان مرهفتا المشاعر، تقدران الجمال، عالقتان في زيجتين غير سعيدتين مع رجلين يصعب إرضاؤهما، يخشيان ذكاء زوجتيهما واعتمادهما على ذاتيهما. واصطبغت خطاباتهما إحداها للأخرى بالمديح. فعلى سبيل المثال كتبت دوروثي في أغسطس عام ١٩٥١ إلى إنديرا تقول: «كثيرًا ما شعرت بمدى حاجتك للشعور بأنك محبوبة وبأنك قادرة على منح الحب بكل طاقتك. وإلى الصدق والصراحة عند الكلام عن أكثر الأمور حساسية. إن بك كثيرًا من صفات الفنان، التي تظهر في اهتمامك بالخطوط والأشكال والألوان، وانتقائك للملبسك، واستخدامك للزهور. كل شيء، وفي ذلك نظرتك إلى الأشياء.»<sup>7</sup>

كانت إنديرا تشعر بالارتياح مع النساء اللاتي يقدرن الجمال، وخاصة مع بوبول جاياكار أقرب صديقاتها الهنديات، ومساعدتها الشخصية يوشا بهاجات. أما دوروثي

نورمان فقد رفعتها إنديرا إلى مرتبة «توأما الروحي». ففي منتصف الخمسينيات كتبت إنديرا إلى دوروثي تقول: «أعتقد أنك تعرفيني حتى أكثر مما أعرف نفسي».<sup>8</sup> وكتبت دوروثي نورمان بعدها بعدة أعوام إلى إنديرا أنهما «أحبنا إحداهما الأخرى على الفور».<sup>9</sup> لكن صداقتهما لم تكن جسدية بأي حال من الأحوال. بل كانت علاقة روحية تمامًا تتلخص في الكلام عن الكتب والفن والوحدة. ومن المحتمل أن كلا منهما أحببت انعكاس صورتها في الأخرى أكثر مما أحببت الأخرى. ففي السنوات الأولى من صداقتهما شعرت إنديرا أن الشخصية التي أعجبت دوروثي حقًا كانت شخصيتها «الأصلية» الحقيقية. لكن هذه الشخصية أخذت تتوارى مع انشغال إنديرا المتزايد بالمجال السياسي، وبعدما أصبحت إنديرا رئيسة وزراء الهند بقيت شخصية «إنديرا بعيني دوروثي نورمان» لكن بشكل مفكك وغير واضح المعالم. ربما استطاعت دوروثي نورمان أن تسبر أغوار النواحي العاطفية والفنية لدى إنديرا غير أن شخصية إنديرا السياسية كانت غامضة على دوروثي.<sup>10</sup>

بعدما عادت إنديرا إلى الهند في منتصف نوفمبر عام ١٩٤٩ قصدت لكانا لقضاء بعض الوقت مع فيروز وولديها. وبعد نيويورك ودوروثي نورمان وصديقاتها محبات الجمال عادت لتتلقى صدمة قوية. فقد كانت «قذارة» و«فساد» الحياة السياسية في لكانا منفرين كما هو شأنهما دائمًا، ففي ديسمبر قصت إنديرا إلى نهرو في رسالة كيف أن أشخاص مثل جي بي بانث رئيس حكومة أوتار براديش حاولوا السيطرة على سياسة تحرير صحيفة «ناشيونال هيرالد». واختتمت إنديرا رسالتها إلى أبيها بتهديد قالت فيه: «إذا لم تأمر باننجي بأن يعدل عن انتهاك الديمقراطية بتدخله ... (بكامل قوى النظام الحكومي وأعضائه، وفي ذلك قضاة الولاية) في عمل الصحف، إذن رجاء كف مستقبلاً عن الحديث عن الديمقراطية وحرية الصحافة في الهند. دعنا لا نضيف الزيف إلى علل هذا الوطن الكثيرة، إندو». كانت هذه الرسالة واحدة من رسائلها القليلة إلى أبيها التي لم توقعها بعبارة «مع حبي».

كما كانت الحال في كشمير العام السابق، كانت إنديرا مقتنعة تمامًا بموقفها تجاه أحد القضايا السياسية وتحاول التأثير على أبيها. لكن هذه المرة لم تثمر محاولتها إلا القليل — إن كانت قد أثمرت — إذ بعث إليها نهرو بإجابة ملتوية قال فيها إنه واثق من أن الأمر «لن يفضي إلى شيء خطير». ثم أضاف: «علينا ألا نعطي المسائل أكبر من

حجمها». لكن إنديرا رفضت أن تهدأ. فبعثت إليه برسالة غاضبة أخرى تدين فيها الفساد في لكانو، وفي تلك الرسالة أيضًا لم توقع إلا باسمها. لكن بنهاية ديسمبر كانت قد هدأت. وقبل ليلة عيد الميلاد بيومين كتبت إلى نهرو تقول: «عزيزي، أحيانًا أريد أن أعود عن الصواب، فتبدو صغائر الأمور لي ... ضخمة، وأشعر بالاكنتاب والإحباط.» وفي أوائل يناير فرت إنديرا من «قذارة» و«فساد» سياسة لكانو وأوتار براديش، وعادت هي وفيروز وولداها إلى بيت تين مورتى للمشاركة في احتفاليات يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٠؛ اليوم الذي صارت فيه الهند رسميًا جمهورية.<sup>11</sup>

قدمت دوروثي نورمان إلى دلهي للمشاركة في الاحتفاليات، ومكثت لستة أسابيع في تين مورتى في آخر الرواق الذي تقع فيه غرفة إنديرا. لم يعجب فيروز دوروثي إذ رأت أنه «فج»، ولم تحاول جدًّا أن تخفي انطباعاتها عن إنديرا أو فيروز نفسه، الذي لم تعجبه دوروثي بقدر ما لم يعجبها هو. كان هناك قدر لا بأس به من التوتر بين دوروثي وفيروز، استمر إلى أن عاد إلى لكانو في أوائل فبراير.<sup>12</sup>

حينما غادرت دوروثي تين مورتى في مارس ظلت إنديرا وطفلاها هناك. كانوا أحيانًا يذهبون لزيارة فيروز في لكانو في العطلات الأسبوعية، غير أن محل إقامتهم الثابت وبيتهم الحقيقي صار مقر إقامة رئيس الوزراء في دلهي. وفي مايو ذهبوا إلى كشمير من دون فيروز، وعادوا إلى دلهي في يوليو. وبذا ظل الوضع على ما هو عليه — إنديرا والأطفال في دلهي وفيروز في لكانو — إلى أن انتُخب فيروز عضوًا في البرلمان العام التالي.

حينما أُجريت الانتخابات العامة الأولى للهند من أكتوبر عام ١٩٥١ إلى مايو عام ١٩٥٢ حدث أعضاء حزب المؤتمر إنديرا على الترشح لعضوية البرلمان، لكن إنديرا رفضت لأن طفلها لا يزالان صغيرين. غير أنه كان لرفضها سبب آخر وهو أن فيروز قد ترشح لتمثيل دائرة راي باريلي، وهي دائرة انتخابية تقع في الوسط بين الله آباد ولكانو بأوتار براديش. أدركت إنديرا أن زوجها المضطرب لن يحتمل أن تشغل هي وفيروز معًا بالسياسة. لذا بدلًا من الترشح لعضوية البرلمان عملت إنديرا بكد، وطافت الدوائر الانتخابية التماسًا لأصوات الناخبين لكل من أبيها وفيروز. في الواقع كانت راي باريلي دائرة انتخابية كبيرة جدًّا، حتى إن إنديرا وفيروز قسماهما إلى جزأين، وسعى كل منهما إلى اجتذاب الناخبين كلٌّ في جزئه. وفي فالبور — دائرة نهرو الانتخابية — كانت إنديرا هي فعليًّا من أدار حملة والدها. وعكفت على ذلك بلا كلل في دلهي. ففي يناير عام ١٩٥٢ كتب نهرو إلى إدوينا



ماونتبانتن يقول: «كانت إحدى مفاجآت هذه الانتخابات ... الأعمال الرائعة التي اضطلعت بها إنديرا. لقد بذلت مجهودًا هائلًا. ففي دلهي كانت تخرج منذ الثامنة صباحًا وتعود في قرابة الحادية عشرة مساءً تخطب أمام الكثير من الاجتماعات الصغيرة والجماعات. ويقال إنها خطيبة مفوهة لديها شعبية كبيرة.»<sup>13</sup> وقال نهرو لصديق آخر متباهيًا بابنته: «لقد قامت إنديرا بعمل الرجال إبان هذين الشهرين الماضيين، بل إنها فاقت عملهم حقيقة. وهي إلى الآن تطوف [تدير الحملات] في قرى الله آباد وأحياء راي باريلي.»<sup>14</sup> في جميع أنحاء البلاد فاز حزب المؤتمر باكتساح؛ حيث حصد ٣٦٤ مقعدًا في البرلمان من مجموع ٤٩٩، وانتصر في اثنتين وعشرين ولاية من مجموع ست وعشرين ولاية.

بعد أن فاز فيروز بمقعد في البرلمان انتقل من لكانا إلى دلهي. وبالإضافة إلى أنه صار عضوًا في البرلمان نصب مديرًا عامًا لطبعة نيو دلهي من صحيفة «إنديان إكسبريس»، التي أسست بالفعل طبعتين شهيرتين في بومباي ومدراس. ومثل كل أعضاء البرلمان خُصص لفيزوز بيت حكومي من طابق واحد، غير أنه استخدمه في البداية في عقد الاجتماعات واستقبال الأصدقاء والزلاء. وظل تين مورتى المكان الذي يتناول فيه وجباته ويناام، مشاركًا إنديرا غرفتها القائمة التي تشبه غرف الفنادق، الواقعة في الجناح الغربي من البيت في الغرفة المجاورة لحجرة نوم الطفلين. لكن سرعان ما وجد فيروز المناخ في تين مورتى خانقًا. فيذكر أن شانتا غاندي — صديقة إنديرا وفيزوز القديمة من أيام دراستها في لندن — حضرت في أحد الأيام لتناول الغداء معهما في تين مورتى، وقد أخبرها فيروز على انفراد «وصوته يحمل نبرة ساخنة»: «إن هذه البلدة كلها [دلهي] ستتحول إلى بلدة مؤامرات.» وعلى مائدة الغداء قالت شانتا غاندي لإنديرا وفيزوز: «كيف تتمكنان من العيش في هذا المكان [تين مورتى]؟ إنه متحف وليس منزلًا يمكن العيش فيه.» فردت إنديرا — التي عملت بكد لإضفاء طابع إنساني على ذلك البيت الذي كان في السابق محل إقامة رئيس أركان الحرب البريطاني — بحدة قائلة: «ليس الكل محظوظًا بقدرك. علينا تقبل الأمور كما هي.»<sup>15</sup> بدا واضحًا لشانتا غاندي أن علاقة إنديرا وفيزوز الزوجية كانت متوترة جدًا.

لم يكن زواج إنديرا وفيزوز يتجه إلا للأسوأ مع الوقت. فسرعان ما وجد فيروز أن وضعه في تين مورتى وهو في المرتبة التالية لوالد زوجته وضع يستحيل القبول به. فإنديرا رهن إشارة نهرو، ومضيعة بيته في جميع المآدب الرسمية، التي أحيانًا لا يدعى فيروز إليها، أو التي وجد نفسه إن دُعي إليها في مرتبة أقل من زوجته بكثير. فمثلًا فيما

كان رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي نيكولاي بولجانين والسكرتير الأول في ذلك الوقت للحزب الشيوعي السوفييتي نيكيتا خروشوف يلقيان خطبة في اجتماع عام أثناء زيارتهما الرسمية للهند، وقفت إنديرا ونهرو على المنصة، في حين منع ضباط الأمن فيروز وبعضاً من أعضاء البرلمان الآخرين من الدخول. وهذا أثار ثائرة فيروز ودفعه إلى إثارة المسألة في البرلمان، واضطر نهرو إلى الاعتذار له. وفي أحد اجتماعات لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند ذكّر نهرو أعضاء الحزب بأن عائلاتهم لم تكن مدعوة، وعاتب الأعضاء الذين جلبوا زوجاتهم وأطفالهم معهم، فقاطعه فيروز قائلاً: «لم أكن أنا من جلب زوجتي إلى هنا»، مشيراً بذلك إلى وقوف إنديرا إلى جانب نهرو على المنصة. بعدها أخذ فيروز يزيد من الوقت الذي يمضيه في بيته في شارع كوين فيكتوريا، غير أنه كان ينام أغلب الليالي في تين مورتى.

قابلت إنديرا ثورات فيروز وغيابه عن المنزل بفتور. لم تكن بحاجة لتعقيدات أخرى بالإضافة للعناية بوالدها وطفليها وإدارة منزل تين مورتى. ففي أوائل الخمسينيات التحق راجيف وسانجاي بمدرسة خاصة راقية هي شيف نيكيتان (بيت شيفا) تديرها ألمانية متزوجة من هندي تدعى إليزابيث جاوبا. (وفيما بعد ستصبح إحدى مدرسات تلك المدرسة واسمها يوشا بهاجات المساعدة الشخصية لإنديرا، وهي شابة جذابة ومولعة بالفن من لاهور). إضافة إلى ذلك كان أمام نهرو جدول شاق من المهام، فهو يعمل يومياً بصفة روتينية من السابعة صباحاً إلى الثانية صباحاً ولا يحظى إلا باستراحات قصيرة لتناول الوجبات أو ممارسة اليوجا. ومن عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٥٤ صار نهرو إلى جانب كونه رئيساً للوزراء وزيراً للخارجية ورئيساً للجنة التخطيط وحزب المؤتمر. فيلقي الخطب كل يوم تقريباً، ويقوم بجولات واسعة في أرجاء الهند، ويسافر إلى خارج البلاد بصفة دورية. ففي أوائل الخمسينيات كان يسافر إلى الولايات المتحدة وكندا وإندونيسيا وبورما وأوروبا وبريطانيا كل عام تقريباً.

ومع أن إنديرا أخضعت حياتها بالكامل لحياة أبيها فقد كانت تجد الوقت للاضطلاع بدور حيوي في مجال الرعاية الاجتماعية والأعمال الثقافية. فقد أسست مركز بال بهافان وهو مركز للعناية بالأطفال الفقراء في دلهي ومركز بال ساهايوج الذي يثوي أطفال الشوارع المشردين ويعلمهم مهارة أو حرفة. وفوق ذلك تولت إنديرا منصب نائب الرئيس لكل من مجلس الرعاية الاجتماعية والمجلس الدولي لرعاية الطفولة، وصارت رئيسة للمجلس الهندي لرعاية الطفولة. وشاركت في العديد من جمعيات الفن التراثي والحرف

ونظمت عروضاً للرقص القبلي في الاحتفاليات السنوية لقيام الجمهورية. وكانت أيضاً ناشطة بين أعضاء حزب المؤتمر من النساء، فتجوب جميع أنحاء الهند، وتتواصل مع عامة موظفي الحزب.

كانت حياة إنديرا آنذاك مزدحمة بالأنشطة، تسير على وتيرة محمومة. لكنها روتينية، لا تثير الكثير من الاهتمام، وقد أحبطت مشاركات إنديرا البسيطة في الشؤون العامة البعض ممن عرفوها أيام نشاطها السياسي في لندن وشعروا أنها خيبت توقعاتهم. فدور إنديرا في تلك السنوات الأولى حقيقة — مع عملها لمصلحة نساء حزب المؤتمر، ومع الموقع الذي كانت تحتله في بيت رئيس الوزراء — كان إلى حد بعيد غير سياسي.

في أبريل عام ١٩٥٣ أبحرت إنديرا مع طفليها إلى إنجلترا لحضور حفل تتويج الملكة إليزابيث الثانية. كان نهر وينيوي الانضمام إليهم فيما بعد، أما فيروز فلم يذهب إلى هناك مطلقاً؛ كان يبدو أن معارضته لمغادرة البلاد تزداد كلما سافرت زوجته إلى خارجها. وقد وصلت تلك المعارضة في نهاية الأمر إلى حد الرهاب.

في لندن مكثت إنديرا وراجيف ذو التسعة الأعوام وسانجاي ذو السبعة الأعوام وجدهما نهر و في فندق كلاريدج في منطقة مايفير. التقوا كثيراً بكريشنا مينون. والتقت إنديرا بببي إن هاكسار صديق فيروز وإنديرا القديم منذ إقامتهما في لندن، الذي أصبح مسئولاً في السلك الدبلوماسي الهندي وسفارة الهند في إنجلترا.

في يونيو بعد حفل تتويج الملكة إليزابيث الثانية سافرت إنديرا للمرة الأولى إلى الاتحاد السوفييتي ومكثت فيه حتى آخر يوليو، وقد أمضت تلك الفترة في زيارة موسكو ولينينجراد وطشقند وسمرقند وجورجيا. كانت تلك أيضاً أول رحلة تقوم بها بمفردها كابنة رئيس الوزراء الهندي. وقد انبهرت جداً بذلك البلد، وبصفة خاصة بالتكنولوجيا السوفييتية والانضباط الذي تتسم به الحياة هناك. وقد فُتن الروسيون أيضاً بإنديرا. فقد كتبت تقول في ذلك: «الروسيون جميعهم في غاية اللطف معي ... فأنا أعمل هنا كما لو أنني ابنة الجميع الوحيدة، بموعد رحيلي سيكونون قد أسرفوا في تدليلي.»<sup>16</sup> وقد قالت إنديرا عن الإجازة التي قضتها على البحر الأسود حيث سبحت واستحممت بالشمس: «لا أعتقد أنني قد حظيت بإجازة مماثلة منذ سنوات»<sup>17</sup> والبحر الأسود — على حد وصف إنديرا — «مثل البحر المتوسط»، ولم تكثرث إنديرا للحصى الذي يملأ شواطئه، ولا لحروق الشمس التي أصابتها. أما لينينجراد فقد قالت عنها إنديرا في رسالتها إلى أبيها: «إنها

مدينة جميلة حقًا». وافتُتنت بمتحف الأرميتاج، وأعجبها الجناح الخاص بها في الفندق الذي نزلت فيه. فقد قالت عنه: «غرف نوم وحمام وغرفة جلوس وحجرة طعام ومكتب. أنا أتقلب في النعيم»<sup>18</sup> غير أنها أكدت لنهرو أنها ستظل زيارة خاصة، وأنها لا تنوي الإبداء بأي تصريحات رسمية.

حينما كانت إنديرا لا تزال في الاتحاد السوفييتي كتب نهرو إليها بعدما عاد إلى الهند في الأول من يوليو عام ١٩٥٣ عن الاضطرابات المتفاقمة في كشمير. يقول في خطابه إن كشمير صارت «مثل قدر يغلي بالهوجائية والمكائد». وبعدها بشهر وصف لها «الوضع الإشكالي» في كشمير حيث «تقلب الشيخ صاحب في آرائه مرارًا، وناصب الهند وإيأي العداء. الوضع هناك ... متفجر»<sup>19</sup> على مدى الستة الأعوام السابقة اعتمد نهرو في سياسته تجاه كشمير على الشيخ عبد الله رئيس وزراء كشمير، وركن إلى إخلاص الشيخ عبد الله للهند والعلمانية. لكن كانت هناك نذر بأن الشيخ عبد الله يتمنى في قرارة نفسه أن تستقل كشمير، أو هكذا خشي نهرو والكثير من الهنود، وما كان مزعجًا بحق هو سعي الشيخ عبد الله الواضح لنيل حظوة الولايات المتحدة. فعلى سبيل المثال كان الشيخ عبد الله قد اجتمع بأدلاي ستيفنسون الذي صرح فيما بعد لجريدة «مانشيستر جارديان» بأن كشمير ليست بحاجة إلى الانضمام إلى أي من الهند أو باكستان. واهتم الشيخ عبد الله أيضًا بفرض نظام دكتاتوري في كشمير.

وصلت الأزمة في كشمير إلى ذروتها حينما عزل رئيسها كاران سينج الشيخ عبد الله من منصبه واعتقله في الثامن من أغسطس. ويقول إس جوبال كاتب سيرة نهرو إن عزل الشيخ عبد الله تم «في جنح الليل» وأن نهرو «لم يوافق أو تطلب منه الموافقة على الاعتقال». غير أنه فيما يلي من أعوام ظل إحساس نهرو «بالمسؤولية النهائية عن اعتقال الشيخ عبد الله يتصارع مع إحساسه بالقيم العامة» — وبالتأكيد — مع الولاء الذي تقتضيه صداقتهما الشخصية.<sup>20</sup>

في هذه الأثناء غادرت إنديرا روسيا قاصدة النرويج والدنمرك، وبعدهما سويسرا حيث انضمت إلى راجيف وسانجاي اللذين قضيا أغلب فصل الصيف في مدرسة تجريبية سويسرية تدعى مدرسة إيكول دي هيومانيتي، أدارها العالم التربوي الشهير بولوس جاهيب. وفي ١٠ أغسطس عام ١٩٥٣ كانت إنديرا في زيورخ عندما قرأت في الصحف السويسرية أن الشيخ عبد الله عُزل من منصب رئاسة وزراء كشمير واعتُقل قبل يومين. فكتبت إلى أبيها على الفور تقول: «لقد تغلغل إلى أعماق قلبي حزن شديد وملكه. أظن أنه

على المرء أن يضحي ببعض الأشياء من أجل المصلحة العامة، لكن هذا أشبه بالتضحية بأحد أعضاء الجسد».<sup>21</sup> كان الشيخ عبد الله هو من استضاف إنديرا وفيروز في شهر عسلهما عام ١٩٤٢، ومن أشرف بعدها بثلاثة أعوام على حفل تسمية راجيف. كان أيضًا صديقًا شخصيًا مقربًا لإنديرا — يكاد يكون فردًا من أسرتهما — بالإضافة إلى أنه زميل أביها في المجال السياسي. كان مجرد التفكير في خيانة الشيخ عبد الله يشعرها بأن معاييرها الأخلاقية قد تزعزعت — هذا إن كان خائنًا بالفعل — فقد علمت جيدًا أن له عدة خصوم متلهفين للنكاية به زورًا لدى الحكومة المركزية. وقد أفجعها تصويره موصومًا بالعار ومعتقلًا بنفس قدر التفكير في خيانتها. وإزاء تلقيها هذه الأنباء من كشمير أرادت إنديرا العودة فورًا إلى الهند، وقد قالت معللة رغبتها تلك: «أشعر بالتعاسة بكل ما في الكلمة من معنى، ولست في حالة مزاجية تسمح بالتحدث إلى الناس»، لكن نهرو أصر على أن تسافر إلى لندن من جديد لإجراء فحص طبي شامل قبل أن تعود إلى الهند.<sup>22</sup>

وهكذا سافرت إنديرا جواً من زيوريخ إلى لندن في ١١ من أغسطس، وبعدها بيومين قصدت المستشفى لإجراء فحص طبي شامل يتضمن «كل أنواع الاختبارات الطبية البغيضة».<sup>23</sup> كانت الاختبارات بلا شك ستحدد حالة رئتيها واحتمالية إصابتها بمرض السل مجددًا. ونظرًا لأنها كانت مستلقية في الفراش طوال اليوم، توفر لها متسع من الوقت للتفكير؛ فقررت — كما كتبت لأبيها — أنها تريد لدى عودتها إلى الهند أن «أعيد تنظيم حياتي، وأنسحب من كل المنظمات السخيفة التي أشترك فيها. لقد سئمت من هؤلاء الذين يضطلعون بأعمال الشئون الاجتماعية كوسيلة للترويج السياسي والاجتماعي، وسئمت بالقدر نفسه من مفاهيم الخير الغامضة لهؤلاء المدعويين بأتباع غاندي».<sup>24</sup> لم يمْضِ على إنديرا سوى خمسة شهور خارج الهند حين بدأت تعيد التفكير في التزاماتها؛ كيف كانت وكيف أرادت أن تكون؛ إذ كانت قد سئمت الأنشطة الشكلية والثانوية.

مع عزم إنديرا على إعادة تنظيم حياتها أدركت حينما عادت إلى دلهي أنه ليس بمقدورها أن تفعل الكثير لتتحايل على وضعها القديم. فمع أن برنامجها الأسري الروتيني اليومي صار أبسط مع تسجيل راجيف وسانجاي في مدرسة دون الراقية في ديها دون<sup>25</sup> — التي تعد في الهند بمنزلة مدرسة إيتون في إنجلترا — فقد ازدحم وقتها أكثر بالأنشطة الحكومية والسياسية. ففي يونيو عام ١٩٥٤ وصل رئيس الوزراء الصيني تشو إن لاي وحاشيته إلى دلهي. وبعدها في أكتوبر صحبت إنديرا نهرو إلى الصين. وقد كتبت إلى دوروثي نورمان في الليلة السابقة على مغادرتها هي ونهرو للصين قائلة: «أنهض بكم

هائل من الأعمال هذه الأيام، لكنني لم أكتشف ما يثير شغفي بعد. لذا ما زلت أبحث عن شيء أكرس له كل جهدي، وأشعر فيه «بلذة التعب الشديد والسلام النفسي اللذين يتولدان من التفاني في بث الحياة في شيء».<sup>26</sup> لكن سرعان ما أتى التعب وحده، دون سلام أو شغف. فقد كانت جولة إنديرا ونهرو في الصين مرهقة منذ اللحظة التي حطت فيها طائرتهما في بكين؛ إذ أقبل لتحيتهما الملايين الذين اصطفوا بطول الاثني عشر ميلاً التي قطعها من المطار. وفيما يلي ذلك من شهور وسنوات قامت إنديرا مع نهرو بسلسلة من الجولات إلى إندونيسيا والولايات المتحدة وكندا واسكندنافيا واليابان والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وأوروبا.

وفي هذه الأثناء بدأ نجم فيروز يسطع في البرلمان بعد تأخير. فحتى أكثر من عامين بعد انتخابه ممثلاً لدائرة راي باريلي ظل فيروز نائب برلمان عادياً، لا يتمتع بالحضور. لكن أوائل عام ١٩٥٥ تغيرت صورته تغيراً جذرياً عندما ألقى أول خطبة له في لوك سابها — مجلس النواب — حين تعرض بالهجوم للعلاقة التي تربط بين مجتمع رجال الأعمال وشركات التأمين. وفضح صفقات شركة بهارات للتأمين المشبوهة، وهي شركة أدارها رجل أعمال هندي ثري يدعى رام كريشنا داليا. وبناءً على ذلك تألفت لجنة تحقيق وأدين داليا، وفي نهاية الأمر أدت حملات فيروز على شركات التأمين إلى تأميم قطاع التأمين على الحياة في الهند. وبذا ترسخت سمعة فيروز بأنه إصلاحى وعدو للفساد، وقد تعززت هذه السمعة في العام التالي عندما دافع عن قرار البرلمان لعام ١٩٥٦ الذي منح الصحافة الهندية حق نشر وقائع جلسة البرلمان الهندي دون التعرض للملاحقة القضائية أو الاعتقال بتهمة ازدراء البرلمان، وهو حق حُرمت منه الصحافة الهندية آنذاك.

وفي العام نفسه صارت إنديرا فجأة عضواً في لجنة عمل حزب المؤتمر، أعلى الجهات التي تضع سياسات الحزب.<sup>27</sup> لم تكن إنديرا راغبة في تلك العضوية، لكنها انتهت إليها بدعوة من يو إن دهيبار رئيس حزب المؤتمر ولال بهادور شاستري. إذ رأى الكثير من زملاء نهرو أن إنديرا ستخدم كحلقة وصل بين حزب المؤتمر ورئيس الوزراء، وكأداة قد تفيدهم. ولقد حاول الحرس القديم لحزب المؤتمر استخدام إنديرا كشخصية سياسية صورية، أو بعبارة أخرى كشخصية ذات مكانة ومنصب لكن بلا نفوذ حقيقي خاص بها. على أي حال لم تكن إنديرا على دراية بمخططهم ذلك على الأغلب. فمع أنها كانت متواضعة لا تميل إلى جذب الانتباه إلى نفسها ولا تزال إلى ذلك الوقت مزعجة الثقة بنفسها، فإنها بالتأكيد لا ترى نفسها شخصاً تافهاً. كان بإمكان إنديرا أن تصير عضواً في لجنة عمل حزب المؤتمر، سواءً بتعيين رئيس الحزب أو بانتخاب أعضائه لها. فمن

الجدير بالملاحظة أنها كانت مصممة على أن تتأهل للمنصب بالانتخاب. ذلك لأنها أرادت أن تحظى بتفويض الشعب الهندي ودعمه السياسي.

كان انتخاب إنديرا لعضوية لجنة عمل حزب المؤتمر — كما نوه أحد أصدقائها فيما بعد — «نقطة تحول جذرية في حياتها. فقبل ذلك ... كان لا ينظر إليها إلا على أنها ... مضيفة أبيها ... «أو فتاة لطيفة» ... لكن مع إعلان عضويتها في لجنة عمل حزب المؤتمر تغيرت النظرة إليها بين عشية وضحاها. فسرعان ما أعيد تصنيفها على نحو مختلف ... وخضعت للدراسة كشخصية سياسية.<sup>28</sup> كتبت إنديرا عن دورها الجديد إلى دوروثي نورمان تقول: «يا لهذه الحياة التي صنعتها لنفسى! كثيرًا ما يبدو لي كما لو أنني أقف خارج جسدي أتأمل نفسي وأتساءل: هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ ... لا شك أنني نضجت كثيرًا منذ آخر مرة رأيته فيها. فقد صرت أثق بنفسى، إلا أنني ما زلت أشعر ببساطتي لدرجة شعوري بالإحراج الشديد عندما يأتيني كبار الشخصيات على اختلافها طلبًا للنصيحة ... لم أعتد بعد أنني عضو في لجنة عمل حزب المؤتمر ... هل بإمكانك أن تتخيليني «مخضمة سياسية»؟»<sup>29</sup>

اضطلعت إنديرا بالمسؤوليات السياسية والمناصب القيادية في تلك المرحلة من حياتها لعدة أسباب. من الناحية العملية صار جدول أعمالها أكثر مرونة برحيل ولديها للدراسة في مدرسة داخلية بعيدة. كذلك نظرًا لأنها كانت في السابعة والثلاثين من العمر شعرت بأن الوقت قد حان لأن تثبت جدارتها بنفسها، غير أنها كانت في الوقت نفسه تعي أنه ما دام والدها على قيد الحياة سيكون عليها أن تكرر جهدها وحياتها لحياته. هذا بالإضافة إلى أن فيروز وقتها — مع أنه صار شخصية سياسية ذات نفوذ فيجب أن يعمل لها حسابًا — لم يكن يحتاجها إلى جانبه، بعكس نهرو. أيضًا قد تكون مكانة فيروز المتنامية قد أثارت نزعتها التنافسية. أما السبب الأهم فهو أن زواجهما قد وصل إلى نقطة اللاعودة. فقد كتبت إلى دوروثي نورمان في ذلك التوقيت تقريبًا تقول: «لقد كنت وما زلت في غاية التعاسة في حياتي الأسرية. لكنني لم أعد أكثر كثيرًا للألم وتعكر الأجواء. غير أنني أشعر بالأسى لأنني فوت أروع ما في الحياة، وهو مشاركة علاقة مثالية مع إنسان آخر، فبرأيي بهذا فقط يكمل تطور الشخصية ونموها.»<sup>30</sup>

في أبريل عام ١٩٥٥ صاحبت إنديرا أباهما إلى باندونج في إندونيسيا، وكانت تلك أول رحلة لها خارج البلاد منذ انضمامها إلى عضوية لجنة عمل حزب المؤتمر. وقد ذهبوا إلى هناك بمناسبة عقد مؤتمر باندونج الذي اجتمع فيه ممثلو الدول الآسيوية والأفريقية لأول مرة ليشهدوا ميلاد حركة عدم الانحياز، التي ضمت الدول التي حازت استقلالها حديثًا

ورفضت التحالف مع قوتي ذلك الزمان العظميين؛ سواء الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي. وقبل ذلك سافر نهرو وإنديرا وابن عمها بريج كومار نهرو (الذي كان آنذاك سكرتيراً في وزارة المالية) إلى رانجون على متن طائرة مؤجرة تابعة لشركة طيران الهند. وهناك التقوا بالرئيس المصري جمال عبد الناصر وتشو إن لاي. كان الأخير قد سافر إلى بورما سراً لأن المخابرات الصينية اشتمت محاولة لاغتياله. وفي اليوم التالي سافر نهرو وإنديرا وعبد الناصر وتشو إن لاي معاً إلى باندونج.

وأثناء رحلتهم بالطائرة من رانجون إلى جاكرتا علموا أن طائرة تشو إن لاي التمويهية قد فجرت بعدما وقفت للتزود بالوقود في هونج كونج، وإزاء ذلك الخبر سلم نهرو على الفور بصحة حدسه — الذي لا يؤيده دليل — بأن المخابرات البريطانية كانت وراء الانفجار، «فكتب برقية شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن، وبتهوره المعتاد نهض من مقعده ليعطيها للطيار ليرسلها باللاسلكي فوراً ... غير أن إنديرا ... التي كانت تجلس بقربه استوقفته، وألقت نظرة على البرقية ... ثم نصحته بالتحلي بالصبر. قالت له إنه تسرع في افتراض تورط الحكومة البريطانية. وأخبرته أنه من الأفضل أن ينتظر إلى أن يظهر إثبات أو دليل قوي آخر». فهذا نهرو ولم يرسل البرقية.<sup>31</sup>

ومع أن مؤتمر باندونج كان حدثاً تاريخياً مهماً فقد كان إلى حد ما محبطاً. فكما أشار بي كي نهرو، «لم تكن أهميته فيما حققه، وإنما كان المهم فيه هو أنه انعقد على أي حال».<sup>32</sup> فمثله مثل العديد من المؤتمرات كان مملًا، يسير على وتيرة بطيئة. مما أزعج نهرو، فكان «لا ينفك يحاول بلا طائل الإسراع من وتيرة أحداثه»، لكن «الوفود المختلفة لم تكف عن إلقاء تصريحاتها الطويلة المملة الفارغة» مع كل محاولاته.<sup>33</sup> وعندما قام رئيس وزراء سيلان السير جون إل كوتيلالوا — الذي كان على صلة وثيقة بالولايات المتحدة — بطرح قرار لإدانة «الإمبريالية الحديثة التي تتبعها التكتلات الشيوعية»، انفجر نهرو غاضباً وهدد بمغادرة المؤتمر. لكن إنديرا تدخلت ثانية وأنبته بشدة قائلة: «تمالك نفسك يا أبي»، وعندها هدا نهرو.

بعد شهرين بالضبط من عودة إنديرا ونهرو من باندونج قاما بجولة في الاتحاد السوفييتي. وكما حدث عام ١٩٥٣ انبهرت إنديرا بشدة بنظام الاتحاد السوفييتي الذي ألهم برنامج أبيها لتحويل الهند إلى بلد صناعي حديث على النمط السوفييتي. وقد بدأت هذه الجولة مرحلة تعاون طويلة ومهمة بين الاتحاد السوفييتي والهند. غير أنها ألبت



الرأي العام ضد إنديرا في الهند بعدها مباشرة بسبب إهداء خروشوف معطفاً من فراء الملك لها. قبل بضعة أعوام انتقدت إنديرا نان بانديت لقبولها ذات الهدية حينما كانت سفيرة للهند في موسكو، غير أن إنديرا اختارت أن تقبل الهدية من خروشوف، بل ظلت ترتدي معطف الملك بسرور لعدة سنوات.

بعد عودة إنديرا من الاتحاد السوفيتي بوقت قصير كُسرت ذراع ابنها راجيف ذي الأحد عشر عامًا أثناء قيامه بزيارة دالهوسي مع فيروز في العطلة المدرسية. فكتبت له إنديرا من دلهي تقول: «يجب ألا يخشى المرء الإصابة بالألم. فالعالم مليء بمختلف أنواع الآلام، وبمواجهتها فقط يصبح المرء قوياً وشجاعاً ... تعلم مدى رغبتني في ... أن تكون شجاعاً فكرياً وجسدياً. هناك الملايين من الناس في العالم لكن أكثرهم يسرون إلى حيث تسير بهم الحياة، وهم خائفون من الموت، وأكثر خوفاً من الحياة».<sup>34</sup> تشبه نبرة إنديرا الوعظية في الخطاب نبرة نهرو في بعض خطاباتهِ إلى إنديرا وهي طفلة، فهي نبرة تكشف عن أن إنديرا نفسها صارت أمًا ومرشدة لولدها. غير أن الخطاب يبوح بأكثر من تلك النبرة بكثير؛ فإننديرا تنظر إلى أكثر الناس على أنهم «يسرون إلى حيث تسير بهم الحياة وهم خائفون من الموت، وأكثر خوفاً من الحياة». فمن الواضح أن رغبتها الدائمة في السيطرة على مسار حياتها بدلاً من مجرد السير إلى حيث تحملها الحياة لا تزال تطاردها. ولربما كان تحول إنديرا إلى الصراحة مع أبيها في المسائل السياسية والشخصية عائداً إلى ذلك، فعلى سبيل المثال شكت إلى سكرتير والدها إم أو ماثي من أن نهرو لا يناقشها أبداً في الأمور السياسية أثناء تناولهما الطعام معاً. وقد أفضت إلى بعض الأشخاص بأنها تتمنى لو كانت ثقة أبيها بها أكبر. وفي أبريل عام ١٩٥٦ حذرت نهرو من الإسراف في الاعتماد على رئيس حكومة بومباي المحلية موراجي ديساي، وعلى كاماراج زعيم حزب المؤتمر في جنوب الهند وعللت ذلك فقالت إنه: «يولد شعوراً بالاستياء لدى الكثيرين ويضر بعلاقتك مع كل من يحمل وجهة نظر مختلفة». ثم أضافت: «أسفة أن أثقلت عليك، لكن كان عليّ أن أزيح ذلك عن صدري».<sup>35</sup>

وصل الأمر إلى حد صار معه واضحاً أن إنديرا تريد أن تكون أكثر من مضيفة نهرو. فصارت تنوب عنه في جولاته، فعلى سبيل المثال نابت عنه في جولته إلى أوريسا بشرق الهند في يناير عام ١٩٥٦ وتباحثت معه في بعض المسائل التي استطلع رأيها فيها. كان نهرو قد اعتاد منذ زمن أن يرسل إنديرا لجمع المعلومات، وكثيراً ما كان يطلب منها مقابلة من لا يملك الوقت أو الرغبة في لقائهم. غير أنه لم يكن يلجأ إليها طلباً للنصح أو

حتى يناقش أي مشكلات أو قضايا معها بعمق. وإنما كان يلجأ في ذلك إلى آخرين من أمثال ديساي وكاماراج. كان نهرو يعلم أن ابنته مثقفة وجديرة بالثقة، لكنه كان ينظر إليها على أنها مساعدة وليس أمينة سر أو مستشارة. وقد تزايد استياء إنديرا من هذا الدور الثانوي.

في ديسمبر عام ١٩٥٦ عادت إنديرا وهي في غاية الإنهاك من رحلة استغرقت تسعة أيام إلى أمريكا مع والدها. وكتبت إلى بادماجا نايدو في أوائل يناير عام ١٩٥٧ تقول: «لا أشعر أنني في أفضل حال لكن ... المطلوب ليس الراحة بقدر ما هو الخضوع إلى برنامج علاجي بالحقن ... إنها ذات المشكلة القديمة».<sup>36</sup> ثم مضت في كلامها تشتكي من معاناتها من فقر الدم وانخفاض الضغط ونقص الكالسيوم. يحتمل أن هذا «البرنامج العلاجي» الذي لجأت إليه إنديرا وتلقته عام ١٩٥٧ كان في واقعه يهدف إلى القضاء على «مشكلتها القديمة»؛ مرض السل الرئوي الذي لطالما كانت مصابة به.

وقت ما كان مرض إنديرا في أشده في الثلاثينيات — حينما كانت تعالج في مصحة الطبيب روليه السويسرية — لم يكن هناك «علاج» للسل، وإنما كانت الراحة و«الإكثار من تناول الطعام» واستنشاق الهواء النقي والتعرض لأشعة الشمس هي وسائل العلاج الوحيدة لذلك المرض، ولم يكن أي منها فعالاً بالدرجة الكافية. لكن بعدها بعقد اكتُشفت عقاقير قوية مثل الستربتومايسين، والبارامينوساليسيليك أسيد (باس)، والأيزونيازيد، التي بإمكانها مجتمعة أو منفصلة القضاء على بكتيريا السل العنوية. وصارت مع أوائل الخمسينيات مستخدمة استخداماً واسعاً في أوروبا وأمريكا الشمالية. ثم وصلت تلك العقاقير إلى الهند عام ١٩٥٦، عندما افتتح مركز العلاج الكيميائي للسل في مدراس تحت رعاية منظمة الصحة العالمية. كان مرضى السل في مركز مدراس يعالجون بالحقن يومياً بعقار ال (باس) والأيزونيازيد لمدة عام، وبعد خمسة أعوام من افتتاح المركز شُفي ٩٠٪ من المرضى الذين واطبوا على العلاج شفاءً تاماً.<sup>37</sup> فكان رئيس وزراء الهند — وابنته — سيعرفان حتماً بعقار علاج السل المستخدم في مركز مدراس.

عام ١٩٥٧ حينما كانت انتخابات الهند العامة الثانية على الأبواب كانت حياة إنديرا قد أصبحت أكثر إرهاقاً وزدحاماً بالأنشطة السياسية من أي وقت مضى. فبالإضافة إلى عملها بلجنة عمل حزب المؤتمر انتخبت لتوها عضواً في لجنة الحزب للانتخابات المركزية التي تبحث في طلبات الترشح لعضوية البرلمان. وشاع وقتها أنها ستنضم إلى

مجلس برلمان الحزب، وبالفعل صارت عضوًا بحلول العام التالي. كانت كل هذه الأنشطة السياسية تتطلب قوة جسمانية وقدرة على الاحتمال، وفي ذلك الوقت تقريبًا كانت إنديرا قد بدأت تدريبًا تكتسب كلا الأمرين.

ومع أنها عانت فيما بعد مرضًا كلويًا حادًا فقد تحسنت صحتها تحسنًا جذريًا. فامتلاً جسدها، وتحول لونها من الاصفرار والامتقاع إلى التورد، ولم تعد تتوارى عن الأنظار من حين لآخر بسبب نزلات البرد والسعال والإنفلونزا. تظهر الصور التي التقطت لها في أواخر عقد الخمسينيات هذا التحول الجذري. بدت في بداية العقد نحيفة وضعيفة وشاحبة بعينين غائرتين. لكن مع نهايته صار واضحًا أن وزنها قد ازداد أربعة عشر رطلًا كاملة أو يزيد، واختفت الهالات الداكنة أسفل عينيها، آنذاك كانت بشرتها صافية ونضرة، وعيناها تشعان بريقًا. فكانت تفيض إشراقًا وحيوية.

يؤكد هذا التحول الملحوظ صحة الاعتقادات القائلة إنها قد تناولت بالفعل عقارات لعلاج السل في الخمسينيات. فمنذ الطفولة كانت إنديرا تبدو مريضة. لكنها صارت منذ أن ناهزت سن الأربعين — الذي بلغته عام ١٩٥٧ — امرأة تتمتع بالصحة واللياقة على غير العادة، ولم يكن هذا خافيًا عن الأنظار. فقد كتبت إنديرا إلى دوروثي نورمان أن الآخرين قد أخبروها بأنها بدت «مبتهجة القلب» ومتجددة النشاط. ومع أن التغيير الذي طرأ عليها لم تكن لتخطئه العين فإنه لم يكن هناك ما يبرره تبريرًا مقنعًا. فهي لم تدخن أو تشرب الخمر قط، ودائمًا ما انتبهت لأكلها، وحرصت على ممارسة التمارين. كانت قد بدأت تنتظم في ممارسة اليوجا، لكن هذا كان التغيير الوحيد الذي طرأ على نمط حياتها. كانت الإصابة بالسل لا تزال بالطبع وصمة لصاحبها في الهند، فهو مرض معدٍ بدرجة كبيرة وشائع بين الفقراء. ومع أنه كان معروفًا لدى الكثيرين في الهند أن كامالا نهرو قد ماتت بذلك المرض فقد ظلت شئون أفراد عائلة نهرو الشخصية — وفي ذلك أحوالهم الصحية — بعد موت كامالا في الثلاثينيات طي الكتمان. لربما ظهرت بعض التخمينات حولها، لكنها لا تناقش قط على العلن؛ إذ كانت تعد مسألة تمس حياتهم الشخصية، وظلت الحال كذلك حتى بعدما أصيب نهرو بعدها ببضعة أعوام بسكتة دماغية أقعدته.<sup>38</sup>

ومع أن إنديرا صارت أكثر ضلوعًا في السياسة فلم تترشح لعضوية البرلمان في انتخابات عام ١٩٥٧ العامة، غير أنها أخبرت بادماجا نايدو أن رئيس حزب المؤتمر يو إن دهيبار «وغيره من مثيري المشاكل» قد عكفوا على نشر شائعات تفيد بأنهم استطاعوا إقناعها بقبول مقعد في البرلمان. فأكدت لبادماجا وغيرها أنها لا تعترم الترشح لعضوية

البرلمان.<sup>39</sup> وهو ما لم تفعله وقتها على الأقل. وبدلاً من ذلك اجتهدت في الطواف ذلك العام التماساً لأصوات الناخبين بجد أكثر حتى مما أبدته عام ١٩٥٢، لكنها هذه المرة كانت تلتمس الأصوات في المقام الأول لأبيها، لا لزوجها. في الواقع زارت إنديرا آنذاك الـ ١١٠٠ قرية تقريباً الواقعة في دائرة نهرو الانتخابية — دائرة فولبور — وخطبت فيها مجتذبة حشوداً تضم ما يصل إلى عشرين ألف شخص. وأقامت الحملات الانتخابية لمرشحي حزب المؤتمر في جوجارات والبنجاب. وفي ١٧ فبراير كتبت إلى نهرو من الله آباد تحكي له كيف أنها تخرج يومياً منذ «بزوغ الفجر» وتعود في منتصف الليل. فتقول في رسالتها إليه: «كانت بنجاب مجهدة، ومع هذا فقد كانت مشوقة إلى أقصى درجة. ففي روهتاك اجتمع من أجلي أنا فقط مائة ألف شخص. أتنخيل هذا؟!»<sup>40</sup> كانت هذه أول انتخابات عامة تشهدها الهند منذ انضمام إنديرا إلى عضوية لجنة عمل حزب المؤتمر، وفيها تألقت في إثبات مهارتها في التنظيم ومقدرتها على جذب الأصوات.

وفي غمرة كل هذه الأنشطة السياسية التي تسير على وتيرة محمومة تدعى زواج إنديرا أكثر. فما كان مذلاً لإنديرا ومحرجاً لأبيها أن فيروز صار يباهي علناً بعلاقاته مع غيرها من النساء، ومن بينهن عضو البرلمان تاراكيشوري سينها التي كانت تعرف بـ «فانتة البرلمان الهندي» وماهمونا سلطانة، وسوبهادر جوشي (وهي سوبهادر داتا — كما كانت تدعى قبل زواجها — التي عملت إلى جانب إنديرا في معسكر اللاجئين بدلهي أول ما صدر قرار تقسيم الهند). كان من بين من اشتهرت من عشيقات فيروز الأخريات امرأة نيبالية جميلة تعمل لدى إذاعة راديو كل الهند، وامرأة مطلقة من طائفة الكيرالا الهندوسية الرفيعة.<sup>41</sup>

لكن وقتها أيضاً راجت شائعة بأن إنديرا على علاقة غرامية بسكرتير أبيها التخين المستدير الوجه إم أو ماثاي. لكن باعترافه كان هو نفسه من أطلق هذه الشائعات. إذ كان وقتها ولدة سنين بعدها يباهي على العلن بعلاقته بإنديرا. لا شك أن إنديرا وماثاي كانا على علاقة وثيقة، وأن إنديرا كانت تستمتع بصحبته وتمضي الكثير من الوقت معه، وتعتز به، وتأمّنه على أسرارها. فكانا يصطحبان كلاب نهرو معاً يومياً للخارج، وينزهان ابني إنديرا، ويتشاوران بشأن جدول أعمال نهرو وإدارة شئون قصر تين مورتى، وكانا بالطبع يسافران معاً بصحبة نهرو.

كانت علاقة ماثاي بإنديرا منذ بدايتها علاقة متناقضة، ويرجع ذلك إلى حد ما إلى أنه قد سطا على بعض مسؤولياتها، فعلى سبيل المثال اضطلع بتعاملات نهرو مع الناشرين.

ولعل إنديرا اضطرت إلى مصادقة ماثاي حينما رأت الدور المهم الذي يلعبه في حياة أبيها. لكن كان هناك منافسة خفية بينهما، وشيء من الانجذاب لا شك فيه. ووفقاً لكاتب سيرة نهرو سارفيبالي جوبال «شجعت إنديرا غاندي على تجاوز حدوده»<sup>42</sup> ومع أن ماثاي كان لا يتحرج من التعبير عن كراهيته للنساء ويفتقر إلى الوسامة إلا أنه ذو شخصية جذابة وقوية. كان رجلاً متقد المشاعر ومتسلطاً، شأنه شأن فيروز غاندي. يقول ماثاي في سيرته الذاتية: «لم أتصف بالتواضع قط»، ويعترف بأنه «متعصب للذكورة»، ويضيف في سيرته فيقول: «أحد أكثر الأشياء التي أكرهها أن أذهب للتسوق مع امرأة. ولا أظن أنني أستطيع أبداً أن أنام ليلاً في غرفة إن كان بها امرأة. ولا أطيع فكرة أن أشارك دورة المياه مع امرأة». غير أن هذه المشاعر لم تكن إلا «حاجزاً يمنعه من الزواج»<sup>43</sup> لكنها لم تمنعه من أن تجمعها بالنساء علاقات حميمية أو من أن يستخدمهن لخدمة أغراضه.

كان ماثاي وإنديرا يستمتعان بممازحة أحدهما الآخر، فمثلاً يحكي ماثاي أنه بعدما ماتت أمه ذهبت إنديرا ونهرو إلى غرفته لمواساته، وقد كان لدهشتها هائناً في النوم. وحينما عبرته إنديرا بذلك قال لها: «هذا يدل على أنني مرتاح الضمير». فردت إنديرا عليه بحدة قائلة: «أو يدل على أنك معدوم الضمير». فقابل ذلك بأن قال لها: «هذه هي المرة الأولى التي تتفوهين فيها بشيء ينم عن ذكاء»<sup>44</sup>.

ولكن هل كانت هناك علاقة غرامية بين إنديرا وماثاي؟ الحق أن جاذبية إنديرا نفسها كانت مثار الكثير من الخلاف والجدل. فقد كان الكثير من الرجال — ممن كانوا على علاقة وثيقة بها أو ممن عرفوها فحسب — يجدونها في غاية الأنوثة، بل جميلة ورقيقة وجذابة كذلك. في حين كانت النساء تجدنّها باردة ومتحفظة، «تبدو مثل الراهبات»، حتى إنهن افترضن أن العلاقات الجنسية لا تستهويها.<sup>45</sup>

في السبعينيات حكى ماثاي في سيرته الذاتية عن علاقة زعم أنها جمعتهم بإنديرا غاندي لاثني عشر عاماً في فصل بعنوان «هي»، وهو فصل منع ماثاي نفسه نشره عندما كانت سيرته جاهزة للنشر، مع أن إنديرا لم تكن في السلطة وقتها. وقد ظن الكثيرون أن هناك من محا هذا الفصل، والبعض شكك في وجوده من الأساس، لكن في أوائل الثمانينيات بعد نحو خمسة أعوام من وفاة ماثاي برز هذا الفصل على الساحة بعدما وزعته مانیکا غاندي زوجة سانجاي ابن إنديرا على دائرة صغيرة من خصوم إنديرا. كان فصل «هي» يتضمن وصفاً مفصلاً لدقائق العلاقة الحميمة إلى درجة تستدعي الشك في قبول مسؤولي نشر ماثاي مخاطر نشره والمضي قدماً، حتى لو لم يعترض ماثاي.

ففي هذا الفصل يصف ماثاي إنديرا بأنها كانت «ذات جاذبية جنسية كبيرة» وبالإضافة إلى التفاصيل الداعرة يزعم أن إنديرا حملت منه وخضعت لعملية إجهاض. وقتما كتب ماثاي هذا الفصل — بعد مرور وقت طويل على الأحداث التي يزعمها — كان قد تحرر من أوهامه، وصار متلهفًا لأن يكون هو من يقضي على إنديرا وزوجها وأبيها؛ فقد شعر أن كل هؤلاء أخطئوا في حقه، لذا كان لديه دافع قوي لأن يكذب. غير أن الكثيرين ممن عرفوا إنديرا وماثاي جيدًا — وفي ذلك بريج كومار نهرو، وهو رجل يمكن الأخذ بأقواله؛ إذ لم يكن عدوًا لإنديرا ابنة عمته — رأوا أن فصل «هي» يحمل حقائق أكثر مما يحمل من الشائعات.<sup>46</sup>

ومن الواضح أن نهرو لم يشتبه أبدًا في وجود علاقة بين سكرتيره وابنته، في حين أن ماثاي يدعي في فصل «هي» أنه كان دائمًا متخوفًا من أن يفتح عدم انتباه إنديرا إلى تصرفاتها عيني نهرو على العلاقة بينهما. ولكن إن كان نهرو قد ظل غافلاً عن تلك العلاقة المزعومة فلم يظل على ذات الغفلة إلا عدد قليل من الأشخاص. أما سائر دلهي فكانت تتهاشم بالشائعات. حدث ذات يوم في قاعة البرلمان أن ثارت ثائرة فيروز — الذي طالما عُرف بـ «صهر الأمة» — عندما أشار شخص إلى ماثاي بأنه «صهر رئيس الوزراء الحقيقي». ومن الجدير بالملاحظة أن إنديرا لم تفعل شيئًا لإخماد الشائعات التي تردت بشأن هذه العلاقة المزعومة.

في الواقع قد تكون الشائعات في حد ذاتها هي كل ما هدفت له إنديرا من علاقتها بـ ماثاي، سواء كانت حقيقية أو كاذبة، فلسنين شعرت إنديرا بأن فيروز قد أهانها بخيانتها المتكررة لها، خاصة منذ انتقاله قبل وقت قصير إلى دلهي ومباهاته على العلن بعلاقاته الغرامية. لقد صارت الخيانة السلاح الذي يستخدمه كل منهما في مواجهة الآخر. وكان هذا هو دور فيروز ليشعر بالمهانة، وقد شعر بها وبقوة. فعزم على تدمير ماثاي، واستعان بصديقه الصحفي نيكيل تشاكرافرتي.<sup>47</sup>

عام ١٩٥٨ توقف فيروز عن العيش في تين مورتى تمامًا، فنقل أغراضه من هناك إلى منزله في شارع كوين فيكتوريا، ولم يعد يذهب إلى مقر إقامة رئيس الوزراء إلا صباحًا فقط ليزور ولديه لدى عودتهما من مدرستهما الداخلية. ولم يحاول فيروز إخفاء انفصاله عن إنديرا. فقد أعلنه لصديقه الصحفي إندر مالهورترا ذات يوم؛ إذ قال له: «أنصت إليّ قبل أن تستمع إلى قصة محرقة، دعني أؤكد لك أنني توقفت عن الذهاب إلى بيت رئيس الوزراء تمامًا.»<sup>48</sup>

وإلى جانب انتقال فيروز من تين مورتى فقد وجد طريقة لينتقم من إنديرا في نقطة ضعفها، وهي والدها. ففي فبراير ألقى في البرلمان واحدة من خطبه اللاذعة يفصح فيها هذه المرة صفقات احتيالية تمت بين مسئولين في شركة التأمين على الحياة التي تملكها الحكومة ورجل أعمال مستقل يدعى هاريداس موندھرا. كان موندھرا متبرعاً سخياً لحزب المؤتمر منذ زمن طويل، غير أنه عندما وقع في مشكلات مالية في أواخر الخمسينيات أقنع وزير المالية تي تي كريشنااماتشاري وسكرتير أول الشؤون المالية إتش إم باتل بأن «ينقذاه من مشاكله المالية» بإقناع شركة التأمين على الحياة بشراء أسهم قيمتها ١٥ مليون روبية بشركاته. زعم موندھرا أن سوق البورصة ستعرض لضربة قوية إذا لم تتدخل الحكومة. كانت هذه الصفقة غير قانونية، والأهم من ذلك أن قيمة الأسهم انخفضت انخفاضاً حاداً بعدما تمت الصفقة. فوقف فيروز غاندي في البرلمان يقول: «أمل أن أكون قد أثبت تواطؤ شركة الهند للتأمين على الحياة مع السيد موندھرا. وأثبت — كما أمل — وجود مؤامرة يساء فيها استخدام المال العام لتمويل مصالح شخص واحد على حساب المؤمن عليهم».<sup>49</sup> كانت شركة التأمين على الحياة تدخل ضمن نطاق مسئولية وزارة المالية، وبالتالي صار كريشنااماتشاري — الذي كان معروفاً باسم تي تي كيه، وصديقاً وزمياً مقرباً لنهرو — مسئولاً رسمياً.

فاضطر نهرو إلى تأليف لجنة للتحقيق فيما صار سريعا يعرف باسم «فضيحة موندھرا»، وحينما أصدرت اللجنة تقريراً تذكر فيه أن وزير المالية كريشنااماتشاري «مسئول ... من الناحية الدستورية» عن صفقة شراء الأسهم أجبر تي تي كيه على الاستقالة من منصبه، مع أن نهرو ظل مقتنعا بأنه بريء من كل إنثم.<sup>50</sup> وحل مورارجي ديساي محل تي تي كيه كوزير للمالية.

ونتيجة لهذه الفضيحة تحولت سمعة فيروز من محارب للفساد إلى قاهر للعمالقة. فاكسب مكانة قومية، واجتذب حوله دائرة من الأتباع والوصوليين. وصارت قاعة البرلمان الرئيسية التي كان أتباع فيروز يجتمعون فيها للقاء مثلهم الأعلى تعرف باسم «ركن فيروز». وفيها وفي صالون منزله في شارع كوين فيكتوريا كان فيروز المحمر الوجه الربيل، الذي يشبه السيد بيكويك من قصة تشارلز ديكنز «مغامرات مستر بيكويك» هو القائد.<sup>51</sup> وقد صار من الناحية الفعلية يمثل معارضة غير رسمية لنهرو.

وكما هو متوقع كتبت إنديرا إلى دوروثي نورمان آنذاك تشكو إليها من أنها تشعر بأنها «حائرة جداً». وتشعر بأنها حبيسة كذلك. فنقول في خطابها إلى دوروثي: «منذ أن

كنت فتاة صغيرة وأنا أشعر كما لو كانت هناك قوة تحركني، كما لو أن هناك ديناً عليّ سداً. ولكنني فجأة صرت أشعر بأنني قد سدّدت هذا الدين؛ على أي حال تتملكني رغبة قوية في ترك كل شيء خلفي والهروب إلى مكان بعيد في أعالي الجبال. ذلك بدون أن أبه إن لم أقم بأدنى عمل ثانية.<sup>52</sup> إن «حلم الهروب» الذي تحدث عنه إنديرا هنا سيلون خطاباتها إلى دوروثي نورمان على مدى الأعوام القليلة التالية.

أخبرت إنديرا دوروثي أيضاً أنها قد شرعت في تعلم اليوجا بجدية، فتقول لها: «أنهض مبكراً هذه الأيام لأمارس مجموعة معينة من التمارين. إنه نظام ... يوجا ... يدرسه لنا معلم يوجا في غاية الوسامة. في الحقيقة كانت وسامته هذه — وخاصة بنيتها الرائعة — هي ما اجتذب الكل إلى اتباع نظامه ... غير أنه يستفز من يتكلم معه. فهو يكثر الكلام عن الخرافات.»<sup>53</sup> كان دهيريندرا براهماشاري معلم اليوجا لإنديرا سيضطلع مستقبلاً بدور مهم وغامض في حياتها. وصف ماثي — الذي كان وصول براهماشاري إلى تين مورتى وتنامي نفوذه هناك مدعاة للقلق بالنسبة إليه — هذا الأخير بأنه «سوامي ملتجح شبه أُمي»، غير أن ماثي أقر بأن براهماشاري كان أيضاً «طويلاً وجذاباً». كانت بنية براهماشاري الجسدية الرائعة التي يبرزها تخففه من الملابس حتى في البرد وشعره ولحيته السوداء واللامعان وعينه الثاقبتان تبهران الكل، رجالاً ونساءً على حد سواء.

عام ١٩٥٨ كان براهماشاري — الذي يعني اسمه «المتبتل» — قد وصل لتوه إلى دلهي، وقيل إنه وصل مفلساً لأنه طرد من كشمير لمغازلته طالبات اليوجا لديه. ووفقاً لماثي بعدما خلب براهماشاري لب إنديرا بوقت قصير بدأ نهرو أيضاً يتلقى دروس اليوجا من براهماشاري. وسرعان ما صار ساسة بارزون آخرون تلاميذ لدى هذا السوامي، من بينهم لال بهادور شاستري وجايابراكاش نارايان ومورارجي ديساي والرئيس الهندي الدكتور راجيندرا براساد. وعام ١٩٥٩ أنشأ براهماشاري أشرمه أشرم يوجا فيشواياتان وصندوقه الخاص بالترويج لليوجا في دلهي، الذي تولى نهرو افتتاحه. كانت وزارة التعليم تمد الأشرم بمنحة سنوية ضخمة، أما براهماشاري نفسه فقد خصصت له الحكومة الهندية منزلاً في شارع جانتار مانتار القريب من وزارة الإسكان. وبذا بدأ صعود براهماشاري الملحوظ في عالم سياسة القوة في دلهي.

لم تكن إنديرا الوحيدة في تين مورتى التي تحلم بالهروب آنذاك. ففي أواخر أبريل عام ١٩٥٨ حاول نهرو جدياً أن يستقيل من رئاسة الوزراء. كان قد حاول أن يترك هذا المنصب الثقيل ثلاث مرات؛ الأولى عام ١٩٥٤ والثانية عام ١٩٥٦ والثالثة عام ١٩٥٧،



غير أن الخطبة التي ألقاها في المرة الرابعة — في ٢٩ من أبريل عام ١٩٥٨ — كانت أكثر جدية وصدقًا من كل المرات التي حاول فيها أن يتحرر من ذلك المنصب. كان يشعر بالتعب و«الهرم». فكتبت له إنديرا في الأول من مايو — بعدما أجرت معه محادثة خاصة طويلة — رسالة تحثه فيها على الاستقالة حسب ما تملي عليه رغبته وسلمتها له بنفسها. ومع أن كليهما آنذاك كان في بيتهما تين مورتى إلا أن إنديرا أثرت أن تكتب إلى نهرو كما كانت تفعل في الماضي، حينما تحاول أن تنصح والدها. كانت قد حذرتة قبل وقت قصير قائلة: «ثمة أعمال بغيضة ترتكب من حولك مباشرة، نابعة بلا شك من الغيرة الحقودة التي عهدتها».<sup>54</sup> أما في خطابها هذا فتسأله بما أنه قد أثار مسألة استقالته علنًا «هل من الحكمة العودة من جديد إلى «الوضع الحالي»؟ ... إن السياسة في بلدنا تتطوي على الكثير من القذارة، حتى إن الكل ينظر إلى الأمور من منظوره الطامع الضيق، ويعجز عن تقدير النبل والعظمة. لذا قد يظن البعض أنه لم يكن لديك نية للتخلي عن رئاسة الوزراء، وأنت كنت تتظاهر بذلك لا غير. دعهم يحاولون تدبر أمورهم بأنفسهم، وإلا أفسدوك بدنسهم. فقد يؤكد خروجك من السلطة على الأقل لعامة الشعب أنك غير مسئول عن كل ما يُقترَف من مفاسد».<sup>55</sup>

تنم هذه الرسالة عن سذاجة غير أنها أيضًا كاشفة. ففي هذه المرحلة من حياة إنديرا السياسية كانت «قذارة» عالم السياسة موضوعًا حساسًا لها، حتى إنها كانت تشير إليها في الرسالة كما لو أنها متقززة من مجرد ذكرها. لم تكن تريد أن يلوث والدها الفساد الذي شعرت أنه يطبق على كليهما من كل جانب، حتى شعرت بأنه يجب حمايته منه. وفي هذا الصدد قللت إنديرا من شأن أبيها، فربما أخطأ نهرو الحكم على بعض الأشخاص أمثال إم أو ماثاي أو حتى كريشنا مينون، لكنه كان ثاقب النظر جدًا من الناحية السياسية. هذا في حين كان الغرير من الناحية السياسية هو إنديرا نفسها. (غير أنها بالطبع ستصبح خبيرة مع الوقت، وأقدر على احتمال الفساد السياسي والتعامل معه من أبيها.) وتكشف تلك الرسالة أيضًا ميل إنديرا إلى الارتياح الذي يصل إلى حد جنون الشك؛ فهي تخشى هؤلاء الذين تراهم «أعداء» لأبيها، أو بعبارة أخرى قوى الشر التي وقفت موقف العداء من «نبل» و«عظمة» أبيها. وتظن أن زمرة فاسدة — تشير إليها في الرسالة بـ «هم» — تترصد للإيقاع والإطاحة به، وأن على أبيها أن يعلن تبرؤه من «هم»، خاصة من وجهة نظر «عامة الشعب».

في نهاية الأمر لم يستقل نهرو. لكنه كان بحاجة ماسة إلى الراحة، لذا فكر وخطط للحصول على إجازة طويلة، لكن حينما عادت إنديرا إلى دلهي في أغسطس من اجتماع

الاتحاد الدولي لرعاية الطفولة الذي حضرته في بروكسل صيف عام ١٩٥٨ وجدت أن تلك الإجازة قد تحولت إلى مجرد عطلة قصيرة إلى مملكة بوتان. فأصرت على اصطحابه، وعليه في أوائل سبتمبر سافرا إلى بوتان الواقعة بين جبال الهيمالايا.

قطعت إنديرا ونهرو رحلة طويلة وشاقة على ظهور الجياد، وعلى الأقدام عبر ممرات وعرة مخصصة لراكبي الخيل في مناطق بلا شوارع أو وسائل اتصال، وعبرا ممرات جبلية على ارتفاع ١٥ ألف قدم، وفضلا قضاء الوقت ليلاً في أكياس نوم داخل خيام عن النوم في دور الضيافة الحكومية. كانا بعيدين تمامًا عن دلهي وعالم السياسة على نحو يستحيل تصوره لرئيس وزراء من عصر أجهزة الفاكس وهواتف الأقمار الصناعية. كان الأمر كالانتقال إلى عالم آخر. كانت جبال الهيمالايا — على حد قول نهرو — «لا تشعر المرء بجو من السلام النفسي فحسب، بل تشعره أيضًا بعالم من الخلود، عالم يسمو فوق حماقات البشر. في الميثولوجيا الهندوسية اتخذت الآلهة الجبال مسكنًا لها، وقد أحسنت الاختيار ... فسلام بوذا لا يزال كائنًا سائدًا».<sup>56</sup>

غير أن إنديرا ونهرو لم يستطيعا التمتع بسلام بوذا لوقت طويل، ففيما كانا يحاولان عبور ممر في جبال الهيمالايا العظمى في شمال بوتان أدركتهما أخيرًا رسالة تخبرهما بأن فيروز أصيب بأزمة قلبية حادة في دلهي، وأودع المستشفى. في الواقع كان فيروز قد أصيب بأزمته متتابعتين؛ الأولى في ٢٢ سبتمبر، والثانية أعقبت الأولى سريعًا في ٢٤ من الشهر نفسه. فحينما سمعت إنديرا بذلك قصدت الهند على الفور، وكانت رحلة عودتها طويلة ومعقدة؛ فركبت الخيل وسيارات الجيب والطائرات. وحينما وصلت إلى مطار بالام بدلهي في ٢ أكتوبر اتجهت مباشرة إلى مستشفى ويلينجدون التي أودع فيها فيروز، وهناك كانت حالة فيروز قد تجاوزت مرحلة الخطر.

في ١١ من سبتمبر سُمح لفيروز بمغادرة المستشفى، وبعدها شرع هو وإنديرا وولدهما في القيام برحلتهم الخاصة إلى كشمير، وأجرا في سريناغار مركبًا للسكنى. ومع ما نشأ بينهما من قطيعة في الأعوام الأخيرة تمكنا شيئًا ما من تناسي خلافتهما الماضية، ومن أن يغفر كل منهما للآخر. فأزمة فيروز القلبية وشبح الموت الذي خيم معها قد نتجا عن مصالحة حقيقية بينهما.

ولكن سرعان ما تبددت هذه المصالحة، فقد أخذت علاقتهما تتداعى من جديد بمجرد عودتهما إلى صخب دلهي. وكان أحد الأسباب يرجع إلى انخراط دلهي في تناقل شائعات عن سقوط إم أو ماثاي الوشيك، وهو ما كان فيروز يخطط له منذ فترة. كان الصحفي

نيخيل تشاكراواتي صديق فيروز قد وقع على معلومات قد تضر بماثاي. ففي عام ١٩٥٢ كان ماثاي قد اشترى منزلاً فاخراً وبستاناً كبيراً في كولو من أختين اسكتلنديتين، ثم باعهما ليربح من ثمنهما، وهو يملك أيضاً منزلاً بالقرب من فندق كلاريدج في منطقة راقية بنيو دلهي، وأسس صندوق ائتمان مثير للشكوك تكريماً لذكرى أمه. ادعى تشاكراواتي أيضاً أن ماثاي يملك ثروة كبيرة مخبأة في حساباته لدى المصارف الأجنبية.<sup>57</sup> من أين حصل سكرتير رئيس الوزراء على أموال لشراء كل هذه الممتلكات؟ أثارت مسألة معاملات ماثاي المالية في البرلمان، وتألّفت لجنة للتحقيق فيها. وبالطبع أصر ماثاي على براءته، وفي نهاية الأمر لم تعثر اللجنة على دليل قاطع يدينه. لكنه أُجبر على تقديم استقالته لنهرو الذي برأه على العلن. إلا أنه رأى هو الآخر أنه من الأفضل أن يستقيل ماثاي. لكن رحيل ماثاي لم يكن ليمر بلا عواقب. فقد غادر تين مورتى وصدره مشحون بالعداء تجاه نهرو وإنديرا وفيزوز. ولن يحتمل الوطأة الكاملة لعدائه هذا سوى إنديرا.

وسرعان ما أبطلت فضيحة ماثاي — واستمرار فيروز في خيانتها لإنديرا — مفعول السلام النفسي الذي وجدته إنديرا وفيزوز في كشمير. فعندما جرى التحقيق في معاملات ماثاي المالية في البرلمان أدرك الكل أن الأمر جزء من محاولة فيروز للتأثر شخصياً من ماثاي. وفي دلهي دارت الشائعات بأن زواج إنديرا وفيزوز قد وصل أخيراً إلى نهايته. إنديرا نفسها أخبرت صديقتها بوبول جاياكار بأنها تريد الطلاق. وذات يوم كتبت إنديرا لنفسها رسالة تذكيرية على عجل على قصاصة ورق أرختها واحتفظت بها في درج، وفي هذه الرسالة تقول: «لكن أفكارك لن تهدأ. فهي لا تنفك عن الرفرفة في رأسك كالوطاويط المضطربة في حركتها كالأشباح. فهي تدور وتدور في عقلك المتعب، وتحفر وتقرض كالفران لتجد طريقاً إلى عقلك المثقل المتعب.»<sup>58</sup> كانت هذه الرسالة القصيرة هي خاتمة عام ١٩٥٨.

أما عام ١٩٥٩ فقد بدأ بانعقاد جلسة حزب المؤتمر السنوية في ناجبور. آنذاك كان من المتوقع أن يتقاعد يو إن دهبيار رئيس حزب المؤتمر من منصبه قبل نهاية مدة رئاسته للحزب التي تبلغ عامين، وكان هو وغيره من قادة الحزب يلحون على إنديرا لتخلفه في رئاسة الحزب. ووفقاً لإنديرا كان جي بي بانث — وزير الداخلية — هو أول من فتح هذا الموضوع. كانت ردة فعل إنديرا الفورية التلقائية على حد قولها لاحقاً: «رأيت أنه لا يمكنني تولي ذلك المنصب. لم يكن لديّ شك في ذلك. لقد كنت متأكدة تماماً أنني لن

أستطيع أن أدير هذا المنصب.» غير أن جي بي بانت تجاهل رفضها قائلاً: «ليس المهم هو قرارك. لقد قررنا وعليك أن توافقي. إنه واجبك.»

عندئذٍ قالت إنديرا إنها يجب أن تستشير أباهما في هذه المسألة. فكان رد بانت — الذي كان يعلم جيداً أن نهرو يرفض أن تترقى ابنته لذلك المنصب — أن قال: «لا دخل لأبيك بالأمر. القرار لك أنت فقط.»

ومع هذا قصدت إنديرا نهرو طلباً للمشورة. وعلمت فيما بعد أن بانت كان قد تحدث بالفعل إلى نهرو وأن نهرو حاول إثناؤه عن الاستمرار في تشجيعها على تولي ذلك المنصب. إلا أن كل ما قاله نهرو لإنديرا هو: «لا بد أن يكون القرار قرارك. ولن أ تدخل فيه.» لكنها شعرت أنه لم يكن يريد أن تقبل بالمنصب.

كان من المحتمل أن يحسم رد نهرو الفاتر المسألة، لولا إصرار بانت ودهيبار الذي لا يتزعزع. فبعدما أثقل دهبيار وبانت الضغط على إنديرا استسلمت لرغبتها ووافقت على أن تكون رئيسة حزب المؤتمر. لكنها عدلت عن رأيها بمجرد ما وافقت تقريباً، واتصلت ببانت وقالت له: «لا يا بانتي؛ لقد درست الأمر، لا يمكنني الاضطلاع بهذا المنصب.» وعندها استخدم بانت ورقته الرابعة. فقال لإنديرا إن خبر موافقتها قد أعلن بالفعل للصحافة. وفي اليوم التالي نشرت الجرائد القومية سلسلة من المقالات والأعمدة الصحفية التي تؤكد عدم قدرة إنديرا على تولي ذلك المنصب. ألقت هذه المقالات إنديرا. ومع هذا ظلت تؤكد ليو إن دهبيار رفضها تولي المنصب، فقالت له: «لا يمكنني ببساطة توليه. فهذا ليس عدلاً لا لي ولا للحزب.» وسألها دهبيار وبانت في صوت واحد إن كانت مستعدة لأن تدع الصحافة «تفعلت بفعلتها». فأدركت إنديرا أنها ستضطر إلى مواجهة العار إن رفضت تولي المنصب. فما كان جوابها لدهيبار وبانت سوى: «حسناً»<sup>59</sup>

وفي ٢ من فبراير انتُخبت إنديرا رسمياً رئيسة لحزب المؤتمر الوطني الهندي. ولأن دهبيار تقاعد في منتصف مدة رئاسته للحزب صارت إنديرا رئيسة للحزب للأحد عشر شهراً المتبقية، غير أنه كان بإمكانها أن تسعى إلى تجديد انتخابها إن أرادت. بعدها بستة أيام تسلمت إنديرا منصبها في حفل رسمي بسيط في المقر الرسمي للجنة كونجرس كل الهند في دلهي. كان الاحتفال الذي أقيم لها مختلفاً تمام الاختلاف عن موكب الفرسان الرئاسي العظيم الذي أقيم لجدها موتيلال نهرو في شوارع كالكوتا عام ١٩٢٨، وعن موكب أبيها الذي جاب شوارع لاهور ممتطياً حصاناً أبيض عام ١٩٢٩. يعود ذلك إلى حد ما إلى أن مكانة حزب المؤتمر كمنظمة التف حولها الشعب قد ضعفت كثيراً بعد

الاستقلال، وبالتالي تغيرت مكانة رئيس حزب المؤتمر تغيراً ملحوظاً. فبعد عام ١٩٤٧ صارت السلطة الحقيقية بيد رئيس الوزراء والجناح البرلماني للحزب، وليس لرئيسه أو جناحه التنظيمي، وصار الحزب الذي ينتمي إليه أعضاء الهيئة التشريعية هو الذي يضع سياسات الدولة.

لكن عندما صارت إنديرا رئيسة لحزب المؤتمر كانت أكثر من مجرد رئيسة صورية. فقد شغل نهرو نفسه منصب رئيس الوزراء ورئيس حزب المؤتمر معاً من عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٥٤. أضف إلى ذلك أن إنديرا برئاستها للحزب كانت تسير على خطى سيدات بارزات ترأسنه مثل أني بيسان (١٩١٧) وسروجيني نايدو (١٩٢٥) ونيلي سينجوبتا (١٩٣٣). ومع أن إنديرا لم تقر علناً بأنها مناصرة لحقوق المرأة فقد اختارت أن تستشهد في خطبة تقلد رئاسة الحزب بجزء من أغنية شهيرة من أحد الأفلام الهندية تقول:

«نحن نساء الهند

لا تحسبوننا نساءً مرفهات رقيقات كالزهور

بل نحن متقدات حماساً كشر النار.»

في مقابلة صحفية بعد عدة أعوام سأل صحفي إنديرا هل تظن أن صعودها السياسي ربما كان سيصبح أسهل لو كانت ابن نهرو لا ابنته، فأجابته إنديرا بأنها ترى العكس من ذلك؛ فقالت: «أعتقد أنه حينها ربما أصبحت هناك صعوبات أكثر، لأنني ... لم أكن حقيقة سأتمكن من المكوث مع أبي ومساعدته كما تسنى لي. سيكون عليّ أن أسعى لكسب رزقي ... وأعتقد أن عالم السياسة كان سيواجه الأمر بحساسية وتحفظ أكثر بكثير إن كنت ابنة.»<sup>60</sup>

وقد كانت هذه هي حقيقة الأمر عندما انضمت إنديرا إلى لجنة عمل حزب المؤتمر عام ١٩٥٥. فقد اعتقد قادة الحزب أن إنديرا ستكون أداة طيعة، أو بيدق شطرنج يتحرك متى أمر أبوها أو أمروا هم. ولم تكن إنديرا قد أثبتت خطأً معتقدهم هذا حتى ذلك الحين. فمع أنها كانت كفءاً ومجدة ومسئولة فإنها لم تظهر ما يجزم بأنها تمتلك عقلاً سياسياً أو إرادة خاصة بها.

كان نهرو معارضاً بعض الشيء لرئاسة ابنته لحزب المؤتمر. فقد نظر إليها على أنها مساعدة له، وليس شخصية سياسية مستقلة، كان مصيباً في أن إنديرا لا تعبأ بالبروتوكولات البرلمانية أو مبادئ النظام التشريعي، لكنه من ناحية أخرى قلل من شأن

ذكائها. كان متخوفًا أيضًا من الانطباع الذي قد يتولد لدى صعود إنديرا لذلك المنصب. ففي ذلك قال: «لا أريد أن أبدو كما لو أنني أشجع تأسيس نظام حكم وراثي، فهذا لن يكون ديمقراطيًا على الإطلاق. وسيعد عملًا بغيضًا»، وأصر على أنه «لن يعدّها لأي منصب».<sup>61</sup> وبالفعل كان نهرو دائمًا حريصًا كل الحرص على ألا يبدّر منه أي تصرف قد يفسر على أنه محاباة للأقارب. فعندما حثّه تي كي على أن يعين نان بانديت أو إنديرا عضوًا في مجلس الوزراء رد عليه في حدة بأنه لن تصبح أي منهما عضوًا في مجلس الوزراء ما دام يشغل منصب رئيس الوزراء.

إن كان نهرو غير متحمس لأن تكون ابنته رئيسة حزب المؤتمر فقد كان فيروز معاديًا لذلك بكل تأكيد. كان ينظر إلى رئاسة إنديرا للحزب على أنها «ضربة أصابت علاقتهما في مقتل».<sup>62</sup> كتبت إنديرا بعدما انتُخبت رئيسة للحزب إلى دوروثي نورمان تقول: «إن عاصفة حقيقية من المشاكل تحيط بي من كل جانب. فعلى الصعيد الأسري فيروز ... الذي طالما كره وجودي في حد ذاته صار منذ أن أصبحت رئيسة للحزب يناصبني عداً شديداً حتى صار المناخ بيننا يبدو مسمماً. ولمجرد تعقيد الأمور لي أخذ يميل أكثر فأكثر تجاه الشيوعيين، ويدمر جهودي لتقوية الحزب. ولسوء الحظ هو وأصدقاؤه على علاقة طيبة ببعض وزرائنا، مما يضعني في موقف في غاية الصعوبة».<sup>63</sup> في الواقع شعرت إنديرا أن فيروز قد صار عدوها السياسي الأول. غير أن مفهوماها عن التحالف والجهات التي يجب أن تلتزم الولاء تجاهها قد بدأ يشوبه الاختلاط. كانت قد أذعنت لضغط الحرس القديم بحزب المؤتمر، وصارت رئيسة للحزب. لكنها في الوقت نفسه انحازت في يناير عام ١٩٥٩ إلى المنتدى الاشتراكي للحزب، وهو جماعة ضغط راديكالية معارضة لقيادات الحزب، ولتهاون نهرو مع هذه القيادات. كان فيروز عضوًا بارزًا في ذلك المنتدى، ومع أن علاقته بزوجته كانت وقتها متأزمة فمن الواضح أنه أقنعها بالتوقيع على بيان للجماعة يهاجم سياسة الحزب لانحرافها عن المبادئ والسياسات الاشتراكية. فيما بعد ستظل إنديرا تعتبر نفسها لعدة أعوام — وسينظر إليها بوصفها — يسارية. إلا أنها في غضون شهور من انتخابها رئيسة لحزب المؤتمر انحازت إلى الجناح اليميني والقوى الشيوعية بولاية كيرالا.

كانت كيرالا التي تقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي للهند ولاية هندية فريدة — ولا تزال — نظراً لارتفاع نسبة المتعلمين، وتكافؤ عدد المسيحيين والمسلمين والهندوس بها (وهو ما يعني بدوره تمتع المسيحيين والمسلمين وطوائف النير والإزهافا بالقوة هناك).

ويوجد بهذه الولاية حزب شيوعي كبير، انتُخب لحكم الولاية عام ١٩٥٧. وقد أخذت حكومة ذلك الحزب بقيادة رئيسها إي إم إس نامبوديرياد تصدر تشريعات راديكالية بإمكانها أن تخل بالاستقرار، منها مشروع قانون خاص بالإصلاح الزراعي لإدخال المزيد من الإصلاحات إلى حقوق تملك الأراضي وحماية حقوق الفلاحين المستأجرين، ومشروع قانون آخر في مجال التعليم لوضع قيود على التعليم الخاص. لما كانت مشاريع القوانين تلك تهدد مصالح الكنائس، وحزب الرابطة الإسلامية، ومجتمع خدمات النير الزراعية ومدارسهم الخاصة، فقد انضم هؤلاء إلى حزب المؤتمر بكيرالا لإثارة الرأي العام ضد حكومة ولايتهم.

زارت إنديرا ولاية كيرالا في أبريل عام ١٩٥٩ في منصبها الجديد كرئيسة حزب المؤتمر. كانت تعلم حتى قبل أن تزورها أن حزب المؤتمر هناك قد تحالف مع قوى دينية منها عدوه القديم حزب الرابطة الإسلامي. وقد اختارت مع ادعائها تأييد اليسار أن تدير ظهرها إلى هذه التحالفات. فوجهت انتقادات لاذعة إلى حكومة كيرالا الشيوعية، بل اتهمتها بأنها عميلة للصين.

في الشهور التي تلت زيارة إنديرا اشتدت حركات العصيان المدني. وأعلنت إنديرا في حديثها لأحد المراسلين الصحفيين في يونيو: «بصفتي رئيسة حزب المؤتمر أعلن عزمي على محاربتهم [الشيوعيين] والإطاحة بهم».<sup>64</sup>

وفي دلهي وطوال مدة موجة الغضب التي تفجرت بسبب كيرالا — التي حظيت بتغطية صحفية واسعة — أدان فيروز الذي ثارت ثائرتة بسبب الوضع في كيرالا علناً وبعنف قيادات حزب المؤتمر الوطنية — التي كان يتزعمها بالطبع زوجته — لانضمامها إلى قوى الجناح اليميني. ففي اجتماع لحزب المؤتمر قال متسائلاً: «أين ذهبت مبادئ حزب المؤتمر؟ ... هل انحط المؤتمر ... إلى الدرجة التي تدفعه إلى تلقي الأوامر من العناصر الطائفية، من قادة الطوائف الدينية؟ ... لقد جلبتم الدمار على أنفسكم في كيرالا».<sup>65</sup>

في يوليو عام ١٩٥٩ عزل نهرو حكومة ولاية كيرالا الشيوعية المنتخبة ديمقراطياً، وأخضعت الولاية لحكم دلهي المباشر. وقد رأى فيروز وآخرون أن لإنديرا يدًا خفية في هذا، فاتهموها بالضغط على نهرو للقيام بذلك.

لكن هذه الاتهامات ناقضت سلسلة أكثر غموضاً من الأحداث. ففي يناير عام ١٩٥٨ — قبل عام من تولي إنديرا لرئاسة حزب المؤتمر — ذكر مستشار نهرو الأمين كريشنا مينون أن «تيارات خطيرة» آخذة في التكون في كيرالا وأن الأوضاع هناك قد تسوء. وفي

مايو عام ١٩٥٨ قال نهرو في مقابلة صحفية لجريدة «دايلي تليجراف» البريطانية: «في رأيي يحتاج الشيوعيون إلى الكثير من الحظ ليتمكنوا من البقاء في السلطة لوقت أطول في كيرالا».<sup>66</sup> آنذاك كان ابتعاد نهرو عن الشيوعية والاتحاد السوفييتي قد بدأ يتزايد، خاصة في أعقاب السياسات الشيوعية التي اتُبعت في المجر ويوغوسلافيا. وكان نهرو — مثله مثل إنديرا — قد بدأ يشعر أن كيرالا تحت سيطرة الشيوعيين تتجه نحو حالة من العنف والفوضى. في سبتمبر عام ١٩٥٨ جاب كريشنا مينون ولاية كيرالا للمرة الثانية وقدم تقريراً يبعث على التشاؤم ويؤكد مخاوف نهرو. فطلب نهرو إلى وزير داخلته في أكتوبر عام ١٩٥٨ الحصول على المزيد من المعلومات من المصادر الداخلية بهذه الولاية وأخذ يفكر فيما إذا كان عليه أن يرسل الجيش الهندي إلى هناك لإعادة النظام.

في ٢٢ من يونيو عام ١٩٥٩ قصد نهرو تريفاندرام عاصمة ولاية كيرالا، وصدم مما رآه هناك. فحتى ما حكته إنديرا عن زيارتها في شهر أبريل لم يعده للمناخ «شبه الهستيري» الذي وجده هناك، حيث «يفصل بين الطوائف حاجز سميك من الكراهية».<sup>67</sup> حث نهرو رئيس حكومة كيرالا نامبوديربياد على الدعوة إلى إجراء انتخابات جديدة بدعوى اختبار مدى صحة زعم معارضي الحكومة بأن الحكومة قد فقدت تأييدها الشعبي. لكن نامبوديربياد رفض ذلك. فأمر نهرو في ٣١ من يوليو عام ١٩٥٩ بعزل حكومة كيرالا الشيوعية.

كانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ الهند المستقلة التي تُحل فيها الحكومة الفيدرالية لإحدى الولايات، وكانت تلك سابقة خطيرة. ففي العام التالي عندما عُقدت انتخابات ولاية كيرالا الجديدة صعد حزب المؤتمر في الولاية إلى السلطة على كتف التحالف الانتهازى الذي عقده مع حزب الرابطة الإسلامية وغيره من قوى الجناح اليميني.

يشير نقاد إنديرا إلى حادث عزل حكومة كيرالا — عند النظر إليه لاحقاً — بأنه يتنبأ بالكثير؛ فهو أول دليل على «قسوة» إنديرا وميولها الاستبدادية وعدم اكتراثها بالمبادئ الديمقراطية. لكن مع أن إنديرا أيدت بلا شك — وربما عجلت من — عزل أبيها لحكومة كيرالا فهي لم تدبر له.<sup>68</sup>

إن الجدير بالملاحظة فيما يتعلق باستجابة إنديرا للقلاقل التي وقعت في كيرالا هو أنها مست وتراً حساساً لدى إنديرا، وهو خوفها من الفوضى وفقدان السيطرة. فالأحرى أن رد فعلها البالغ فيه إزاء قلاقل كيرالا — وليس استبداديتها الكامنة — هي ما يجعل من أحداث كيرالا فصلاً كاشفاً في قصة تطورها سياسياً. لم تكن إنديرا تؤمن مثل نهرو



بأن الأنظمة الديمقراطية قادرة على الصمود في وجه الظروف غير المستقرة. لذا في وجه الصراعات والاضطرابات كانت إنديرا غريزياً تختار فرض النظام على اتباع الديمقراطية. ومع أن إنديرا شعرت بأنها كانت محقة في الطريقة التي تصرفت بها إزاء أزمة كيرالا وفي تدخلها — مهما كان متأخراً — لعزل حكومة تلك الولاية فقد أنكه الأمر قواها. فبعد عشرة شهور فقط من رئاستها للحزب قررت أنها لا تود أن ترأسه مجدداً لعامين هي فترة كاملة أخرى. وقد عللت ذلك في خطابها إلى دوروثي نورمان، فكتبت تقول: «تشعر جميع أطراف الشعب الهندي باستثناء الشيوعيين بأنني أدت عملاً جيداً، حتى إنني تحت إلحاح شديد لأن أستكمل رئاستي للحزب لفترة أخرى. لكن الفترة الأولى كانت صعبة — وفي بعض الأحيان — منهكة ... لقد اكتسبت الكثير من الثقة بالنفس. لكنني لا أود استكمال رئاستي للحزب لعدة أسباب. فالجانب الروتيني من المنصب يستغرق الكثير من الوقت ويقيّد حركتي جداً. حتى إنني شعرت كما لو أنني طائر في قفص صغير جداً».<sup>69</sup>

في ليل ٣٠ من أكتوبر لم تستطع إنديرا النوم. وظلت تتقلب في فراشها لساعات، وفي نهاية الأمر نهضت من فراشها في الرابعة إلا ربعاً، وشرعت في كتابة خطاب إلى نهرو، مع أنه كان نائماً في غرفته في الجناح المقابل من البيت. قالت في الخطاب إنها تشعر بالضيق، وبأن عليها أن تخبر نهرو بـ «السبب الحقيقي» الذي يشعرها بأنها لا تقبل على رئاسة حزب المؤتمر لفترة ثانية.

«لقد أحطت منذ طفولتي بشخصيات فريدة، وشاركت في العديد من الأحداث الفريدة ... لكن الظروف التي مررت بها في شبابي — على الصعيدين الشخصي والعام — لم تكن سهلة. فالعالم مكان قاسٍ على أفضلنا، وخاصة على من يملكون شعوراً مرهقاً».

شعرت إنديرا دوماً بأن عليها «دينًا» و«عباً»، فتقول لنهرو: «في هذه السنوات الثمانية الأخيرة تقريباً عملت بجد أكبر ولوقت أطول ... وكنت دائماً أشعر بأن ما أفعله لن يكفي». لكنها الآن صارت تشعر بأنها

«قد سدته ... كنت أشعر كما لو أنني طائر حبيس في قفص صغير جداً، يضرب جناحيه بقضبان قفصه أينما تحرك. لكن حان الوقت لأحيا حياتي الخاصة. ترى كيف ستكون؟ ليست لدي أدنى فكرة. لكن في الوقت الحاضر

أريد أن أكون حرة وحسب ... وأن أكتشف طريقي الخاصة. كانت تجربة رئاسة حزب المؤتمر مبهجة في بعض الأحيان، ومقبضة في أحيان أخرى، لكنها كانت بلا شك تجربة تستحق العناء. إلا أنني ... سأصبح شخصاً غريباً وتعيساً إن اضطررت للاستمرار فيها.<sup>70</sup>

كان ذلك اعترافاً حاسماً في منتصف الليل، لم تكن إنديرا ستقدر على النطق به في مواجهة أبيها نهاراً. ومع أنها لم توجه أي اتهامات في خطابها فقد أوضحت أن «الدّين» أو «العبء» اللذين طالما حملتهما — والخيارات التي أقدمت عليها — لم تكن أبداً بيديها. فحياتها لم تكن من اختياراتها قط. منذ البداية كانت أسرتها والأحداث التاريخية قد حددت مصيرها. «كانت» طبعاً قد اختارت زوجها وتمسكت به في وجه معارضة عنيدة، لكن هذا الاختيار كان محاولة منها لنيل حريتها، وإن كانت هذه المحاولة قد فشلت. فهي لم تعد تعيش مع زوجها، وطفلاها يكبران بعيداً عنها في مدرستهما الداخلية. كانت آنذاك في منتصف العمر تناهز الثانية والأربعين. وعليها — إن كان لها أن تصنع حياة خاصة بها — أن تبدأ فوراً قبل فوات الأوان.

وعليه أعلنت إنديرا على الملأ أنها ستتحنى عن رئاسة حزب المؤتمر، مما كان مخيباً لآمال قادة الحزب. توقعت إنديرا أن تشعر بالحرية فور اتخاذ هذا القرار. فقد كانت تواجه معارضة لا بأس بها وهي بصدد التحرر من قفصها. لكن بدلاً من ذلك دخلت في حالة من الاكتئاب الشديد. فكتبت لدوروثي نورمان تقول: «فضلاً عن ضعف معنوياتي عانيت ضعفاً بدنياً. فقد خسرت الكثير من الوزن، وقدمامي صارتا ترتعشان بعض الشيء، وأغشي عليّ بضع مرات.» وشكرت دوروثي على أسطوانات الفونوغراف التي أرسلتها إليها، تقول إنديرا في الخطاب: «لم يخفف من معاناتي في هذا الوقت المظلم من حياتي إلا الشعر والموسيقى.»<sup>71</sup> بعدها بشهر كتبت إلى دوروثي من جديد تقول: «لست بحال جيدة على الإطلاق.» لكن هذه المرة لم يكن السل «مشكلتها القديمة» هو السبب. فقد نجح علاج السل الذي كانت تتلقاه. بل كانت هذه المرة مصابة بحصى كلوية تؤلمها وتمنعها من النوم ليلاً. فكتبت إلى دوروثي نورمان تبث خوفها وتقول: «لا أبدو مشرقة حالياً على الإطلاق.»<sup>72</sup>

ومع أنها أعلنت استقالتها من رئاسة الحزب لم تنتهِ فترة رئاستها إلا في يناير عام ١٩٦٠، لذا اضطررت إلى مواصلة واجباتها نحو الحزب في الوقت الذي تعاني فيه الاكتئاب والمرض حتى نهاية عام ١٩٥٩. في نوفمبر وقتما اندلعت في بومباي فتنة طائفية خطيرة

زارت الولاية وقامت بجولة فيها. قبل ثلاثة أعوام كان نظام ولايات الهند القديم قد تعدل وأعيد ترسيم حدود الولايات على أساس لغتها السائدة. لكن ولايتين قد سقطتا من هذا التصنيف الجديد، وهما ولاية بومباي (التي كانت تعرف إبان الحكم البريطاني برئاسة بومباي) وولاية البنجاب اللتان كانتا ثنائيتا اللغة. أراد نهر أن تنجو هاتان الولايتان، لكن ظلت هناك دعوات منذ انتخابات عام ١٩٥٧ تطالب بتقسيم بومباي إلى ولايتين هما ماهاراشترا وجوجارات. كانت القلاقل التي تنتظر إنديرا هذه المرة تركز حول مصير مدينة بومباي والولاية التي ستندمج إليها إن قسمت بومباي إلى ولاية ماراثية وولاية جوجاراتية.

لم تمضِ إنديرا سوى القليل من الوقت في بومباي قبل أن تقتنع بأن المدينة — على عكس ما يعتقد والدها — لا بد أن تخضع للتقسيم. وكان قرارها بتقسيم بومباي فضلاً عن كونه نابغاً عن اقتناع بآراء الداعين إلى التقسيم كان أيضاً نابغاً مما رأت أنه موقف يستدعي فرض «النظام والسيطرة»، وهو ما رأته في كيرالا كذلك. فقد شعرت أنه ما لم يُستجَب لدعاة إقامة ولاية جوجارات وولاية ماهاراشترا فلن تكون هناك نهاية قريبة للاضطرابات والقلاقل التي تحيط ببومباي. وفي الشهر الأخير من رئاستها لحزب المؤتمر ألقت إنديرا لجنة لتقصي الأوضاع. وفي ٤ من ديسمبر أوصت اللجنة بتقسيم ولاية بومباي وإلحاق مدينة بومباي بولاية ماهاراشترا. وعندما كان الوقت مناسباً انقسمت حكومة بومباي إلى حكومتين وصارت ولايتا جوجارات وماهاراشترا جزءاً من الاتحاد الهندي.

طوال جولة إنديرا في بومباي كانت تعاني ألماً حادة في معدتها وظهرها بسبب مرضها الكلوي، وحين عادت إلى دلهي استشارت طبيباً متخصصاً أخبرها بأن عليها أن تخضع لجراحة لإزالة حصى كليتها. عندما سمع فيروز بأنها على وشك الخضوع لجراحة جاء فوراً لزيارتها في تين مورتى. ومن جديد تصالحا، بالضبط كما فعلا بعد أزمة فيروز القلبية في العام السابق. كان المرض واحتمال الموت الذي ينطوي عليه ضمنيّاً هو الشيء الوحيد الذي كان بإمكانه حتى ذلك الوقت الجمع بينهما. وفي ١٧ من فبراير بعد وقت قصير من انتهاء فترة رئاسة إنديرا لحزب المؤتمر أُجريت لها جراحة إزالة حصى الكلى. وكان فيروز معها في المستشفى، وقد انتقل للعيش معها مجدداً في تين مورتى بعدما سُمح لها بالخروج لرعايتها وهي في مرحلة النقاهة.

في يونيو عام ١٩٦٠ بعدما شفيت إنديرا من مرضها الكلوي تماماً عادت هي وفيروز وطفلهما إلى كشمير لقضاء عطلة، وهناك مكثا في مركب للسكنى على بحيرة ناجين في

سارينجار. ومارس فيروز والأطفال السباحة وقاموا بنزهة على أحد الزوارق، والتقطوا الصور. أما إنديرا فتولت التدريس للأطفال باللغة الإنجليزية، وحاولت — دونما نجاح كبير — أن تتعلم الإسبانية. كانت طيور الرفراف شبه الأليفة وطيور السماطة تحلق على مقربة من مركب السكنى، مما أسعد الأطفال، وطار أحد هذه الطيور إلى داخل المركب ووقف على كتف راجيف. ثم ذهبوا لقضاء عدة أيام في داكسن، وهو مكان مليء بأشجار الصنوبر وغابات شجر التنوب والجدال التي تجري بسمك التروته. وهناك تمشوا واصطادوا الأسماك. وقبل ذلك عندما كانوا في سرينجار تعلم سانجاي وراجيف التزلج على الماء. وأخبر فيروز إنديرا بأنه كان قد اشترى مؤخرًا قطعة أرض في مهراولي بالقرب من دهلي، وتناقشا في إنشاء منزل هناك لأنفسهم، ليكون هو — لا بيت تين مورتى أو منزل فيروز الحكومي — منزلهم «الخاص».

كانا قد عانيا الكثير في علاقتهما التي امتلأت بالكثير جدًا من الشجارات والخيانة والإذلال، وكثير منها كان محط فضول الشعب الهندي وموضوع الشائعات. لكن في ظلال جبال الهيمالايا الشاهقة استطاعا أن يهربا من جراح الماضي. وخططا لمستقبلهما معًا، ووجد كلٌ منهما السعادة مع الآخر من جديد، ونعما لمدة قصيرة لكن غالية على نفس كل منهما «بسلام بوذا».

بعدها بأعوام أفضت إنديرا لأحد كتاب سيرتها بأنها قررت أثناء هذه المدة التي قضتها في كشمير أن تكرس نفسها بعد وفاة والدها لمستقبل فيروز السياسي، أي أن «تنقطع له تمامًا».<sup>73</sup>

بعدها بشهرين فقط، وفي مساء يوم ٧ سبتمبر كانت إنديرا عائدة إلى دهلي على متن إحدى الطائرات التابعة للخطوط الجوية الهندية من تريفاندرام في كيرالا حيث كانت تلقي خطبة في مؤتمر للنساء من أعضاء حزب المؤتمر. حينما حطت طائرتها في مطار بالام بدلهي بعد منتصف الليل بوقت طويل بلغها أن فيروز أصيب بأزمة قلبية أخرى. وكما فعلت قبلها بعامين توجهت مباشرة من المطار إلى مستشفى ويلينجدون لتكون إلى جانبه في مرضه. وهناك وجدت مساعدتها يوشا بهاجات وآخرين. أخبرتها يوشا بأن فيروز ظل طوال الليل يفقد الوعي ويستعيده، ويسأل من آن لآخر: «أين إندو؟»<sup>74</sup>

قبل ذلك بأسبوع كان فيروز قد بدأ يشعر بالآلام صدرية حادة. وفي عصر ٧ سبتمبر هاتف صديقه الطبيب «إتش إل خوسلا» الذي طلب منه القدوم إلى المستشفى على الفور.

فقد فيروز سيارته إلى هناك وأغشي عليه أثناء فحص خوسلا له. وفي الرابعة والنصف من صباح الثامن من سبتمبر فتح عينيه. وجد إنديرا جالسة إلى جانبه. لم تكن قد نامت أو أكلت طوال الليل، وحينما رأى فيروز وجهها الشاحب النحيل طلب منها أن تذهب لتناول الإفطار. ورفضت. وفقد هو الوعي ثانية. وفي الثامنة إلا ربعاً صباحاً كفت أنفاسه وإنديرا إلى جانبه. كان ذلك قبل أربعة أيام من عيد مولده الثامن والأربعين.

ركبت إنديرا في العربة التي حملت جثمان فيروز من المستشفى إلى تين مورتى. وأصرّت على أن تتولى هي غسل جثمانه وإعداده قبل الذهاب للمحرقة. ورفضت السماح لأحد بمساعدتها في ذلك أو حتى التواجد أثناء قيامها بذلك. أمرت بإزالة كل قطع الأثاث من غرف الطابق الأرضي بتين مورتى، ووضع ملاءات بيضاء نظيفة فوق السجاجيد. وبعد ذلك وصلت حشود من مئات المعزين إلى تين مورتى لوداع الفقيد. في الجنازة جلس سانجاي وراجيف متربعين ووجههما خالٍ من التعبيرات إلى جانب جثة أبيهما على الأرضية التي اكتست بملاءات بيضاء. أما نهرو فقد وجده نايانترا ساهجال جالساً وحده في غرفته في حالة صدمة. كان مذهولاً من عدد المعزين الذين تدفقوا فجأة على بيته، وقال مراراً وتكراراً إنه لم يتوقع أن يموت فيروز في هذه السن الصغيرة. أما إنديرا فكانت شبه متماسكة إلى حد غريب، غير أن وجهها كان شاحباً وعيناها يملؤهما الألم.<sup>75</sup>

في اليوم التالي وضع جثمان فيروز مكسوّاً بعلم الهند ثلاثي الألوان في شاحنة مكشوفة إلى جانب إنديرا وراجيف وسانجاي وأخت فيروز تيهمينا، وسارت الشاحنة ببطء مسافة ميلين اصطفت على طولهما حشود المعزين وصولاً إلى «نيجامبود غات» على نهر يامونا، وهناك أشعل راجيف الذي كان وقتها في السادسة عشرة من العمر نار المحرقة. أُحرق جثمان فيروز وفقاً للطقوس الهندوسية. إذ كان قد أخبر أصدقاءه بعد أزمته القلبية الأولى أن تلك هي رغبته لأنه كره فكرة أن يُترك جسده لتأكله النسور في أحد أبراج الصمت حسبما تقتضي الديانة البارسية. غير أن إنديرا حرصت على أن تقام الطقوس البارسية على جثمان زوجها قبل أن يؤخذ إلى المحرقة. وبعدها بيومين حملت الجرة التي تحتوي على رفات جسد فيروز على متن قطار إلى الله آباد، وهناك أُلقي بجزء من الرماد في نهر سانغام، أما الجزء المتبقي فدفن في مقبرة الله آباد البارسية.

ظلت إنديرا رابطة الجأش ومتمالكة طوال المدة التي أعقبت وفاة فيروز مباشرة. لكن عندما عاد ولداها إلى مدرستهما في دهرا دان ومضت الحياة في طريقها وعادت إلى روتينها القديم انهارت. آنذاك بعثت ب خطاب إلى ابنها راجيف ذي الستة عشر عاماً في مدرسة «دون» تقول:

«في الأيام الأولى ... أفقدتني الصدمة الشعور تمامًا، ومع أن عينيَّ كانتا تؤلمانني وتحرقاني لم أكن حقيقة قادرة على البكاء، لكنني الآن بدأت أبكي. ويبدو أنني لن أتمكن من الكف. لم أشعر قط بالوحشة والحزن إلى هذه الدرجة. أنظر إلى الأشياء والأشخاص من حولي لكنني لا أراهم. كل شيء من حولي يبدو مظلماً. ماذا سأفعل؟ لقد حدث هذا الأمر المروع في الوقت الذي شعرت فيه بأن كل شيء يسير كما ينبغي، وأننا قد نستطيع جميعاً العيش كأسرة من جديد. على كل حال أنت شاب شجاع وتمتلك العديد من الصفات الأخرى التي نفخر بها، والحياة تنتظرك، فلا أود أن أثقل عليك بأحزاني. فمهما بلغ حب الابن لأبيه فهو لا يضاهي تلك العلاقة الحميمة التي تجمع بين الزوج والزوجة. شيء واحد أود أن أحذرك منه. عدم البوح أبداً بما يجول حقيقة في خاطرك. كانت هذه هي الخصلة نفسها التي سببت لأبيك الكثير من المعاناة النفسية ومنعتني من القيام بالكثير من الأشياء لمساعدته. فإذا لم تتكلم كيف سيمكنني مساعدتك؟ هذه الخصلة هي التي تؤدي إلى الوحدة»<sup>76</sup>

آلمت وفاة فيروز إنديرا جسدياً ونفسياً. فبعد وفاته شعرت بالسقم والأسى، وانقطع عنها الطمئ. <sup>77</sup> وقد وصفت فيما بعد حالها آنذاك، فقالت: «تغيرت حياتي النفسية والجسدية فجأة، وتغيرت وظائف جسدي ... اعتل جسدي. تسبب ذلك الحادث في اضطراب حياتي لسنين ... فهو لم يكن صدمة نفسية وحسب بل كان كما لو أن أحداً شقني إلى نصفين»<sup>78</sup> أثناء حرق جثمان فيروز ارتدت إنديرا الساري الأبيض على عادة الأرامل الهندوسيات؛ إذ إن اللون الأبيض هو لون الحداد في الهند. وامتنعت عن التقيد ببقية التقاليد الهندوسية القاسية التي تقضي بحلق الأرملة شعر رأسها، وتحطيم أساورها، ونومها على الأرض، وأكلها الأطعمة غير المتبلّة. فلم يكن يتقيد بهذه التقاليد القاسية سوى القليل من النساء من مرتبة إنديرا الاجتماعية وممن حظين بنفس النشأة.

في النهاية خفت حدة «سقم» وحزن إنديرا، ولكنها ظلت إلى وقت طويل بعد وفاة فيروز ملتزمة بتقليد واحد، وهو قصر ألوان ملابسها على اللون الأبيض فحسب. ولم تفعل ذلك التزاماً بالتقاليد المفروضة عليها كأرملة، بل — كما أوضحت فيما بعد — لأنه بوفاة فيروز اختفت الألوان من حياتها.<sup>79</sup>



فيروز وإنديرا على متن سفينة في رحلة عودتهما من إنجلترا إلى الهند أوائل عام ١٩٤١.



العروس الجميلة إنديرا يوم زفافها.





صورة لإنديرا التقتها فيروز غاندي أثناء فترة توددهما.



صورة من زفاف إنديرا نهرو إلى فيروز غاندي، ويقف جواهرلال نهرو في أقصى اليسار وساروجيني نايدو في أقصى اليمين.



إندیرا مع ابنها سانجاي غاندي البالغ عامًا واحدًا عام ١٩٤٨.



إندیرا ونهرو بعد وقت قصیر من استقلال الهند.



إنديرا ونهرو أثناء رحلتها في بوتان في سبتمبر ١٩٥٨.



إنديرا ونهرو والرئيس جون كينيدي وسيدة أمريكا الأولى جاكلين كينيدي في واشنطن العاصمة في نوفمبر عام ١٩٦١. عندما سافرت إنديرا إلى خارج البلاد تأنقت بدرجة كبيرة. وهي ترتدي هنا فراء الملك وساريًا حريريًا وبعض الحلي، وتضع زينة الوجه كاملة، ويبدو شعرها مصففًا للأعلى بعناية.



إنديرا تدلي بـخطاب قبولها كرئيسة لحزب المؤتمر في ١٣ فبراير ١٩٥٩.



إنديرا إلى جانب جثمان نهره مسجى على نعش مكشوف في مايو ١٩٦٤.





إنديرا في لقاء مع الرئيس الأمريكي ليندون جونسون في أول زيارة لها إلى الولايات المتحدة وهي رئيسة وزراء إبان أزمة الغذاء التي عانتها الهند عام ١٩٦٦. وسرعان ما تألف القائدان.



إندیرا مع ولديها راجيف وسانجاي غاندي في بيتهما رقم واحد في شارع سافدارجانج رود  
عام ١٩٦٧.



صورة لغلاف مجلة «تايم» تحمل عنوان «الهند المضطرب بين يدي امرأة» بعد انتخاب إنديرا رئيسة وزراء الهند في يناير عام ١٩٦٦.



إنديرا تضع ضمادة على أنفها وتبدو — على حد قولها — كالرجل الوطواط بعدما قُذفت بالحجارة في ولاية أوريسا أثناء حملتها الانتخابية لعام ١٩٦٧. وهنا يقف الرئيس الهندي رادهاكريشنان إلى جانبها.

## الفصل الثاني عشر

### نحو ثلاثية

خطت إنديرا للقيام بجولة مطولة لمدة شهرين في خريف عام ١٩٦٠ تزور فيها أفريقيا وأمريكا الجنوبية والمكسيك والولايات المتحدة. لكن بعد وفاة فيروز في أوائل سبتمبر ألغت على عجل جولتها إلى كل تلك المناطق فيما عدا جولتها غير الرسمية إلى المكسيك وأمريكا. وفي نهاية سبتمبر كتبت إلى دوروثي نورمان عن شعورها بعد وفاة فيروز: «لقد أفقدتني الصدمة ... الشعور بما حولي، ومع أنني أكاد لا أحتمل هذا الحزن الثقيل ... فالآن أشعر أن ثقله لا يكف عن الزيادة.» وذكرت أنها تشعر «بالفراغ والخواء»، كما شعرت «بضغط هائل يطحنها». لذا تنسأل في خطابها لدوروثي قائلة: «هل سأتحرق يوماً من هذا العبء، أو أتمكن من لمس ورؤية الأشياء بدون أن أرى الحقيقة المؤلمة فيها وألمسها؟»<sup>1</sup>

وكما توقعت إنديرا زادت تعاستها ولم تنقص مع مضي الأسابيع. فعندما وصلت إلى المكسيك في أواخر أكتوبر كانت لا تنفك تقريباً عن البكاء، لقد بكّت حتى عندما زارت أطلال حضارة المايا.<sup>2</sup> فالحزن بدا على حد تعبيرها وكأنه «حجاب يحيطني ويغطي من كل جانب».<sup>3</sup> لم تقدر على الاستمتاع بمشاهدة معالم المكسيك؛ فمواصلة الحياة كانت تتطلب منها مجهوداً هائلاً.

بعدما زارت إنديرا المكسيك التقت بدوروثي نورمان في دالاس بولاية تكساس، وسافرتا معاً إلى ولايتي أريزونا ونيومكسيكو، آنذاك كانت إنديرا لا تزال تشعر — على حد تعبيرها — كما لو أن «غيمة من الحزن القاتم تكتنفها».<sup>4</sup> وبعد أريزونا ونيومكسيكو مضت إنديرا مع دوروثي إلى نيويورك. كان جون إف كينيدي قد فاز لثوه على منافسه نيكسون في انتخابات الرئاسة الأمريكية بفارق ضئيل، وفي اليوم التالي على انتهاء الانتخابات كتبت إنديرا إلى نهره عن ليلة الانتخابات تقول: «لقد مررنا بليلة عصيبة حقلت بلحظات النصر والهزيمة والإحصائيات المتضاربة، لكن أخيراً فاز كينيدي. إنه

أفضل من نيكسون للهند وآسيا، غير أن أغلب الأصوات التي أدلى بها في الانتخابات كانت معارضة لنيكسون وليس تأييدًا لكينيدي»<sup>5</sup>

لكن عندما وصلت إنديرا إلى الساحل الشرقي من الولايات المتحدة كان التعب قد أعيها، فقد كتبت لنهرو تقول: «لا أقوى حتى على الوقوف»، إلا أنها استطاعت المضي إلى جامعة ييل في مدينة نيو هيفن بولاية كونيتيكت لإلقاء محاضرة هناك وإهداء الجامعة صورة لإيهو ييل المتبرع الأكبر للجامعة، الذي عمل لدى شركة الهند الشرقية البريطانية، وعُين حاكمًا على مدراس. أما في واشنطن فقد مكثت إنديرا بضعة أيام لدى ابن عمها بريج كومار نهرو، الذي كان وقتها سفيرًا للهند في الولايات المتحدة. وقد أخذت وزوجته فوري نهرو «تحاضر» إنديرا بشأن حالتها النفسية البائسة، لكن إنديرا تمكنت من السيطرة على حزنها قبل أن تستقل الطائرة متجهة إلى باريس لحضور مؤتمر لمنظمة اليونسكو قالت عنه فيما بعد لدوروثي إنه «ممل إلى درجة قاتلة».

بعدها عادت إلى الهند في يناير عام ١٩٦١، حيث بدا ظاهريًا أن حياتها عادت إلى إيقاعها الطبيعي.

بعد أن انتهت فترة الحداد الرسمي على فيروز عادت إلى الحياة السياسية بنشاط من جديد. فأعيد انتخابها لعضوية لجنة عمل حزب المؤتمر، وصارت عضوًا في لجنة الانتخابات المركزية التي تألفت لاختيار المرشحين لخوض الانتخابات العامة عام ١٩٦٢. وفي الواقع وافقت هي ولال بهادر شاستري ونهرو على جميع المرشحين. لكن الحزن ظل إلى وقتها يأبى مفارقتها. في ذلك كتبت إلى دوروثي نورمان في صيف عام ١٩٦١ تقول: «لقد ترددت في الكتابة إليك، فقد كنت أرجئ هذا لوقت أشعر فيه بأنني أفضل حالًا. لكن الآن لا أدري إن كان هذا الوقت سيأتي أبدًا. لطالما كنت أنظر إلى شخصيتي على أنها إيجابية. أما الآن فأشعر أنني في منتهى السلبية. أنا لست مريضة. ومع هذا لست أيضًا بحال جيدة. كل ما في الأمر هو أنني لا أشعر أنني على قيد الحياة. ولا يبدو أن أحدًا يدرك الفارق.» ظل الحزن يعتصرها إلى وقت سفرها جواً إلى لندن في ١٧ من أكتوبر، عندها قالت إن كل ما تأمله هو أن تصبح «أكثر إقبالاً على الحياة، وأكثر انفتاحاً عليها عندما أصل إلى الولايات المتحدة»<sup>6</sup>.

في نوفمبر قامت إنديرا ونهرو معًا بزيارتهما الرسمية الثانية إلى الولايات المتحدة لعقد قمة مع الرئيس الأمريكي جون إف كينيدي، بعد اثني عشر عامًا من رحلتها الأولى إلى أمريكا. كان الكل — ربما عدا نهرو وإنديرا — يعلق آمالاً عريضة على هذه القمة

استبشارًا بالحكومة الأمريكية الجديدة المنتمية للحزب الديمقراطي التي يرأسها رئيس شاب مفعم بالحيوية. التقى نهرو كينيدي من قبل في الهند عندما كان الأخير عضوًا شابًا في مجلس النواب الأمريكي، لكن نهرو لم ينبهر بشخصيته، غير أن بريج كومار نهرو كان واثقًا من أن نهرو سيدرك جدارة كينيدي هذه المرة. كذا توقع جون كينيث جالبريث سفير الولايات المتحدة إلى الهند أن يقنع كينيدي نهرو بجدارته.

سافرت إنديرا ونهرو إلى نيويورك على متن رحلة طيران منتظمة تابعة لشركة الخطوط الجوية الهندية، ووصل نهرو إلى هناك متعبًا. لكنه فور ما ترجل من الطائرة تقريبًا اضطر وهو مرهق للغاية من طول الرحلة ومن تأثير اضطرابات فروق التوقيت إلى الظهور في برنامج أمريكي خاص بالقضايا الجارية يدعى «واجه الصحافة». في هذا البرنامج تعرض لاستجواب مرهق، رد فيه على الأسئلة بإجابات مملة تتخللها فترات طويلة من الصمت ولحظات التردد. بعدها ذهب هو وإنديرا إلى «رود أيلاند» للقاء آل كينيدي في مزرعتهم. وأثناء مرورهم بقصور أصحاب الثراء الفاحش الضخمة في «نيو بورت» قال كينيدي لنهرو مازحًا إنه يريده أن يرى كيف يعيش فقراء الأمريكيين. لكن هذه المزحة لم تنجح في رسم ابتسامة على شفتي نهرو. وعلى مائدة الغداء ظل جامد الوجه، صامتًا. وحتى إنديرا عجزت عن دفعه للحوار، ألح كينيدي على نهرو لإسدائه نصيحة فيما يتعلق بفيتنام، لكن نهرو «لم ينبس ببنت شفة».<sup>7</sup> مما أخرج إنديرا وبريج كومار نهرو وجالبريث، لكن لم يكن بيديهم ما يفعلونه. فالشخص الوحيد الذي بدا نهرو مستعدًا للتحاور معه هو جاكين كينيدي.

بعد تناول الغداء استقلوا طائرة إلى واشنطن، فجلس نهرو وحده يحرق من نافذة الطائرة، في حين أخذت إنديرا تقرأ نسخة من مجلة فوج، أما جاكين كينيدي فأخذت تقرأ رواية للأديب الفرنسي مالرو.<sup>8</sup> ولم تتحسن الأجواء بين كينيدي ونهرو في العاصمة واشنطن. فأتثناء المحادثات التي جرت بينهما هناك، التي حضرها جالبريث وبريج كومار نهرو، «ببساطة لم يكن نهرو يرد». فكان يجيب السؤال تلو الآخر بمقطع، أو جملة أو اثنتين على الأكثر. تناولت هذه المحادثات عدة قضايا منها برلين، وفيتنام، والاختبارات النووية والعلاقات الهندية الباكستانية، لكن آخر هذه المواضيع فقط هو الذي استفز ردة فعل جادة من نهرو.<sup>9</sup> وبعدها عُقد اجتماع خاص بين نهرو وكينيدي، لكن لم يتحدث أي منهما عما جرى أثناءه، والأرجح أنه لم يحدث الكثير، فقد قال كينيدي فيما بعد في وصفه لزيارة نهرو له عام ١٩٦١: «إنها أثقل زيارة استقبلتها لأحد رؤساء الدول» وشبه الكلام إلى نهرو بأنه «كمحاولة الإمساك بشيء واكتشاف أنه لم يكن إلا سرابًا».<sup>10</sup>

وجد بريج كومار نهرو الذي سحب نهرو وإنديرا طوال زيارتهما للولايات المتحدة نهرو «فاقد العزم، وفاتر الهمة، وغير مبالٍ بما حوله، وصموتًا، على غير عادته تمامًا»، وعزا تصرفاته تلك لتأثيرات إرهاق السفر عبر مناطق مختلفة التوقيت، وشك في أنه قد يكون معتل الصحة جسديًا. أما جالبريث فلم يرَ أنه يعاني خطبًا ما صحيًا. كان الفتور الذي تصرف به نهرو إزاء كينيدي — الذي وصل إلى حد العداء الواضح — يعكس رأيه في الأخير. لقد وافق رأي بريج كومار نهرو وجالبريث في كينيدي الآراء السائدة بشأن الأخير التي تقول إنه «ذكي وفصيح ومتمرس». أما نهرو فلم يقتنع بهذه الآراء. فقد ارتاب في جاذبية كينيدي، وخامره الشك في رؤيته السياسية. وأما إنديرا فلم تنبهر هي الأخرى بجاذبية جاكين كينيدي.<sup>11</sup>

بعد واشنطن استقلت إنديرا ونهرو طائرة إلى لوس أنجليس، وهناك ارتفعت معنوياتهما شيئًا ما قبل أن يعودا إلى الهند بعدما زارا مدينة ديزني لاند، وأحد استوديوهات تصوير الأفلام، والتقيا بالمثل الأمريكي مارلون براندو، والكاتب ألدوس هوكسلي، والمؤرخ ويل ديورانت. في الواقع كانت النتيجة الوحيدة الملموسة لزيارة إنديرا ونهرو للولايات المتحدة عام ١٩٦١ هي الزيارة الناجحة والشهيرة التي قامت بها جاكين كينيدي إلى الهند في مارس ١٩٦٢ ردًا على زيارتهما.

وبالطبع اضطلعت إنديرا بدور مهم في زيارة سيدة أمريكا الأولى جاكين كينيدي للهند عام ١٩٦٢. لكن لأن جاكين أجلت رحلتها إلى الهند مرتين استطاعت إنديرا أن تتملص منها فيما كانت هي وأختها لي رادزويل لا تزالان في الهند وفاءً لارتباط مسبق بجولة لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة. أثناء هذه الجولة بعثت إنديرا بخطاب إلى أביها في الهند. كانت إنديرا مثل نهرو لا تنظر للأمريكيين بكثير من الاحترام، من ثم كتبت لأبيها تشكو من «الدرجة العجيبة التي يؤيدون بها المذاهب اليمينية»، التي وصل إليها جهلهم. فتقول لأبيها عنهم في الرسالة: «الكلام إليهم ممل بسبب افتقارهم إلى المعرفة، فعلى المرء أن يكرر لهم الكلام لأكثر من مرة، وأن يقوله في كلمات من مقطع واحد».<sup>12</sup>

في نيويورك التقت إنديرا بدوروثي نورمان، ثم أخذت تبعث لها بخطابات تمتلئ بالشكوى والتشاؤم أثناء تجوالها في أنحاء أمريكا. فعلى سبيل المثال، من العاصمة واشنطن كتبت لها في ٢٦ مارس أنها تشعر بالاكئاب، والإنهاك الشديد ولا تدري «كيف سيمكن لها مواصلة هذه الجولة».<sup>13</sup> كانت تحتاج إلى جرعات كبيرة من النوم كل ليلة لتتمكن من مواصلة جولتها هناك. وفي الواقع يبدو أنها أمضت أغلب تلك الجولة مفقدة الحماس والطاقة، فقد ألقت خطابات هادئة غير مثيرة (قليل إن هناك من كتبها لها)



تحدثت فيها عن قضايا سياسية وثقافية لا تثير جدلاً. وفي كاليفورنيا كتبت إلى دوروثي ثانية تقول: «لا ينقصني سوى نفسي، أنا فقط لا أدري أين ذهبت. الجسد موجود، ترسم على شفثيه الابتسامات العريضة، ويتكلم، لكنه ليس إلا إناءً خاوياً. نفسي الحقيقية لم تعد موجودة. هل ماتت أم نامت؟ إنه لأمر محزن للغاية». وأضافت أنها تشعر كما لو أنها «كالآلة الوترية التي تصدر نغمات نشازاً، ومجرد صوتها يزعج أذن سامعيها».<sup>14</sup> شعرت أيضاً بما اشتبهت في أنه أعراض بداية سن اليأس تتدفق عليها.<sup>15</sup> وقد كانت مصيبة في ذلك؛ فعندما توفي فيروز توقفت فجأة دورتها الشهرية تماماً. وبعدها بنحو عام عاد إليها الطمث من جديد، ولكنه صار يأتي على نحو غير منتظم وغير ثابت. وقد أفضت إلى دوروثي نورمان بأن اضطراب «الطمث يقتلني عن تركيزي ... ويتسبب لي في اكتئاب حاد وإنهاك جسدي».<sup>16</sup> لم تكن مريضة أو يائسة بل فقدت انسجامها مع جسدها والعالم من حولها. وأحياناً ينتابها إحساس بعبثية الحياة كلها. ففي العام التالي بعثت إلى دوروثي بخطاب تعبر فيه بصراحة أكبر عن مشاعرها وتقول: «في مرحلة صعبة من حياتي ... أشعر بإنهاك جسدي ونفسي هائل، وأقاوم اضطراب هرموناتي».<sup>17</sup> ورغم اضطراب هرموناتها هذا لم ينصحها الأطباء بالعلاج ببدائل الهرمونات التي كانت قد طرحت في الأسواق حديثاً آنذاك. بل كان عليها أن تستعيد حيويتها ومرونتها وهنأتها بمرور الوقت فقط.

في أبريل، أثناء جولة إنديرا في الولايات المتحدة، مرض نهره — الذي كان آنذاك في الثالثة والسبعين من العمر — مرضاً شديداً إثر إصابته بالتهاب كلوي. ولأنه عانى حمى شديدة وألماً مبرحاً فقد اضطر إلى ملازمة الفراش. فتملك القلق كريشنا هاثيسينج، عمة إنديرا التي مكثت في تين مورتى أثناء غياب الأخيرة. وقبل أن تصل إنديرا إلى تين مورتى كانت حالة نهره الصحية قد بدأت تتحسن.

في أوائل سبتمبر، عندما سافر نهره مع إنديرا إلى لندن لحضور مؤتمر رؤساء وزراء دول الكومنولث بدا نهره معافى تماماً من المرض. أما إنديرا فقد ظلت على غير طبيعتها. فعندما قابلتها دوروثي في لندن وجدت التعب والحزن باديين عليها، وذهبتا معاً لمشاهدة فيلم «لوليتا» الجديد المستوحى من رواية لفلاذيمير نابكوف. وبعدها أمضت إنديرا «يومين في منتهى الروعة» في مدينة كامبريدج مع ابنها راجيف الذي كان قد التحق لتوه بكلية «ترينيتي» التي تخرج منها نهره قديماً. لكن حتى رؤية ابنها لم تفلح في إبهاجها. فراجيف صار في الثامنة عشرة من العمر، وأصبح لديه «أصدقاء جدد وعلاقات جديدة وأحباب جدد. قلبي يتألم».<sup>18</sup>

إذا عدنا إلى الهند في خريف عام ١٩٦٢ نجد مشاكل خطيرة أوشكت على الاندلاع على حدود البلاد المشتركة مع الصين. فلقرون ظلت جبال الهيمالايا — التي يعني اسمها باللغة السنسكريتية (مقر الثلج) — بمنزلة حدود طبيعية تحمي شمال الهند من الغزو. ومع أنه كانت هناك علامات تنذر باحتمال شن الصين هجومًا على الهند من تلك الجبال البعيدة. فلم يتصور نهرو ذلك قط، فعام ١٩٥٤ — العام الذي زار فيه «تشو إن لاي» الهند، وزارت فيه إنديرا ونهرو الصين — بدأ التقارب بين الهند والصين تحت شعار «الهنود والصينيون إخوة»، ووقعت في هذا العام معاهدة بين البلدين بنيت على المبادئ الخمس للتعايش السلمي وعدم الاعتداء، وصارت هذه المبادئ محل تركيز مؤتمر باندونج الذي عُقد عام ١٩٥٥.

لكن عام ١٩٥٦ بدأت الصين تشيد سراً طريقاً في منطقة «أكساي تشين» في ولاية لداخ بكشمير. وفي العام نفسه عززت سيطرتها على إقليم التبت. ففر الدالاي لاما القائد الروحي والسياسي لذلك الإقليم من الحكومة الصينية إلى الهند حيث منحه نهرو حق اللجوء السياسي، وهو ما أيدته إنديرا التي ساعدت في تأسيس لجنة إغاثة مركزية لآلاف اللاجئين التبتيين الذين تبعوا الدالاي ونفوا معه. من ثم كانت النتيجة أن أدانت بكين الهند لإيوائها الدالاي لاما وأتباعه.

بعدئذٍ، في سبتمبر عام ١٩٦٢، أثناء زيارة إنديرا ونهرو لأوروبا، بدأت القوات الصينية تعبر خط مكماهون (الحدود الصينية-الهندية التي أسستها بريطانيا في الجبهة الشمالية الشرقية من البلاد وتعرف حالياً باسم ولاية أروناتشال براديش) حيث نقطة التقاء الهند وإقليم التبت وبوتان. واخترقت القوات أيضاً منطقة أكساي تشين في لداخ بكشمير التي تمتد لمسافة ١٦ ألف ميل مربع، حيث شيد الصينيون سراً طريقاً يمتد لمسافة ٧٥٠ ميلاً في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧. بعيداً عن هذه الأحداث، في باريس، لم يلقِ نهرو بالألله الغارات ووصفها بأنها «بضع معارك تافهة نشأت بين خفر الحدود».

عادت إنديرا ونهرو إلى دلهي في أوائل أكتوبر. ثم ذهبوا في ١٢ أكتوبر في زيارة رسمية إلى سيلان بعدما وافق نهرو على إرسال فرقتين إلى الشمال الشرقي قبل مغادرته بوقت قصير، وفي ٢٠ أكتوبر بعدما عاد نهرو مع إنديرا من زيارتهما شن الصينيون أول غزو شامل على الأراضي الهندية، استُخدمت فيه قذائف الهاون، والمدافع الجبلية، بل الدبابات في بعض المناطق. وعليه في ٢٢ من أكتوبر أعلنت الهند حالة الطوارئ وأرسلت إلى الولايات المتحدة وبريطانيا طلباً عاجلاً بإمدادها بالمعدات الحربية.

إلى عشية غزو الصين للهند في أكتوبر عام ١٩٦٢ ظل وزير دفاع الهند كريشنا مينون يرفض النظر بجدية إلى تهديدات الصين، فكانت النتيجة أن الهند وجيشها كانا غير مستعدين على الإطلاق لغزو الصين. لذا لما وقع الغزو علت الأصوات في وقت واحد مطالبة برأسه. ففيما أخذ الصينيون يحشدون قواتهم ويشيدون طريق أكساي تشين عكف قطاع الدفاع في الهند بتكليف من مينون على إنتاج أواني الطهي بالضغط وأباريق القهوة.

وحتى قبل هذا الغزو لم يحظَ مينون بأي شعبية في الهند. ففي الأربعينيات عندما شغل منصب المندوب السامي للهند في لندن تورط في صفقة مشبوهة لشراء الآلاف من سيارات الجيب للهند ولم يتسلم منها سوى جزء ضئيل. وفي الخمسينيات عندما رأس الوفد الهندي في منظمة الأمم المتحدة خسر ود الأمريكيين بأكثر من طريقة، منها تسامحه مع غزو الاتحاد السوفييتي للمجر. أما للهنود فلم يحسن كريشنا القيام بشيء أثناء رئاسته للوفد الهندي في منظمة الأمم المتحدة إلا عندما ألقى خطبة تقريرية عنيفة لمدة تسع ساعات في مجلس أمن الأمم المتحدة التي دافع فيها عن سياسة الهند في كشمير. في عام ١٩٥٦ طلب نهرو من مينون أن يعود إلى الهند، وفي البداية نصبه وزيراً بلا وزارة، ثم وزيراً للدفاع الهند. وقتها كان مينون قد أمضى الجزء الأكبر من اثنين وثلاثين عاماً من حياته خارج الهند مسقط رأسه، فلما عاد إليها عاد غريباً عنها، لا يستطيع التحدث بأي لغة من لغاتها سوى الإنجليزية (فقد نسي لغته الأم لغة المالايالام، ولم يتعلم اللغة الهندية قط)؛ وحتى جهازه الهضمي صار غير قادر على احتمال الأطعمة الهندية كثيرة التوابل، وتعود جسده الطويل النحيف ارتداء سترات مصنوعة من قماش التويد الصوفي الخشن، وال سراويل المصنوعة من قماش الفلانيل الصوفي الخفيف بدلاً من لباس الدهوتي والأنجافاسترام اللذين يرتديهما الناس في الهند.

مع أن مينون كان صديقاً قديماً لإنديرا ومعلماً لها فقد كانت هي من بين من طالبوا باستقالته من وزارة الدفاع في أواخر أكتوبر عام ١٩٦٢، لا لأنها رأت أنه المسئول عن غزو الصين الكارثي، بل لأنها أرادت أن تتأى بأبيها عن اللوم على ذلك. يُذكر أنها قالت ذات مرة لأحد الأصدقاء: «من لا يؤدي عمله، أيّاً كان، يجب أن يسرح منه. ولا يوجد من لا يمكن الاستغناء عنه»؛ تلك مقولة تثبت أنها «أكثر صرامة بكثير من أبيها».<sup>19</sup> أو بعبارة أخرى أنها «لا تتقيد بالعلاقات العاطفية بقدره»، الأمر الذي أشار إليه خصومها فيما بعد على أنه قسوة. أما نهرو، فبعكس إنديرا، كان آخر ما يرغب فيه هو أن يجعل من مينون كبش فداء، لكن وسط صدور إشاعات عن احتمال قيام انقلاب عسكري خضع

للضغط الشعبي وأعفى في ٣١ من أكتوبر مينون من رئاسة وزارة الدفاع. وكانت هذه فعلياً هي نهاية مشوار مينون السياسي، وأقصى ضربة تلقاها في حياته.

في ١٩ من نوفمبر، في عيد مولد إنديرا الخامس والأربعين. عندما حضرت عمة إنديرا كريشنا هائيسينج — التي أقامت آنذاك في تين مورتى — الإفطار، وجدت المناخ فيه فاتراً للغاية. كانت أنباء قد وصلت للتو بأن الصينيين نجحوا في اجتياز «ممر سيلا باس» الذي اعتُقد أنه منيع. وبعد هذا الممر تقع ولاية آسام وسائر الهند. في الواقع لقد تدفق الصينيون «في سيل بشري» على جبال الهيمالايا في شمال شرق الهند، وحاصروا القوات الهندية التي تقل عن قواتهم عدداً وعتاداً.

أضحت أهم مدن ولاية آسام — مدينة تيزبور التي تبعد بثلاثين ميلاً فقط عن الحدود الصينية — مهددة، فقررت إنديرا قبل أن ينتصف نهار يوم ١٩ نوفمبر أن تذهب إلى هناك. فسافرت على متن طائرة محملة بإمدادات طبية من منظمة الصليب الأحمر إلى المدينة. كان الصينيون بحلول هذا الوقت قد احتلوا نحو ٥٠ ألف ميل مربع من الأراضي التابعة للهند. عادت إنديرا إلى دلهي وقضت بها ثماني ساعات بالضبط، وهي «تشع ثقة لأن سكان تيزبور القبلين رفضوا الرحيل عنها». ثم أعلنت رسالة قصيرة عبر الراديو، وأمرت بتعبئة الطائرة التي سبق أن أقلتها إلى تيزبور بالإمدادات الطبية من جديد، وعادت إلى ولاية آسام لتمكث فيها لأربع وعشرين ساعة أخرى.

وقع غزو الصين للهند عام ١٩٦٢ فجأة وانتهى أيضاً فجأة. ففي ٢١ نوفمبر أعلن الصينيون فجأة وقف إطلاق النار من جانبهم، وانسحبوا في القطاع الشرقي إلى موقع يبعد خمسة عشر ميلاً عن خط مكماهون، إلى حيث يقع «خط السيطرة الفعلية» في القطاعات الأخرى. وبذا انتهت الحرب. تعرضت الهند للإذلال التام. وتحطم نهرو.

أما إنديرا فالفترة التي أعقبت الحرب مع الصين كانت فترة اضطراب لها على المستوى الشخصي. صار نهرو عندئذ يواجه ضغوطاً سياسية، وشاخ جسدياً، وتحطم نفسياً. فصار أكثر اعتماداً على ابنته أكثر من أي وقت مضى. ولأول مرة بدأت إنديرا تستاء من اعتماده عليها. فشعرت برغبة طاغية في تحطيم قيود الواجب والمسئولية التي طالما قيدتها. وخططت سرّاً لترك أبيها والهند وصنع حياة جديدة ومستقلة لنفسها بالخارج.

في ١٣ أكتوبر عام ١٩٦٣ كتبت إلى دوروثي نورمان تقول: «حاجتي إلى الخصوصية والابتعاد عن الشهرة أخذت تتزايد بانتظام على مدى الثلاثة الأعوام الأخيرة حتى صرت أشعر أنني لا أقدر على تجاهلها بدون أن أعرض نفسي لنوع من القتل. لكن تمتعي

بالخصوصية لسوء الحظ مستحيل، حتى وأنا في أقصى أطراف شبه القارة الهندية. لقد وجدت الناس يقدمون لي بطاقات تعريفهم ويعرضون عليّ مشاكلهم، حتى وأنا على سفح جبل كولاهوي الجليدي (الذي يصل ارتفاعه إلى ١٦ ألف قدم)! ليس ما يسوءني هو أنني ألتقي بالناس، وإنما هو أنهم يأتونني فقط لمجرد الحصول مني على شيء أو طلب أمر ما. فلا يترك لي ولو حتى بضع دقائق للتدبر أو الاسترخاء أو التصرف على سجيّتي وحسب.»

أخبرت إنديرا دوروثي أنها أغرمت ببيت صغير رأتَه معروضًا للبيع في لندن ربيع العام الماضي. كانت تملك القليل جدًا من المال، ولم يكن لديها أي عملة أجنبية، لكنها مع ذلك أمضت «الكثير من الوقت في التفكير في طرق ووسائل» لشراء البيت. فقد كانت تأمل في جمع مال يؤهلها للحصول على قرض عقاري، ثم شراء المنزل، ثم السكن في جزء صغير منه وعرض بقية غرفه للإيجار. وكانت متأكدة أن بمقدورها أن تعيش وحدها عيشة مقتصدة في لندن، ولم ترَ أن الانتقال من العيش كابنة رئيس الوزراء إلى العيش كصاحبة نزل أمر لا يليق بها. لكنها بعدئذٍ سمعت أن المنزل اشتراه شخص آخر فشعرت «كما لو أن أحدًا صفق بابًا في وجهي». رغبت إنديرا في العيش خارج الهند إلى حد ما لتكون على مقربة من راجيف وأيضًا من سانجاي الذي اعتمزم أيضًا السفر عما قريب إلى إنجلترا. لكنها، فوق كل شيء، أرادت من أن تكون وحدها. أرادت أن تكون «حرة لأعمل أو أستريح. لا يبدو هذا مطلبًا يصعب أن تجود به الحياة، ومع هذا فهو يبدو بعيدًا عن متناولي.»

آنذاك أكدت إنديرا أنها لم ترد أن تهرب من أحد أو شيء ما. وقالت في ذلك: «يجوز لي أن أقول إنني أديت واجبي نحو وطني وأسرّتي خلال هذه السنوات الطويلة. ولا يساورني الندم على ذلك ولو للحظة، لأن هذه الأعوام هي التي شكلت ما أنا عليه الآن. لكنني الآن أرغب في حياة أخرى. قد لا تسير على نحو جيد. وقد لا أُعجب بها أو أفلح فيها، لكنها تستحق التجربة. فثمة رغبة طاغية بداخلي تدفعني باستمرار بعيدًا عن حياتي القديمة.»<sup>20</sup>

في السادسة والأربعين من العمر مرت إنديرا بأزمة، لكن هذه الأزمة في حقيقة الأمر كانت أقرب إلى أزمة مرحلة المراهقة منها إلى أزمة منتصف العمر. آنذاك كانت تتساءل عن نوع الحياة الذي عليها أن تختار، وهل لها أن تختار؟ وماذا عن شعور الحرية؟ لم تتسنَّ لها فرصة حقيقية لسؤال تلك الأسئلة من قبل. فبادئ ذي بدء كانت ابنة لجواهرلال

نهر، ثم صارت زوجة لفيروز غاندي وبعد ذلك أمًّا لراجيف وسانجاي غاندي. فلم تبدأ التفكير والسعي لاكتشاف ما بإمكانها أن تكونه إلا بعدما مات فيروز، وصار ابنها مرهقين، وأصبح والدها رجلًا مسنًا.

وقد أظهرت دوروثي نورمان رغبة صادقة في مساعدتها في ذلك. كانت إنديرا تحتاج إلى مصدر دخل إن أقامت خارج البلاد. وفي العام الماضي أثناء قيامها بجولة لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة تقدمت إليها اثنتان من دور النشر الأمريكية — هما سيمون أند شوستر، ودابلداي — باقتراح لتأليف كتاب. لكنها آنذاك — على حد قولها لدوروثي نورمان — لم تدر «متى سيسنح الوقت لكتابة أي شيء». لكن بعدما اقتربت نهاية مشوار والدها السياسي استحوذت فكرة تأليف الكتاب على أفكارها، فتوسطت لها دوروثي نورمان لعقد اتفاق مع إحدى دور النشر الأخرى بنيويورك هي دار مور، التي تقدمت لإنديرا — على حد وصفها — «بعرض ذي شروط جذابة».<sup>21</sup> لكن لم يتضح بالضبط موضوع الكتاب، على الأرجح أنه كان سيتناول قصة حياة والدها ودورها فيها. وقد رأت إنديرا — التي برعت في الكتابة — أن فرصة تأليف الكتاب مغرية، والأكثر منها إغراءً الأموال التي كانت ستجنيها منها، والتي يمكن أن تستخدمها تذكرة لخروجها من الهند. إلا أن الاتفاق بشأن هذا «الكتاب» لم يتعدَّ مرحلة التشاور قط، ولم يتحول عقد دار نشر مور إلى حقيقة.

المفارقة في أحلام إنديرا السرية وخططها في خريف عام ١٩٦٣، أحلام الهروب، لا من السياسة فقط وإنما أيضًا من الهند، وقبل هذا وذلك أحلام «العثور على الذات»، هي أنها أذكتها في الوقت الذي ظن فيه الكثيرون أنها تناور لتتولى السلطة بعد والدها. ففي صيف عام ١٩٦٣ خسر حزب المؤتمر ثلاثة انتخابات فرعية في غاية الأهمية. وبعد غزو الصين المخزي العام السابق تضاعف نفوذ نهر ومكانته. وصارت أيامه في منصبه معدودة. وبدأت التساؤلات بشأن من سيخلفه تخرج إلى ساحة العلن بعد أن ظلت لوقت طويل في طي الكتمان.

في الواقع، ذلك العام أصدر صحفي أمريكي في الثالثة والثلاثين من العمر يدعى ويليس هانجن، عمل مديرًا لمكتب شبكة «إن بي سي» في الهند كتابًا بعنوان (من خلف نهر؟) وقد تألف الكتاب من سرد لمقابلات صحفية أجراها ويليس مع من يطمحون ويحتمل (أو لا يحتمل بالنسبة لبعضهم) أن يخلفوا نهر في رئاسة وزراء الهند، وهم: موراجي ديساي، وكريشنا مينون، ولال بهادور شاستري، وواي بي شافان، وجايابراكاش

ناراين، وإس كيه باتيل، وبريج موهان كاؤل، وإنديرا غاندي؛ المرأة الوحيدة التي أجرى معها ويليس مقابلة صحفية. أثار ذلك الكتاب عاصفة من الجدل في الهند، حتى في منزل تين مورتى حيث سأل نهرو إنديرا «في حدة» عن السبب الذي جعلها تسمح لهانجن أن يستجوبها، و«يجرها» إلى كتابه.<sup>22</sup>

لكن الإعلان عن مبادرة جديدة لحزب المؤتمر تدعى خطة كاماراج سرعان ما غطى على الجدل الذي أثاره هانجن. في ظاهر الأمر وضع هذه الخطة كوماراسامي كاماراج رئيس حكومة مدراس من أجل تطهير الحكومة، وإعادة الحياة إلى حزب المؤتمر المحتضر. ناقش كاماراج أولاً الخطة مع نهرو في أوائل أغسطس عام ١٩٦٣، قامت الخطة على استقالة المسؤولين رفيعي المستوى بالحزب — سواء من أعضاء المجلس الوزاري أو رؤساء الحكومات المحلية — من مناصبهم ليتفرغوا للاضطلاع بأعمال تنظيمية للحزب. وكان كل أصحاب المناصب الحكومية عرضة لأن تنطبق عليهم خطة كاماراج (أي عرضة لأن يسرحوا من مناصبهم) عدا رئيس الوزراء. ومع أن الدافع من وراء هذه الخطة كان إعادة النشاط إلى الحزب فإن تأثيرها المباشر هو أنها تسببت في إحداث عملية تصفية على مستوى أعلى قيادات الحزب في الفترة التي تسبق انتخابات خلافة نهرو في منصب رئيس الوزراء. فتخلصت بحنكة من بعض المرشحين «غير المرغوب فيهم» مثل ديساي، العضو ذي الاتجاهات اليمينية، وفي الوقت نفسه أخفت تلك الممارسات بإبعاد المرشحين الأكثر جاذبية ولفناً للانتباه مثل شاستري عن دائرة الضوء.

غير أن تلك هي الخطة من وجهة نظر ديساي الناقمة. رأى ديساي أن الخطة لم تكن من وضع كاماراج على الإطلاق، وإنما كانت مؤامرة دبرها نهرو لينصب إنديرا غاندي لخلافته.<sup>23</sup> فرد نهرو على ذلك الاتهام بأن وصفه بأنه يكشف عن «محاولة مبتكرة للغاية للبحث عن دوافعه»، وأضاف: «إنه اتهام مستقّى مما يبدو أنه مبدأ توريث الحكم ... وهو مبدأ غريب تمامًا على الديمقراطية البرلمانية ... فضلًا عن كونه مبدأً بغيضًا في رأيي.»<sup>24</sup> وإنديرا نفسها أوضحت أنه لو كان والدها يريد أن تخلفه في رئاسة الوزراء لأراد لها قطعًا أن تنتخب لعضوية البرلمان، غير أن نهرو وإنديرا في فترة الإعداد لانتخابات عام ١٩٦٢ العامة وقبل ذلك اتفاقا على ألا تترشح إنديرا لعضوية البرلمان.<sup>25</sup>

صارت خطة كاماراج موضع التنفيذ في ٢٤ أغسطس عام ١٩٦٣ ولاقت استحسانًا كبيرًا. اختار نهرو للاستقالة ستة من أعضاء المجلس الوزاري (من بينهم ديساي وشاستري، وكلاهما كان مرشحًا بارزًا لخلافة نهرو في منصب رئيس الوزراء)، وستة من

رؤساء حكومات الولايات (من بينهم كاماراج نفسه الذي صار بعدها بوقت قصير رئيساً لحزب المؤتمر). نال كاماراج الثناء على اقتراحه الخطة، لكنه تحالف مع جمعية سرية صغيرة من المتأمرين من قادة حزب المؤتمر، عُرفت هذه العصبة باسم «السينديكيت». ضمت تلك العصبة، بالإضافة إلى كاماراج نفسه، أتوليا غوش من غرب البنغال، وإس كيه باتيل من بومباي، وسانجيفا ريدي من ولاية أندرا براديش، وإس نيجالينجبا رئيس حكومة ولاية كارناتاكا. والتقى هؤلاء في أكتوبر عام ١٩٦٣ في معبد تيروباتي في جنوب الهند وقرروا أن تخلف نهرو قيادة جماعية يتزعمها لال بهادور شاستري في منصب رئيس الوزراء وأن موراجي ديساي اليميني المتشدد المستبد بآرائه لا بد من أن يمنع من ذلك المنصب.

في نوفمبر عام ١٩٦٣ أخبرت ماري سيتون — وهي ناقدة سينمائية بريطانية وكاتبة بدأت معرفتها بنهرو وإنديرا عن طريق كريشنا مينون — نهرو أنها تريد أن تُولف كتاباً عنه، لكنها قالت إنها ستمتنع عن ذلك إن كانت لديه اعتراضات. فأخبرها بأن تتناقش في أمر الكتاب مع إنديرا، قائلاً لها: «عليك أنت وإندو أن تتفاهما في هذه المسألة». فوعده ماري بأن تقوم بذلك، غير أنها طلبت منه أن يخبر إنديرا بعدم اعتراضه على تأليف الكتاب.

رد نهرو: «إن أمكن لي تذكر القيام بذلك فسأفعل. فنادرًا ما أراها لأجد فرصة للحديث معها هذه الأيام. فهي شديدة الانشغال.»<sup>26</sup> في الواقع آنذاك، كان من المقرر أن تسافر إنديرا بعد وقت قصير إلى شرق أفريقيا في زيارة رسمية مدتها ثلاثة وعشرون يومًا لحضور احتفالات الاستقلال في كينيا، وزيارة زامبيا وأوغندا وإثيوبيا وتنزانيا، وتلك كانت ستصبح أول زيارة رسمية تقوم بها بمفردها إلى خارج البلاد. مع ذلك أجرت هي وماري مناقشة قصيرة في أمر الكتاب في أواخر نوفمبر (في اليوم السابق على اغتيال كينيدي)، حيث لم تسأل ماري إنديرا عن نهرو وحسب، بل سألتها أيضًا عن طموحاتها وموقفها من كتاب ويليس هانجن. وردت إنديرا على سؤال ماري عما إذا كانت تود أن تخلف والدها في منصبه بأن قالت: «سيقفلونني قبل أن تظهر أي بادرة تشير لاحتمال حدوث لذلك.» صعقت ماري من هذا الرد، لكنها فسرت أنه اعتقاد من إنديرا بأن معارضيه سيدمرونها تدميرًا سياسيًا، وليس بالمعنى الحرفي. لكن كيفما فسر المرء رد إنديرا ذاك، فإنه يعكس شعورها الدائم بأن الآخرين يتحينون الفرصة «للنيل منها».<sup>27</sup>



في الفترة التي عكفت فيها ماري سيتون على تأليف كتابها عن نهرو؛ الذي حمل اسم «البانديت»، أمضت أسابيع، وشهوراً متعاقبة في تين مورتى، وصارت أمينة سر إنديرا، لكن إنديرا ظلت في الوقت نفسه تركز إلى دوروثي نورمان. ففي ٤ يناير عام ١٩٦٤، بعد وقت قصير من عودتها من أفريقيا، كتبت دوروثي تعيد عليها رغبتها في الهروب، التي تحولت آنذاك إلى موضوع معتاد في خطاباتها، فتقول في رسالتها: «كم أتمنى أن أنفض يدي تمامًا عن السياسة الهندية وأي شئون سياسية غيرها، سأحاول بالتأكيد القيام بذلك».<sup>28</sup> لكنها بعد يومين حضرت المؤتمر السنوي لحزب المؤتمر المنعقد في بهوبانيشوار في ولاية أوريسا بشرقي الهند. وكذا فعلت سيتون التي ظلت تتابع نهرو طوال الشهور الأخيرة من حياته. في صباح الثامن من يناير نهض نهرو ليلقي كلمة، لكن عندها هوى جسده فجأة إلى الأمام. فهبت إنديرا من منصتها واندفعت أماماً إليه وتأبطت ذراعه قبل أن يصل رجال الأمن والإسعاف إلى المنصة. لقد أصيب نهرو بسكتة دماغية.

كانت تلك إصابة خطيرة، يصعب التكهّن بما إن كان الشفاء منها ممكناً. لقد عانى نهرو شللاً جزئياً في الجانب الأيسر من جسمه، وأصبح واهناً جداً. ومع أنها لم تكن قط من أعضاء مجلس الوزراء ولم تشغل أيضاً أي منصب بالانتخاب في الحكومة فقد حثها قادة حزب المؤتمر أمثال بيجو باتنايك على أن تخلف أباه في منصبه فوراً كنائبة لرئيس الوزراء. لكن إنديرا قابلت هذا الطلب بالرفض.

وبعدها ظلت لبضعة أيام تنتقل جيئةً وذهاباً بين جلسات حزب المؤتمر، وفراش مرض أبيها في راج بهافان (مقر حاكم الولاية)، تحسّنت صحة نهرو، لكن ليس بالدرجة التي تسمح له بالظهور العلني من جديد في اجتماعات حزب المؤتمر. وقد أخبرت إنديرا سيتون أنها حاولت أن تقنعه باختيار خليفة له — فهي نفسها تتعرض لضغط من المرشحين لخلافته بشأن ذلك — لكنه رفض. و«ظل يجادل طوال هذه الأيام!» بعدها صحبت إنديرا سيتون معها إلى غرفتها وأرثتها ثياب ساري جميلة بألوان تنبض بالحياة من ولاية أوريسا، كانت قد اشترتها قبل أن يصاب نهرو فجأة بمرضه. في ذلك قالت إنديرا: «أشعر بأنني أرغب في ارتداء الملابس الملونة. فالآن فقط، بعد ثلاثة أعوام، أشعر بأنني توقفت عن الحداد حزناً على موت فيروز».<sup>29</sup>

في ١٢ يناير عادت إنديرا ونهرو إلى دلهي حيث واصل نهرو تماثله للشفاء. وانخفضت ساعات عمله اليومية من سبع عشرة ساعة إلى اثنتي عشرة ساعة، وأرغم على أن يحصل على قسط قصير من النوم عصر كل يوم. ولم لم يُعلم الشعب الهندي بأن

مرضه خطير، أو بأن حالته الصحية لا تزال حرجة جدًا. بنهاية يناير كان نهرو قد تعافى بالدرجة التي تسمح له بالخروج علنًا في موكب عيد الجمهورية في ٢٦ يناير، وحضر افتتاح دورة البرلمان في فبراير، ولو أنه اضطر إلى إلقاء خطابه جالسًا.

رُوجت شائعات بأن إنديرا ستتنضم قريبًا إلى مجلس الوزراء كوزيرة للشئون الخارجية، وعندما لم يتحقق منها شيء خمدت. غير أن دوائر النخبة في دلهي ظلت تردد أن إنديرا أصبحت تلعب دور المحرك الخفي من وراء الكواليس، كما فعلت زوجة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون في أوائل القرن العشرين. لكن لما ذهب الصحفي إندر مالهورترا الذي كان صديقًا مقربًا لفيروز للقائها، أخبرته بأنه من «السخيف» مقارنتها بالسيدة ويلسون. من الواضح أنها كانت آنذاك تساعد والدها أكثر من أي وقت مضى، لكنها لم تكن مطلقًا المسيطرة على شئون الحكومة.

صدق مالهورترا إنديرا، لكنه شعر أيضًا بأنها لم تكن سعيدة بأن يفهم عنها أنها «القوة المسيطرة على الحكم».<sup>30</sup> في الواقع كان وزير الداخلية «جولزاري لال ناندا» ومعه وزير المالية تي تي كيه هما اللذان يعنيان بأعمال رئيس الوزراء اليومية. لكن بعدئذٍ، في ٢٢ يناير، عاد لال بهادور شاستري من غياهب النسيان التي سقط فيها من طُبقت عليهم خطة كاماراج لينضم إلى مجلس الوزراء كوزير بلا وزارة واضطلع بمسؤوليات كبرى.

كان نهرو آنذاك في الرابعة والسبعين من العمر، وقد ظلت علامات الاستفهام الكبيرة التي طرحتها مسألة خلافته قائمة، مع أن الإشاعات نُفيت وأُعلن كذبًا أنه شفي تمامًا. وأظهر استطلاع أجرته إحدى معاهد استطلاع الرأي العام الهندية آنذاك حول مسألة «من يخلف نهرو؟» أن لال بهادور شاستري هو المرشح الأول لخلافته، والثاني هو كاماراج، والثالث هو إنديرا، والرابع هو موراجي ديساي.

في مطلع أبريل أصيبت إنديرا بانزلاق غضروفي واضطرت إلى ارتداء «رقبة بلاستيكية قبيحة غير مريحة إلى حد لا يطاق، تسبب الشعور بالحر».<sup>31</sup> كان مرض والدها وما أشعله من اضطرابات وفتن في دلهي قد ألقي عليها بضغط نفسي هائل. ففي قرابة ذلك الوقت تحدث إليها الصحفي اليساري روميش ثابار فوجدها «منهكة القوى تكافح للإبقاء على والدها البانديت، تحاول أن تبقيه متماسكًا، لكنه ظل يتداعى، حتى انهارت وبكت».<sup>32</sup>

مع أن إنديرا كانت مصابة بانزلاق غضروفي، وتعاني حالة نفسية ضعيفة، فقد سافرت جواً إلى مدينة نيويورك في ١٥ أبريل لتحضر افتتاح المعرض العالمي. احتشد لدى مغادرتها المدينة في مطار بالام جمع كبير من المتطفلين المتطفلين الذين يجتمعون عادة لمشاهدة رئيس الوزراء وهو يغادر، وهذا دليل واضح على أن الشائعات التي دارت عن خلافاتها لأبيها، كانت واسعة الانتشار. لكن من الغريب أن تاركيشواري سينها، عشيقة فيروز السابقة، وواحدة من أتباع موراجي ديساي كانت من بين الجمع. لقد استطاعت سينها — شأنها شأن الكثيرين — أن تحذر من سيمك مفتاح السلطة مستقبلاً، لذا لجأت إلى إنديرا في المطار لتساعدها في منع المدعي العام من التحقيق في أوراق مشكوك في صحتها تتصل بحيازتها لعقارات قيمة. وقد شاهدت ماري سيتون كلا المرأتين؛ بدت إنديرا رابطة الجأش تماماً، لا يظهر عليها أي تأثير فيما أخذت سينها تتوسل إليها بلا فائدة.<sup>33</sup>

سافرت إنديرا إلى نيويورك جواً عبر هونج كونج حيث أخبرت المراسلين الصحفيين في استراحة قصيرة من الرحلة أنها لا تنوي أن تخلف والدها، وأنها وقفت في وجه كل المناورات التي تسعى إلى ضمها إلى مجلس الوزراء كوزيرة خارجية. ولما وصلت إلى أمريكا ظهرت في برنامج «واجه الصحافة» حيث سُئلت السؤال: «هل تودين أن تكوني رئيسة وزراء الهند؟» أجابت بلا تردد: «لا أود.» لكن فريق المذيعين والمحليلين بالبرنامج ظل يلح في استجوابها.

س: هل سترفضين الترشح لرئاسة الوزراء إن رُشحت وانتُخبت لذلك، هل سترفضين الاضطلاع بهذا المنصب؟

ج: في الواقع أنا لست عضواً في البرلمان الهندي، وفي الهند لا يمكنك أن تشغل منصباً في الحكومة إن لم تكن عضواً في البرلمان.

س: وإن كانت إرادة الشعب الهندي تتمنى ذلك للدرجة التي تجعلك الخيار الواضح لدى الأغلبية، هل ستضطلعين بمنصب رئيسة الوزراء؟

ج: أجد صعوبة شديدة في تصديق أنه ستكون هناك مثل تلك المطالبة العامرة.

س: لكنك لا تجزمين بأنك سترفضين الاضطلاع بذلك المنصب.

ج: حسناً، بإمكانني أن أجزم بنسبة ٩٠٪ بأنني سأرفض ذلك.<sup>34</sup>

بعدئذٍ سلمت إنديرا في واشنطن الرئيس جونسون خطاباً من نهرو حول مسألة كشمير وأبلغته بأن نهرو ينوي عقد محادثات في دلهي مع الشيخ عبد الله (الذي أُطلق سراحه في الثامن من أبريل في عام ١٩٦٣ بعد فترة سجن طويلة) ورئيس باكستان أيوب خان. ثم عادت إلى نيويورك في الخامسة والأربعين دقيقة صباحاً في ٢٩ أبريل، وقد وصل إلى دلهي في نفس اليوم الشيخ عبد الله الذي أُطلق سراحه حديثاً وأتى بدعوة من نهرو. فعادت إنديرا عصر ذلك اليوم إلى مطار بالام لاستقبال الشيخ. وفي تين مورتى عانق الشيخ إنديرا ونهرو اللذين لم يكن قد رآهما منذ أحد عشر عاماً. صدم الشيخ عبد الله من الحالة الصحية التي بدا بها نهرو، وكان اجتماع شملهما اجتماعاً حاراً. إلا أنه لم يسفر عن نتيجة حاسمة، مع أن نهرو حث الشيخ عبد الله على زيارة باكستان، ومع أنه نفسه وافق على لقاء الرئيس الباكستاني أيوب خان إن قدم إلى دلهي. كان واضحاً للشيخ عبد الله أن حالة نهرو لم تكن جيدة بالدرجة التي تسمح له هو نفسه بالذهاب إلى باكستان. لكن لأول مرة منذ الاستقلال ظهر أمل حقيقي في اندمال الجرح الذي تسببت فيه مسألة كشمير.<sup>35</sup>

أفادت رحلة إنديرا إلى أمريكا في التنفيس عنها لوقت قصير. لكن لما عادت إلى دلهي، في أوائل مايو، اشتد مرض والدها، ووصلت التساؤلات المستمرة حول مسألة «من يخلف نهرو» إلى نقطة صارت معها من جديد في أمس الحاجة للهروب. فكتبت لدوروثي نورمان في ٨ مايو تقول: «مسألة التفكير في مستقبلي برمتها تضايقني. وأشعر بأن عليّ أن أستقر خارج الهند لعام على الأقل أو نحو ذلك، وهذا يستلزم توفير دخل، خاصة من النقد الأجنبي ... لم أعد قادرة على الإطلاق على مقاومة رغبتني في الخروج من الهند، واحتمال الضغينة والغيرة والحسد المحققين بي. هذا فضلاً عن أنه لا يوجد من يمكنني التحدث إليه أو طلب النصح منه».<sup>36</sup>

في ١٣ مايو سافرت إنديرا ونهرو إلى بومباي لحضور اجتماع لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند. وفي ١٨ من ذلك الشهر بُثت على شاشات التلفزيون في نيويورك مقابلة صحفية أُجريت في دلهي معهما قال فيها نهرو إنه من المستبعد جداً أن تخلفه إنديرا في منصبه، ولما سُئلت إنديرا عن احتمال أن تُضطر إلى ذلك المنصب قالت: «لا يمكن أن أُضطر إليه إن كنت غير راغبة فيه».<sup>37</sup> أما في ٢٢ من الشهر نفسه فقد عقد نهرو أول مؤتمر صحفي له منذ سبعة شهور، حضره ما يزيد عن مائتي مراسل صحفي واستمر لأربعين دقيقة. وأثيرت فيه مسألة «من يخلف نهرو» بأكثر من طريقة مراراً، حتى قال

نهره ثائرًا في آخر الأمر: «لن تنتهي حياتي في وقت قريب جدًّا إلى ذلك الحد»، وقد أثار رد فعله ذلك تصفيقًا طويلًا وحارًّا.

في اليوم التالي، في ٢٣ مايو، سافرت إنديرا والدها على متن طائرة هليكوبتر إلى ديहरادون في عطلة لمدة ثلاثة أيام، ثم عادا إلى تين مورتى في عصر ٢٦ من ذلك الشهر. وخذ نهره للنوم مبكرًا مساء ذلك اليوم. لكنه استيقظ ليلاً عدة مرات، فأعطاه خادمه ناو رام، الذي نام على كرسي إلى جانب سريره، عقارًا مهدئًا.

بعدئذٍ، قبل فجر ٢٧ مايو، استيقظ نهره ثانية متوجعًا. لكنه ظل كذلك لساعتين دون أن يوقظ ناو رام. في السادسة والنصف صباحًا أرسل الخادم أحد رجال الأمن ليرسل في طلب إنديرا وطبيب نهره الدكتور بيدي، الذي أقام في البيت منذ إصابة نهره بالسكتة الدماغية لأول مرة في يناير. فلما وصلت إنديرا والطبيب بيدي إلى غرفة نهره بدا نهره غير مدرك لما حوله، وسأل: «ما الأمر؟» وبعدها بلحظات أغشي عليه من جديد. فقام الطبيب بيدي بمعاينته، وتبين أن شريانه الأورطي قد انفجر. كانت فصيلة دم إنديرا هي نفس فصيلة والدها، فقام الدكتور بيدي على الفور بسحب عينة من دمها ليجري لنهره نقل دم، لكن لم يجد ذلك شيئًا، وراح نهره في غيبوبة.

ظل نهره غائبًا عن الوعي طوال الصباح، وفيما هو كذلك بعثت إنديرا ببرقية إلى إنجلترا لراجيف، وبرسائل إلى كشمير لسانجاي الذي كان يقضي عطلة هناك. ثم هاتفت عمته اللتين كانتا في بومباي. ولم تهاتف أحدًا آخر سوى كريشنا مينون الذي قدم على الفور من بيته في الشارع المقابل لتين مورتى.

توفي نهره في الواحدة وأربعين دقيقة عصرًا، يوم الأربعاء ٢٧ مايو عام ١٩٦٤، بدون أن يفيق مطلقًا من غيبوبته. كانت إنديرا وكريشنا معه آنذاك. فطوال عصر ذلك اليوم الطويل الحار، وإلى بداية المساء، ظل إلى جانب جثمانه جالسين على الأرض لا يتحركان، أما مينون فبدت الكآبة على وجهه الضئيل، وكانت إنديرا «شاحبة الوجه».<sup>38</sup>

لكنهما لم يظلا وحدهما لوقت طويل. فبعد دقائق من وفاة نهره امتلأت أروقة وغرف ودرجات سلم تين مورتى بالناس. أولًا وصل تي تي كيه، وجافيجان رام وهما بيكيان. ثم تبعهما غيرهما من الوزراء، وانعقدت لجنة طارئة لمجلس الوزراء في غرفة بطابق سفلي في المنزل من الساعة الثانية إلى الثالثة بعد الظهر، وقررت اللجنة ترشيح وزير الداخلية جولدزاري لال ناندا الذي شغل المنصب الثاني بعد نهره في مجلس الوزراء لتولي منصب رئيس الوزراء مؤقتًا. كان الكل يتيه في أرجاء المنزل مصدومًا، فيما عدا اثنين بدوا كما لو أنهما يراقبان الوضع أكثر مما يتحسران عليه، وهما كاماراج وموارجي

ديساي، اللذان وقفوا متجاورين. لكن لم يقفًا معًا على الإطلاق، فكلاهما وقف على مدخل غرفة نهرو لساعات، فيما جال المعزون حولهما. وكان ديساي في الواقع يبدي ترحابه لمن يصعدون الدرج لوداع نهرو كما لو أنه «مضيف في حفل استقبال دبلوماسي».

بعدما خيم الليل وضع جثمان نهرو في نعش في بهو تين مورتى، وبجواره زهور السوسن والأدريون والورود ومغطى بالعلم الهندي، حتى يتسنى للناس إلقاء النظرة الأخيرة عليه طوال الليل. كان الجو لا يزال حارًّا جدًّا وقد تسبب معجبو نهرو المتناحرون في تساقط قطع الثلج الكبيرة التي وضعت لمنع جسده من التحلل إذ أخذت سيول المعزين التي لا حصر لها تصطف مروًّا بها. أما إنديرا فظلت على مقربة من النعش مع عمته فيجايا لاكشيمي بانديت التي قدمت من بومباي مع أختها كريشنا هاتيسينج، وبادماجا نايدو التي أتت من كلكتا. ولم يَنَمْ أحد، وظلت أبواب تين مورتى مفتوحة للزائرين طوال الليل فيما عدا ساعة واحدة، بين الثالثة والنصف والرابعة والنصف صباحًا.

وصل سانجاي غاندي من كشمير في صبيحة ٢٨ مايو، يوم الجنازة. أشرفت إنديرا على كل ترتيبات الجنازة ومنها مظهر الخدم. كان الخدم قد تفتطرت قلوبهم حزنًا، فلم يأكلوا أو يستحموا منذ وفاة نهرو. فطلبت منهم إنديرا في رقة أن يعودوا إلى بيوتهم ويغتسلوا ويحلقوا ذقونهم، ويغيروا ملابسهم. عن هذا قالت: «والدي كان دومًا يحب الأناقة والنظافة، لذا لن يكون حوله اليوم أي مظهر من مظاهر القذارة».<sup>39</sup>

حُمِلَ جثمان نهرو على عربة مدفع غادرت تين مورتى عند الظهر، وشقت طريقها رويدًا رويدًا في جو حار عبر الشوارع المتربة التي اصطففت فيها الحشود في نيو دلهي ومدينة دلهي القديمة إلى أن وصلت إلى نهر يامونا. وتبعته إنديرا وسانجاي (راجيف لم يكن قد وصل بعد من إنجلترا) في سيارة مكشوفة وكلاهما يرتدي ثوبًا من الخادي الأبيض، ويتصبب عرقًا بغزارة تحت الشمس الحارقة. استغرقت المسافة إلى النهر — التي يبلغ طولها خمسة أميال — أكثر من ثلاث ساعات، واصطف على طولها ما بين مليونين وثلاثة ملايين شخص، يقفون في صفوف يتراوح طولها بين عشرة أشخاص وعشرين شخصًا. وعند النهر كان هناك المزيد من الجموع، ضمت ملوكًا ورؤساء دول وشخصيات رفيعة المقام من جميع أنحاء العالم احتشدت عند الموقع الذي سيشهد حرق جثمان نهرو، واندفعت أمامًا لإلقاء نظرة أخيرة على زعيمها. وأشرف على حفظ النظام أكثر من ثمانية آلاف جندي من القوات الخاصة، وستة آلاف جندي من القوات المسلحة. مع أن نهرو نهى بوضوح عن إقامة مراسم دينية له في وصيته، فإن جنازته أقيمت وفقًا لمراسم حرق الموتى الهندوسية. كان ذلك هو القرار الذي توصلت إليه إنديرا، وقد

سَبَّب لها أَلماً عظيماً، (وانتقادات هائلة) لأنها كانت تعلم أنها تخالف رغبة أبيها، ودافعها من ذلك القرار غامض، إلا أنها تعرضت لضغط هائل من زعماء الدين وبعض الساسة فور وفاة أبيها، ومن المحتمل أن هؤلاء أقنعوها بأن الشعب الهندي لن يقبل بجنابة علمانية. وُضع جثمان نهرى على محرقة من خشب الصندل، ورتل رجال الدين الصلوات الفيدية، وأطلق حرس الشرف ثلاث طلقات ثم عُزفت موسيقى جنازية. وأشعل سانجاي الذي كان آنذاك في السابعة عشرة من العمر نيران المحرقة.

وبعد مراسم حرق جثمان نهرى بثلاثة عشر يوماً، قطعت إنديرا مسافة خمسمائة ميل سفراً بالقطار إلى الله آباد وهي تحمل جرة مملوءة برماد أبيها. اصطف على طول خط القطار الذي توقف في كل بلدة وقرية جموع كبيرة من الناس، فاستغرقت الرحلة خمساً وعشرين ساعة والتي تستغرق عادة عشر ساعات. في الله آباد أُلقي جزء صغير من رماد نهرى في نهر سانجام، مع بعض من رماد كامالا الذي جلبه الأخير معه من سويسرا قبل ثلاثة عقود واحتفظ به إلى جانب سريره على مر الأعوام إلى ذلك الوقت (سواء في الزنانات التي سُجن بها، أو في أناند بهافان، أو في منزله في يورك رود، أو في تين مورتى). ذكر نهرى تحديداً في وصيته أنه يرغب في أن ينثر رماده في الهواء في جميع ولايات الهند. لكن إنديرا احتفظت لنفسها برماده المخصص لكشمير. فذهبت إلى سارينجار، واستقلت طائرة صغيرة ونثرت رماد أبيها على الأرض التي نبت منها وعشقها.

بعدما مات نهرى غاصت إنديرا في اكتئاب شديد — اكتئاب أقل في حدته عن ذلك الذي عانته لدى وفاة فيروز — إلا أن السيطرة عليه وفهمه كان أصعب. فمع السن التي توفي فيها أبوها، بدت لها فكرة رحيله إلى حد ما صعبة التصديق. غير أن ما شعرت به آنذاك كان شعوراً أعقد بكثير من الحزن. مشاعرها تجاه أبيها كانت قوية، لكن متناقضة، فقد مرت علاقتهما بلحظات اغتراب وتقارب. في الحقيقة كان أحدهما أقرب إلى الآخر في السنوات الأولى من علاقتهما عندما عاشا مفترقين؛ وقتما كانت إنديرا في المدرسة ونهرى في السجن أو عندما أقامت في أوروبا وعاش نهرى في الهند. فمع ابتعادهما أمكن لهما التواصل بتبادل الرسائل الطويلة التي تفضي بمكنوناتها.

أما في خمسينيات القرن العشرين فقد تغير كل ذلك. ازدحمت حياتهما جدًّا، وصارت منهكة للغاية. ولما اجتمعا في تين مورتى صعب عليهما التحاور معاً بحرية وصراحة حتى لو تسنى الوقت لذلك — وتلك لم تكن الحال — وحتى لو أصبحا وحدهما (الأمر الذي لم يتحقق إلا نادراً). لهذا، في الأوقات الحاسمة، كالوقت الذي شعرت فيه إنديرا بأن

على والدها التمسك بقراره بالاستقالة، أو الوقت الذي قررت فيه ألا تترشح لرئاسة حزب المؤتمر من جديد، عادت إلى ما تعودته قديمًا من الكتابة إليه، مع أنهما كانا تحت سقف واحد آنذاك.

في السنوات الأخيرة من حياة نهرو كرست إنديرا حياتها له. لكن لم تربطها به علاقة عاطفية وثيقة، وفي الشهور الأخيرة من حياته خططت حقيقة لتركه هو والهند. فكانت النتيجة أن اختلط حزنها بشعور بالذنب والغضب، وفوق ذلك شعور بالألم. وربما شعرت بعد وفاته بأنها خذلته تمامًا. لقد كان بالقطع فخورًا بها على مر السنين التي عاشتها معه في تين مورتى. ومما لا شك فيه اعتمد عليها اعتمادًا كبيرًا. لكن، لا مجال لإنكار أنها لم تكن على قدر التوقعات التي تخيلها لها وأفضى بها إليها قبل زمن بعيد، على فرض أنها «وليدة عالم من المصاعب والمشكلات»، وابنة ثورة جديدة.

مات شيء ما في علاقتهما عندما أصرت على قرارها بالزواج من فيروز غاندي، ذلك القرار الذي سبب لها ولوالدها الآلام. فسر نهرو زواجها على أنه هروب من التحديات والمسؤوليات الكبرى التي تنتظرها. وفي أواخر الأربعينيات بدا أنه بدأ ينظر إلى ابنته بمزيد من الواقعية وتوصل إلى أنها تفتقر إلى الذكاء والبصيرة اللازمين للاضطلاع بدور مهم في مستقبل الهند. ولا شك أنها فطنت إلى رأي والدها فيها. وبعد تأخير — بعدما مات والدها — بدأت تتمرد عليه.

لكن الوحدة كانت هي أكثر ما أحزن إنديرا طوال صيف وخريف عام ١٩٦٤، فقد شعرت بأنها وحيدة أكثر من أي وقت مضى. وقد كان والدها هو صاحب الحضور والتأثير الأقوى في حياتها. فآنذاك لم تعد أرملة وحسب، بل صارت أيضًا يتيمة. بالطبع ظلت أمًا، لكن ابنها كانا في أواخر مرحلة المراهقة، والعلاقة بين الأم وأبنائها في تلك المرحلة نادرًا ما تكون وطيدة. ولم يعيش راجيف وسانجاي في البيت في العشرة الأعوام الأخيرة. واضطربت علاقة إنديرا بهما بعد وفاة فيروز. فوفقًا للكثير من الشخصيات المقربة لإنديرا، وفيهم صديقتها بوبول جايكار، بعد وفاة فيروز اتهم سانجاي أمه بأنها أهملت أباه منوهاً بأنها السبب في وفاته في سن مبكرة.<sup>40</sup>

وبصرف النظر عن كل ذلك أقام راجيف وسانجاي في إنجلترا عام ١٩٦٤ بعيدًا عن إنديرا. كان راجيف من ناحية يجتهد في الدراسة بجامعة كامبريدج، أما سانجاي فقد بدأ في خريف ذلك العام ما يُفترض أن تكون فترة تدريب لمدة ثلاثة أعوام مع شركة رولز رويس. لكن حتى لو كانا على مسافة أقرب إلى إنديرا فلم تجمع بينهما وبينهما آنذاك إلا القليل من القواسم المشتركة؛ فلم يهوَ أي منهما الكتب أو الفنون أو المسرح.



وكان كلاهما طالبًا متوسط المستوى، ولم يعنيا قط — سواء وهما صبيان أو رجلان — بقراءة كتب جدهما.<sup>41</sup> ولم يهتما بالشئون السياسية، وقد اعتزمت إنديرا في تلك الفترة أن تبقيهما بعيدًا عن عالم السياسة. على العكس من كل ذلك أُولع راجيف وسانجاي — شأنهما شأن فيروز — بالمعدات الميكانيكية، خاصة الطائرات والسيارات. فدرس راجيف الهندسة في جامعة كامبريدج، وجامعة إمبريال كوليدج. لكنه رسب في الامتحانات ولم ينجح في التخرج. أما سانجاي فلم يحاول الذهاب إلى جامعة قط، بل عكف بدلًا من ذلك على برنامج رولز رويس التدريبي في مدينة كرو، حيث تلقى أيضًا دروسًا ليلية في المعهد الفني المحلي.

بدأت معركة الخلافة لتحديد رئيس الوزراء الثاني للهند — كما ذكر كريشنا مينون فيما بعد في استياء — قبل أن يبرد جسد نهرو تقريبًا، واشتدت في الأيام التي أعقبت جنازته. ففي ٣٠ مايو، بعد ثلاثة أيام فقط من وفاته، عرج شاستري على إنديرا في تين مورتى يحثها على أن تضطلع بقيادة الهند. كانت الكلمات التي زُعم أنه استعملها لذلك بالضبط هي: «عليك الآن أن تكوني مسئولة عن الدولة.» لكن إنديرا رفضت بلا تردد معللة لذلك بأن حزنها يمنعها من التباري في الانتخابات أو الاضطلاع بالسلطة.<sup>42</sup> اقترح قادة آخرون من حزب المؤتمر على إنديرا المثل، لكنها صممت على رفضها. غير أنه ثمة شك فيما إذا كانت هذه الاقتراحات جادة أم لا. كانت إنديرا قبل أي شيء ابنة نهرو. من ثمَّ وجبت استشارتها، ووجب أيضًا أن تتحدد مسألة ترشحها من عدمه قبل أن يبدأ الصراع الحقيقي على الخلافة بين لال بهادور شاستري وموراجي ديساي. لو أرادت إنديرا أن تخلف والدها آنذاك لاضطر قادة حزب المؤتمر إلى الإذعان لرغبتها، لكن لم يكن هناك شك لدى أحد تقريبًا في أنها في ذلك الوقت شعرت حقًا بأنها غير قادرة على تولي السلطة. أيد كاماراج رئيس حزب المؤتمر والسينديكت شاستري، وبعد الكثير من المناورات السياسية انسحب ديساي على مضض من الانتخابات. ومع الأول من يونيو أجمع اختيار حزب المؤتمر على شاستري. مساء ذلك اليوم، بعد زيارة موقع حرق جثمان نهرو، عرج شاستري على إنديرا في تين مورتى، واقترح عليها من جديد أن تصبح رئيسة الوزراء. لكن هذا الاقتراح كان حقيقة بادرة لا معنى لها. فحتى إن لم ترفض إنديرا ثانية ذلك الاقتراح — الذي رفضته بالطبع — لم يملك شاستري أن يقدم منصب رئيس الوزراء لها. من ثمَّ صباح اليوم التالي في البرلمان تقدم رئيس الوزراء المؤقت ناندا باقتراح بانتخاب شاستري رئيسًا للحزب، وأيد ديساي الاقتراح، وجرى تنفيذه.<sup>43</sup>

لما وقف لال بهادور شاستري بقامته القصيرة (حيث يبلغ طوله بالكاد ١٥٢ سنتيمترًا) ليلقي كلمته في البرلمان أثنى على صمود إنديرا، وقال إنه يأمل أن «تواصل تعاونها معنا». فقد فطن إلى أن مجلس الوزراء يجب أن يضم فردًا من آل نهرو للحفاظ على الاستقرار، ولهذا عرض على إنديرا فعليًا منصبًا في مجلس الوزراء مباشرة. فيما بعد زعمت إنديرا أن شاستري عرض عليها منصب وزيرة خارجية الهند لكنها رفضته لأنها فضلت أن تضطلع بمنصب وزاري بمهام أسهل.<sup>44</sup> لكن ثمة من يشككون في زعمها ذلك. عللت إنديرا رفضها منصب وزيرة الخارجية بأن الحزن سيطر عليها، وبأنها أرادت أن تكرس نفسها لإعداد نصب تذكاري لأبيها. إذ احتل هذا قطعًا أهمية لها، فقد أشار شاستري بالفعل إلى أنه لا يرغب في الانتقال للعيش في بيت تين مورتى، من ثم تقرر أن يتحول ذلك البيت الذي كان سابقًا بيتًا للقائد الأعلى البريطاني إلى مكتبة ومتحف تذكاريين نهرو. وتقرر أن تشرف إنديرا على كل نواحي إنشائهما، وتلك كانت مهمة جسيمة، لذا رفضت إنديرا — حسبما زعمت — أن تضطلع بمنصب وزيرة الخارجية الشاق (هذا إن كان قد عُرض عليها) وآثرت أن تضطلع بمنصب وزيرة الإعلام الذي يتطلب جهدًا أقل. غير أن المهم في الأمر هو أنها وافقت فعليًا على الانضمام إلى حكومة شاستري.

ترى لماذا؟ قبل أقل من شهرين كتبت إلى دوروثي نورمان تصف كيف أنها صارت في أمس الحاجة للهروب من الهند والسياسة، وتمحورت رسائلها في العامين الماضيين فعليًا حول هذا الموضوع. لماذا إذن قبلت عرض شاستري؟ مما لا شك فيه، نبع هذا إلى حد بعيد من إحساسها بأن واجبها هو استكمال عمل أبيها، من دافع إبداء العزم على مواصلة مسيرته. لكن ثمة حقيقة واضحة وراء ذلك، وهي أنها احتاجت إلى وظيفة. فعندما توفي نهرو لم يترك لها بخلاف منزل آناند بهافان — الذي استنزف في حد ذاته أموالًا كثيرة — إلا القليل من الأملاك. ولم يتخذ أي تدابير مالية احتياطية من أجل مستقبل ابنته. فإنديرا لم ترث منه باستثناء ممتلكاته ومنزل الأسرة إلا عائدات بيع مؤلفاته، التي لم تكن ثابتة، ولم تدر مالا كثيرًا. فوق ذلك لم يعد لديها بيت في دلهي. ففي الواقع قبل قبل هذا الوقت تسلمت في وقت قصير رأت أنه ينم عن افتقار إلى الذوق إنذارًا بإخلاء بيت تين مورتى. لقد كان تولي منصب في مجلس شاستري الوزاري ليوفر لها راتبًا ويؤمن لها سكنًا في منزل حكومي من طابق واحد. وقد خُصص لها منزل حكومي تقليدي كائن في ١ شارع سافدارجونج رود حيث ستسكن فيه طوال العشرين عامًا القادمة من حياتها فيما عدا ثلاثة أعوام في أواخر سبعينيات القرن العشرين.

بالطبع كان على إنديرا أن تصبح أولاً عضواً في البرلمان كي تصبح عضواً في مجلس الوزراء. كانت الخطوة الطبيعية لذلك هي الترشح في الانتخابات الفرعية القادمة عن دائرة والدها الانتخابية، دائرة فالبور، غير أن أخت نهر السيدة فيجايا لاكشمي بانديت طمعت في ذلك المنصب، ولو أنها أوضحت لإنديرا أنها ستتحدى عنه إن رغبت في ذلك. لكن إنديرا شعرت بأنها عاجزة عن مواجهة انتخابات فرعية لعضوية المجلس الأدنى للبرلمان، واختارت بدلاً من ذلك أن تصبح عضواً في المجلس الأعلى له بتعيين من رئيس الهند.

جاء ترتيب إنديرا في مجلس شاستري الوزاري في المرتبة الرابعة بعد شاستري نفسه، ووزير الداخلية جولزاري لال ناندا، ووزير المالية تي تي كيه. غير أن هذا الترتيب لم يعكس الدور الذي اختارت في البداية أن تضطلع به، وذلك كان دوراً صغيراً. فنادرًا ما تحدثت في اجتماعات البرلمان أو المجلس الوزاري. مع ذلك رأى شاستري أنها قد تكون ذات نفع. وأرسلها في أكتوبر عام ١٩٦٤ إلى لندن لتمثيل الهند في مؤتمر رؤساء وزراء دول الكومنولث. وفي اليوم الذي أُعلن فيه في الصحف أن شاستري عين سواران سينغ ليكون وزيراً للخارجية، زار إندر مالهورا إنديرا. فوجدها نائراً، ومع أنها أخبرت الأخير بأنها لا تود الاضطلاع بذلك المنصب، شعرت بأنه كان على شاستري استشارتها في تعيين سواران سينغ.<sup>45</sup> لقد شعرت بأن شاستري استخف بها، ومنذ تلك اللحظة بدأ استيائها منه. عندها أدركت أنه أرادها في البرلمان، لكنه لم يرد أن تحتل منصباً ذا نفوذ. ولتثبت جدارتها وتؤكد خبرتها الكبيرة في مجال الشؤون الخارجية — وهي خبرة افترق إليها كل من شاستري وسواران سينغ بالمقارنة بها — سافرت من لندن إلى بلغراد حيث التقت تيتو، ثم قصدت موسكو حيث تابحت مع رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي الجديد أليكسي كوسيجين. وكان يُقال إن محادثتهما كانت «ودية جداً، وبناءة، وصريحة، تتسم بدفء المشاعر وصدقها».<sup>46</sup> وفيما بعد زارت فرنسا والولايات المتحدة ويوغوسلافيا وكندا ومنغوليا وبورما والاتحاد السوفييتي مجدداً ممثلة الحكومة الهندية.

كانت فترة تولي إنديرا لمنصب وزيرة الإعلام مثمرة إلى حد ما، إلا أنها كانت بالكاد فترة مثيرة للإعجاب. لقد اعتبرت الإذاعة والتلفزيون وسائل تعليمية. وأطلقت إذاعة باللغة الأردية، وإذاعة موجهة للدول الأجنبية، وأطالت ساعات البث، وشجعت على إذاعة المزيد من الأمور المثيرة للجدل على الهواء. إلا أن تأثيرها كعضو في الحكومة الهندية كان أكبر في المجالات التي تقع خارج حيز اختصاص وزارتها.

ومثال على ذلك موقفها إزاء أعمال الشغب التي اندلعت بسبب اللغة في مدراس في مارس عام ١٩٦٥. كان ذلك هو العام الذي نص فيه الدستور الهندي أن تحل اللغة

الهندية محل اللغة الإنجليزية كلغة رسمية للهند. وقد ثارت القلاقل في جنوب الهند الذي يتحدث التاميلية أيضًا، حيث بلغ الحد بمعارضتي اللغة الهندية حرق أنفسهم علنًا. قرر شاستري وكاماراج في دلهي الانتظار إلى أن تنتهي الأزمة، أما إنديرا فقد استقلت على الفور طائرة إلى مدراس، وهناك طمأنت المعارضين للغة الهندية، وساعدت في إحلال السلام من جديد. لكن شاستري انزعج جدًا من الطريقة التي تخطته بها. فناقش إندر مالهورترا معها الوضع فأخبرته بأنها لا تعتبر نفسها وزيرة الإعلام والإذاعة وحسب، وإنما أيضًا «واحدة من قادة الدولة»، وقالت بثقة: «هل تعتقد أن بإمكان تلك الحكومة أن تصمد إن استقلت اليوم؟ أقول لك إن هذا لن يحدث. نعم تخطيت رئيس الوزراء، وسأقوم بذلك ثانية إن دعت الحاجة لذلك.»<sup>47</sup>

كذا لعبت إنديرا دورًا محوريًا في أزمة أخرى في كشمير في أغسطس عام ١٩٦٥. ففي ٨ أغسطس تظاهرت بالذهاب إلى سارينجار لقضاء إجازة، غير أنها فطنت إلى أن الوضع هناك مشتعل. وقد علمت فور ما حطت طائرتها هناك تقريبًا بأن القوات الباكستانية متخفية في زي متطوعين مدنيين تأهبت للاستيلاء على سارينجار، وإثارة انتفاضة مؤيدة لباكستان في كشمير. فنصحت باستقلال أول رحلة جوية عائدة إلى دلهي، لكنها رفضت. ولم تمكث هناك وحسب بل اتجهت بطائرتها إلى جبهة القتال أثناء نشوب المعارك. فامتدحتها الصحافة بأنها «الرجل الوحيد في مجلس وزراء من نساء عجائز». وبعدئذ عادت إلى دلهي، ثم عادت مجددًا إلى كشمير لما بلغت الاعتداءات ذروتها في سبتمبر. وقالت لجمع كبير في سارينجار: «لن نفرط في شبر من أرضنا للمعتدين». وتفقدت المناطق الواقعة على حدود ولاية البنجاب، التي تضررت ضررًا بالغًا من القنابل، وزارت المستشفيات العسكرية في فيروزبور، ثم واصلت جولتها إلى أبوهار وفازيلكا وأمبالا وأمريتسار وجورداسبور، ووفقًا لتقارير المراسلين الصحفيين، «أينما ذهبت السيدة غاندي استقبلتها الحشود المتحمسة».

وكما حدث في مدراس سُرقت الأعضاء من شاستري. لكنه لم يظل بعيدًا عنها لوقت طويل. فقد لحقت الهزيمة بالجيش الباكستاني، وفرضت الهند وقف إطلاق النار في ٢٣ سبتمبر. وظلت كشمير جزءًا من الهند، ومع إحلال السلام ضُمن انتماء كشمير إلى الهند من جديد، وصار شاستري ذلك الرجل ضئيل الحجم بطلًا بين عشية وضحاها بعد أن كان أضحوكة ومحل سخرية. ووفقًا لإندر مالهورترا «استشاطت إنديرا غضبًا» إثر ذلك. ويزعم أن شاستري فاض به الكيل منها، فخطط للتخلص منها بإرسالها لبريطانيا كمندوبة سامية للهند.<sup>48</sup>

لكن آنذاك جذبت إنديرا حولها دائرة من الأصدقاء والمستشارين، كانت حقيقة جماعة حصرية تؤمن بأن إنديرا لا شاستري هي المستقبل. وقد ضمت تلك الدائرة دينيش سينغ، وهو أمير وسيم شغل منصب وزير الشؤون الخارجية، وأسوكا مهتا؛ نائب رئيس لجنة التخطيط، وإندر جوجرال؛ الذي بدأت معرفته الوثيقة بإنديرا من خلال أخيه الرسام ساتيش جوجرال الذي رسم إنديرا ونهرو، والصحفي روميش ثابار، وقد لعب دينيش وإندر دور «رأس الأفعى».<sup>49</sup> لكن لا شك أن جميع أفراد تلك الجماعة حرصوا إنديرا وأذكوا عداها لشاستري.

في الواقع لم تبدأ الشرارة الأولى لطموح إنديرا السياسي جدًّا إلا عند ذلك الحين (عام ١٩٦٤، و١٩٦٥)، ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى تأثير جماعتها عليها. فقبل أقل من عام كانت تحلم بأن تكون لها حياتها الخاصة في إنجلترا. أما آنذاك فقد صارت واثقة بأنها قائدة قومية، بإمكانها أن تتغلب على رئيس الوزراء متى أرادت، وأضحى ازدراؤها للحكومة (شاستري) واضحًا. فقد انتقدت شاستري صراحةً قائلة عنه للمراسل الصحفي كوليد نايار في مقابلة صحفية أجراها معها في نوفمبر عام ١٩٦٥ إن شاستري قد «حاد عن الطريق الصحيح»، وتناسى الاشتراكية وسياسة عدم الانحياز.<sup>50</sup> لقد كانت إنديرا إبان حياة نهرو محط اهتمام سياسي دائمًا، تحظى بنفس الاعتبار والاحترام الذي يحظى به والدها، لكنها آنذاك شعرت بأنها صارت مهمة ومتجاهلة، لذا بدا كما لو أنها تسعى إلى تأكيد حقها في خلافة أبيها.

إلا أن ذلك التفسير لا يفي بالحقيقة. لقد عاشت إنديرا في دائرة الضوء طوال حياتها تقريبًا، وفي قلب السلطة السياسية لعشرين عامًا. لقد تمننت من وقت لآخر أن تحظى بحياة عادية خاصة بها، إلا أن هذا كان وهمًا نوعًا ما. لم تكن حينذاك أقرب إلى التمتع بحياة عادية خاصة بها، ولكنها أُلقيت بعيدًا عن كرسي السلطة. وفوق ذلك رأت أن سياسات والدها وخططه أهملت. غير أن ما استحثها بقدر ذلك في صراعها مع شاستري هو كبرياؤها الذي جرح. فهي لم تكن لترضى بأن تقبع في الظل، في المرتبة الرابعة في مجلس الوزراء.

ومع هذا فقد ظلت إلى ديسمبر عام ١٩٦٥ تزعم أنه ليست لديها طموحات سياسية. فلما سمعت فيجايا لاكشيمي بانديت شائعات بأنها مع كل ذلك قررت بعد إنعام في التفكير أنها تريد تمثيل دائرة أبيها الانتخابية القديمة (دائرة فالبور)، وبأنها مستاءة من تمثيلها لها في البرلمان. كتبت إليها في السادس من ذلك الشهر تعرض عليها أن تتخلى لها عن منصبها. لكن إنديرا ردت عليها برسالة بريدية تجيبها فيها بحسم قائلة:

«لا أعلم مع من كنت تتحدثين، ولكن لا يوجد أي دليل إطلاقاً على أنني مستاءة من تمثيلك لغالبور ... ربما كان اشتغال المرء بالسياسة بدون أن تكون لديه طموحات سياسية غريباً، لكن أخشى أنني من ذلك النوع الغريب ... لم أشأ أن أنضم إلى أي من البرلمان أو الحكومة. وإنما كانت هناك أسباب طاغية آنذاك اضطرتني لقبول تولي وزارتي. والآن ثمة أزمات كثيرة تتوالى واحدة تلو الأخرى حتى إن كل مرة أقدم فيها على الانسحاب يبدو التوقيت غير مناسب».<sup>51</sup>

لا شك أن إنديرا لم تكن قط صريحة أو صادقة مع عمتها. لكنها بعدما كتبت لها أنها لا تحمل أي طموحات سياسية، ما لبثت أن أخبرت آخرين المثل تقريباً، وفي ذلك مجموعة المستشارين التي أرادت أن تحل محل شاستري. وفي ديسمبر عام ١٩٦٥ تناولت العشاء للمرة الأولى في منزل أحد المقربين منها وهو الصحفي اليساري روميش ثابار. كان ثابار وزوجته راج ناشطين مثقفين، وقد ظهر تحمس إنديرا لمصادقتهم عندما جاءت راج بسيارتها لبيت الأخيرة لتصحبها معها. عندها صاحت إنديرا تنادي سائقها الخاص الذي اختفى فجأة. فأشارت راج لها بأنها ليست بحاجة إلى السائق لأنها ستعيدها بنفسها إلى البيت، لكن إنديرا صممت على العثور على السائق قائلة لراج: «لا بد أن يعرف أين تقيمين، فهذه لن تكون آخر مرة». استمتعت إنديرا بأمسياتها مع ثابار وراج وأمتعتهم بنوادير عن قادة حزب المؤتمر خاصة شاستري، وعبرت عن شعورها بالأسى على حال حزب المؤتمر، و«تحدثت جدياً عن احتمال اعتزالها الحياة السياسية برمتها. لم تر أنها تملك فرصة للنجاح فيها ... وقد بدت صادقة في عزمها على أن تعتزل، وتكون مواطنة عادية».<sup>52</sup>

في ٣ يناير عام ١٩٦٦ سافر شاستري جواً إلى طشقند في آسيا الوسطى السوفيتية لعقد محادثات سلام مع رئيس باكستان أيوب خان توسط فيها أليكساي كوسيجين. وفي ١٠ يناير اتفق هؤلاء أخيراً على عقد تسوية. وفي أولى ساعات ١١ يناير أصيب شاستري بأزمة قلبية توفي على أثرها. وكان آنذاك في الواحدة والستين من العمر، ولم يكن قد أمضى في منصب رئيس الوزراء سوى تسعة عشر شهراً.

في اليوم نفسه في الواحدة والنصف صباحاً كانت إنديرا في منزلها عندما دق جرس الهاتف. كان المتصل هو سكرتيرها إن كيه سيشان، يتصل ليخبرها بأن شاستري مات في طشقند قبل نصف ساعة. أخبر سيشان إنديرا أيضاً بأن وزير الداخلية جولزاري لال ناندا اتجه مباشرة إلى بيت الرئيس بعدما أبلغ بوفاة شاستري. فطلبت إنديرا سيارة

وقصدت راشتراباتي بهافان مقر الرئيس. وهناك في الثالثة والربع صباحاً في حضورها هي ووزير المالية فقط، قَلَدَ الرئيس الهندي ناندا منصبَ القائم بأعمال رئيس الوزراء محلفاً إياه اليمين.

لما عادت إنديرا من منزل الرئيس في الرابعة صباحاً هاتفت روميش ثابار، وطلبت منه القدوم في الحال. وجد ثابار إنديرا متوترة وهي تصف مراسم تقليد ناندا في راشتراباتي بهافان؛ حيث وقف الرئيس مرتدياً لباس الدهوتي في مواجهة ناندا مرتدياً الزي نفسه وحولهما الخدم وهم يرتدون بزات مزركشة باللون الذهبي والأحمر. وبعدما فرغت إنديرا من وصف المشهد تطرقت إلى «السؤال الأساسي» الذي أرادت أن تسأله لثابار. آنذاك كانت على اتصال ببعض من مستشاريها، وهؤلاء حثوها على «السعي لتولي السلطة». وقد أرادت أن ثابار أن يدلي لها بدلوه في ذلك.

سألها ثابار: «ما الذي تودين القيام به؟»

أجابت: «لا شيء».

غير أن استدعاءها لثابار إلى بيتها في منتصف الليل لمناقشة تلك المسألة قد عنى بلا شك أن إجابتها تلك — على أحسن تقدير — فاترة. كانت تحاول أن تتعرف على موقف ثابار، وهو رجل توليه ثققتها. أرادت منه أن يقنعها أو يثنيها عن ذلك المستقبل الذي صار يناديها. ولاح لها فجأة؛ لأن الضلع الثالث من مثلث القوة الذي وقف في طريقها — فيروز غاندي وجواهرلال نهرو ولال بهادر شاستري — مات فجأة. فهي لم تكن لتصعد إلى قمة السلطة أبداً لو لم يختفِ هؤلاء الرجال من المشهد السياسي. لم تكن لتصعد بدلاً من فيروز لأنها كانت تولي زواجها وزوجها أهمية أكبر من مستقبلها السياسي، ولا بدلاً من نهرو لأنها ابنة بارة بأبيها، ولا بدلاً من شاستري لأن صناع القرار السياسيين والمؤثرين في الحكم في حزب المؤتمر آثروه.

في عصر ١١ يناير لما هبطت الطائرة التي تحمل جثمان شاستري وسط سحب الشتاء الكثيفة التي غطت دلهي استقبلها سيل من المعزين الذين ملئوا مطار بالام ومدرجاته. كان من بين المعزين الذين ينتظرون وصول رفات رئيس الوزراء منجم معروف يرتدي — مع برودة الجو الشديدة — ثوباً من الخادي الأبيض وخف شابالس. كان رجل دين يستشار كثيراً في الدوائر السياسية، فلما لمح أحد كبار قادة حزب المؤتمر من بعيد هرع إليه وسأله: «ما الذي تنبأت به النجوم؟» أجاب: «ثلاثة».

كان كل من نهرو وشاستري من الله آباد. والآن أنبأ المنجم أن رئيس وزراء الهند القادم سيكون كذلك من الله آباد.





الجزء الثالث

## رئيسة الوزراء إنديرا غاندي

«أوشك وادي الزهور أن تشتعل فيه النيران.»

الشيخ عبد الله من كتاب «لهيب التشينار»



## الفصل الثالث عشر

### أنا القضية

مع ما توقعه المنجم ظل الجواب على مسألة من يكون ثالث رؤساء وزراء الهند غير معروف لعدة أيام. وربما لم تكن إنديرا نفسها — كما أبدت لروميش ثابار — قد حسمت قرارها بعد. لكن الحال لم تكن كذلك لموراجي ديساي. فبعدما خسر مقعد رئيس الوزراء عام ١٩٦٤ صمم هذه المرة على الفوز به. إلا أنه لم يكن وحده. ففي صباح اليوم التالي لأدائه قسم تولي منصب رئيس الوزراء المؤقت سعى جولزاري لال ناندا إلى كسب تأييد إنديرا له في الترشح لمنصب رئيس الوزراء. وفي مساء الثلاثاء ١١ يناير عام ١٩٦٦، أي قبل مرور أربع وعشرين ساعة على وفاة شاستري، ترشح وزير الدفاع واي بي تشافان لمنصب رئيس الوزراء. وبعد ذلك بيومين أصبح عدد المتنافسين على مقعد رئيس الوزراء سبعة: ديساي، وإنديرا، وناندا، وتشافان، وإس كيه باتيل، وسانجيفا ريدي، بخلاف كاماراج نفسه. لكن كاماراج، مع كونه سياسياً محنكاً، افتقر إلى التأييد القومي. فيذكر أنه قال لمن حاولوا إقناعه بالترشح لخلافة شاستري: «كيف وأنا لا أتحدث الإنجليزية ولا الهندية؟»<sup>1</sup>

مهد رفض كاماراج الترشح لمنصب رئيس الوزراء الطريق أمام إنديرا، خاصة فيما يتعلق بالانتخابات العامة المزمع عقدها العام التالي، التي قُدِّر لها أن تصبح أول انتخابات عامة تعقد منذ وفاة نهرو. تمتعت إنديرا بالزعامة على المستوى القومي، وكانت تتحدث اللغتين الإنجليزية والهندية، ولم يُعرف عنها أنها تتعاطف مع طائفة بعينها أو منطقة محددة أو ديانة بذاتها أو فصيلة دون أخرى، وتمتعت بالشعبية بين المسلمين والهاريجان وغيرهم من الأقليات والفقراء. وفوق كل شيء فهي سليمة آل نهرو. لكل هذه الأسباب وقع عليها اختيار السينديكيت الذي اختار شاستري فيما مضى لمنصب رئيس الوزراء، وصار وقتئذٍ يفكر في إنديرا.

غير أن طموح ديساي وإصراره كانا من العوامل التي ضمنت استمرار المعركة بعدما انسحب بقية المتنافسين من السباق. قبل تسعة عشر شهرًا، أي بعد وفاة نهرو، حل شاستري محل نهرو في منصب رئيس وزراء الهند بعد حصوله على موافقة الحزب بالإجماع؛ موافقة نسقها بنجاح كاماراج رئيس الحزب. والآن، وبعد وفاة شاستري، بات من المحتم نشوب معركة علنية ومحتدمة بين أعضاء حزب المؤتمر الوطني في البرلمان سواء في مجلس النواب أو في مجلس الولايات. ما أعاب ديساي من منظور السينديكييت هو أنه رجل مستقل برأيه، يتشدد له ويستبد به، لقد اتصف ديساي بكل عيوب غاندي، وفي الوقت نفسه لم يمتلك أيًا من فضائله. ولم تكن أفعاله سوى نتيجة لآرائه المتشددة وقناعاته السياسية؛ هو رجل محافظ من الناحية الشخصية والسياسية. وكان هندوسيًا ونباتيًا متزمتًا أيضًا، لا يقرب المسكرات، وأمسك عن ممارسة الجنس منذ السابعة والعشرين من عمره. رفض ديساي كل ما أتى به الغرب من علوم وطب وأثر طرق التغذية التقليدية، ومن بينها شرب كوب من بوله الخاص كل صباح.

امتلك إنديرا كل المزايا وافترق ديساي إليها كلها، رأى قادة حزب المؤتمر أن ضعف إنديرا هو أفضل مزاياها، أو — بالأحرى — اعتقادهم بأنها ضعيفة. وفي حقيقة الأمر كان اختيار إنديرا قائمًا على سلبياتها وليس إيجابياتها؛ فقد جرى اتخاذ القرار استنادًا على «غموضها وعدم وضوح اتجاهها» السياسي. أقنع كاماراج تابعيه أن إنديرا ستفعل كل ما يأمرونها به، وسيتحكمون في مسرح الأحداث كما لو كانوا يستخدمون جهاز تحكم عن بُعد. وبذلك يتاح لهم التمتع بأفضل أنواع النفوذ السياسي على الإطلاق؛ النفوذ الذي يعطي صاحبه «حق اتخاذ القرارات بدون عبء تحمل مسؤوليتها».<sup>2</sup> اعتقد قادة حزب المؤتمر أن ذلك ممكن، لا لأن إنديرا افتقرت إلى الخبرة الإدارية وحسب، بل لأنها أيضًا كانت امرأة. فالفكرة التي قام عليها اختيارها هي أن تشغل هذا المنصب على نحو صوري فحسب شأنها شأن سوشيता كريبالاني رئيسة حكومة ولاية أوتار براديش، لقد افترض كاماراج والسينديكييت أن إنديرا ستكون «أداة طيعة ضعيفة ... كقطعة من الصلصال تُشكّل حسب الحاجة».<sup>3</sup> وفوق ذلك، ولأنها ابنة نهرو، ستكون مساعدتها ضرورية ليفوز حزب المؤتمر بانتخابات عام ١٩٦٧، وبعد تلك الانتخابات يمكن الإتيان ببديل مناسب ليخلفها. وعلى حد تعبير أحد أعضاء الحزب الذي سيشغل في المستقبل منصب رئيس وزراء الهند؛ ناراسيمها راو، لم تكن إنديرا إلا «أداة لجمع الأصوات». وبعد الانتخابات كان المخطط أن «تراجع عن مكانتها أو يجبروها هم على التراجع ... ليتولى قائد أكثر خبرة ... إدارة شؤون الدولة».<sup>4</sup>

لم تكن إنديرا خيار كاماراج وحسب، بل أيضًا خيار دي بي ميشرا رئيس حكومة ولاية مادهايا الذي لعب دورًا أساسيًا في تحديد خليفة نهرو الثاني، وذلك لتأثيره على رؤساء حكومات الولايات الأخرى. في الواقع، في ١١ يناير، في الساعة الخامسة والنصف عصرًا، أي بعد وفاة شاستري ببضع ساعات فقط، هاتفت إنديرا ميشرا في مدينة بوبال وطلبت منه القدوم فورًا إلى دلهي؛ إذ كانت ترى أنه سيكون حليفًا قويًا لها.<sup>5</sup> وقد كانت محقة في ذلك؛ فقد استطاع ميشرا أن يقنع ثمانية من رؤساء حكومات الولايات الأخرى بتأييدها. وقد أصدر هؤلاء في ١٥ يناير الثاني بيانًا يؤيدون فيه إنديرا. وفي اليوم نفسه انضم إلى مؤيديها أربعة رؤساء حكومات آخرين، فصارت تحظى بتأييد اثني عشر رئيس حكومة من مجموع أربعة عشر. وفي مساء ذلك اليوم احتشدت جموع كبيرة خارج منزلها في سافدارجانج رود لتهنئتها.

كان من أهم حلفاء إنديرا أيضًا رئيس الهند آنذاك رادهاكريشنان سارفيبالي. بدا رادهاكريشنان ظاهريًا طوال الصراع الدائر بين إنديرا وديساي أنه لا يهتم بما يدور على الساحة، ووقف منه موقف المحايد، غير أنه في حقيقة الأمر كان من مؤيدي إنديرا بل «دربها على كيفية المناورة». كان المفترض أن يكون رادهاكريشنان حياديًا بحكم أنه الرئيس، لكنه أعلن براءته من تهمة التصرف على نحو غير لائق وبرر مؤازرته لإنديرا بأنها نابعة من صداقته القديمة لنهرو وبأنه «يجب أن يكون ناصحًا لتلك المرأة المترددة التي تعوزها الخبرة». لكن وفقًا لإس جوبال ابن رادهاكريشنان تعدى دور رادهاكريشنان إسداء النصح لإنديرا حول «توقيت اتخاذ الخطوات الحاسمة». كان الرئيس يتشاور سرًا مع قادة المؤتمر البارزين ويبلغ إنديرا بمن يؤيدها أو يعارضها.<sup>6</sup>

بعد ذلك، بعد عملية تصفية للمرشحين، برزت إنديرا كمرشحة ائتلاف، لا لأنها مرشحة قوية، بل لأن منافسيها اتصفوا بكثير من السلبيات والعيوب، وأيضًا لحاجة السينيديكيت ورؤساء وزراء حكومات الولايات لمرشح بإمكانه هزيمة ديساي.<sup>7</sup> وعت إنديرا ذلك تمامًا. فقالت تحديدًا: «لم يكونوا مؤيدين لي بقدر ما كانوا معارضين لديساي».<sup>8</sup> غير أنها لم تعلن أنها تنوي الترشح قط. بل انتظرت «أن تدعى» إلى ذلك؛ فكانت مدينة بالفوز لكاماراج وميشرا ورادهاكريشنان لترشيحهم لها، ولوالدها لمنحه لها اسمها وتهيتها لهذا المنصب، ولديساي لإصراره على إقامة اقتراع سري. لقد كانت — ببساطة شديدة — الشخص الوحيد الذي يملك فرصة أكيدة للفوز.<sup>9</sup>

سرت شائعات تفيد أن عمة إنديرا فيجايا لاكشيمي بانديت أيدت ديساي، لكن بعدما اتضح لها أن كفة إنديرا هي الراجحة أصدرت بيان تأييد لها، إلا أن هذا البيان حمل بين

ثناياه بعض عيوب إنديرا. قالت: «لا شك أن إنديرا غاندي ستصبح رئيسة وزراء الهند المقبلة. نحن آل نهرو نفتخر بعائلتنا. وعندما يقع الاختيار على أحدنا ليكون رئيس وزراء ستعم البهجة. إن السيدة غاندي تمتلك مؤهلات المنصب، ما ينقصها الآن هو الخبرة. ومع بعض الخبرة ستصبح رئيسة وزراء جيدة ... إن صحتها ضعيفة جدًا، لكن بمساعدة زملائها ستتدبر أمرها.»<sup>10</sup>

أشرق يوم ١٩ يناير من عام ١٩٦٦، اليوم السابق لانتخابات ممثلي حزب المؤتمر في البرلمان بطقس بارد وسماء ملبدة بالغيوم. استيقظت إنديرا في وقت مبكر جدًا وانتقلت ملابسها بعناية، فارتدت ساريًا أبيض من قماش الخادي (الساري نفسه الذي ارتدته عندما صارت رئيسة لحزب المؤتمر)، وشالًا كشميريًا بلا أي زخارف، وعقودًا من اللون البني الغامق تعودت ارتداؤها على أنها توائم حظ في الأوقات الصعبة. أهدتها إياها واحدة من معلمي كامالا الروحيين تدعى أناندامايي، وهي «قديسة» بنغالية. قبل أن تستيقظ دلهي ركبت إنديرا سيارتها وجابت شوارع المدينة الخاوية قاصدة راجغات وشانتي فانا على ضفاف نهر يامونا، ووقفت في صمت أمام بقعتي حرق جثة المهاتما غاندي وجثة أبيها. وبعدها قصدت تين مورتى الذي كان قد صار متحفًا قومياً إكراماً لأبيها، فسارت بين أروقته الصامتة، حتى وقفت أمام صورة أبيها.<sup>11</sup>

بعد تين مورتى اتجهت إنديرا إلى البرلمان برفقة جولزاري لال ناندا القائم بأعمال رئيس الوزراء، وعضو البرلمان سوبهادرا جوشي التي عملت قبل سنوات عديدة معها في معسكر دلهي للاجئين وقتما خضعت الهند للتقسيم. وعلى مدخل البرلمان أهدى أحد الأشخاص إنديرا باقة من الزهور. اقتطف منها سوبهادرا زهرة وشبكته بدبوس في شال إنديرا.<sup>12</sup> وبتلك الزينة دلفت إنديرا إلى مجلس البرلمان كما كان أبوها يفعل دائماً، فقد كان يضع في عروة معطفه الشيرواني زهرة ندية.

بدأ اجتماع لجنة الانتخابات بحزب المؤتمر الوطني الهندي في الحادية عشرة صباحاً، واستمر الاقتراع السري فيه لأربع ساعات ونصف الساعة. حضر الاجتماع خمسمائة وستة وعشرون عضواً برلمانياً من حزب المؤتمر أدلوا بأصواتهم واحداً بعد واحد في غرفة اقتراع سرية مغلقة. وبعدها جرى عد الأصوات، وهي مسألة استغرقت كثيراً من الوقت والجهد. وخارج قاعة البرلمان الكبرى المستديرة اجتمع حشد كبير. فلما خرج مسئول تنظيم أنشطة الحزب إلى شرفة القاعة لإعلان نتيجة الاقتراع سأله أحد المحتشدين: «الفائز ذكر

أم أنثى؟» أجاب: «أنثى»، فهلل الحشد. لقد تغلبت إنديرا على ديساي بثلاثمائة وخمسين صوتاً مقابل مائة وتسعة وستين صوتاً، (وكلاهما لم يدل بصوته في هذه الانتخابات).

داخل قاعة البرلمان الكبرى، عندما أعلن أحد مسؤولي الحزب النتائج، سارت إنديرا إلى المنصة، ونطقت أولى كلماتها بعد أن أصبحت رئيسة للوزراء. تحدثت إنديرا باللغة الهندية قائلة: «إن السعادة تملأ قلبي، لا أعلم كيف أشكركم ... وأنا أقف أمامكم الآن يحضرني قادتنا العظام: المهاتما غاندي الذي نشأت في ظله وتأثرت به، وأبي البانديت، ولال بهادر شاستري. هؤلاء القادة أضاءوا لنا الطريق، وأتمنى أن أسير على دربهم.»<sup>13</sup> وقبل أن تغادر قاعة البرلمان الكبرى قامت ببادرة احترام أخرى؛ فأتجهت إلى حيث يجلس منافسها موراجي ديساي وسألته وهي تحييه بالطريقة الهندية التقليدية فضمت يديها ووضعتهما أمام صدرها.

«هل تبارك نجاحي؟»

أجابها باقتضاب: «لك مباركتي.»

ثم خرجت إنديرا من البرلمان لتجد في انتظارها حشداً مهتلاً استقبلها بالهتاف وأكاليل الزهور. ودوت الهتافات: «تحيا إنديرا غاندي»، و«تحيا الزهرة الحمراء». فمئذ اللحظات الأولى من تولي إنديرا رئاسة الوزراء كان ينظر إليها على أنها وريثة أبيها، بل على أن روحه تسكن جسدها.

بعدها بخمسة أيام، في ٢٤ يناير، أدت إنديرا قسم رئيس الوزراء. فرفعت يدها اليمنى ولتؤكد على صورتها العصرية والعلمانية أدت القسم قائلة: «أؤكد بكل صدق إنني سوف» بدلاً من أن تقول «أقسم بالله إنني سوف».

كانت إنديرا هي المرشح الذي وقع عليه اختيار السينديكيت. لذا دانت له بالفضل، ونتيجة لذلك استطاع كاماراج أن يغلب رأيه في الإبقاء على أغلب أعضاء مجلس وزراء شاستري. وفوق ذلك أجبرت إنديرا على الإبقاء على وزير الداخلية جولزاري لال ناندا — الذي شغل مرتين منصب القائم بأعمال رئيس الوزراء — رغم رغبتها في التخلص منه. أما الوزراء الجدد الذين استطاعت إنديرا أن تضمهم إلى وزارتها فهم: المتقف الاشتراكي أسوكا ميهتا وتقلد منصب وزير التخطيط، وجي إس باتاك الذي شغل منصب وزير العدل، وفخر الدين علي أحمد — من ولاية آسام — الذي اضطلع بإدارة وزارة الري والطاقة، والزعيم جاجيفان رام — وهو من طائفة الهاريجان — الذي مُنح وزارة العمل. أما ديساي، فطبعاً — كما اعترف في سيرته الذاتية — لم يُدع إلى الانضمام إلى مجلس الوزراء، إلا أنه قال: «وحتى لو دعيت، لم أكن لأقبل بذلك.»<sup>14</sup>

في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد خمسة أيام من أداء إنديرا لليمين، ظهرت صورتها على الغلاف الملون لمجلة «تايم» الذي حمل عنواناً يقول: «الهند المضطربة بين يدي امرأة»، وقد بدت في تلك الصورة امرأة بلغت حد الكمال وقد خط الشيب شعرها ووضعت وردة حمراء في فستانها. في تلك الأثناء حزمت المؤلفة بيتي فرايدان — التي تصدر كتابها «الغموض الأنثوي» قائمة أفضل الكتب مبيعاً — حقائقها مسافرة إلى الهند لكتابة مقال طويل عن شخصية إنديرا لحساب مجلة «لاديز هوم جورنال». شرحت فرايدان في مقالها كيف استطاعت «السيدة غاندي أن تحطم الغموض الأنثوي». أما في لندن فقد كتب جون جريج في صحيفة جارديان يقول: «على الأرجح أنه على مر التاريخ لم يسبق لامرأة أن حملت عبئاً أكبر، ومما لا شك فيه لم يسبق لدولة بأهمية الهند أن أكلت كل تلك السلطة إلى امرأة بناءً على ديمقراطية ... إذا نجحت إنديرا في إدارة منصبها فستصيب المفاهيم السائدة عن سيادة الرجل في مقتل».<sup>15</sup>

تزامن صعود إنديرا إلى منصب رئيس الوزراء مع نمو الحركة النسائية في الغرب، ومع أن إنديرا نفت أنها من أنصار تلك الحركة، وكانت تنزعج لدى سؤالها عن دورها باعتبارها امرأة تخوض مجال السياسة، فقد سلطت الحركة النسائية الضوء عليها. كان دعاة مساواة المرأة بالرجل أمثال فرايدان يأملون أن تصبح المكانة القيادية القوية التي بلغت إنديرا وضعاً طبيعياً للمرأة، وليس خرقاً للمألوف إلى الأبد. ومع أن إنديرا داومت على نفي انتمائها إلى تلك الحركة فإنها كانت صريحة ومعبرة للغاية عندما تتحدث إلى الكاتبات أمثال فرايدان، والصحفية أوريانا فالاسي، والكاتبة السابقة لسيرتها أوما فاسوديف، والباحثة الأمريكية ماري كاراس.

أما داخل الهند فلم يُنظر إلى إنديرا على أنها رائدة للحركة النسائية. بل كان جنسها بوجه عام يضعها في موقف ضعف، وهذا مما يعكس دافع السينديكييت من تنصيبها رئيسة للوزراء. فبعد وقت قصير من انتخاب حزب المؤتمر الوطني لإنديرا رئيسة للوزراء كتبت جريدة «إيكونوميك أند بوليتيكال ويكلي» التي تصدر في بومباي — ما ينم عن بصيرة جديرة بالاعتبار — «إن المرأة التي تتولى مقاليد الحكم تظل تحت وطأة القيود الاجتماعية إلى أن توطد قدميها في منصبها. ففي أول فترة حكمها يود قادة مختلف الجماعات أن يوجهوها ويسيطروا عليها، لذا تنشأ بين هؤلاء صراعات فصائلية. وفي تلك الحالة إما أن تقنع الحاكمة الكل بأنها غير منحازة إلى جانب دون الآخر — كما فعلت الملكة إليزابيث الأولى — فتنعم بكرسي الحكم لفترة طويلة، وإما أن تفشل في تجاوز تلك الفترة المضطربة من الحكم».<sup>16</sup>



في الشهور الأولى لإنديرا رئيسة للوزراء استحوذ على الأذهان وترسخ فيها فكرة وجود سيطرة ذكورية خفية على الحكم. وكان دينيش سينج بالأخص، الأمير السابق لضبعة كالاكانكار، الوسيم الكيس هو من رسخ في الأذهان أنه القائم بهذا الدور. ففي مجلس وزراء إنديرا الأول شغل منصب وزير دولة، ومنذ الأشهر الأولى لإنديرا في منصبها اعتمدت عليه اعتمادًا كبيرًا. ولم يكن نفوذه خافيًا على الأنظار. فقد ورد في أحد القرارات الرئاسية ما يعني أن لإنديرا أن تمنح سينج «ما ترى من الصلاحيات»، وفوق ذلك، في فبراير، بعد شهر من تولي إنديرا رئاسة الوزراء، اتهمت في البرلمان بأنها جعلت سينج رئيسًا شبه فعلي للوزراء.<sup>17</sup> ويذكر أيضًا أن المؤرخ في إن داتا عندما أخبر كريشنا مينون أنه أهدى رئيس الوزراء نسخة من كتابه عن سيد محمود، قال له كريشنا: «آه، أتعني دينيش سينج؟» ووفقًا للصحفي كولديب نايار فإن «كل ورقة مهمة تتسلمها أو ترسلها السيدة غاندي تمر على دينيش سينج» حتى عام ١٩٦٧.<sup>18</sup>

كانت إنديرا تعتمد على سينج وتتشاور معه في كل الأوقات. فدارت بطبيعة الحال شائعات تقول إنه عشيقها، وتلك شائعات أزكاها سينج بنفسه. فلما علمت إنديرا أن سينج يستغل علاقته الوثيقة بها لمصلحته الشخصية وتأكد لها ذلك أبعده؛ في البداية همشت دوره بلباقة ثم همشت دوره كثيرًا بعد ذلك. وعندئذ حل سكرتير إنديرا بي إن هاكسار، الذي كانت تثق به تمام الثقة، محل سينج وصار مستشارها الأول. ثم هدد سينج بالاستقالة من مجلس الوزراء عام ١٩٦٩، لكن إنديرا قطعت الطريق عليه فنقلته إلى وزارة الشؤون الخارجية خلافًا لرغبته.

في يناير عام ١٩٦٦ تردت الهند إلى حال أسوأ مما كانت عليه في أي وقت إبان حكم نهرو أو شاستري. عانت البلاد جفافًا شديدًا أدى إلى نقص الغذاء وحدث المجاعات في أجزاء كبيرة منها. وتسبب ذلك في حدوث قلاقل، خاصة في كيرالا التي وقعت فيها أعمال شغب احتجاجًا على نقص الأرز. تردت حالة الاقتصاد الهندي بسبب استفحال مشكلة التضخم وعدم كفاية النقد الأجنبي. وظهرت في البنجاب دعوات تطالب بإقامة ولاية بنجابية مستقلة تتحدث اللغة البنجابية. وهددت قبيلة ناجا في شمال شرق الهند بالاستقلال عن البلاد. والأسوأ من ذلك — على الصعيد الدولي — أن العلاقات توترت بين الولايات المتحدة والهند بسبب إمداد الولايات المتحدة باكستان بالأسلحة عام ١٩٦٥ وتآزمت العلاقات أكثر بعد دخول الولايات المتحدة الحرب مع فيتنام.

بعد شهر فقط من تولي إنديرا رئاسة الوزراء وجهت خطابًا للجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في اجتماع عُقد في جايبور. وكانت أزمة الغذاء هي الأكثر إلحاحًا آنذاك. أعلنت إنديرا في الاجتماع بطريقة دراماتيكية أنها ستمتنع عن أكل الأرز حتى تتوفر كميات كافية منه في كيرالا. طالب أعضاء الحزب بإلغاء قرار تقسيم مناطق الغذاء (الذي يقضي بعدم نقل المواد الغذائية من منطقة لأخرى دون موافقة حكومية صريحة) حتى يمكن نقل الأغذية من المناطق التي تمتلك فائضًا غذائيًا إلى المناطق التي ضربتها المجاعات، غير أن إنديرا تعاملت مع ذلك المطلب بطريقة تنم عن نقص الخبرة، والأدهى أنها في غمرة الجلبة التي سادت الاجتماع طالبت بسحب التعديل الذي يقترح إلغاء قرار تقسيم مناطق الغذاء. وتعهدت بمراجعة سياسة الحكومة الغذائية، فاضطر كاماراج إلى تولي مهمة السيطرة وإعادة النظام إلى الاجتماع.

في دلهي ندی جبین إنديرا خجلًا من أدائها المزري في جايبور. و«في ألم ومرارة» أخبرت صديقتها بوبول جاياكار كيف أن عمته فيجايا لاكشمي بانديت زعزعت ثقته بنفسها في طفولتها عندما نعتتها بأنها غبية وقبيحة. فقد قالت لبوبول في ذلك: «لقد حطم ذلك شيئًا داخلي، فمهما كانت درجة استعدادي ينعقد لساني وأتقهقر إذا هاجمني أحد.» واعترفت بأنها تخشى جلسة البرلمان القادمة.<sup>19</sup>

وقد اتضح أنها محقة في خوفها؛ فقد بدت في حال يرثى لها عندما اعتلت المنصة في البرلمان. فباستثناء الجولة التي قامت بها إلى الولايات المتحدة لإلقاء محاضرات (والتي بدا فيها أن المحاضرات التي ألقتها ليست من كتابتها)، تكوّنت خبرة إنديرا في الخطابة في المقام الأول من القيام بالحملات الانتخابية. أما في البرلمان فقد ثبت أن أدائها ضعيف؛ إذ كانت لحظات الصمت تتخلل كلامها، وافترقت إلى سرعة البديهة في الرد. فقد قاطعها معارضوها بالتعليقات الساخرة، وحاول زملاؤها إنقاذًا للموقف أن يمرروا لها قصاصات صغيرة من الورق، إلا أنها كانت مع ذلك تتلعثم في الرد. فلقبها الاشتراكي رام مانوهار لوهيا بلقب «الدمية الخرساء»، وقد لازمها ذلك اللقب حتى بعد أن بدأت تكتسب الجرأة على الحديث. وقد أثارت تلك البداية السيئة خوفها من البرلمان وأيضًا ازدراءها له، وبمرور الوقت بات حضورها لجلسات البرلمان يتناقص شيئًا فشيئًا. وأخذت تلغي دوره وتتحاشاه أكثر فأكثر.

أما فيما يتعلق بمنطقة البنجاب فقد أيدت إنديرا تقسيمها كما فعلت قبل خمسة أعوام في بومباي، لكن هذه المرة كانت منطقة البنجاب ستنقسم إلى ولاية هارايانا، وهيماشال براديش، وولاية تدعى البنجاب أصغر بكثير من منطقة البنجاب. غير أن

ذلك التقسيم لم يكن عائداً إلى اللغة إلا في جزء منه. فوليتا هاريانا وهيماشال براديش يسكنهما عدد ضئيل من السكان السيخ (عام ١٩٦٠ لم يزد عدد السيخ في الولايتين عن ٥٪ و ٢٪ من مجموع السكان على الترتيب)، في حين نسبة السيخ في ولاية البنجاب الجديدة ستكون ٥٢٪. ومع أن تقسيم البنجاب إلى ثلاث ولايات يمكن أن يكون له ما يبرره وهو أنه قائم على أساس اللغة، فإنه كان يهدد مسألة أخرى ذات طبيعة سياسية وطائفية حساسة بدرجة أكبر بكثير، ستكون لها فيما بعد عواقب كارثية.

في أواخر مارس عام ١٩٦٦ زارت إنديرا الولايات المتحدة، كانت هذه أول زيارة خارجية لها وهي رئيسة وزراء. وقد أكدت أن رحلتها تلك ليست إلا زيارة ودية، لا تسعى بها إلى استدرار عطف الولايات المتحدة. غير أنها أخبرت الصحفي إندر مالهورتا سرّاً أن مهمتها الرئيسية هي «الحصول على الغذاء والنقد الأجنبي من دون أن يبدو أنها تطلبهما».<sup>20</sup> كانت الولايات المتحدة قد أوقفت معوناتاها إلى الهند (وباكستان أيضاً) إبان الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٦٥، وكانت آنذاك تضع شروطاً لإعادة المعونات إليها. وكذا فعل البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي اللذين اشترطا أن تنخفض قيمة الروبية. فأوكلت إنديرا مهمة دراسة تلك المسألة إلى إحدى اللجان. ضمت اللجنة وزير المالية ساشين شودهوري ووزير التخطيط أسوكا ميهتا ووزير الغذاء سي سوبرامانيام، وأيد الوزراء الثلاثة جميعاً خفض قيمة الروبية. وشاركهم هذا التأييد أيضاً بريج كومار نهرو ابن عم إنديرا الذي كان سفير الهند في الولايات المتحدة. وقبل أن تتجه إنديرا إلى الولايات المتحدة أصدرت تلك اللجنة تقريراً لصندوق النقد الدولي يشير إلى نية الهند تخفيض قيمة الروبية، إلا أنها لم تحدد جدولاً زمنياً أو تضع إطاراً لذلك. لكن هذا التقرير لم يُعلن عنه.<sup>21</sup>

نُظر إلى زيارة إنديرا إلى الولايات المتحدة آنذاك على أنها سجلت نجاحاً كبيراً، وتعود وجهة النظر هذه بصورة كبيرة إلى أن الرئيس الأمريكي ليندون جونسون وهو رجل ضخم وقوي البنية من تكساس رأى أن إنديرا امرأة جذابة بدرجة لا تقاوم. لقد أيقظت سحرها الدفين وبدأت يومها متألفة، صفت شعرها عالياً في شكل مستدير، وزينت وجهها بأنواع الماكياج، وارتدت الحلي. (بعكس الشعر الأشعث والساوي القطني الخالي من الزخارف اللذين كانتا تظهر بهما في الهند.) وافتنن جونسون بها جداً حتى إنه بعد اجتماعه الخاص معها في منزل بريج كومار نهرو مكث هناك لوقت طويل يشرب كأساً تلو أخرى من ويسكي البوربون المذاب فيه مكعبات الثلج إلى أن وصل المدعوون

على مائدة العشاء. ولأنه لم يكن ممكناً تأجيل بدء العشاء أكثر من ذلك عرضت عليه فوري نهرو وإنديرا بأدب أن ينضم إليهما وغض الطرف عما يقتضيه البروتوكول، فوافق جونسون، مع أن المفترض أن نائب الرئيس هوبرت هامفري كان هو ضيف الشرف.<sup>22</sup>

لم تكن أغلب الخطب التي ألقتها إنديرا في رحلتها بالولايات المتحدة مبهرة أو فريدة من نوعها؛ إذ كانت في غالبها سيلاً من العبارات المحفوظة. أما الخطبة التي ألقتها في نادي الصحافة الوطني في واشنطن فلم تكن ذات أهمية إخبارية إلا لأنها صممت فيها على السماح للمرأة باقتحام المجالات التي يسيطر عليها الرجل. هذا في حين أنها في نيويورك تناولت قضية كشمير الشائكة ورفضت رفضاً باتاً فكرة إجراء استفتاء بشأن مصيرها. قالت عن ذلك: «لقد فات الآن أوان التناقش بشأن إجراء استفتاء. إن الغزو الثاني الذي شنته باكستان على كشمير الخريف الماضي قد دمر أي قيمة هامشية أو شكلية للقرار السابق للأمم المتحدة، إلى جانب أن كشمير صارت ضرورة لصد الصين عن الهند في لداخ. فأني استفتاء الآن سيؤدي حتماً إلى التشكيك في وحدة الهند. وهذا من شأنه أن يثير قضية استقلال بعض الولايات، وهي قضية خاضت الولايات المتحدة من أجلها حرباً أهلية ... ونحن لن نقبل بتقسيم الهند مجدداً على أساس الدين.»<sup>23</sup> ومع أن إنديرا ادعت أنها لن تطلب مساعدات مالية أثناء زيارتها للولايات المتحدة فإنها وافقت على الشروط الأساسية التي وضعها الأمريكيون لمنح تلك المساعدة؛ فوافقت على خفض قيمة الروبية وعلى إنشاء مؤسسة تعليمية هندية أمريكية. وهكذا فإن الكم الضخم من العملة الهندية، الذي حصلت عليه الولايات المتحدة من الهند مقابل تصدير القمح لها بكميات هائلة، أعيد استخدامه في الهند أيضاً من خلال دعم التعليم والبحث. ووصف بريج كومار نهرو ما حدث بقوله إن موافقة إنديرا على المطالب الأمريكية كانت في حقيقتها «حيلة» لدفع الكونجرس الأمريكي إلى إمداد الهند بالكميات الهائلة التي تحتاجها من القمح.<sup>24</sup> كذلك أصدرت إنديرا بياناً تعلن فيه أن الهند «تتفهم معاناة الولايات المتحدة في حرب فيتنام». كان الشيء الوحيد الذي رفضت إنديرا القيام به في الولايات المتحدة هو مراقبة الرئيس الأمريكي في مأدبة أقيمت في البيت الأبيض، وفسرت ذلك لجونسون بأن ذلك سيذهب بشعبيتها في الهند. فقال جونسون من جانبه إنه سيحرص على ألا «يلحق أي مكروه بهذه الفتاة (إنديرا)»، ووعد بأن يقدم معونة إلى الهند حجمها ثلاثة ملايين طن من الأغذية وتسعة ملايين دولار.

لما كانت إنديرا راضية عن نتيجة زيارتها إلى الولايات المتحدة توقفت في طريق عودتها إلى الهند في الاتحاد السوفييتي لإجراء محادثات مع أليكساي كوسيجين، وزارت

بريطانيا زيارة قصيرة تشاورت فيها مع رئيس وزرائها هارولد ويلسون. لكن رضاها عن رحلتها إلى الولايات المتحدة سرعان ما تلاشى؛ فبعد عودتها بوقت قصير إلى الهند قوبلت صفقاتها مع جونسون بالهجوم. فقد أُدينَت لمجرد التباحث في مسألة تخفيض قيمة الروبية، ولوافقتها على إنشاء مؤسسة تعليمية هندية أمريكية (قال نقادها إنها ستسمح لأمريكا بممارسة تأثير كبير جدًا على التعليم العالي الهندي)، ولموقفها المتخاذل إزاء دخول الولايات المتحدة الحرب مع فيتنام. كان كريشنا مينون صديق إنديرا القديم — الذي كره الولايات المتحدة حتى النخاع — بالأخص غاضبًا من ذلك، فقاد حملة الهجوم على إنديرا. وبسبب ذلك انقلبت إنديرا عليه واتهمته بأنه يقدم «وصفًا خاطئًا تمامًا ويلوي عنق الحقيقة».

ومع أن ردة الفعل السلبية تلك أزعجت إنديرا فإنها مضت قدمًا في قرارها وخفضت قيمة الروبية بنسبة هائلة تبلغ ٥٧٪. وأعلن رسميًا عن ذلك التخفيض في الحادية عشرة من مساء السادس من يونيو، بعد الحصول على موافقة صندوق النقد الدولي. وفي ١٢ يونيو أذاعت إنديرا من محطة راديو عموم الهند بيانًا قالت فيه:

«اسمحوا لي أن أكون صريحة معكم. لم يكن اتخاذ قرار تخفيض الروبية سهلاً ... لكن تمر أوقات في تاريخ كل أمة توضع فيها إرادتها محل الاختبار، ويصبح مستقبلها فيها وقفًا على قدرتها على تبني الإجراءات الحاسمة، واتخاذ القرارات الجريئة. والوقت الذي تمر به الهند الآن من تلك الأوقات ... لقد أبطأت مجموعة من العوامل — التي زادت الحرب والجفاف من حدتها — النمو الاقتصادي على نحو مؤقت وكادت أن تصل به إلى طريق مسدود. وهناك شح في الموارد. وعطلت أزمة ميزان المدفوعات الإنتاج الصناعي وجعلت خفض النفقات إجباريًا. وتعرضت الصناعات الصغيرة بالأخص لضربة قوية. وتوقفت الصادرات. وارتفعت الأسعار ارتفاعًا حادًا. ثمة إحباط وضيق واضطراب. وفوق كل شيء يعاني الناس ضائقة مالية. لقد جربنا مختلف الحلول الأولية، لكنها لم تثبت فعاليتها. فكان من الضروري تبني علاج أكثر فاعلية لإنعاش اقتصاد الأمة.»<sup>25</sup>

لم تستشر إنديرا كاماراج، رئيس حزب المؤتمر، بشأن «العلاج الفعّال» المتمثل في تخفيض قيمة الروبية لأنها كانت تعلم أنه شديد المعارضة له. وقد شاركه عدد من أعضاء مجلس الوزراء موقفه ذلك عندما أثرت المسألة في ٦ يوليو في أحد اجتماعات المجلس. قالت إنديرا

دفاعاً عن تخفيض قيمة الروبية إن الحصول على معونات أجنبية لن يكون ممكناً بدونه. وقد كشف إصرارها على موقفها ذلك — أمام تلك المعارضة الشديدة — عن جانبين مهمين من شخصيتها السياسية في مبادئها: أنها قادرة على اتخاذ القرارات التي لا تحظى بالتأييد، وأنها لا تشعر بأنها تدين بالجميل لأي شخص.

لقد هوجم تخفيض العملة في جميع ربوع البلاد؛ فهاجمه اليمينيون واليساريون، وفي الصحف، وبين العامة، وبين زملاء إنديرا في حزب المؤتمر. فأصدرت لجنة عمل الحزب قراراً يدينه، وزعم أن كاماراج — الذي حرص يوماً ما على أن تصبح إنديرا رئيسة الوزراء وفضلها على موراجي ديساي — قال متحسراً إن إنديرا: «ابنة رجل عظيم، وخطيئة رجل بسيط.» لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد فقد تسبب تأخر وصول المعونات الأمريكية في المزيد من الحرج لإنديرا، ولما قدمت وصلت شحنات الغذاء على نحو غير منتظم.

صارت إنديرا في غضون أشهر من توليها منصب رئيس الوزراء أقل شعبية بكثير من شاستري في أي وقت تأثرت فيه شعبيته. فحثها أقرب مستشاريها أو «مطبخ الحكومة» — ويتكون من: دينيش سينغ، وإندر جوجرال، ونانديني ساتاباثي (وهي عضو برلمان شابة من ولاية أوريسا)، وعمر شانكار ديكشيت ودي بي ميشرا رئيس حكومة ولاية مادهايا براديش ذي النفوذ، وسي سوبرامانيام، وأسوكا ميهتا، وفخر الدين علي محمد — على انتهاج أيديولوجية يسارية، وإنكار صداقتها للولايات المتحدة. غير أن ذلك التحول في السياسة كان من شأنه خلق عداء بين إنديرا وزعماء الحرس القديم في السيديكيت.

تحركت إنديرا سريعاً. بادئ ذي بدء أصدرت بياناً في الأول من يوليو عام ١٩٦٦ تشجب فيه قذف الولايات المتحدة القنابل على هانوي وهافونج، وبعدها في زيارة لها إلى الاتحاد السوفييتي وقعت مع كوسيجين بياناً مشتركاً تدين فيه «الاعتداءات الإمبريالية» على فيتنام. فثارت ثائرة ليندون جونسون وأمر بتأخير شحنات الغذاء المتجهة إلى الهند عمداً. في ذلك يذكر أن تشيستر بولز سفير الولايات المتحدة إلى الهند أشار لليندون جونسون أن السكرتير العام للأمم المتحدة يو ثانت وبابا الفاتيكان أدانا هما الاثنان سياسة الولايات المتحدة في فيتنام، رد عليه جونسون في حدة: «إن البابا ويو ثانت ليسا بحاجة إلى قمحنا».<sup>26</sup> غير أن إنديرا لم تتزعزع، وظلت تشجب غزو الولايات المتحدة لفيتنام. ووافقت على إلغاء إنشاء المؤسسة التعليمية الهندية الأمريكية. فاضطربت علاقتها الطبية بليندون جونسون.

الحقيقة المؤلمة هي أنه كانت هناك المزيد من المشاكل في انتظار إنديرا. ففي نوفمبر عام ١٩٦٦ تظاهر أمام البرلمان حشد من آلاف النسك العراة الذين يدعون بالسادهاسيون

حاملين رماحاً ومطالبيين بإيقاف ذبح الأبقار. كانت الهند دولة علمانية ديمقراطية، واللحم البقري يعد مصدراً رخيصاً للبروتين لغير الهندوس. مع هذا طالب الهندوس المتعصبون بحظر ذبح الأبقار في جميع أنحاء البلاد. بل إن تظاهراتهم تطورت بعد ذلك سريعاً إلى أعمال نهب وعنف. فُقُلت ستة أشخاص جراء إطلاق الشرطة النيران على الحشود، وتعرضت المحال للسرقة، وأضرمت النيران في السيارات والمباني. فصرحت إنديرا لصحيفة «تايمز أوف إندي» إنها لن ترضخ لترويع «منقذي الأبقار». واحتفظت برباطة جأشها. بل إنها استخدمت تلك القلاقل بحنكة لتتخلص من وزير الداخلية جولزاري لال ناندا — «أحد منقذي الأبقار الذين يؤمنون بالخرافات» — الذي شغل مرتين منصب القائم بأعمال رئيس الوزراء، وكان بالأخص كالشوكة في جانبها، فأمرت بتسريحه فوراً من مجلس الوزراء.

بعدما بدأت إنديرا تميل إلى اليسار من جديد فكرياً تجهزت لمحاربة السنيديكيت الذي دانت له بالفضل على حصولها على منصب رئيس الوزراء. كانت علاقتها بكاماراج قد تأزمت منذ تخفيض قيمة الروبية. وقد أدرك كاماراج وبقية أعضاء السنيديكيت مدى قدرتها على استخدام نفوذها في فترة الإعداد للانتخابات العامة القادمة لعام ١٩٦٧. في يوم رأس السنة عام ١٩٦٦ أذاعت إنديرا على الصحافة بياناً في غاية الأهمية. قالت فيه إشارة إلى كاماراج وديساي، اللذين أراد كل منهما أن يطيح بها، ولكن لم يتحداً بعد: «إن المسألة هنا تتعلق بمن يريده الحزب، ومن يريده الناس. إن مكانتي بين الناس مفروغ منها.»<sup>27</sup> ربما كان ذلك التصريح أول إشارة صريحة إلى الاستراتيجية التي ستنتهجها فيما يلي من أعوام، كانت هنا تؤكد على علاقتها المباشرة بالناخبين واستئثارها بهم، وهو ما يسمو فوق تنظيم الحزب، وقواعده ومعاييره.

كان عام ١٩٦٧ — الذي شهد الذكرى العشرين للاستقلال الهندي — هو أيضاً العام الذي بلغت فيه إنديرا الخمسين من عمرها. في العام السابق على ذلك شعرت إنديرا بالغضب عندما أشارت عمتها فيجايا لاكشمي بانديت علناً إلى «صحتها الضعيفة». وقالت بعدئذٍ بوقت قصير، عندما سألها الكاتب فيد ميهتا عن صحتها في مقابلة صحفية: «هنا [في الهند] إن لم تبدُ عليك التغذية الجيدة يحسبك الناس مريضاً. قبل وقت قصير تمكنت بكثير من الجهد من زيادة وزني شيئاً ما، لكنه تناقص ثانية. فأخذ الكل يقول: «إندو تبدين مريضة. ما بك؟» أنا بصحة جيدة جداً. وأحافظ على صحتي باتباع نظام غذائي

يومي. فأول ما أقوم به صباحًا هو ممارسة تمارين اليوجا في الخامسة لمدة خمس عشرة أو عشرين دقيقة.<sup>28</sup>

تتقدم السن بدرجة كبيرة فجأة بأغلب رؤساء الوزراء والرؤساء في فترة ولايتهم، أما إنديرا فقد صارت حقيقة أكثر شبابًا. فعام ١٩٦٧ بدت بصحة أفضل من أي وقت مضى. لقد صارت الطفلة التي يبدو عليها الضعف والمرض دائمًا امرأة ناضجة قوية تتمتع بقدرة مذهلة على الاحتمال. فقد تخلصت تمامًا من السل قبل عشر سنوات، وآخر الأمراض الخطيرة التي أصيبت بها كان حساسية في الكلى تخلصت منها بإجراء جراحة عام ١٩٥٩. أما أعراض سن اليأس فقد أخذت تتلاشى حتى اختفت تمامًا في أواخر أربعينياتها. لقد اجتازت تلك «التغيرات» بسلام، وصارت تشعر بإحساس غير مسبوق بالصحة والسعادة والنشاط. فتعودت تناول الأطعمة الصحية والاعتدال في المأكّل، والمحافظة على صحتها الجسدية بممارسة اليوجا. وكانت الأقراص الوحيدة التي تناولتها هي أقراص الفيتامينات. وظلت تمسك عن شرب الخمر (فوفقًا لبريج كومار نهرو، كانت في المآدب، عندما تشرب نخب شيء تشرب مياهاً ملونة خالية من المواد الضارة). لم يكن يتسنى لها النوم لأكثر من خمس أو ست ساعات إلا نادرًا — وفي أغلب الوقت كانت تنام أقل من ذلك — لكن كانت لديها القدرة على أن تنام فور أن تغمض عينيها في أي لحظة، وتغفو أثناء ركوبها الطائرات أو السيارات.

وبالإضافة إلى اتباعها أسلوب حياة عملي وصحي طورت إنديرا مقدرتها على الركون إلى ذاتها نفسيًا. فتعمدت أن تدرب نفسها على عدم الشعور بالأسى والاستغراق في التفكير الكثيب. فقد سألت أحد الصحفيين في لقاء ذات مرة إن كان قد قرأ في الصحف عن اكتشاف العلماء قبل وقت قصير لفراغات شاسعة في الكون، وقالت معللة لسؤالها: «لطالما شعرت أن داخلي أو داخل المرء مثل هذه الفراغات، وأن بإمكان المرء أن يركن إلى تلك الفراغات بدون أن يوقع نفسه في المشاكل. ففيها يمكن للمرء أن يفعل أي شيء. قد تكون وسط محادثة أو بين حشد. ومع ذلك تستطيع الركون إلى ذاتك متى أردت ذلك، وعندها يمكنك أن تفعل ما تشاء تقريبًا ... ولهذا السبب لا يمكن أن تشعر بالتعب لأنك تهدئ من نفسك تلقائيًا.»<sup>29</sup> وشروء إنديرا عن الآخرين الذي كان كثيرًا ما يلاحظ هو دليل على استراتيجية الركون إلى الذات تلك.

غير أنها استخدمت تلك الاستراتيجية في مواقف معينة فقط. أما بين الحشود الكبيرة، أثناء إلقاء الخطب وإدارة الحملات الانتخابية، فهي حاضرة الذهن بوضوح،



وبين الجماعات الصغيرة، كأفراد عائلتها، والدوائر الصغيرة من الأصدقاء المقربين فكانت نادرًا ما تشرّد أو تنفصل عما حولها. إنما كانت تنتزع نفسها مما حولها بين الجماعات متوسطة الحجم خاصة بين المسؤولين وجماعات السياسيين. وفي تلك المواقف كانت إنديرا تظل على حذرهما ويقظتها، وتحفظ برباطة جأشها. وبالتالي أمكن أن تبدو للعيان جامدة الملامح، أو لا مبالية، أو باردة أو فاترة المشاعر. وكانت أيضًا مخيفة ومتغطرة؛ ومن هنا جاء لقبها «إمبراطورة الهند»، وهو لقب بدأ يظهر في أعمدة الصحف أول ما بدأ شكها في جدارتها كرئيسة وزراء يزول عنها.

بالركون إلى ذاتها استطاعت إنديرا أن تنمي طاقتها وقدرتها المذهلة على الاحتمال، ووظفتها في الأوقات الحاسمة، مثل فترة الإعداد للانتخابات العامة لعام ١٩٦٧ التي أثبتت فيها أنها أكثر القادة شعبية منذ غاندي. كانت حملتها الانتخابية ذلك العام هي التي أظهرت تعلق الشعب الهندي القوي والغريب بها. ففي أول شهرين من ذلك العام أدارت الحملات الانتخابية بلا كلل، فقطعت خمسة عشر ألف ميل وخطبت في المئات من الاجتماعات العامة. وفي جميع أنحاء البلاد، اجتذبت حشودًا ضخمة، أكبر حتى من تلك التي كانت تجتمع لاستقبال نهرو. وكان شأنها شأن العديد ممن سبقها من القادة المؤثرين تزعم أنها — على حد تعبير أحد المحللين السياسيين — تعتمز «إعطاء من جُردوا من أملاتهم وظلموا مساحة للتعبير عن إحباطهم، وتقويض ... الأنظمة القائمة التي تتمتع بالسيطرة والحصانة».<sup>30</sup> غير أن أسلوبها السياسي كان متأثرًا بتقاليد عائلتها الأرستقراطية؛ فهي سليلة أسرة نهرو، وفي الوقت نفسه «واحدة من الشعب»؛ تتحدث إلى القرويين مستخدمة الأمثال الشعبية المألوفة لديهم، وتخاطبهم كأنهم أفراد أسرته، واستخدمت أسلوب ولغة عامة الشعب، وتحدثت اللغات المحلية، وارتدت الساري كما تفعل النساء في المدن المحلية، وتناولت طعام أهل تلك المدن بأصابعها. ولكن في الوقت نفسه بدا عليها النبل والهيبة؛ فقد ارتدت الكثير من أكاليل الزهور وبدت في غاية الأناقة وسط عاصفة الغبار التي تثيرها سيارة رئيسة الوزراء وهي تتوقف بهدير أمام حشد كبير. كان هذا مزيجًا لا يُضاهى.

إلا أنها لم تحظَ بالإكبار دائمًا. ففي جايبور حاول أتباع زوجة مهراجا جايبور من الجناح اليميني لحزب السواتانترا أن يفضوا أحد اجتماعاتها العامة، فتحولت للهجوم عليهم بكلمات القصد منها تأليب مستمعيها عليهم، فقالت:

«لن أرضخ للترويع. أنا أعلم من وراء تلك المظاهرات (زوجة المهراجا)، وأعلم كيف أجعل صوتي مسموعًا للناس. سأحدث بصراحة اليوم. اذهبوا واسألوا

المهرجات كم بئراً حفروا للناس في ولاياتهم لما تولى (الأمراء) حكمهم، كم شارعاً شقوه، أو ماذا فعلوا لمحاربة استعباد البريطانيين للهنود. فستجدون، لو نظرتهم في سجل إنجازاتهم قبل الاستقلال، أنه خاوي تماماً.»<sup>31</sup>

في ذلك الوقت من حياتها، عام ١٩٦٧، ترشحت إنديرا لعضوية البرلمان لأول مرة. لكنها لم تترشح عن دائرة أبيها دائرة فالبور (مع أن عمته فيجايا لأكشمي بانديت قالت إنها لا تزال على استعداد للتنازل لها عن مقعدها في البرلمان عن تلك الدائرة)، وإنما ترشحت عن دائرة فيروز غاندي السابقة دائرة راي باريلي. وقد قررت الترشح لمقعد زوجها السابق في البرلمان لأسباب عاطفية وعملية وسياسية. كانت راي باريلي ستعيد لها شيئاً من روح فيروز، وكانت واثقة من أنها ستتمكن من استكمال أعمال فيروز هناك. هذا بالإضافة إلى أن راي باريلي امتلأت بذكريات زواجهما، وبالأخص حملتهما الانتخابية الأولى عام ١٩٥٢، عندما عملاً معاً بك دليفوز فيروز. وطافت إنديرا بجدة تلتمس الأصوات لزوجها، آنذاك تمتع فيروز بشعبية واسعة، وكانت هي مشهورة ومحبوبة في تلك الدائرة. فضلاً عن ذلك سترت إنديرا أيضاً بتسلّم الراية التي رفعها فيروز صورته كمحارب للفساد وإصلاحي متشدد.

إلا أنها كانت أكثر من ابنة نهر و زوجة فيروز غاندي. لقد احتاجت إلى تأسيس علاقة خاصة ومميزة بينها وبين النخب الهنود، وقد عبرت عن ذلك في خطبة فياضة بالمشاعر في راي باريلي في أوائل عام ١٩٦٧. كان أغلب الناس إلى ذلك الوقت قد اعتبروا جنسها نقطة ضعف. فمثلاً أراد ليندون جونسون أن يتولى إنديرا «الفتاة» بالحماية، في حين لقبها البرلمان بـ «الدمية الخرساء». وأشار إليها خصمها موارجي ديساي ذات مرة بـ «الفتاة الصغيرة». هذا فيما أسمتها الصحف بـ «المرأة الصغيرة». وقال الناس إنه صار بإمكانهم على الأقل أن يتطلعوا في الصفحة الأولى من الصحيفة إلى وجه حسن. لكنها قلبت تلك الآراء التي استخفت بها رأساً على عقب، وغيّرت وجه أنوثتها إلى مصدر يمنحها القوة والحنان فتقول:

«إن عائلتي لا تقتصر على عدد محدود من الأفراد. إنها تتكون من عشرات الملايين. إن أعباءكم بالمقارنة بأعبائي بسيطة؛ لأن عائلاتكم أصغر وأقدر على العيش. أما العبء الذي أحمله فله عدة أوجه؛ فكثير من أفراد عائلتي يعانون الفقر المدقع، وعليّ أن أعني بهم. ولأنهم ينتمون إلى طوائف مختلفة ويدينون

بعقائد متعددة أحياناً ما يتصارعون، وعليّ أن أتدخل بينهم، خاصة لأعتني بالضعفاء من عائلتي لئلا يستغلهم الأقوياء.»<sup>32</sup>

ومن هنا جاء رمز «الأم إنديرا». فبعد أسبوعين صارت تنادى بذلك في حملتها الانتخابية في كوتشين التي تقع على مسافة ألفي ميل من راي باريلي. غير أن المهم هو أن إنديرا في حملة عام ١٩٦٧ الانتخابية فشلت في تبني موقف فكري قائم على قضية. لقد عرفت نفسها للناس على أنها المعيلة الكبرى والمصلحة؛ فصارت العلاقة التي تجمعها بهم وثيقة ولكن أبوية — علاقة أمومة وأبوة معاً — لا دخل لها بالتنظيم السياسي. وفي تلك العلاقة ليس للأبناء أن يعترضوا على آبائهم، والآباء سواء الصالحون منهم أو الطالحون يملكون سلطة طبيعية على أبنائهم. ترى إلى أي مدى كانت إنديرا تعي طبيعة استراتيجيتها ومعناها؟ لا شك أنها رأت أنها وسيلة تحافظ بها على بقائها سياسياً، لكن من المستبعد أنها كانت آنذاك على وعي تام بما لها من دلالة هدامة وديكتاتورية.

في حملتها الانتخابية المرهقة عام ١٩٦٧ تعرضت إنديرا لاعتداءات في مدينة بهوبانيشاور في ولاية أوريسا التي تعد إحدى الولايات شديدة الولاء لحزب السواتانتر اليميني. فبعدما بدأت مخاطبة الحشد هناك بوقت قصير أخذ مشاغبون يقذفون أحجاراً تجاه المنصة. وأصيب أحد الحراس في جبهته، وصحفي في ساقه. فوقف حارسان شخصيان على جانبي إنديرا لأنها رفضت — مع توسلاتهما إليها — إنهاء خطابها. وتواصل قذف الأحجار في الهواء. لكن إنديرا تجاهلتها حتى وصلت أخيراً إلى نهاية خطابها وجلست. عندئذٍ نهض مرشح حزب المؤتمر المحلي ليلقي كلمته والقذف مستمر. فانتفضت إنديرا من مجلسها، وعادت إلى المنصة، ثم انتزعت الميكروفون وصاحت بغضب في الحشد: ما هذه الوقاحة! هل ستبنون البلد بهذه الطريقة؟ ... هل ستصوتون إلى مثل هؤلاء (مشيرة إلى المشاغبين ومن يلقيون الحجارة)؟ فألقيت عدة أحجار في الحال وأصابتها إحداها في وجهها مباشرة. فاحتملت إنديرا الضربة بصمت، لكنها انحنت مغطية وجهها بيديها لتكف نزيف أنفها. كان الحجر قد كسر أنفها.<sup>33</sup>

كان الهجوم الذي تعرضت له إنديرا في بهوبانيشاور غير مسبوق، وتصدر في اليوم التالي عناوين الصحف في جميع أنحاء البلاد. لقد أحدثت إنديرا منذ البداية كراهية شديدة لها بين أوساط معارضيه. غير أنها حظيت بالإعجاب بالقدر نفسه على شجاعتها، خاصة عندما واصلت إدارة حملتها الانتخابية في جميع أنحاء البلاد وهي تغطي أنفها والنصف

الأعلى من وجهها بضمادات بيضاء جعلتها تبدو — كما قالت مازحة — كالرجل الوطواط ولكن في قناع أبيض.

لما عادت إنديرا إلى دلهي خضعت لجراحة بدون تخدير لإعادة أنفها إلى وضعه الطبيعي. وقد كتبت لصديقتها القديمة دوروثي نورمان أنها حاولت استغلال تلك الجراحة «لعمل شيء» حيال أنفها البارز، وهو ما اعترفت بأنها أرادت أن تفعله منذ أن عرفت بوجود جراحات التجميل. كانت قد ادخرت بعض المال لإجراء جراحة التجميل، ورأت أن «الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تتحقق بها، بدون إثارة ضجة كما يحدث عادة هي الإصابة في حادث بسيط.»<sup>34</sup> غير أن أطباء دلهي الذين أصلحوا لها كسر أنفها لم يكونوا مدربين على إجراء جراحات التجميل، فاضطرت إنديرا إلى التخلي عن حلمها بالحصول على أنف جديد دقيق.

عُقدت انتخابات الهند العامة الرابعة عام ١٩٦٧، ومع أن حزب المؤتمر ظل في السلطة فقد كانت النتائج التي حصل عليها مخيبة. فلقد خسر ٩٥ مقعداً، في حين فاز فقط بعدد ٢٨٢ مقعداً من مجموع مقاعد البرلمان البالغ عددها ٥٢٠ مقعداً، وخرج منها منتصراً بأغلبية تبلغ إجمالاً ٤٤ مقعداً لا تكفي لتناؤى به عن الخطر. وخسر الأغلبية التي تمتع بها في سبع ولايات هي: كيرالا، وتاميل نادو، وأوريسا، وبنغال الغربية، وبيهار، وأوتار براديش، وراجاستان، فكان عنوان صحيفة «تايمز» في لندن: «بعد الأنف المكسور صفقة على الوجه.»

خسر كاماراج مقعده في البرلمان أمام زعيم طلابي في السادسة والعشرين من عمره من حزب درافيدا مونيترا كازاغام المحلي في مدراس. لكن هزيمته دلت على أن هزائم حزب المؤتمر قد تتكشف عن فوز لإنديرا، فهو لم يكن عضو السينديكييت الوحيد الذي هُزم. فإس كيه باتيل في بومباي، وأتوليا غوش في البنغال وبيجو باتنايك في أوريسا جميعهم فقدوا مقاعدهم البرلمانية. بالنسبة لإنديرا كانت هذه الهزائم «محببة للنفس»؛ كانت هي قد ضمنت تمثيل دائرة راي باريلي في البرلمان بأغلبية كبيرة. لذا في اجتماع أعضاء الحزب في البرلمان الذي عُقد في ٢٧ فبراير نوهت — مما أزعج القيادات العليا — بأن «الشباب ينتصر على الشيوخ».<sup>35</sup> كانت نتيجة ذلك الانتصار هي أن أولئك الذين راهنوا على الوقت الذي منحوه لإنديرا حتى انتهاء الانتخابات ليتخلصوا منها قد تركوا الساحة ولم يعودوا موجودين لينفذوا خططهم السابقة.

غير أن عدو إنديرا اللدود موراجي ديساي عاد على نحو مثير للإعجاب، وظل عازماً على تولي رئاسة الوزراء. فبدأ أن حرباً جديدة بين الاثنين على زعامة أعضاء الحزب في

البرلمان واقعة لا محالة. أما كاماراج الذي ظل — مع خروجه من البرلمان — رئيساً لحزب المؤتمر، فقد عزم على تفادي هذه الحرب. وبدأ في أوائل مارس يخوض مفاوضات ملتوية مع إنديرا وديساي. ظل يطرح عليهما فيها العديد من خطط التسوية لعدة أيام، لكن إنديرا وديساي رفضاها كلها.

في يوم الجمعة العاشر من مارس التقى الخصمان إنديرا وديساي مرتين، إحداهما صباحاً، والثانية في وقت متأخر من فترة بعد الظهر. ظهيرة ذلك اليوم أعلن ديساي أنه ينوي التنافس على قيادة الحزب، وأن «الأمر بيد الله».<sup>36</sup> القرار كان بين يدي كاماراج، وليس غيره. من ثم زاد كاماراج ومعه دي بي ميشرا، وسي بي جوبتا عضو البرلمان عن دائرة أوتار براديش من مفاوضاتهم تعقيداً. في نهاية الأمر أشار ديساي إلى أنه سيمتنع عن التنافس إن نُصب وزيراً للداخلية ونائباً لرئيس الوزراء وهو منصب اختفى منذ وفاة ساردار باتيل عام ١٩٥٠. فرفضت إنديرا أن تجعل ديساي نائباً لرئيس الوزراء، ورفضت إعفاء تشافان من وزارة الداخلية كي تمنح ديساي منصبه، إلا أنها كانت مستعدة لأن تجعل ديساي الرجل الثاني في مجلس الوزراء.

ومع أن المفاوضات وصلت إلى طريق مسدود فإنها بعد حلول فترة بعد الظهر بلغت مرحلة مثيرة؛ راحت السيارات الهندية الصغيرة — التي تدعى استحقاقاً «بالسفيرات» — تقل كاماراج ومبعوثيه جيئةً وذهاباً في نيودلهي. إنها حتى قد زرعت الطريق بين بيت إنديرا وبيت ديساي ذرعاً. ثم في السبت ١١ من مارس تواجه ديساي وإنديرا للمرة الأخيرة. أخبر ديساي إنديرا بأنه لن يكون «مفيداً» لها إلا في منصب نائب رئيس الوزراء، وبخطرسته المعهودة قال يحذرهما إنهما قد صارا خصمين قوين جدّاً، وأن البرلمانين يجيدون المجادلة جدّاً. وأضاف زعماً: «وبما أنني أكثر خبرة (منك)، يمكنني أن أدحض جدلهم. أنت لا تملكين الكثير من الخبرة (كعضو برلماني) ... أما أنا فبإمكانني أكثر منك أن أرد عليهم كما ينبغي».<sup>37</sup>

ومع عدم كياسة ديساي تلك وافقت إنديرا على مضمّن أن تجعله نائب رئيس الوزراء، لكن مع تولي وزارة المالية وليس وزارة الداخلية التي طمع في وزارتها. قبل ذلك الحين، عندما عرض كاماراج العرض نفسه على ديساي، رفض ديساي، لكنه لم يرفض هذه المرة. غير أن إنديرا شعرت أنها ارتكبت خطأ فادحاً، وحاولت أن تسحب عرضها له. لكن كاماراج وميشرا أكدا لها أن الأوان قد فات، وصارت «مقيدة بوعدها» لديساي.<sup>38</sup> بدا بعد انتخابات عام ١٩٦٧ العامة ظلت إنديرا ممسكة برئاسة الوزراء، لكن مع وجود ديساي الطموح كالشوكة في جانبها في منصب نائب رئيس الوزراء. فاختارت

أعضاء مجلس الوزراء بدون استشارة كاماراج أو ديساي لتؤكد على سلطتها، وتبين أنها ستظل «مطلقة». ومنحت مؤيديها وحلفاءها المناصب المهمة؛ فولت واي بي تشافان وزارة الداخلية، والقائد الهاريجاني جاجيفان رام وزارة الأغذية والزراعة، وفخر الدين علي أحمد وزارة التنمية الصناعية، ودينيش سينغ وزارة التجارة. وأعلنت أن منصب نائب رئيس الوزراء لا يعني «ازدواجية السلطة بأي حال من الأحوال»، وأن ديساي تعهد بتقديم دعمه الكامل غير المشروط لها.<sup>39</sup> وبذا تخلصت من الترتيب الوزاري، وصارت تعتمد منذ تلك اللحظة على ترتيب هجائي بسيط يجعل المناصب الوزارية — مثل مؤشر على تسلسل القوة مستقبلاً — مناصب لا معنى فعلياً لها.<sup>40</sup>

ربما كان ديساي نائباً لإنديرا، لكن بالنسبة له ولها كان بقاءه في هذا المنصب — باعتباره شخصاً يفوقها سنّاً وخبرة في المجال السياسي — مستحيلًا. وكما نوه دي بي ميشرا ظل ديساي ينظر إلى إنديرا — وهي امرأة في الخمسين من العمر، تحتل منصب رئيسة الوزراء — على أنها «فتاة صغيرة». حتى إنه قال يشكو منها لميشرا: «تلك الفتاة لا تصغي إلى شيء».<sup>41</sup> واختلف ديساي وإنديرا على سلسلة من القضايا، منها على سبيل المثال بقاء اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية للهند، لكن القضية التي قامت حولها أكبر نزاعاتهما هي تأميم البنوك التجارية، عارض ذلك ديساي بقوة، وأيده أتباع إنديرا اليساريون. وقد أغضب استبداد ديساي برأيه وتشدده إنديرا بقدر ما أغضبها تعامله معها بازدراء. فعلى سبيل المثال، في اجتماع للجنة التخطيط في مايو عام ١٩٦٧ قاطعها قائلاً: «إنديرا يا أختاه! أنت لا تفهمين المسألة. دعيني أتولها». كانت إنديرا «مستشيطة غضباً، إلا أنها تركته يدلي بدلو».<sup>42</sup>

لكن إنديرا استطاعت أن تفرض رغبتها على ديساي فيما يتعلق باختيار رئيس الهند الجديد، وذلك عندما انتخب مرشحها للرئاسة ذاكر حسين. وأظهرت أنها أكثر دراية وخبرة بالشئون الخارجية منه. في الواقع، لقد شغلت — شأنها شأن أبيها — منصب رئيس الوزراء ووزير الخارجية معاً في الفترة من سبتمبر عام ١٩٦٧ حتى يناير عام ١٩٦٩.

أنهت بين سبتمبر ونوفمبر عام ١٩٦٧ جولة مرهقة من الزيارات الرسمية إلى: سيلان، والاتحاد السوفييتي، وبولندا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا، ورومانيا، والجمهورية العربية المتحدة. ثم قامت في مايو العام التالي بجولة إلى: سنغافورة، وماليزيا، وأستراليا، ونيوزيلندا. وسافرت في سبتمبر عام ١٩٦٨ إلى أمريكا اللاتينية وزارت البرازيل والأرجنتين،

وتشيلي، وفنزويلا، وأوروغواي، وكولومبيا، وترينيداد، وجيانا. وألقت خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. ثم توقفت كالعادة في طريق عودتها إلى وطنها في الاتحاد السوفييتي. ثم زارت عام ١٩٦٩ بورما، وأفغانستان، واليابان، وإندونيسيا.

صارت إنديرا بفضل صولاتها، ومنصبها الفريد كرئيسة وزراء وشخصيتها الجذابة الساحرة واحدة من أشهر وأبرز الشخصيات السياسية في العالم. فلم تكن تجيد التواصل مع القادة والحشود فحسب، بل كانت تجيده أيضاً مع الصحفيين والمفكرين. وكانت لغتها الإنجليزية والفرنسية غير مشوبتين. فتبدو للأجانب كأنها من بلد آخر، لكن مع ذلك عصرية وتقدمية.

في الهند عكس تواصل العداء بين إنديرا وديساي الشقاق المتسع بلا آخر بين الأجنحة الراديكالية والمحافظة لحزب المؤتمر. كان من الواضح أن ديساي — الذي لم يكن مشجعه الرئيسي سوى تاركيشواري سينها عشيقة فيروز السابقة — هو زعيم المحافظين. وكان أحياناً يتم الربط خطأً بين الراديكاليين أو التقدميين وإنديرا التي كانت فكرياً أقل إخلاصاً للراديكالية من هؤلاء.

في مايو عام ١٩٦٧ أعلنت إنديرا استكمالاً لصورتها كيسارية برنامجاً من عشر نقاط يتضمن فرض رقابة اجتماعية على الأنشطة المصرفية، ومنع الاحتكار، وتأميم قطاع التأمين العام، ووضع قيود على التملك، ومراقبة الدولة لحركة الصادرات والحبوب الغذائية، وإلغاء المزايا التي تمتع بها الأمراء سابقاً، ومنع المخصصات الملكية عن ولايات الأمراء.

فوق ذلك كانت الإصلاحات الزراعية التي بدأت في الخمسينيات بموجب قانون «الثورة الخضراء» قد بدأت تؤتي ثمارها. ففي أواخر فترة حكم نهرو الأخيرة وفترة حكم شاستري القصيرة تحول الإصلاح الزراعي من إصلاح مؤسسي وهيكلي لاستغلال الأراضي وحقوق تملكها إلى إدخال للعديد من التطورات التكنولوجية إلى الزراعة. وكان من أهمها إدخال أنواع متعددة من البذور المهجنة عالية الإنتاجية لإنتاج القمح والأرز، والتي زادت الإنتاج زيادة هائلة خاصة في البنجاب، وهاريانا وأوتار براديش. لقد جعلت إنديرا الثورة الخضراء من أهم أولويات الحكومة، فبالإضافة إلى زراعة البذور المهجنة بدأت إصدار دعم حكومي للزراعة، ووفرت الكهرباء والمياه والأسمدة والقروض للفلاحين. لم يخضع الإنتاج الزراعي للضرائب. فكانت النتيجة أن صارت الهند تتمتع بالاكثفاء الذاتي غذائياً، وهو ما هدفت إنديرا إليه بصدق بعدما وصلت شحنات معونة الرئيس

ليندون جونسون الغذائية المشروطة على مراحل متقطعة. بالإضافة إلى ذلك استطاعت الهند أن تكون مخزوناً من الحبوب الاحتياطية يكفي لتجاوز أكثر من موسم جفاف، بل صارت تصدر الغذاء بكميات معقولة. كانت الثورة الخضراء تسير على نمط بقية برنامج إنديرا الراديكالي الذي اتُّبع في منتصف وأواخر الستينيات.<sup>43</sup>

في أوائل عام ١٩٦٨ أراد ديساي وكاماراج (الذان عادا بعد أن فازا في إحدى الانتخابات الفرعية إلى البرلمان كشبح مهدد لمطاردة إنديرا) أن يطيحاً بإنديرا من السلطة، لكن كان عليهما أولاً أن يقنعا نيجالينجبا الذي خلف كاماراج في رئاسة حزب المؤتمر بأن ينضم إليهما. لقد جمع العداء لإنديرا بين السينديكييت — الذي كان كاماراج لا يزال رئيساً له — وديساي في تحالف. عظم أعداء إنديرا من مسألة عزل الحكومات غير التابعة لحزب المؤتمر في ولاية بنغال الغربية وأوتار براديش وبهار والبنجاب وفرض الحكم المركزي في تلك الولايات سيراً على ما انتهج في كيرالا عام ١٩٥٩.

في غمرة الشقاق بين فصيلتي حزب المؤتمر انشغلت إنديرا لوقت قصير بزفاف ابنها راجيف إلى امرأة إيطالية جميلة تدعى سونيا ماينو الذي أقيم يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٦٨. التقى راجيف وسونيا في جامعة كامبريدج قبل ثلاثة أعوام، آنذاك كان راجيف لا يزال يجتهد في الدراسة سعياً للتخرج من كلية ترينيتي، وكانت سونيا تدرس اللغة الإنجليزية في إحدى مدارس اللغات للطلاب الأجانب. التقيا أول مرة في مطعم محلي يدعى فارسييتي. وفور أن رمقتها عينا راجيف انجذب إليها على الفور، فهي شابة رشيقة ذات شعر ذهبي طويل وعينين سوداوين، سأل صديقاً مشتركاً لهما أن يعرفه بها. وكانت حالة نموذجية من الحب من أول نظرة لكليهما. كان راجيف مطمئناً جداً إلى علاقته بسونيا حتى إنه كتب يقول لإنديرا بعد أسابيع من لقائه بسونيا: «دائماً ما تسأليني عن الفتيات، عما إذا كانت هناك فتاة تحتل مكانة خاصة بقلبي، وما إلى ذلك. حسناً، لقد التقيت بواحدة. لم أطلب يدها للزواج بعد، لكنها الفتاة التي أود أن أتزوج.»<sup>44</sup>

كانت سونيا ماينو ابنة في الثامنة عشرة من العمر لمعماري ثري من تورينو يدعى ستيفانو ماينو، كان من مؤيدي موسوليني إبان الحرب العالمية الثانية، وقد ظل إلى ذلك الوقت يتعاطف مع الفاشيين. كان آل ماينو من كاثوليك روما المتشددين، وسونيا ابنة مطيعة وبارة بأبيها. لم تسافر إلى خارج إيطاليا قبل الدراسة في كامبريدج من قبل. ووقتما قابلت راجيف لم تكن تعرف شيئاً عن الهند — على حد قولها — سوى أنه بلد



«موجود في مكان ما في العالم توجد به أفاعٍ وأفياح وأدغال..» وأضافت: «أما فيما يخص موقع الهند الجغرافي بالضبط، وفيما يخص جوهره الحقيقي، فلم أكن متأكدة أنني أعرف ذلك.»<sup>45</sup>

لم يتأثر راجيف وسونيا بالحركات الطلابية والنسائية التي قامت في كامبريدج ولندن إبان الستينيات، ولم يخرجوا عن التقاليد، سواء آنذاك أو فيما بعد. كل ما هنالك أن أحدهما أحب الآخر، وكلاهما ليس من البلد نفسه. كان ذلك غير مقبول لوالد سونيا الذي أراد أن تتزوج بناته الثلاث جميعاً من رجال كاثوليك إيطاليين. وراجيف لم يكن غير كاثوليكي وحسب، بل كان هندياً، ولم يكن السيد ستيفانو مانيو يعباً بمن تكون والدته أو جده.

لم تكن إنديرا متعصبة لرأيها، إلا أنها شعرت — مع احتفاظها ببهوء طباعها — بعدم الارتياح إلى فكرة زواج ابنها بأجنبية. غير أن أغلب تحفظاتها تبخرت عندما قابلت سونيا أول مرة في لندن أوائل عام ١٩٦٦. كانت سونيا تشعر بالرهبة من لقاء إنديرا التي كانت آنذاك لا تزال وزيرة في حكومة شاستري، لكن عندما تحدثت إنديرا معها بلا كلفة باللغة الفرنسية (التي كانت سونيا تتحدثها بطلاقة أكثر من الإنجليزية)، وهذأت من روعها بأن قالت «إنها نفسها كانت شابة خجولة جداً تعشق، وإنها تتفهم» شعور سونيا تماماً.<sup>46</sup>

ظل السيد مانيو على رفضه العنيد لعلاقة راجيف وسونيا، وكان راجيف يجد صعوبة في تفسير عدم قدرة سونيا على الوقوف في وجه أبيها. فقد كتب إلى إنديرا يقول: «يبدو أن سونيا لا تستطيع مناقشة والديها ... إنها تفعل ما يأمر به أبوها وحسب.»<sup>47</sup> وعام ١٩٦٦ عاد راجيف إلى الهند بعد إمضاء فترة بلا طائل في كلية إمبريال كوليدج في لندن دون أن يتخرج، وأخذ يتدرب للعمل طياراً تجارياً في حيدر آباد. عادت سونيا إلى تورينو امتثالاً لأوامر والدها. إلا أنها ظلت مصممة على الزواج من راجيف برغم احتفاظها ببهوء طباعها. فانتظرت في إيطاليا عامًا تتحين الفرصة المناسبة لذلك إلى أن بلغت الواحد والعشرين من العمر؛ سن الرشد القانونية.

وفي يناير عام ١٩٦٨ بعد ثلاثة أعوام بالضبط من أول لقاء لسونيا براجيف سافرت على متن طائرة إلى الهند للزواج منه. فترتبت إنديرا لأن تمكث سونيا في منزل لأصدقاء قدامى لعائلتها هم آل باتشان (الذين كان ابنهم «أميتاب باتشان» نجمًا سينمائيًا صاعدًا آنذاك). حرصت سونيا على التأقلم على نمط الحياة الهندية — أو على الأقل — على النموذج

الغربي الأسهل لها الذي ستتبعه في حياتها مع راجيف، فاستطاعت ذلك سريعًا. وفي ٢٥ فبراير، بعد شهر من وصولها إلى الهند، تزوجت براجيف زواجًا مدنيًا، وانتقلت إلى منزل حماتها في العقار رقم ١ في شارع سافدارجانج رود حيث ستعيش هي وراجيف طوال الستة عشر عامًا التالية.

لم يكن من شيم إنديرا تكوين الروابط العاطفية الوثيقة بسرعة أو ببسر. فلم يكن لديها وهي في الواحدة والخمسين من العمر سوى ثلاث صديقات مقربات هن: دوروثي نورمان، وماري سيتون (اللتان لم تقابلهما إلا نادرًا) وبوبول جاياكار. إلا أنها في فترة قصيرة إلى حد مثير للدهشة صارت مولعة بزوجة ابنها سونيا. يعود ذلك إلى حد ما إلى أن سونيا بدت سهلة الانقياد ولينة العريكة وحنونة، وهادئة الطباع. وكانت شديدة الاهتمام بتدبير شئون المنزل، وبرعت في الطهي. كانت إنديرا بدورها كذلك، إلا أنها لم تكن تجد الوقت لهذا، فظلت مساعدتها يوشا بهاجات تدير شئون المنزل لعدة سنوات. لكن بعدئذٍ اضطلعت سونيا بتلك المهمة. وأدركت ما تحبه إنديرا وتفضله. فصارت في نهاية الأمر تشتري لحماتها أثواب الساري وتعنى بخزانة ثيابها. غير أن المجال الوحيد الذي لم تشارك فيه سونيا إنديرا اهتمامها هو المجال السياسي الذي لم تحاول سونيا أن تفهمه أو توليه اهتمامًا. إلا أنها بدأت تزدرى ذلك المجال وتنتظر إليه على أنه عدو سعادتها هي وراجيف فيما بعد فقط.

حينما تزوجت سونيا وراجيف كان سانجاي قد عاد إلى الهند وأقام في منزل إنديرا. لقد كان المنزل الكائن في العقار رقم ١ في شارع سافدارجانج رود، فصار منزل إنديرا يعج بالساكنين حتى إن بعضًا من عمال مكتبها أجبروا على العمل في سقيفات في حديقته. وقراءة ذلك الوقت تردد أن إنديرا تخطط للعودة إلى تين مورتى وإعادة تأسيسه ليكون مقر إقامتها الرسمي. وافق مجلس الوزراء على ذلك، لكن العديد من أعضاء مؤسسة نهرو اعترضوا، فقررت إنديرا بعد الكثير من المناقشات أن تمكث في منزلها المزدحم في العقار رقم ١ سافدارجانج رود. وبعدها بوقت قصير خصصت الحكومة المسكن رقم ١ المجاور لها في شارع أكبر رود لتتم فيه أعمالها المكتبية.

في ٣ من مايو توفي فجأة الرئيس الهندي ذاكر حسين (الذي اختارته إنديرا لخلافة سارفيالي رادهاكريشنان عام ١٩٦٧). يشبه منصب الرئيس الهندي منصب الملك في الملكية الدستورية البريطانية، فهو يتصرف بناءً على مشورة رئيس الوزراء. غير أنه يستطيع أن يكون قيدًا أو منقادًا له. لذا من الوارد أن تنشأ مشكلة عندما يكون هناك

احتمال لأن تكون أفعال الرئيس مؤثرة، إن كان الحزب الحاكم — على سبيل المثال — ضعيفاً أو إن كانت هناك أزمة دستورية.<sup>48</sup>

أراد أعداء إنديرا داخل حزب المؤتمر أن يصير سانجيفا ريدي رئيس البرلمان هو الرئيس التالي للهند. وتخوفت إنديرا من ذلك لأنها كانت تعلم أن سانجيفا ريدي قد يزيحها عن رئاسة الوزراء. وينصب ديساي مكانها، لذا، حاولت أن تحيل الصراع من أجل البقاء السياسي إلى منافسة أيديولوجية شددت فيها على صورتها كيسارية حتى تؤمن موقفها. كان الاقتصاد أوضح مجال يسمح باستعراض أوراقها كيسارية، لذا في اجتماع لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في يوليو الذي كان من المعتزم أن يتحدد فيه رئيس الهند طلبت إنديرا — التي لم تحضر الاجتماع بدعوى أنها مريضة — من زميل مخلص لها من مجلس الوزراء أن يقرأ على الحضور «أفكاراً متناثرة» عن السياسة الاقتصادية. أبرزت تلك الأفكار البرنامج المكون من عشر نقاط الذي وضعته إنديرا في مايو عام ١٩٦٧، إلا أنها ركزت بالأخص على اقتراح تأميم البنوك الراديكالي الذي دعا له الراديكاليون التقدميون الذي لم يكن ديساي سيقبل به قط.

لا شك أن دافع إنديرا من عرض تلك «الأفكار المتناثرة» عن تأميم البنوك على لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند هو الحفاظ على بقائها كرئيسة وزراء. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها «لم ترغب في تأميم البنوك» نفسه، أو أنها «استخدمت (قضيتها) فقط لتؤمن موقفها عند المفاضلة» بينها وبين ديساي. من السهل لدى الرجوع إلى ذلك الموقف أن يجزم المرء بأن «الأيديولوجيا ... كانت سلاح (إنديرا) وليس العكس». بعد ذلك لعدة أعوام سيظل رأي المحللين أن سياسات إنديرا اليسارية كانت إلى حد بعيد سياسات دفاعية، منبعها البراجماتية ... لقد أدركت إنديرا أنها ستخسر أمام قوى اليسار ما لم تنضم إليه ... لذا أكثر من استخدام الشعارات اليسارية لتتقصد من قدر معارضيها، وتحتوي أعداءها في الحزب بتصوير الصراع الدائر فيه على أنه صراع بين القوى الداعية إلى التقدم والقوى الداعية إلى الرجعية.<sup>49</sup>

في حياة إنديرا السياسية تختلط الاستراتيجيات الأيديولوجية كثيراً باستراتيجيات الحفاظ على البقاء. وإن من يضطلع بكتابة سيرتها يجد أن سلوكها منذ لحظة تنصيبها رئيسة للوزراء يتزايد غموضاً تدريجياً على كل من الناحية السياسية والشخصية، ويحتمل الكثير من التفسيرات. وفهمها في بعض الأحيان يبدو مستحيلاً. أغلب الصور التي اتخذت لها في تلك الفترة تبدو خالية من الحياة، لا تبوح بشيء، متكلفة، ورسمية؛ صحيح أنها

تعكس مظهرًا أنيقًا إلا أنها لا تسبر أعماق صاحبته. فوق ذلك، بعد منتصف الستينيات، اختفت أغلب المصادر التي كانت تكشف بصراحة شديدة عن دخالها. فرسائلها إلى أبيها انتهت لأنه توفي. وقلت رسائلها إلى دوروثي نورمان وغيرها من الأصدقاء. وصارت أقل صراحة لأن رسائلها الشخصية في تلك المرحلة كانت نادرًا ما تتمتع بالخصوصية فأغلبها — كمراسلاتها الرسمية — اضطلع بكتابته وطباعته لها سكرتاريتها. هذا بالإضافة إلى أنها لم تكتب أي تقييم لحياتها، فعلى سبيل المثال لم تكتب أي خواطر شخصية قط، وقد عللت ذلك لأحد الصحفيين في إحدى المقابلات الصحفية بقولها: «متى أكتبها؟ أنا أخلد للنوم متأخرًا. وأستيقظ مبكرًا ... وإن تسنى لي القليل من وقت الفراغ فأنا لا أود حقيقة أن أنفقه على نفسي»<sup>50</sup>

آنذاك، في يوليو عام ١٩٦٩، لم تكن الدوافع المحددة لتشدد إنديرا لليسارية واضحة على الإطلاق، وكثيرًا ما كانت تصريحاتها متناقضة. لقد أيدت التغيير الراديكالي في الوقت الذي تجشمت فيه العناء لطمأنة الطبقة المالكة إلى أن الإصلاح لن يهدد مصالحهم. هذا لأن الساسة كما — نوهت شخصية مقربة جدًا من إنديرا — يرتدون الأقنعة.<sup>51</sup> ويمثلون شخصيات ويلعبون أدوارًا. وهم أيضًا — على حد تعبير تي إس إليوت — «شخصيات مخادعة»، تتلون على الدوام بألوان مختلفة مع اجتماعها وافتراقها لا بفعلها وحسب بل أيضًا بتأثير المحيطين بها. فهم يرشدون وينصحون فيمثلون بالأفكار كالوعاء. أو يتخلصون منها. وإنديرا. قبل حلول عام ١٩٦٧، كانت قد تحولت تمامًا إلى سياسية ماهرة.

آنذاك جمعت إنديرا حولها شخصيات تتسم بالدهاء والحنكة تتكون في المقام الأول من اليساريين، وفي جزء منها ممن يتشبثون بالقيم. تألف جميع هؤلاء من الرجال، وبعضهم كان من الكشميريين مثلها. وقد اختارت بعضهم والبعض الآخر اختارها. أغلبهم لم يكن كبير السن، انتمى إلى جيلها لا جيل أبيها أو جيل ديساي. وكانوا أتباعًا لنهرو نظروا إلى إنديرا على أنها خليفته. وأمدوها بالأفكار والقيم. لا استغلالاً لها كما فعل كاماراج ودهيبار اللذان حاولا استخدامها كأداة. كانت دائرة المقربين تلك على علم بنقاط ضعفها، وتدرك أنها ابنة نهرو لا تجسده الحي. إلا أنهم رأوا فيها شابة مفعمة بالحيوية، ذات ميول يسارية، تشعر بالمسؤولية تجاه مستقبل الهند. ومع ضعف خبرتها في العديد من المجالات فإنهم رأوا أنها — مع مساعدتهم — تملك بداخلها ما تتطلبه قيادة الهند.<sup>52</sup>

لم يكن أهم هؤلاء الرجال أو قائد ما صار يعرف بـ «مافيا إنديرا الكشميرية» وزيراً أو صاحب منصب رسمي منتخب، بل كان مسئولاً حكومياً رفيع المستوى يرأس سكرتارية إنديرا، وقد كان هو من طرح «أفكار إنديرا المتناثرة» حول السياسات الاقتصادية، ومن اضطلع بصورة أساسية بوضع سياساتها. لم يكن ذلك الرجل سوى بارميشوار نارايين هاكسار الذي رأى قبل خمسين عاماً — وهو طفل في العاشرة من العمر — إنديرا في فناء في دلهي القديمة وهي جاثمة على كتف أحد الخدم، وقتما أخذ الكل يتودد للطفلة إنديرا ذات العينين الكبيرتين قائلاً: «المسكينة».

في مايو عام ١٩٦٧، في الرابعة والخمسين من العمر، صار بي إن هاكسار السكرتير الأول والشخصي في سكرتارية إنديرا. في أواخر الثلاثينيات سافر هاكسار بعد تخرجه من جامعة الله آباد إلى إنجلترا حيث درس الأنثروبولوجيا في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية على يد برونيسلاف مالينوفسكي، وحصل على رخصة مزاولة المحاماة من هيئة لينكولن القانونية وصار صديقاً وجاراً لفيروز غاندي في هامبستيد، حيث طهى إبان الغارات على لندن الوجبات الكشميرية الشهية لإنديرا وفيروز. أما في الأربعينيات فقد زاول هاكسار المحاماة في الله آباد إلى أن أقنعه نهرو بعد الاستقلال بوقت قصير بالانضمام إلى وزارة الخارجية الهندية. عندها عمل هاكسار بداية مبعوثاً تحت رئاسة كريشنا مينون في السفارة الهندية بلندن، وبعدها صار سفير الهند الأول إلى نيجيريا، وأيضاً سفيراً إلى النمسا، ثم صار في الستينيات قائماً بأعمال سفير الهند في لندن، ومن هنا استدعته إنديرا ليكون ساعدها الأيمن وأيضاً ليضطلع بدور أكثر من ذلك.

في حقيقة الأمر تعمدت إنديرا أن تصطفي هاكسار ليحل محل إل كيه جها سكرتير شاستري الذي شعرت أنه متحفظ أكثر من اللازم. تمتع هاكسار كيساري بخبرات يسارية مثالية وطويلة، كانت إنديرا تعلم بها من علاقتها فيروز به. فعام ١٩٦٦ سحبها هاكسار إلى أمريكا عندما كان نائب السفير الهندي بلندن، وأسدى لها بنصائح تنم عن دهاء لما كانت بصدد إبرام اتفاقيات صعبة مع الرئيس ليندون جونسون. كان رأي هاكسار في إنديرا آنذاك أنها تتمتع بالذكاء لكنها تفتقر إلى الخبرة. لقد رأى أنها «بطبيعتها ليست شخصية سياسية، وأنها لا تفهم طبيعة المواقف السياسية المعقدة الإشكالية». باختصار كانت إنديرا بحاجة إلى الإرشاد، بيد أنها كانت تملك مقومات حقيقية. وأثمن قدراتها في رأي هاكسار هي قدرتها على تكوين علاقات مذهلة، رأى هاكسار دوماً أنها صادقة.<sup>53</sup>

في غضون وقت قصير من تعيين هاكسار السكرتير الأول والشخصي لإنديرا أصبح صانع السياسات الرئيسي للحكومة، وامتلك نفوذًا هائلًا. فلأنه اشتراكي مثقف ورجل لا يشك أحد في نزاهته وضع برنامج عام ١٩٦٧ الإصلاحى المكون من عشر نقاط، ودعا إلى تأميم البنوك وإلغاء المخصصات الملكية التي تمنح للأمرءاء. وفوق كل شيء كان هو من قاد إنديرا لتقسيم حزب المؤتمر عام ١٩٦٧. في الواقع، في أواخر الستينيات، هو من وجه أغلب السياسات الحكومية. ففي الوقت الذي اتهمت فيه إنديرا مرارًا إبان تلك الفترة بمناصرة العامة نفاقًا واعتناق الراديكالية صوريًا، وعُزيت أفعالها فقط إلى دافع المصلحة الشخصية، والحفاظ على البقاء السياسي، لم يشك إلا القليلون في دوافع بي إن هاكسار مستشارها الرئيسي وصانع سياساتها.

على المستوى الشخصي كان هاكسار رجلًا جذابًا؛ فهو وسيم وذكي، وواسع المعرفة والاطلاع على مختلف الثقافات، ولكنه — مثل نهرو — على وعي كبير بهويته الهندية. لقد اعتبر نهرو في صباه وشبابه مثله الأعلى وتشربت أغلب سياساته وأفكاره بمبادئ نهرو. إلا أنه كان كذلك تلميذًا لكريشنا مينون. أخلص هاكسار للهند وحكومتها إخلاصًا شديدًا، لكن مع ذلك لم يكن خافيًا على أحد أنه كان إلى حد بعيد المسئول عن تنامي نفوذ وتأثير سكرتارية رئيس الوزراء في أواخر الستينيات بدرجة هائلة، وأنه تبعًا للسبب في ضعف نفوذ مجلس الوزراء وسكرتاريته. فكان على سبيل المثال وراء نقل السيطرة على شبكة المخابرات ومديرية استخبارات الداخل إلى سكرتارية رئيس الوزراء عام ١٩٦٩. في الواقع، آنذاك، استحوذت سكرتارية رئيس الوزراء تحت رئاسة هاكسار على السيطرة المباشرة وغير المباشرة على أغلب المنظمات الحكومية وبزغت باعتبارها المركز الرئيسي للنفوذ والسلطة.<sup>54</sup>

وثقت إنديرا في دهاء هاكسار وحكمته ثقة عمياء مطلقة. فمن عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٣ يكاد هاكسار أن يكون أكثر الشخصيات نفوذًا وقوة في الحكومة الهندية. وكان أيضًا — وليس سكرتارية مجلس الوزراء — أهم مسئول حكومي في الهند. كان هو من أوجد الـ «بيروقراطيات الموالية» المثيرة للجدل غير المسبوقة، وهي أجهزة حكومية توجهها أيديولوجيا الحزب الحاكم لا الحياد السياسي. لقد أكد هاكسار شفهيًا وكتابة آنذاك وفيما بعد أن كلمة الموالية ليست كلمة مشينة وزعم أن مفهوم البيروقراطيات المحايدة مفهوم خيالي. لكن لا بد أنه كان مدركًا مع ذلك أنه بالتضحية بالحياد السياسي تصبح التضحية بالديمقراطية حتمية لتحقيق أهداف أيديولوجية معينة. وقد صار احتواء

الموقف مستحيلًا حالما حدث ذلك؛ لقد اختل ميزان القوى بالكامل خللاً لا يمكن معالجته. وصارت سكرتارية رئيس الوزراء كياناً يمتلك القوة الشاملة، لا تغطي مكانته على مكانة سكرتارية رئيسة الوزراء وحسب، بل تغطي أيضاً على مجلس الوزراء، والوزارات المستقلة والأجهزة الحكومية.<sup>55</sup>

لعب هاكسار دورًا حاسمًا أيضًا في أحداث صيف عام ١٩٦٩، عندما أثرت مسألة تأميم البنوك في اجتماع لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في يوليو في بنغالور آنذاك. في ١٠ يوليو، حضرت إنديرا الاجتماع وقتما طرحت مسألة ترشيح رئيس للهند. واقترحت فيه أن يترشح جاغيفان رام القائد الهاريجاني للرئاسة مشيرة إلى حلم المهاتما غاندي بوصول أحد الهاريجانيين للمناصب الكبرى. لكن السينديكييت ظل يؤيد سانجيفا ريدي تأييدًا تامًا، وكما هو متوقع، بعدها بيومين، في ١٢ من يوليو رشح أعضاء البرلمان من حزب المؤتمر ريدي رئيسًا بمجموع أربعة أصوات مقابل صوتين. عندئذٍ تأكد لإنديرا أن السينديكييت يريد تولية ريدي الرئاسة في المقام الأول لسبب منطقي، وهو إجبارها على ترك منصبها. وقد أغضبها ذلك. أعدت تاراكيشواري سينها عشيقة فيروز السابقة، وظهيرة ديساي المخلصة بيانًا قالت فيه: «إن كانت رئيسة الوزراء تجد قرار الحزب (بترشيح سانجيفا ريدي) مزعجًا ... فبإمكانها أن تتخلى عن رئاسة الحزب في البرلمان»، لكنها تداركت القول في اللحظة الأخيرة فقالت: «يمكنها أن تطالب بإعادة النظر في القرار».<sup>56</sup> في تلك الأثناء أعلن نائب الرئيس في في جيري أنه أيضًا ينوي الترشح للرئاسة. بعد اجتماع لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند، وبناءً على نصيحة هاكسار وغيره، تحركت إنديرا بسرعة وبحسم. ففي ١٦ من يوليو أعفت ديساي من رئاسة وزارة المالية، وتولت وزارتها بنفسها معللة لذلك بأن ديساي عارض تأميم البنوك. وأخبرت الصحافة تبيانًا لذلك أنه كان على ديساي أن يرحل عن منصبه لأنها لم تستطع تنفيذ برنامجها التقدمي في وجوده وزيرًا للمالية. وأزيح ديساي أيضًا عن منصبه نائبًا لرئيسة الوزراء ولكن ليس بصورة فعلية، لقد هدفت إنديرا إلى دفعه للاستقالة وكان هذا — كما هو متوقع — ما قام به.

بعد ذلك بأربعة أيام أمتت إنديرا أربعة عشر بنكًا تجاريًا بقرار رئاسي، مع أنه كان من المقرر أن يعقد البرلمان بعد وقت قصير. أوضح تأميم البنوك بقرار رئاسي أنه إجراء اتخذته رئيسة الوزراء وحدها. قالت إنديرا لدى إذاعة نداء ذلك الإجراء في إذاعة راديو عموم الهند مستشهدة بمثل هندي: «(قال رجل شكوت من أنني ليس لديّ حذاء، إلى أن قابلت

رجلاً ليست لديه أقدام.) علينا أن ننظر إلى المشكلات التي يعانيها بلدنا من هذه الزاوية. لا يود أحد أن يحرم أي شخص من حقوقه إلا إذا كانت تلك الحقوق تمس حقوقاً تفوقها أهمية وتخص أعداداً أكبر بكثير من الناس.<sup>57</sup> كان تأميم البنوك خطوة تأييد لبسطاء الشعب استقبلوها بسعادة عارمة؛ فقد «رقص في الشوارع الموظفون محدودو الدخل من القطاع الحكومي وغيره وسائقو سيارات الأجرة ... والعاطلون وغيرهم ممن لم يرَ البنوك ... من الداخل من قبل»، واحتشدوا خارج منزل إنديرا في شارع سافدارجانج. وحببت تلك الخطوة الحزب الشيوعي الهندي في إنديرا.<sup>58</sup>

احتاج السينديكييت ورئيس حزب المؤتمر نيجالينجابا إلى حلفاء، لكنهم لما استعانوا بحزب جان سانج وحزب السواتانترا اليمينييين ارتكبوا خطأً اتضحت فداحته فيما بعد. وقعت إنديرا على أوراق ترشيح ريدي رئيساً للهند وصار هذا الأخير مرشح الرئاسة الرسمي لحزب المؤتمر، إلا أنها لم تصدر أمراً لأعضاء البرلمان من الحزب بالتصويت لريدي. لقد حثها مؤيدوها على الدعوة إلى إقامة تصويت حر لأنه من المحتمل أن يكون ريدي مؤيداً من حزب جان سانج وحزب سواتانترا اليمينييين.

بعدئذٍ زاد نيجالينجابا من فداحة الخطأ التكتيكي الذي ارتكبه هو والسينديكييت عندما أكد لإنديرا أن حكومتها لن تتعرض للإطاحة إن صار ريدي رئيساً، حينها ردت إنديرا عليه برفعة نفس رداً عذباً قائلة: «أؤكد لك معارضتي الشديدة لمحاولة إقحام النفوذ في مسألة تتعلق بقضايا جوهرية. لست بحاجة لمن يطمئنني، وإنني لا أسعى إلى الاحتفاظ بمنصبتي بأي ثمن.»<sup>59</sup>

في نهاية الأمر وفي ٢٠ أغسطس أعلنت نتائج الانتخابات الرئاسية. وبفارق ضئيل فاز في في جيري نائب الرئيس السابق بمنصب الرئيس وخسر ريدي، جاء هذا الفوز بمساعدة جماعات معارضة كثيرة مثل الشيوعيين والحزب السيخي المعروف باسم حزب أكالي دال وحزب ولاية تاميل نادو المحلي الذي يحمل اسم حزب درافيدا مونترا كاجاغام. وعلى حد قول أحد المراقبين فإن: «جيري قد فاز ... لكن من الصعب الجزم بأن ريدي قد خسر.»<sup>60</sup> لقد أوشك حزب المؤتمر الذي يبلغ عمره أربعة وثمانين عاماً — والذي قال عنه نهرو إنه مرآة الأمة لأنه يحتضن العديد من الأيديولوجيات والفرق — على الانقسام.

إبان فصل الخريف عُقدت «مباحثات الوحدة» واجتماعات بين فصيلي حزب المؤتمر المتنازعين: الحرس القديم للسينديكييت من ناحية وأتباع إنديرا من ناحية أخرى. إلا أن هذه المباحثات لم تسفر عن أي نتيجة تذكر. ففي ٢٨ أكتوبر كتب نيجالينجابا رئيس



حزب المؤتمر إلى إنديرا خطاباً مفتوحاً يتهمها فيه بأنها ابتدعت نوعاً من «تأليه الذات» تسبب في تهديد سير الديمقراطية في الحزب، وأنهى الخطاب بتوبيخها على أنها جعلت الولاء الشخصي لها مقياساً على الولاء لحزب المؤتمر والأمة.<sup>61</sup> لكن رأيه ذلك لم يُنظر إليه باعتباره جرس إنذار وإنما اغتُبر حينها رأياً وحيداً رجعيّاً.

في الأول من نوفمبر عقد لأول مرة اجتماعان للجنة عمل المؤتمر في آن واحد ومكانين مختلفين في نيودلهي، الأول في مقر لجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في جانتار مانتار رود، والثاني في منزل إنديرا في سافدارجانج رود. حضر كل اجتماع عشرة أعضاء. وبعد أسبوع أصدرت إنديرا «خطاباً لأعضاء حزب المؤتمر» قالت فيه بطريقة غير مقنعة:

«إن ما نشهده الآن ... ليس مجرد صدام بين شخصيات، وبالتأكيد ليس نزاعاً على السلطة. وليس ببساطة صراعاً بين الجناحين البرلماني والتنظيمي، إنه صراع بين وجهتي نظر وموقفين فيما يتعلق بالأهداف والنظم التي يجب أن يعمل بها حزب المؤتمر نفسه. إنه صراع بين فئتين؛ الأولى تمثل أولئك الذين يؤيدون الاشتراكية والتغيير والديمقراطية التامة والحوار داخل الحزب، أما الفئة الثانية فتتمثل أولئك الذين يؤيدون بقاء الأوضاع على حالها، ولا يؤيدون إجراء حوارات مفصلة داخل الحزب.»<sup>62</sup>

في ١٢ نوفمبر عقد السينديكيت تحقيقاً تم فيه محاكمة إنديرا «غيبياً» وقالت نتيجة التحقيق إن إنديرا ثبتت إدانتها بتهمتي العصيان وتحدي قيادة الحزب. بل أشارت نتيجة التحقيق أيضاً إلى أنها تعتزم بيع الهند إلى الاتحاد السوفييتي، وزعم أن بي إن هاكسار هو حلقة الوصل المباشرة بينها وبين السفارة السوفييتية وموسكو. ثم أعلن نيجاليجابا في اليوم التالي على ذلك الاجتماع طرد إنديرا من الحزب.

استشاطت إنديرا غضباً وسخطاً، وطالبت بعقد اجتماع لمجلس الوزراء تعهد فيه أعضاء المجلس — باستثناء القليل منهم — بالولاء لها. وأصدرت أيضاً بياناً قالت فيه: «إنه لمن التجرؤ والغطرسة أن تتخذ تلك الحفنة من الرجال إجراءً تأديبياً ضد قائدة انتخبها الشعب بطريقة ديمقراطية. فهل سنرضخ لهم (أي لقادة الحزب) أم نظهر الحزب من هذه الشخصيات الدكتاتورية الفاشية؟»

أعقب ذلك ضغط مشدد لتحديد الجانب الذي سيحتفظ بالأغلبية من حزب المؤتمر. فيما بعد قال ناراسيما راو في وصف تلك الفترة: «كانت إنديرا غاندي خياراً خطيراً لأعضاء الحزب ومع ذلك فهي خيار واجب.»<sup>63</sup> وكما هو متوقع انضم المزيد من أعضاء المؤتمر

إلى جانب إنديرا عن قناعة قوية لا عن رهبة، وفازت إنديرا بمجموع ٢٩٧ عضواً منهم ٢٢٠ عضواً من مجلس النواب. وعليه تسمى حزب المؤتمر التابع لها بحزب المؤتمر (آر) اختصاراً للحرف الأول من كلمة [تعني المطالب لأنه طالب بعقد جلسة خاصة للحزب] في حين تسمى السينديكييت باسم حزب المؤتمر (أو) اختصاراً للحرف الأول من كلمة [تعني المنظمة]، (ومع ذلك فإن حزب المؤتمر (آر) كان عادة ما يُنظر إليه على أنه يشير إلى حزب المؤتمر الحاكم ويُنظر إلى حزب المؤتمر (أو) على أنه يشير إلى حزب المؤتمر القديم).

كتبت ابنة عمه إنديرا ناياترا ساهجال التي كانت آنذاك صحفية في صحيفة «صانداي ستاندارد» عن انقسام الحزب قائلة: «لقد أصبح أداء الحكومة في السياسة أشبه بسلوك العصابات الكبرى ... فقد أطلقت عهداً جديداً مجرداً من المبادئ في السياسة الهندية. واكتسبت كلمة «القائد» بُعداً مخيفاً ... فصارت مرادفة لحكم الفرد بكل ما ينطوي عليه من مخاطر».<sup>64</sup> أعربت والدته ساهجال فيجايا لأكشمي بانديت هي الأخرى — التي تظاهرت باعتزال السياسة العام السابق على ذلك — عن استيائها من الوضع. فقابلت إنديرا ذلك بأن وهبت منزل آناند بهافان للأمة في نهاية ذلك العام، متجاهلة شرطاً في وصية أبيها ينص على السماح لأخوته بدخول منزل العائلة دوماً، ورفضت أن تسمح لفجايا لأكشمي بانديت بالمبيت في آناند بهافان في الليلة السابقة على مراسم تدشينه نصباً تذكاريّاً. نتيجة لانقسام حزب المؤتمر خسرت إنديرا الأغلبية في كلا مجلسي البرلمان، غير أن منصبها لم يكن بالضرورة مهدداً؛ فقد احتفظت بتأييد حزب الهند الشيوعي وبعض الأحزاب المستقلة والعديد من الأحزاب المحلية. وقد لاقى حزب المؤتمر (أو) عندما نادى بإقامة تصويت بحجب الثقة عنها هزيمة ساحقة. في اجتماع عُقد للجنة حزب المؤتمر لعموم الهند في نهاية نوفمبر في نيودلهي تحركت عواطف إنديرا ودمعت عيناها وهي تتحدث عن إسهام عائلتها في الحزب وعن طرد السينديكييت لها منه. أوضحت إنديرا في الاجتماع أنها — ككل أعضاء الحزب — اضطرت إلى الانتظار إلى أن تبلغ الواحدة والعشرين من العمر كي تصبح رسمياً عضواً فيه. إلا أن عضويته كانت بمنزلة حق أساسي لها، وقد شعرت طوال سنين حياتها في آناند بهافان أنها ولدت عضواً فيه، يستحيل أن تنتمي إلى غيره. من ثم، وهي في الثانية والخمسين من العمر، كانت تقول على رءوس الأشهاد: «لا يمكن لأحد أن يطرديني من الحزب. إنها ليست مسألة قانونية أو مسألة تتعلق بإصدار قرار بالطرد. إنها مسألة تتعلق بالفطرة التي وجد عليها قلبي وكياني».<sup>65</sup> لم تبدِ إنديرا ندماً على انقسام حزب المؤتمر. فقبل ثلاثة أعوام قالت للكاتب فيد ميها في مقابلة صحفية: «لن أحجم عن القول إن حزب المؤتمر صار حزباً محتضراً. إذ لا

يوجد به تقريباً قائد واحد يملك فكرًا معاصرًا ... لم ينجح الحزب قط في الارتقاء بنفسه ليكون حزبًا سياسيًا عصريًا.» واستطردت تقول، وكأنها تتنبأ بما سيحدث في المستقبل: «أحيانًا أشعر أن نظامنا البرلماني يُحتَضَر. فكل شيء يخضع للمناقشات مرارًا وتكرارًا ولا يتم إنجاز شيء. يجري استغلال كل شيء يصلح لأن يُستَغَل لأغراض سياسية. وفوق كل ذلك فإن الجمود الذي تعانيه أجهزتنا الحكومية رهيب.»<sup>66</sup>

يعد «الانقسام الكبير» الذي وقع بالمؤتمر عام ١٩٦٩ نقطة بارزة في تطور مكانة إنديرا وأيضًا في تاريخ السياسة الهندية. أثبتت إنديرا جدارتها؛ فهي كما كتبت عنها صحيفة «نيويورك تايمز» «أثبتت أنها سياسية شجاعة، وصلبة، ومناورة بارعة للغاية، إنها رئيسة وزراء عن استحقاق، وليست مجرد شخصية اضطلعت برئاسة الوزراء لبعض الوقت بالاعتماد على إرثها كابنة لنهرو.»<sup>67</sup> ونتيجة لما اكتسبته إنديرا من استقلالية ونفوذ أجرت بعد ستة شهور من انقسام حزب المؤتمر تغييرًا وزارياً؛ فأبعدت تشافان (الذي أيد سانجيفا ريدي إبان الصراع الذي قام حول مسألة رئيس الهند) وتولت وزارة الداخلية بنفسها. وقد مكنتها تلك الخطوة من إعادة تنظيم إدارة الاستخبارات التي كانت إلى ذلك الوقت مسئولة عن الاستخبارات الداخلية والخارجية. قسمت إنديرا الإدارة إلى جناحين؛ خصصت جناحًا ليكون مسئولًا عن الاستخبارات الداخلية ومكافحة التجسس، أما فيما يخص الاستخبارات الخارجية فقد أنشأت لها جناحًا جديدًا سمته جناح البحث والتحليل، وأخضعت الجناحين لسلطة رئيس الوزراء المباشرة.

تبدلت أحوال الحزب جراء الانقسام الكبير، وصار تغييرها مستحيلًا. أشار هذا الانقسام إلى حدوث نهاية مفاجئة لعقود من الوحدة والائتلاف، فصار الحزب «منظمة مفككة تضم جماعات تتراوح أيديولوجياتها بين اليمينية المتطرفة والرايكانية المعتدلة.»<sup>68</sup> وقبل هذا الانقسام كان الحزب، في أغلب الأحوال، يستوعب قوى المعارضة. أما الآن فإن هذه القوى باتت تُطرد خارجه. وفوق ذلك أشار ذلك الانقسام إلى تحقيق جناح الحزب البرلماني نصرًا على جناحه التنظيمي الذي ستبدأ قوته ابتداءً من تلك اللحظة في التضاؤل. احتاجت إنديرا إلى دعم نفوذها كي تحمي منصبها وسلطتها من التعرض للخطر ثانية، ولم تسع إلى السيطرة على الرئيس وحسب، بل على مجلس الوزراء، ورئيس حزب المؤتمر، ولجنة عمل الحزب، ومجلسه البرلماني، ولجنته للانتخابات المركزية أيضًا. احتاجت إنديرا أيضًا إلى بسط سيطرتها على غير نيودلهي من الولايات. لذا قامت على مدى السنوات التالية، وبطريقة تكتيكية، بدفع زعماء الولايات الذين لم يؤيدوها في نزاعها مع السينديكات إلى ترك مناصبهم؛ ضمت قائمة هؤلاء الزعماء آنذاك رؤساء

حكومات ولاية راجستان، وأندرا براديش، ومادهايا براديش، وماهاراشترا. بعدئذٍ أحلت إنديرا محلهم أتباعها عن طريق «ترشيح» لهم لشغل منصب رؤساء حكومات الولايات، ثم حصل هؤلاء الأتباع على المنصب بعد موافقة نواب حزب المؤتمر المهيمنين على البرلمان. وقد حرصت إنديرا على أن يكون هؤلاء المرشحون رجالاً يخلصون لها شخصياً، لكن يفتقرون إلى القوة والدعم السياسيين.

وقد سرت آثار الانقسام تلك من دلهي — المركز — إلى أصحاب المراكز السياسية الأدنى على مستوى المقاطعات والمناطق، فقضت على تيارات المحسوبية وبنوك الأصوات التي كان هؤلاء يتحكمون بها. فكانت النتيجة — على حد تعبير صونيل خيلناني — هي أن «حزب المؤتمر ... انحط إلى مستوى أصبح فيه شركة غير خاضعة للرقابة اختصاصها هو كسب الانتخابات». وأضاف خيلناني أن الحزب صار «آلية لجمع الأموال، وتوزيع البطاقات الانتخابية»، ومنح الترشيحات لمقاعد البرلمان، وإدارة الحملات الانتخابية.<sup>69</sup>

كانت دوافع إنديرا في ذلك الوقت غامضة. هل بإمكاننا أن نعزو تفكيكها لحزب المؤتمر والانحلال الذي أصاب الديمقراطية الهندية فقط من منطلق «الرغبة في البقاء السياسي»؟<sup>70</sup> إلى حد بعيد كان المستشارون الشخصيون المحنكون الذين أحاطوا بإنديرا — وخاصة بي إن هاكسار — هم من وضعوا استراتيجيتها. وكان كل من هاكسار، ودي بي دهار، وأي كيه جوجرال، وغيرهم من المقربين إليها يتحركون وفقاً إلى أيديولوجية بعينها. إلا أنهم — مثل إنديرا — في سعيهم لتحقيق غاياتهم الأيديولوجية لم يكونوا كنهرو فيما يخص الحرص على عدم التدخل في النظام الديمقراطي والهيكل الحكومي. في تلك المرحلة لم تتمتع إنديرا بالدهاء السياسي الذي كانت كثيراً ما توصف به، إلا أنها في السنوات الثلاثة الأولى المضطربة من فترة رئاستها للوزراء اكتسبت بلا شك قدرًا كبيرًا منه. الخطر الحقيقي الذي أضمرته أعماق نفس إنديرا غاندي وهدد الهند في أواخر الستينيات لم يكن القسوة أو النفاق أو التظاهر بالراديكالية أو التأييد الصوري للعامة، بل كان بالأحرى إيمانها المتزايد بأنها وحدها القادرة على قيادة البلاد. وقد أتى ذلك الإيمان من وعيها بتراتها الشخصي. كانت «أعباء» الماضي — على حد تعبير نهرو — وماضي أسرتها هي بالفعل منبعه. فقد نشأ عن الدور الذي اضطلعت به أسرتها في تاريخ الهند، الذي حاول والدها جاهداً أن يغرسه في ذهنها. فإنديرا كانت كما أخبرها والدها على مدى الأعوام الماضية في كتابه «لمحات من تاريخ العالم» وليدة «عالم من المصاعب والمشكلات». لم تكن إنديرا مثقلة بأعباء الماضي وحسب، بل كانت تشعر أيضاً بأنها مسئولة عن حاضر ومستقبل الهند. إلا أنها أساءت تفسير تلك الواجبات والمسؤوليات وظنت أنهما

ضرورة لا غنى عنها. والأدهى أنها لم تبالِ بطبيعة الوسائل التي تستخدمها في تأدية واجباتها. لقد كشف انقسام حزب المؤتمر عام ١٩٦٩ عن جهل إنديرا بقدرة الديمقراطية على الصمود في وجه المشكلات. ولأنها لم تفهم النظام الديمقراطي جيدًا أو حتى تثق به، فلم تكن مؤمنة بأنه والهند سيتمكنان من البقاء من دونها.

على أي حال آنذاك لم تضع إنديرا نصب عينيها سوى الاستمرار في منصبها. لم يكن قد خطر ببالها بُعد تأسيس أسرة حاكمة. وفي حقيقة الأمر فإنها صرحت مرارًا في المقابلات الصحفية التي أجريت معها أن السياسة لا تثير اهتمام ابنيتها، وأنها ستبذل كل ما بوسعها لتضمن بقاءهما بعيدًا عن عالم السياسة. لم تكن ترغب في توريث «أعباء» أسرتها إليهما. لم تدعُ إنديرا أصدقاءها يشاطرونها تلك الأعباء. ولم تخلط — كما ذكر أي كيه جوجرال — بين الأمور الشخصية والسياسية قط؛ فكانت تضع حاجزًا وقائيًا يفصل بين الاثنين. فمن ناحية زملاؤها من عالم السياسة لم يكونوا أصدقاء لها. ومن ناحية أخرى لم تكن تسمح لأصدقائها — مثل دوروثي نورمان، وماري سيتون، وبوبول جاياكار — بالاطلاع على حياتها السياسية إلا نادرًا.

غير أن الحدود التي رسمتها إنديرا للفصل بين الشؤون العائلية وشؤون الدولة، بين ما هو خاص وما هو عام، أخذت في الانهيار اعتبارًا من ١٣ نوفمبر عام ١٩٦٨؛ ففي هذا اليوم أعلن في مجلس النواب أن ابنها سانجاي غاندي ذا الاثنين وعشرين عامًا تقدم بطلب للحصول على ترخيص بإنتاج سيارة هندية محلية صغيرة تعمل بكفاءة. وقال وزير الدولة الهندي للتنمية الصناعية إن هذه السيارة سوف تباع بمبلغ ستة آلاف روبية، وستبلغ سرعتها القصوى ٥٣ ميلًا في الساعة، ومعدل استهلاكها للوقود هو جالون لكل ٥٦ ميلًا. كانت فكرة إنتاج سيارة هندية تشبه سيارة الفولكس فاجن، تتكلف مبلغًا زهيدًا وتُصنع بالجملة وتصبح «سيارة الشعب» قد بُحثت في اللجان الحكومية لأكثر من عقد، لكن لم يتم اتخاذ قرار أن ينتج القطاع الخاص هذه السيارة إلا عام ١٩٦٨. كان هناك أربعة عشر طلبًا للحصول على ترخيص إنتاج تلك السيارة بخلاف طلب سانجاي، من بينها طلبات من شركات مشهورة في صناعة السيارات مثل رينو وسيتروين وتويوتا ومازدا وموريس.<sup>71</sup>

من الواضح أن سانجاي، الذي لم يكمل تدريبه في شركة رولز رويس، لم يكن من رجال صناعة السيارات أو رجال الأعمال، إلا أنه اشتهر بسلوكه الجامح. ففي سنوات

مراهقته كان هو وصديق له يدعى عادل شاريار (كان ابن صديق لعائلة نهرو يدعى محمد يونس) يسرقان السيارات ويتنزهان بها ثم يتركانها في دلهي. وكان لسانجاي سجل من المآزق والمواقف المحرجة في إنجلترا؛ فأثناء إقامته خارج الهند تسبب في المشاكل باستمرار للسفارة الهندية؛ إذ قبض عليه مرارًا بسبب تجاوزه السرعة القانونية أثناء قيادته سيارته الجاجوار. وفوق كل ذلك قُبِضَ عليه في ديسمبر عام ١٩٦٦، وقتما كان لا يزال في إنجلترا، بتهمة قيادة السيارة بدون رخصة قيادة سارية.

عندما عاد سانجاي للهند عام ١٩٦٧ ظهرت منه بوادر تفيد أنه يود أن يحظى بمكانة رفيعة في الهند كتلك التي يحظى بها هنري فورد في الولايات المتحدة. فافتتح مع صديقه أرجون داس ورشة سيارات في منطقة جولابي باغ بشمال دلهي. وفي هذه الورشة التي اكتظت بالقطع المعدنية الصغيرة المعوجة وقطع الغيار الصدئة، التي «تحيطها مقالب النفايات وبالوعات المجاري التي تطفح بما فيها»، ولد حلم سانجاي بصناعة سيارة هندية تدعى ماروتي على اسم ابن إله الريح في الديانة الهندوسية.<sup>72</sup>

وفي نوفمبر عام ١٩٧٠، بعد مناقشة في مجلس الوزراء تولت إنديرا بالطبع رئاستها. تسلم سانجاي — مع عدم خبرته — خطاب نوايا من وزير الصناعة دينيش سينغ. حصل سانجاي على ترخيص لإنتاج ٥٠ ألف سيارة «زهيدة الثمن» سنويًا مصنعة بالكامل من مكونات محلية. وبدأ إطلاق صناعة سيارة الماروتي، سيارة الأمة. لكن، كما هو متوقع، قوبل منح سانجاي ترخيص الإنتاج باحتجاج عام عنيف. فعلى سبيل المثال اتهم عضو برلماني من الحزب الاشتراكي يدعى جورج فرنانديز إنديرا في الصحف بتهمة «ممارسة أسوأ أنواع محاباة الأقارب». في حين وصف عضو برلماني آخر يدعى راج نارايين مسألة منح سانجاي ترخيص الإنتاج بأنه عار على «الديمقراطية والاشتراكية». وتحدث عضو البرلمان أтал بيهاري فاجبايي (الذي سيصبح رئيسًا لوزراء الهند في المستقبل) عن «الفساد المطلق»، في حين استنكر جيوتي باسو عضو البرلمان (المنتمي للحزب الشيوعي البنغالي) ما رأى أنه ينم عن «فساد إنديرا ومحاباتها لأقاربها». ردت إنديرا على عاصفة الانتقادات تلك ردًا واهيًا، قائلة: «لقد أظهر ابني إقدامًا ... إن لم أشجعه، كيف لي أن أطلب من غيره من الشباب أن يقدموا على المخاطر؟»<sup>73</sup>

من الصعب التأكد مما شعرت به إنديرا إزاء تسلم سانجاي عقد إنتاج سيارة الماروتي. لكن الأرجح أنها شعرت بالحيرة. لم يملك سانجاي أي مؤهلات، ولو كان ابناً لأي شخص غير رئيسة الوزراء لأظلم مستقبله. وهكذا جاءت سيارة الماروتي لتكون

فرصة ذهبية لسانجاي لإثبات ذاته. لكن، في الوقت نفسه، كان على إنديرا أن تدرك أن تلك الفرصة ستؤدي به إلى دخول الحياة العامة. غير أن سانجاي كان شرساً في سعيه إلى الفوز بالعقد. وقد امتك منذ موت فيروز تأثيراً نفسياً عجباً على والدته، لذا من المتوقع أنه حينذاك ضغط عليها بقوة لتسهل منحه ترخيص إنتاج السيارة. وقد كان لإذعانها له في مسألة ترخيص إنتاج الماروتي عواقب وخيمة، مع أن تلك لم تكن المرة الأولى التي يتضح فيها أن إنديرا لا تقوى على رفض طلب لسانجاي. لقد ظلت تصر على أنها لا ترغب في دخول أي من ابنيها عالم السياسة، لكن عقد إنتاج سيارة الماروتي فتح الباب أمام سانجاي للنفوذ إلى ذلك العالم.

في ربيع عام ١٩٧٠ مرت إنديرا بمرحلة مهمة من حياتها على المستوى الشخصي؛ فقد صارت جدة. في العام الماضي أجهضت سونيا غاندي حملها، لكنها في أبريل عام ١٩٧٠ ولدت طفلاً معافى اسمه راهول. وكتبت إنديرا إلى دوروثي نورمان في أغسطس تقول: «إن حفيدي راهول تقر له العين. لقد اختفت التجاعيد من جلده، لكنه احتفظ بلغده».<sup>74</sup> أحببت إنديرا الطفل حباً شديداً، لكن نادراً ما تسنى لها وقت لتمضيه معه. فيما بعد لما تعلم أحفادها المشي صاروا يصاحبونها في بعض الأحيان عند زيارتها إلى الدارشان (مجلس استقبال الزوار) في الصباح لتحياي حشود المعجبين وملتمسي البركات الذين كانوا يحتشدون خارج حديقة منزلها للتحدث إليها قبل زيارتها إلى مكتبها. وتوجد صور لإنديرا وهي جالسة تتحدث إلى حشود الصحفيين على عشب حديقته وفي خلفية الصورة يظهر راهول أو أحد أحفادها الآخرين وهو يلعب. وفيما بعد عندما كان أحفادها في الثالثة أو الرابعة من العمر أو أكبر من ذلك، كانت كثيراً ما تطلب أن يناموا في غرفتها ليلاً. كان يتسنى لها حينئذٍ على الأقل بعض الوقت لتكون معهم، وإن كانوا حينها نياماً.

لم تكن أنشطة إنديرا الرئيسية عام ١٩٧٠ كأشطة أغلب الجدات ممن هن في مثل عمرها. آنذاك عكفت — بتأثير هاكسار ومستشاريها الآخرين — على تطبيق سلسلة من الإجراءات الراديكالية أبرزها وأكثرها إثارة للجدل هو اقتراح إلغاء المخصصات الملكية التي كفلها الدستور الهندي للأمرء الهنود عند الاستقلال. فعام ١٩٧٠ كان في الهند ٢٧٨ أميراً يتقاضون سنوياً من الحكومة الهندية مبلغاً من المال يتراوح بين ثلاثمائة وخمسين ألف دولار و٢٥ دولاراً فقط، المبلغ الأول كان يحصل عليه الأمير الأعظم (سواء من حيث عظم حجم الإمارة التي امتلكها أو — في هذه الحالة — من حيث عظم حجم جسد

الأمير نفسه) مهراجا ولاية موسوري الذي اشتهر بين الناس في الأوساط غير الرسمية بلقب «صاحب الضخامة». أما المبلغ الثاني فكان يحصل عليه المسئول عن جمع الضرائب المستحقة عن قرية كاتوديا وتوريدها للحكومة، وقد كانت كل مخصصات الأمراء معفاة من الضرائب. لذا وضعت إنديرا تعديلاً دستورياً لإلغاء المخصصات الملكية وعرضته على البرلمان في سبتمبر عام ١٩٧٠. وافق مجلس النواب على ذلك التعديل بأغلبية ٣٣٩ صوتاً مقابل ١٥٤ صوتاً. لكنه لم يحصل على الأغلبية في مجلس الولايات (الراجا سابها) فالفارق كان صوتاً واحداً. عندئذٍ استصدرت إنديرا من الرئيس في في جيري — الذي كان يميل لمساعدتها — إعلاناً رئاسياً يقضي «بعدم الاعتراف» بالأمراء وتجريدهم ليس فقط من امتيازاتهم ومخصصاتهم الملكية بل من ألقابهم أيضاً. وبذلك أُضيف إلى الخزنة العامة للدولة ما يزيد عن ستة ملايين دولار، وكما كانت الحال لدى تأميم البنوك لاقى إلغاء مخصصات الأمراء استحساناً شعبياً هائلاً.

وبرغم الشعبية التي حظيت بها السياسات اليسارية المعتدلة التي تبنتها إنديرا آنذاك، فإن حكومتها كانت حكومة أقلية، ومن ثم حكومة ضعيفة. ألغت المحكمة العليا تشريع تأميم البنوك، وأصدرت في أوائل ديسمبر عام ١٩٧٠ قراراً ببطلان الإعلان الذي يقضي بإلغاء المخصصات الملكية التي تُمنح للأمراء. وفي ذلك الحين علت في الأوساط البارزة والمؤثرة في الحكومة أصوات التهامس الدائر حول الحاجة إلى تأسيس «نظام قضائي وبيروقراطي موالين» من أجل تحقيق «العدالة الاجتماعية». كانت إنديرا بحاجة إلى مصادقة شعبية لتؤسس ذلك، فحثها هاكسار على المطالبة بإجراء انتخابات في منتصف فترة ولايتها تكون بمنزلة استفتاء حول سياساتها. وعليه أعلنت إنديرا على الأمة أن الانتخابات ستعقد قبل موعدها بعام في فبراير عام ١٩٧١. قالت إنديرا في إعلانها ذاك: «الزمن لن ينتظرنا. الملايين المحتاجون إلى الغذاء والمأوى والعمل يلحون لاتخاذ إجراء. إن السلطة في البلدان الديمقراطية بين يدي الشعب. لهذا قررنا اللجوء إلى الشعب والسعي إلى الحصول على تفويض من الشعب نفسه».<sup>75</sup>

بعد إعلانها ذلك بوقت قصير سألتها صحفي من مجلة نيوزويك عن القضايا التي ستدور حولها الانتخابات القادمة. فأجابته بلا تردد: «أنا القضية».<sup>76</sup>



## الفصل الرابع عشر

# العالم باللون الأحمر

كانت جميع أحزاب جبهة المعارضة لإنديرا، أو ما يعرف باسم «التحالف العظيم» — الذي تكون من حزب المؤتمر (أو)، وحزب جان سانج، وحزب السواتانترا، وحزب الساميوكتا الاشتراكي — تعلم أن إنديرا هي القضية التي ستدور حولها انتخابات عام ١٩٧١، ووقعت هذه الجبهة في خطأ فادح يتمثل في شخصنة شعار حملتها الانتخابية؛ إذ اتخذت شعاراً لها يقول: «تخلصوا من إنديرا». ردت إنديرا على ذلك الشعار بأن أطلقت شعاراً بسيطاً وفعالاً هو: «تخلصوا من الفقر». جاء شعار «تخلصوا من الفقر» ليكون نداءً للهنود يطالبهم باجتثاث أسوأ الشرور التي تواجهها الهند. وأثبت في الوقت نفسه نجاحه في كسب أصوات الناخبين. كان هذا الشعار «كالصاعقة ... كالرؤيا ... كالثورة». وكان «مفعوله مباشراً وأثره قوياً».<sup>1</sup> إذ رأى الفقراء الذين يمثلون أغلبية الشعب الهندي في إنديرا الخلاص.

أدارت إنديرا حملتها الانتخابية طوال شهري يناير، وفبراير بعزم ومثابرة أشد مما فعلت عام ١٩٦٧. ولما لم يكن هناك تنظيم حزبي يذكر أو قادة آخرون بمكانتها، كانت هي نجم الحملات الانتخابية و«قضيتها». هذا فضلاً على أنها كانت بدعوته إلى عقد اقتراع مبكر في منتصف فترة ولايتها قد فصلت بين انتخابات المجالس التشريعية وانتخابات المجلس البرلماني (التي كان من المقرر أن تعقد في موعدها العام التالي)، بحيث يتركز الاهتمام مباشرة على القضايا الوطنية وانتخابات الحكومة المركزية في نيودلهي.

كانت تلك الانتخابات بمنزلة استفتاء حول إنديرا غاندي نفسها. فيما بعد قصت راج ثابار زوجة روميش ثابار مستشار إنديرا موقفاً من المواقف التي صودفت بكثرة آنذاك ودلت على تفوق إنديرا في انتخابات عام ١٩٧١. تحكي راج أنها ذات يوم عندما كانت تركب سيارة أجرة في دلهي سألت سائق السيارة عما ينوي منحه صوته:

فأجابها على الفور: «آه، نحن معشر سائقي الأجرة قررنا التصويت لإنديرا». سألته راج: «أتعني أنكم ستصوتون لحزب المؤتمر؟» رد السائق قائلاً: «بالطبع لا. نحن لا ننوي التصويت للمؤتمر. نحن ننوي التصويت لها هي.»

عندئذٍ سألته راج: «لماذا لإنديرا تحديداً؟» أجابها سائق سيارة الأجرة بأن إنديرا قد «أثبتت شجاعته» بتأميمها للبنوك. فلما أشارت راج إلى أنه لا يملك بالتأكيد ما يكفي من المال ليفتح حساباً مصرفياً، عندئذٍ رد عليها السائق بحدة قائلاً: «أنت لا تفهمين المسألة. صحيح أنني لا أملك ما يكفي من المال. لكنها أثبتت أنها على استعداد لتأديب أصحاب الغنى الفاحش. وهذا يدل على شجاعته. ومعناه كذلك أنها ... ستفعل شيئاً من أجلنا جميعاً.»<sup>2</sup>

طوال حملة إنديرا الانتخابية التي استغرقت ثمانية أسابيع بذلت إنديرا أقصى طاقاتها، إلا أن الكل لم يصبها؛ كانت تستيقظ قبيل الفجر ولا تخلد للنوم قبل الواحدة أو الثانية صباحاً إلا نادراً. ومن أوائل يناير حتى الانتخابات في أوائل مارس سافرت مسافة ثلاثين ألف ميل جواً ومسافة ثلاثة آلاف ميل بسيارتها والسكك الحديدية. وخطبت في ٤١٠ اجتماعات انتخابية حضرها ٢٠ مليون شخص، الكثير منهم قطع رحلة طويلة ومضنية لرؤيتها وسماعها. وقد تحدثت إنديرا لأحد الصحفيين عن تلك الحملة الانتخابية الشاقة وعن الإعجاب الذي حازته فيها والذي فاق حتى ما حازه نهرو من قبل. قالت إنديرا للصحفي عن الحملة إنها: «مثيرة ... وكأنها حركة؛ حركة شعبية. أحب حقاً التواجد بين أفراد الشعب. فالتعب يذهب عني عندما أكون معهم ... أنا لا أنظر إليهم ككتلة، وإنما أراهم أفراداً كثيرين ... وكل منهم يشعر حقاً أنني أتواصل معه.»<sup>3</sup>

لم يتركز الاهتمام على مرشح واحد بهذه الدرجة من قبل. لقد رُسمت صورة إنديرا بألوان زاهية على لوحات ضخمة وُضعت وسط شوارع المدينة. وكان القرويون — حتى في المناطق النائية — يشبكون شارات تحمل وجهها إلى زيهام الداهوتي والساري، ولا سيما إلى الساري لأن إنديرا حازت تقريباً كل أصوات السيدات. أما مرشحو المؤتمر الآخرين — وكثير منهم اصطفته إنديرا — فقد حجبت إنديرا عنهم الأضواء وهي تجيء وتذهب في البلاد حاملة رسالتها الراديكالية إلى الناس؛ رسالة «تخلصوا من الفقر».

آنذاك كانت إنديرا قد صارت خطيبة تتمتع بالقدرة على الإقناع والتأثير، لم تعد تستند إلى تاريخها في حزب المؤتمر ولا إلى تراث أبيها أو المهاتما غاندي كما اعتادت أن

تفعل كثيرًا في الماضي. يعبر أحد الصحفيين عن ذلك فيقول: «بدلاً من اللعثة بصوت رفيع، في موضوعات مختلفة بلا رابط، صرنا أمام خطيبة مباشرة ومؤثرة. تثير الحماسة في جمهورها.» أهم الموضوعات التي ركزت عليها إنديرا لإثارة حماسة الجمهور هي حملتها البطولية على «القوى الداعية إلى التخلف ... وإخلاصها المجرد من المصلحة الشخصية لقضية محاربة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية». غير أنها وعدت في الوقت نفسه الطبقات المتوسطة ميسورة الحال بأن تكفل لها الاستقرار والانتعاش الاقتصادي. دعا بيان الأهداف الغامض الخاص بإنديرا إلى «دعم الاشتراكية مع إفساح مجال للقطاع الخاص ليلعب الدور المناسب له في الاقتصاد». لقد أكدت إنديرا أن المستقبل يدخر للكل نصيبه، فاستطاعت — على حد تعبير أحد كتّاب سيرتها — أن تستميل الأغنياء والفقراء، وأقنعت كل جانب أنها ستحميه من الآخر.<sup>4</sup>

تعد انتخابات عام ١٩٧١ الاقتراع الديمقراطي الأكبر في التاريخ؛ شارك في التصويت في ذلك الاقتراع ١٥٠ مليون شخص من ٥٢٠ دائرة انتخابية. وكانت نتيجته فوزاً ساحقاً لحزب المؤتمر، وتفويضاً شعبياً هائلاً لإنديرا. فاز حزب المؤتمر (آر) التابع لها بثلاثي مقاعد المجلس الأدنى من البرلمان، بمجموع ٣٢٥ مقعداً؛ أي بأكثر مما فاز به حزب المؤتمر قبل الانفصال عام ١٩٦٧ بسبعين مقعداً. كانت إنديرا في كلكتا في اليوم الأخير من الانتخابات عندما هاتفها بي إن هاكسار يزف إليها خبر انتصارها الوشيك. أما عقب عودتها إلى دلهي فقد ذهبت إليها راج ثابار وبوبول جاياكار لتهنئتها في منزلها حيث وجدتاً حشدًا من المبايعين يحيط بها ويثني عليها ويتلمس قدميها. أومأت إنديرا إلى ثابار وبوبول بالمجيء ووجهها تعلوه ابتسامة عريضة. كانت راج تغلبها المشاعر وأخذت تهنيئ إنديرا بتمتمة غير مفهومة. فقاطعتها إنديرا قائلة: «ألن تبدي حرارة أكثر قليلاً من ذلك؟» فاحتضنتها راج بقوة. بعد عدة أعوام كتبت راج عن ذلك في سيرتها الذاتية: «لقد غلبتنا لحظة السعادة بالاقتراب من الهدف، وتحققت كل أحلامنا ... حتى إننا تناسينا التسلط الذي جمعنا.»<sup>5</sup>

في ١٧ من مارس أعيد انتخاب إنديرا رئيسة لأعضاء حزب المؤتمر في البرلمان بلا منافسة. وقضت الانتخابات العامة تقريباً على المحافظين وأعضاء المؤتمر (أو). كان من بينهم راج ناراین خصم إنديرا في ولاية راي باريللي، وهو سياسي غريب الأطوار أخرج، يبدو أنه جذب الانتباه عام ١٩٧١ لمجرد أنه ابتكر شعار «تخلصوا من إنديرا» الذي انتهى بالفشل.

بعد الانتخابات مباشرة بدا أنه لا سبيل إلى هزيمة إنديرا. لقد صارت أقوى رئيس وزراء للهند منذ استقلالها، وتغير نظام الهند السياسي تغيراً جذرياً. كانت إنديرا وحدها — لا حزبها — وراء النصر في انتخابات عام ١٩٧١. لذا اتسعت قدرات وسلطات رئيسة الوزراء بدرجة كبيرة. وصارت قيادة إنديرا للحزب ضرورة، فقد كانت الشخصية الوحيدة في الهند التي تتمتع بتأييد شخصي يسمو فوق الانتماءات للمناطق والطوائف ... وكانت منزلتها الرفيعة تلك تنبع من التأييد الشعبي الهائل الذي تتمتع به لا من قوة حزب المؤتمر أو قادة الحزب في الولايات.<sup>6</sup>

في مارس عام ١٩٧١ وعى القليلون فقط الخطر الذي يكمن في تركيز السلطة في يد أصحاب المناصب العليا. وصفت صحيفة لينك اليسارية الهندية «موجة إنديرا» التي قامت في الانتخابات بأنها «تفويض بالقيام بإصلاحات راديكالية ... سيصبح به الآن تمرير الإصلاحات الدستورية في مجلس النواب — مع الحرب على القوى الداعية إلى التخلف — سهلاً.<sup>7</sup>» لقد عكفت حكومة إنديرا على وضع برنامج إصلاحى عقب الانتخابات، إلا أن ذلك البرنامج كان إصلاحياً في أجزاء منه فقط؛ على سبيل المثال في تأميم قطاع التأمين وصناعة الفحم. وإصدار ستة وعشرين تعديلاً دستورياً يقضي بحرمان حكام الإمارات من مخصصاتهم الملكية وامتيازاتهم للأبد. لكن في أجزاء أخرى، كقرار الحفاظ على الأمن الداخلي الذي أجاز اعتقال الأفراد واحتجازهم بلا محاكمة لمدة عام، كانت الإصلاحات قمعية بدرجة صارخة.

وفوق كل شيء، في شهري أغسطس وديسمبر عام ١٩٧١، صدر التعديلان الدستوريان الرابع والعشرون والخامس والعشرون. هذان التعديلان مكنا الحكومة من إدخال تعديلات على الحقوق الأساسية التي يحفظ الدستور الهندي لها قدسيتهما من ناحية وأجازا حماية تلك التعديلات من المراجعة القضائية من ناحية أخرى. في العام السابق على ذلك كانت المحكمة العليا قد أحبطت محاولة الحكومة الاستيلاء على مخصصات الأمراء الملكية وسلطاتهم، أما الآن فقد صار الطريق ممهداً لتقييد حرية السلطة القضائية. كان المنطق الأساسي الذي قامت عليه تلك التعديلات حسبما قالت إنديرا لمجلس النواب هو أن الدستور ليس قدس الأقداس ولا ناموساً ثابتاً، وأن البرلمان لا الدستور يجب أن يمتلك السلطة لتحديد الحقوق الأساسية. قالت إنديرا: «في ظل الكثير من الارتباك على الساحة التشريعية تغير الدستور في الدول الأخرى، كما تغير في دولتنا، وإن لزم تغييره من أجل مصلحة الشعب فعلياً قطعاً أن نقوم بذلك ... هذا من الواضح؛ يجب أن تعني الديمقراطية أحقية الأغلبية من الشعب.»<sup>8</sup> وصفت إنديرا

التعديلين الدستوريين الرابع والعشرين والخامس والعشرين بأنهما «نقطة بارزة في تطور الديمقراطية»، في حين زعم نقادها ومعارضوها أنهما «حولاً الدستور إلى أسمال بالية».<sup>9</sup> تولى الدفاع عن برنامج الإصلاح الدستوري الذي وضعته إنديرا موهان كومارامانجالام، وهو صديق ماركسي قديم لفيروز غاندي وببي إن هاكسار من أيامهما بلندن في الثلاثينيات. ففي عام ١٩٦٦ انشق كومارامانجالام عن الحزب الشيوعي وانضم إلى حزب المؤتمر، وبعدها عينته إنديرا بعد انتصارها في انتخابات عام ١٩٧١ وزيراً للصليب والهندسة الثقيلة. فصار سريعاً واحداً من أهم واضعي سياستها ومتحدثاً بارزاً باسم جماعة يسارية داخل حزب المؤتمر تعرف بمنتهى المؤتمر للعمل الاشتراكي. كان من أهم أهداف هذا المنتدى تعديل الدستور الهندي «بحيث تتبدل العلاقة بين الحقوق الأساسية للأفراد والمبادئ التوجيهية التي تتبناها سياسة الدولة، وتصبح المصلحة الاجتماعية العامة فوق مصلحة الفرد ... (لأنه) لا يوجد ما يبرر اعتبار حقوق الأفراد حقوقاً أهم من حقوق المجتمع».<sup>10</sup> نادى كومارامانجالام أيضاً بتأسيس «سلطة قضائية موالية»؛ شأنه بالضبط شأن هاكسار في دفاعه عن فكرة تأسيس بيروقراطية موالية.

في تقرير بعنوان «التعديلات الدستورية والسبب وراءها» ذكر كومارامانجالام أن «الهدف الواضح» للتعديلات هو إخضاع حقوق الأفراد كما يعبر عنها (في أحكام الدستور) الخاصة بالحقوق الأساسية ... للغايات المجتمعية الطارئة».<sup>11</sup> أو بعبارة أخرى جعل تبرير الوسيلة ممكناً بالغاية. كان كل شيء سيكون جيداً، يسير على ما يرام ما دام من يحددون الغايات من أصحاب المبادئ ككومارامانجالام، وببي إن هاكسار. إلا أن هذين الرجلين ومعهما إنديرا كانوا — مع حسن نواياهم — يعبثون بآليات العمل الحكومية. ماذا كان سيحدث لو احتل أفراد أقل تشبهاً بالمبادئ أو أقل إيماناً بـ «التقدمية» المناصب التي يحق لها تحديد الحالات التي يجب فيها إخضاع حقوق الأفراد لمصلحة المجتمع، وفيها فضلاً عن حق التملك (الذي كان الهدف الأساسي من تعديلات عام ١٩٧١ الدستورية) حق المساواة أمام القانون وحرية التعبير والاجتماع وتكوين النقابات والدعوة للحركات؟ لكن التعديلات الدستورية — وتبعاتها — لم تبدُ أكثر القضايا إلحاحاً في ربيع عام ١٩٧١. كان ما أسر انتباه إنديرا والهند عقب الانتخابات العامة هو محنة شرق باكستان. إبان تقسيم الهند بدت دولة باكستان — بمفهومها كدولة تتكون من جناحين يفصل بينهما امتداد شاسع من الأراضي الهندية طوله ١٢٠٠ ميل — دولة واهية، وحينذاك؛ أي بعد التقسيم بأربعة وعشرين عاماً كانت تلك الدولة، موطن محمد علي جناح، تقف

على شفا التدمير الذاتي. ضم شرق باكستان البنغالي أغلب السكان (نحو ٦٠٪) لكنه من الناحية الجغرافية أصغر من غربها الذي امتلك السيطرة السياسية والاقتصادية على الشرق منذ عام ١٩٤٧. في ذلك كتبت بينظير بوتو، إحدى السيدات التي ستشغل منصب رئيسة وزراء باكستان بعدئذٍ، تعترف بأنه في دولة باكستان المنقسمة إلى شعبين «بصفة أساسية، عاملت الأقلية في الجناح الغربي الجناح الشرقي الذي ضم غالبية السكان على أنه مستعمرة. فمن عائدات صادرات الجناح الشرقي التي تبلغ قيمتها ٣١ مليار روبية شيدت الأقلية في الجناح الغربي الطرق والمدارس والجامعات والمستشفيات لها، ولم تبني إلا القليل للجناح الشرقي. وكان الجيش الذي يعد الموظف الأكبر في دولتنا التي تعاني فقرًا شديدًا يستقي ٩٠٪ من قواته من الجناح الغربي، الذي شغل سكانه ٨٠٪ من الوظائف الحكومية».<sup>12</sup> كان هناك أيضًا صراع عنصري ثقافي. لم يكن من الصعب تمييز سكان الجناح الشرقي الذين يتحدثون البنغالية ويتسمون بوجه عام بصغر أحجامهم ودكنة بشرتهم عن «أبناء جلدتهم» من الجناح الغربي الذين يتحدثون الأردية والبنجابية والسندية. لقد صارت اللغة في الواقع سببًا رئيسيًا من أسباب النزاع بين كلا الجناحين عندما صارت اللغة الأردية وليس البنغالية أو حتى اللغتان معًا اللغة الرسمية الوحيدة لباكستان.

على عكس الهند التي صمدت فيها الديمقراطية أمام القلاقل السياسية والمجاعات والحروب وغير ذلك من تقلبات الأحوال، انهارت الديمقراطية في باكستان بعد ما يزيد قليلاً عن عقد من استقلالها عن الهند، وتسلم الجيش زمام السلطة. وعام ١٩٧١ كان قد مر على باكستان نحو ثلاثين عامًا تحت الحكم العسكري. ونشأ في شرقها في أواخر الستينيات حركة تقرير مصير ديمقراطية تزعمها قائد ذو شخصية مؤثرة كالشيخ عبد الله في كشمير يدعى بالشيخ مجيب الرحمن، وهو رجل ستجمع بينه وبين إنديرا فيما بعد علاقة تواءم شخصي وسياسي استثنائية.

بدأت الكارثة التي أسفرت في نهايتها عن ميلاد دولة بنجلاديش في ديسمبر عام ١٩٧٠، عندما عقدت في باكستان الانتخابات العامة لأول مرة منذ عدة سنوات. أدار حزب الشيخ مجيب الرحمن حزب رابطة عوامي الحملات مطالبًا باستقلال الجناح الشرقي، فأحرز نجاحًا ساحقًا؛ إذ فاز بجميع مقاعد البرلمان في جناح باكستان الشرقي عدا اثنين، فحاز بذلك الأغلبية التي تحسم له الفوز في الجمعية الوطنية لباكستان (مجلس النواب). كان المفترض وفقًا لنتائج الانتخابات أن يتولى الشيخ مجيب الرحمن الرئاسة. لكن قائد

باكستان العسكري الجنرال يحيى خان لم يتزحزح عن الرئاسة، واتحد مع ذي الفقار علي بوتو قائد حزب الشعب لغرب باكستان — الذي أحرز نصرًا أقل في الجناح الغربي من باكستان — لمنع الشيخ مجيب الرحمن من تسلم زمام السلطة. ردًا على ذلك شن حزب رابطة عوامي حركة عصيان مدني قوية في الجناح الشرقي.

تبعًا لفرض الجنرال يحيى خان في ٢٥ من مارس عام ١٩٧١ نظامًا قمعيًا وحشيًا لإخماد القلاقل السياسية في شرق باكستان. فزحف الجيش الباكستاني على شرق باكستان ونهب وأحرق المنازل والمنشآت التجارية واغتصب النساء وقتل الآلاف من الأبرياء. وطورد وذبح كل من يشتبه في معارضته للنظام الحاكم وفي ذلك الطلاب ومحاضرو الجامعات والكتاب والصحفيون والمفكرون. وقُبض على مجيب الرحمن نفسه ونُقل جواً إلى السجن في غرب باكستان. فتمردت الشرطة في الجناح البنغالي الشرقي ومعها قوات الجناح الشرقي وفوج الكتائب البنغالية الوحيد في الجيش الباكستاني. وأعلن شرق باكستان الذي صار يعرف ببنجلاديش استقلاله، وأسس قادة حزب رابطة عوامي الذين فروا إلى كلكتا حكومة في المنفى. وصلت المذابح التي يرتكبها الباكستانيون الغربيون فيما ظل يعرف بباكستان الشرقية إلى حد الإبادة الجماعية. حتى إنه قُتل ما قُدِّرَ في نهاية العام بنحو ثلاثة ملايين شخص.

وقفت إنديرا في ٣١ من مارس في مجلس النواب بعد ستة أيام من إطلاق الجنرال خان عهده المرعب في باكستان الشرقية، وأعلنت قرارًا مؤثرًا، قالت فيه:

«يعرب هذا المجلس عن تعاطفه الشديد وتضامنه مع شعب شرق البنغال في كفاحه لنيل حياة ديمقراطية. وأخذًا في الاعتبار مصلحة الهند دائمًا في حلول السلام يطالب هذا المجلس انطلاقًا من التزامه بتأييد حقوق الإنسان والدفاع عنها بوقف العنف والمذابح التي تُرتكب في حق الضعفاء. ويطالب جميع الأفراد والحكومات باتخاذ خطوات عاجلة وبناءة للضغط على حكومة باكستان لإنهاء عمليات القتل المنظمة التي تصل إلى حد القتل الجماعي فورًا. ويعرب عن إيمانه العميق بأن انتفاضة شعب شرق البنغال ذي الخمسة والسبعين مليون نسمة التاريخية ستنتصر. ويرغب في التأكيد له أن كفاحه وتضحياته ستحظى بكل التأييد والمؤازرة من الشعب الهندي.»<sup>13</sup>

بعدها مباشرة تدفق لاجئو باكستان الشرقية من حدود الهند إلى داخلها. وصل معدل تدفقهم في ذروته إلى مائة وخمسين ألف لاجئ يوميًا ليصل العدد في غضون تسعة أشهر

إلى عشرة ملايين لاجئ. جاءوا على الشاحنات والعربات التي تجرها الثيران وسيارات الريكشا وعلى الأقدام؛ طلباً للجوء في معسكرات اللاجئين التي بنيت على عجل، وشابهت المعسكرات التي بنيت في دلهي إبان تقسيم الهند.

بعد شهر من تدفق اللاجئين على بنغال الشرقية زارت إنديرا عدداً من المعسكرات المتناثرة في أرجاء كلكتا. لقد حسبت أنها مستعدة لما قد تجابهه هناك بعد تجربتها في معسكرات اللاجئين في دلهي قبل أربعة وعشرين عاماً. لكنها لم تكن كذلك. يقول بي إن دهار الذي صحب إنديرا في وصف المشهد: «ما رأيناه في المعسكرات يتحدى الوصف. كان الأدهى من القصص التي استمعنا إليها عما حدث لهم، هو حالتهم الجسدية والنفسية التي ألحت على ضمائرنا. لقد كنا في مكاتبنا منشغلين بأعدادهم والأضرار السياسية الناتجة عن وجودهم وحساب التكاليف المالية لإعالتهم». في ضواحي كلكتا استمعت إنديرا ودهار إلى قصص الاغتصاب والتعذيب والقتل التي حكاها اللاجئين. واضطروا فوق ذلك إلى تحمل رائحة ومنظر المشردين الذين طردوا من ديارهم واعترتهم الصدمة والرعب. توقع دهار وغيره من مساعدي إنديرا أن تقول بعض كلمات العزاء والتأييد للاجئين لكن «التأثر بحجم تلك المأساة الإنسانية غلبها، ففقدت تقريباً قدرتها على النطق».<sup>14</sup>

أثارت تدفقات اللاجئين البنغاليين على الهند بأعداد هائلة ردة فعل قوية فيها؛ حيث طالب الكثيرون باللجوء فوراً إلى استخدام القوة مع باكستان الغربية. تسبب اللاجئين للهند أيضاً في أعباء مالية ضخمة بلغت ٣٦٠٠ مليون روبية هندية في ديسمبر عام ١٩٧١، وهو مبلغ لم تكن الهند قادرة على تحمله. غير أن ثلثي اللاجئين تم إيواءهم في معسكرات كان يوفر لهم فيها الطعام والمأوى والكساء والعناية الطبية. وساعدت الهند في تدريب جيش تحرير بنجلاديش؛ جيش موكتي باهيني.

في غمرة تلك الأزمة المتفاقمة مع باكستان، وفي أواخر مايو، تحول اهتمام الهند لبعض الوقت إلى فضيحة غريبة ليست بالتمام بعيدة الصلة عن أزماتها مع باكستان. في صباح ذات يوم تلقى فيد براكيش مالهوترا أمين صندوق مصرف «ستيت أوف إنديا» اتصالاً هاتفياً من شخصية عرفت نفسها بأنها رئيسة وزراء الهند. أمر المتصل مالهوترا بسحب ستة ملايين روبية من فئة المائة روبية وتسليم ذلك المبلغ السري إلى «رجل محترم» من بنجلاديش سيلتقي مالهوترا في مكان محدد في دلهي. نفذ مالهوترا ما أمر به؛ فالتقى «رجل بنجلاديش» — الذي اتضح أنه قائد جيش بارسي سابق كان يعمل في الاستخبارات الهندية في جناح البحث والاستخبارات، يدعى رستم سهراب ناجاروالا — وأعطاه النقود.



بعدها هرع مالهوترا إلى مكتب إنديرا ليخبر بي إن هاكسار بأنه نفذ ما طُلب منه. فأخبره هاكسار زاهلاً أن إنديرا لم تأمر بمثل ذلك الإجراء وحثه على التوجه فوراً إلى الشرطة. قُبِضَ على ناجاروالا بعدها مباشرة تقريباً، واعترف بانتحال شخصية رئيسة الوزراء على الهاتف للحصول على المال المطلوب لتمويل حركة التحرير في بنجلاديش.

غير أن اعتراف ناجاروالا لم يخدم الضجة التي تسببت فيها الحيلة التي قام بها. ولم تفلح محاكمته وإدانته وحبسه — وقد جروا جميعاً سريعاً في غضون ثلاثة أيام من اعتقاله — في ذلك. فقد أثّرت «قضية ناجاروالا» في البرلمان وشغلت اهتمام الصحافة. وفي السجن سحب ناجاروالا اعترافه وطلب إعادة محاكمته. لكنه توفي فيه في مارس عام ١٩٧٢ بما زعم أنه مرض في القلب. وتوفي أيضاً — في الوقت المناسب — الضابط الموكل بقضيته في حادث سيارة. فصل مالهوترا من مصرف ستيت بنك أوف إنديا. وبعدئذ أُغلقت القضية. ظل مالهوترا إلى النهاية يؤكد النسخة الرسمية لقضية ناجاروالا. إلا أنها كانت قضية يملؤها الغموض، لذا دارت الشائعات بأن إنديرا طلبت بالفعل في أول الأمر الستين مليون روبية، ثم دبّرت لإخراس ناجاروالا. غير أنه ادّعى بعدها بعدة أعوام أن ناجاروالا — بعكس الزعم القائل أنه تابع لإنديرا — أجبر استخدمته المخابرات المركزية الأمريكية التي هدفت لتشويه صورة إنديرا.<sup>15</sup>

بحلول الوقت الذي أخذت فيه فضيحة ناجاروالا تتلاشى من عناوين الصحف، كان العداء بين الهند وباكستان قد اشتد أكثر. لكن إنديرا ظلت محتفظة برباطة جأشها كعهدها دائماً في الأزمات. فمع أنها أحيطت بجلبة سياسية شبه هستيرية، فإنها لم تتصرف بتهور أو اندفاع. إلى حد بعيد، كان بي إن هاكسار الأمين فيما تلا من أشهر هو من يحدد ويوجه أفعالها التي اتضح مع الوقت أنها عين الصواب تقريباً، وأنها تتم على نحو موقت بدقة. نقلت إنديرا الصراع بين باكستان الغربية والشرقية إلى ساحة المجتمع الدولي، وبذلت قصارى جهدها لتجعل الإرهاب الذي تمارسه حكومة باكستان الغربية في باكستان الشرقية قضية عالمية تركز على حقوق الإنسان بما فيها الحريات الديمقراطية الأساسية وحق تقرير المصير. لقد أملت أن يسفر ضغط المجتمع الدولي عن تسوية سلمية، فهي لم تكن عازمة على شن حرب إلا إذا اضطرت لذلك، مع أن الاستعدادات العسكرية في الهند بدأت في مرحلة مبكرة من تلك الأزمة.

غير أنه كان هناك سبب آخر استراتيجي يمنع من الإسراع في خوض نزاع مسلح ضد باكستان. كان رئيس أركان القوات المسلحة الهندية جنرال بارسي خفيف الظل يدعى

سام مانيكشاو، يملك أنفًا أطول حتى من أنف رئيسة الوزراء (كما قال مازحًا). في وقت سابق أخبر إنديرا أنه من الطيش التورط في نزاع عسكري قبل انتهاء موسم الأمطار. غير أن مانيكشاو كان أيضًا متخوفًا من احتمال أن تهب الصين لنجدة باكستان الغربية. أما إن أمكن للهند تلافي الدخول في قتال حتى الشتاء فسيكون من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — على الجيش الصيني أن يتجاوز الممرات الجليدية في جبال الهيمالايا.

في ٧ من يوليو وصل هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون إلى دلهي للقيام بزيارة قصيرة إلى الهند في إطار جولته الطويلة في آسيا. في الواقع كان كيسنجر متجهًا إلى الصين في مهمة اشتهر بها نيكسون تاريخيًا، هي انفراج العلاقات الدولية مع تلك الدولة التي لم تكن الولايات المتحدة تعترف بها. لكن وجهته الأساسية كانت سرًا حرص على أن يظل في طي الكتمان. حتى إن هاكسار، بعدها فقط، انتبه إلى مدى ما كانت المأدبة الصينية الفخمة التي أقامتها الحكومة الهندية في فندق آشوك تكريمًا لكيسنجر موائمة للموقف.

قبل مغادرة دلهي أوضح كيسنجر لإنديرا وهاكسار أن الولايات المتحدة ليست على استعداد لمساندة الهند إن شنت على باكستان حربًا بسبب بنجلاديش.<sup>16</sup> وبعدها سافر جواً إلى باكستان حيث أعلن أنه مرض بسبب الحر وأصيب بنوبة من «الإسهال» أُجبر على إثرها على الالتجاء إلى أحد المنتجعات الصحية الجبلية النائية ليتعافى. وحقيقة الأمر هي أن الباكستانيين ذهبوا به في طائرة عسكرية في منتصف الليل إلى الصين حيث التقى بالقائدين الصينيين تشو آن لاي والزعيم ماو.

لم تكتشف إنديرا وهاكسار ذلك إلا فيما بعد. لكن حينذاك قبلت إنديرا — على ضوء تصريحات كيسنجر الصريحة في الهند، والعلاقات الطيبة التي تجمع بين الولايات المتحدة وباكستان — بمعاهدة «السلام والصداقة والتعاون» مع الاتحاد السوفييتي التي عرضها ليونيد بريجينيف لأول مرة قبل ثلاثة أعوام. فوضع هاكسار شروط المعاهدة بدقة، وفيها المادة رقم تسعة التي تضمن اتفاق الاتحاد السوفييتي والهند على «الامتناع عن تقديم المساعدة لأي طرف ثالث يشتبك معه أي من الطرفين الموقعين للمعاهدة في نزاع مسلح». وأضاف أيضًا فقرة يؤكد فيها على التزام الهند بمبدأ عدم الانحياز، ومن المفارقة أن تلك المعاهدة هدفت إلى القضاء نهائياً على مبدأ نهرو ذاك. ناقش مستشارو إنديرا المقربون ودي بي دهار رئيس لجنة تخطيط السياسات — الذي كان كثيرًا ما يوصف بكيسنجر الهند — شروط المعاهدة في موسكو. ثم في ٩ من أغسطس عام ١٩٧١؛ بعد شهر فقط من

المأدبة الصينية التي أقيمت لكيسنجر، وصل وزير الخارجية السوفييتي أندريه جروميكو إلى دلهي ووقع المعاهدة وسط ضجة إعلامية كبيرة.

بعدها بعدة أيام أعلن الجنرال خان أن الشيخ مجيب الرحمن سيحاكم قريباً محاكمة عسكرية في باكستان. لقد تقرر أن تجرى محاكمته في إحدى المحاكم العسكرية الخاصة، في غرفة قاضٍ حيث كان من المفترض أن تتم المحاكمة سرّاً. فكاتبت إنديرا على الفور رؤساء الدول في جميع أنحاء العالم تحذره من أن تلك «المحاكمة المزعومة لن تكون سوى ستار يغطي على إعدام الشيخ مجيب الرحمن»، وستجلب عواقب كارثية على كل من باكستان الشرقية والهند. وناشدتهم «ممارسة ضغوط على الرئيس يحيى خان ... من أجل المصلحة العامة في حلول السلام والاستقرار في المنطقة».<sup>17</sup> فلما فشل ذلك النداء في تحريك ردة فعل قوية قررت إنديرا أن تسافر خارج البلاد لتعرض قضيتها بنفسها على المجتمع الدولي.

في سبتمبر عام ١٩٧١ سحب هاكسار إنديرا إلى الاتحاد السوفييتي. أكدت إنديرا في خطاب في موسكو أن «ما حدث في بنجلاديش لم يعد من الممكن عده مسألة تخص الشأن الباكستاني الداخلي». وأضافت: «أكثر من تسعة ملايين لاجئ من بنغال الشرقية قدموا إلى دولتنا. أليس لهؤلاء الحق في العيش والعمل بوطنهم؟ ليس من المنطقي أن تستوعب دولتنا هؤلاء. إن هذا ليس نزاعاً هندياً باكستانياً. وإنما مشكلة دولية. وإن كان ثقلها قد وقع على كاهل الهند. إن المبادرة بخلق ظروف تسمح للاجئين ... بالعودة إلى أوطانهم بلا خوف هي بلا شك مسئولية عالمية».<sup>18</sup> بعد المحادثات التي أجرتها إنديرا مع بريجنيف ورئيس الوزراء كوسيجين غادرت إنديرا الاتحاد السوفييتي بتعهد من جانبه بتقديم المساعدة العسكرية للهند في حال شنها حرباً على باكستان بسبب بنجلاديش.

بعدها بشهر فقط، في ٢٤ أكتوبر، عكفت إنديرا وهاكسار وكبير مسئولي الشؤون الخارجية الهندية تي إن كاول على القيام بجولة استمرت ٢١ يوماً زارت فيها أوروبا وأمريكا في محاولة لتحريك الرأي العام. فزاروا بلجيكا وفرنسا والنمسا وألمانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة. لاقت قضية إنديرا تعاطفاً في كل مكان عدا الولايات المتحدة التي وصلت إنديرا وهاكسار إليها في أوائل نوفمبر عام ١٩٧١.

تنافر ريتشارد نيكسون وإنديرا غريزياً أو — بتعبير هنري كيسنجر الألف — «لم يكن مقدراً لشخصيتهما أن تتألفا». قبل ثلاثة أعوام، عام ١٩٦٩، زار نيكسون الهند في إطار جولة قام بها حول العالم، وأحبب من الاستقبال الفاتر الذي حظي به في دلهي

بالمقارنة بالاستقبال الحاشد والتهافتات اللذين حظي أيزنهاور بهما عام ١٩٥٦. وقد بدا أنه يحمل ضغينة تجاه إنديرا منذ تلك الزيارة. فضلاً عن ذلك أشعرته إنديرا بالخوف؛ فقد أيقظت — وفقاً لكيسنجر — «شكوك نيكسون في نفسه».<sup>19</sup>

لذا لا عجب أن الجو الذي ساد محادثاتهما كان مشحوناً بالعداء والريبة. لقد التقيا في يومين متتاليين هما الرابع والخامس من نوفمبر في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض؛ حيث جلست إنديرا ونيكسون على كرسيين مجنحين على كلا جانبي مدفأة المكتب، في حين جلس هاكسار وكيسنجر كلٌّ على أريكة مجاورة لرئيسه. وكأن كليهما سيحل رئيسه في المباراة إذا أصابه مكروه. وبعد مغادرة المصورين افتتحت إنديرا النقاش بينها وبين نيكسون بالثناء على سياسته في فيتنام والصين «وكانها مدرس يثني على طالب بليد». ثم زادت من سوء موقفها بأن مضت إلى الإشارة إلى نيكسون قائلة: «قد أنجز ما أوصت به الهند لأكثر من عقد» فيما يتعلق بالصين. فكظم نيكسون غيظه في عينين خاويتين من التعبير وتهذب. وجلس هاكسار وكيسنجر «في تبلد على أريكتيهما».<sup>20</sup>

فيما بعد وصف كيسنجر المحادثات التي جرت بين إنديرا ونيكسون بأنها «مثال لحوار الصم»، وذكر أن التعليقات التي تفوه بها نيكسون بعدها «لا يجوز ذكرها في مطلق الأحوال».<sup>21</sup> رفض نيكسون القيام بأي شيء للمساعدة في تسهيل إطلاق سراح الشيخ مجيب الرحمن، أو إقناع الجنرال خان بفتح حوار مع قادة حزب رابطة عوامي. لكنه مال إلى منح حكومة باكستان الغربية العسكرية عامين لتتقبل فيهما الوضع في باكستان الشرقية. فردت إنديرا على ذلك: «الوضع متفجر، ولن يمكن تهدئته إلا بإطلاق سراح الشيخ مجيب الرحمن وبدء حوار مع قادة باكستان الشرقية الذين انتخبوا بالفعل». وقالت له أيضاً: «إن الهند ستضطر قطعاً إلى الانتقام إن واصلت باكستان السياسات الاستفزازية التي تنتهجها عبر حدود (الهند)».<sup>22</sup>

فلما وصلت مباحثات إنديرا ونيكسون إلى طريق مسدود في اليوم الأول، لم يحاولا حتى التظاهر بمناقشة الأزمة الهندية الباكستانية في اليوم الثاني، ذلك اليوم أبقى نيكسون إنديرا في غرفة الانتظار خمساً وأربعين دقيقة قبل أن يصل إلى المكتب البيضاوي. فاستشاطت غضباً، لكنها ردت لنيكسون وقاحتها بدهاء؛ فلم تشر إلى باكستان على الإطلاق فيما تلا من نقاش. بل جعلت تسأل نيكسون أسئلة تشف عن قراءة له حول ... السياسة الخارجية (الأمريكية) في الأماكن الأخرى، وكأن شبه القارة الهندية هي البقعة الوحيدة في العالم التي تنعم بالسلام والاستقرار. يقول كيسنجر في ذلك: «لقد منحتنا علامات مشرفة في كل مكان باستثناء تلك البقعة».<sup>23</sup>

لما لم يكن شيء ذو أهمية يحدث في لقاء نيكسون وإنديرا الثاني وجد هاكسار نفسه منشغلاً بمتابعة نيكسون وكيسنجر. حكم هاكسار على نيكسون بأنه شخص «يفتقر إلى المبادئ الأخلاقية»، في حين رأى أن كيسنجر — الذي كان أكثر مكرًا واعتدادًا بنفسه من نيكسون — شخص «مجنون بعظمته يحسب نفسه مستشار النمسا الشهير مترنيخ».<sup>24</sup> أذهل وجه نيكسون هاكسار حتى إنه شعر برغبة تكاد تكون عارمة في لمسه؛ كان يبدو بابتسامته المتشنجة الآلية وحاجبيه الكثين المقطبين كأنه وجه غير حقيقي كالقناع. حتى إن هاكسار شعر أن إنديرا — التي قد تكون أحيانًا باردة المشاعر ومتحفظة ومتكبرة ولا مبالية — كانت مع ذلك في منتهى الإنسانية بالمقارنة بنيكسون الآلي. الشيء الوحيد الذي دل على أن المشاعر قد تبدر من نيكسون هو تعرقه بغزارة، خاصة تحت الضغط.<sup>25</sup> غير أن محنة لاجئي باكستان الشرقية والعبء المالي الذي كانت الهنديه تعانيه لم يؤثرًا في نيكسون وكيسنجر. وبذا اتضح انحياز الأمريكيين لباكستان.

على غرار نهجها في الهند اتجهت إنديرا بقضيتها إلى عامة الشعب، واحتكمت إلى الشعب الأمريكي مباشرة متجاوزة بذلك الرئيس نيكسون. فوصفت في خطبة مؤثرة كيف أنها «تزورها [في الأحلام] وجوه المعذبين في معسكرات اللاجئين المزدحمة التي تعكس الأحداث المظلمة التي دفعت هؤلاء الملايين من البشر إلى النزوح من بنغال الشرقية. لقد جئت إلى هنا بحثًا عن فهم أفضل للوضع في منطقتنا».<sup>26</sup> أما في نادي الصحافة الوطني في واشنطن فقد شرحت السبب الذي يجعل التوصل لأي نوع من التفاهم مع الجنرال يحيى مستحيلًا. قالت: «من المستحيل على المرء أن يصافح شخصًا يقبض يده». واعتبرت يحيى نقيضها، واصفة إياه بأنه: «سكير فج ومتنمر». كان يحيى خان قد أشار لإنديرا علانية بـ «تلك المرأة» وأعلن أنه «لن يرضخ لترهيبها». فانتهزت إنديرا فرصة وجودها في مقابلة صحفية لمجلة «نيوزويك» لتعبر عن ازدراءها لتصريحاته، وقالت: «لا تعنيني تصريحاته، وإن كانت تعبر عن عقلية صاحبها».<sup>27</sup>

عانت إنديرا ضيق الوقت في الولايات المتحدة، ومع ذلك تمكنت من القيام بزيارة خاطفة لنيويورك لقضاء يومين برفقة دوروثي نورمان التي نظمت من أجلها محفلاً غير رسمي لمفكرين مشاهير في بيتها مثل حنا آرندت وإدوارد ألبي وإريك إريكسون والموسيقي جون كيدج. غير أن مشكلات الهند مع باكستان سيطرت على الحديث حينها أيضًا. في تلك الزيارة كانت الراحة والتمتع بضروب الأنشطة الثقافية التي قامت إنديرا ودوروثي بها معًا دائمًا ببساطة مستحيلين لإنديرا. صحيح أنهما ذهبتا مساء اليوم الأول

إلى عرض لأوركسترا نيويورك الفلهرمونية بقيادة ليونارد بيرنشتاين، لكن مساء اليوم التالي عندما كانت معهما تذكرتان لحضور إنتاج جديد لحفل باليه — وضع موسيقاه المؤلف الروسي الشهير إيجور سترافينسكي، وصمم رقصاته جورج بلانشاين — تراجعت إنديرا فجأة عن الذهاب وقالت لدوروثي: «لا أستطيع. من المؤكد أن الأمر سيكون في غاية الروعة. لكن لن يمكنني احتمال ذلك.» وأوشكت على البكاء، الأمر الذي أقلق دوروثي. لكن إنديرا بحلول صباح اليوم التالي استعادت رباطة جأشها.<sup>28</sup>

عندما عادت إنديرا وهاكسار إلى الهند في منتصف نوفمبر اكتشفا أن المفاوضات العقيمة التي أجريها في أمريكا قد أثارت ردود فعل مؤيدة لبنجلاديش ومناهضة لباكستان والولايات المتحدة. «صبت اللعنات ... متبوعة بالبصاق على كل من نيكسون وكيسنجر». في حين شوه وجهيهما في الصحف، حتى «بات الأميون أيضًا ... بوسعهم التعرف على وجهي الشريرين»؛ الشرير المقطب الوجه الذي يملك عيني الفأر (نيكسون)، والثاني ذي النظارة الذي يملك وجهًا كوجه الثور السمين (كيسنجر).<sup>29</sup> في تلك الأثناء استطاعت إنديرا أن تزيد من شعبيتها بزيارة معسكرات اللاجئين وقواعد الجيش الأممية مجددًا. وخاطبت الجنود العاديين والمرضى والجرحى في المعسكرات. فعزز حضورها وكلماتها التشجيعية — اللذان حظيا بتغطية واسعة بالصور في الصحف — الروح المعنوية بين قوات الجيش الهندي واللاجئين والهند بصفة عامة.

في جولة خارجية قامت بها إنديرا ألقت خطابًا أمام الرابطة الهندية في لندن. قالت فيه إنها تشعر بأنها تجلس «على فوهة بركان، لا أعلم صدقًا متى سينفجر».<sup>30</sup> وقد انفجر ذلك البركان بعد أقل من شهر من عودتها هي وهاكسار من الولايات المتحدة. فقبل حلول مساء الثالث من ديسمبر عام ١٩٧١ بوقت قصير قصفت القوات الجوية الباكستانية تسع قواعد جوية هندية في شمال وغرب البلاد من بينها قواعد في أمريتسار، وأجرا، وسارينجار في كشمير. فاشتعلت شرارة الحرب الهندية الباكستانية الثالثة. بتلك الضربة الجوية وُصفت باكستان رسميًا بالبادئ بالعنوان. غير أن تلك كانت حربًا واقعة لا محالة. فقبل أسبوعين تحركت القوات الهندية واحتلت مواقع دفاعية على حدود باكستان وأنشأت داخل باكستان قواعد لشن العمليات استعدادًا لشن عملية هجومية على دكا في ليلة الرابع من ديسمبر انتهاءً لفرصة تمام البدر في تلك الليلة.

وقتما شنت المقاتلات الباكستانية غاراتها كانت إنديرا في كلكتا تخاطب حشدًا كبيرًا من نصف مليون شخص في ساحة كلكتا للاستعراضات العسكرية. وفي الوقت الذي

كانت تقول فيه: «نحن نؤيد السلام. لكننا إن فُرضت علينا الحرب مستعدون للقتال، لأن المسألة تتعلق بمبادئنا بنفس ما تتعلق بأمننا»، هرع أحد مساعديها إلى المنصة حيث تقف وأعطاه ورقة صغيرة خُط عليها على عجل نبأ الهجوم الباكستاني. فلم تدل بأي إعلان، بل أنهت على عجل خطابها. وقالت بمعزل عن الحشد لمن معها: «حمداً لله أنهم هاجمونا.» فهي لم ترد أن تبدو وكأنها البادئ بالعدوان، غير أنها أجازت خطة الجنرال مانيكشاو السرية بأن تشن الهند ضربة جوية على باكستان اليوم التالي.<sup>31</sup> وبذا اتضح صواب استراتيجية التحرك المؤجل التي اتبعتها إنديرا، وصحة حكمها على الوقت المناسب للتحرك.<sup>32</sup>

مساء ذلك اليوم استقلت إنديرا طائرة عائدة إلى دلهي، وأحاطت بطايرتها طائرات تابعة للقوات الجوية الهندية. فلما شارفت الطائرات المدينة لم يكن سوى الظلام الذي اختبأت فيه دلهي تحسباً للغارات الجوية الباكستانية. قصدت إنديرا مكتبها مباشرة في منطقة ساوث بلوك المجاورة للبرلمان، ودعت إلى عقد اجتماع طارئ لمجلس الوزراء. ثم التقت بقيادة أحزاب المعارضة. ظلت متمالكة الأعصاب، «محتفظة برباطة جأشها وهدوئها وثقتها» تماماً.<sup>33</sup> وبعدها، في منتصف الليل، أذاعت على الأمة أن الهند اضطرت من جديد إلى الحرب مع باكستان، وتمنت تحقيق النصر في تلك الحرب التي «فُرضت» على الهند. وطوال الليل ظلت ساهرة تتابع الوضع العسكري المتأزم. أما في صباح اليوم التالي فقد قالت في اجتماع حاشد لمجلس النواب:

«لما يزيد عن تسعة شهور قمع نظام باكستان الغربية العسكري الحريات وضرب بحقوق الأفراد الأساسية في بنجلاديش عرض الحائط. وارتكب جيشها المحتل جرائم بشعة لا يوجد ما يضارعها ضراوة في الانتقام. فأرغمت ملايين كثيرة على ترك ديارها، وأجبرت عشرات الملايين على النزوح إلى بلادنا. نحن نبهنا العالم مراراً إلى تلك الإبادة التي تُرتكب في حق شعب كامل، إلى هذا الخطر الذي يهدد أمننا. وفي كل مكان أبدت الشعوب تعاطفها وتفهمها لما يتهدد الهند من أخطار ويقع على كاهلها من أعباء، سواء اقتصادية أو غيرها. لكن الحكومات بدت وكأنها أصيبت بشلل أخلاقي وسياسي ... لقد سعدت باكستان الغربية اعتداءاتها ووسعتها إلى حرب شاملة على الهند ... لذا علينا أن نهي أنفسنا لصراع طويل.»<sup>34</sup>

بعدها بيومين، في ٦ ديسمبر، وقفت إنديرا في البرلمان وأعلنت اعتراف الهند بدولة بنجلاديش المستقلة، وهو ما لاقى استحساناً هائلاً. وأوضحت إنديرا أيضاً أن القوات الهندية وقوات جيش التحرير البنجلاديشي تخوضان معاً الحرب في باكستان الشرقية. في تلك الأثناء، في ٩ ديسمبر، أرسل نيكسون إلى خليج البنغال وحدة حربية تابعة للأسطول الأمريكي السابع بقيادة سفينة حربية نووية تدعى إنتربرايز. ولم يفلح ذلك في صد إنديرا ودي بي دهار وهاكسار والجنرال مانيكشاو عن عزمهم، وقرر هؤلاء في اجتماع عقده في منتصف الليل الماضي في الحرب ومحاولة الاستيلاء على دكا قبل وصول الأسطول الأمريكي إلى المياه الإقليمية الهندية. ألقت الصين ببعض التهديدات لكنها حتى تلك اللحظة لم تبد ما يدل على أنها ستتدخل في الحرب. فسارع دي بي دهار بالسفر إلى موسكو لتأمين مساعدة الاتحاد السوفييتي في حال تدخل الولايات المتحدة أو الصين في الحرب. وكما كان متوقعاً أرسل الاتحاد السوفييتي إلى خليج البنغال أسطولاً في أعقاب الأسطول الأمريكي.

لما أوشك الوضع على الانفجار أدان نيكسون بعنف «العدوان» الذي شنته الهند على باكستان. ورداً عليه، في ١٤ ديسمبر، أعد هاكسار لإنديرا خطاباً مفتوحاً ترسله إلى نيكسون لبيان موقفها. لم يكن ذلك بالطبع خطاباً موجهاً للرئيس وحسب، بل كان خطاباً يهدف إلى تقديم دفاع قوي عن سياسات الهند أمام العالم. بدأ الخطاب بالإشارة إلى أنه كُتِبَ في «لحظة ألم شديدة»؛ لحظة تشبه تلك التي حُطَّ فيها إعلان الاستقلال الأمريكي عندما أكد أنه «متى أصبح الحكم في أي من أشكاله هادماً لحقوق الإنسان التي لا تقبل المصادرة؛ حقه في العيش، والحرية، والسعي وراء السعادة، يصبح من حق الشعب أن يغيره أو يلغيه». ويتواصل الخطاب قائلاً:

«إن الحرب المأساوية في باكستان الشرقية ... كان بالإمكان تلافيها لو أن قوى كل الدول وتأثيرها ونفوذها — وعلى رأسها الولايات المتحدة — قد وُظِّفَتْ لإطلاق سراح الشيخ مجيب الرحمن ... لم تحظْ محاولة إيجاد حل سياسي إلا بتأييد شفهي، ولم تؤخذ خطوة واحدة جديرة بالاعتبار في سبيل إيجاد ذلك الحل ... نحن لا نسعى لتحقيق أي مصلحة لنا. فنحن لا نطمح في أراضي ما كانت تعرف باسم باكستان الشرقية وباتت تُعرف حالياً باسم بنجلاديش. نحن نريد السلام الدائم مع باكستان ... لكن من ناحية أخرى هل ستكف باكستان عن إحداث القلاقل التي أثارته بسبب كشمير بلا انقطاع — وفي الوقت نفسه



بلا جدوى — على مدى الأربعة والعشرين عامًا الماضية؟ هل الباكستانيون على استعداد للتوقف عن شن حملات كراهية على الهند واتخاذ موقف عدائي دائم منها؟ كم مرة على مدى الأربعة والعشرين عامًا الماضية حاولت أنا وأبي أن نعرض على باكستان توقيع معاهدة عدم اعتداء؟ إن ما سجله التاريخ وحده كافٍ لأن يشهد بأن باكستان رفضت بدون تفكير كل معاهدة عُرضت عليها. نحن نجد التلميح والإيعاز بأننا نحن من فجر تلك الأزمة وأحبط — في كل الأحوال — إيجاد حلول اتهمًا جاريًا للغاية ... إبان زيارتي للولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا والنمسا وبلجيكا كانت النقطة التي ركزت عليها في الاجتماعات العلنية والخاصة هي الحاجة العاجلة لإجراء تسوية سياسية. لقد انتظرنا تلك التسوية طيلة تسعة شهور. وقد أكدت للدكتور كيسنجر عندما قدم للهند في السابع من يوليو عام ١٩٧١ أهمية السعي لإجراء تسوية سياسية مبكرة. لكننا لم نتسلم إلى اليوم ولو خطة تسوية بسيطة تأخذ في الاعتبار الحقائق ... أمل بصدق وجد أن ... تخبرني تحديدًا أين أخطأنا قبل أن يبدأ ممثلوك والناطقون باسمك بمخاطبتنا بتلك اللهجة الشديدة.»<sup>35</sup>

كان ذلك خطابًا استفزازيًا وغاضبًا ومباشرًا، لا بد أن يثير ثائرة نيكسون. ولما كانت إنديرا تعلم ذلك ظلت ليوم كامل تقدم رجلًا وتؤخر أخرى؛ مذبذبة بين إرسال الخطاب والسماح بنشره في الصحف من ناحية، والإحجام عن ذلك من ناحية أخرى. غير أنها أرسلته في نهاية الأمر.<sup>36</sup>

إبان تلك الفترة نمت قدرات إنديرا الذهنية بدرجة مذهلة، فصارت تتمتع بإدراك حاد وحضور ذهن قوي. ونمت قدرتها الفطرية على فهم الألوان والتعبير بها؛ فكانت ترتدي أثواب ساري أطرافها ذات ألوان زاهية، في الأغلب من ظلال اللون الأحمر، الذي يرمز إلى الحرب والعاطفة والدم، وهو لون تحرم التقاليد الهندية على الأرامل ارتدائه. في الواقع لقد بدا أنها — كما أخبرت حقيقة صديقتها بوبول جاياكار فيما بعد — ترى الأشياء عبر مصفاة حمراء؛ لقد كان اللون الأحمر «يغمرنني طوال الحرب» بتعبير إنديرا.<sup>37</sup>

لم تدم الحرب الهندية الباكستانية، التي ماطلت إنديرا وهاكسار قبل دخولها لعدة أشهر، سوى أربعة عشر يومًا فقط. فالجيش الباكستاني كان أقل عددًا، فضلًا عن أنه افتقر إلى التجهيزات. ولذا في عصر السادس عشر من ديسمبر، قبل أن يصل الأسطول الأمريكي إلى خليج البنغال، حررت القوات الهندية البنجلاديشية دكا واستسلمت باكستان

استسلاماً غير مشروط. وفي قرابة الخامسة من مساء ذلك اليوم هاتف الجنرال مانيكشاو إنديرا ليزف إليها نبأ ذلك الانتصار، كانت إنديرا وقتها في مقابلة صحفية مع فريق تليفزيوني سويدي. فاعتذرت بأدب عن استكمال المقابلة، وقصدت البرلمان مباشرة حيث قالت تعلن لأعضائه المجتمعين وهي تغالب مشاعرها:

«ثمة نبأ عليّ إعلانه أظن أن المجلس ظل وقتاً ينتظره. لقد استسلمت قوات باكستان الغربية استسلاماً غير مشروط في بنجلاديش ... وصارت دكا عاصمة حرة لبلد حر. إن هذا المجلس والأمة بكاملها لتغمرهما الفرحة بهذا الحدث التاريخي. نحن نهنيء شعب بنجلاديش في لحظة انتصاره. ونحيي شباب جيش التحرير البنجلاديشي الشجعان وأبنائه على بسالتهم وتفانيهم. ونفخر أيضاً بجيشنا وسلاحنا البحري والجوي وقوات حرس حدودنا ... أهدافنا كانت محددة: مساعدة شعب بنجلاديش النبيل وجيش موكتي باهيني في تخليص دولته من عهد الإرهاب، وصد العدوان عن أرضنا ... نتمنى ونأمل أن يتبوأ أبو تلك الأمة الجديدة الشيخ مجيب الرحمن المكانة التي يستحقها بين أبناء شعبه، وأن يقود بنجلاديش نحو السلام والتقدم والرخاء ... غير أن هذا ليس نصر بنجلاديش وحدها. فكل الأمم التي تحترم قيمة النفس الإنسانية ستنتظر إلى هذا الانتصار على أنه حدث مهم في تاريخ سعي الإنسان نحو الحرية.»<sup>38</sup>

قوبل إعلان إنديرا بهتاف مدوّ وأمطر أعضاء البرلمان من حزب المؤتمر وأحزاب المعارضة إنديرا بأكاليل الزهر. ولأول مرة لم تحاول إنديرا إخفاء سعادتها.

غير أنها كانت تدرك أن عليها أن تتمالك نفسها وتحتوي فرحة وطنها بالنصر. فقد قالت لمساعدتها وكاتب خطبها شارادا براساد في طريقها إلى البرلمان: «لا بد أن أمر بوقف إطلاق النار في الجبهة الغربية أيضاً. إن لم أقم بذلك اليوم فلن أتمكن من ذلك غداً.»<sup>39</sup> توقعت إنديرا ومستشاروها — وبالأخص هاكسار ودهار — أن تكون هناك مطالبة قوية بأن تواصل الهند حرب تحرير بنجلاديش وأن تسعى للانتقام من يحيى وباكستان الغربية. إلا أنه كان في ذلك مخاطرة كبيرة لأن الاتحاد السوفييتي عارض تلك الفكرة، وثمة احتمال أن تتدخل الصين والولايات المتحدة إن مضت الهند إلى حرب باكستان.

دعا هاكسار بالأخص إلى وقف إطلاق النار فوراً في الجبهة الغربية. كان منطقته في ذلك هو أنه بما أن قد صارت في موقع أفضل من باكستان الغربية من الناحية المعنوية والعسكرية، فيحسن ألا تسعى الهند إلى إذلال باكستان وتحطيمها أكثر من ذلك. وقد

اتفق الجنرال مانيكشاو مع هاكسار في أن وقف إطلاق النار من جانب واحد هو «التصرف المناسب».<sup>40</sup> وبعد إخراس صوت وزير الدفاع الناقم جاجيفان رام (الذي تجاهلته إنديرا بدرجة كبيرة طوال تلك الأزمة؛ إذ كانت بنفسها تضطلع بالتعامل المباشر مع مانيكشاو والجيش)، أقر مجلس الوزراء وقف القتال، وأعلنت إنديرا قرار وقف إطلاق النار الفوري في الجبهة الغربية. وقالت فيما بعد بفخر في مقابلة صحفية لمجلة «تايمز»، ردًا على شائعات بأنها اتخذت قرار وقف إطلاق النار بسبب الضغط الذي تعرضت له الهند ممثلًا في القوى العظمى والتهديد الذي يمثله أسطول نيكسون السابع: «لقد اتخذ القرار هنا (في الهند) ... وأنا لست بالشخص الذي يخضع لضغط شخص أو دولة ما».<sup>41</sup>

انتهت الحرب، وصارت إنديرا بطلتها. لقد نجحت في تحقيق ما عجز عنه كل من نهرو وشاستري، ألا وهو النصر العسكري. وقد كانت أصداء ذلك الانتصار أقوى حتى من أصداء الانتصار الذي حققته مارجريت ثاتشر في جزر فوكلاند بعدها بعقد. لقد صعدت إنديرا إلى مرتبة تقترب من مرتبة الآلهة. وامتدحت في البرلمان بأنها «دورجا الجديدة» إلهة الحرب الهندوسية، وشُبهت بشاكتي التي ترمز لطاقة الأنثى وقوتها. وحتى الصحف الأجنبية استخدمت في تصويرها أوصافًا تمجيدية مثل «إمبراطورة الهند».<sup>42</sup> وفي استطلاع لمؤسسة جالوب الأمريكية في عام ١٩٧١ اختيرت لتكون أكثر الشخصيات إثارة للإعجاب في العالم.

في أوائل يناير عام ١٩٧٢، في باكستان، أطلق سراح الشيخ مجيب الرحمن من السجن. فلما وصل إلى مطار بالام الخاص بدلهي في العاشر من يناير ليتوقف في الهند لوقت قصير، قبل أن يمضي في رحلة عودته إلى بنجلاديش، كانت إنديرا وأغلب أعضاء مجلس الوزراء بالإضافة إلى وحدة حرس الشرف يقفون على مدرج هبوط طائرته استقبالًا له. ومعًا وجهت إنديرا والشيخ مجيب الرحمن خطابًا حارًا إلى حشد شعبي كبير. قالت إنديرا: «ربما كان جسد الشيخ مجيب الرحمن سجينًا، لكن روحه لا يملك أن يسجنها أحد. لقد ألهم شعب بنجلاديش بأن يقاتل، واليوم هو حر.» فرد مجيب الرحمن على ذلك بأن قال إنه شعر بأن من واجبه أن يتوقف في الهند ليعبر عن «احترامي الشخصي لأفضل صديق لشعبي شعب الهند، ولحكومتكم التي تقودها رئيسة الوزراء العظيمة السيدة إنديرا غاندي، التي لا تعد قائدة للرجال وحسب، وإنما قائدة للبشرية أيضًا».<sup>43</sup>

فيما تلا من أيام وأسابيع سمي الآلاف من المواليد الإناث في جميع أنحاء الهند بإنديرا. إلا أن واحدة منهن — ولدت في اليوم التالي على اليوم الذي زار فيه الشيخ مجيب

الرحمن دلهي مزهواً بالنصر. لم تحمل هذا الاسم وهي حفيدة إنديرا نفسها، ابنة راجيف وسونيا غاندي؛ التي سميت باسم بريانكا غاندي.

في مارس زارت إنديرا دولة بنجلاديش الوليدة. ألفت هي والشيخ مجيب الرحمن خطاباً مشتركاً إلى حشد كبير يتكون من نحو مليون شخص. أغلب هؤلاء كان بعيداً بدرجة يتعذر معها سماع ما تقوله إنديرا، لكنهم كانوا قادرين على رؤية ما ترتديه بوضوح؛ كانت ترتدي ساريًا بنغاليًا أصفر اللون من الحرير الخام وأطرافه ذات لون أحمر برّاق. ألقى مجيب الرحمن خطاباً مفعماً بالمشاعر، ثم التفت إلى إنديرا التي تقف على المنصة وقال لها مقتبساً كلمات رايبندراناث طاغور: «أنا جمل عليك. ليس لديّ ما أعطيه لك. ليس لديّ ما أعطيه لك سوى الحب.»

في اليوم التالي على ذلك في دكا ذهبت إنديرا والشيخ مجيب الرحمن ووزير الخارجية سواران سينج، وكبير مسئولي الشئون الخارجية الهندية تي إن كاول، وبي إن هاكسار في نزهة استمرت طوال النهار على متن باخرة نهريّة، بحثوا أثناءها عقد معاهدة صداقة بين الهند وبنجلاديش. وبعد عودتهم من النزهة أعد كاول ومسئول الشئون الخارجية البنجلاديشي مساء ذلك اليوم مسودة المعاهدة. وقع عليها مجيب وإنديرا في التاسعة من صباح اليوم التالي.

تعزز انتصار إنديرا في حربها مع باكستان في انتخابات المجلس التشريعي في مارس عام ١٩٧٢، عندما فاز حزب المؤتمر بسبعين بالمائة من المقاعد المتنافس عليها في المجلس. فمن جديد أدارت إنديرا الحملات الانتخابية بعزم، ونهت في خطاباتها إلى حرب باكستان لكنها ركزت بدرجة أكبر على «الحرب الكبرى مع الفقر» التي تواجهها الهند. وكي تقنع المتشككين بها بأن كلماتها ليست تعبيرات إنشائية وعدت بتحسين أحوال الفقراء من أهل القرى عن طريق تشريعات تعمل على تخفيض الحد الأقصى للأراضي المسموح بتملكها [بحيث يُعاد استخدام الأراضي الزائدة عن الحد الأقصى في بناء منازل للفقراء.]

نتيجة للحرب التي انتصرت فيها الهند قبل ستة شهور بدأت في ٢٨ يونيو عام ١٩٧٢ أعمال قمة سلام بين الهند وباكستان في منتجع جبلي في مدينة سيملا، التي كانت فيما مضى المقر المفضل لعقد الاجتماعات السرية في عهد الاستعمار البريطاني. كانت الحكومة العسكرية في باكستان قد انهارت بعد هزيمتها، وتولى ذو الفقار علي بوتو الحكم بعد الجنرال خان باعتباره رئيساً لحكومة مدنية.

وصلت إنديرا إلى مدينة سيملا قبل انعقاد القمة بيوم واحد لتشرف على إعداد المكان الذي سيقام به ذو الفقار علي بوتو وابنته بينظير في راج نيواس. مقر حاكم المدينة، وجلبت معها لذلك الغرض أثاثاً وستائر جدارية من دلهي. ووفقاً لبي إن دهار الذي كان عضواً في حاشيتها «لقد انفجرت غضباً لدى رؤيتها لوحة كبيرة لها في الغرفة المقرر أن يقيم فيها بوتو». وأمرت بإزالة اللوحة فوراً لئلا تكون نظرتها المحدقة فرضاً على الرئيس. وبعدها تفقدت دورة المياه الخاصة ببوتو، فهدأت ثورتها لما وجدتتها جيدة وهندية الصنع، وقالت في ذلك لدهار: «لندعه يعلم أن الاقتصاد الهندي يفي باحتياجات المدنيين».<sup>44</sup>

ومع أن إنديرا اهتمت بتنسيق مكان إقامة بوتو فإن العداء بينها وبينه كان ملموساً منذ اللحظة التي وصل فيها مع بينظير (التي كانت قد أتمت لتوها التاسعة عشرة من العمر وعلى وشك أن تدخل عامها الدراسي الأخير في كلية رادكليف، وهي كلية تابعة لجامعة هارفارد). كان لقاء إنديرا وبوتو يشبه تقريباً اللقاء الذي جمع بينها وبين نيكسون. فجل ما استطاعه مصورهما هو حملهما على مصافحة أحدهما للآخر بطريقة لائقة على أرض ملعب سيملا لكرة القدم حيث هبطت طائرة بوتو المروحية. غير أن إنديرا رحبت بحرارة ببينظير؛ إذ ابتسمت وهي تحني وتضم يديها على صدرها على طريقة الناماساتي، وقد أثارت نحافة رئيسة وزراء الهند وأناقته دهشة بينظير.

لم يكن من المستغرب أن تتصف أول مقابلة شخصية بين إنديرا وبوتو بمثل هذا الفتور. فقبل ثلاثة أشهر، في مقابلة صحفية مع الصحفية الإيطالية أوريانا فالانتشي وصفت إنديرا الرئيس بوتو بأنه «غير متزن»، وهذا أسخط بوتو للغاية، حتى إنه دعا أوريانا فالانتشي في أبريل إلى مدينة كراتشي، حيث أخذ ينتقص من قدر هؤلاء الذين شملتهم حرب الأربعة عشر يوماً بين الهند وباكستان. فنعت الشيخ مجيب الرحمن بأنه «كاذب بالفطرة»، ذو «عقل مريض». في حين وصف إنديرا غاندي بأنها «امرأة عادية متوسطة الذكاء. ليس بها أي وجه من وجوه العظمة ... وإنما عرشها هو ما يجعلها تبدو طويلة ... وأيضاً الاسم الذي تحمله».<sup>45</sup>

تنافرت إنديرا وبوتو، غير أنهما تنازعا أيضاً. ففضلاً عن عدائهما الشخصي أحدهما للآخر، تنازعا فيما يتعلق بالأهداف. أرادت إنديرا استغلال مؤتمر سيملا لتسوية مسألة كشمير نهائياً، ومن ناحية أخرى أراد بوتو استرجاع ٩٣ ألف أسير واسترداد خمسة آلاف ميل كانت الهند تحتلها آنذاك. كانت إنديرا على استعداد للتخلي عن أي منطقة غير

كشمير، أما الأسرى فرأت أنها لا تستطيع إطلاق سراحهم بدون موافقة بنجلاديش التي أرادت محاكمتهم بتهمة ارتكاب جرائم حرب.

امتدت المحادثات بين الوفد الباكستاني والهندي خمسة أيام بدون أن تتكشف عن حل. ضم محور الطرف الباكستاني من المحادثات بوتو ووزير خارجيته عزيز أحمد والجنرال ضياء الحق (الذي صار فيما بعد رئيساً لباكستان) والذي أصر الجيش الباكستاني على مصاحبته لبوتو في سيملا. ضم وفد إنديرا مستشاريها الأساسيين المخلصين دهار وهاكسار ووزير خارجيتها تي إن كاول العضو الأهم في «مافيا إنديرا الكشميرية» التي تكونت من رجال كلهم يتسمون بالأخلاق والمبادئ ويتمتعون بالدهاء والحكمة. وقد تولى قيادة تلك المجموعة هاكسار لما أصيب دهار بأزمة قلبية بسيطة في اليوم الثالث من انعقاد القمة.

كان الهدف الأساسي من منظور هاكسار هو عدم إذلال باكستان، وإنما خلق مناخ من الثقة والاطمئنان بينها وبين الهند. لقد قال هاكسار في ذلك لإنديرا: «عليك ألا تنسي معاهدة فيرساي [من الحرب العالمية الأولى]. ولا ينبغي أن تسحقي بقدميك من طُرح أرضاً. كما أن لدينا مصلحة كبيرة في رؤية مزيد من الديمقراطية في باكستان.»<sup>46</sup> فأخذ هاكسار يصوغ ويعيد صياغة معاهدات عديدة تنادي بتأسيس علاقات ثنائية بين الهند وباكستان لا يدخل فيها طرف ثالث — وفي ذلك منظمة الأمم المتحدة — وتطالب بالتخلي عن العنف، وتحويل خط وقف إطلاق النار إلى حد دولي، وحسم مسألة كشمير.

غير أن الوفد الباكستاني لم يقبل بأي مما عرضه هاكسار، يكمن السبب الرئيسي وراء ذلك الرفض في مسألة كشمير. وكان هذا بالأخص في مطالبة الهند بتحويل خط وقف إطلاق النار إلى خط سيطرة رسمي يتحول تدريجياً إلى حد دولي معترف به. كان بوتو لا يقول في هذا الشأن سوى: «ليكن هناك خط سلام، ليذهب الناس ويجيئوا، لا تجعلونا ننقاتل عليه.»<sup>47</sup> غير أن تلك الآمال الواهية لم تكن كافية لإقناع الوفد الهندي، فواصلت إنديرا المطالبة بحسم الموقف في كشمير. ومن جانبه عدل بوتو ووفده على كل مسودة معاهدة عرضها الوفد الهندي عليهم أو رفضوها رفضاً تاماً.

ثم في عصر الثاني من يوليو، بعد آخر اجتماع بين الوفدين، خرج وزير الخارجية الهندي تي إن كاول للقاء الصحفيين وأعلن بيأس أن المؤتمر وصل إلى طريق مسدود قائلاً: «كل شيء انتهى.» فسارع الإعلام بإعلان فشل القمة. وحزم تي إن كاول متاعه مغادراً إلى دلهي قبل المأدبة التي ستعقب جلسة المباحثات الختامية اقتناعاً منه بأنه لن يكون هناك حل أو معاهدة.<sup>48</sup>

لكن قبيل بدء المأدبة التي أعقبت جلسة المباحثات الختامية والتي أقيمت في مقر إقامة حاكم مدينة سيملا، اقترح بوتو أن يلتقي هو وإنديرا بمعزل عن الآخرين، كلٌّ بدون وفده لمرة أخيرة. فوافقت إنديرا، وقال بوتو لهاكسار وببي إن دهار قبل أن يغادر هو وإنديرا المكان إلى غرفة جلوس صغيرة: «أنتم المسئولون تستسلمون بمنتهى السهولة.»<sup>49</sup> فيما تباحثت إنديرا وبوتو انتظر هاكسار ودهار بفارغ الصبر في غرفة البلياردو بالمقر، وانتظر الوفد الباكستاني في قاعة الاستقبال المجاورة. كانت إنديرا وبوتو يخرجان من وقت لآخر من غرفة الجلوس ليستأنسا برأي مستشاريهما ثم يسرعان بالعودة إلى الغرفة لاستكمال اجتماعهما الخاص.

قدّم كلٌّ من بوتو وإنديرا تنازلات عديدة أثناء مشاوراتهما. فمن ناحية وافقت إنديرا على سحب القوات الهندية من الأراضي الباكستانية، لكنها أعادت التأكيد بأنها لا تستطيع أن تتعهد بإعادة الأسرى الباكستانيين إلا بموافقة بنجلاديش. ومن ناحية أخرى تعهد بوتو شفهيًا بالاعتراف ببنجلاديش في الوقت المناسب، واتفق الاثنان على عدم اللجوء إلى العنف فيما يتعلق بكشمير. وفوق ذلك اتفقا على عقد مفاوضات ثنائية لا تخضع للتدخل الأجنبي — وبالأخص من الأمم المتحدة — بين دولتيهما. أما خط وقف إطلاق النار الذي وُضع في ديسمبر عام ١٩٧١ فقد تقرر أن تعترف به باكستان ويتسمى بخط السيطرة، بما يستلزم تحويله إلى خط دولي، وبذلك تحسم مسألة كشمير نهائيًا.<sup>50</sup>

اشتراط نص المعاهدة أن «يحترم كلا الطرفين خط السيطرة الذي أسفر عنه وقف إطلاق النار في ١٧ ديسمبر عام ١٩٧١ دون إخلال بالوضع المعترف به لكلا الجانبين».<sup>51</sup> غير أن الاحترام والإقرار لم يكونا ملزمين قانونيًا مما عنى أن مصير كشمير النهائي ظل معلقًا. فاقترح هاكسار — ووافقه بوتو وإنديرا — أن يتعهدوا جميعًا بالاجتماع مجددًا «في وقت ملائم يتفق عليه الجانبان في المستقبل لبحث تسوية نهائية سلمية لقضية جامو وكشمير، واستئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين». كان توقيع بوتو على هذه المعاهدة بدون ذكر إقامة أي استفتاءات في كشمير يعد إنجازًا حقيقيًا للجانب الهندي.<sup>52</sup> وبعد منتصف الليل، طُبعت النسخة النهائية من المعاهدة على عجل. وفي الثانية عشرة وأربعين دقيقة في الثالث من يوليو، وقعت عليها إنديرا وبوتو في غرفة البلياردو. فلما خرجا من الغرفة استقبلتهما مجموعة صغيرة من المساعدين وصحفيين. صاحت مساعدة إنديرا يوشا بهاجات تسألها: «أصبي أم فتاة؟» (الصبي دلالة أنه تم التوصل إلى اتفاقية، وأن المفاوضات قد أثمرت نجاحًا، أما الفتاة فدلالته أنها لا تزال أمام طريق

مسدود). فأجابها هاكسار بالإنجليزية مبتهجاً: «ليس صبيّاً فقط، بل هو صبي حسن التنشئة، متعلم بكل ما للكلمة من معنى».<sup>53</sup>

غادرت إنديرا وبوتو سيملا — التي كانت فيما مضى مقرراً لعقد المؤتمرات العقيمة بين الهند وبريطانيا — وهما راضيان ومفعمان بالأمال، لكن بعد سيملا كان هناك النقد. ففي عام ١٩٧٢ وفيما بعد ذهب الآراء إلى أن إنديرا أخطأت خطأً فادحاً عندما فشلت في الضغط على بوتو فيما يتعلق بمسألة كشمير. وفوق ذلك دارت شائعات بأن التسويات التي تم التوصل إليها لم تتحقق إلا باتفاق كل من إنديرا وبوتو على «فقرة سرية» ما. غير أن الفرضية الأكثر إقناعاً في ذلك الشأن هي أن بوتو لمح لإنديرا أنه لن يتمكن من الحفاظ على بقائه السياسي إن عاد من سيملا خاسراً باكستان الشرقية وكشمير. ولأن للهند — كما رأى هاكسار — مصلحة كبيرة في تواصل الديمقراطية فضلاً عن الحكم العسكري في باكستان. فقد رأت إنديرا — وإن كانت قد ظلت تعتبر بوتو غير أهل للثقة — أن بوتو تحدث بصدق عن موقفه الحرج، وأمنت بأنه يريد السلام مع الهند.<sup>54</sup>

كانت المشكلة الفادحة في اتفاقية سيملا على حد تعبير بي إن دهار هو: «أنها اعتمدت على افتراض احتفاظ كلا القائدين الموقعين لها بمنصبه وأنها اعتمدت أيضاً على افتراض أن بوتو سيلتزم بتعهده الشفهي لإنديرا غاندي (بأن يتحول خط السيطرة الكشميري إلى حد دولي) ... ولم يبدُ أن القلق يساور الجانب الهندي إزاء احتمالية تراجع عزم بوتو السياسي، أو فقدانه للسلطة»، فلم يكن أحد عندئذٍ يتخيل اليوم الذي يخلو فيه العرش من إنديرا.<sup>55</sup>

في الواقع في صيف عام ١٩٧٢ بدا أن إنديرا تتمتع بمكانة حصينة بعد انتصار الهند في الحرب الهندية الباكستانية، واستقلال بنجلاديش، وتوقيع اتفاقية سيملا. لقد اعتمد نفوذها غير المسبوق كرئيسة وزراء الهند بانتهاجها سياسة فريدة تمتزج فيها الوطنية بالراديكالية، وقد حازت تلك السياسة إعجاب — بل عشق — الأطياف السياسية كافة سواء من اليمين أو الوسط أو اليسار. حتى إن الصحفي كوليد نايار، الذي كان دوماً يوجه إلى إنديرا انتقادات لاذعة، كتب يقر بأنها قد «فازت بالحرب، وفازت بالسلام. وصارت بلا منازع قائدة الدولة، وتحول استخفاف المثقفين بها إلى إعجاب شديد، وفاقتهم جموع الشعب حباً ... وعُدت أعظم زعيم عرفته الهند قاطبة».<sup>56</sup>

وفي أوج تلك السلطة والشهرة والشعبية لم يكن أمام إنديرا مفر من السقوط.



## الفصل الخامس عشر

# توقف الصعود

إبان أشهر صيف عام ١٩٧٢ الحارة الطويلة عانت الهند جفافاً. فيبست الحقول، وذبلت المحاصيل. فيما اختنقت دلهي في سحابة من الأتربة، وبعد ستة شهور من الأمطار الموسمية الغزيرة انقطع المطر. فكانت النتيجة حصاداً شحيحاً وندرة في الغذاء — خاصة في الحبوب الأساسية من الأرز والقمح — وغلاء في الأسعار في جميع أنحاء البلاد. واندلعت أعمال الشغب مطالبة بالغذاء في ناجبور وبومباي وميسور وكيرالا. ولما لاح شبح المجاعات بقرى الهند برز شعار إنديرا «تخلصوا من الفقر» من جديد ليطاردها. أخبرت إنديرا صفوف نقادها التي أخذت تطول أن الفقر لا يمكن محوه بين عشية وضحاها، فكان ردهم أنها لا تتخلص من الفقر، وإنما من الفقراء.

فوق ذلك زاد معدل التضخم بنسبة ٢٠٪، وارتفعت أسعار النفط. في مواجهة ذلك قلصت الحكومة الهندية النفقات بصورة حادة، وفرضت برامج ادخارية إجبارية على الدخل والرواتب. غير أن تلك الإجراءات الاقتصادية عجزت عن إخماد القلاقل التي شبت في قطاع الصناعة وأخذت في الانتشار إلى جميع أرجاء البلاد. ففي الهند كافة أغلقت المصانع وشاعت الإضرابات. في بومباي وحدها، بلغ عدد الإضرابات إبان عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ أكثر من ١٢٠٠٠ إضراب.

لم تملك إنديرا السيطرة على المناخ أو الأمطار الموسمية، لكن كان بمقدورها القيام بشيء حيال الاضطرابات الاجتماعية المتزايدة. كانت تميل بطبيعتها إلى فرض النظام والإمساك بزمام الأمور بدون الاكتراث للوسيلة التي تتبعها في ذلك. فمثلاً أضحت سياسة انتقاء رؤساء حكومات الولايات التي وضعتها للتحكم في تلك الحكومات قاعدة. فتخلصت من رؤساء الحكومات «المعادين» باللجوء إلى «الحكم المركزي» الذي بمقتضاه تخضع

الولايات مباشرة لحكم دلهي. وأخذت تعلق عمل الهيئات التشريعية في الولايات بدلاً من حلها كي تشل حركة المعارضة لحزب المؤتمر هناك.

أما في موقعها في مركز الحكم فقد أحاطت نفسها بوزراء لا يتزعزع ولاؤهم لها. وعليه تحولت اجتماعات مجلس الوزراء إلى اجتماعات للتصديق على السياسات لا لوضعها. هذا بالإضافة إلى أنه بحلول ذلك الوقت انهار الكيان التنظيمي لحزب المؤتمر. فصارت انتخابات الحزب شيئاً من الماضي، وتولت إنديرا بنفسها تعيين رئيس حزب المؤتمر وأعضاء لجنة عمله.

استشرى الفساد. غير أنه لم يكن بالطبع شيئاً جديداً. فقد لوث حكومتي نهرو وشاستري. إلا أنه لم يسد في جميع مستويات النظام الحكومي إلا في عهد إنديرا. لم تكن فضيحة ناجاروالا إلا مؤشراً واحداً على تلك الظاهرة التي تفتشت في كل مكان. فمثلاً توزعت مراكز القوى على «صفوة إنديرا»، من ثم اكتسب هؤلاء قدرة هائلة على توزيع حظوتهم. والمفارقة هي أن آليات العمل الحكومية التي وضعت لتنظيم الأنشطة الاقتصادية والتحكم فيها وفاءً لبرنامج العشر نقاط الاشتراكي الاقتصادي لعام ١٩٦٧ كانت آنذاك تساعد على استئراء الفساد. فمع إقرار قانون «ممارسات الاحتكار والمنافسات غير العادلة» لعام ١٩٧٠، وقانون تنظيم صرف العملات الأجنبية لعام ١٩٧٣ صار تأسيس أي مشروع جديد أو تحسين أو توسيع المشاريع القائمة أو استيراد المعدات وقطع الغيار يتطلب تراخيص وتصاريح وأذونات. وصار الصرف الأجنبي بدوره صار خاضعاً للسيطرة. هذا منح المسؤولين الحكوميين والساسة مجالاً كبيراً لخدمة مصالحهم. وتسرب الفساد إلى عملية تمويل حزب المؤتمر التي صارت تحت سيطرة مكتب إنديرا مباشرة. كانت التبرعات التي تقدم للحزب تجمع في شكل تحويلات نقدية سائلة لا يمكن معرفة مصدرها، تسلم إلى مكتب إنديرا. وبعدها بدأ سانجاي تجربة عالم السياسة صارت تحول إلى بيت إنديرا مباشرة في سافدارجانج رود. وامتدت تلك الممارسات إلى ولايات أخرى بخلاف العاصمة؛ إذ عندما طُلب من رؤساء حكومات الولايات حصص للمساهمة في تبرعات الحزب، تنافسوا فيما بينهم ليروا من يتفوق على الآخرين في جمع التبرعات لإبهار أصحاب المراتب العليا.

ونتيجة لسياسة مركزة السلطة التي اتبعتها إنديرا صار جمع التمويل لحزب المؤتمر ضرورة مزمنة. فلأن إنديرا دمرت تنظيم الحزب وحطمت نظامه الهرمي، لم يعد بمقدورها الاعتماد على فرق الموظفين الحزبيين المخلصين من أهالي المناطق والمدن الصغيرة لالتماس وكسب الأصوات لها. بدلاً من ذلك صارت تتواصل مع الناخبين مباشرة. لذا أنفق

جزء كبير من أموال الحزب على تنظيم ونقل الجموع إلى التجمعات التي يتقرر أن تخطب فيها إنديرا في الولايات. أما موظفو الحزب أنفسهم فلم يعد منهم من تحركه المبادئ السياسية إلا القليل؛ فالكثير منهم لم يخض عالم السياسة إلا ليتحول إلى الثراء ويكسب النفوذ. ومع أن ساسة حزب المؤتمر ظلوا يرتدون ثوب الخادي الأبيض المغزول منزلياً وخف التشابال كما فعل من قبلهم الأبوان المؤسسان للحزب غاندي ونهرو، فإن مظاهر الفساد الذي أصاب الحزب صارت تتبدى في ثياب بناتهم وزوجاتهم اللاتي أصبحن يرتدين الساري المصنوع من الحرير المستورد، ويتزين بالأماس، وينتعلن الأحذية الجلدية الإيطالية.

أما إنديرا فقد ظلت تؤثر الحياة المقتصة أو بالأحرى المتقشفة. فلم تملك إلا القليل من المجوهرات، وثياب الساري التي اعتزت بها أشد الاعتزاز كانت لا تزال من تلك التي غزلها لها نهرو من الخيوط القطنية في سجنه. لكن مع أنها لم تكن مادية أو مسرفة امتلكت حساً جمالياً رفيعاً. ولم تسرف حقيقة إلا في جمع الخرائط. غير أن سانجاي وراجيف بعكسها لم يكونا من الزاهدين، وهي لم تكن تميل إلى حرمانهما — وبالأخص سانجاي — من شيء.

كانت إنديرا على دراية تامة بسطوة المال على المحيطين بها. فبحلول أوائل السبعينيات كان يحيطها مناخ من التملق الصريح نشأ برغبتها وسخرته لمصلحتها. وقد وعث فساد المقربين منها وعياً تاماً، ولكنها تركت الأمر لشخصيات معينة كسكرتيريهما الشخصيين ياشبال كابور وآر كيه داوان، فيما أكلت عقد الصفقات التي تتطلب أسلوباً ملتوياً لآخرين. كان جامع التبرعات الرئيسي لإنديرا عضواً برلمانياً من دهار يدعى لاليت نارايان ميشرا، وهو صديق قديم لفيروز من فترة الخمسينيات عُرف عنه سابقاً البراعة في عقد صفقات الاحتيال والمساومات السرية. وقد احتل بعد انقسام حزب المؤتمر عام ١٩٦٩ مركزاً رفيعاً في الحكومة الهندية، فتولى على فترات مختلفة وزارات الدفاع والإنتاج والتجارة، وأنداك تولى وزارة السكك الحديدية. أما إبان توليه لوزارة التجارة فقد أنشأ ترخيص الراج المشين الذي كان رجال الأعمال والصناعات يمنحون بموجبه عقوداً حكومية وتراخيص استيراد وتصدير في مقابل وهب حزب المؤتمر مبالغ طائلة. وقد بدا ميشرا بجسده القصير السمين وذقنه المتهدل ملائماً للدور الذي لعبه؛ دور السياسي الفاسد بصورته التقليدية.

وكذا بدا ولي نعمة سانجاي غاندي الذي كان رجلاً جاتياً بديناً يرتدي نظارة يدعى بانسي لال. لال كان يعمل رئيساً لحكومة ولاية هاراينا التي انفصلت عن ولاية البنجاب

المجاورة لدلهي رغبة في الفوز بحظوة إنديرا. بعد عامين من تعاقد الحكومة مع سانجاي غاندي في مشروع ماروتي، لم تكن شركته قد نجحت في إنتاج سيارة واحدة. وأراد بانسي لال أن يتوود إلى رئيس الوزراء فباع أكثر من ٤٠٠ فدان من أفضل أراضي هاراينا الزراعية في ضواحي دلهي، حيث رُحِّل ما يزيد عن ألف مزارع على عجل لإنشاء مصنع السيارات الماروتي. ولم يكن السعر وحده الذي بيعت به تلك الأراضي هو المثير للريبة؛ كان موقع مصنع سانجاي بجانب مستودع ذخيرة الجيش يخالف القواعد الحكومية التي تقضي بالأبنا منشآت صناعية على مسافة تقل عن ألف متر من المنشآت الدفاعية.

بخلاف لال، صرخ الكثير من الساسة مطالبين بتقديم يد المساعدة لشركة سانجاي المتعثرة. فاستثمر رجال أعمال بارزون من بينهم كيه كيه بيرلا — عميد أسرة بيرلا التي توفي في منزلها المهاتما غاندي — أموالاً طائلة في شركة ماروتي. وكان بيرلا أيضاً مالك جريدة «هندوستان تايمز»، ويذكر أنه فصل محرر الجريدة بي جي فيرغيزي عام ١٩٧٣ بعدما نُشرت في الجريدة بعض من المقالات التي تنتقد شركة سانجاي.

لكن مع المساعدات التي قدمها بيرلا وبانسي لال وغيرهم لم تتحرك عجلة مشروع سانجاي. فجميع نماذج السيارة الماروتي ظهر بها عيوب تتضمن أعطاباً في التوجيه والكابح ومشاكل فرط ارتفاع حرارة المحرك. عام ١٩٧٢ في «معرض آسيا التجاري» عرض سانجاي نموذجاً للسيارة، لكن اتضح أنه هيكل لا يحوي محركاً. وفي العام التالي قررت الصحفية أوما فاسوديف — التي كانت قد أصدرت قبل وقت قصير ترجمة حياة إنديرا — أن تجري مقابلة صحفية مع سانجاي حول السيارة الماروتي لمجلتها مجلة «سيرج». فوافق سانجاي على إجراء المقابلة، وعليه التقيا في مصنع السيارة في هاراينا في ٥ مايو عام ١٩٧٣ الذي شهد إصدار نموذج آخر للسيارة الماروتي.

عرض سانجاي على فاسوديف أن يصحبها في جولة بالسيارة على المسار التجريبي الذي يمتد حول المصنع. فجلس على مقعد القيادة وفاسوديف إلى جانبه، وانطلقت بهما السيارة بسرعة مهولة تبلغ ١٠٠ كيلومتر في الساعة وهي تهدر ... على الأرض الزراعية والشجيرات والحفر ولاميد الصخر. شعرت فاسوديف بالرعب. وفوق ذلك أدركت أن السيارة كارثة. فقد ارتفعت حرارة السيارة بشدة وتسرب الزيت. وكان امتصاصها للصدمات رديئاً للغاية، من ناحية أخرى كان صوت محركها يصيب بالصمم. وكانت عجلة قيادتها غير متزنة، وأبوابها لا تنغلق بإحكام. لدى عودة فاسوديف إلى مصنع السيارة الماروتي لم تجد إلا خمس نماذج «مكتمة» — بلا طلاء — للسيارة. كان يجري

تصنيع خمسة عشر نموذجًا آخر. إلا أن المحركات كانت تشكل يدويًا، ولم يكن هناك ما ينم عن وجود نظام تجميع قائم. فأدركت فاسوديف في رعب أن مشروع السيارة الماروتي لم يكن مشروع الإنتاج الغزير للسيارات الرخيصة الذي عهدت به الحكومة الهندية إلى سانجاي في عقدها معه، وإنما كان في واقعه مشروع إنتاج حسب الطلب.<sup>1</sup>

سعى سانجاي بلا كلل لجمع التمويل لمشروع السيارة الماروتي. فعام ١٩٧٣ اختار خمسة وسبعين وكيلًا لشراء سياراته وجمع تأمينًا قيمته ٥٠٠٠٠٠ روبية من كل منهم نظير وعد بتسليمهم سيارات في غضون ستة شهور ليتولوا بيعها (وهو وعد لم يف به). وبعدئذ لجأ إلى البنوك. فمنحه البنك المركزي الهندي وبنك البنجاب الوطني اللذان كانا قد تأمما حديثًا قروضًا بلا ضمان تصل قيمتها إلى ٧,٥ مليون روبية. بل افتتح البنك المركزي فرعًا يرأسه مدير طيع في موقع مصنع الماروتي. لكن مع كل ذلك لم تترجم السيارة ماروتي إلى واقع.

تدخل البنك الاحتياطي الهندي في نهاية الأمر، فبعث بمنشور إلى جميع البنوك المؤممة يحذرهم من أن منح المزيد من القروض لمشروع الماروتي سيتسبب في تحطيم قاعدة سياسة الدولة الائتمانية. وعليه أخبر رئيس مجلس البنك المركزي دي في تانيجا الذي كانت مساعدته لسانجاي في الماضي أحد أسباب تعيينه؛ أخبر سانجاي أنه لم يعد قادرًا على تجاوز تعليمات البنك ومنحه ثلاثين مليون روبية. فاستدعي تانيجا إلى مقر إقامة رئيسة الوزراء للخوض في نقاش حاد مع سانجاي هدده فيه بفصله من عمله. ولما لم يتزعزع تانيجا عن موقفه أعلم بعدها بوقت قصير أن الحكومة الهندية قررت عدم تجديد رئاسته لمجلس البنك المركزي.<sup>2</sup>

أزعجت أفعال سانجاي كثيرًا من المحيطين بإنديرا، لكن لم يهاجمه مهاجمة صريحة إلا قليل منهم. قبل ثلاثة أعوام كان مستشار إنديرا الأول بي إن هاكسار واحدًا من هؤلاء الذين أبدوا استعدادًا للفت انتباهها إلى خطأ منح الحكومة مشروعًا مربحًا لابنها. وحذرهم من أن ذلك سيفتح عليها باب الانتقادات، وظل يعرب عن مخاوفه أملًا في أن يضع نهاية لمشروع سيارة الماروتي الأحق. بل شكك في صفقة أرض بانسي لال وفي إمكانية تنفيذ النموذج الأولي لسيارة الماروتي. وفي النهاية نصح إنديرا دون مواربة بإبعاد سانجاي عن دلهي وعالم السياسة — إلى أوروبا أو على الأقل إلى كشمير — لإمهال فضيحة مشروع الماروتي وقتًا لتُنسى.<sup>3</sup>

كانت تلك المرة الأولى في جميع سنوات عمل هاكسار إلى جانب إنديرا التي يخطئ فيها تقدير رد فعلها، وكانت المرة الأخيرة كذلك. استطاع هاكسار — شأنه شأن الكثيرين —

أن يلحظ تأثير سانجاي على والدته. لكنه كان يأمل أن تؤثر فيها عقلانية منطقته، وترى مدى الضرر الذي قد تلحقه مسألة السيارة الماروتي بصورة سكرتارية رئيس الوزراء. لكن كل ما فعلته إنديرا هو التزام الصمت. وأتى ردها فيما بعد بطريقة غير مباشرة. ففي سبتمبر عام ١٩٧٣ كان من المتوقع أن يتجدد عقد توظيف هاكسار السكرتير الشخصي الأول لها، الأمر الذي كان قد تحول إلى إجراء تلقائي منذ تعيينه عام ١٩٦٧. إلا أن إنديرا بحلول ذلك الوقت صارت على استعداد للتخلص منه على الرغم من إسهاماته الهائلة في فترة رئاستها للوزراء. لذا تركت عقده ينتهي دون تجديده تلقائياً. ولما كان هاكسار قد بلغ سن التقاعد الرسمية آنذاك، فقد تقاعد طواعية وترك منصبه دون إثارة جلبة. وفي العام التالي عينته إنديرا نائباً لرئيس مجلس لجنة التخطيط، وكانت تلك إبان عهد نهرو كياناً بارزاً، إلا أنها حينذاك كانت قد استحالت — على حد تعبير أحد المحللين — إلى «مكتب حسابات راقٍ ودار مسنين لمن أسدوا خدماتهم للمجتمع».<sup>4</sup>

لما كان ذلك ترقى بي إن دهار ليخلف هاكسار في منصب السكرتير الشخصي الأول لإنديرا. وقد ظل في ذلك المنصب يعمل جنباً إلى جنب مع إنديرا للأربعة الأعوام التالية ولو أن علاقتهما تخللها بعض الشك. كان دهار مثل هاكسار كشميرياً واقتصادياً بارعاً ومستشاراً فطناً، إلا أنه — على حد قول هاكسار — قد يستحيل إلى رجل خنوع إن وجد نفسه على وشك التصادم مع إنديرا. لقد كان هاكسار آخر من أبدى استعداداً لمساءلة إنديرا ومواجهتها بين أفراد دائرتها. فمئذ تلك اللحظة لم يضطلع بذلك سوى سانجاي غاندي نفسه.

في ربيع عام ١٩٧٣ انصرف الانتباه لوقت قصير عن الجدل الذي أثارته مسألة السيارة الماروتي إلى القرار الذي أصدرته المحكمة العليا بشأن التعديلات الدستورية التي أجرتها الحكومة الهندية عام ١٩٧١. أقرت المحكمة العليا حق البرلمان في إدخال التعديلات الدستورية شريطة ألا تغير تلك التعديلات من «سمات الدستور الأساسية» التي تعني ديمقراطية الهند وجمهوريتها وفيدراليته. أما تحديد ما يدخل في «السمات الأساسية» للدستور فهو من اختصاص المحاكم. بعبارة أخرى: تظل التشريعات التي تمس البنية الأساسية للدستور خاضعة للمراجعة القضائية. اعتبرت إنديرا ومؤيدوها قرار المحكمة العليا ذلك هزيمة لأنه لا يعترف بالبرلمان والسلطة التنفيذية التي لا يقف أمامها شيء.

في ٢٥ أبريل في اليوم التالي على إعلان المحكمة العليا قرارها، تقاعد رئيس قضاة المحكمة العليا إس إم سيكري. كان المفترض وفقاً للإجراءات المعتادة أن يخلف سيكري

ثاني كبار قضاة المحكمة الذي كان ليصير في تلك الحالة جيه إم شيلات. غير أن الأخير كان من بين الستة القضاة الذين صوتوا على وضع قيود على حق البرلمان في إدخال الإصلاحات الدستورية. وكذا كان القاضيان اللذان تلياه في ترتيب كبار القضاة كيه إس هغد وإيه إن جروفر. لذا أمرت إنديرا الرئيس بتعيين إيه إن راى الذي اختارته رئيسًا لقضاة المحكمة العليا بدلًا من هؤلاء القضاة الثلاثة. فاستقال الثلاثة القضاة الذين استُبعدوا فورًا.

من ثم ثارت حركة معارضة شعبية عنيفة لإنديرا اتهمتها برشوة القضاة سعيًا لتأسيس «سلطة قضائية موالية». وفي ٢٦ أبريل أصدر فريق من ستة من خبراء القانون البارزين بيانًا مشتركًا يصفون فيه استبعاد القضاة الثلاثة من الاختيار بأنه «محاولة واضحة لتقويض استقلالية المحكمة العليا». من جديد كان موهان كومارامانجالام وزير الصلب وصناعات الهندسة الثقيلة — لا وزير القانون إتش آر جوالي — هو من هب للدفاع عن إنديرا في البرلمان في ٢ مايو، قال كومارامانجالام: «كان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار توجهات القاضي الأساسية. ألم يكن من الصواب التفكير بما يحقق علاقة أنسب بين المحكمة العليا والحكومة؟ أكان ... وضع نهاية لفترة من الخلافات وضمان الاستقرار شرًا؟ أظن أن علينا لدى تعييننا ... رئيسًا للقضاة أن نضع في الاعتبار ... موقفه من الحياة؛ السياسات التي يعتنقها»<sup>5</sup>

بعد أربعة أسابيع في ٣١ مايو عام ١٩٧٣ توفي كومارامانجالام في حادث طائرة. وأدت وفاته إلى تعزيز انتقال السلطة من مجلس الوزراء إلى سكرتارية رئيس الوزراء في شارع أكبر رود. فيما بعد سينتقل مركز السلطة من جديد، لكن إلى مقر إقامة إنديرا الذي صار الكثيرون يشيرون إليه باسم «القصر»، حيث أخذت سيطرة سانجاي على البلاط الذي تحكمه والدته تتزايد.

كانت وفاة كومارامانجالام صدمة شخصية لإنديرا. فقد كان صديقًا مقربًا لفيروز غاندي في لندن في أواخر الثلاثينيات، وظل كذلك حتى وفاة فيروز. ثم إنه بدا لإنديرا واحدًا من زملائها القلائل الذين لم يحركهم الغرور أو الطمع في السلطة. ولم يكن — كما كتبت إنديرا في خطابها لدوروثي نورمان — رجل سياسة «سوى أنه كان شديد الحرص على مصلحة الناس، وراغبًا في تقديم العطاء»<sup>6</sup>.

أما إنديرا فقد استحال «سياسة» إلى الأبد، وشعرت للمرة الثانية في حياتها أنها رهينة مكانتها التي ظلمتها. لقد كتبت في نفس الخطاب لدوروثي نورمان تقر بأنّها «شعرت بالاكئاب الشديد في الفترة الأخيرة. وإن ندر في البداية أن تسنت أو أتحت لي لحظة لأتأمل حالي ... كنت دائمًا بصدد مهمة لا تحتمل التأخير ... أشعر أنني حبيسة

بسبب رجال الأمن الذين يحسبون أن بإمكانهم إخفاء افتقارهم التام للكفاءة بالأعداد الكبيرة والتضييق عليّ أكثر، وربما لأنني أدركت أنني وصلت لنهاية المطاف ولم يعد بإمكانني الوصول إلى أبعد من ذلك في هذا المضمار، يتزايد شعوري بالاختناق.<sup>7</sup>

لكن ما هي طبيعة النظام الحياتي — سواء من الناحية الشخصية أو السياسية — الذي شعرت إنديرا أنه يقيدتها؟ في مقابلاتها الصحفية أكدت دائماً أنها لا تفصل بين حياتها العامة والشخصية، الأمر الذي أظهرته بسماحها لحفيديها اللذين لم يتعودا المشي بعد بالتجوال في أنحاء حديقة منزلها أثناء عقدها المؤتمرات الصحفية خارج المنزل. لكن بحلول ذلك الوقت كانت الأنشطة السياسية قد طغت على حياة إنديرا، فلم يتسنّ لها إلا القليل من الوقت للعائلة أو الأصدقاء أو القراءة أو أي أنشطة أخرى خلا تلك التي تدخل في يوم عملها الذي يبلغ ست عشرة ساعة أو أكثر.

كانت تنهض من النوم في السادسة صباحاً وتمارس تمارين اليوجا عشرين دقيقة، وبعدها تستحم وترتدي ملابسها سريعاً ولو في خمس دقائق، الأمر الذي لا يقدر عليه — حسبما رأت — سوى «القليلين»، وبعد ذلك تتصفح الجرائد أثناء تناول الإفطار على صينية في غرفة نومها، ثم تلتقي قبل الثامنة صباحاً بسكرتيرها الشخصي لمراجعة جدول مواعيدها لليوم سريعاً ومناقشة أية أمور أخرى. في البداية كان ذلك السكرتير رجلاً يدعى ياشبال كابور، لكن استُبدل به في أوائل السبعينيات ابن خال له يصغره سنّاً ويدعى آر كيه دهاوان ينحدر بدوره من البنجاب. لم يكن هذان الرجلان مسئولين حكوميين. وإنما انتميا إلى مرتبة وظيفية أدنى ومختلفة كلية، وتعريف وظيفتيهما كان أقل تحديداً من وظيفة بي إن هاكسار وبّي إن دهار. ولم يكونا القائمين على تلبية احتياجات إنديرا، فقد اضطلع بذلك يوشا بهاجات وسونيا غاندي.

تدرب كل من كابور ودهاوان على أعمال السكرتارية وعملًا كاتبًا اختزال وطباعة لدى نهرو. عُيّن كابور لدى إنديرا عندما صارت رئيسة لحزب المؤتمر عام ١٩٥٩. وظل يعمل لديها إلى بعد ما توفي نهرو وشاستري حتى بلغ مكانة غير رسمية لا بأس بها. واتخذ — ومن بعده دهاوان — سكرتير نهرو السابق إم أو ماثاي مثلاً أعلى فيما يتعلق بالمسؤوليات المهنية. فقد كرس هو ودهاوان نفسيهما بالكامل لإنديرا، ومع أن كليهما لم يقيما لديها في مقر إقامتها — كما مكث ماثاي في بيت تين مورتى — إلا أنهما كانا هناك يومياً طوال اليوم دائماً. وبالرغم من أنهما لم يبلغا درجة التحكم التام التي وصل



إليها ماثي إلا أنهما اتخذتا قرارات نيابة عن إنديرا واضطلعا بالنظر في أمر الزيارات والاتصالات الهاتفية التي تردها، وامتلكا قدرًا من النفوذ لا يليق بمرتبتيهما. فعلى سبيل المثال قيل عن كابور إنه «يملك نفوذًا أكبر من رئيس حكومة الولاية ... ويحتل منصبًا يخول له تشويه صورة أي سياسي» في نظر إنديرا.<sup>8</sup> فمثلاً كان هو من عجلَ بتهميش صديق وكاتم سر إنديرا دينيش سينج عندما أخبرها بأن سينج ألمح في كل مكان أنه عشيق إنديرا.

كذلك لعب كابور دور وكيل و«مصحح الأوضاع» لإنديرا على أرض دائرتها الانتخابية دائرة راي باريلي قبل الانتخابات العامة لعام ١٩٦٦ و١٩٧١، الأمر الذي كان من شأنه إطلاق سلسلة من الأحداث تنتهي بسقوط إنديرا من السلطة بعد أربعة أعوام. أما آنذاك فكان وضع كابور المالي مزدهرًا، وقد أصبح عضوًا في المجلس الأعلى من البرلمان بحكم موقعه القوي إلى جانب رئيسة الوزراء.

أما آر كيه دهاوان ذو الشعر الأسود الناعم اللامع والابتسامة المشرقة فكان أكثر تلهفًا من ابن خاله كابور على خدمة إنديرا. وقد فعل ذلك بدون أن يخالجه الشك للحظة حتى عام ١٩٨٤. ظل دهاوان أعزب بلا حياة خاصة به؛ فقد أخبر أحد الصحفيين في أواخر السبعينيات: «كنت ألزم رئيسة الوزراء يوميًا من الثامنة صباحًا إلى الوقت الذي تخلد فيه للنوم على مدى الـ ٣٦٥ يوم التي تكوّن العام. ولم أحصل على إجازة عرضية ليوم واحد منذ عام ١٩٦٣. بل لا إجازة عرضية أو مستحقة، لا (إجازات) ... أنا دومًا مع رئيسة الوزراء». كان دهاوان «ظلًا» لإنديرا في مقر إقامتها وفي الأسفار داخل وخارج الهند.<sup>9</sup>

بعدما تلتقي إنديرا بسكرتيرها الشخصي كانت دائمًا ما تعقد مجلس الدارشان — مجلس استقبال الزوار — الصباحي ساعة في حديقته في ١ شارع أكبر رود. وقد أمكن لأي شخص الذهاب إلى ذلك المجلس؛ فالإجراءات الأمنية المنوطة بحماية رئيس الوزراء لم تكن صارمة في السبعينيات، وقد ضمت أفواج زائريه اليومية موظفي حزب المؤتمر وناشطو الحركة العمالية وعمال المصانع والفلاحين والطلاب والمتزوجين حديثًا والأمهات اللاتي تحملن صغارهن والسياح الأجانب. بعد مجلس الدارشان وقبل تمام الساعة العاشرة صباحًا تكون إنديرا خلف طاولة مكتبها في العقار رقم ١ في شارع أكبر رود، وهو أحد المكاتب الثلاثة التابعة لها في ما يدعى بمنطقة ساوث بلوك التي تقع في المجمع البرلماني. بعد ذلك تعود إنديرا في الواحدة ظهرًا لمنزلها لتناول الغداء، ثم تعود إلى

مكتبها للعمل، وتظل هناك إلى الساعة السابعة أو الثامنة مساءً. أما وقت عشائها فكان دائماً اجتماعاً لشمّل الأسرة، يشمل أحياناً أصدقاء العائلة ولا تناقش فيه الأمور السياسية إطلاقاً. وبعده كانت إنديرا تواصل العمل على بعض الملفات أو الالتقاء ببعض موظفيها حتى منتصف الليل أو ما بعده. أما أيام الآحاد فكانت تحاول أن تتفرغ فيها لأحفادها وأصدقائها — تلك هي الوتيرة التي سارت عليها حياتها في أيام العمل «العادية». غير أنه كان عليها أيضاً لقاء واستضافة الزوار — سواء من الساسة أو العامة — الذين لا تنقطع زيارتهم. وهي نفسها كانت تمضي الكثير من الوقت في السفر داخل الهند أو خارجها في زيارات رسمية.

سَيرَ حياتها العمل، فلم يكن بها مجال للتأمل أو الخوض في المحادثات الشخصية أو اللغو أو الاسترخاء. كذلك لم يكن ضيق الوقت يسمح بالمكاتبة. فأَنداك تحولت رسائلها المطولة التي تحمل طابع الاعتراف لدوروثي — خلا القليل منها — إلى رسائل قصيرة كُتبت أو أُمليت وطُبعت على عجل. وبذا خاضت إنديرا الحياة التي خاضها نهر. إلا أنها كانت أفضل استثماراً للوقت منه. فلم تعتمد إلى التحيات المطولة المتكلفة، وإنما كانت تسوق زائريها إلى الدخول في صلب مختلف الموضوعات في ثوانٍ، وتحسن الإصغاء، وتحسم أمرها سريعاً.

مع أن الشائعات ظلت تدور آنذاك حول خوض إنديرا العلاقات الغرامية، فهي — حتى إن كانت على استعداد لذلك — عانت من ضيق الوقت وافتقرت إلى الخصوصية. لقد ظل دهيريندرا براهماشاري معلم اليوجا الخاص بها ورجل الدين الجذاب الوسيم زائراً منتظماً لها في بيتها إلى ذلك الوقت. وجمعت بينه وبين سانجاي في السبعينيات علاقة وثيقة، فصار مع الوقت فعلياً أحد آل البيت. ولما كان الرجل الوحيد الذي أمكن له أن يرى إنديرا وحدها في غرفة نومها أثناء تدريسها اليوجا أصبح الرجل الوحيد الذي يمكن أن تجمع بينه وبين إنديرا علاقة غرامية.

غير أن إنديرا كانت آنذاك في منتصف الخمسينيات أرملة وجدة، يخط الشيب شعرها بوضوح. وفي المجتمعات المحافظة على التقاليد تعتبر الأرامل والجيدات — بل جميع النساء اللاتي جاوزن سن اليأس — خاملات جنسياً. لم تكن إنديرا — بعكس الغالبية العظمى من بنات جلدتها — من الهنديّات اللاتي يتبعن التقاليد. إلا أنها كذلك اتسمت بفطرتها بالحدز، لذا يبدو مناقضاً لطبيعتها أن تشق عن التقاليد وتجاوزف بصورتها من أجل إشباع لحظيٍّ لرغبة.

لكن عام ١٩٧٣ لما لوث الفساد من أحاطوا بها ونما بينهم اشتد قلقها على صورتها. في الواقع كانت هي نفسها قد أضحت مهددة. ففي قرابة الوقت الذي دار فيه الجدل حول مسألة تعيينها إليه إن راي رئيساً لقضاة المحكمة العليا قدم خصمها في انتخابات عام ١٩٧١ العامة راج ناراین عريضة لمحكمة الله آباد العليا يتهمها فيها بانتهاك قواعد انتخابية، إلا أن هذا الاتهام لم يحظَ إلا بتغطية إعلامية بسيطة. فناراین — الذي أشار له الكثيرون بـ «أمير خرقاء الهند» — كان رجلاً مضحكاً يرتدي منديل رقبة ويتصرف كالمهرج. لذا ظن من انتبه إلى تقديمه للعريضة أنه يقدم حركة بهلوانية أخرى لجذب الأنظار إليه. وقد كانت العريضة التي قدمها تافهة بالفعل. فعلى سبيل المثال كان من بين ممارسات الفساد التي اتهم إنديرا بها أنها استخدمت كابور ليكون ظهيراً لها في الانتخابات إبان عمله لديها سكرتيراً شخصياً بتعيين حكومي. كما اتهمها بأنها استخدمت بصورة غير قانونية الموظفين الحكوميين كالعمال لنصب المنصات الخطابية وتركيب المكبرات الصوتية إبان فترة الاستعداد لانتخابات عام ١٩٧١.

عام ١٩٧٤ لم تهطل الأمطار الموسمية للعام الثالث على التوالي، تواصل الجفاف والعجز عن توفير الغذاء. وارتفع معدل التضخم. وبهذا اضطرت إنديرا إلى التماس العون من البنك العالمي وصندوق النقد الدولي. فمنحها صندوق النقد الدولي قرضاً، إلا أنه أتبع معروفة بشروط قاسية تقضي بأن تعدل تماماً عن سياساتها الاقتصادية الاشتراكية وفيها سياسة خفض النفقات الحكومية. لكن معدل البطالة تزايد. ولم تعد حتى معونات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي قادرة على الحد من موجة الاضطرابات المتزايدة التي شهدتها الهند في القطاع الصناعي وعلى الصعيد الاجتماعي. فقد تعطلت أحوال البلاد جراء اندلاع المزيد من الإضرابات والمسيرات التي قادت في أغلب الوقت إلى أعمال العنف وتدخل الشرطة. وفي يناير عام ١٩٧٤ اعترض الطلاب في ولاية جوجارات على غلاء أسعار السلع الأساسية. وسرى سخطهم سريعاً إلى سائر الولاية، فشارفت على الوقوع في الفوضى. فنهبت المحال والمنازل وأحرقت الحافلات والسيارات ودمرت الممتلكات الحكومية. ولم تتمكن الشرطة — التي استهدفها الهجمات في أغلب الوقت — من احتواء الموقف، وقُتل في غضون شهر ١٠٣ أشخاص وأصيب ٣٠٠ واعتقل ٨٠٠٠. شأنها شأن الاحتجاجات في سائر البلاد، ركزت احتجاجات جوجارات على غلاء الأسعار والفساد السياسي، غير أنها نهبت إلى أبعد من ذلك وطالبت بالتجديد السياسي. لقد طالب المحتجون باستقالة رئيس

حكومة ولايتهم الفاسد تشيمانبهاي باتيل وحل المجلس التشريعي وعقد انتخابات الولاية من جديد. كان باتيل واحدًا ممن تبقى من رؤساء حكومات الولايات الذين لم تختبرهم إنديرا، لذا لم تمنع في تركه منصبه عندما أُجبر على الاستقالة في أوائل فبراير. أما بالنسبة للمجلس التشريعي فقد عارضت حله في بادئ الأمر؛ لأن حزب المؤتمر امتلك النصيب الأكبر من المقاعد فيه بنسبة الثلثين إلى الثلث. إلا أنها في آخر الأمر أذعن لحله وأخضعت جوجارات للحكم المركزي في ٩ فبراير عام ١٩٧٤. وفي ذلك يذكر أنها أشارت بمرارة إلى أنه كانت هناك مؤامرة خلف تلك الاضطرابات رأت — هنا وفي مرات أخرى عديدة — أنها مؤامرة من عناصر أجنبية هي بعبارة أخرى الاستخبارات المركزية الأمريكية.

تلك هي الخلفيات والظروف التي أدت لبروز المدافع عن الحرية، صديق عائلة نهرو القديم جايابراكاش نارايان، مصدر القوة الماحقة للحركة التي تزعمها ونظمها. كان نارايان — أو جي بي كما عُرف لدى الكثيرين — واحدًا من أوائل تلاميذ غاندي، وقد أصبح بطلاً من أبطال حركة تحرير الهند السرية عندما خرب خطوط السكك الحديدية والمواقع العسكرية الخاصة بالبريطانيين. وبعد استقلال الهند انشق عن حزب المؤتمر وانضم إلى الحزب الاشتراكي، ثم انصرف عن جميع التيارات السياسية السائدة. وعاش لسنوات عيشة متقشفة يؤثر فيها على نفسه ويكرس وقته بالكامل لتحسين الأحوال الاجتماعية وتقديم العون لقطاعات الشعب الهندي التي يقع عليها أقصى الظلم.

ولما هاله كم الأشياء التي انحرفت عن المسار الصحيح في الهند في السبعينيات قرر أن يدخل عالم السياسة من جديد. وخاض بكل كيانه حربًا على حكومة إنديرا، مع أنه كان في السبعينيات من عمره يعاني مرضًا كلويًا وأمراضًا شتى. ولما عُرف عنه من نبل استطاع أن يوحد بين خصوم إنديرا من اليمينيين واليساريين مع عدم اتفاقهم على شيء. فباستثناء الحزب الشيوعي اجتمعت جميع قوى المعارضة على مساندته وتأييد ندائه بإطلاق «ثورة شاملة» لإسقاط حكومة إنديرا. وكان عنوان ندائه — على حد تعبير إنديرا في خطابها إلى دوروثي نورمان — «هو أنني «أكبر ديكتاتورة في العالم»». وقد انتهز نداءه موراجي ديساي الذي تمتع آنذاك بتأييد حزب جان سينج من ناحية وحزب الشيوعيين المتشددین (الماركسيون اللينينيون) من ناحية أخرى.<sup>10</sup> وانضم إلى حركته قطاع كبير من الفرق السياسية على اختلافاتها؛ من حزب جان سينج الهندوسي اليميني وكوادره العسكرية في منظمة راشتريا سوايامسيفاك سانغ، إلى التنظيمات اليسارية المتطرفة كالناكساليين. اجتمعت تلك الفرق التي لا يجمع بينها شيء على هدف واحد وهو الإطاحة بحكومة إنديرا غاندي رغم أنف القانون.

بدأت حركة جي بي نارايان في أوائل عام ١٩٧٤ بولاية بيهار مسقط رأس نارايان، وشأنها شأن حركة ولاية جوجارات، كان هدفها المباشر هو عزل رئيس حكومة الولاية وحل المجلس التشريعي وإجراء انتخابات جديدة. غير أن من الفوارق الجوهرية بين الحركتين أنه فيما اضطلع الطلاب اليساريون في جوجارات بحمل لواء حركتها، في بيهار حاول نارايان أن يحمل الفلاحين والعمال الذين لا يملكون أراضي وغيرهم من قطاعات المجتمع الهندي الفقيرة على الاشتراك في الحركة. ونادى في بيهار بشن الإضرابات العامة لأسبوع وفرض حصار على برلمان الولاية الذي رفضت إنديرا حله. وهذا الحصار أو التطويق كان استراتيجية جديدة للتعبير عن المعارضة أجدى من استراتيجية ترك العمل السلبية التي تمارس في الإضرابات.

في مايو، في الوقت الذي أشرف فيه الموقف في بيهار على الانفجار، بدأ قائد نقابة العمال الاشتراكي جورج فيرنانديز الإضرابات على مستوى البلاد.<sup>11</sup> وطالب عمال السكك الحديدية البالغ عددهم ١,٤ مليون عامل، ويمثلون ١٠٪ من مجموع موظفي القطاع العام، بخفض عدد ساعات عملهم إلى ثماني ساعات وزيادة أجورهم بنسبة ٧٥٪ لتتمشى مع أجور العاملين في القطاعات المؤممة. فقدمت الحكومة بعض التنازلات. لكنها رفضت تلك المطالب. واستنادًا إلى قوانين الهند الدفاعية أعلنت إنديرا أن تلك الإضرابات غير قانونية، وألقي القبض على فيرنانديز وغيره من زعماء حركة العمال في ٢ مايو. فأضرب مليون شخص من عمال السكك الحديدية عن العمل بعد خمسة أيام. ذلك لأن أقل ما هدفوا إليه — على حد تعبير فيرنانديز — هو «تغيير تاريخ الهند بالكامل وإسقاط حكومة إنديرا غاندي بشل حركة النقل في السكك الحديدية تمامًا».<sup>12</sup> وقد تعطلت شبكة خطوط السكك الحديدية في البلاد تبعًا حتى توقفت عن العمل تمامًا.

نتيجة للشلل الذي أصاب حركة السكك الحديدية وصلت مشكلة نقص الغذاء إلى درجة خطيرة انتقلت معها المجاعات إلى أجزاء من البلاد. فعزمت إنديرا على وضع نهاية للإضرابات بأي ثمن. هذا الأمر دفعها إلى استخدام قانون الحفاظ على الأمن الداخلي الذي أجاز الاعتقالات «الوقائية». وقد كان الثمن فادحًا. ففي الأيام الأولى من تطبيق الحكومة الهندية للقانون اعتُقل وسُجن ما يزيد عن ٢٠٠٠٠ عامل من عمال السكك الحديدية. ارتفع عددهم فيما بعد ليصل إلى ما بين ثلاثين ألف عامل وأربعين ألفًا. سُردت أسرهم من منازلهم الحكومية وأضحت معدمة. كما كان العنف كثيرًا ما يمارس في الاعتقالات فيصاب المصابون بإصابات أدت في بعض الأحيان إلى الوفاة. لقد تمكنت إنديرا من القضاء على الإضراب بعد عشرين يومًا من اندلاعه. ومع الإدانة الواسعة التي تعرضت لها

أساليب الحكومة الوحشية فإن كثيراً من الهنود — وخاصة من الطبقة الوسطى والعليا — امتدحوا الإجراءات التي اتخذتها. لقد أراد هؤلاء — شأنهم شأن البريطانيين من قبلهم — أن تنتظم القطارات في مواعيدها.

لعل إنديرا قد ربحت هذه الجولة، لكن الأسلوب الوحشي الذي تبنته في قمع إضراب عمال السكك الحديدية ظل يوحد ويلهب المعارضة.

في ١٨ مايو عام ١٩٧٤، في الوقت الذي استمرت فيه إضرابات عمال السكك الحديدية، فجرت الهند في بوخاران براجستان جهازاً نووياً سرياً، الأمر الذي قوبل باستحسان كبير. حرصت البلاد على أن تظل تلك «التجربة النووية السلمية» سرّاً. حتى إن مجلس إنديرا الوزاري لم يعلم عنها أو يبلغ بها إلا بعد أربع ساعات من وقوع التفجير. لقد صارت الهند القوة النووية السادسة في العالم، فلما عرف بذلك احتفل الشعب الهندي يومين ونسي أمر إضرابات السكك الحديدية. لكن على الصعيد الدولي قوبلت تلك التجربة النووية بكم هائل من الانتقادات وخاصة من باكستان والدول المعروفة بقدراتها النووية. وإزاء ذلك كان رد إنديرا في البرلمان قوياً؛ حيث قالت: «التكنولوجيا في حد ذاتها ليست شرّاً، فاستخدام الأمم لها هو الذي يحدد طبيعتها. والهند لن تقبل بمبدأ التفرقة العنصرية في أي شأن وفي ذلك حقها في امتلاك التكنولوجيا».<sup>13</sup>

في قرابة الوقت الذي انتهت فيه التجربة النووية انقضت فترة رئاسة في في جيري. ومع أن الأخير كان خيار إنديرا عام ١٩٦٩ وكان تأييدها وتفضيلها له على مرشح حزب السينديكييت هو الذي عجل بانقسام حزب المؤتمر، فقد اضطربت علاقتهما في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال في العام السابق عارض جيري إقصاءها لقضاة المحكمة العليا. لذا بدلاً من أن تشجعه على تجديد فترة رئاسته رشحت فخر الدين علي محمد — وهو رجل مسلم في السبعين من عمره — ليخلفه في رئاسة الهند. أيقنت بأن الأخير سيكون وفيّاً ومطيئاً لها. وفي عام ١٩٧٤ سيطرت بنفسها على حزب المؤتمر — بما فيه رئيسه ديف كانتا بارواه — وأغلب رؤساء حكومات الولايات، وقطعاً المجلس الوزاري الخاص بها. ومع رئاسة فخر الدين علي أحمد للهند كان منصبها سيصبح محصناً. الأمر الذي يوجزه بدقة الشاعر الكاشف الذي ابتكره بارواه رئيس حزب المؤتمر: «إنديرا هي الهند، والهند هي إنديرا».

في الوقت الذي أخذ صيف عام ١٩٧٤ الحار الحافل بالاضطرابات يمر فيه بتثاقل شديد، انصرف انتباه إنديرا لوقت قصير إلى خطط زواج ابنها الأصغر سانجاي. ففي

٢٩ سبتمبر عام ١٩٧٤ تزوج وهو في قرابة الثامنة والعشرين من عمره مانيكا أناند — وهي فتاة سيخية في السابعة عشرة من عمرها — بمراسم زواج مدنية في بيت صديق عائلة نهرو القديم محمد يونس. وهذا البيت شهد أيضاً أول لقاء بين سانجاي ومانيكا في ديسمبر من العام السابق في حفل زواج آخر. كانت مانيكا ابنة ضابط جيش سيخي يدعى الكولونيل تي إس أناند، وامرأة عدوانية شديدة التكلف والاعتداد بنفسها تدعى أمتيشوار. بالإضافة إلى أن مانيكا كانت تصغر سانجاي بعشرة أعوام، كانت امرأة جميلة مفعمة بالحيوية وتتسم بالحزم، وتشبه والدتها في بعض جوانب شخصيتها. عندما التقى بها سانجاي للمرة الأولى كانت قد انسحبت لتوها من مقرر في العلوم السياسية في جامعة سري رام كوليدج في دلهي وصارت تتطلع إلى العمل كصحفية.

أذهل زواج سانجاي ومانيكا الجميع عدا المقربين لهما وعائلتيهما. صار سانجاي منذ تأسيسه مشروع الماروتي مدمناً على العمل، لا يملك إلا القليل من الوقت للنساء. كان يذهب باكراً صباح كل يوم إلى مصنع الماروتي ويعود إلى المنزل في السابعة أو الثامنة مساءً. ولما انصب كل تركيزه على مشروع الماروتي وصار في السابعة والعشرين من العمر وبدأ الصلح يغزو رأسه، لم يعد شاباً ثرياً مستهتراً كما عُرف عنه في إنجلترا. فمنذ عودته من هناك لم يخض في علاقات مع النساء سوى علاقتين جادتين؛ إحداهما كانت مع امرأة مسلمة، والثانية مع امرأة أوروبية. كما صار شاباً جاداً وطموحاً، لا يملك الوقت أو يجد في نفسه هوى للأنشطة الاجتماعية. أما مانيكا من ناحية أخرى فكانت تواقه للخروج والظهور، كما كانت ثائرة ومستهترة. ومع أن التعاليم السيخية آنذاك حرمت تدخين السجائر فقد كانت تدخنها، الأمر الذي كرهه سانجاي للغاية. كذلك كانت طباعهما مختلفة تمام الاختلاف، فلم تجمع بينهما قواسم أو صداقات مشتركة. هذا فضلاً على أن مانيكا كانت شديدة التأثر بوالدتها المتسلطة أمتيشوار التي رأت منذ البداية أن بالإمكان التمتع بالكثير من المزايا بمصاهرة عائلة غاندي. بعبارة أخرى: جمع زواج سانجاي ومانيكا كل عناصر الفشل.

ولم تكن إنديرا نفسها راضية عن خيار سانجاي، لكنها حاولت ألا تتدخل، فلما تمت خطبته إلى مانيكا في يوليو عام ١٩٧٤ منحتها إنديرا خاتم خطبة والدتها كامالا الذي صممه موتيلال نهرو قبل أعوام عديدة، وفوق ذلك عندما تم الزواج أظهرت إنديرا لزوجة ابنها الجديدة كرمًا بالغًا، فأهدتها واحدًا وعشرين ساريًا جميلاً ومجموعتين من الحلي الذهبية وما يعز عن كل ذلك بالنسبة لها، ثوبًا من قماش القادي الصوفي نسجه نهرو وقتما كان في السجن.

بعد زواج مانिका وسانجاي مباشرة انضمت الأولى إلى عائلة إنديرا في العقار رقم ١ في شارع سافدارجانج رود كما فعلت سونيا ماينو عندما تزوجت من راجيف قبل ستة أعوام. وقد زينت إنديرا غرفة نوم العروسين ونسقتها بنفسها. وأذاك كتبت إنديرا لدوروثي نورمان تقول: «تم الزواج بهدوء. لقد ساورتني بعض الشكوك حيال الأمر برمته، فمانিকা صغيرة السن جدًا ... ولم أكن واثقة من أنها تعرف ما تريد! بأية حال يبدو أنها انسجمت مع الآخرين، كما أنها صارت تبعث المرح والبهجة في المكان»<sup>14</sup>

إلا أن الحال لم تظل كذلك لوقت طويل. فسرعان ما اتضح أن مانিকা بعكس امرأة أخي زوجها لا ولن تستطيع التكيف مع آل غاندي وإيقاع حياتهم. فقد كانت صاخبة وجامحة وفجة. لذا تصادمت منذ البداية مع أخي زوجها المتسامح راجيف ومع زوجته. وفي بعض الأحيان لم تظهر الاحترام لحمااتها. ورغم أن إنديرا كانت أبعد ما تكون عن النمط الراسخ في الأذهان للحماة الهندية المتسلطة إلا أنها رأت أن سلوك مانিকা تعوزه اللياقة ويثير الأعصاب. لقد قالت مانিকা نفسها فيما بعد تعترف: «كنت صغيرة في السن، أفترق إلى النضج وأملُ سريعًا. وأجهل الأعمال المنزلية، كما لم أرد أن أتعلم الطهي في منزل عائلتي ... كنا نتحدث بلا كلفة وبجرأة ... في كثير من الأحيان. أما آل غاندي فيحرصون على اتباع قواعد اللياقة ... بعضهم مع بعض»<sup>15</sup> بدخول مانিকা بيت آل غاندي تغلغل

إلى البيت روح الخلاف ووقعت الفوضى في جنة السلام التي كانت إنديرا تستمتع بها للحظات قليلة في بيتها.

عام ١٩٧٤ تدهورت العلاقات بين الهند ومملكة سيكيم الصغيرة المجاورة لها. تكمن أهمية تلك المملكة — التي تحتل مساحة لا تتجاوز ٢٨٠٠ ميل مربع وتقع في منطقة هادئة بين جبال يغطيها الثلج دائمًا، ويبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠٠٠ نسمة فقط — في موقعها الاستراتيجي؛ إذ كانت تحصرها دولة نيبال غربًا ومنطقة التبت التي يحتلها الصينيون شمالًا ودولة بوتان شرقًا والبنغال الغربية جنوبًا. لهذا خدمت إبان الاستعمار البريطاني كمخفر أمامي ناءٍ لجيش الهند البريطانية. ومع أنها قانونًا نالت الحكم الذاتي إلا أن حاكمها — كما في الإمارات الهندية — كان مفوضًا بريطانيًا مقيمًا. لكن بعكس الإمارات الهندية لم يكن على ملك سيكيم أو ما يدعى بالتشوغياي (القائد الروحي) أن يقسم بالولاء للتاج البريطاني. وقد صارت سيكيم بعد الاستقلال خاضعة لحماية الهند لا واحدة من الولايات المكونة لها. ويعني الخضوع للحماية هنا أن تحتفظ سيكيم بالسيطرة على شئونها الداخلية فيما تتولى الهند الدفاع عنها وعن وحدة أراضيها.



في السبعينيات رفض تشوغيال سيكيم — الذي كان أكثر ما اشتهر به في الغرب زواجه من امرأة أمريكية تدعى هوب كوك — مطلب حزب المؤتمر الوطني الخاص بسيكيم وغيره من الأحزاب بتأسيس نظام برلماني ديمقراطي. فقد صارت هوب بزواجها منه — شأنها شأن الممثلة جريس كيلي — شخصية بارزة من الطبقة المالكة، وبأشرت بلهفة التصرف بناءً على مكانتها الجديدة تلك. فباعدت أحلامها بامتلاك السلطة بين جبال الهيمالايا وفقاً لأحد المحللين «بين زوجها ومؤيدي حكمه التقليديين وفصلت بينه وبين مجتمع سيكيم».<sup>16</sup> وأذكت طموحاتها بامتلاك الحكم وإحياء الألقاب والعادات والطقوس الملكية معارضة زوجها للحركة المتنامية الداعية إلى الديمقراطية. ودفعته إلى السعي لرفع حماية الهند عن سيكيم وتحويلها إلى ولاية مستقلة تتمتع بالحكم الذاتي.

أقلقحت حركة تشوغيال سيكيم الانفصالية دلهي. فقد كتب بي إن دهار فيما بعد يقول عن الوضع آنذاك: «كان الدفاع عن سيكيم فرضاً استراتيجياً على الهند»؛ لأنها خدمت كمنطقة عازلة على حدود منطقة التبت بين الهند والصين. بعبارة أخرى: «سيكيم كانت في غاية الأهمية لا يحتمل أمرها التهاون فيه ... لذا وجب على حكومة الهند إحباط سعي ملك سيكيم لتأسيس هوية دولية لها بأي ثمن».<sup>17</sup>

عام ١٩٧٤ أُجريت انتخابات في سيكيم وليّ بموجبها رئيس حكومة ومجلس وزاري على تلك المملكة. وتحول منصب التشوغيال من منصب لحاكم روحي مؤقت إلى منصب ملكي مقيد بالدستور. وبعدها في أواخر أغسطس عام ١٩٧٤ صيغ مشروع قانون لإجراء إصلاح دستوري يقضي بأن تتحول سيكيم من مملكة إلى ولاية تابعة للهند. وصوّر تشوغيال سيكيم في الإعلام الهندي على أنه «وحش، ووصفت اعتراضاته على مشروع القانون بأنها محاولة للإبقاء على الحكم الملكي المطلق».<sup>18</sup> لا شك أن التشوغيال مثّل مشكلة كبيرة. لكن على حد تعبير أحد الصحفيين: «كان اقتراح تبعية نظام ملكي لنظام جمهوري ضرباً من السفه من الناحية الدستورية».<sup>19</sup> على كلّ في تلك الأثناء رحلت الملكة هوب عن سيكيم وعادت إلى الولايات المتحدة موطنها، تاركة زوجها التشوغيال يغرق في الأحزان وهو كهل يبدو وكأنه يعيش في الماضي.

إنقاذاً لموقفه سافر التشوغيال على متن طائرة إلى دلهي ليلتمس تأييد إنديرا شخصياً. كانا في الواقع على معرفة جيدة أحدهما بالآخر من وقت سابق. فقد كان نهرو صديقاً مقرباً لأبي التشوغيال، ويذكر أنه رأى أن الأخير «قد يصبح يوماً قائداً مؤثراً يقود سيكيم إلى التحرر من ظلام العبودية».<sup>20</sup> كذلك التقت إنديرا التشوغيال عندما صحبت أباهما إلى

سيكيم عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٨، ومكث التشوغيال من قبل لدى آل نهرو في بيت تين مورتى. مع هذا عاملته إنديرا لدى وصوله إلى دلهي عام ١٩٧٤ وكأنه غريب. فوفقاً لبي إن دهار الذي حضر لقاءهما ردت عليه «باقتضاب على نحو يكاد يبدو فظاً». وأوضحت له أن «الساسة الذين يتعرض لهم بالإدانة الشديدة هم الممثلون الذين اختارهم شعب سيكيم، ونصحته بعدم التصدي لرغبتهم. فلما أراد التشوغيال استكمال النقاش لزمت السيدة غاندي الصمت ولم تبتِ اهتماماً». أجادت — على حد قول دهار — استخدام الصمت كرد بالسلب. حتى نهض التشوغيال بعد لحظة من الصمت الثقيل ليغادر. فودعته السيدة غاندي بيدين مضمومتين وابتسامة غامضة دون أن تنبس ببنت شفة.<sup>21</sup>

إلا أن التشوغيال وجد التأييد بين أعداء الهند. ففي باكستان اتهم ذو الفقار علي بوتو الهند بالسعي إلى ضم سيكيم. ثارت في نيبال احتجاجات على سياسات الهند «الاستعمارية والإمبريالية»، أما الصين فقد شبّهت نوايا الهند في سيكيم بنوايا الاتحاد السوفييتي في غزوه لتشيكويسلوفاكيا عام ١٩٦٨. فشنت إنديرا غاندي هجوماً قاسياً على الصين تذكرها فيه بغزوها للبت.

بعدئذٍ في ٨ أبريل عام ١٩٧٥ شن الجيش الهندي هجوماً مباغتاً، فاقتحم ما يزيد عن ٥٠٠٠ جندي جانجتوك عاصمة سيكيم. وفي اليوم التالي أطبقوا على قصر التشوغيال المؤلف من اثنتين وعشرين غرفة. حاول ممثلو دلهي شراء بعض الوقت بالتأكيد للتشوغيال أن ذلك لم يكن إلا «تدريباً عسكرياً» وأن الأمر لا يستدعي القلق. لكن تلك الحيلة لم تنطّل على التشوغيال. ولما كان من هواة الأجهزة اللاسلكية أذاع من جهاز إرسال بقصره نبأ غزو الهند، والتقط رسالته الكثيرون من بينهم قاضي تحقيق متقاعد في قرية بولاية كنت، واثنان من هواة اللاسلكي أحدهما في السويد والثاني في اليابان.<sup>22</sup> لكن أحداً لم يستجب لنداء الاستغاثة الذي بعثه. فكانت النتيجة أن تغلبت قوات الجيش الهندي بسهولة على حرسه الخاص وفرضت عليه الإقامة الجبرية في قصره.

بعد ذلك في ١٤ أبريل عُقد على عجل استفتاء لتحديد مصير التشوغيال وسيكيم. ونتيجة له ألغيت قاعدة حكم التشوغيال وأسرته الحاكمة التي يعود تاريخها لـ ٣٣٣ عاماً، وأدمجت مملكة سيكيم في الاتحاد الهندي بصفتها الولاية الثانية والعشرين له. في بعض الأنحاء أُدين «الاستيلاء» على سيكيم قسراً ووصف بأنه «عملية اقتحام وسرقة». لكن في دلهي اعتبرت وجهة النظر الرسمية «إدماج» سيكيم في الهند انتصاراً آخر للديمقراطية.

كانت تسوية الأوضاع في سيكيم أسهل بكثير من حل المشكلات المتواصلة التي ظهرت في كشمير. في اتفاقية مؤتمر سيملا لعام ١٩٧٢ نصت إحدى فقرات الاتفاقية على أن يلتقي ممثلو الهند وباكستان مجدداً «في وقت مناسب لكلا الطرفين» للتباحث في وضع «تسوية نهائية لمسألة جامو وكشمير»، لكن لم يجرِ تفعيل تلك الفقرة إلى أن مرت ثلاث سنوات. ففي مايو عام ١٩٧٣ شهدت مدينة أنانتناج بجنوب سريناغار واقعة غريبة أعادت إثارة القلاقل في كشمير. في جامعة أنانتناج عثر طالب على رسم للنبي محمد وهو يأخذ القرآن عن جبريل كبير الملائكة في نسخة ألفها آرثر مي بموسوعة «كتاب المعرفة» الموسوعة البريطانية الكلاسيكية الضخمة للأطفال. كانت تلك السلسلة من الكتب ملكاً لمدرسة «ميشان سكول» بأنانتناج، ثم انتقلت ملكيتها إلى جامعة أنانتناج عندما أغلقت المدرسة قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً. لكن ذلك الرسم لفت الانتباه بين زعماء المسلمين وأنهم بأنه ينم عن عدم احترام للمقدسات الإسلامية لأن الإسلام يحرم تمثيل النبي محمد تحريماً باتاً. فأضرب طلاب جامعة أنانتناج. وبعدها بيومين خرجت مسيرات احتجاجية كبيرة في سريناغار لوح فيها المتظاهرون بأعلام كتب عليها «اشنقوا المؤلف»، الأمر الذي لم يكن ليحدي شيئاً لأن المؤلف مات في إنجلترا عام ١٩٤٣.

انتشرت القلاقل وتصاعدت حدتها؛ فأغلقت المحال وتعطلت حركة النقل في وسائل النقل العامة حتى توقفت تماماً، وفتحت الشرطة النيران على المتظاهرين فقتل ما لا يقل عن أربعة أشخاص في سريناغار. واعتُقل المئات. وحظرت الحكومة الهندية بيع أو امتلاك موسوعة مي.

كان «كتاب المعرفة» بالطبع مجرد شرارة وليس السبب الذي ولّد المشكلات التي ابتلعت ولاية كشمير من جديد. ففي باكستان استغل بوتو سوء الأوضاع في كشمير لينتقد الهند على عدم سماحها بإجراء استفتاء عام في الولاية. ودعا شعب كشمير إلى تنظيم إضراب ليومين والتعبير عن رغبتهم في تقرير مصيرهم. كانت تلك فرصة مناسبة للقائد الكشميري الشيخ عبد الله (الذي انتهت فترة نفيه السياسي في ربيع عام ١٩٧٢) ليدخل عالم السياسة من جديد. فأدان تدخل بوتو في شئون كشمير الداخلية. وعندها أدركت إنديرا أنها تملك الفرصة لضمه إلى حلفائها، وعليه في أوائل عام ١٩٧٤ بدأت عقد سلسلة مطولة من المفاوضات معه.

في الوقت الذي عقدت فيه إنديرا المحادثات مع الشيخ عبد الله في دلهي أجرى مستشارها الأساسي لشئون كشمير — وهو مفاوض بارع يدعى جي بارتاساراثي، كان

مندوباً سامياً إلى باكستان — مباحثات مطولة مع نظيره الباكستاني ميرزا أفضل بيچ. حاول الشيخ عبد الله إقناع إنديرا بحل مجلس كشمير التشريعي وعقد انتخابات جديدة فرفضت، لكنها — كما صار ديدنها — عرضت عليه أن يكون رئيساً لحكومة كشمير. وفي نهاية الأمر خرج بارثاساري وبيج وإنديرا والشيخ عبد الله بشق الأنفس بأسس اتفاق صدّق عليها في اتفاق كشمير.

في ٢٤ فبراير عام ١٩٧٥ أعلنت إنديرا عن اتفاق كشمير الذي تكون من ست نقاط. في اليوم السابق على ذلك امتثل رئيس حكومة كشمير للأوامر واستقال. مما مهد لأعضاء حزب المؤتمر في المجلس التشريعي لكشمير انتخاب الشيخ عبد الله رئيساً لحكومة تلك الولاية؛ وذلك كان منصباً لم يشغله منذ عام ١٩٥٣. وصفت كشمير في اتفاق عام ١٩٧٥ بأنها «وحدة من الوحدات المكونة للاتحاد الهندي»، إلا أن وضعها الخاص — كما أكدت عليه المادة رقم ٣٧٠ في الدستور الهندي — ظل كما هو. غير أن استقلال كشمير الذاتي ضعف بمر الأعوام؛ فقد تضمن اتفاق كشمير فقرة في منتهى الأهمية هددته، نصت تلك الفقرة على أن للحكومة الهندية «حرية سن القوانين للوقوف في وجه ما من شأنه الإنكار أو التشكيك أو الإخلال بسيادة الهند على أراضيها ووحدتها أو الانفصال بجزء من أراضي الدولة عن الاتحاد».<sup>23</sup>

وصف بوتو اتفاق كشمير بأنه «خيانة» ورأى أنه ينتهك اتفاقية سيملا لعام ١٩٧٢. لكن من وجهة نظر إنديرا قضى ذلك الاتفاق على فكرة «الاستفتاء العام» وضمن تبعية كشمير للهند بصورة نهائية، وبذا وضع نهاية للحركة الداعية لأن تقرر كشمير مصيرها بنفسها. أما الشيخ عبد الله فقد أوضح في سيرته الذاتية أنه لم يقبل التعاون مع إنديرا إلا لاستعادة السلطة، وأضاف: «إلا أنني سرعان ما ندمت على قراري».<sup>24</sup>

لكن بدا لوقت قصير أن مسألة كشمير سُوّيت. والحقيقة الأكثر إيلاًماً هي أن حركة جي بي التي يقودها جايبراكاش نارايان سرت من بيهار إلى جميع أنحاء الهند وتطورت إلى حملة شرسة ضد إنديرا وحكومتها. لقد نادى نارايان بعزل إنديرا «وقيام ثورة شاملة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتعليمي والأخلاقي والثقافي» وتأسيس «ديمقراطية غير حزبية». وسافر إلى جميع أنحاء الهند ينقل رسالته حيث استقبلته حشود ضخمة على أنه مخلصها.

من ثم صار نارايان وحركته يمثلان خطراً حقيقياً. ورأت إنديرا أن تشجيعه الشعب الهندي على وضع دستور لا يتدخل فيه الوزراء المنتخبون وفيهم رئيس الوزراء نفسه

يعد في حد ذاته تهديدًا للديمقراطية. وقد كان موعد الانتخابات العامة بعد عام ونصف فقط من تلك اللحظة. لكن نارايان لم يكن على استعداد لانتظار الانتخابات؛ إذ رأى أنها ستعرض للتزوير.

لم يعد بمقدور إنديرا تجاهل نارايان أكثر من ذلك. ووافقت على مضض على مقابلته في نوفمبر عام ١٩٧٤. لكن اللقاء انتهى إلى مواجهة حادة لا تصالح من أي نوع. فمن ناحية اتهمت إنديرا نارايان بأنه مدعوم وممول من الولايات المتحدة عن طريق مكتب الاستخبارات المركزية الأمريكي. ومن ناحية أخرى اتهمها نارايان بأنها تريد تأسيس دكتاتورية يدعمها الاتحاد السوفييتي في الهند. وبعد تبادل الاتهامات اللاذعة طلب نارايان من إنديرا أن ينفرد بها (كان اثنان من الوزراء وبعض المساعدين حاضرين في ذلك النقاش). فلما غادر الكل الغرفة عداهما أعطاهما ملقًا يحوي رسائل صفراء كتبها كامالا نهرو إلى زوجته برباها ديفي قبل أربعين أو خمسين عامًا إبان عهد الصراع من أجل الاستقلال. آنذاك كانت كامالا وبارباها صديقتين مقربتين، لكن نارايان لم يقع على مكاتبات كامالا لزوجته إلا في وقت قريب من ذلك عام ١٩٧٣ بعدما توفيت زوجته. وصفت الرسائل بالتفصيل تعاسة كامالا الشديدة في بيت آل نهرو ومضايقة نساء آل نهرو الأخريات لها. وأشعرت حزمة الأوراق الصفراء تلك إنديرا بالتأثر الشديد، بل شعرت بالامتنان لنارايان على أنه أعطاها إياها.

إلا أن تلك اللفتة الشخصية الكريمة لم تغيّر العداء السياسي الذي جمع بين إنديرا ونارايان. فلم يثمر اجتماعهما شيئًا، وأقسم نارايان على تصعيد حملته ضد إنديرا. ولما كان من تلاميذ غاندي ومن المدافعين عن الحرية كان يعرف الأسلوب الذي يمكن استخدامه في حال عدم خضوعها، ألا وهو العصيان المدني. وعليه تفشت الإضرابات العامة وحركات التطويق والحصار وانتقلت من الولايات إلى دلهي.

في الخامسة وخمسين دقيقة في عصر الثاني من يناير عام ١٩٧٤ قُتل لاليت نارايان مباشرة وزير السكك الحديدية وجامع التبرعات الرئيسي لإنديرا في انفجار قنبلة زرعت في رصيف محطة السكك الحديدية بساماستيبور في ولاية بيهار مسقط رأسه، حيث كان يفتح خط سكك حديدية عريضًا. وتوفي صباح اليوم التالي في أحد المستشفيات. كان ميشرا قد أخبر زملاءه أنه متخوف من قيام العمال النقابيين باغتياله بسبب الأسلوب الوحشي الذي استخدمته الحكومة الهندية لإخماد إضراب السكك الحديدية عام ١٩٧٤. لكن مع

مخاوفه تلك ظلت التدابير الأمنية لحمايته غير كافية، وتأخر حصوله على العلاج لأسباب غامضة. لذا وقع الشك على الفور على حكومة إنديرا؛ فمفاسد ميشرا كانت قد استشرت إلى درجة لا يمكن استيعابها ووضعها في موقف حرج. لذا لم يشك الصحفي نيكيل تشاكرافرتي في أن اغتيال ميشرا دبره ياشبال كابور بعلم إنديرا. إلا أن الأخيرة ألقت اللوم في تدبير ذلك الاغتيال على «دين العنف» الذي قام على يد نارايان بتأييد وتحريض من «عناصر أجنبية». بل زعمت أن اغتيال ميشرا كان «تجربة أخيرة» يراود بها التمهيد لمؤامرة أكبر تكون هي «هدفها الحقيقي». وأعلنت بانفعال: «عندما أقتل سيزعمون أنني دبرت لقتلي».<sup>25</sup>

أنذر اغتيال ميشرا ببدء المزيد من الأحداث المقلقة. ففي ١٥ فبراير في خطاب للموظفين الحكوميين حث نارايان الجيش والشرطة على «عدم إطاعة الأوامر التي تخرج عن القانون ... أو إطار العدالة».<sup>26</sup> وقال إن المسؤولين الحكوميين وضباط الشرطة والجنود جميعهم ملزمون بطاعة الدستور لا إرادة الحكومة وقادتها، وفي ذلك رئيسة الوزراء. هنا كان نارايان يطلب من قوى السلطة وفرض القانون والنظام أن تتحد لتنظيم انقلاب يشل الحكومة المركزية وحكومات الولايات.

بعد ذلك في ٦ مارس قاد نارايان مسيرة لخمسة أميال عبر دلهي إلى البرلمان، حيث سلم المتحدث الرسمي لمجلس اللوك سابها وثيقة مطالب. وبعدها طالب علناً في اجتماع شعبي حاشد باعزال إنديرا. يذكر أن الحشد الضخم الذي تبع نارايان في شوارع دلهي القديمة والجديدة قد شكّل أكبر مظاهرة عرفت في دلهي. حتى إن ركب نارايان شُبه في الصحف بمسيرة الملح الشهيرة التي قادها غاندي عام ١٩٣٠.

في تلك الأثناء في ١١ مارس عكف عدو إنديرا القديم موراجي ديساي — الذي كان آنذاك في التاسعة والسبعين من العمر — على «إضراب حتى الموت عن الطعام» تأسيساً بغاندي للاحتجاج على عدم سماح الحكومة الهندية ببدء انتخابات المجلس التشريعي في ولاية جوجارات. غير أن دافعه الخفي من ذلك حسب ما اعترف به في مقابلة صحفية مع الصحفية أوريانا فالاسي كان «خوض الحرب التي كنت أحلم بها (ضد إنديرا غاندي) منذ عام ١٩٦٩» (العام الذي انقسم فيه حزب المؤتمر وهيمنت فيه إنديرا على الحزب).<sup>27</sup> أرادت إنديرا تأجيل انتخابات ولاية جوجارات إلى وقت الحصاد بدعوى أن موسمه سيضطرب مع إجراء الانتخابات، لكن ديساي — الذي صار نارايان يؤيده بحماس — استمر على إضرابه عن الطعام. وظل خمسة أيام يرفض كل أشكال التغذية بدون أن

تقوم إنديرا بشيء حيال ذلك. لكن لما كان ديساي عجوزًا واهنًا أذعنت إنديرا في آخر الأمر لإضرابه، فحلت مجلس جوجارات التشريعي ووافقت على عقد انتخابات جديدة له في أوائل يونيو. فتهلل خصومها.

في صباح يوم حار من أواخر أبريل في الكوخ الذي عاشت فيه بادماجا نايدو بعزبة بيت تين مورتى منذ أوائل الستينيات. عثر عليها فاقدة الوعي وقد استحالت جسدها إلى البرود، كانت منذ فترة معتلة الصحة تعيش حياة انعزالية وترفض لقاء أي شخص أو الإجابة على أي مكالمات هاتفية. ولم تكن إنديرا قد التقتها منذ شهور طوال. نقلت بادماجا إلى أحد المستشفيات في حالة غيبوبة، وهناك وافتها المنية. لما علمت فيجايا لاكمشي بانديت بوفاها استقلت سيارة أجرة حملتها طوال الطريق إلى دهرادون. أما إنديرا — التي كانت في جامايكا آنذاك — فعندما بلغها نبأ الوفاة سارعت بالإعداد للعودة إلى دلهي في موعد الجنازة. كانت بادماجا هي تقريبًا آخر ما يربط إنديرا بنهر ووعالم طفولتها، وقد أحرق جثمانها في الرابع من مايو عام ١٩٧٥ «في ثوب من الساري الزعفراني الذي يلون حوافه اللون الأحمر، مزدانة بالزهور ... وكأنها ملكة أفريقية عظيمة».<sup>28</sup>

بعد وفاة بادماجا حل الصيف على دلهي. وتوهجت شمس الحارقة في سماء بلا غمام. ازدادت الأيام طولًا وحرًا وغبارًا. وتحول لون حدائق لودي من الأخضر اليانع إلى الذبول. وصارت جميع شوارع المدينة قفارًا. لكن مع ذلك الحر المقعد لم يبدأ التكاسل المعتاد الذي يصحب الفترة التي تسبق موسم الأمطار. بل على العكس خاضت إنديرا وحكومتها أيام شهر مايو الطويلة وهي في حالة من الترقب والقلق.

أشياء كثيرة كانت على المحك. ففي جوجارات كان الناس على وشك الإدلاء بأصواتهم والنطق بحكمهم على حزب إنديرا. ذلك بدا التهديد الأساسي. لكن إنديرا كانت تعلم أن الخطر الأكبر يكمن في واقع الأمر في سياق آخر. كان القلق يساورها بشأن أمر غفل عنه الشعب الهندي كله تقريبًا. في مارس قصدت إنديرا الله آباد كشاهدة رئيسية، وأدلت بشهادتها لخمس ساعات في المحكمة العليا حول القضية التي اتهمها فيها راج نارايان بالإقدام على أعمال محظورة في انتخابات عام ١٩٧١ العامة. وتقرر أن تتوصل المحكمة إلى حكمها في وقت ما من شهر يونيو.





## الفصل السادس عشر

### خطوة طارئة جريئة

في ١٢ يونيو عام ١٩٧٥ على الصعيد السياسي ضربت الصواعق السياسية إنديرا ثلاث مرات. فيما كانت لا تزال عاكفة على تناول إفطارها على صينية في غرفتها دق آر كيه دهاوان الباب ليبلغها بأن مستشارها وصديقها دي بي دهار توفي في المستشفى الذي أودعه ذلك اليوم لإجراء عملية زراعة منظم ضربات قلب. لقد توفي بنوبة قلبية قبل أن تسنح الفرصة لإجراء العملية له. كان ذلك الأخير واحداً من أعضاء «مافيا إنديرا الكشميرية» دائرة الخبراء والمساعدين البارعين الذين تضائل عددهم بتقاعد هاكسار ورحيل — أو إقصاء — غيره من الأعضاء. وكان أيضاً واحداً من أعضاء المجلس الوزاري وسفيراً إلى الاتحاد السوفييتي وقت وفاته. قصدت إنديرا فوراً المستشفى الذي توفي فيه دهار لتلقى أسرته التي فُجعت بفقدته وتساعد في الترتيب لجنازته.

فلما عادت إلى مقر إقامتها قرابة الظهر كانت نتائج انتخابات مجلس ولاية جوجارات التشريعي التي عقدت في اليوم السابق قد وصلت. هُزمت جبهة جاناتا — وهي عبارة عن ائتلاف من خمسة أحزاب ضم أتباع جي بي نارايان وموراجي ديساي — حزب المؤتمر.

المرة الثالثة التي ضربت فيها العواصف السياسية إنديرا كانت الأعتى. في الثالثة ظهرًا من ماكينة التلغراف في مقر إقامة إنديرا تلقى إن كيه سيشان أحد سكرتيري إنديرا أنباءً تفيد بأن محكمة الله آباد للعدل حكمت بإدانة إنديرا بممارسة أعمال محظورة في حملتها الانتخابية إبان انتخابات عام ١٩٧١ العامة. أبلغ سيشان راجيف بذلك، فذهب الأخير إلى مكتب إنديرا وأطلعها على انفراد بالأنباء. هذا فضلاً على أن ذلك الحكم قد أبطل عضوية إنديرا بالبرلمان، كان من شأنه أن يحرمها من تولي أي منصب منتخب ست سنوات.

كانت الاتهامات التي أُدينَت بها إنديرا تافهة إلى حد ما، ولكنها تظل مخالفة للقانون. لقد حُظر على جميع المرشحين استخدام «الموظفين الحكوميين لتعزيز فرص الفوز في الانتخابات». لكن وفقًا لما كشفت عنه المحكمة فإن سكرتير إنديرا السابق ياشبال كابور قدم أوراق استقالته من العمل الحكومي في ١٣ يناير، لكنه بدأ العمل كمساعد لإنديرا في ٧ يناير. وتلك الأوراق نفسها لم تمر على بي إن هاكسار — الذي لم يكن ياشبال كابور على وفاق معه — لينظر فيها رسميًا أو يوقع عليها إلا في ٢٥ يناير. فضلًا على ذلك كانت إنديرا قد استخدمت موظفين حكوميين من ولاية أوتار براديش لنصب المنصات الخطابية وتركيب المكبرات الصوتية في اجتماعاتها بناخبها. لقد خسر راج ناراین أمام إنديرا في انتخابات عام ١٩٧١ بفارق يزيد على ١٠٠ ألف صوت. بالطبع لم تكن مساعي كابور الانتخابية أو المنصات ومكبرات الصوت من أسباب خسارته. ومع ذلك قضت المحكمة بعزل رئيسة الوزراء ومنحت حزب المؤتمر عشرين يومًا لوضع «خطط بديلة» لإدارة حكومة البلاد. كان الأمر على حد وصف جريدة «تايمز» في لندن له «كعزل رئيس الوزراء لارتكابه مخالفة موروية». لقد شغلت إنديرا غاندي منصب رئيسة الوزراء لقراءة عقد، واضطلعت بدور فعال في السياسة الهندية طوال حياتها. لكنها حينذاك لم تعد قادرة على المشاركة فيها.

انتقمت السلطة القضائية التي حاولت حكومة إنديرا باستمرار أن تقوض سلطاتها. أو هذا ما بدا. لكن إنديرا كأبي مواطن آخر تمتعت بحق الاستئناف. لكن الاستئناف كان سيستغرق شهرًا، من كان سيرأس حكومة البلاد في تلك الفترة؟ كما عبر شعار حزب المؤتمر آنذاك: كانت «إنديرا هي الهند، والهند هي إنديرا». لقد جسدت السياسة الهندية لدرجة يستحيل معها تقريبًا تصور عضو آخر في حزب المؤتمر — سواء أكان ذلك جاجيفان رام أو سواران سينج أو واي بي تشافان الذين كانوا جميعًا من أعضاء المجلس الوزاري — قائدًا للبلاد.

ليوم على الأقل ظل الجميع عاجزين عن تصور الإجراء الذي ستتخذه إنديرا. وربما لم يكن لديها هي نفسها فكرة. عندما التقت بصديقتها القديم سيدهارثا شانكار راي رئيس حكومة ولاية بنغال الغربية في عصر ١٢ يونيو قالت له إن عليها الاستقالة. لكن هذا الأخير خالفها الرأي ونصحها بألا تتعجل في اتخاذ القرار. أعقبت ذلك سلسلة من المناقشات جرت على قدم وساق. هل على إنديرا التنحي؟ لم يحثها أي من المرشحين البارزين لخلافتها في رئاسة الوزراء على ذلك. بل لقد رجاها زملاؤها ومؤيدوها في صوت

واحد بأن تظل في منصبها وتحارب قرار عزلها. فاستمعت إلى الأسباب التي ساقوها لدعم آرائهم وأسرت في نفسها رأيها. ثم ناقشت الوضع مع ابنها سانجاي، لكن ليس مع أفراد عائلتها الآخرين. في نهاية الأمر استقر الرأي على أن يطلب محامي إنديرا فرانك أنتوني من المحكمة العليا أن تظل في منصبها بدون شرط، على الرغم من قرار محكمة الله آباد، إلى أن يتم التوصل إلى قرار بشأن طلبها بالطعن في الحكم الصادر بشأنها. وهذا ما سيمكنها من البقاء في منصبها كرئيسة الوزراء.

في الأيام التي تلت قرار محكمة الله آباد العليا نظم سانجاي وآركيه دهاوان سلسلة من المظاهرات والمسيرات تأييداً لإنديرا. أمر الموظفون الحكوميون بالمشاركة فيها وإلا احتسب ذلك تخلفاً عن العمل وانتقصت أجورهم. كما طلب حزب المؤتمر بين ١٢ و ٢٥ من يونيو تخصيص ١٧٦١ حافلة تابعة لمؤسسة دلهي للنقل لنقل مؤيدي إنديرا إلى الحشود التأييدية التي تقام لها. حتى إنه في يوم ١٣ يونيو توقف أسطول الحافلات المحلية الذي ذرع طرق دلهي جيئةً وذهاباً بصورة منتظمة وتحول إلى قفلة واحدة هي بيت رئيسة الوزراء. كما نُقلت أعداد كبيرة من الناس إلى دلهي من ولاية هاريانا والبنجاب وراجستان وأوتار براديش على متن حافلات استولت عليها السلطات الحاكمة لتلك الولايات.<sup>١</sup> وأيضاً أرسلت قطارات مزدحمة بمؤيدي إنديرا من ولاية فاراناسي ولكناو وكانبور إلى هناك. تلك الحشود كانت تُنقل إلى احتشادات تقام في مواعيد محددة في ساحة دلهي للاستعراضات العسكرية أو إلى المظاهرات التي تنشأ «عفوياً» أمام بيت إنديرا. كانوا يمنحون في التجمعات السياسية التي تعقد على مدار الساعة لبناء ووجبات ساخنة. وكانت إنديرا تخرج مرة على الأقل من بيتها لخطابهم وسط هتافات تردد: تعيش إنديرا! في ٢٠ يونيو خاطبت إنديرا حشداً تأييدياً لها يضم قرابة ٥٠٠٠٠ شخص في منطقة بوت كلاب بنيو دلهي على منصة الخطاب. كان سانجاي وراجيف وسونيا يقفون إلى جانبها. قالت إنديرا للحشد الضخم إن خدمة الشعب هي تقليد لعائلة نهرو وفيروز غاندي، وتعهدت بأن تظل في خدمة الشعب حتى «الرمق الأخير». حصد ذلك الاحتشاد نجاحاً كبيراً، ولا يُعزى ذلك بالكلية إلى أسلوب «الحشود المأجورة» الذي اتبعه سانجاي. ذلك لأن إنديرا كانت لا تزال تتمتع بتأييد شعبي هائل.

بعد أربعة أيام في ٢٤ يونيو أعلن قاضي المحكمة العليا كريشنا إيار في دلهي أن بإمكان إنديرا أن تظل بمنصبها، لكن بشرط حرمانها من التصويت في البرلمان حين التوصل إلى قرار بشأن طلبها بالطعن في الحكم الصادر بحقها، الأمر الذي قد يستغرق

عدة شهور. ويمكن أن ينزل بها ذلك إلى مرتبة أضعف رؤساء الوزراء. لكن لم يرَضَ أحد بتسوية الأمر بالإبقاء على إنديرا بشروط كما عرض إيار، وقوت تلك التسوية من عزم المعارضة على الإطاحة بإنديرا. فقد دعا جي بي نارايان إلى تنظيم احتشاد كبير اليوم التالي في ساحات رامليلا الشاسعة بنيودلهي، تعقبه تظاهرات يومية مناوئة للحكومة في كل أنحاء البلاد.

حذر مستشارو إنديرا بالأجهزة المخبراتية من أن نارايان ينوي دعوة شرطة دلهي وجيشها في ٢٥ يونيو إلى شن تمرد. وفوق ذلك — حسبما أخبر موجي ديساي الصحفية أوريانا فالاسي — اعترز معارضو إنديرا عشية الاحتشاد تطويق وحصار شارع سافدارجانج بحيث تصبح إنديرا سجيناً في بيتها، ويمنع أي شخص آخر من دخول البيت. قال ديساي في زهو: «سنخيم هناك ليلاً ونهاراً». وأضاف: «فنحن نعتزم الإطاحة بها وإجبارها على الاستقالة. إلى الأبد. لن تتمكن السيدة الفاضلة من الصمود أمام حركتنا.»<sup>2</sup>

غير أن نارايان وديساي في غفلة منهما نصبا لنفسيهما فخاً. فبتهديهما بزعة استقرار الحكم وشن انقلاب غير عسكري منحوا إنديرا المبرر الذي تحتاجه لوقف جلسات البرلمان وفرض حالة الطوارئ. ببساطة لم تكن أساليب حركة تحرير الهند لعام ١٩٤٢ تصلح لعام ١٩٧٥. لم يكن العصيان المدني لينجح إلا في الأنظمة التي لا يملك الشعب فيها حق التصويت أو التعبير عن الرأي. وكانت الهند مع كل التعديلات الدستورية والقرارات التي وضعتها إنديرا لا تزال دولة ديمقراطية. رأت إنديرا أنه لو لم تكن الحكومة جيدة بما يكفي فبمقدور الشعب أن يصوت على إخراجها من السلطة في الانتخابات التالية في مارس عام ١٩٧٦.

في صباح ٢٥ من يونيو عندما رن هاتف سيدهارثا شانكار راي رئيس حكومة بنغال الغربية — الذي تصادف وجوده في نيودلهي لا في موطنه ولاية كلكتا — كان في الفراش. كان المتصل هو سكرتير إنديرا آر كيه دهاوان؛ يتصل ليدعو راي للقдом إلى مقر رئيسة الوزراء. فأسرع الأخير بالذهاب إلى هناك حيث وجد إنديرا في غرفة مكتبها تجلس خلف مكتب كُدست عليه تقارير أجهزة المخابرات. وخاض الاثنان بمفردهما في نقاش بشأن الأوضاع للساعتين التاليتين. وصفت إنديرا لرأي الفوضى التي شعرت أنها توشك على ابتلاع البلاد. ثم قالت له: «نحن في مشكلة خطيرة. ثمة حاجة إلى إجراء صارم. لقد حلّ المجلس التشريعي في جوجارات. كما حل في بهار أيضًا. لن يكون هناك نهاية لذلك.

سيتوقف سير الديمقراطية فجأة.» وبعدها كررت تقول ما لم يبدُ مطلقاً أنه وليد اللحظة وهي تضغط على كل حرف من كلماتها: «ثمة حاجة إلى إجراء صارم وعاجل.» دهش راي من استخدامها للفظ «عاجل» وإيهامهما للفاعل بدلاً من ذكره في تلك الجملة الأخيرة، لقد قالت ثمة حاجة لإجراء، وليس أنهم بحاجة لاتخاذ إجراء.<sup>3</sup>

بعدئذٍ قرأت إنديرا على راي تقارير أجهزة المخابرات الموجودة على مكتبها. وصفت تلك التقارير بصورة عامة الاحتشاد الذي تقرر أن يشهده مساء ذلك اليوم الذي أزمع نارايان فيه دعوة رجال الشرطة والجيش إلى التمرد. وأخبرت إنديرا راي بأن المخابرات الهندية تشير إلى أن مكتب المخابرات المركزية الأمريكي يقف وراء الاحتشاد. لقد فطنت إلى أنها تأتي في مقدمة أعداء ريتشارد نيكسون، لذا كانت متخوفة فعلياً من الإطاحة بها وتدميرها بالطريقة التي شن بها الجنرال التشيلي أوغستو بينوشي — الذي دعمه مكتب المخابرات المركزية الأمريكي — انقلاباً على سلفادور أليندي عام ١٩٧٣.

شعرت أن التهديد موجه لشخصها هي، بل آمنت أنه إن نجح نارايان في عزلها فسيكون ذلك وبالأعلى على الهند. لقد اعتقدت أن الهند ستدمر نفسها بنفسها إن تخلت عن السلطة. من ثم قالت لراي: «لا نستطيع الاستمرار على هذه الشاكلة. عندما لا يُظهر الوليد استجابة عليك أن تهزه لتدب فيه الحياة. والهند تحتاج إلى هزة.»<sup>4</sup> كما قالت فيما بعد في مقابلة صحفية، تحتاج الهند إلى «علاج بالصدمات». لا بد لإنعاشها من صدمة عنيفة ترددها إلى الحياة.

استمر اللقاء بين إنديرا وراي بعض الوقت على هذا المنوال. لقد استدعت الأخيرة راي لأنه خبير في الشؤون القانونية التي تتصل بالدستور، إلا أنها لم تتشاور ذلك اليوم مع وزير القانون الخاص بها إتش آر غوخالي. فهي لم تكن بحاجة إلى المشورة، وإنما كانت بحاجة إلى الحصول على موافقة رسمية على سلسلة من الإجراءات أخذ سانجاي غاندي وأوم ميهتا نائب وزير الداخلية وبانسي لال ممول مشروع سانجاي ورئيس حكومة ولاية هارايانا في تنفيذها فعلياً اليوم السابق على ذلك. في الواقع قبل أن يُهاَتَف دهاوان سيدهارثا شانكار راي صباح ٢٥ يونيو عكف هؤلاء الثلاثة — بعلم إنديرا — في مكتب دهاوان على وضع قائمة أولية بالشخصيات التي يزعم القبض عليها واعتقالها. وقد جاء على رأس تلك القائمة نارايان وديساي.

كان راي رجلاً نزيهاً وضيئياً في شئون القانون، إلا أنه كان أيضاً ذا ميول فاشيستيية. وبعبكس الكثيرين من أتباع إنديرا لم يثر إلى ذلك الوقت عداوة سانجاي له. وقد نصح

إنديرا بالألا تستقيل قبل اثني عشر يومًا عندما صدر حكم محكمة الله آباد العليا. لذا كان من المستبعد أن يتراجع عن نصيحته حينذاك.

وهو الأمر الذي لم يُقَم به. إلا أنه لم يكن جاهزًا عندما حان دوره. فعندما سألتها إنديرا «ما الذي علينا فعله؟» أخبرها بأن عليه أن يذهب ليدرس الموقف من الناحية الدستورية. فوافقت ولكنها طلبت منه أن يعود «على جناح السرعة». فغادر وأمضى ساعات كثيرة في مراجعة نص الدستور، لا الهندي وحسب؛ وإنما الأمريكي كذلك. وبعدها في الثالثة والنصف عصرًا عاد بالرد إلى مقر إقامة إنديرا، أوضح راي لإنديرا أنه بموجب المادة رقم ٣٥٢ من الدستور الهندي بإمكان الحكومة فرض حالة الطوارئ في حال مواجهتها أو توقعها عدوانًا خارجيًا أو اضطرابات داخلية. وبَيَّن لها بدقة الفارق بين التهديد الخارجي والداخلي، فأكد أن حالة الطوارئ التي أُعلنت عام ١٩٧١ إبان حرب الهند مع باكستان بسبب بنجلاديش — التي كانت لا تزال دائرة — تعد «حالة طوارئ تفرض لمواجهة التهديدات الخارجية»، وهي ليست صالحة لأن تُفرض في الأزمة الحالية. ونصت المادة رقم ٣٥٢ من الدستور الهندي على أن رئيس الهند يملك قانونًا حق إعلان حالة طوارئ قومية إن كانت الدولة تهددها حرب أو عدوان خارجي أو تمرد مسلح. الحرب هي بالطبع تهديد خارجي، أما التمرد المسلح ففسره راي على أنه تهديد داخلي للدولة. ومن هنا كانت دعوة نارايان الشرطة والجيش إلى عدم إطاعة الأوامر الموجهة إليهما مهمة لراي وإنديرا؛ إذ اعتبرها تحريضًا على شن «تمرد مسلح». أصغت إنديرا باهتمام لراي وهو يشرح لها الفارق بين فرض حالة الطوارئ للتهديدات الخارجية وفرضها للتهديدات الداخلية. وبعدها أخبرته بأنها لا تود مناقشة حالة الطوارئ في المجلس الوزاري إلا بعد فرضها. إذ إنها بعدما حسمت رأيها بأن تُفرض لم تَرِد أن تثار أي اعتراضات عليها. وكان راي قد تولى ذلك الجانب من المسألة بالدراسة بالفعل، فأخبر إنديرا أن بمقدورهما إخبار الرئيس فخر الدين علي أحمد أن ضيق الوقت لا يسمح بالدعوة إلى عقد اجتماع للمجلس الوزاري. وقد استند في ذلك إلى أنه ليس من الضروري شرعًا أن تصاغ جميع القرارات الرئاسية بعلم مجلس الوزراء. وقال لإنديرا إن بإمكان الرئيس فرض حالة الطوارئ لمواجهة تهديد داخلي، وبعدها يمكن لمجلس الوزراء أن يصدق عليها بأثر رجعي.

طلبت إنديرا من راي أن «يقصد الرئيس» في تلك المسألة. فاحتج بأنه رئيس حكومة بنغال الغربية وليس رئيس الوزراء، لكنه وافق على أن يصحبها إلى هناك.

وفي الخامسة والنصف مساءً قصد الاثنان راشتراباتي بهافان مقر إقامة الرئيس. كان الرئيس فخر الدين أحمد قد أثبت أنه تابع طيع كما عدته إنديرا أن يكون عندما طالبت بتوليته الرئاسة العام الماضي. ومع ذلك فقد تطلب إقناعه بضرورة فرض حالة الطوارئ بعض الوقت من إنديرا ومن راي؛ إذ أوضح الأخير أن اعتماد حالة الطوارئ ضروري بناءً على ما تعيشه البلاد من وضع زعماً أنه «شبه فوضوي»، وبعدئذٍ شرح راي لفخر الدين أحمد الموقف القانوني والمادة رقم ٣٥٢. سأل فخر الدين أحمد هل استشارت إنديرا المجلس الوزاري في ذلك؟ فأجابته الأخيرة بأن المسألة عاجلة للغاية، وأن بإمكان مجلس الوزراء المصادقة على فرض حالة الطوارئ بأثر رجعي. وبعد عدد من الاستفسارات الأخرى أخبر فخر الدين أحمد إنديرا بـ «أن ترسل قرار فرض حالة الطوارئ».

مع حلول المساء أقلت سيارة إنديرا وراي عائدة إلى مقر إقامة رئيسة الوزراء. ومرت في طريقها بمجموعة من الطالبات اللاتي حَيَّينَ إنديرا بحرارة ملوحات بأيديهن، فردت عليهن التحية ملوحة بيديها وهي تقول لراي: «لا يزال عليّ أن أعنى بالناخبين من هؤلاء». قالت ذلك بتأثر وكأن سلامة هؤلاء الأطفال تكمن بين يديها. في مقر إقامة إنديرا أطلع راي بي إن دهار باختصار على الوضع. فأملى دهار أحد كُتَّاب الآلات الطباعة «قرار إعلان فرض حالة طوارئ» ليرسل إلى مكتب الرئيس ليوقعه. كما أملى رسالة من إنديرا للرئيس لإرفاقها بالقرار.

فور أن صارت تلك الوثائق جاهزة للإرسال عُهد بها إلى آر كيه دهاوان الذي انطلق بها إلى راشتراباتي بهافان. وأمرت إنديرا بمهاتفة جميع أعضاء المجلس الوزاري في الخامسة صباحاً وإبلاغهم بانعقاد اجتماع عاجل للمجلس بعد ساعة. في خطابها للرئيس ذكرت إنديرا أن الوضع الأمني «يتطلب اتخاذ إجراء فوري»، لذا يلزم فرض حالة الطوارئ فوراً. ثم جعلت تشرح الموقف قائلة: «كنت أود عرض تلك المسألة على المجلس الوزاري، لكن لسوء الحظ من المستحيل القيام بذلك هذا المساء ... ستكون تلك المسألة أول ما أثيره في اجتماع المجلس صباح الغد.»<sup>5</sup> فيما بعد اتخذت إنديرا من «الحفاظ على القانون والنظام» مبرراً لعدم استشارتها مجلس الوزراء. قالت إنه كان عليها التحرك بسرية لمنع تسرب أي معلومات عن حالة الطوارئ. فقد أرادت مباغطة المعارضين واعتقال قادتهم قبل مجيء الصباح.

عاد دهاوان من مقر إقامة الرئيس. وجاء منتصف الليل وولى، لكن سيدهارثا شانكار راي ظل في مقر إقامة إنديرا عدة ساعات يساعدها في صياغة الخطاب الذي

تعتزم إذاعته على الأمة صباح اليوم التالي بعد اجتماع مجلس الوزراء. فيما عكفا على ذلك في غرفة مكتب إنديرا تردد سانجاي بين الفينة والفينة على الغرفة. ونادى كثيراً على إنديرا، فكانت الأخيرة تغادر الغرفة بناءً على طلبه عشر أو خمس عشرة دقيقة.

عكف سانجاي وأوم ميهتا في مكتب آر كيه دهاوان على وضع اللمسات الأخيرة على قائمة المعارضين الذين يعتزم اعتقالهم، فكانا بحاجة إلى الحصول على موافقة إنديرا فيما يفعلانه. أما بانسي لال فكان بحلول ذلك الوقت قد عاد إلى ولاية هارايانا، لكنه ظل على اتصال بسانجاي عبر الهاتف يتناقش معه في أمر القائمة. كان من المرتقب أن تتم تلك الاعتقالات — التي كانت ستنفذ بموجب أحكام قانون الحفاظ على الأمن الداخلي — قبل أن يصبح فرض حالة الطوارئ موضع نقاش. وقد بدا أن سانجاي هو من أثار ذلك الاقتراح بعد وقت قصير من صدور حكم محكمة الله آباد العليا ضد إنديرا في ١٢ من يونيو عندما بدأ المعارضون يطالبون باعتزال الأخيرة. لقد كانت الاعتقالات الوقائية بالطبع استراتيجية تستخدم على نطاق واسع إبان الاستعمار البريطاني الذي ورث تلك الاستراتيجية للهند المستقلة. إلا أن صلاحية إجراءاتها اتسعت بصورة كبيرة على يد إنديرا؛ وذلك من خلال قانون الحفاظ على الأمن الداخلي وما يتصل به من تشريعات للدفاع عن الهند سنت إبان حرب ١٩٧١ مع باكستان.

عكفت عصابة المتآمرين التي اجتمعت في مكتب دهاوان كذلك على وضع خطط لفرض رقابة مشددة على وسائل الإعلام تبدأ بقطع الكهرباء عن صحف دلهي لئلا تصدر صباح اليوم التالي. لقد صدقت إنديرا على فرض الرقابة، إلا أنها تركت لسانجاي ودهاوان تدبير الطريقة التي تفرض بها.

لما انتهت إنديرا وراي من صياغة الخطبة خلدت الأولى للنوم. كانت الساعة الثالثة صباحاً آنذاك، مع ذلك مكث راي وغيره ممن لعب دوراً أساسياً في الخطة يتحاورون بالمنزل، ضم هؤلاء وزير الداخلية براهماناندا ريدي ونائب رئيس حكومة ولاية دلهي كيشان تشاند. ولما كان راي قد أخبر إنديرا من قبل بأن عليها أن تطلع رئيس حزب المؤتمر ديف كانتا بارواه أيضاً على المسألة أبلغ آر كيه دهاوان الأخير هاتفياً. لم يثر أحد شكوكاً في ذلك الإجراء الذي وضع بحلول ذلك الوقت موضع التنفيذ، وإن كان ريدي قد قال في لحظة من اللحظات: «لكننا في حالة طوارئ بالفعل». فأوضح راي أن حالة الطوارئ الخارجية حقيقة لا تكفي لمواجهة الموقف الحالي والحاجة لاحتوائه.

بعد مناقشة الوضع مع ريدي نهض راي أخيراً ليغادر، لكن في طريقه إلى المغادرة صادف أوم ميهتا الذي أخبره بأن الكهرباء ستُقطع عن صحف دلهي وستُغلق جميع



المحاكم. فاحتج راي على ذلك قائلاً: «هذا سخف! لم يكن هذا ما اتفقنا عليه. لن يحدث هذا.» ودار على عقبيه وعاد إلى المنزل، وأخبر دهاوان أنه يرغب في مقابلة إنديرا. فأجابه بأن إنديرا أخذت إلى النوم. لكن راي أخذ يلح في طلب مقابلتها قائلاً: «أريد مقابلة السيدة إنديرا. لا بد أن أقابلها.»

فغادر دهاوان على مضض. وعاد بعدها بوقت قصير مع إنديرا. وفقاً لراي، صدمت إنديرا مما قاله لها عن خطط قطع الكهرباء وإغلاق المحاكم. أمرت إنديرا راي بالانتظار وأسرت بالخروج من الغرفة. وغابت خمس عشرة دقيقة. في تلك الأثناء في مكتب دهاوان هاتف سانجاي بانسي لال في هاراينا وأخبره بأن راي يثير المشاكل بشأن قطع الكهرباء. فأجابه لال: «تخلص منه؛ إنه يفسد الخطة ... إنه يحسب نفسه محامياً عظيماً مع أنه يكاد لا يفقه شيئاً.»<sup>6</sup>

في الوقت الذي انتظر فيه راي عودة إنديرا أوضح أوم ميهتا له أنه مع أن إنديرا أيدت فرض الرقابة إلا أنها لم تكن على علم بأن هناك أوامر بقطع الكهرباء أو إغلاق المحاكم. فتلك الأوامر صدرت عن سانجاي. بعد تأخير عادت إنديرا محمرة العينين والبكاء بادٍ عليها. وقالت: «لا بأس يا سيدهارثا، ستكون هناك كهرباء، ولن تغلق أية محاكم.» فصدقها راي وغادر أخيراً إلى بيته مطمئناً إلى وعد كاذب.<sup>7</sup>

قبل أن تخلد إنديرا أخيراً إلى النوم في الساعات الأولى من صباح ٢٦ يونيو كان رجال الشرطة في دلهي وغيرها من الأماكن في الهند قد خرجوا بالفعل بأعداد هائلة يوقظون الناس ويزجون بهم في عربات الشرطة لحملهم إلى السجون. جاء على رأس قائمة الآلاف الذين اعتُقلوا نارايان وديساي. وكان معهما راج نارايان رأس مشكلات إنديرا. في الوقت نفسه فيما كانت الصحف المعتمدة في دلهي على وشك طباعتها انقطعت الكهرباء فجأة. ولم يصدر من الصحف اليومية التي يبلغ عددها اثنتي عشرة صحيفة تقريباً سوى صحيفتي «ذا ستيتسمان» و«هندوستاني تايمز» — التي كان مجلس بلدية نيودلهي لا دلهي هو الذي يوفر لها الكهرباء — اللتان كانتا معروضتين للبيع في العاصمة اليوم التالي ليعلنا عن فرض حالة الطوارئ والاعتقالات التي تمت باسمها.

لم تنل إنديرا إلا قسطاً قليلاً من النوم تلك الليلة، إن كانت قد نامت على الإطلاق، ومع ذلك في صباح اليوم التالي عندما اجتمعت بمجلسها الوزاري في السادسة لم يبدُ عليها التعب

أو الإجهاد. عُقد ذلك الاجتماع في مكتبها في العقار رقم ١ في شارع أكبر رود إلى جانب بيتها لا في مكتبها في ساوث بانك؛ لأنه عقد في وقت مبكر جدًا على غير العادة. حضر الاجتماع ثمانية وزراء — لأن التسعة الآخرين لم يكونوا بدلهي — وخمسة وزراء دولة. دخل الوزراء الغرفة صفاً وأعطى كل منهم نسخة من إعلان قرار فرض حالة الطوارئ وقائمة بالمعارضين البارزين الذين اعتُقلوا. ثم جلسوا كالعادة حسب الترتيب الأبجدي لأسمائهم حول مائدة المجلس المستديرة. فجلس كاران سينج وزير الصحة وتنظيم الأسرة في مواجهة إنديرا مباشرة. وجلس بي إن دهار سكرتيرها الرئيسي إلى جانبها. أما سانجاي فبعكس الإشاعات التي دارت فيما بعد لم يكن حاضرًا في هذا الاجتماع أو في أي اجتماع وزاري آخر.

افتتحت إنديرا الاجتماع بإعلان فرض حالة الطوارئ بلا مقدمات، ثم جعلت تبين ظروف الدولة التي جعلت ذلك الإجراء «الصارم» ضروريًا. لم تكن أنباء فرض حالة الطوارئ قد تسربت بعد، لذا بهت أغلب الحاضرين منها ومن لائحة أسماء المعتقلين العريضة معًا. وساد الاجتماع مناخ من التوتر، كانت إنديرا فيه مشدودة الأعصاب ومتحفظة. لم تعد اجتماعات مجلس الوزراء منتدًى لوضع السياسات أو مقامًا للسجال، لكن الاجتماع الذي عُقد عقب فجر ٢٦ يونيو كان بالأخص اجتماعًا مشحونًا بالتوتر. السؤال الوحيد الذي أثير في الاجتماع جاء على لسان وزير الدفاع سواران سينغ الذي قال: «تحت أي قانون جرت تلك الاعتقالات؟»<sup>٨</sup> فأجابته إنديرا باقتضاب بصوت يكاد لا يسمع. وبالرغم من أن اجتماع مجلس الوزراء عُقد ظاهريًا لإقرار فرض حالة الطوارئ، فلم يكن هناك أي تصويت فيه. لكن ذلك لم يكن بالشيء الجديد. فالأصوات لم تكن تحصى في اجتماعات مجلس الوزراء؛ لأن من شأن ذلك أن يسمح بتغليب سلطة الوزراء على سلطة رئيسة الوزراء. لذا جرى بدلًا من ذلك التوصل إلى اتفاق على «الإجماع» وأقر فرض حالة الطوارئ. لم يسبق ذلك الإقرار أي تباحث شكلي أو روتيني. فعلى حد قول بي إن دهار فيما بعد فضلًا على أن «أحدًا لم يقل لا» لفرض حالة الطوارئ، لم تكن هناك أي مناقشة حقيقية للأسباب التي دفعت إلى تبني ذلك الإجراء الصارم في منتصف الليل. لقد انتهى اجتماع مجلس الوزراء الذي كان من المعتزم أن يصادق على فرض حالة الطوارئ في أقل من نصف الساعة.<sup>٩</sup>

بعدما انفض مجلس الوزراء بوقت قصير في غرفة الاستقبال خارج مكتب إنديرا دنا سانجاي من وزير الإعلام والإذاعة أي كيه جوجرال وبدأه الحديث بوقاحة. وقال

له بلهجة آمرة إنه من الآن فصاعدا سيدي إليهِ بجميع النشرات الإخبارية قبل نشرها، فأجابه جوجرال: «مستحيل..» كانت إنديرا تقف على مدخل الغرفة آنذاك، وقد استمعت إلى تلك المحادثة القصيرة التي جرت بين سانجاي وجوجرال إلا أنها لم تقل شيئا. في صباح اليوم التالي في غياب إنديرا اتهم سانجاي جوجرال في وجهه بأنه لا يدير وزارته كما ينبغي. فقابل جوجرال اتهام سانجاي ... بالاستياء. في الواقع قال جوجرال لسانجاي إنه إن كان لديه ما يريد قوله له فيحسن له أن يتوخى «الرسمية والأدب»، وأضاف أن ارتباطه «برئيسة الوزراء والمؤتمر بدأ قبل أن يولد (سانجاي)» ... وأنه «لا شأن له بأعمال وزارتي».<sup>10</sup>

في اليوم التالي هاتف صديق إنديرا القديم محمد يونس جوجرال من مكتب إنديرا في شارع أكبر رود وأمره بأن يغلق مكتب إذاعة بي بي سي في دلهي نهائيا، وأن يعتقل المراسل الصحفي مارك تولي لأنه أذاع أنباء بأن جاجيفان رام وسواران سينج قد وُضعا تحت الإقامة الجبرية. وفوق ذلك أمر يونس جوجرال بـ «إحضار مارك تولي ونزع بنطاله عنه وضربه قليلا بالسياط، ثم إرساله إلى السجن». فأخبره جوجرال أن اعتقال المراسلين الأجانب ليس «وظيفة وزارة الإعلام والإذاعة». وبعد إنهائه تلك المكالمات أرسل جوجرال في طلب التقرير الرقابي عن إذاعة بي بي سي، ومنه علم أن الإذاعة في الواقع لم تبث أخبارا بأن جاجيفان رام وسواران سينج قد وُضعا تحت الإقامة الجبرية. فأبلغ إنديرا بما تنامي إلى علمه، لكنها مع ذلك أرسلت في طلبه وأخبرته بأنها تعفيه من وزارته لأن وزارة الإعلام والإذاعة تحتاج إلى إدارة «مختلفة وأكثر صرامة في ظل الظروف الحالية».<sup>11</sup>

في صباح ٢٦ يونيو أذاعت إنديرا من إذاعة راديو «أول إنديا» خطابها على الأمة. وابتدأت بقولها: «أعلن الرئيس فرض حالة الطوارئ. لكن ليس هناك ما يدعو للخوف.» ثم جعلت تتكلم عن «المؤامرة المحكمة التي نُسجت خيوطها على نطاق واسع» ثم «أخذت تزداد منذ أن بدأت إدخال بعض السياسات التقدمية من أجل المصلحة العامة لرجال ونساء الهند». كان قانون الطوارئ ضرورياً لإعادة الاستقرار والأمن والنظام وحماية الديمقراطية والوحدة الوطنية. لذا — كما أوضحت إنديرا — أجريت بعض «الاعتقالات الوقائية»، ولكنها أسرع بالأكديد لسامعيها على أن المعتقلين يحظون بكل الاحترام والرعاية. للأسف كان لا بد من وضع قيود على الصحافة لأنها مسئولة عن إصدار كتابات «لا تتمتع بحس من المسؤولية» في الوقت الذي تعاني فيه البلاد من اضطرابات خطيرة. أخبرت إنديرا مواطنيها قائلة: «إن هدف فرض الرقابة هو إعادة أجواء الثقة».<sup>12</sup>

بدلاً من أن تجري إنديرا التعديلات كعادتها في الخطابات التي تولى كاتب خطاباتها شارادا براساد كتابتها لها صاغت إنديرا خطاب إعلان حالة الطوارئ بنفسها — لكن بمساعدة سيدهارثا شانكار راي — مساء اليوم السابق. إلا أن براساد وببي إن دهار اضطلعاً بمراجعته قبل أن تذيعه. وأهم ما أضافه إلى الخطاب هو عبارته الختامية التي جاء فيها: «أنا واثقة من أن الأوضاع الداخلية ستتحسن سريعاً ليسمح لنا التخلي عن ذلك القرار — قرار فرض حالة الطوارئ — في أسرع وقت ممكن».<sup>13</sup>

مراراً وتكراراً أصرت إنديرا في الخطاب الذي أذاعته في الراديو وفي المؤتمرات والمقابلات الصحفية والمناقشات المطولة التي عُقدت في البرلمان على أن الحكومة تتعرض للهجوم والتهديد، وعلى أنه لم يكن أمامها خيار سوى إعلان حالة الطوارئ. وفي مساء ٢٧ يونيو بعد يومين من فرض حالة الطوارئ أذاعت إنديرا من الراديو مجدداً بياناً تشرح فيه كيف أنه:

«كان يتولد مناخ من العنف والكراهية ... أحزاب المعارضة وضعت برنامج تطويق وحصار واضطرابات وتشويش وتحريض للعمال والشرطة وقوات الدفاع على مستوى البلاد في محاولة لشل الحكومة المركزية كلياً. أحد المعارضين — جي بي نارايان — بلغ به الحد أن يأمر القوات المسلحة بعدم تنفيذ الأوامر ... كان مقررًا أن يبدأ هذا البرنامج في ٢٩ من هذا الشهر. لم يكن لدينا شك في أن هذا البرنامج كان سينتهي إلى خلق تهديد خطير للأمن العام وتدمير الاقتصاد تدميرًا تامًا. كان لا بد من منع هذا».<sup>14</sup>

زعمت إنديرا أنها كانت محاصرة من كل جانب. كان اليمين واليسار والهندوس المتطرفون وإرهابيو الناكساليين والآلاف من «العناصر» لديهم تصميم على الإطاحة بقانون البلاد. أتى الأعداء من شعب مختلف، لكنهم كانوا تحت قيادة حركة جي بي نارايان الفاشية التي تدعمها — كما أكدت إنديرا — «جهات أجنبية». لقد زعمت إنديرا مناقضة نفسها أن الطريقة الوحيدة لحماية الديمقراطية الهندية هي إيقاف النظم والسياسات والأساليب الديمقراطية بفرض حالة الطوارئ عليها. كان فرض حالة الطوارئ علاجًا صارمًا، أو بعبارة أخرى جرعة من الاستبدادية لحماية الدولة من فيروس خطير يكره الديمقراطية. ما لم تقره إنديرا علنًا هو أنه كان لديها أعداء من «بين صفوفها»، بعبارة أخرى منشقون عن حزبها الخاص. لقد انشق ما لا يقل عن خمسين عضوًا من يساري حزب

المؤتمر وانضموا إلى نارايان وحركته، وفي اليمين استنكر نحو ستين أو سبعين عضوًا آخرين في الحزب مواقفها الاشتراكية وأرادوا إبدالها بجاجيفان رام وهو هاريجاني يشغل منصب وزير الري والزراعة. في الواقع كانت سيطرة إنديرا على الحزب في أضعف حالاتها منذ اليوم الذي تسببت فيه في انقسامه في عام ١٩٦٩.

أغلب الأصوات التي كان من الممكن أن تحتج على فرض حالة الطوارئ أُخمدت. وقادة أحزاب المعارضة وأعداء إنديرا زج بهم في السجن أو وضعوا تحت الإقامة الجبرية. أما الرجال الذين تمتعوا بالنزاهة أمثال آي كيه جوجرال فلم يعترضوا علنًا على فرض حالة الطوارئ ربما لأنهم أدركوا عدم جدوى ذلك. لكن — على الأقل — ظن المنشقون سرًا عن حزبها أن بإمكانهم المناورة ضد حالة الطوارئ من داخل الصفوف. وفي تلك الأثناء خضعت الصحف للرقابة. وحُطِر ستة وعشرون تنظيمًا سياسيًا معاديًا لحزب المؤتمر، أو بالأحرى لإنديرا؛ منهم في اليمين حزب آر إس إس الهندوسي المتطرف، وفي اليسار الحزب الشيوعي الماركسي والشعبة السرية الناكسالييتية الماركسية اللينينية من الحزب الشيوعي. (الحزب الشيوعي الماركسي الذي كانت تربطه روابط قوية مع موسكو أيد فرض حالة الطوارئ بحماس).

فيما تلا من أيام بدا للناس في ظل حالة الطوارئ أن الحياة اليومية صارت أكثر نظامًا وأقل إرهابًا. فجأة لم تعد هناك مسيرات تظاهر أو مناوشات بالشوارع مع الشرطة. وانخفضت الأسعار، وتناقص العجز في السلع الأساسية. واختفى زحام المتسولين من شوارع دلهي. واختفى كذلك أغلب الأبقار الضالة، ولم يبدُ أن أحدًا يعبأ بالمكان الذي ذهب إليه المتسولون والأبقار. كان المسئولون والموظفون الحكوميون يصلون للعمل في الموعد. ويظلون هناك إلى موعد الانتهاء منه، وسيارات الأجرة والعربات تسير على الجانب الصحيح من الشارع. والناس يصطفون لركوب الحافلات. والقطارات تسير في الموعد.

في الأشهر الأولى على الأقل لاقى فرض حالة الطوارئ استحسانًا كبيرًا؛ فقد أعادت إنديرا الأمن والنظام إلى البلاد. لذا — من جديد — ظهرت اللافتات الضخمة بأعداد كبيرة تحمل صورتها في الممرات الدائرية للمدينة وقد كتب عليها شعارات مثل: «القائدة على حق، المستقبل مشرق»، و«هي الفارق بين الفوضى والنظام». وكثرت اللوحات الإعلانية المزدانة بكلمات إنديرا المهمة ومواعظها مثل: «النظام هو الحل في هذه الساعة»، وعباراتها التحذيرية مثل «لا تنقادوا للشائعات ومن لا يتحرى الصحة (كما جاء في نص خطابها)». فيما زُيِّنَت نوافذ الحافلات والمحال بعباراتها المبتذلة. ومن أمثلة هذه العبارات «التعويذة

الوحيدة التي تنفع للخلاص من الفقر هي العمل الجاد والرؤية الواضحة والإرادة الحديدية والانضباط التام.»

مع أن المفكرين في الهند وخارجها أدانوا فرض حالة الطوارئ، إلا أنه بدا ظاهرياً أنها تثمر نجاحاً. فقد وصف تقرير إخباري مطول في الصفحة الأولى لجريدة نيويورك تايمز بعنوان «تأييد واسع للاستبدادية في الهند» كيف أن البلاد باتت «تعيش في سلام شبه تام». وامتدح الفنان إم إف حسين إحلال إنديرا للنظام من جديد بأن رسم على لوح ثلاثي ضخم صورة لها في هيئة الإلهة دورجا وهي تمتطي مزهوة بالنصر نمراً بعد هزيمتها لأعدائها.

الكثير ممن يتمتعون بقدرة على الحكم السليم على الأمور ولا تضرهم أنفسهم الشر — كابن عم إنديرا بي كيه نهرو (الذي كان حينذاك المندوب السامي للهند في لندن) ومايكل فوت وزير التوظيف في حكومة حزب العمال البريطاني برئاسة كالاهاان وزميله في ذلك الحزب جيني لي — أيدوا فرض حالة الطوارئ بحماس. غير أن بي كيه نهرو فيما بعد صرح أنه كان من «واجبه» أن يدافع عنه. إلا أنه لم يرَ أن ذلك واجب مثقل لأنه كان «يؤيده صدقاً». في الواقع، لقد حث بي كيه نهرو إنديرا على استغلال «مساحة الحرية» التي توفرها حالة الطوارئ في تغيير الدستور كي يصبح شكلاً من أشكال الديمقراطية الرئاسية لا البرلمانية فتركز المزيد من السلطات في يد القوى التنفيذية. وقد شاع آنذاك أن هذا كان بالتحديد غرض إنديرا من فرض حالة الطوارئ. لكن بي كيه نهرو يقول في ذلك إنها في الواقع عارضت ذلك الاقتراح قائلة إنها «غير موافقة ... على ذلك بدون أن تعطيني حقيقة سبباً وجيهاً على عدم موافقتها». غير أنه تحمس لذلك آخرون ممن تحدث إليهم بي كيه نهرو منهم جاجيفان رام وسواران سينج وواي بي تشافان. أما بانسي لال فقد زاد على هؤلاء بأن قال لبي كيه نهرو: «نهرو يا صاحبي، لتخلص من كل هراء الانتخابات هذا. أنا عن نفسي أرى أن علينا أن نجعل أختنا رئيسة لمدى الحياة وحسب، ولا حاجة لعمل المزيد.»<sup>15</sup>

حرصت إنديرا على الحصول على التأييد الدولي لفرض حالة الطوارئ، لذا دعت بعضاً من الساسة الأجانب والصحفيين للقدوم إلى الهند لتفقد الأوضاع في ظلها. لكن البعض رفض دعوتها،<sup>16</sup> منهم الصحفي البريطاني جون جريج. أما مارجريت ثاتشر قائدة حزب المحافظين البريطاني فقد قبلتها وقامت برحلتها الأولى إلى الهند في سبتمبر عام ١٩٧٦. فكان ذلك أول لقاء بين إنديرا غاندي ومارجريت ثاتشر، تلكما المرأتان اللتان اشتهرتا بأنهما «صعبتا المراس» انسجمتا إحداها مع الأخرى من اللحظة الأولى. فعلى حد تعبير

كاتب سيرة مارجريت ثاتشر هوجو يونج كانت إنديرا «واحدة من النساء القلائل اللاتي سمحت (السيدة مارجريت ثاتشر) لنفسها بالانبهار بهن في حياتها بأكملها». فهما «منذ البداية سارت العلاقة بينهما بسلاسة لا تتأتى إلا نادراً، ولم يكن ذلك بناءً على اتفاقهما فكرياً» وإن لم تُبدِ السيدة ثاتشر ما يدل على أنها ترى خطأً في فرض حالة الطوارئ «بقدر ما كان بناءً على تجربتهما المشتركة كقائدتين من كوكب النساء». كانت إنديرا ومارجريت استثناءين في عالم السياسة الذي يحكمه الرجال. فمع أن كليهما تنصلتا من الحركات النسوية، فإن وحدتهما في ذلك العالم جمعت بينهما في علاقة قوية ستصمد إلى يوم وفاة إنديرا.<sup>17</sup>

كذلك كان من بين أبرز من زاروا الهند إبان فرض حالة الطوارئ مايكل فوت الذي قدّر له أن يصبح خصماً لمارجريت ثاتشر باعتباره قائداً لحزب العمال. ذلك الأخير لم يدع النقد جانباً كما فعلت السيدة ثاتشر. فقد كان مهتماً بمحنة القائد الاشتراكي جورج فرناندز (الذي اعتقلته إنديرا قبل وقت قريب)، حتى إنه سأل إنديرا: «متى ستعود الديمقراطية؟» فأكدت له أنها تنوي إجراء الانتخابات فور استقرار الأوضاع في البلاد، وصرحت له — كما أفضت سابقاً لسيدهارثا شانكار راي — بأنها لا «تريد أن تلقى مصير (سلفادور) أليندي».

ما انطبع في ذهن فوت آنذاك أن إنديرا بدت إلى حد مثير للدهشة غير مبالية بتدابير حمايتها في الوقت الذي كانت فيه مخاوف شديدة من وقوع انقلاب أو محاولة اغتيال. فمما أزعج حراسها الشخصيين أنها تعودت الاندفاع بين الحشود. لقد صممت على أن تظل وثيقة العلاقة بعامة الشعب، ولم «تكن لتسمح لأي شيء بإنهاء تلك العلاقة». بعد عودة فوت إلى إنجلترا دافع علناً — وإن كانت قد ساورته بعض الشكوك — عن إنديرا وفرض حالة الطوارئ. كما كتب عن زيارته تقريراً وزعه على أعضاء المجلس الوزاري يدعو فيه الحكومة البريطانية إلى تفهم فرض حالة الطوارئ «بناءً على تصور لما أنجز إبانها والأسباب التي جعلت تلك الإنجازات تحظى بتأييد شعبي واسع (في الهند)».<sup>18</sup>

القليل ممن كان على معرفة بإنديرا عارض أو انتقد فرض حالة الطوارئ في وجهها. ومن هؤلاء فوري نهرو — التي لم تشارك زوجها بي كيه نهرو الرأي في تلك المسألة — وصديقة إنديرا بوبول جاياكار. صديقتها هذه علمت بفرض حالة الطوارئ عندما كانت في نيويورك مع صديقة إنديرا الأمريكية دوروثي نورمان، وإزاء خبره صدمت كلتا المرأتين. في الواقع دوروثي نورمان من ناحية اشتركت مع الكاتب المقيم في نيويورك فيد

ميهتا في تقديم عريضة لاستنكار فرض حالة الطوارئ وقعها ما يزيد عن ثمانين أمريكيًا بارزًا؛ منهم نعوم تشومسكي وآرثر آش وألن جينسبرج ولويس مومفورد ولينوس بولينج وبنجامين سبوك وجون أبدايك. ثم جرى نشرها في الصحف وأذاعتها وسائل الإعلام. بل شعرت دوروثي أيضًا بأن عليها مكاتبة إنديرا مباشرة في الأمر، لكن جواب الأخيرة عليها لم يكن سوى هدية مصحوبة برسالة قصيرة تقول: «إن لم يكن في قبول هدية من «الديكتاتورة الكبرى» إزعاج لك فهذه ... هدية لك ... من بوتان».<sup>19</sup> ومن هنا مرت أربع سنين قبل أن تتواصل إنديرا ودوروثي نورمان من جديد.

أما بالنسبة لبوبول جاياكار فعلى العكس من دوروثي، ظلت وطيدة العلاقة بإنديرا إبان فرض حالة الطوارئ.

إلا أنها لما عادت من الولايات المتحدة في يوليو عام ١٩٧٥ واجهتها بالأمر؛ فقالت لها مسائلة: «كيف أمكن لك ذلك؟ ابنة جواهرلال نهرو تسمح بهذا؟» وكان ذلك «مفاجئًا بحق» وصادمًا لإنديرا. لم يجرؤ أحد من قبل على مساءلتها علانية. فكشفت وهي تدافع عن نفسها أمام جاياكار اللثام عن شكوكها التي أصبحت بحلول ذلك الوقت أقرب إلى جنون الارتياب. قالت إنديرا لجاياكار: «أنت لا تدركين خطورة ما يحدث. أنت لا تعلمين المكائد التي تنصب لي. لطالما كرهني جاياابراكاش والسيد موراجي. لقد عزمنا على تحطيمي ... كانت زوجة جاياابراكاش برباها مقربة جدًا لوالدتي، لكن العلاقات تبدلت بموتها. لطالما كره جاياابراكاش وجودي في مقعد رئيس الوزراء ... ولم يكشف عن دوره الحقيقي قط. هل يريد أن يكون قديمًا أو شهيدًا؟ لماذا لا يقر بأنه لم يتوقف يومًا عن ممارسة السياسة وبأنه يريد منصب رئيس الوزراء؟»<sup>20</sup>

في ذلك النقاش المفعم بالتوتر لاحظت جاياكار للمرة الأولى أن عين إنديرا اليمنى صارت تضطرب لا إرادياً بصورة واضحة، وتلك عادة لازمتها من تلك اللحظة، وأصبحت تظهر بدرجة أكبر لدى تعرضها للضغط. كذلك أدركت جاياكار أنه لا جدوى من محاولة إقناع إنديرا بأنها مخطئة. فقررت أن تفعل كل ما بوسعها في الوقت الحالي، وهو الاستماع إليها كي تتاح لها حرية التحدث إليها «بدون الحيلة التي تعودت أن ترد بها».<sup>21</sup>

بعد أقل من شهر على فرض حالة الطوارئ اجتمع البرلمان. وفي ٢١ من يوليو صدق المجلسان الأعلى والأدنى على فرض حالة الطوارئ بأغلبية كبيرة بلغت في المجلس الأدنى ٣٣٦ صوتًا مقابل ٣٩ صوتًا، وفي المجلس الأعلى ١٣٦ صوتًا مقابل ٣٣ صوتًا. وحيل



دون وقوع الخلافات في البرلمان بقرار يقضي بوقف جلسة الاستجواب اليومية. وصارت «القضايا الحكومية العاجلة المهمة» وحدها هي التي تناقش على أرض البرلمان. جاء على رأس «القضايا الحكومية العاجلة المهمة» سلسلة من المسودات القانونية طرحت لإدخال تعديلات على الدستور. كان الهدف الأساسي من تلك التعديلات منع السلطة القضائية من المساس بإنديرا وحالة الطوارئ. ففي أول أغسطس أُقرّ التعديل الثامن والثلاثون للدستور الذي كفل الحماية لقرار فرض حالة الطوارئ الداخلية والحكم المركزي على الولايات والقرارات التي تعلنها الهيئات الحاكمة لتصبح بذلك خارج نطاق سلطة المحاكم. كما دعمت إنديرا نظام حكمها الجديد بالتخلص من معارضيها المتبقين بالولايات. فاستخدمت الحكم المركزي لعزل حكومة ولاية جوجارات التي لا يمثلها حزب المؤتمر والتي صعدت لتوها للسلطة، وقامت بالمثل في ولاية تاميل نادو التي حكمها حزب درافيدا مونترا كاجاغام المحلي.

أعقب ذلك في وقت قصير التعديل الدستوري التاسع والثلاثون الذي أبطل الحكم الذي أصدرته محكمة الله آباد العليا ضد إنديرا، وألغى — بأثر رجعي — الجزء الخاص «بالممارسات المحظورة» من قانون الانتخابات الذي اتُهمَت إنديرا بانتهاكه. ثم صدرت تعديلات دستورية أخرى تمنع الهيئات القضائية من مراجعة نتائج الانتخابات التي تدخلت فيها رئيسة الوزراء، وتمنح الأخيرة الحصانة ضد الدعاوى القضائية الجنائية والمدنية حول الجرائم التي ارتُكبت قبل أو إبان فترة توليها منصبها. وأُقرت جميع تلك التعديلات سريعا في البرلمان، حيث ظل المؤتمر يحتل الأغلبية بنسبة ثلثي مقاعد البرلمان. غير أن أهم التعديلات كان التعديل الجسيم رقم ٤٢ الذي تكون من ٥٢ فقرة وأُقر في نوفمبر عام ١٩٧٦. وأهم خصائص ذلك التعديل هو أنه منح البرلمان سلطة إجراء التعديلات على الهيكل الأساسي للدستور الذي كان من قبل غير قابل للتغيير، فقوض على حد تعبير أحد المحللين السياسيين «الأساس الذي قام عليه النظام السياسي إبان الاستقلال».<sup>22</sup> مما منح البرلمان صلاحية تغيير جميع ملامح الحكومة. وقد جعل الأحكام الخاصة بالحقوق الأساسية للأفراد في الدستور خاضعة لمبادئ الدولة التوجيهية. فوق ذلك عززت فقرات أخرى من التعديل قدرات السلطة التنفيذية العليا. فصار بإمكانها منع أو حظر أي أنشطة «مخالفة لمصلحة الأمة» حتى لو كان في ذلك انتهاك للحقوق الأساسية للأفراد والحريات السياسية وحق المساواة أمام القانون. كما مد التعديل فترة عمل المجلس الأدنى من البرلمان والمجالس التشريعية من خمس إلى ست سنوات، وألزم

الرئيس بعدم التصرف إلا بناءً على نصيحة المجلس الوزاري ومنح الحكومة المركزية سلطة إرسال القوات المسلحة بدون استشارة حكومات الولايات في حالة اختلال النظام العام.

قبل في تبرير التعديل رقم ٤٢ إنه يكفل «تحقيق خير الناس» وإطلاق ثورة اجتماعية جديدة. غير أن سلم التعديلات ذلك لم يخدم إلا في تعزيز قدرة الحكومة المركزية على استخدام القوة وخلق «ذريعة قانونية لحرمان المعارضين من حقوقهم السياسية».<sup>23</sup> بعدما أقرت تلك التعديلات ترسخت حالة الطوارئ أكثر بمزيد من القرارات و«القوانين العجيبة». وقد صدرت باسم الرئيس وصدق عليها البرلمان في إطار زمني قصير. فمع وجود أغلب المعارضين في السجون إبان حالة الطوارئ، زاد لجوء إنديرا إلى إصدار القرارات اختصارًا للوقت الذي يستغرقه البرلمان. وكانت تنتظر توقف جلسات البرلمان ثم تأمر الرئيس بالتحرك. في العام السابق على فرض حالة الطوارئ أصدر الرئيس أربعة عشر قرارًا. في الستة الشهور التي تلت فرض حالة الطوارئ في يونيو عام ١٩٧٥، أعلن الرئيس ما لا يقل عن خمسة وعشرين قرارًا. كان من بينها قرارات تتعلق بفرض إجراءات رقابية صارمة، أحدها ألغى قانون عام ١٩٥٦ الذي اقترحه فيروز غاندي لمنح الصحفيين الذين يغطون وقائع مناقشات البرلمان الحصانة القضائية.

في الواقع كانت الرقابة من أهم ملامح حالة الطوارئ، فأنداك ألغى مجلس الصحافة الذي كان كيانًا مستقلًا. وحظرت الحكومة «نشر المواد المثيرة للاعتراضات». ووضعت للصحف قواعد صارمة تقضي بتسليط الضوء على المعلومات والأبناء «الإيجابية» فقط. فصار الإعلام تحت سيطرتها. ولما انتمى الكثير من أصحاب الصحف البارزة إلى رجال الصناعة الأثرياء واحتاج هؤلاء للتراخيص والتصاريح الحكومية لتشغيل مشروعاتهم أذعنوا سريعًا لمطالب الحكومة. كما أعادت الحكومة هيكله الأربع وكالات الأنباء الوحيدة بالهند، ونظمتها في شركة واحدة تتبع القطاع العام سميت بشركة ساماتشار. وقد خدمت تلك الشركة كأداة للدعاية الحكومية تشبه وكالة أنباء تاس بالاتحاد السوفيتي. أما المجلات الإخبارية المستقلة كمجلة «نيخيل تشاكرافاتي ماين ستريم» ومجلة روميش ثابار الشهرية «سيمينار» فقد أثرت وقف إصداراتها على أن تخضع للرقابة. واعتقل إبان حالة الطوارئ ٢٥٣ صحفيًا منهم كوليديب نايار الذي كان واحدًا من أجراً نقاد إنديرا. علاوة على ذلك طُلب مما يزيد عن أربعين مراسلاً صحفيًا أجنبيًا مغادرة الهند، وألغيت أوراق اعتمادهم لأتفه الأسباب. ومن هؤلاء صحفيون بريطانيون وأمريكيون من

جريدة «ذا جارديان» وجريدة «بالتيمور صن» و«واشنطن بوست»، وأيضاً مارك تولي من إذاعة بي بي سي الذي تولى تغطية أخبار الهند لسنوات.

في ظاهر الأمر بدا أن الكثيرين يشعرون أنهم أيسر حالاً وأن حياتهم تضي على نحو أكثر سلاسة في ظل حالة الطوارئ. إلا أنهم حُرموا حقوقاً دستورية مهمة من بينها حرية التعبير والاجتماع وحضور محاكماتهم. وفوق ذلك دُعم قانوناً الحفاظ على الأمن الداخلي ومنع التهريب، فأجيز اعتقال الأفراد واحتجازهم عامين دون الرجوع للقضاء أو إطلاعهم على أسباب اعتقالهم. ولبعض الوقت اختفت تلك الإجراءات الرجعية خلف صور الدعاية الحكومية التي امتدحت المكاسب التدريبية التي تحققت في ظل حالة الطوارئ؛ فأوقع بالمشتغلين بالسوق السوداء والمهربين والمتهربين من الضرائب، وحُجّمت قدرات ملاك الأراضي ومقرضي الأموال بدرجة كبيرة، فحرر الفلاحون من عبوديتهم لهم، ومُنح الفقراء وظائف في المشروعات العامة، وانخفضت نسبة التضخم من ٣٠٪ إلى ١٠٪ في أقل من عام.

لكن بعدئذٍ في أغسطس عام ١٩٧٥ في الوقت الذي بدا فيه الطريق خالياً من العقبات أزيح قائد بنجلاديش الشيخ مجيب الرحمن عن الحكم في انقلاب وقع في دكا. كانت إنديرا لا شك هي صاحبة الفضل في قيام دولة بنجلاديش وإطلاق سراح الشيخ مجيب الرحمن من معتقله في باكستان ليكون أول رئيس وزراء لتلك الدولة. ولم تكن هي وذلك الأخير قائدين متحالفين وحسب، وإنما صديقين مقربين أيضاً.

لكن في الثلاثة أعوام ونصف التي مرت على ميلاد دولة بنجلاديش ظل مجيب يقوض المبادئ الأربعة التي أعلنها لحكمه: الوطنية، والعلمانية، والديمقراطية، والاشتراكية. ففي ديسمبر عام ١٩٧٤ سار على المثال الذي اتبعته إنديرا فيما بعد؛ فأكسب نفسه سلطات استثنائية بفرض حالة الطوارئ، وأوقف ممارسة الحريات المدنية. ثم جعل يجري التعديلات على الدستور البنجلاديشي ويؤسس نظاماً رئاسياً صار هو بموجبه رئيس بنجلاديش. وبعد ذلك في يونيو عام ١٩٧٥ في قرابة الوقت الذي جاء فيه دور إنديرا لتفرض حالة طوارئ صارمة حوّل مجيب بنجلاديش إلى دولة من حزب واحد، الأمر الذي منحه السلطة المطلقة. ولم تأخذ الديمقراطية في بنجلاديش في التداعي وحسب، بل إن نظام مجيب كذلك كان يسوده الفساد ويشتهر بممارسة المحاباة، فقد كان هذا الأخير يولي أفراد عائلته الكبيرة المنتشرة في أرجاء البلاد مناصب النفوذ، ومنها كان هؤلاء يجنون مكاسب مالية ضخمة.

في ١٤ أغسطس في عشية ذكرى استقلال الهند وصلت دبابات تحوي في داخلها بعضاً من صغار ضباط الجيش إلى بيت مجيب وحاصرتة. ثم سلم قائد الانقلاب — وهو رجل يدعى اللواء هودا — مجيبَ الرحمن وثيقةَ استقالة ليوقعها. فرفض هذا الأخير في غضب. وعندئذٍ دخل أحد أبنائه الغرفة حاملاً مسدساً، وانفجر آخر بالصراخ مستغيثاً بحراس مجيب الشخصيين. فصوب اللواء هودا مدفعه الرشاش من طراز ستين نحو مجيب وابنيه وأطلق الرصاص على ثلاثتهم. وبعدها فتش الضباط البيت وقتلوا زوجة مجيب وطفله ذا العشرة الأعوام وزوجتي ابنيه وأخاه واثنين من الخدم واحداً تلو الآخر. حطمت أنباء اغتيال مجيب الرحمن وعائلته إنديرا. وهذه المرة كان اعتقادها في ضلوع مكتب الاستخبارات المركزية الأمريكي في الأمر على الأرجح في محله. لكنها لم تستوعب المنطق والأسباب التي أدت إلى نهاية مجيب. بل بدلاً من ذلك فسرت اغتياله على أنه نذير بما قد يقع لها ولعائلتها. لقد أخذت صورة مقتل زوجة مجيب وابنه بالأخص تلح على عقلها وتقلقها. ولعل تلك كانت المرة الأولى التي يخطر فيها ببال إنديرا أن منصبها كرئيسة الوزراء لا يجعلها وحدها مستهدفة. وإنما يجعل معها في ذلك ابنائها وزوجتيها وحفيديها. لذا اتخذت غريزياً إجراءات لحماية نفسها وعائلتها، فكثفت من الجهود المخبرانية والاعتقالات التي تجري بدون محاكمة.

كذلك أثرت مخاوف إنديرا على النظام الذي سار عليه منزلها. فسانجاي ترك غرفة النوم التي تشاركها مع زوجته مانيكا وانتقل إلى غرفة أخرى في الممر المؤدي إلى غرفة إنديرا. لقد أبقيا بابي غرفتيهما مواريين ليلاً. وأسرت إنديرا بتلك التغييرات لآر إن كاو رئيس جناح البحث والاستخبارات، وهو رجل وثقت به، كان يطلعها أولاً بأول على المكائد التي تنصب ضدها. مع ذلك ظلت إنديرا تشعر أنها بمأمن تام على العلن وبين الحشود. أما في بيتها الخاضع لحراسة مشددة فقد شعرت بأنها في خطر. فاحتمت غريزياً بابنها في الوقت الذي كان الأخير فيه حقيقة يمثل الخطر الأكبر عليها من أكثر من جهة.

## الفصل السابع عشر

### الابن الصاعد

منذ البداية امتدحت أبواق الدعاية حالة الطوارئ على أنها برنامج لإحياء الأمة. لن ينقذ الديمقراطية وحسب، وإنما كذلك ستُبعث به الهند إلى الحياة من جديد. لتحقيق ذلك البرنامج أعلنت إنديرا خطة اقتصادية من عشرين نقطة، تضمنت مبادرات تحرم العمل بموجب عقود الإذعان، وتلغي جميع ديون الفلاحين لمقرضي الأموال، وتضع القيود على تملك الأثرياء للأراضي، وتفرض إجراءات صارمة لمحاربة المهربين والمتهربين من الضرائب، وتعفي إيرادات الطبقة المتوسطة من الضرائب، وتتحكم في أسعار السلع الأساسية. كل تلك الخطط بدت واحدة على الأوراق. لكن من ناحية أخرى، لم يكن بمقدور حملة البرنامج لـ «محاربة الفقر» — وبصفة خاصة الفقر بين فقراء القرى — تحقيق نجاح كبير؛ لأن الولايات حينذاك افتقرت إلى التنظيمات الإدارية والبنى التحتية التي يمكنها تنفيذ الإصلاحات.

غير أنه أحرز نجاحًا حقيقياً على صعيد حملات محاربة المهربين والمتهربين من الضرائب. فبعد وضع مشروع لتقديم الإقرارات الضريبية طوعية، تقدم ٢٥٠٠٠٠ شخص للإبلاغ عن حجم ثرواتهم، ودخلهم، الأمر الذي أثمر عائداً قيمته ٢٤٩ كرور. وفي العام الأول من فرض حالة الطوارئ تزايدت الحصيلة الضريبية بنسبة ٢٧٪. واعتقل ما يزيد عن ٢٠٠٠ مهرب، وشن ما يزيد عن ٦٠٠٠ غارة على المشتغلين بالسوق السوداء، أسفرت عن مصادرة بضائع تقدر بمئات الملايين. وتقلص الفارق بين حجم التبادل التجاري المشروع وغير المشروع. وشهدت الأسعار استقراراً، ونقص العجز في السلع الأساسية.<sup>1</sup>

لكن خطة سانجاي المكونة من خمس نقاط — لا برنامج العشرين نقطة المعقد الذي وضعته إنديرا — هي التي أثارت حماسة الشعب الهندي. لقد ظل سانجاي حينذاك

مديرًا لشركة السيارات الخاصة به، شركة ماروتي، إلا أنه بدأ أيضًا قبل بضعة أعوام في التدخل في الشؤون السياسية. لقد تبرع الكثير من الساسة لشركته بالأموال طمعًا في الفوز بحظوة إنديرا، وأشعل اتصاله بهؤلاء رغبته في تملك السلطة السياسية. فدخل عالم السياسة بصورة غير عادلة، بلا حق أو خبرة أو تفويض انتخابي، ومع ذلك لم يشكك أحد في شرعية وضعه للسياسات الحكومية عندما أعلن بحماس خطته المكونة من خمس نقاط. بل إن الحكومة أنفقت ما يزيد عن ٨٠٠ ألف روبية في الدعاية لخطته التي حققت شعبية بسرعة صاروخية.

الأهداف الخمس التي وضعها سانجاي شملت زيادة نسبة المتعلمين من البالغين (وقد رُوج لذلك بشعار «كلُّ يعلم الآخر»)، وإلغاء الأنظمة الطائفية ودفع العرائس للمهور، وتجميل البيئة (ويدخل فيه إزالة العشوائيات وزراعة الأشجار)، وأخيرًا — الأمر الذي كان أكثر ما أثار المعارضة — بدء برنامج شامل لتنظيم الأسرة. استند أغلب تلك الأهداف إلى مشروعية كافية. لكن خطة الخمس نقاط شأنها شأن حالة الطوارئ نفسها، صارت أداة تعظم بها مكانة سانجاي غاندي الشخصية أكثر منها أداة لتحسين الأوضاع الاجتماعية في الهند.

فتح إعلان حالة الطوارئ لسانجاي الباب للمال والسلطة. فاستخدمه لتصفية حساباته مع من يحمل الضغائن تجاههم. وبني إن هاكسار — الذي حاول إقناع إنديرا بالحد من سلطاته — جاء على رأس قائمة مستهدفيه. لم يستطع سانجاي المساس بهاكسار نفسه، لكن عائلة الأخير كانت تملك متجرًا كبيرًا يدعى بانديت براذرز تباع فيه الأقمشة والمفروشات المغزولة يدويًا على الأنوال في سوق كونوت بليس في دلهي. وهذا المتجر أداره عم هاكسار العجوز ذو الأربعة والثمانين عامًا آر إن هاكسار وصهره كيه بي موشران.

في ١٠ يوليو اقتحم مفتشو الضرائب بانديت براذرز بدعوى تهرب أصحابه من الضرائب. وصدر أمر التفتيش من سانجاي غاندي، وأُقر على طول التسلسل القيادي للمناصب التنفيذية، بداية بآر كيه دهاوان، وانتهاءً إلى نائب حاكم ولاية دلهي. إلا أن مفتشي الضرائب بعد تفتيشهم للمتجر لأكثر من ساعتين لم يستطيعوا تقديم أي دليل لإدانته. ولما لم ترض تلك النتيجة سانجاي، اتهمهم بالتواطؤ مع المتجر. وأُجري تفتيش ثانٍ للمتجر في ١٤ يوليو بدعوى التحقيق في تطبيقه لقانون قواعد بيع السلع الأساسية، وهو قانون يقضي بإبراز أسعار السلع المعروضة للبيع. في ذلك التفتيش الجديد الذي

أجري للتنقيب عن بطاقات الأسعار، عُثر على سلع بدون بطاقات أسعار مبرزة، فألقي القبض على آر إن هاكسار، وكيه بي موشران. لكن لما علمت إنديرا بذلك من صديقها القديم «أرونا أساف علي»، تدخلت وأمرت بإطلاق سراح عم هاكسار المسن وصهره فوراً.<sup>2</sup> اعتقد الكثيرون أن سانجاي هو أول من اقترح فكرة فرض حالة الطوارئ القومية بعدما صدر حكم محكمة الله آباد العليا ضد إنديرا. لكن ما حدث على الأرجح هو أن أحد مستشاريه — كبانسي لال رئيس حكومة ولاية هارايانا — أثار ذلك الاقتراح، فتمس له سانجاي وشجعه، ثم أقنع بدوره والدته باستدعاء سيدهارثا شانكار راي والإصرار على ضرورة اتخاذ إجراء صارم عاجل. لكن بصرف النظر عن كون سانجاي صاحب تلك الفكرة أم لا، فقد كان أشد مؤيديها. واتسعت سلطاته تزامناً معها، فعلى مدى الثمانية عشر شهراً التالية، أصبحت الهند تعرف بـ «أرض الابن الصاعد».

مع أن أكثر جهود سانجاي اتجهت آنذاك للأنشطة السياسية، ظلت شركة ماروتي قائمة، على الأقل اسمياً. لقد ظل إنتاج سيارة الماروتي التي كانت ستصبح «سيارة الشعب» ضعيفاً، لكن الشركة وسّعت من أنشطتها بافتتاح شركة ماروتي للخدمات التقنية (أو شركة إم تي إس)، وهي شركة استشارات خاصة نشأت ظاهرياً «لتقديم ... الخبرات في تصميم وتصنيع وتجميع السيارات».

في البداية لم تعلم إنديرا ولا راجيف — الذي كان حينذاك يعمل طياراً لدى شركة الهند للخطوط الجوية — شيئاً عن شركة إم تي إس. لكن بعدئذ في الوقت الذي كان راجيف مسافراً فيه خارج دلهي أقنع سانجاي زوجة الأخير سونيا غاندي بتوقيع عدة وثائق لتلك الشركة الجديدة، صارت هي بمقتضاها المديرية العامة لها، وأصبح طفلها الذي كان لا يزال يتعود المشي، وطفلتها الرضيعة مساهمين فيها. وبهذا استحق لسونيا — التي كانت بلا شك لا تملك خبرات إدارية أو دراية في مجال صناعة السيارات — راتب شهري قيمته ٢٥٠٠ روبية، وعمولة تبلغ ١٪ من صافي ربح الشركة، وعلاوات، ومكافآت، وتأمين طبي، ونفقات سفر، ومصروف لمنزلها وهاتف، وسيارة، وسائق. من الواضح أن سونيا لم تفهم تماماً خطورة الوثائق التي طلب منها أخو زوجها توقيعها. ويقال إن راجيف ثارت ثأثرته لدى اكتشافه أن أخاه ورط عائلته في شركة إم تي إس. لقد شكّا الأمر إلى سيدهارثا شانكار راي، إلا أنه لم يطلب من زوجته الانسحاب من تلك الشركة الجديدة.<sup>3</sup>

كانت شركة إم تي إس شركة صورية. فوفقاً لكاتب سيرة سانجاي فينود ميهتا «لم يكن هناك تقريباً أي استشارات ... أو حتى شركة لتقديمها».<sup>4</sup> لم تنشأ شركة إم تي

إس إلا لامتصاص كل ما يمكن من أموال الشركة الأم؛ شركة ماروتي المحدودة المسئولية التي كانت تكبرها، وتتدفق عليها الأموال من الكثير من البنوك ورجال الصناعة المدينون بالفضل لإنديرا. فبحلول عام ١٩٧٥ كانت شركة إم تي إس قد استخلصت مليون روبية من شركة ماروتي المحدودة المسئولية، الأمر الذي شجّع سانجاي على تأسيس شركة أخرى هي شركة ماروتي للمركبات الثقيلة، وهي «شركة صغيرة» لإنتاج مداحل الأسفلت. شأنها شأن شركة إم تي إس، كانت شركة ماروتي للمركبات الثقيلة شركة احتيال. اشترى سانجاي محركات من طراز فورד من شركات تملك أذن استيراد (سأهم مديروها بمبالغ هائلة في تمويل حزب المؤتمر) وركبها في مداحل أسفلت قديمة متهالكة طلائها طلاءً خفيفاً، ثم باعها على أنها مداحل جديدة. وقد تهافتت حكومات الولايات الطيعة والشركات على شرائها رغم أسعارها الباهظة.

إبان عام ١٩٧٦، اتسعت مشروعات شركة ماروتي، ونمت ثروة سانجاي الشخصية بسرعة هائلة. خاضت الشركة مجال الأنشطة المصرفية، وميدان القانون المدني والجنائي وقانون الشركات، وعملت بالتسويق، وإنتاج هياكل الحافلات، وبيع المواد الكيميائية، وبالطبع — عن طريق أولياء نعمتها — شاركت في السياسة. وفوق ذلك صارت وكيلة للعديد من الشركات الأجنبية متعددة الجنسيات، من بينها شركة إنترناشيونال هارفيستر وبايبر آيركرافت.

في ٦ أغسطس عام ١٩٧٥، أجرت أوما فاسوديف — التي نشرت سيرة إنديرا قبل عامين وأجرت مقابلة مع سانجاي حول السيارة الماروتي — مقابلة صحفية جديدة مع سانجاي لمجلة «سيرج». سُجلت المقابلة على آلة تسجيل شريطية. كان المفترض أن ينبه صوت دوران آلة التسجيل ذات البكرة الضخمة المزعج سانجاي — الذي اتسم بوجه عام بالحيلة — لأن يلزم الحذر. لكن الأخير كان على العكس مندفعاً جداً في كلامه، فأعلن نفسه معارضاً للكثير من سياسات والدته، وأغلب حلفائها السياسيين. وفوق ذلك أدان تأميم القطاعات الخاصة، وامتنح المشروعات الربحية والشركات متعددة الجنسيات، وصرح بأنه يفضل أن تُرفع جميع القيود الاقتصادية. وقال إن القطاع العام لا بد أن يُترك ليموت «كما هو متوقع». أما عن الحزب الشيوعي الهندي (سي بي إيه) — الذي كان دعمه حاسماً للحكومة إبان الشهور الأولى من فرض حالة الطوارئ، فقد قال سانجاي عن أعضائه: «لا أظن أنه يمكن العثور على أناس أكثر ثراءً وفساداً من هؤلاء».<sup>5</sup>



أثناء تلك المقابلة، كانت فاسوديف بالكاد قادرة على احتواء حماسها؛ على حد تعبيرها فيما بعد، فقد كان سانجاي يفشي «معلومات ستحدث ضجة إعلامية». لذا قبل أن تنشر المقابلة، وزعتها على وكالة أنباء رويترز والكثير من وكالات الأنباء الأخرى. وحرص سانجاي نفسه على أن يجيز رقباء المطبوعات نشرها في ٢٧ أغسطس.

حتى اليوم التالي عندما نُشرت مقتطفات طويلة من مقابلة سانجاي في الصفحة الأولى لجميع الصحف الهندية، لم تكن إنديرا قد قرأت عنها أو عرفت حتى بإدلاء سانجاي بها. لقد أجرت تسعون صحيفة أمريكية تغطية للمقابلة، وتناولتها الصحف البريطانية. إزاء هذا استشاطت إنديرا غضبًا واستدعت سكرتيرها الأول بي إن دهار. تصادف أن كان الأخير آنذاك في اجتماع لعائلته في مكان قريب بدلهي، فاستغرق ساعة تقريبًا في الوصول إلى مقر إقامة إنديرا. ولما وصل أعطته إنديرا رسالة قصيرة عن مقابلة سانجاي — مع أنهما كانا سيخوضان نقاشًا طويلًا في ذلك الشأن — خطتها على عجل أثناء انتظارها له:

«المشكلات لا تنتهي أبدًا. أدلى سانجاي بتصريح في منتهى الحماسة عن الشيوعيين. لم أعرف بأي شيء عن تلك المقابلة إلا بعدما رأيت الصحف، ولم أقرأ عنها حتى ذلك الحين. هذا المساء فقط فجرت عناوين الصحف أحداثها في وجهي. في لحظة حاسمة ودرجة للغاية لم نتسبب في ألم بالغ لمن ساعدونا ويؤيدوننا الآن في البلاد (الحزب الشيوعي الهندي) وحسب، (بل أيضًا) خلقنا مشكلات خطيرة مع الجبهة الاشتراكية بكاملها. فات أوان التحرك بالفعل، ومع هذا فإن دهاوان يبذل قصارى جهده لمنع نشر المزيد. إلا أننا لا نستطيع منع ما صدر بالفعل. ماذا عسانا أن نفعل؟ أشعر بالقلق الشديد، إنها المرة الأولى التي أشعر فيها حقًا بالقلق منذ سنوات. كيف نبليغ الاتحاد السوفييتي وغيره بما حدث؟ ما الأعذار التي يمكن أن نجدها أو نخلقها؟ هل عليّ أن أصدر تصريحًا؟ هل علينا أن ندفع سانجاي إلى قول شيء ما؟ لن يفعل ذلك. أنا متأكدة (مع أنني لم أتحدث معه في ذلك). لا أريد أن ألقى باللائمة على من أجرت المقابلة أو أي شخص آخر. لقد فقدت حقًا السيطرة على أعصابي. هل بإمكانك أن تبتكر حلًا ما؟ ليس هناك أي وقت لنضيعه.»<sup>6</sup>

قضى دهار ما يزيد على الساعة في مناقشة إنديرا فيما يمكن عمله لاحتواء ما وقع من ضرر. كان الخيار الواضح أمامهما هو اللجوء إلى وزير الإعلام والإذاعة الجديد في سي

شوكلا. إلا أن الأخير كان حينذاك يتلقى أوامره من سانجاي، وكلاهما كان يعلم أنه لا يمكن الوثوق به. في نهاية الأمر قررا أن يأمر دهار بمنع نشر المقابلة في مجلة «سيرج» والصحف والمجلات الأخرى التي لم تنشر فيها بعد، وأن يقنعا سانجاي بالإدلاء بـ «تفسير» لتصريحاته عن الحزب الشيوعي الهندي.

مقابلة سانجاي أشعرت دهار في قرارة نفسه بالخوف، ليس فقط لما كشفته عن سانجاي، بل لأن الموقف آنذاك أظهر مدى ضعف سيطرة إنديرا على ابنها. كان دهار يعلم من وقت مسبق أن سانجاي مثير للمشاكل، وأنه يتخذ الرئيس فيرديناند ماركوس — الذي كان كتابه «الثورة الديمقراطية في الفلبين» واحدًا من الكتب القليلة التي امتلكها سانجاي — قدوة له، وأنه قد استخف في بعض تعليقاته بجده، ووصف أعضاء مجلس وزراء والدته بأنهم «مجموعة من الحمقى الجهلة». على كل، في الوقت الذي حاول فيه دهار وإنديرا تهدئة عاصفة الجدل التي أثارتهما مقابلة سانجاي، تدفق على مكاتب مجلة «سيرج» ومكاتب إنديرا في شارع «أكبر رود» سيل من المكالمات الهاتفية من السفارات ومكاتب المندوبين الساميين والصحف الدولية. وثار الحزب الشيوعي الهندي، وأخذ يطالب بتفسير لتصريحات سانجاي. ثم منع دهار في مساء ٢٨ أغسطس نشر المقابلة في جميع وسائل الإعلام الهندية. عندها لم تكن مجلة «سيرج» نفسها قد بلغت أكشاك بيع الجرائد، وتلقت أوما فاسوديف مكالمة قصيرة من مكتب رئيسة الوزراء تعلمها بأن المقابلة لا يمكن نشرها.<sup>7</sup>

في اليوم التالي نشرت الصحف الهندية «تفسير» سانجاي نفسه لتصريحاته عن الحزب الشيوعي. لم يسجل التاريخ الطريقة التي نجح بها دهار وإنديرا في دفع سانجاي إلى الإدلاء بذلك التفسير. لكن الأخير بدا أنه يتراجع عن أقواله؛ إذ قال سانجاي: «لم أعن بهذا التصريح العام حزبًا بأكمله (الحزب الشيوعي). بالطبع هناك في أحزاب (أخرى) كحزب السواتانترا وحزب جان سانج أناس ... أكثر ثراء ... وفسادًا بكثير ... أنا لا أؤيد الحزب الشيوعي ... لكن موظفيه مخلصون لقضيتهم ... وقد أيد السياسات التقدمية وأخلص العمل لتحقيقها، خاصة السياسات التي تهدف لإصلاح أحوال الفقراء.»<sup>8</sup>

رأى بي إن دهار أن المقابلة التي أدلى بها سانجاي لمجلة سيرج كانت «محاولة جريئة لتجاوز سلطة رئيسة الوزراء».<sup>9</sup> فمع تراجع دهار عن أقواله، صار معروفًا لدى الجميع أنه يرفض رؤى والدته السياسية وأنه غير مستعد حتى للإدلاء بتأييد شفهي لقيم الديمقراطية والاشتراكية و«البرامج التقدمية» التي يتمسك بها المؤتمر. كان بلا شك مؤيدًا للرأسمالية والسياسات المحافظة والحكم المطلق.

فضلاً على أنه بنى لنفسه قاعدة سياسية اتخذت من بيته أو بيت رئيسة الوزراء مقراً لمنافسة سكرتارية إنديرا. فبتعيين بعض من أتباعه كنواب للوزراء، صار بإمكانه التدخل في شئون بعض الوزارات المهمة والسيطرة عليها. فتحكم في وزارة الداخلية، لا عن طريق وزيرها براهماناندا ريدي عضو مجلس إنديرا الوزاري، وإنما عن طريق وزير الدولة للشئون الداخلية أوم ميهتا الذي صار في وقت قصير يعرف بهوم ميهتا (وزير الداخلية ميهتا). وبالتحالف نجح في تعيين براناب مخيرجي في وزارة المالية وإيه بي شارما في وزارة الصناعة. وأصبح بانسي لال ولي نعمة شركة الماروتي ورئيس حكومة ولاية هاريانا وزير الدفاع في ديسمبر عام ١٩٧٥.

وبالإضافة إلى دلهي، حاول رؤساء الحكومات في الولايات الأخرى الفوز بحظوة سانجاي. وتسابقوا إلى جذب انتباه «ابن» رئيسة الوزراء، فرحبوا به في ولاياتهم، واستقبلوه استقبال العظماء، وجمعوا الحشود الضخمة إكراماً لوفادته. أما في ولاية أوتار براديش فقد أبلغه ياشبال كابور أن رئيس حكومة الولاية إتش إن باهوجونا استأجر أربعة من رجال الدين الهندوس للدعاء بهلاكه وهلاك رئيسة الوزراء، فأمر بملاحقة رجال الدين هؤلاء واعتقالهم. وعُزل باهوجونا من منصبه، وحل محله إن دي تيواري (الذي سرعان ما عُرف باسم نيو دلهي تيواري لولائه للوسط الذي قضى فيه أغلب وقته). في العصاة السياسية السرية التي ألفها سانجاي في بيت رئيسة الوزراء أو عصاة بي إم إتش كما أشار لها دهار (اختصاراً لبيت رئيسة الوزراء) ألغيت الجدارة والنزاهة كمقياس، وحل محلها الولاء. فعلى حد قول أحد زملاء دهار فيما بعد: «سكرتارية رئيسة الوزراء قامت مقام مخزن المياه النقية (في الحكومة)، في حين قامت عصاة بي إم إتش مقام نظام الصرف».<sup>10</sup> بحلول ذلك الوقت كان قد انضم إلى عصاة بي إم إتش كيشان تشاند نائب حاكم ولاية دلهي، وسكرتير إنديرا الخاص متعدد المهام الذي لا يعرف التعب آر كيه دهاوان. فأدت العصاة وظائفها بسلاسة وكأنها سلطة فوق القانون. وأخذت تصدر الأوامر — عن طريق دهاوان — إلى المسؤولين في سكرتارية إنديرا الذين كان أغلبهم على حد تعبير دهار «ليسوا ممن يقام لهم وزن».<sup>11</sup>

في جلسة حزب المؤتمر السنوية التي انعقدت في أواخر ديسمبر عام ١٩٧٥، في تشانديجارف (العاصمة المشتركة للبنجاب وهاريانا)، عندما نصب سانجاي عضواً في اللجنة التنفيذية لجناح الشباب بحزب المؤتمر، كان ذلك بمنزلة إعلان لاختياره خليفة لوالدته. لقد هدف سانجاي من ترشحه لتلك العضوية إلى إحياء جناح الشباب الذي توقف دوره قديماً

ليكون منبرًا «يؤثر» به على أعضاء الحزب الذين تنازع معهم. وصار الجناح مركز قوة منافسًا لحزب المؤتمر الأب، بالضبط كما صارت عصابة بي آر إتش في بيت إنديرا منافسة لسكرتاريتها. فعينت امرأة في الخامسة والثلاثين من العمر من أتباع سانجاي تدعى أميكا سوني رئيسة لجناح الشباب. طرح الحزب سياسات لتحديث القرى والبرامج لتنظيم الأسرة ونشر التعليم، وتوفير المساعدات القانونية للفقراء، والتخلص من الكلاب الضالة في شوارع دلهي. وتحت تأثير سانجاي، قدم مظلة لرعاية شتى أنواع العصابات والمجرمين ... و«الشخصيات غير السوية» والعناصر المثيرة للاضطرابات».<sup>12</sup>

تحرص «فتية شباب حزب المؤتمر» بأصحاب المحال في دلهي، وأجبروهم على دفع تبرعات لمراكز لا وجود لها لتعليم الكبار وتنظيم الأسرة. في ذلك قال أحد تجار كونوت ناطقًا بلسان الكثيرين آنذاك: «كلما رأيت هؤلاء الهمج، قلت لنفسي: رباه كم سأضطر أن أدفع هذه المرة؟ لكنني كنت دائمًا أدفع. فكل ما كنت أتمنى حينها هو التخلص منهم».<sup>13</sup>

لكن لم يقف فتیان سانجاي عند حد جمع التبرعات. ألزم التجار في ظل حالة الطوارئ بإبراز قوائم أسعار البضائع المعروضة للبيع، وخفض أثمانها بنسبة ١٠٪ ثم وضع بطاقة أسعار على كل سلعة مبيعة. طاف أعضاء من شباب حزب المؤتمر — وأحيانًا أفراد عصابات يدعون أنهم منه — على محال دلهي التجارية وجمعوا الغرامات فوراً من أي تاجر ينتهك قواعد حالة الطوارئ. وأحياناً كان من يبتزون تلك الغرامات يضعونها في جيبهم الخاص. بوجه عام كانت تلك الأموال تذهب مباشرة لسانجاي و«بطانته».

دارت قصص من مختلف الأنواع حول سانجاي «وفرق العمليات الخاصة» به في دلهي، من بينها قصص عن «قتلة مأجورين» يقومون بتصفية الأهداف البشرية بناءً على أوامره. كان من المستحيل التأكد مما إذا كانت تلك القصص مجرد شائعات أم حقائق لها أساس من الصحة. لكن نتيجتها كانت مناهًا من الخوف انتشر بين قطاع عريض من الناس من ساكني العشوائيات والمشردين إلى أصحاب المحال ورجال الأعمال، وحتى كبار المسؤولين الحكوميين. ولما أمكن بأمر من سانجاي إقصاء أعضاء من المجلس الوزاري كآي كيه جوجرال، وتهميش مستشارين كبي إن هاكسار، بدا أن الكل صار تحت رحمة سانجاي؛ «الابن الصاعد» كما صار يُدعى.<sup>14</sup>

يزعم روميش ثابار صديق ومستشار إنديرا في الستينيات — الذي وقعت جفوة بينه وبين إنديرا — أن سانجاي أمر بقتل رجل من رجال العصابات جمعت بين معشوقته وسانجاي علاقة غرامية. وفقًا لثابار، عندما تحدى الرجل سانجاي أن يضع يده على

معشوقته أمر سانجاي رئيس شرطة دلهي بي إس بهيندر باعتقاله. وعُثر فيما بعد على جسده في كيس بلاستيكي ملقى في قاع نهر جومنا. تلك الحادثة وقصة ضلوع سانجاي فيها كانتا معروفتين لدى الجميع، وقد خدمتا كإنذار قوي لكل من يفكر في إغصاب سانجاي.<sup>15</sup>

في أواخر عام ١٩٧٥، إبان عمل بي كيه نهرو في منصب المندوب السامي الهندي، زار دلهي، وفزع لدى اكتشافه أن «حكم القانون حل محله حكم سانجاي غاندي». أخبر بي كيه نهرو صديقه المقرب بي إن هاكسار أنه «سيتحدث مع إنديرا عما يقترفه سانجاي»، لكن حينئذٍ أقنعه هاكسار بأن ذلك سيكون خطأً جسيماً يؤدي إلى تهميشه كما حدث له هو. قال هاكسار لنهرو إن إنديرا «ليست على استعداد لفهم الحقيقة مطلقاً عندما يتعلق الأمر بذلك الفتى؛ فهي تراه مثاليًا معصوماً من الخطأ. وإبداء أي شك فيه» ستكون نتيجته إقصاء نهرو. ونهرو — كما أوضح هاكسار — كان واحداً من الساسة المخضرمين القلائل الذين ظل الاتصال مفتوحاً بينهم وبين إنديرا. فإن انتقد نهرو سانجاي علانية فلن يمكنه تحقيق أي أثر إيجابي حققه ... أو أمكن له مستقبلاً تحقيقه. من ثمّ لزم نهرو الصمت على مضض.<sup>16</sup>

في بعض الأحيان أبدت إنديرا تشككاً في سانجاي؛ وأوعزت بشكوكها ذات مرة لأحد قادة حزب المؤتمر الذين أعربوا عن قلقهم قائلة: «إن آراءه مختلفة عن آرائنا ... لكنه ليس مفكراً، إنه فاعل.»<sup>17</sup> إلا أن سانجاي على الرغم من الآراء السياسية التي اعتنقها، وأسلوب القوة الذي استخدمه، وسطوه تدريجياً على منصب إنديرا، وتقويضه لسلطة سكرتاريته؛ ظل الشخص الأهم في حياتها، والشخص الوحيد الذي تثق وتؤمن به. لماذا؟ لم يكن سانجاي لينجح وحده قط في عالم السياسة، شأنه شأن والدته. فباستثناء النسب الذي ورثه عن نهرو وإنديرا، لم يملك أي مقومات سوى الشباب والحيوية والطموح. برع في الخداع والتحايل، إلا أنه لم يكن خارق الذكاء. فقلما قرأ غير مجلات السيارات وكتيبات الآلات. ولم يفهم نظم وآليات الحكم فهمًا حقيقياً. كان يفتقر إلى المهارات الاجتماعية التي يتمتع بها أغلب الساسة. فكان فجاً، ومباشراً، ووقحاً في كلامه، ولم يقيم قط علاقات وجدانية وثيقة مع أبويه أو أخيه أو زوجته. كان أصدقاؤه من المتملقين أو ما يعرف بالهندية بـ «تسامتشناس»، وهي كلمة يشار بها للشخص الذي ينحني للآخرين تزيلاً بالصورة التي تنحني بها رعوس الملاعق بعضها على بعض. وكان متملقو سانجاي مجموعة من أصحاب المستويات التعليمية الضعيفة مثله، منهم ساسة وبعض من رفقاء السوء ورجال العصابات.

كان شعور إنديرا بالوحدة قد تزايد بمر الأعوام، فبادمجا نايدو توفيت. لم تكن بوبول جاياكار — على حد قولها فيما بعد — مقربة إلى إنديرا بالدرجة نفسها. أما دوروثي نورمان فانقطع اتصالها بإنديرا بسبب فرض حالة الطوارئ. عاشت ماري سيتون بمنأى عنها ولم تلقها إلا نادراً. ابن إنديرا الأكبر راجيف لم تكن علاقته بها وثيقة كعلاقتها بسانجاي، فضلاً على أنه بطبيعته لم يكن مهتماً بالسياسة، وإن كان قد أعرب عن عدم ارتياحه للأوضاع في ظل حالة الطوارئ. أما سونيا زوجة راجيف فقد أُغرمت إنديرا بها واعتمدت عليها، ولكنها لم تناقشها في الأمور السياسية، فهي لم تملك خبرة أو تبتد اهتماماً بها. أيضاً بحلول ذلك الوقت كانت إنديرا قد أقصت أغلب أفراد مافيتها الكشميرية، لكن هؤلاء كبي إن هاكسار ودي بي دهار وتي إن كاول لم يكونوا بأية حال من أصدقائها الشخصيين قط.

لا يدع هذا إلا علاقة واحدة وثيقة في حياة إنديرا، ألا وهي علاقتها بابنها الأصغر سانجاي. كانت سيطرة الأخير على والدته واضحة، وقد شعر من عرفوا إنديرا إبان حياة فيروز غاندي أن سيطرته ترجع إلى ارتباطه في ذهنها بفيروز. فمع أن راجيف كان يشبه أبيه جسدياً شبيهاً عجباً، فقد كان هادئ الطباع وخجولاً وغير طموح. من ناحية أخرى كان سانجاي هو من ورث صفات أبيه وطباعه. فأخذ عنه حيويته وطاقته وعناؤه وإصراره على النجاح، إلا أنه افتقر إلى مبادئه وبصيرته السياسية. لقد كان سانجاي بوجه عام صورة من فيروز تجتمع فيها جوانبه المظلمة، وتعظم نقائصه، وتنعدم فضائله. أيضاً كان سانجاي من طراز الرجال الذين انتمى إليهم ماثاي المعشوق المزعوم لإنديرا. فكل من ماثاي وسانجاي كان من الطراز الرجولي المكافح المسيطر المصمم على النجاح. إلا أنهما افتقرا إلى الكياسة التي تمتع بها نهرو، وإلى تمسكه بالقيم.

رأى بي إن دهار أن إنديرا في ردة فعلها إزاء تصريح سانجاي «الشديد الحماسة» لمجلة سيرج كانت «متخوفة نوعاً ما من ابنها» وأن مخاوفها «بلغت على أقل تقدير حد الخوف من إغضابه». لكنه لم يستطع أن يحدد «إن كانت لا تستطيع إيقافه عند حده، أم أنها ببساطة لا تريد ذلك».<sup>18</sup> لم يكن دهار الشخص الوحيد الذي رأى أن إنديرا تخشى سانجاي. فبوبول جاياكار ونايانترا ساهجال بدورهما رأتا ذلك. لم تخش إنديرا إلا القليل من الناس في حياتها. لكن والدها وزوجها قد أربهاها، وإن كانت في أحيان قد تصدت لهما وتحدثهما. سانجاي من ناحية أخرى استطاع أن يبيت الرعب في قلب أمه وأن يجمدها من الخوف، فقد ذكر مراسل صحيفة «واشنطن بوست» لويس سيمونز أن أحد

ضيوف آل غاندي على العشاء في صيف عام ١٩٧٥ روى أنه في وسط مشاجرة ما صفع سانجاي أمه على وجهها ست مرات. ووفقاً لضيف العشاء المجهول «لم تفعل إنديرا شيئاً حيال ذلك، وإنما ظلت في مكانها تتلقى الصفعات، فهي تخشاه كالموت». غير أن أحد أصدقاء آل غاندي نفى صحة تلك القصة قائلاً للكاتب فيد ميهتا: «لا يستطيع حتى إله أن يصفع إنديرا غاندي على وجهها ست مرات».<sup>19</sup>

عجز أغلب الناس، ومنهم من عملوا إلى جانب إنديرا وسانجاي كبي إن هاكسار وبني إن دهار وبني كيه نهرو، عن تفسير خوف إنديرا من ابنها. رأت جاياكار أن لهذا الخوف علاقة باعتراف إنديرا لها بعد وفاة فيروز بأن سانجاي اتهمها بالتسبب في وفاة والده بإهمالها له، وربما شعرت إنديرا في قرارة نفسها أن ذلك صحيح. لقد اختارت قبل عدة أعوام أن تتزوج من فيروز خلافاً لرغبة أبيها، وآثرت أن تضع الحب فوق الطاعة. لكن لما تعثر الزواج، تركت فيروز وعاشت مع أبيها في نهاية الأمر، فلعلها شعرت أن فيروز مات وحيداً فاقد الاتصال بها، مع أنها كانت معه في ساعاته الأخير. من ثم مثلت علاقة إنديرا بفيزوز وسانجاي نقطة ضعف لها طوال حياتها. فحتى في أوائل الثمانينيات بعد وفاتهما كليهما تأملت عندما أحيا الكاتب سلمان رشدي في روايته «أطفال منتصف الليل» اتهام سانجاي لها بأنها كانت السبب في وفاة فيروز. فرفعت دعوى ضده بتهمة الطعن — مع أن الرواية كانت من القصص التخيلي — وانتصرت عليه فيها.<sup>20</sup>

لا شك أن سيطرة سانجاي العاطفية على والدته كانت مصدر قوته. إلا أن أوما فاسوديف ترى أن إنديرا حقيقةً دعمت سانجاي لأن الظروف السياسية كانت مواتية لذلك، وأنها على الرغم من ترديدتها لقيم حزب المؤتمر العريقة صممت نظاماً ومنهجاً من مجموعة من «السياسات المتزامنة». كان من بين تلك السياسات تقسيم المعارضة تزامناً مع تصوير نفسها على أنها «الخيار الذي يرضي الجميع». تعتقد أوما فاسوديف أنه في الوقت الذي ظلت فيه إنديرا تعزز من صورتها كإسارية، استخدمت سانجاي «رمزاً لليمينية». وبذا سيطرا معاً — كما خططت إنديرا — على جميع التيارات السياسية.<sup>21</sup> برز سانجاي بصورة حتمية كوريث إنديرا. ولما كانت حالة الطوارئ قد عملت على التخلص من الديمقراطية وإبدالها بالحكم الوراثي على حد زعم أعداء إنديرا.

في فبراير عام ١٩٧٦، أُرجأت إنديرا الانتخابات العامة التي أوْشك موعدها ومدت حالة الطوارئ. وظلت الديمقراطية معلقة لأن الحكومة — على حد قول إنديرا — احتاجت إلى المزيد من الوقت «لتعزيز المكاسب» التي حققتها من فرض حالة الطوارئ. وبتصويت

أجري في البرلمان جرى مد فترة عمل المجلس الأدنى القائم بمجموع ١٨٠ صوتاً مقابل ٣٤ صوتاً. ولم يعارض تأجيل الانتخابات سوى قليلين أبدوا معارضة غير جادة، منهم بي إن دهار. حاول دهار إقناع إنديرا بأن تجري الانتخابات بدعوى أن حالة الطوارئ أدت إلى عكس المنشود منها، وأنذر بأن مد حالة الطوارئ سيؤدي إلى تفاقم المشكلات الاقتصادية.<sup>22</sup>

لكن إنديرا رفضت نصيحة دهار. ولما كان سانجاي يريد تأجيل الانتخابات إلى أجل غير مسمى، استمرت حالة الطوارئ. وفقاً لمنظمة العفو الدولية، في السنة الأولى من فرض حالة الطوارئ أُلقي القبض على ما يزيد عن ١١٠٠٠٠ شخص، وجرى احتجازهم بدون محاكمة في الهند. احتجز موراجي ديساي وجي بي نارايان — شأنهما شأن غاندي إبان حركة تحرير الهند — في مكان مريح بدرجة لا بأس بها في دار ضيافة. وبعدها بوقت قصير نقل نارايان إلى مستشفى بومباي لتدهور صحته. أما غير ذلك من المعتقلين البارزين فلم يحظوا بالمعاملة نفسها. فعلى سبيل المثال احتجزت أرملة مهراجا ولاية جايبور جاياتري ديف وأرملة مهراجا ولاية جوالبور في سجن طهار في زنانات بجانب مومسات ومرتكبات جرائم. هذا الأمر شكت منه جاياتري ديفي قائلة إنه «يشبه العيش في سوق مع نسوة دائمت الشجار»، ودفعها إلى أن تطلب من صديقة لها سدادات أذن شمعية. نالت جاياتري ديفي إطلاق السراح المشروط بعد أن كاتبت إنديرا تخبرها أنها تتفق تماماً مع برنامج العشرين نقطة الذي وضعت.

أما السجناء العاديون الذين مثلوا الغالبية العظمى فقد مروا بظروف مريعة. ببساطة يعود ذلك في جزء منه إلى أن السجن كانت في غاية الازدحام. ففي سجن طهار على سبيل المثال، احتُجز ٤٠٠٠ سجين في زنانات صُممت لتسع ١٢٠٠ شخص فقط. ولذا لقي اثنان وعشرون من سجناء حالة الطوارئ حتفهم في السجن.

من نقاد إنديرا القلائل الذين نجوا من موجة الاعتقالات التي أجريت في يونيو عام ١٩٧٥ القائد الاشتراكي جورج فرنانديز. لقد اختبأ من السلطات وقاد عمليات تخريب تشبه تلك التي قام بها فيروز غاندي إبان حركة تحرير الهند عام ١٩٤٢. وبقيادته وقعت انفجارات في بعض خطوط السكك الحديدية وبومباي وبهار وكرناتاكا. كانت إنديرا موقنة من أنه وتابعيه يدبرون مؤامرة لاغتيالها. فيذكر أنها قالت لفوري نهرو عندما أُلقت خطاباً عاماً في بيناريس: «فرنانديز كان يعتزم تفجيرني».<sup>23</sup> ولما فشلت الشرطة في تعقب فرنانديز، اعتقلت أخاه لورانس وعذبتة. وفي النهاية أُلقت القبض على جورج فرنانديز وسجنته في كلكتا، وذلك في يونيو عام ١٩٧٦.



إلا أن أكثر ضحايا حالة الطوارئ لم يكونوا من خصوم إنديرا السياسيين، وإنما من الفقراء الذين ادعت أن الغرض من حالة الطوارئ هو مساعدتهم وحمايتهم. فقراء المدن والقرى وأصحاب المهن المتواضعة والمتسولون والمشردون وبسطاء الفلاحين هم الذين تحملوا أشد المعاناة بسبب البرنامجين الأكثر إثارة للمعارضة في خطة الخمس النقاط التي وضعها سانجاي، وهما برنامجا إزالة العشوائيات والتعقيم. فكلتا البرنامجين انحرف تمامًا عن المسار الصحيح.

قبل إعلان حالة الطوارئ، كان سانجاي قد زرع بالفعل اثنتين من أتباعه في منصبين مهمين في سلطات دلهي المدنية. رشح نافين تشاولا صديق سانجاي — وهو مسئول حكومي رفيع المستوى في الخدمة الإدارية الهندية — كيشان تشاند الذي كان رجلاً طبعاً ليكون نائباً لحاكم ولاية دلهي. وبهذا الترشيح أصبح نافين سكرتيراً له ومديرًا من أولي النفوذ لهيئة دلهي للتنمية يديرها حسبما يأمر سانجاي. أما نائب مدير تلك الهيئة، وهو رجل يدعى جاجموهان — لم يكن معروفًا إلا بهذا الاسم — فقد صار قائد ما يعرف بفريق العمليات التابع لسانجاي.

بعكس أغلب معارف سانجاي، كان جاجموهان رجلاً نزيها ومسئولاً حكومياً مجداً ومخلصاً في عمله. ولما كان قد علم نفسه بنفسه — بكل ما في الكلمة من معنى — فقد حاز خبرات فنية عالية في مجال البناء والتخطيط ووضع البنى التحتية للمدن والتخطيط البيئي. وكانت مهمته هي «إنقاذ دلهي»، أو بعبارة أخرى تجديد العاصمة.

جاجموهان كما يبدو أيضاً آمن حقاً بأن سانجاي غاندي هو الشخص الذي ستتحقق على يديه رؤياه لدلهي. فظل إلى يومنا هذا يخلص لسانجاي تمام الإخلاص.<sup>24</sup> في أوائل أبريل عام ١٩٧٦، وقتما كان برنامجا هيئة دلهي للتنمية لإزالة العشوائيات وتجميل البيئة جاريين، سحب جاجموهان سانجاي في جولة تفقدية لدلهي القديمة. كان جزء كبير من تلك المدينة العتيقة متاهة من الأزقة والشوارع المكتظة الضيقة التي تحف جانبيها الأكواخ المؤقتة والمنازل القديمة الآيلة للسقوط. وكان هذا الجزء بأكمله محيطاً مزدحماً وملوثاً وضاراً بالصحة لقاطنيه الذين مثل المسلمون أغلبهم.

أمام مدخل المدينة العتيقة؛ عند بوابة تركمان التي أطلقت على تيه يعج بالمساكن توقف سانجاي وجاجموهان. صاح سانجاي في تحدٍّ سافر: «أريد أن أرى مسجد جاما (الجامع الرئيسي العتيق بالمدينة) من بوابة تركمان.» فقابل جاجموهان تلك الكلمات بما يشبه الترحاب والسمع والطاعة. وعليه وجبت إزالة كل ما يعوق رؤية مسجد جاما من بوابة تركمان.

في غضون أيام من ذلك، أُعلن أنه سيجري ترحيل عشرات الآلاف من تلك المنطقة، وتسكينهم في أراضٍ غير أهلة على بعد عشرين ميلاً على الجانب الآخر من نهر جومنا في ضواحي المدينة. وفي ١٣ أبريل وصلت فرق إزالة المباني بجرافات لتسوية المتاجر والمنازل حسنة البناء والأكواخ المؤقتة والأكشاك أرضاً. وأمهّل أصحاب المحال والتجار وبائعو الأطعمة خمساً وأربعين دقيقة لإخلاء مواقعهم. فيما منح ساكنو المنازل مهلة تزيد قليلاً على ذلك. في ١٩ أبريل بعد ستة أيام من التدمير اندلعت انتفاضة. وسارت النساء في حشد كبير إلى العيادة المحلية لتنظيم الأسرة (وهو برنامج آخر من البرامج المثيرة للمعارضة التي وضعها سانجاي) صارخات بشعارات التهديد. شكّل رجالهن حشداً غاضباً أخذ يقذف الحجارة والطوب والزجاجات الحارقة على فرق إزالة المباني.

وصلت الشرطة سريعاً، وحاولت فض الحشد بالقنابل المسيلة للدموع. فاحتمت النساء والأطفال بالمباني. لكن الرجال والصبية تسلقوا أسقف المنازل وأعلى الجدران وواصلوا قذفهم. وعندئذٍ فتحت الشرطة النيران. تذكر تقارير الشرطة أنها لم تطلق سوى أربع عشرة رصاصة على بوابة تركمان في ١٩ أبريل. أما من شهدوا فيما بعد أمام لجنة شاه (التي تألفت للتحقيق في الاعتداءات التي وقعت إبان حالة الطوارئ) فقد زعموا أن إطلاق النيران تواصل بصورة متقطعة ثلاث ساعات. أُصيب المئات، وقُتل ما بين ستة أشخاص إلى ١٥٠ شخصاً (وفقاً لما إذا كان مصدر معلوماتك تقارير الشرطة الرسمية أم جاجموهان أم تقرير لجنة شاه أم الشائعات أم الصحف العالمية) من بينهم طفل في الثالثة عشرة من العمر قُتل أثناء مشاهدته أعمال الشغب. وعلى أقل تقدير قُتل رجل وهو يولي هارباً. وفيما بعد اكتُشف أن هناك تبايناً صارخاً بين تقارير الشرطة والتقارير الطبية التي صدرت عن الرصاصات التي أُطلقت. وفُرض حظر تجوال مدته أربع وعشرون ساعة على المنطقة بأكملها استمر إلى ١٣ مايو عام ١٩٧٦ للسماح بمواصلة أعمال الإزالة.

وفقاً لجريدة «تايمز أوف إنديا» أُزيل ١٥٠ ألف متجر ومنزل وكوخ مؤقت (يسكنه الفقراء)، وغير ذلك من المباني. كان قاطنوها (الذين يربو عددهم على السبعين ألفاً) قد رُج بهم على عجل في شاحنات تحت تهديد السلاح ثم نُقلوا إلى ديارهم الجديدة في أرض زراعية محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة. مُنحت العائلات خمساً وعشرين ياردة مكعبة وبعض طوب البناء لتشديد مساكن خاصة، وبعض قسائم الطعام لشراء الأغذية من متجر موقع العمران.

بعد عامين نشر جاجموهان كتابًا بعنوان «أرض الحقيقة» عن عمله لدى هيئة دلهي للتنمية إبان حالة الطوارئ، تناول فيه بالتفصيل أعمال الإزالة التي نُفِذَتْ عند بوابة تركمان. قال جاجموهان في دفاعه عن فرق الإزالة: «استُخدمت الجرافات وسيلةً لتوفير الأيدي العاملة وإزالة الأنقاض بسرعة ... وتلك وسيلة شاع استخدامها منذ عقد أو عقدين من الزمان. فضلًا على ذلك، وُفرت وسائل نقل مجانية لحمل أغراض الأسر التي تأثرت بأعمال الإزالة (كما ورد نصًّا). ولم يُقصد بأعمال الإزالة الإيذاء بتاتًا». أما بالنسبة للتوتيرة التي تمت بها أعمال الإزالة، فقد أقر جاجموهان بأنها «تسارعت بلا شك. لكن كانت هناك أسباب منطقية لذلك. وحتى لو لم تكن هناك أسباب، أكان من الخطأ التخلص من مراتع الكسل ومحو «مجالس النميمة» من دواثرنا ورفع سيطرة كابوس عالم الأوراق وزحام الأصوات والفوضى (كما جاء في نص الكتاب) التي لا معنى لها؟»<sup>25</sup>

لم تكن منطقة بوابة تركمان وبعض مناطق دلهي الأخرى المناطق الوحيدة التي خضعت «للتجميل» إبان حالة الطوارئ. فمن المدن التي استهدفها مشروع «إصلاح المدن» مدينة بومباي وأجرا — التي يقع بها ضريح تاج محل — ومدينة فارناسي المقدسة. عندما زارت بوبول جاياكار تلك المدينة الأخيرة اكتشفت ما صدمها؛ الجرافات أفسحت أحد الشوارع في منطقة فيشواناث جالي بإزالة قطاعات من منازل تعود إلى القرن السابع عشر، «تاركة في إثرها غرف استقبال أزيل منها نصف مدخلها، وغرفًا مفتوحة على الطريق ... وشرفات محطمة». التقطت جاياكار صورًا لهذا التدمير الذي «بدا وكأنه نجم عن سقوط قنبلة»، وعرضتها على إنديرا في دلهي. فاستشاطت الأخيرة غضبًا. وهاتفت رئيس حكومة أوتار براديش إن دي تيواري و«انفجرت في وجهه» من مكانها البعيد. نذر تيواري، ووعد بأن يتحرى الأمر، وفي النهاية أخبرها بأن عمليات الإزالة في فارناسي اعتمدت على خريطة غير دقيقة للمدينة عام ١٩٢٠.<sup>26</sup>

ثاني أهم الحملات التي شنتها خطة الخمس النقاط التي وضعها سانجاي كانت تنفيذ برنامج تعقيم راديكالي لوضع حد للانفجار السكاني بالهند. في طفولة إنديرا ظل النمو السكاني في الهند تحت السيطرة بفعل الأمراض والأوبئة ونسب وفيات الأطفال العالية ومواسم الجفاف والفيضانات والزلازل والمجاعات. ففي عام ١٩٢٢ بلغ معدل المواليد ٤٨,١ لكل ألف نسمة، في حين بلغ معدل الوفيات ٤٧,٢. لكن في أوائل السبعينيات، بعد عقود من التقدم في مجال الرعاية الطبية والتغذية، وارتفاع مستوى الوعي الصحي، هبط معدل الوفيات إلى أدنى مستوياته فبلغ ١٧,٤. ومن ثم صار معدل النمو السكاني في الهند ١٢ مليون نسمة سنويًا.

في أواخر الستينيات حاولت الحكومة الحد من الانفجار السكاني. لكنها واجهت عقبات عملية وثقافية في تنفيذ برنامج تنظيم الأسرة. لم تكن حبوب منع الحمل قد توفرت بعد في أنحاء كثيرة من الهند، أما العازل الأنثوي فلم يكن حلاً عملياً لمن يعيشون في جماعات ولا يتمتعون بالخصوصية، فلا بد أن يقدمه ويركبه ممارس طبي. أما اللولب فكانت له في حد ذاته عيوب.

بدا لوهلة أن الواقيات الذكرية هي الحل. يصف دوم موريس في كتابه «مسألة شعبية» كيف أنه في أواخر الستينيات طاف فيل بعض القرى الهندية حاملاً شحنة من الواقيات الذكرية وزعت مجاناً على عامة الناس. وعندئذ اكتشف الأطفال على الفور استخداماً عملياً لها، فنفخوها على هيئة بالونات صغيرة وربطوها بالعصي. كان هناك شعار حكومي رائع آنذاك مفاده أن تنظيم الأسرة هو الطريق إلى سعادة الأطفال، الأمر الذي بدا واضحاً كالشمس من قصة الفيل الذي طاف يوزع الواقيات الذكرية.<sup>27</sup> إلا أن معدل المواليد لم ينخفض بأية حال.

كانت أأمن وأرخص وأكفأ الطرق للسيطرة على التعداد السكاني هي سلب القدرة على الإنجاب، في أغلب الوقت من الرجال (بقطع القناة الدافقة)، وأحياناً من النساء (باستئصال قناة فالوب). جراحة قطع القناة الدافقة أمكن إجراؤها تحت التخدير الموضعي في غضون دقائق، ولم تتطلب فترة نقاهة أو تنجم عنها عادة آثار جانبية. لكن في ثقافة تعتبر خصوبة كل من الرجل والمرأة أمراً حيوياً للإحساس بقيمة الذات، ويعد الأطفال فيها مصدرراً للدخل ووسيلة تضمن الحماية من العوز في الكبر، لم يكن أحدٌ ليرحب ببرنامج التعقيم. لذا كان أي حزب سياسي يتبناه يضع نفسه في موقف حرج.

لكي ينجح برنامج التعقيم كان لا بد أن يفرض من الجهات العليا، ولم يصّر ذلك ممكناً إلا عندما فرضت حالة الطوارئ وعُلِّقت السياسات الديمقراطية. حينذاك انتبه سانجاي — الذي لم يبد من قبل اهتماماً ببرنامج تنظيم الأسرة — سريعاً إلى احتمالية أن يكون هذا البرنامج القضية الرئيسية والهدف الأول «للهند الجديدة». فذاع شعار إعلاني يقول: «امنع الإنجاب وأدخل النظام إلى حياتك.» إلا أن منع الإنجاب لم يكن ليجلب النظام إلى حياة العائلات وحسب، فمن منظور سانجاي، كان دواءً شافياً لجميع أمراض البلاد، ونقله تاريخية لها تغير من شكلها.

في أبريل عام ١٩٧٦، شرعت الحكومة في تنفيذ «سياسة سكانية وطنية» تهدف إلى خفض المعدل السنوي للمواليد من ٣٥ إلى ٢٥ طفلاً لكل ألف نسمة بحلول عام ١٩٨٤.

في صورته الأولى، كان ذلك البرنامج يتكون من مجموعة من الحوافز «والروادع» التي ترمي إلى خفض عدد الأطفال لدى كل أسرة إلى ثلاثة أطفال كحد أقصى. فارتفع السن الأدنى للزواج، وحُرِمَ من امتنعوا عن الخضوع لجراحة تعقيم بعد الطفل الثالث من بعض المزايا كالإسكان المدعم والعناية الطبية المجانية. لكن لما لم تثمر تلك الإجراءات نتائج ملحوظة، حرص سانجاي على أن تُتَّخَذَ إجراءات أشد قسوة.

في الواقع صار برنامج التعقيم الذي وُضع إبان حالة الطوارئ موضع اهتمام سانجاي. حتى إنه هو الذي أداره، لا وزير الصحة كاران سينج، مع أن الأخير كان يجيز ما يقوم به سانجاي. اليوم يؤكد سينج أنه لم تكن لديه إلا فكرة واهية عن الأساليب التي استُخدمت في برنامج سانجاي غاندي لتنظيم الأسرة، وأنه لم يجتمع هو وسانجاي من قبل، ولذلك لم يتناقشا قطعا حول تلك الأساليب.<sup>28</sup> إلا أن بي كيه نهرو يذكر أنه استجوبه عام ١٩٧٦ عن الانتهاكات التي وقعت إبان تنفيذ برنامج التعقيم فأجابه بلا تردد: «لا حصاد بلا ألم».<sup>29</sup> هذا على أن المخيمات التي كانت تجرى فيها جراحات قطع القناة الدافقة، وشاحنات برنامج التعقيم التي جابت القرى لم تكن من صنع سينج، بل سانجاي. وكذا كان جيش «دعاة» برنامج تنظيم الأسرة، والمكافآت التي مُنحت لمن خضعوا لجراحة التعقيم، ونظام الحصص الذي فُرض على الموظفين الحكوميين ليعطوهم إلى دفع عدد معين من الأشخاص إلى الخضوع لجراحة التعقيم كي يتقاضوا رواتبهم.

ألف سانجاي كذلك «فريق عمل» أثار حوله الكثير من الجدل، تكون من فائتات عملن «موظفات في برنامج تحديد النسل» وأدرن سلسلة من عيادات التعقيم في أرجاء دلهي الفقيرة. إحداهن كانت مصممة جواهر من أعضاء المجتمع البارز ترتدي النظارات الشمسية وأثواب الساري من قماش الشيفون، وتضع طلاءً قرمزيًا لامعًا على أظافرها، وطبقة سميكة من الكحل على عينيها تدعى روخسانا سلطانة. لم تكن روخسانا — التي عُرفت لدى الكثيرين بـ «ملكة مدينة الأسوار» — ذات منصب رسمي، إلا أن مظهرها لفت الأنظار في عشوائيات دلهي حيث كانت النساء المسلمات تسرن مستترات من رءوسهن إلى أقدامهن في براقع سوداء. فقد جابت تلك المناطق المكتظة بصحبة أحد رجال الشرطة بمظهر أقرب إلى نجومات أفلام بومباي منه إلى مظهر عاملات الخدمة الاجتماعية، وأشرفت على عيادات جراحة قطع القناة الدافقة في مخيمات نُصبت على عجل على أرصفة الطرق. وأسست فيما بعد في دلهي القديمة عيادتها الخاصة لجراحة قطع القناة الدافقة وأدارتها.

إلا أن أعظم إنجازاتها على الأرجح كان إقناعها لاثنتين من أئمة المسلمين بإجراء جراحة قطع القناة الدافقة. وكان هذا حدثاً استوجب حضور الصحفيين عندما أهداهما سانجاي غاندي شخصياً «بطاقات تشجيعية».

حصل مجري جراحة قطع القناة الدافقة من الأشخاص العاديين عادة على ١٢٠ روبية، أو زجاجة زيت طهي، أو راديو ترانزستور، وهو ما اشتهر بأنه أسوأ المكافآت. لذا كان من الطبيعي أن يكون هناك رجال مجازفون ممن أعييتهم الحاجة يخضعون للجراحة أكثر من مرة للحصول على أكثر من مكافأة. ومن ثم ارتفع متوسط عدد جراحات التعقيم التي تجرى يومياً في دلهي من ٣٣١ جراحة إلى ٥٦٤٤ جراحة، حتى وصل ذروته ٦٠٠٠ جراحة.

لكن الكثير من الرجال في دلهي والقرى الريفية النائية قاوموا جراحة التعقيم. إذ لم تكن الكيفية التي ستؤثر بها الجراحة على القدرة على الإنجاب واضحة. وفوق ذلك، رفض بعض الرجال ببساطة أن يملئ عليهم أحد العدد الذي يجب أن يكون عليه أفراد أسرهم. فبسطاء وفقراء الفلاحين والعمال والمشردون ومتسولو المدن كانوا يرون الأطفال مصدرًا قيمًا للرزق. كانوا يعودون بالدخل من العمل لوالديهم في الحقول، والتسول لهم في الشوارع.

لمواجهة مقاومة هؤلاء، صار الموظفون الحكوميون كرجال الشرطة والمفتشين والأطباء والمعلمين يتقاضون رواتبهم فقط لدى نجاحهم في «تشجيع» عدد معين من الرجال على الخضوع لجراحة قطع القناة الدافقة، أو حث النساء على الخضوع لجراحة استئصال قناة فالوب (الأمر الذي كان يُجرى بصورة أندر). من جديد كان الضحايا الرئيسيون لذلك من الضعفاء والفقراء، خاصة من المسلمين والهاريجانيين وأفراد القبائل. لقد خضع لجراحة التعقيم عام ١٩٧٦ في غضون ستة أشهر من أبريل إلى سبتمبر مليوناً هندي.

أما بالنسبة إلى من لم يشغلوا وظائف حكومية فقد «لاقوا تشجيعاً» على الخضوع لجراحة التعقيم بطرق أخرى. فلدى الخضوع لجراحة التعقيم كان الرجال يُمنَحون شهادة رسمية بذلك. وكان لا بد من إبرازها في العديد من المواقف. فعلى سبيل المثال، عند تجديد رخصة القيادة كان على سائقي عربات الريكاشة أن يبرزوا شهاداتهم. وصارت تلك الشهادة أداة ضرورية في معاملات الحياة اليومية لجميع فئات الشعب، حتى إن مزوروا الشهادات التعليمية عكفوا على المتاجرة فيها بنشاط.

من ناحية أخرى أُرغم البعض — ولم يشجع أو يتقاضَ الرشاوى — على الخضوع لجراحة التعقيم. ففي دلهي وكلكتا وبومباي وغيرها من مدن الهند الآلاف من المشردين الذين يُقدِّرون بعشرات الآلاف ويقطنون الشوارع. لقد اعتُقلوا إبان فرض حالة الطوارئ بتهمة «التبطل» وحُمِلوا إلى معسكرات جراحة التعقيم حيث لم يكن أمامهم خيار سوى الخضوع لجراحة قطع القناة الدافقة.<sup>30</sup>

يقال إنه لما أبلغت فوري نهرو إنديرا بأنه في تشانديجارف — التي تمر بها عائلتها في طريقهم إلى منزلهم الصيفي على تل كاساولي — يخضع الرجال شبابًا وكهولًا لجراحة التعقيم قسرًا. انهارت إنديرا وأخذت تصرخ: «ماذا عساي أن أفعل؟ ماذا عساي أن أفعل؟ إنهم لا يخبرونني بشيء.» لكنها بعدئذٍ تمالكت نفسها وأكدت أن «أغلب تلك الادعاءات أكاذيب».<sup>31</sup>

في الواقع ظلت إنديرا وقتًا طويلًا ترفض رفضًا باتًا تصديق ما يتناهى إليها من قصص عن جراحات التعقيم القسرية الوحشية التي كانت تجرى. وكانت تطلب من «مساعدتها» التحري من تلك القصص، ولما كان هؤلاء يخبرونها بأنها شائعات لا أساس لها من الصحة، كانت تطمئن إلى ذلك. لكن لما لفت بي إن دهار انتباهها إلى حادثة إجراء جراحة تعقيم قسرًا لمعلم مدرسي قروي، سافر بطريقة ما إلى دلهي ونجح في الوصول إلى مقر عمل دهار بمكتبها في شارع أكبر رود، تحركت أخيرًا. صُدمت من التفاصيل التي سردها المعلم المدرسي. كما صُدمت من الشواهد القاطعة التي قدمها لها دهار كدليل على تعرض معلمين مدرسين آخرين للتحرش جسديًا لدى فشلهم في تخريج عدد كافٍ من المتطوعين لإجراء جراحة قطع القناة الدافقة. وإزاء ذلك اعترفت لدهار بأن الشك ظل يساورها حيال برنامج تنظيم الأسرة بعض الوقت، لكنها لم تجد دليلًا قاطعًا تستند إليه لما أكد لها تابعو سانجاي أن البلاغات التي أثارت شكوكها كاذبة. إلا أنها بعدما تأكدت شكوكها بعثت بعد تأخير رسالة صارمة لجميع رؤساء حكومات الولايات تنص على «معاينة من يستخدم التحرش في الدعوة إلى تنظيم الأسرة».<sup>32</sup>

في الأشهر الخمس الأولى من حالة الطوارئ، جرى تعقيم ٣,٧ مليون هندي. ومع انتهائها كانت الهند في طريقها إلى تحقيق هدف تعقيم ٢٣ مليون شخص قبل ثلاثة أعوام، أي قبل الموعد. واتضح أن برنامج التعقيم لم يضر فقط بضحاياه، وإنما بإنديرا أيضًا. فقد حطم مصداقيتها لدى أكبر مؤيديها وهم الأقليات من المسلمين والهاريجانيين والطوائف التي تعاني القمع.

في تلك الأثناء تعاضمت مكانة سانجاي، وبدأت تغطي على مكانة والدته. ففي أغسطس عام ١٩٧٦ ظهرت صورته على عدد يوم الاستقلال لمجلة «الإسترايتد ويكلي» التي تولى رئاسة تحريرها وإجراء المقابلة الصحفية لقصة غلافها مع سانجاي الصحفي المشهور خوشوانت سينج الذي أيد بحماس فرض حالة الطوارئ. ووصف سانجاي بأنه «أمل المستقبل» وبأنه «شاب شديد الوسامة»، «عيناه شديدتا الدكنة يملؤهما الصدق». لكن مع ذلك كانت مقابله مع سانجاي — على حد وصفه هو نفسه — «فاشلة»:

«هل تذكر جدك؟ ... هل كانت علاقتك وثيقة به؟»

«كعلاقة أي شخص آخر بجده..»

«هل كان له تأثير على تفكيرك من أي ناحية؟»

«لا أذكر ناحية بعينها كان فيها مؤثراً عليّ.»

«ماذا عن والدك؟ هل كنت على علاقة وثيقة به؟»

«أجل، كما هي العلاقة بين أي ابن وأبيه.»

«أظن أن الأمر نفسه مع أمك وأخيك؟»

«أجل، علاقتي بهما لا تختلف عن علاقة أي شخص بأمه وأخيه.»

«ماذا عن الكتب؟ هل هناك أي كتاب أثر عليك بوجه خاص؟»

«لا أذكر أي كتاب كان له ذلك التأثير.»

«في أي المجالات تفضل أن تقرأ؟ الشعر؟ الأدب القصصي؟ التاريخ؟ سير الأعلام؟»

«ليس في أي من تلك المجالات..»

«ما هو شعورك حيال التعديلات المقترح إجراؤها للدستور؟»

«لست على دراية كافية بالدستور.»

لم يكن سانجاي مستعداً لأن يطلق لسانه في الحديث عندما حاول سينج أن يسأله عن دوره في تحديد السياسات الحكومية، والتأمين، والطرق التي اتبعتها حزب المؤتمر في جمع التبرعات.<sup>33</sup>

إلا أن مقابلة خوشوانت الصحفية مع سانجاي عكست على سخافتها الهوس الإعلامي المتزايد الذي أحاط بسانجاي. فبعد تلك المقابلة بوقت قصير، الكثير من المجلات الأسبوعية الواسعة التداول من المجلات الصادرة بالإنجليزية كمجلة «بليتز» و«كارانت» جعلت سانجاي قصة الغلاف. ومن بين الخمس المجلات القومية الصادرة باللغة الإنجليزية في الهند؛ انتقدت مجلة «إنديان إكسبريس» وحدها سانجاي والحكومة وحالة الطوارئ. أما مجلة «تايمز أوف إنديا» فقد صارت في وقت قصير تعرف بمجلة «تايمز أوف إنديرا».



إلى حد كبير كان كل ذلك من تدبير في سي شو كلا وزير الإذاعة والإعلام الذي حل محل آي كيه جوجرال. فمنذ بداية حالة الطوارئ أدار شو كلا — بكل ما تحمله الكلمة معنًى — منظومة دعائية لإنديرا وسانجاي راقبت وأشرفت على جميع وسائل الإعلام. فقد حرص شو كلا على أن تسيطر الأنباء «الإيجابية» على عناوين الصحف، وتلك البشائر كانت على الدوام تدور حول أفعال وأقوال رئيسة الوزراء وابنها.

على سبيل المثال كانت وزارة شو كلا وراء إذاعة ما لا يقل عن ١٩٢ خبراً عن سانجاي في النشرات الرئيسية لإذاعة راديو كل الهند التي تملكها الدولة في أول أسبوعين من فرض حالة الطوارئ. امتلأت الصحف بعناوين كالاتية: «سانجاي يجتاح كانبور»، «سانجاي وشباب المؤتمر»، «سانجاي في دلهي»، «سانجاي في جولة»، «برنامج الخمس النقاط لسانجاي». على حد تعبير السياسي إل كيه أدفاني عدو إنديرا الأزلي، كان الصحفيون إبان حالة الطوارئ «يسجدون مع أن كل ما طلب منهم هو أن يوافقوا بالموافقة».<sup>34</sup>

كذلك أشرف في سي شو كلا على احتفالية عام ١٩٧٦ بمرور السنة الأولى من حالة الطوارئ التي أقيمت تحت اسم «عام تحقيق الغايات»، وتضمنت العديد من الأنشطة من بينها فيلم وثائقي يدعى «يوم مع رئيسة الوزراء». ونظم احتفالية تكريم لإنديرا بمناسبة مرور عشرة أعوام على توليها رئاسة الوزراء أقيمت تحت عنوان «عقد من الازدهار». ونُشر آنذاك أيضاً كتاب من مقالات المديح بعنوان «عقد من الإنجازات من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٥»، وصُمم معرض بالعنوان نفسه. ويذكر أنه في واحدة من الحفلات الرسمية الكثيرة التي نُظمت إحياءً لذكرى عقد إنديرا الحافل بالأمجاد؛ زعم شو كلا أن إنديرا حققت للهند في العشرة الأعوام التي تولت رئاسة الوزراء فيها أكثر مما تحقّق في الألف عام السابقة.

في نوفمبر عام ١٩٧٦، أُجلت إنديرا الانتخابات العامة مجدداً، عامّاً كاملاً هذه المرة. وهذا التأجيل شأنه شأن الذي سبقه في فبراير ثبت أنه استراتيجية خاطئة. لو أجرت إنديرا الانتخابات في موعدها في أوائل عام ١٩٦٧ وقتما كان لحالة الطوارئ الكثير من المؤيدين، لكانت على الأرجح ضمنت الفوز لها ولحزبها. وكان هذا الفوز سيضفي شرعية على حالة الطوارئ والقوانين القاسية والقرارات والتعديلات الدستورية التي نُفذت باسمها. إلا أن سانجاي لم يقنعها بأن ترجئ الانتخابات مرة واحدة وحسب، وإنما مرتين. بل لم يكن لدى المقربين منه شك في أنه يعتزم تأجيلها إلى أجل غير مسمى.

لكن وفقاً لبي إن دهار، «لم تشعر إنديرا بالارتياح حيال تأجيل الانتخابات في المرة الثانية ... لقد شعرت أنه أعطى انطباعاً خاطئاً بأنها تخشى مواجهة الشعب». فلما حثها

دهار من جديد على إجراء الانتخابات، شعرت «بالحنين إلى مشاعر الشعب تجاهها إبان حملة عام ١٩٧١ الانتخابية، واشتاشت لسماع تصفيق الجموع. لقد أرادت أن تستعيد القدرة على التواصل مع الشعب عاطفياً».<sup>35</sup>

وهكذا أُحبطت مخططات سانجاي. وفي ١٨ يناير عام ١٩٧٧ اتخذت إنديرا اتجاهها مغايراً، فوقفت في وجه سانجاي، وأذهلت الأمة بإعلان إجراء الانتخابات العامة لا في نوفمبر القادم كما أعلنت مسبقاً، وإنما بعد شهرين فقط. قالت إنديرا لدى إذاعة الإعلان: «الانتخابات جميعها اختبار لصدق الإيمان، وفرصة لتنقية الحياة العامة من الاضطرابات. لذا لنمض إلى الانتخابات عازمين على تأكيد سلطة الشعب.»

لم تستثّر إنديرا سوى دهار وسانجاي في قرارها بالإسراع بعقد الانتخابات. لذا لسوء الحظ لم ترو أو تدون المواجهة الحاسمة التي وقعت بينها وبين ابنها. فمجلس الوزراء ورؤساء الحكومات ووزير الداخلية وحتى الرئيس فخر الدين علي أحمد لم يُبلغوا بقرارها؛ لقد أذهلهم القرار جميعاً بقدر ما أذهل سائر الأمة. كان ذلك القرار خطوة جريئة غلّبت فيها إنديرا للمرة الأولى سلطتها على سلطة سانجاي. بل تحدته بعدها ثانية بأن أمرت بإطلاق سراح أغلب المعتقلين السياسيين المشهورين، وأوقفت العمل بالقواعد الرقابية في الصحف.

أصاب المقربين من إنديرا الذهول لما دعت إلى عقد الانتخابات. وأنداك وفيما بعد شاع أنها قامت بذلك لأن تقارير أجهزة المخابرات أكدت لها أنها ستفوز باكتساح. غير أن بوبول جاياكار علمت فيما بعد من رئيس جهاز المخابرات آر إن كاو أنه أخبر إنديرا بأنه ثمة احتمال لأن تخسر إن أطلقت سراح المعارضين. بل إن إنديرا نفسها قالت لأحد الصحفيين بعد عدة أعوام: «لم أكن واثقة من الفوز على الإطلاق. بل كنت متأكدة أننا لن نفوز بأغلبية كبيرة. ولكنني ظننت أن بإمكاننا أن نفوز وحسب».<sup>36</sup>

ربما ساورت إنديرا الشكوك فعلياً حيال مشروعية تمديد حالة الطوارئ والاستمرار في انتهاك الدستور وتدمير النموذج الحكومي الذي كرس والدها حياته لبنائه. فلم يكن فرض حالة الطوارئ في نظرها إلا وسيلة تصل بها إلى غاياتها، لكنها لم تكن بوتو أو مجيب الرحمن. فمع كل نقائصها، وإيمانها غير المنطقي بأنها وحدها القادرة على قيادة الهند، ظلت إلى حد ما مخلصه للديمقراطية. الاتهام الذي يليق بها هو الغرور لا جنون العظمة.

كذلك كان من الحكمة إعلان إجراء الانتخابات في ذلك الوقت. فقوى المعارضة كان قد أصابها الضعف والانقسام. وأمضى الكثير من قادتها العاملين السابقين في السجن

فأسكتت أحزابهم، ونفدت أموالهم. هذا فضلاً على أن حركة جي بي نارايان تكوّنت من مجموعة من الأحزاب المتنازعة ضمت اشتراكيي الجناح اليساري والهندوس المتعصبين المتطرفين والرأسماليين اليمينيين. بالإضافة إلى ذلك لم تمنح إنديرا هؤلاء سوى شهرين للاستعداد للانتخابات.

في الأسابيع الأولى من عام ١٩٧٧ أدارت إنديرا الحملات الانتخابية بعزم ونشاط. فازرت جميع ولايات الهند الاثنتين والعشرين وخطبت في ٢٢٤ اجتماعاً عاماً. لكن الحشود التي اجتمعت لسماع خطاباتها كانت أصغر بالمقارنة بتلك التي احتشدت في حملاتها الانتخابية السابقة، وفي الكثير من الأحيان عدائية. في أحد الاحتشادات التي شهدها مارك تولي، وقفت بعض النساء مولات ظهورهن لها. الأمر الذي أحنقها. فتركت المنصة، فشعر رجال الأمن بالخطر، ثم نزلت إلى الصفوف الأمامية وحاولت بنفسها أن تدير ظهور النساء إليها.<sup>37</sup>

إبان تلك الحملة، كثيراً ما شعرت إنديرا بالمرض؛ فقد ظهرت بعض البثور على وجهها، وشعرت بالألم، وأصيبت بالحمى. إلا أن ذلك لم يوهن عزميتها، لكنها اضطرت في بعض الأحيان إلى تغطية نصف وجهها كي تخفي بثور القوباء التي ظهرت عليه. في أول فبراير، في منتصف حملة إنديرا الانتخابية، توفي الرئيس فخر الدين علي أحمد فجأة. وسرت شائعات بأنه أصيب بأزمة قلبية إثر مناقشة حادة مع إنديرا طلبت فيها منه أن يلغي الانتخابات القادمة. غير أن فخر الدين علي أحمد كان قد سبقت له الإصابة بالآزمات القلبية، وليس هناك دليل على أن إنديرا طلبت منه تأجيل الانتخابات.

في اليوم التالي لوفاة فخر الدين علي أحمد، تلقت إنديرا صدمة جديدة. فقد استقال جاجيفان رام وزير الري والزراعة الهاريجاني من مجلس الوزراء، وهو رجل من أولي النفوذ، وانشق عن حزب المؤتمر ليؤسس حزباً جديداً هو حزب المؤتمر الديمقراطي الذي انضم فوراً إلى جبهة حزب جاناتا. كانت تلك خطوة انتهازية من رام الذي رأى أن كفة إنديرا ستكون الخاسرة في هذه الانتخابات. فشعر أن فرصته قد حانت وخطط للاستيلاء على السلطة. ولدى إعلانه استقالته أدان إنديرا ليبدو في موقع أفضل منها من الناحية الأخلاقية، وشجب حالة الطوارئ. ودعا في مؤتمر صحفي زملاءه في حزب المؤتمر إلى الانضمام إليه في حركته للقضاء على «التوجهات الديكتاتورية الاستبدادية ... في سياسة الأمة». وكتب في خطاب استقالته لإنديرا يقول: «لعل في الانتخابات العامة القادمة فرصة لمنع انقلاب المبادئ التي تعزز بها الأمة، وتصحيح الأوضاع غير المشروعة التي سادت حياة الأمة».

علناً ردت إنديرا على خطاب رام قائلة: «من الغريب أن تطلق تلك الاتهامات التي لا أساس لها من الصحة الآن بعد أن ظللت صامتاً كل تلك الشهور».<sup>38</sup> وقالت فيما بعد لما انفردت بأصدقائها إن جاجيفان رام لم يرد إلا أن يكون هو نفسه رئيس الوزراء، وإنه يحسب أن حزب جاناتا سيتيح له ذلك بمنتهى السهولة.

تبع عدد كبير من أعضاء المؤتمر رام، ومن بينهم باهوجونا رئيس حكومة أوتار براديش السابق. والأدهى أنه كان من بينهم عمدة إنديرا فيجايا لاکشمي بانديت. فبعد عشرة أيام من انقلاب رام على حزب المؤتمر، عادت الأخيرة من اعتزالها للحياة السياسية، وبدورها أعلنت بمسرحية تأييدها لجبهة حزب جاناتا. ألقت خطاباً عاماً قالت فيه إن إنديرا وحالة الطوارئ قد «كبتا ودمرا النظم الديمقراطية، وقوضا حكم القانون واستقلالية السلطة القضائية». وأضافت أن ذلك الشكل من «تفكيك المبادئ التي نعتز بها لا بد أن يتوقف كي نعود للقيم التي نلتزم بها».<sup>39</sup> ما لم تذكره السيدة بانديت هو أنها كانت تأمل في العودة إلى الحياة السياسية بعد هزيمة إنديرا. في الواقع لقد بدا أنها عقدت آمالها على أن تنصب من قبل رئيس وزراء يبرز من حزب جاناتا — على الأرجح كان سيصبح موراجي ديساي — رئيسة للهند.<sup>40</sup>

لما تزايدت قوة المعارضة، حث سانجاي والدته على إلغاء الانتخابات، لكن نصيحته ذهبت بلا طائل. من ناحية أخرى، في تلك الأثناء، في باكستان، في ٧ مارس عام ١٩٧٧، عُقدت انتخابات عامة. فاز فيها حزب ذي الفقار علي بوتو (حزب الشعب الباكستاني) فوزاً ساحقاً، على أن ذلك كان بتزوير الانتخابات بحيث تضمن النتيجة. ووفقاً لكاتب سيرة ذي الفقار علي بوتو «في ذلك «النصر» المبالغ كانت تكمن هزيمة ساحقة تعد الساعات لتهبط على الرؤوس».<sup>41</sup> ففي أعقابها اندلعت أعمال الشغب في جميع أنحاء باكستان، ولم تكن هذه إلا البداية.

عندما أدرك سانجاي أن الانتخابات الهندية ستضي في طريقها، تقدم لأول مرة لعضوية البرلمان من مدخل «مضمون»؛ عن طريق دائرة أميثي في ولاية أوتار براديش المجاورة لدائرة راي باريلي التي تمثلها إنديرا. فدائرة أميثي شأنها شأن دائرة راي باريلي كانت تعتبر معقلاً لحزب المؤتمر؛ إذ إن ولاية أوتار براديش بأسرها كانت منذ القديم قاعدة سياسية عريقة لآل نهرو وغاندي. وعليه أدار سانجاي الحملات الانتخابية هناك بنشاط، ولكنه بحماقة قاتلة روج «لمكاسب» برنامج التعقيم الذي وضعه، وأثار بغض أغلب الناس. فيذكر أن زوجته مانيكا أثناء إلقاءها خطاباً في أحد حفلات الاستقبال

الرسمية هاجمها شفهيًا بعض النساء الغاضبات اللاتي اتهمن سانجاي بأنه جعل منهن أرامل لأن أزواجهن بسبب برنامج التعقيم «لم يعودوا رجالاً».<sup>42</sup>

في ١٤ مارس عام ١٩٧٧، قبل يومين من بدء الانتخابات العامة، في قرابة التاسعة والنصف مساءً، أنهى سانجاي يومًا طويلًا من الحملات الانتخابية في أميثي وغادر لينضم إلى مانيكا في جاوريانج التي تقع على مسيرة ساعة قيادة للسيارة. وفي نحو العاشرة، أُطلق على سيارة الجيب التي تقله وابل من الرصاص استطاعت السيارة النفاذ منه بأمان. تصادف أن سانجاي — الذي كان يجلس في المقعد الأمامي إلى جانب السائق — كان مائلًا بجسده إلى الورا يتحدث إلى أحد مساعديه في المقعد الخلفي وقتما أصابت الرصاصات السيارة، فأقلت منها. هرب محاولو الاغتيال بسيارتهم. وأبلغ سانجاي الشرطة بتعرضه لمحاولة اغتيال بمجرد وصوله إلى جاوريانج. وفي اليوم التالي في باتنا عاصمة ولاية بهار، أصدرت إنديرا بيانًا جاء هادئًا بصورة غريبة قالت فيه: «كنت دائمًا ضد العنف، وأنا أشجب تلك المحاولة».<sup>43</sup>

مع أن محاولة اغتيال سانجاي كانت حدثًا في غاية الأهمية، فالمذهل أنها لم تحظَ إلا بالقليل من التغطية الإعلامية. ولم يكن هناك مفر من الشك في صحتها. فمنفذو محاولة الاغتيال لم يُقبضَ عليهم قط، ولم تُنشر قط أي تقارير للتحقيق في تلك المحاولة. وفوق ذلك وقع الهجوم على سانجاي قبل بدء الاقتراع بيومين فقط عندما أدرك سانجاي في وقت متأخر من الانتخابات أن الناخبين ثائرون عليه بسبب برنامج التعقيم. هذا غير أن رد فعل إنديرا الهادئ على تلك المحاولة كان غريبًا. لعلها شكت في أن سانجاي دبر بنفسه مسرحية يبدو فيها أنه نجا من الموت بأعجوبة. ولكن حتى لو كانت تلك الحادثة زائفة، فقد كانت أيضًا غير مجدية. فقد فشلت فشلًا ذريعًا في أن تكسب سانجاي تعاطف الناخبين.

في ١٦ مارس عام ١٩٧٧، بدأت انتخابات الهند العامة السادسة. وحينذاك طبع حزب المؤتمر رمزًا جديدًا له على شكل بقرة وصغيرها على أوراق الاقتراع، الأمر الذي رأى الكثيرون أنه غير موفق نظرًا لتأثير سانجاي الشديد على أمه.

بعد خمسة أيام من إحصاء الأصوات، تبين أن ٦٠٪ من الناخبين (ما يقدر بنحو ١٩٤ مليون شخص) أدلوا بأصواتهم. (من جديد كانت تلك أكبر انتخابات ديمقراطية في التاريخ، بالضبط كما كانت الانتخابات الهندية السابقة واللاحقة، وذلك لسبب بسيط هو أن الهند كانت ولا تزال أكبر ديمقراطية في العالم). حاز حزب جاناتا نسبة هائلة من

أصوات الناخبين بلغت ٤٠٪، في حين بلغت نسبة حزب المؤتمر منها ٣٥٪. وفوق ذلك فاز حزب جاناتا (الذي يضم حزب المؤتمر الديمقراطي لجاجيفان رام) بـ ٢٩٩ مقعداً في المجلس الأدنى من البرلمان، فيما فاز المؤتمر بـ ١٥٣ مقعداً فقط. أما الحزب الشيوعي الهندي فقد تخلّى عن حزب المؤتمر، واحتل مع بعض من الأحزاب المحلية الصغرى المقاعد المتبقية.

فضلاً على ذلك هُزمت إنديرا هزيمة مذلة في دائرة راي باريلي من خصمها السابق راج ناراین، وهزم سانجاي أيضاً في أميئي. وفشل حزب المؤتمر في الفوز بمقعد واحد في قاعدة دعم آل نهرو السابقة ولاية أوتار براديش. كما مني معظم أتباع إنديرا في المجلس الوزاري والبرلمان بهزيمة منكرة.

في ليلة ٢٠ مارس غمرت الفرحة الهند كما لم يحدث منذ عشية الاستقلال من الاستعمار البريطاني قبل ثلاثين عاماً. ولوقت طويل من الليل دقت الطبول، ورقص الناس في الشوارع، وأُنارت الألعاب النارية السماء احتفالاً بسقوط إنديرا. وقدمت بوبول جاياكار لزيارتها في الثامنة مساءً. فقد خيم الصمت والسكون على غير العادة، واختفت الجلبة والجموع التي اعتادت أن تملأ المكان؛ كانت إنديرا تجلس وحدها في غرفة الجلوس. فلما دخلت عليها جاياكار نهضت تقول: «بوبول، لقد خسرت!» وجلست الاثنتان صامتتين بعض الوقت.

ثم في آخر الأمر، في العاشرة والنصف مساءً، طلبت إنديرا العشاء، واستدعت راجيف وسونيا. كان سانجاي لا يزال في أميئي. وبعد تناول العشاء، ذهب الجميع إلى غرفة الجلوس. استأذنت جاياكار في الرحيل بعد منتصف الليل. وصحبها راجيف إلى باب المنزل حيث قال لها: «لن أغفر لسانجاي أبداً أن أدى بأمي إلى هذا الموقف»<sup>44</sup>

في أواسط الليل اجتمعت إنديرا بمجلسها الوزاري في مكتبها بشارع أكبر رود. كان قد مر واحد وعشرون شهراً على عقد الاجتماع الذي أعلنت فيه حالة الطوارئ. وكان هذا الاجتماع الذي عُقد لإلغائها قصيراً وشكلياً كسابقه، غير أن إنديرا هذه المرة استشارت مجلس الوزراء قبل أن تلجأ للرئيس. وبعدها في الرابعة صباحاً، أقلتها سيارة إلى منزل الرئيس المؤقت بي دي جاتي حيث أمرته بإنهاء حالة الطوارئ. ثم قدمت استقالتها. ووجدت إنديرا غاندي نفسها للمرة الأولى في حياتها بلا عمل أو دخل أو منزل يُؤويها وهي في التاسعة والخمسين من العمر.

## الفصل الثامن عشر

### ضغط

كانت إنديرا في أمس الحاجة إلى بيت يُؤويها هي وأسرتها. كانت قد عاشت في شارع سافدار جانج رود ثلاثة عشر عامًا منذ تنصيب شاستري لها وزيرة للإعلام والإذاعة عام ١٩٦٤. لكنها اضطرت لدى خروجها من السلطة إلى إخلاء مسكنها الحكومي. وترك نهرو لإنديرا منزل العائلة؛ منزل آناند بهافان الكائن في الله آباد. لكنها وهبت منزل آناند بهافان للأمة في عام ١٩٧٠، فصار شأنه شأن منزل تين مورتى متحفًا. لكن حتى لو ظل ذلك المنزل ملكًا لها، لم تكن لتستطيع تحمل تكاليف الإنفاق عليه وإدارة شؤونه.

كانت لا تزال تملك الأرض التي اشتراها فيروز عام ١٩٥٩ في مهروال. بدأ راجيف بما ادخره من مال في بناء منزل للعائلة هناك، لكن أمواله نفدت في مسعاه إلى ذلك، وظل المنزل نصف مبنٍ. لكن إنديرا لم تردّ اعتزال الحياة بالذهاب إلى الريف. وقبل وفاة والدها بوقت قصير كانت تتمنى مغادرة الهند، واعتزال الحياة السياسية، وشراء شقة في لندن للإقامة خارج البلاد. وفي عام ١٩٧٧، بعد هزيمتها الانتخابية المخزية، لم تفكر في الانسحاب من الحياة العامة وإن فكرت في الذهاب في إجازة إلى كشمير. كانت لا تنتوي فحسب الإقامة في الهند، وإنما في نيودلهي، العاصمة التي تصنع فيها القرارات.

ولكن أين كانت ستسكن هي وعائلتها؟ أنقذها محمد يونس صديق عائلتها القديم؛ فأخلى لها منزله في العقار رقم ١٢ بشارع ويلينجدون كريسينت. تزوج سانجاي بمانكا قبل ثلاثة أعوام. ولما كان ذلك المنزل أصغر من منزل شارع سافدار جانج رود (الذي جرى توسيعه ليسع راجيف وسانجاي وعائلتهما). أجبرت ممتلكات ثلاثة عشر عامًا وأغراض خمسة أشخاص بالغين، وطفلين صغيرين وخمسة كلاب وصناديق وكتب وأوراق على التزاحم في مساحته الضيقة.

بالإضافة إلى منزلها الحكومي، فقدت إنديرا مع خروجها من السلطة موظفيها، وسكرتيرها، ومساعدتها، وخدم بيتها. فمساعدتها يوشا بهاجات التي خدمتها طويلاً كانت تشعر بعدم الارتياح حيال العمل لديها منذ أن فرضت حالة الطوارئ. لذا تركته آنذاك بلا عناء، أما آر كيه دهاوان سكرتيرها الشخصي، فلم يتزعزع ولاؤه لها، وظل يعمل لديها بلا أي أجر.<sup>1</sup> وتولت سونيا غاندي الطهو والتسوق وأغلب أعمال إدارة المنزل، وشاركتها بالطبع إنديرا. لم تقم مانिका بشيء على الإطلاق.<sup>2</sup>

في ٢٣ مارس عام ١٩٧٧، أدى مورارجي ديساي قسم اليمين كرئيس الوزراء الرابع للهند، والأول لها من حزب غير المؤتمر. وكان مورارجي قد انتظر ثلاثة عشر عاماً لبلوغ السلطة بعدما اقترب منها عامي ١٩٦٤ و١٩٦٧. فلما أدركها أخيراً في الواحدة والثمانين من العمر، عقد العزم على إذلال إنديرا واغتصاب عرشها. فأصر على الانتقال إلى منزلها، مع أنه لم يكن المقر الرسمي لرئيس الوزراء، بل منزل حكومي عادي من تلك التي تمنح لكبار المسؤولين الحكوميين وأعضاء البرلمان. واحتله مع أسرته في عجلة لا تتناسب مع ما يقتضيه الذوق، ولم يغير فيه شيئاً سوى أن تخلص من حمامه الذي أقيم على النمط الغربي، وأبدله بحمام هندي، ومنطقة للاستحمام بالدلاء.

لكن لم يتوقف إذلال ديساي لإنديرا عند حد الاستيلاء على منزلها. فمع أنه كان يحق لإنديرا التمتع بالحراسة الأمنية المتواصلة، باعتبارها رئيسة وزراء سابقة، صمم ديساي على خفض تلك الحراسة إلى أدنى درجاتها. انتظر دهار استبدال ديساي له ليقدم استقالته. وفي تلك الأثناء، استدعاه الأخير وشكا له من أن إنديرا لديها الكثير من رجال الأمن. وسأله: «مّم تخاف؟» مضيفاً: «لا يصح أن يكون رجال الشرطة المحيطين بها بهذه الكثرة.» فلما جعل دهار يوضح له أن الحراسة الأمنية الموكلة لإنديرا «شدت بناءً على مناخ المعاداة القائم ضدها هي وسانجاي» قاطعه قائلاً: «لا، إنما غرورها هو السبب.» ومضى في الحديث عن النساء في السلطة بصفة عامة، بداية من كليوباترا إلى كاترين الكبرى حتى الحاضر. وأوضح كيف أنهن — في رأيه — لم يتسمن جميعاً بالغرور وحسب، وإنما أيضاً أدّين إلى الكوارث في حكمهن.<sup>3</sup>

كان وضع إنديرا على الصعيد المادي والسياسي والعاطفي حرجاً. فلم يكن لديها مصدر دخل، ولم تملك آنذاك سوى القليل من الموارد المالية. ومع أن محمد يونس قد وفر لها سكناً، فقد ظل عليها أن تطعم أسرته وتنفق عليها. وسانجاي لم يقدم لها أي مبلغ من المال. فهو لم يصارحها قط بأحواله المادية، وحينئذٍ لم يعرض عليها المساعدة. كانت تعلم أنه جنى بعض المكاسب إبان حالة الطوارئ، لكنها لم تطلب منه المساعدة.<sup>4</sup>



الأموال التي اعتمدت عليها إنديرا في العيش جاءت بصورة غير ثابتة وغير منتظمة من عدة مصادر. فمع أن عدد أصدقائها من الأثرياء وذوي النفوذ انخفض سريعاً عقب خسارتها في انتخابات عام ١٩٧٧، فإن الكثير من رجال الصناعة في دلهي وخارجها لم يتخلوا عنها. وكان أحد هؤلاء شاباً وصديقاً مقرباً لسانجاي يملك شركة للمشروبات غير الكحولية في دلهي. وعلى مدى السنوات الثلاث التالية، تولى مع بعض من أصدقاء إنديرا من رجال الأعمال الإنفاق عليها على أساس أن إخلاصهم لها سيُكافأ إن عادت إلى السلطة.<sup>5</sup> لكن لا يعني هذا أن أحداً — وفي ذلك إنديرا نفسها — توقع ذلك. فعندما حاول أرونا أساف علي صديق عائلة نهرو القديم أن يجدد ثققتها في أن الشعب «سيعيدها بلا شك إلى السلطة»، قالت في يأس: «متى؟ بعدما أموت؟»<sup>6</sup>

وعد حزب جاناتا بإصلاح الفساد الذي أصاب الأمة إبان حالة الطوارئ. والحق أن حكومته ألغت بالفعل بعضاً من التعديلات الدستورية والقرارات التي أُقرت خلال العامين الماضيين. إلا أنها كانت حكومة تضم العديد من الشيع، والكثير من الطامحين في الوصول إلى منصب رئيس الوزراء، وقد عكف هؤلاء على التنافس على الوصول إلى السلطة، وهذا منع من تأديتها لوظائفها على الوجه المناسب. فقد أبقى صراع الأيديولوجيات والطموح على انقسام حزب جاناتا.

ذكر وزير الخارجية الهندي الجديد إيه بي فاجباي أن حزب جاناتا «سيُودع إنديرا غاندي مزبلة التاريخ»، إلا أنه بدلاً من تناسيها بأي حال من الأحوال، جعلها القضية التي يجتمع عليها. فأعضاؤه على اختلافاتهم كديساي وجاجيفان رام وفاجباي وتشاران سينج لم يتفقوا إلا على ضرورة الإيقاع بها، وتقديمها هي وابنها سانجاي إلى العدالة. وبدلاً من التباحث في أمر الهند، ركز الحزب على التباحث في أمر إنديرا.

عكف حزب جاناتا فور صعوده إلى السلطة على أجندة ضغط. فأخذ مكتب الاستخبارات المركزية يراقب جميع تحركات إنديرا وسانجاي وراجيف وسونيا ومانيك، ويتنصت على مكالماتهم الهاتفية. وشن حملة مفاجئة بأجهزة الكشف عن المعادن على مزرعة إنديرا نصف المبنية بمهروالي في محاولة عبثية للعثور على ما دفنه سانجاي مما نهبه من أموال. كما حاول قسم ضريبة الدخل بلا طائل اتهام راجيف بالتهرب الضريبي.<sup>7</sup> وحُجز على جميع جوازات سفر العائلة لما يبدو أنه اعتقاد من حزب جاناتا بمحاولتها الهرب من البلاد. وأُلغيت رخصة الطيران الخاصة بسانجاي لمنعه من الهروب بإنديرا إلى مكان آمن في طائرتها السييسنا.

كتبت إنديرا إلى فوري نهرو تصف «الزعة الانتقامية» التي تتسم بها حكومة حزب جاناتا، وكيف أن «تابعي انقلبوا عليّ للنجاة بأنفسهم، ودارت قصص لا أساس لها من المنطق عن سانجاي ... واتهمتني بالتسبب في موت الناس من جميع الفئات. وبسبب الرقابة يتردد الناس في زيارتي، وبسبب التنصت على مكالماتي الهاتفية لم يعد الهاتف ذي نفع تقريباً ... هل أبدو لك كثرة الشكوى؟ أنا في غاية القلق، مع أنني أعلم أن تلك حرب نفسية عليّ فيها أن أحتفظ برباطة جأشي».<sup>8</sup>

انضمت الصحافة والإعلام إلى حزب جاناتا في الضغط على إنديرا. فبعد خسارتها في الانتخابات انتشرت صحافة شراء المعلومات. وصارت «فضائح إنديرا» موضوع الساعة حتى أضحت نيكسون الجديد، أو السياسي الذي يحب الجميع أن يكرهه. فحينئذٍ في مقابلات صحفية، عمدت الجرائد الوطنية إلى شراء الحقوق الحصرية لنشرها، المنشقون عن حزب المؤتمر «فضحوا كل شيء». وتنافست المجلات فيما بينها على نشر الفضائح الجديدة عن إنديرا وسانجاي. أما في الولايات المتحدة فقد عكف فيد ميهتا أشرس وأبرع نقاد إنديرا على نشر مقالات طويلة تشجبها في مجلة «نيو يوركر».

كما جرى على عجل طباعة سيل من الكتب المعادية لإنديرا. الكثير منها كتبه نفس من نشروا سابقاً أعمالاً تتناولها بالمديح. فالهجوم على إنديرا لم يعد حينئذٍ مأموناً وحسب، وإنما صار كذلك الموضة الفكرية السائدة. وقد تراوحت تلك الكتب في أنواعها بين كتابات التعريض والنميمة التي تقرب في مستواها حد التفاهة والكتابات النقدية الفكرية الرفيعة. ومن أكثرها إثارة للجدل كتابا جاناردان ثاكور «أتباع رئيسة الوزراء»، و«إنديرا غاندي ولعبة السلطة»، وكتاب كولديب نايار «الحساب»، وكتاب «الوجهان المختلفان لإنديرا غاندي» لأوما فاسوديف، وأيضاً كتاب ناينترا ساهجال «إنديرا غاندي: طريق وصولها إلى السلطة». وظل الشاعر والكاتب دوم موراييس الذي عكف على كتابة سيرة إنديرا على ولائه لها، إلا أنه كان صوت الدفاع الوحيد عنها، فخوشانت سينج على سبيل المثال انتظر آنذاك أن يصبح التيار السياسي حليفها من جديد قبل أن يصدر عام ١٩٧٩ كتابه في مديحها؛ كتاب «إنديرا غاندي تعود». من ناحية أخرى، آنذاك، في الثلاثة الأعوام التي أعقبت هزيمة إنديرا، في لندن، عكف روائي مغمور باسم سلمان رشدي على كتابة الأثر الوحيد الذي بقي في الأذهان من وحي حقبة حالة الطوارئ. إنها رواية «أطفال منتصف الليل»، تلك الرواية التي تفنن فيها سلمان رشدي في تصويره لإنديرا كشيطان، كأرملة متوحشة مفترسة. حتى إن الرواية فازت بجائزة بوكر عام ١٩٨٠.

مع أن إنديرا زعمت دائماً أنها لا تقرأ أبداً المقالات والكتب التي تُكتب عنها، فقد كانت إلى حد مذهل على دراية بمضمونها العام ومحتواها. هذا على أن الصحافة والإعلام لم يكونا أكثر ما يقلقها. إنما كان ما يخيفها هو ديساي وحكومته. ففي ٢٣ مارس، وقف تشاران سينج وزير داخلية حكومة حزب جاناتا في البرلمان يزعم أن إنديرا «خطت أو نوت قتل جميع قادة المعارضة في السجن إبان حالة الطوارئ».<sup>9</sup> وبعد خمسة أيام، نُدبت لجنة رأسها جي سي شاه رئيس محكمة العدل العليا السابق للتحقيق فيما ارتكب إبان حالة الطوارئ من «محاولات للقضاء على السياسات القانونية والأساليب والإجراءات والممارسات الإدارية الراسخة، وإساءة استغلال السلطة، والتجاوزات والأعمال المحظورة».<sup>10</sup> ودخل سانجاي أيضاً في إطار تحقيقات تلك اللجنة. وتألّفت لجنة خانا للتحقيق بوجه خاص في شركة ماروتي ذات المسؤولية المحدودة، بينما تشكّلت لجنة ريدي للتحقيق في أنشطة بانسي لال. لكن إنديرا ظلت الهدف الأول لحزب جاناتا، وكانت لجنة شاه اللجنة الوحيدة التي استحوذت على انتباه عامة الشعب. وتقرر بدء جلسات التحقيق في خريف عام ١٩٧٧.

في أواخر مايو عُثِر على جثة والد مانیکا غاندي الكولونيل تي سي أناند ممدّة في حقل مفتوح. كان إلى جانبه مسدس ورسالة كتب فيها: «سانجاي قلق لا يُحتمل». لم يكن موت أناند صدمة هائلة لعائلته وأصدقائه. فقد كان له تاريخ من الإصابة بالاضطرابات العقلية، وقد حاول سابقاً الانتحار بتناول جرعة زائدة من عقار ما.<sup>11</sup> ومع ذلك انتشرت سريعاً شائعات بأن موته كان في واقعه جريمة قتل دُبرت بحيث تبدو انتحاراً. بل دارت شائعات بأن أناند خطط لأن «يفضح كل شيء» عن صهره سانجاي غاندي إن استدعته لجنة شاه، لذا وجب التخلص منه. لكن تلك القضية نُسيت بمجرد أن خفت حدة التركيز الإعلامي عليها.

طوال صيف عام ١٩٧٧ تحاشت إنديرا جذب الانتباه في دلهي، فقد عكفت يومياً على الالتقاء بمحاميتها استعداداً للجنة شاه. لكن بعدئذٍ في يوليو، في قرية نائية ببهار تدعى بيلتشي، ذبح الأرستقراطيون من ملاك الأراضي عدداً كبيراً من الهاريجانيين. ولما لم يكن ببيلتشي وسائل اتصال، استغرقت أنباء ذلك العمل الوحشي عدة أيام في الوصول إلى دلهي. على أنها لما وصلت، فشلت حكومة حزب جاناتا في اتخاذ إجراء لمواجهتها، أما إنديرا فقد سافرت على الفور إلى بيلتشي مع مجموعة من أعضاء حزب المؤتمر المخلصين.

وكانت تلك بمنزلة مغامرة نظراً إلى أن ولاية بيهار تشتهر بطواف عصابات اللصوص المسلحة فيها، التي تسرق وفي بعض الأحيان تقتل المسافرين، وإنديرا لم يكن لديها حينذاك حرس شخصيون لحمايتها كما في السابق.

بدأت إنديرا رحلتها إلى بيلتشي في سيارة جيب، لكن عندما بدأ المطر يهطل، واستحال عبور الطريق، عمدت إلى استخدام جرار زراعي. ثم اضطرت في المرحلة الأخيرة من رحلتها إلى عبور منطقة غمرها الفيضان على ظهر فيل إلى أن بلغت آخر الأمر بيلتشي بعد حلول الظلام. دنا منها أهل القرية الذين ساورهم الخوف مذعورين حاملين مشاعل للرؤية. فلما تعرفوها رحبوا بها، وكأنها مخلصتهم وألقوا بأنفسهم عند قدميها. جاءت إنديرا إلى بيلتشي وهي على يقين تام بأنها ستكون فرصة لتحسين علاقاتها مع الشعب، والتحقق من احتمالات نجاحها إذا ما عادت إلى مسرح السياسة. غير أنها فور وصولها إلى هناك تأثرت بشدة بمشهد أهل القرية المعدمين الذين فُجعوا بفقد أحبائهم، والرماد الذي تجمع على المحرقة الجماعية حيث أحرقوا جثث قتلهم من الأقارب والجيران.

صباح اليوم التالي، قصدت إنديرا باتنا عاصمة بيهار حيث لجأ عدوها القديم جي بي نارايان وأخذ الموت يزحف إليه ببطء. لما كانت إنديرا قد هُزمت وذلت سامحها الأخير. فبعد محادثة دارت بين الاثنين على انفراد لخمسين دقيقة وقفا معاً لالتقاط الصور. وقد كان التصالح مع نارايان خطوة سياسية بارعة، إلا أنه كان أيضاً لقاءً مفعماً بالمشاعر لكليهما، أعاد أيام حياة نهرو والوقت الذي كانت فيه زوجة نارايان وكامالا نهرو صديقتين حميمتين.

بعد الاستقبال الذي لاقته إنديرا في بيلتشي والمصالحة التي عقدتها مع نارايان في باتنا ارتفعت روحها المعنوية، وقررت لدى عودتها إلى دلهي أن تزور دائرتها الانتخابية القديمة دائرة راي باريلي. وكانت قد انقطعت عن الذهاب إلى هناك بعدما رفض ناخبو تلك الدائرة إعطائها أصواتهم رفضاً قاطعاً. فقد كان ذلك مجازفة، غير أن استقبالها في راي باريلي كان أكثر حماساً منه في بيلتشي. لقد احتشد الآلاف تحت الشمس الحارقة لرؤيتها. وفي كل قرية زارتها من القرى المحيطة براي باريلي، تجمعت حشود كبيرة مرة بعد المرة لسماع اعتذارها عن فرض حالة الطوارئ، والهجوم الذي تشنه إثر ذلك على حزب جاناتا. ومع ذلك ظلت إنديرا بحيويتها إلى نهاية اليوم، ولم يضرها الحر، وإن كان التراب قد كساها والعرق قد غمرها. نقلت صحف دلهي كذباً أن دائرة إنديرا الانتخابية السابقة استقبلتها بالأعلام السوداء. ومن جديد احتضنت زوجة ابنها فيروز غاندي (أول ممثل لها في البرلمان)، و«أم» أبنائها كما أسمت إنديرا نفسها قبل أعوام عديدة في خطبة

حملتها الانتخابية لعام ١٩٦٧. فوفقاً لما نقلته صحيفة «الجارديان» بإنجلترا: «ناخبو إنديرا القدامى سامحوها في عشر دقائق بالضبط».<sup>12</sup>

بعد زيارة إنديرا الناجحة إلى بيلتشي وراي باريلي، شعر حزب جانانا بالخطر. فقد كان القصد من تأليف لجنة شاه التي أوشكت آنذاك على الخضوع لتحقيقاتها هو إدانة إنديرا، لكن الحشود حينئذٍ أخذت تمجد إنديرا من جديد. لذا كان لا بد من اتخاذ إجراء ما. وعليه في ١٥ أغسطس عام ١٩٧٧، في عيد الاستقلال الهندي اعتُقل آر كيه دهاوان مساعد إنديرا المخلص. كما اعتُقل أيضاً مدير حملتها الانتخابية السابق ياشبال كابور، وأمين صندوق حزب المؤتمر بي سي سيثي، ووزير الدفاع السابق؛ وبطانة السوء لسانجاي بانسي لال. واعتقل كذلك إتش آر جوكهالي وزير القانون السابق، ووزيران آخران من مجلس الوزراء السابق قبل نهاية الشهر، فضاق الخناق على إنديرا.

بدأت جلسات تحقيقات لجنة شاه في دلهي في ٢٩ سبتمبر عام ١٩٧٧. كان الهدف الذي أعلنته اللجنة هو التحقيق في «التجاوزات والممارسات المحظورة والجرائم التي ارتكبتها أصحاب السلطات السياسية والمسؤولون الحكوميون وأصدقائهم أو أقاربهم إبان حالة الطوارئ، أو في الفترة التي تسبقها مباشرة ... وبالأخص دعاوى سوء الاستغلال الصارخ للسلطة من دعاوى اعتقالات واحتجازات وإساءات وفظائع ارتُكبت في حق المعتقلين (كما ورد نصاً) ... والإكراه على تنفيذ برنامج تنظيم الأسرة واستخدام القوة في ذلك، بالإضافة إلى إزالة المنازل والشقق والمباني إزالة عشوائية وتعسفية ... وتدمير الممتلكات باسم إزالة العشوائيات ... مما أسفر عن تشريد الكثير من الناس».<sup>13</sup>

منذ البداية أدار القاضي شاه مسرح تحقيقاته الفردية وكأنه يدير محكمة من محاكم الشعب الصينية. ففي محكمة باتيالا حيث أقيمت جلسات التحقيق اتسم المناخ بالمعاداة الصارخة. وامتلأت المحكمة عن آخرها بحضور بلغ عددهم مائتي شخص، هتفوا عالياً لتصريحات جانب الادعاء واتهاماته، وأطلقوا صيحات الاستهجان في كل محاولة لجانب الدفاع. وأذاعت مكبرات الصوت الشهادات والضجة التي جرت داخل قاعة المحكمة إلى خارجها. كما سُجلت وقائع التحقيقات على الشرائط.

مع أن إنديرا استدعت في آخر الأمر للمثول أمام القاضي شاه، إلا أنها تمكنت من تفادي حضور جلسات التحقيقات لعدة شهور. أما سانجاي فلم يستطع التهرب من الإدلاء بشهادته؛ وصار حضوره المتكرر لجلسات التحقيقات مشهداً مسرحياً مثيراً. فلدى دخوله محكمة باتيالا، قوبل بصيحات الاستهجان وغيرها من صور الإساءة اللفظية. وفي

الكثير من الأحيان تبادل المعادون له من الحضور قذف المقاعد الحديدية عبر القاعة مع مؤيديه واشتبكوا في عراك جسدي بعضهم مع بعض.

استمرت جلسات التحقيقات طوال فصلي الربيع والخريف، وأدلى فيها المئات بشهاداتهم. وقدمت أطراف لعبت دورًا أساسيًا إبان حالة الطوارئ كسيدهارثا شانكار راي شهادات مكتوبة. ومع أن الجلسات لم تثبت تليفزيونيًا كوقائع تحقيقات فضيحة ووترجيت التي وقعت قبل ثلاث سنوات، إلا أنها اتسمت بطابع مشوق جدًا، وجذبت الانتباه العام.

أحد أول الشهود في جلسات التحقيقات كان جاجموهان المسئول عن أعمال الإزالة التي تمت عند بوابة تركمان وغيرها من مواقع عمليات الإزالة التي تمت إبان حالة الطوارئ. ولكون ذلك الأخير فطريًا يميل إلى الاسترسال، قدّم شهادة مملة ومزعجة للغاية عندما صعد إلى منصة الشهادة. فردًا على استجواب القاضي شاه له عكف على الإدلاء بـ «آرائه المتواضعة» وتقديم الشروح الطويلة المملة في محاولة يائسة لنقل ما أسماه بـ «الصورة الصحيحة» لجميع الإنجازات التي تمت في دلهي إبان حالة الطوارئ. فاضطر القاضي شاه مرارًا إلى تحذيره من الإطالة.

أما نافين تشاولا فعلى العكس، كان أدائه على منصة الشهادة يشبه أداء كبار نجوم المسرح، فقد تحدث بأسلوب لبق وفصيح ومؤثر، ولكن بمنطق لا يقبل التصديق على الإطلاق. فشأنه شأن الكثيرين ممن أدلوا بشهادتهم أمام القاضي شاه، تذرّع بعدم علمه بأعمال الإزالة. وادّعى أنه لم يكن شريكًا فيها، وزعم أن جاجموهان ومن تحته من العاملين لم يتصرفوا بناءً على أوامر رئيسه نائب حاكم دلهي كيشان تشاند. وأكد أيضًا أن علاقته الشخصية الطويلة بسانجاي لم تؤثر على عمله كسكرتير تشاند. فهنأه شاه بنبرة تملؤها السخرية على «قدرته على الفصل بين الأمور».

كما هو متوقع، شهادة تشاولا لم تثير مطلقًا إلى ما قد يدبّنه. أما الشهادات الأخرى، فقد قدمت أدلة تظهر السلطات الهائلة والمخيفة التي تمتع بها إبان حالة الطوارئ. فذلك الأخير فضلًا على كونه تابع سانجاي الأمين الذي يضطلع بتنفيذ أوامره، استغل حالة الطوارئ لتصفية حساباته الشخصية. وما كان صادمًا بالأخص هو الصورة التي مارسها على حد تعبير تقرير لجنة شاه «سيطرة أكبر من المسموحة له على شئون السجون» وفي ذلك «كيفية معاملة السجناء» (كما جاء نصًّا). إذ لم يكن يحدد من يُعتقل ويُسجن وحسب، وإنما كان كذلك يحدد المعاملة التي يحظى بها السجناء بها. فمن بين ما أمر به: «بناء زنازين من نوع خاص، بأسقف من الحرير الصخري «لشواء» بعض السجناء.»<sup>14</sup>

أما مدير تشاولا نائب حاكم دهلي السابق كيشان تشاند، فلم يكن أدائه على منصة الشهادة مثيراً للإعجاب بأي حال من الأحوال. فشهادته لم تجرّمه وحسب، بل كشفت كذلك عن أنه لعب دور الدمية الخنوع لسانجاي غاندي التي تتصرف في أغلب الأحوال على نحو أخرق، ويتحكم فيها الأخير عن بُعد باستخدام نافين تشاولا. اكتُشفت ملفات مزورة نافذة المفعول من قبل توقيع تشاند لها. وصدرت أوامر إزالة باسمه دون علمه. أما الأوامر التي أعطى بنفسه الإذن في تنفيذها. فقد قال إنه سمح بتنفيذها «تحت إيجابار» من «بيت رئيسة الوزراء». ووفقاً للتقييم الذي ورد بتقرير لجنة شاه «يبدو أن تشاند في كل ما قام به وما لم يُقَم به في الكثير من القضايا المهمة الحيوية تخلى عن المسؤوليات المنوطة به قانوناً لخدمة مصلحة مجموعة من المسؤولين، تسعى إلى تحقيق طموحات جامحة مثل ... بهيندار، وباجوا، ونافين، وتشاولا، الأمر الذي أسفر عن عواقب كارثية لشعب دهلي. فلقد خان الأمانة التي عُهد بها إليه، وأحدث شرخاً جسيماً في جدار الثقة بينه وبين مواطني دهلي، وفشل في إدارة شئون المدينة بنزاهة وعدل».<sup>15</sup>

في نهاية الأمر أصدر تشاند الحكم على نفسه. فبعد وقت قصير من إعلان تقرير لجنة شاه انتحر قفزاً في بئر على مقربة من بيته. بعدما ترك رسالة قصيرة تقول إن الموت أهون من «حياة المذلة». لكن مع أن تشاند أردى نفسه بنفسه بلا شك، اعتقد الناس أن سانجاي أمر بـ «التخلص منه».<sup>16</sup>

طوال جلسات تحقيقات لجنة شاه، حاول القاضي شاه جاهداً أن يضع يده على الشخصية الأساسية التي تقف خلف تلك الوقائع الشديدة الدرامية، ألا وهي إنديرا غاندي. أراد أن يستجوبها في إحدى عشرة نقطة بالتحديد، من بينها تعيين بعض القضاة والمحافظين على البنك المركزي، والأحداث التي وقعت بين ١٢ و ٢٢ من يونيو، والاعتقالات التي تمت في ليلة ٢٦ من يونيو عام ١٩٧٦.

بناءً على مشورة محاميها فرانك أنتوني أرجأت إنديرا في بادئ الأمر حضور تحقيقات لجنة شاه. وعللت لذلك بأن اللجنة لا تتبع الإجراءات الدستورية والقانونية، وأوضحت أنها تحرمها فرصة استجواب من شهدوا ضدها. وبعدئذٍ، أصدرت بياناً علنياً تذكر فيه أنها لن تمثل أمام لجنة شاه إلا «بما يتفق مع القانون» وفقط في حال إعطائها حرية إبراز دلائل براءتها والاستعانة بمحاميها واستجواب من أطلقوا الادعاءات عليها. فاستطاعت أن تغفل من قبضة شاه لبعض الوقت.

غير أنها لم تستطع الإفلات من قبضة حزب جاناتا، ففي غضون أيام من بدء جلسات تحقيقات لجنة شاه، في وقت متأخر من عصر ٣ أكتوبر الأول عام ١٩٧٧، وصلت

سيارة بلا لوحات معدنية إلى منزل إنديرا. كان سانجاي ومانيكيا يلعبان تنس الريشة في الحديقة الأمامية للمنزل. وخرج منها ضابطان من مكتب المخابرات المركزية أخبرا إنديرا لدى قدومها إلى الباب أنها رهن الاعتقال. كانت هي تتوقع هذا شأنها شأن سائر البلاد حقيقةً. أخبرت الضابطين أنها بحاجة إلى بعض الوقت لحزم أغراضها وتركتهما واقفين على عتبة المنزل. حتى برزت منه مجدداً في الثامنة مساءً مرتديةً ساريًا ناصع البياض تزيينه حواشٍ خضراء. وأثناء الساعتين اللتين انتظر الضابطان فيهما، أُجريت اتصالات بصحفيين ومؤيدين وأصدقاء لها تدفقوا جميعاً على بيتها. ووفقاً لما تناقلته الشائعات فيما بعد، في الوقت الذي عكفت فيه على «حزم أغراضها»، استخدمت آلة تقطيع عجين المكرونة الخاصة بسونيا غاندي كآلة لتدمير بعض الوثائق،<sup>17</sup> وأصرت إنديرا قبل الموافقة على مصاحبة ضابطي مكتب المخابرات المركزية على وضع الأصفاد في يديها. لكن الضابطين رفضا القيام بذلك، فاستقلت السيارة بدون قيود والمصورون يلتقطون الصور لها.

وبعدما سُنح للمصورين التقاط الصور، مضت سيارة مكتب الاستخبارات المركزية بإنديرا وفي إثرها موكب صغير من السيارات التي تحمل ابني الأخيرة، وزوجتيهما ومحامييهما والعديد من المؤيدين والصحفيين. وواصلت السير في اتجاه ولاية هارايانا المجاورة لدلهي، إلا أنها عندما وصلت إلى إحدى نقاط عبور خطوط السكك الحديدية في ضواحي دلهي اعترض طريقها قطاران طويلان لنقل البريد، الأمر الذي اضطرها إلى التوقف ما لا يقل عن ثلاثين دقيقة. فسمح الضابطان لإنديرا بمغادرة السيارة والبقاء خارجها أثناء توقفها. فجلست على الأرض ينصحها محاموها بأن ترفض مغادرة حدود دلهي ومن حولها حشد من الناس. وبعدها اندلع شجار صاحب بين ضابطي مكتب الاستخبارات المركزية ومحامي إنديرا ومؤيديها جلست فيه الأخيرة أرضاً في صمت فيما أخذ مصورو الصحف يلتقطون المزيد من الصور لها. فلما انتهى قطارا البريد من العبور أخيراً حُملت السيارة إنديرا إلى الحاجز الأمني لدلهي، حيث حياها رجال الشرطة بكياسة ثم أودعوها السجن. وهناك رفضت إنديرا تناول الطعام الذي قُدم لها، وعكفت على قراءة رواية جلبتها معها ساعة أو نحو ذلك ثم نامت طوال الليل نوماً عميقاً.

في اليوم التالي اقتيدت إنديرا إلى قاضي محكمة الجنح والمخالفات حيث اتُّهمت ببيع الجيش الهندي سيارات جيب مُتبرع بها إلى المؤتمر إبان حملة مارس عام ١٩٧٧ الانتخابية، وبتعاقد حكومتها مع شركة نفط فرنسية عرضت عطاءً بسعر أعلى من شركة



أخرى أمريكية بملايين الدولارات. غير أن القاضي الذي مثلت إنديرا أمامه حكم بإطلاق سراحها إطلاقاً غير مشروط قائلاً إنه: «ليس هناك (كما ورد نصاً) ما يدعو للاعتقاد أن أيّاً من الاتهامين ... قائم على أساس صحيح». وبذلك فشل حزب جاناتا. هذا فضلاً على أنه باعتقاله إنديرا واحتجازه لها أكسبها التعاطف ومهد لعودتها السياسية. وكان ذلك سيناريو — على حد قول راجيف لأحد المراسلين الأجانب — لم تكن إنديرا «لتجد أفضل منه».<sup>18</sup>

بعد الإخفاق التام الذي آلت إليه محاولة القبض على إنديرا، ارتفعت شعبيتها. فقامت بزيارة ناجحة إلى ولاية جوجارات لاقت فيها في كل مكان استقبلاً حاراً خاصة في المناطق القبلية. وبعد عودتها إلى دلهي، امتلأت حديقة منزلها كل صباح بالمؤيدين الذين مثل الفقراء أغلبهم. وفي ذلك يُذكر أن زائراً أمريكياً لإنديرا قال لها إن هذا الولاء يعني أنه من المؤكد أنها قدمت لهؤلاء شيئاً إبان توليها السلطة. لكن إنديرا خالفته الرأي قائلة: «لا، من قُدم لهم شيء لن تجدهم هنا».<sup>19</sup>

هؤلاء الذين لم يكونوا هناك ضموا نسبة كبيرة من قيادات حزب المؤتمر. فبعد هزيمة إنديرا تخلّى عنها ممتدحها القديم، مبتكر شعار (إنديرا هي الهند والهند هي إنديرا) ديف كانتا بارواه. من ناحية أخرى تجنبها رئيس حزب المؤتمر الجديد براهماناندا ريدي. وبخلافه رأى آخرون أن العهد القادم لن يكون عهداً. وعليه في يوم رأس السنة عام ١٩٧٨ شهد حزب المؤتمر انقساماً للمرة الثانية. وذلك الانقسام — شأنه شأن الذي شهده عام ١٩٦٩ — دفعت إليه إنديرا. فألفت مع أتباعها حزب مؤتمر (آي) (حرف الآي يرمز على إنديرا نفسها). وفتح هذا الباب لنبز حزبها رسمياً، فاختار سبعون عضواً من حزب المؤتمر أن ينضموا إليها، مخلفين بذلك ستة وسبعين عضواً برلمانياً فيما تبقى من حزب المؤتمر القديم الذي تولى زعامته سواران سينج، وصار يعرف بمؤتمر (إس). كان من بين من تخلوا عن إنديرا حينذاك وزير الصحة السابق في حكومتها كاران سينج، وسوبهادرا جوشي التي عملت إلى جانبها في مخيمات اللاجئين إبان تقسيم الهند. آنذاك تنازع حزب إنديرا وحزب مؤتمر (إس) أيهما يحتفظ برمز الحزب (وهو عبارة عن بقرة وصغيرها). فخرس حزب إنديرا النزاع، إلا أن تلك الخسارة — كما يتضح بالرجوع إلى الماضي، والنظر إلى تشبيه النقاد لها وابنها برمز الحزب — كانت من صروف الحظ السعيد. ففيما احتفظ مؤتمر (إس) برمز البقرة وصغيرها تبنت هي رمزاً أفضل عبارة عن كف مفتوح.

لم تُضطر إنديرا إلى حضور جلسات لجنة شاه في محكمة باتيالا بدلهي والالتقاء وجهاً لوجه بمحققها الصارم جي سي شاه إلا عندما صدرت مذكرة استدعاء لها في ٩

يناير عام ١٩٨٧؛ أي بعد مرور أكثر من ثلاثة أشهر على بدء جلسات تحقيقات اللجنة. غير أنها وإن كانت قد مثلت أمام المحكمة، رفضت أن تنبش ببنت شفة فيها. فقد نهض محاميها فرانك أنتوني يحتج بأنها حضرت لتعرض للهجوم لا لإلقاء شهادتها، وأنها ترفض استجوابها أو تقديم أي تصريح مكتوب. فأمر شاه إنديرا بالمثل أمام المحكمة اليوم التالي.

فعادت إنديرا ومحاميها إلى المحكمة كما طُلب منهما اليوم التالي. ومن جديد تولى أنتوني الحديث نيابةً عن موكلته، وعرض على شاه النقاط التالية:

- (١) إن لجنة شاه باطلة.
- (٢) إن الصحف نشرت سردًا محرفًا لوقائع الجلسات.
- (٣) إن صلاحيات واختصاصات اللجنة غير واضحة.
- (٤) إن اللجنة عجزت عن التحري عن الظروف التي سبقت إعلان حالة الطوارئ والصورة التي نُصح بها الرئيس بإعلانها.
- (٥) إن السيدة غاندي حُرمت من الاطلاع على سلوك الشهود ومدى شرعية الإجراءات التي تتبّعها جلسات التحقيق.
- (٦) إنه من المفترض أن يتواجد محققون لاستجواب الشهود.

فرفض شاه جميع هذه النقاط، وأمر فرانك أنتوني وموكلته بالمثل أمام المحكمة مجددًا اليوم التالي.

في ١١ يناير، تمسكت إنديرا برفض التعاون مع التحقيق، وأخذ فرانك أنتوني يكرر النقاط التي عرضها اليوم السابق. حتى ضاق شاه ذرعًا في آخر الأمر، وخاطب إنديرا مباشرة:

شاه: «سيدة غاندي، هلا أتيت إلى هنا من فضلك؟»  
فسارت إنديرا إلى مذياع يقف أمامه أنتوني. وقال شاه: «أريد أن أعرف هل تنوين الإدلاء بإفادة؟»

فأجابته إنديرا: «قلت لتوي إنني غير ملزمة قانونًا بذلك.»  
فازدادت نبرة شاه حدة وهو يقول: «هل أنت راغبة في ذلك؟»  
فقالته بهدوء: «أنا أرفض.»

وبعدما صمتت لبرهة، أضافت: «أنا ملزمة بقسم السرية ألا أدلي بأي معلومات.» ثم عادت إلى مقعدها، وقالت قبل أن تجلس: «كما أنني غير ملزمة دستوريًا.»

فعلت نبرة شاه. قال: «قولي هذا لقاضي محكمة الجنج.» وأخذ يملي أمراً برفع شكوى رسمية لدى أحد قضاة محكمة الجنج تطالب بإقامة دعوى ضد إنديرا.

عند تلك المرحلة، أثارت إنديرا قضية بدت أنها ليست ذات صلة. فقالت لشاه إنها عندما أثارت قضية تأمين البنوك عام ١٩٦٩، وُسم ذلك الإجراء في بعض الأثناء بأنه غير دستوري، وصدر طلب بدفع تعويضات سخية لأصحاب البنوك والمساهمين فيها. وهو ما ولد — كما قالت إنديرا تذكراً شاه — غضباً عارماً، وأدى إلى صياغة عريضة تدعي أن بعض أعضاء النظام القضائي الذين سيعانون في حال تأمين البنوك كانوا وراء حملة مناوئة للتأمين. وتلك العريضة طالبت بإجراء تحقيق رفضت إنديرا السماح به.

قالت إنديرا لشاه: «كرئيسة وزراء، منعتُها (العريضة) للدفاع عن كرامة النظام القضائي. لقد أرسل مائتا عضو برلماني من بينهم وزراء الآن من حزب جاناتا مذكرة تطالب بتوجيه اتهام للقضاة، من جديد أنا منعتُها.»

كان القليل فقط من الحضور بداخل قاعة التحقيق المزدحمة سيصل إلى ما ترمي إليه إنديرا لولا أن شاه قاطعها قائلاً: «لم أكن قط صاحب أسهم في أي بنك ... البعض ادعى ذلك. لكنه ادعاء كاذب.»

فردت إنديرا عليه بهدوء: «أنا لا أشير إليك على الإطلاق.»

لكن شاه — الرئيس على جلسات لجنة التحقيق — ظل بحماقة يدافع عن نفسه أمام «المتهمة». فجعل يقول: «بعض من إخواني القضاة امتلكوا أسهمًا. وقد قلت لهم إنني لا أملك أي أسهم. لقد امتلكت حساباً في أحد البنوك ... (لكنني) شخصياً لم أمتلك أي أسهم في أي من البنوك الأربعة عشر، وقتما استُحوذ عليها.»<sup>20</sup>

بعد هذا النصر عندما مثلت إنديرا للمرة الأخيرة أمام القاضي شاه في ١٩ من يناير، فقد الأمر إثارته. فمن جديد رفضت إنديرا الذهاب إلى مقصورة الشهود، وأصرّت على أنها غير ملزمة قانونياً أو دستورياً بذلك. وانتهت جلسات تحقيق لجنة شاه في آخر الأمر بعد شهر في ٢٠ فبراير عام ١٩٧٨.

بعدما حضرت إنديرا جلسات لجنة شاه أخذت تسعى إلى الترويج لنفسها ولحزبها الجديد المؤتمر (آي). فقصدت الزاهد فينوبا بهافي — أحد آخر من تبقوا من تلاميذ غاندي — لزيارته في أشرمه في واردها بماهاراشترا. كان الأخير قد أيد جي بي نارايان وثورته الشاملة قبل حالة الطوارئ وأُغير على منزله إبانها. دل استقباله الحار لها بقوة على اتساع دائرة قبولها من جديد.

في أبريل عام ١٩٧٨، في مواجهة عنيفة بإحدى الكليات الزراعية ببانتنجانار بأوتار براديش، فتحت الشرطة النيران على تظاهرة للمطالبة برفع أجور العاملين. وتسببت في مقتل واحد وثمانين شخصاً. فسافرت إنديرا ومعها الكاتب والصحفي البريطاني بروس تشاتوين والمصورة إيف آرنولد إلى هناك. دُعوا لدى وصولهم إلى تفقد بركة من الدماء المتخثرة وفتات المخ، حرص على تركها حين معاينة إنديرا للموقع. ففزعت إنديرا بطبيعة الحال، والتقت بعدها بأرامل القتلى وواستهن. ثم جابت — وفقاً لدوم موريس الذي أتى بدوره — «المكان على عجل كعادتها مرتدية صندلاً، وكأنها تضع أجنحة هرمز على خفيها»، ولم تتوقف إلا لمخاطبة طلبة المعهد الزراعي والعاملين.<sup>21</sup>

في ذلك يُذكر أنها قد أفضت إلى تشاتوين بأن سر نجاحها هو «قدرتها على التحمل». فقد ذكرت أنها من الناحية الجسمانية «قادرة على أن تسبق أي سياسي هندي آخر».<sup>22</sup> كذا صحب تشاتوين وإيف آرنولد إنديرا في جولة إلى جنوب الهند. أُلقت في كوتشين بكيرالا خطاباً من إحدى الشرفات، ثم جلست على كرسي نُصب أعلى منضدة. وعندما جن الليل «وضعت بين ركبتيها مصباحاً وجهته لأعلى لتسلط الضوء على وجهها وذراعيها ... وأدارته» وهي تقول لتشاتوين: «ليس لديك أدنى فكرة كم هو مرهق أن تكون إلهاً». لقد أخذت السماء وقتها تمطر، لكن حتى «هطول المطر لم يقف حائلاً أمام ربع مليون شخص ابتلوا تماماً بمياه الأمطار، ومع ذلك ساروا أمامها صفوفاً يعربون عن احترامهم».<sup>23</sup>

عندما وصل تشاتوين وآرنولد إلى كاليكوت، مر كلاهما «بمراحل تقلباً فيها» بين «محبة إنديرا وكراهيتها». لقد توقعا لدى مجيئهما إلى الهند ألا يجدا سوى ما يثير كراهيتهما لها، لكنها أذهلتهم. فعندما أصيب تشاتوين في أنفه جراء زجاجة أُلقيها شخص عدائي على موكب إنديرا. سأله الأخيرة تطمئن عليه لما انتبهت إلى إصابته (التي لم تلاحظها إلا لدى وصولهم إلى احتشاد كان من المقرر أن تخطب فيه؛ لأنها ركبت في سيارة أخرى في الموكب). قالت: «سيد تشاتوين! ماذا أصابك بحق السماء؟» فلما شرح لها تشاتوين الأمر، أجابته: «هذا ما يحدث لمن يتبعني».

وبعدما عاد تشاتوين وإيف إلى فندقهما في وقت لاحق من ذلك اليوم، بحثت إنديرا عن الأول تطمئن على حالته وجعلت تسأله: «هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟ هل أخرجوا كل الزجاج؟ حسناً، حمداً لله على ذلك! أتود الاستلقاء؟» لم يرغب تشاتوين في الاستلقاء، أما إيف آرنولد التي «أضناها الحر»، فقد أرادت ذلك. كانت غرفة إنديرا بالفندق مكيفة.

قادت — على حد وصف تشاتوين — «بعد التفكير في المسألة إيف إلى غرفة نومها حيث كانت حقيبة الأوراق خاصتها مفتوحة وأوراقها متناثرة. ثم جعلت إيف تستلقي على السرير وتركتها تنام ساعتين. عادت بعدهما بكوب من الشاي بدا أنها لن تفرغ من احتسائه أبدًا، ثم قالت إنها تحتاج إلى الغرفة لتغيير ملابسها».<sup>24</sup>

في ٦ أغسطس عام ١٩٧٨، بعد ستة شهور من انتهاء جلسات تحقيقات لجنة شاه، نشرت وزارة الإعلام والإذاعة المجلد الثالث من تقرير لجنة شاه وهو بعنوان «التقرير النهائي». كان قد صدر قبل ذلك تقريران في مارس وأبريل. صرح جي سي شاه فيهما وفي «التقرير النهائي» أن إعلان حالة الطوارئ كان إعلاناً غير دستوري يهدف إلى التضليل؛ إذ «لم تتواجد أي أدلة على انتهاك القانون والنظام في أي من أنحاء البلاد، أو ما ينذر بذلك»، لقد رأى شاه أن إنديرا لجأت إلى السلطات التي تتيحها حالة الطوارئ «في محاولة يائسة لإنقاذ نفسها من إلزام شرعي يقره حكم قضائي صادر ضدها». ومن بين الشرور التي ذكر شاه أن إنديرا وحكومتها ارتكبتها بين عام ١٩٧٥ وأوائل عام ١٩٧٧: اعتقال الآلاف من الأبرياء، وتبني «سلسلة من الإجراءات تخرج تمامًا عن إطار القانونية والمشروعية؛ نجمت عنها معاناة ومأس لا آخر لهما».<sup>25</sup>

لقد شمل تقرير لجنة شاه كل ما من شأنه أن يدين إنديرا أو ابنها الأصغر أو حالة الطوارئ. ولم يعتبر أي مسألة أكبر أو أصغر من أن يبحث فيها. فعلى سبيل المثال، بالإضافة إلى اتهامه لنظام إنديرا باعتقال أكثر من ألف شخص بصورة غير قانونية، وقتل ما لا يقل عن ستة أشخاص عند بوابة تركمان، وسلب القدرة على الإنجاب قسراً من الآلاف، اتهم نظامها أيضاً «بإساءة استغلال السلطة وإساءة تطبيق أحكام العدالة في واقعة إنقاذ مسئول مكتب الاستخبارات المركزية موظف السكك الحديدية شراي سودارشان كومار فيرما من المعاقبة القانونية»، وبـ «إساءة استعمال السلطة وتجاوزها في واقعة سماح شراي تي آر تولي رئيس مجلس بنك بنجاب الوطني لشركة «أسوشيتد جورنالز المحدودة المسئولية» بإجراء سحب بنكي على المكشوف بدون ضمان». على أن شاه في حالات نادرة خالف المرجو منه. فمثلاً في قضية «المزايا التي منحها بنك بنجاب الوطني لشركة ماروتي المحدودة المسئولية» يذكر تقريره: «أن اللجنة ترى بالنظر إلى الدلائل التي قدمت والحجج التي أدلى بها أنه لم يكن هناك أي انتهاك للقواعد الإدارية أو إساءة استغلال للسلطة والنفوذ فيما يتعلق بتلك المسألة».<sup>26</sup>

كان تقرير لجنة شاه رغم الضجة التي صاحبت صدوره مخيباً للآمال. فلم يتناول إلا جزءاً صغيراً من مجموع الوقائع التي جرت في جلسات لجنة شاه، ولم يصل مجموع

صفحات مجلداته الثلاث إلا إلى خمسمائة صفحة من عمودين. هذا فضلاً على أنه نتيجة لنظم تراكيبه اللغوية بعشوائية، وصياغته بلغة القانون الإنجليزية التي تتسم بالتطويل، حفل بالأخطاء النحوية والعبارات الاصطلاحية الغريبة. إلا أنه مع ذلك يظل السجل الرسمي الوحيد لحالة الطوارئ نظراً لاختفاء الشرائط التي سجلت الوقائع الكاملة لجلسات لجنة شاه التحقيقية.

إن نشر تقرير شاه على ثلاثة أجزاء كان من شأنه حتماً أن يولد آمالاً كاذبة. فعندما فشل المجلد الأول من التقرير في إحداث ضجة، انتظر الكل أن يفجر المجلد الثاني «قنبلة». لكن لما فشل ذلك بدوره في ذلك، تعلقت الآمال بالمجلد الثالث الذي كان الأطول بين ثلاثة المجلدات، ولكنه ممل كسابقيه بالضبط، فلما كانت الشائعات و«الفضائح» أكثر إثارة بكثير من واقع حالة الطوارئ الذي يبدو في كثير من الأحيان موضوعاً غير مشوق. ضاعفت وسائل الإعلام ومجالس النخبة السياسية في دلهي الأرقام التي توصلت إليها التحقيقات لكل جريمة، أو انتهاك أو اعتقال أو فرض رقابي أو عنف أو قتل أبلغ عنه ثلاث مرات أو أكثر.

لم يكن تقرير لجنة شاه في واقعه أكثر من ملخص مقبض للصدر، خال من المفاجآت، يوجز أحكاماً سبق إليها جي سي شاه دون تفكير ركوباً إلى الأدلة التي قدمت له أثناء جلسات التحقيقات، ثم حشاها بمقتطفات مختارة من أقوال الشهود، ليجعل التقرير يبدو طويلاً. لقد بدا واضحاً أنه عبارة عن شرح غير موضوعي إلى حد كبير للأدلة التي قدمت. وتحامل كاتبه وغرضه بَيِّنَان. فهو يصرح حقيقة أن جلسات التحقيقات لم يكن القصد منها قط أن تكون تحقيقات حقيقية أو موضوعية يُتحرى فيها عن المساوئ والأعمال المحظورة والجرائم التي ارتكبت إبان حالة الطوارئ. لقد كان شاه تابعاً لحزب جاناتا، ولجنته وتقريره كانا بالدرجة الأولى للدعاية لذلك الحزب. فالأبطال الوحيدون في تقرير لجنة شاه هم جيش من الأشرار والحمقى. كان الشرير الرئيسي فيهم — وهو إنديرا غاندي — يراوغ بعناد بين صفحات التقرير فيما يطارده شاه.

مع مواطن ضعفه الخطيرة، يظل تقرير لجنة شاه كنزاً يزخر بالدلائل على السلطات غير المشروعة التي تمتع بها سانجاي في الفترة السابقة على حالة الطوارئ وإبانها، وعلى تزلف وجين العديد من مسؤولي القطاع العام والمسؤولين الحكوميين في الفترة نفسها. فلا عجب أن إنديرا أمرت بسحب جميع نسخ ذلك التقرير لما استعادت السلطة عام ١٩٨٠.<sup>27</sup> لكن اتضح في آخر الأمر أن تأليف لجنة شاه كان إلى حد بعيد إجراء لا جدوى منه. فمع جلسات التحقيقات المطولة المسرحية التي أجرتها اللجنة، لم تكن إلا لجنة لنقصي

الحقائق. لقد نص تقريرها نفسه بوضوح على أن «وقائع جلساتها» «لم تحمل صفة القضايا المدنية ... أو المحاكمات الجنائية».<sup>28</sup>

بعبارة أخرى كانت — على حد اعتراف شاه فيما بعد في مقابلة صحفية — «استقصائية لا غير».<sup>29</sup> ومع أن تقرير ذلك الأخير ولد عاصفة من الجدل، إلا أنه لم يكن ذا أي اعتبار قانوني. فليس بمقدوره أن يدين أي شخص. وجميع الأعمال غير القانونية والمحظورة التي عددها يجب أن تثبت في إحدى محاكم القانون. وهذا قد يستغرق أعوامًا.

أحبط ديساي عندما ارتد عليه اعتقال إنديرا. ولما لم يكن برغم النتائج التي أعلنتها لجنة شاه على استعداد للمخاطرة بسجنها من جديد. عنى هذا أنها لبعض الوقت — إلى أن يتخذ حزب جاناتا التدابير القانونية لإدانتها — في مأمن من الناحية القانونية. غير أنها مع تجوالها في أنحاء البلاد ومرور الوقت ازدادت شعبية بين العامة، فتجاهلت الصحافة والشعب جهود حزب جاناتا للضغط.

بعكس إنديرا، لم يكن سانجاي في مأمن من الناحية القانونية. ففي ربيع عام ١٩٧٨ حوكم بعدة تهم من بينها تهريب ورشوة بعض شهود الادعاء الذين أدلوا بشهادتهم أمام لجنة شاه. وفي ٥ مايو قضت المحكمة العليا بحبسه شهرًا، أودع فيه سجن طهار الشهير بدلهي، حيث احتجز الكثير جدًا من سجناء حالة الطوارئ. بلغ إنديرا نبأ اعتقاله في كارناتاكا حيث كانت تمضي عطلة رائعة تزور فيها المعابد والأديرة. استقلت أول طائرة عائدة إلى دلهي، ثم اتجهت مباشرة من المطار إلى سجن طهار حيث احتضنت ابنها أمام طاقم مصوري التلفزيون والصحفيين وقالت له: «تشجّع. ستكون تلك عودتك السياسية».<sup>30</sup>

مع إطلاق سراح سانجاي من السجن في أواخر يونيو حسمت إنديرا أمرها بالترشح لعضوية البرلمان من جديد. وقد كانت قبل ذلك سافرت إلى الكثير من أنحاء الهند ولاقت في زياراتها — باستثناء بعض الحالات — استقبلاً حارًا، خاصة بين فقراء أهل القرى (الذين يمثلون الغالبية العظمى من ناخبي الهند). وقطعت شوطًا كبيرًا في مسعاها إلى العودة سياسيًا إلى قلوب عامة الناس، مع أن الصحفيين والمثقفين وحزب جاناتا ظلوا عازمين على تدميرها. هذا لأن الذكريات الطويلة التي يخترنها العامة عنها وعن أبيها كانت حية في النفوس تذكر فضلهم، فيما أن الأحداث الأخيرة التي وقعت إبان الواحد والعشرين شهرًا التي امتدت فيها حالة الطوارئ بدت آنذاك وكأنها زلات.

فعلى العشاء في مساء يوم كان الصحفي إندر مالهورترا ضيفاً فيه لدى أحد أصدقائه، عندما أخذ ضيوف العشاء في انتقاد إنديرا، قاطع الخادم الذي تولى تقديم الطعام الحديث قائلاً: «ارتكبت السيدة إنديرا بعض الأشياء السيئة (إبان حالة الطوارئ، لكنها) ... قامت بأشياء جيدة في الماضي». أما طاهي أوما فاسوديف، فقد أخبرها بأنه سيصوت بحماس «للسيدة إنديرا» بما أنها ستخوض الانتخابات من جديد، مع أنه قد صوت ضدها في انتخابات عام ١٩٧٧. فلما سألته أوما فاسوديف عن السبب أجابها بأن إنديرا «تهتم بنا»، أي بالفقراء، فيما أن حزب جاناتا لا يفعل ذلك.<sup>31</sup>

وأبدى العاملون أمام مرعوسيهم ثقتهم بإنديرا في جميع أنحاء البلاد. وأفصح سائقو عربات الريكاشة والكناسون والتجار على الأرصفة بدورهم عن ذلك. واتضح في نهاية المطاف للنخبة المثقفة أن موجة تأييد حقيقية لإنديرا قادمة.

سهل عدم كفاءة حزب جاناتا قدوم تلك الموجة. ففي الواقع شعر الكثيرون آنذاك بالحنين إلى أيام حالة الطوارئ «الخوالي الطيبة» والنظام الذي ساد إبانها. فقد فتح حزب جاناتا السجون وأطلق سراح المهريين والغوغاء ومبترزي الأموال الذين سُجنوا إبان حالة الطوارئ. وارتفعت الأسعار، وتزايد العنف الطائفي خاصة تجاه الهاريجانين. وفي غمرة كل ذلك، أوشكت حكومة حزب جاناتا الائتلافية على الانهيار. فعلى رأسها تنازع ديساي وتشاران سينج وزير الداخلية الذي أراد أن يحل محل الأول رئيساً للوزراء. ولم يعد جي بي نارايان الذي أنهكه المرض وأشرف على الموت في باتنا حيث تقاعد قادراً على حفظ تماسك الحزب.

بلغت الأمور ذروتها في يونيو عام ١٩٧٨ عندما اتهم تشاران سينج — أعنف خصوم إنديرا — ديساي والوزراء الآخرين بالمجلس الوزاري بأنهم «مجموعة من العجزة» لفشلهم في تقديم إنديرا غاندي إلى العدالة.<sup>32</sup> فطرده ديساي من مجلس الوزراء ومعه وزير الصحة راج نارايان الذي رفع ضد إنديرا قضية الإقدام على ممارسات محظورة في انتخابات عام ١٩٧١ وهزمها بعد ذلك في انتخابات عام ١٩٧٧. فمع أن ديساي في آخر الأمر أعاد — مضطراً — تشاران سينج وزيراً للدفاع ونائباً لرئيس الوزراء (وهو منصب تشاركه مع جاجيفان رام)، بات الانقسام المدمر الذي يعاني منه حزب جاناتا واضحاً للجميع.

في الوقت الذي أخذ فيه حزب جاناتا يدمر نفسه بنفسه، شرعت إنديرا في تعزيز موقفها. ففي يوليو عام ١٩٧٨، أجرت مقابلة صحفية طويلة مع باحثة أمريكية تدعى



ماري كاراس كانت تكتب سيرتها، وقد تمرست بحلول ذلك الوقت على الرد على الأسئلة فيما يتعلق بحالة الطوارئ وهزيمتها في انتخابات عام ١٩٧٧، وأدركت أن ماري كاراس ستخدم كأداة مناسبة للتعبير عن آرائها.

استعرضت المقابلة الصحفية في أغلبها نقاطاً لم تستغربها إنديرا. فأوضحت فيها أنها فرضت حالة الطوارئ لإنقاذ البلاد من الوقوع في «الفوضى»، وأنها لم تستشر مجلس الوزراء قبل إعلان حالة الطوارئ خشية تسرب خبره، وأنه لا مجال لإنكار أن بعض الأشياء قد «خرجت بالفعل عن السيطرة بعض الشيء» إبان حالة الطوارئ، إلا أنها أضافت أن ما نقل عن الاعتداءات التي وقعت — وبصفة خاصة فيما يتعلق ببرنامج التعقيم — مبالغ فيه تماماً. كما بينت أنها خسرت انتخابات عام ١٩٧٧ لأنها «تسببت في الضيق» لبعض القطاعات في المجتمع، ولأن حزب جاناتا «حظي بالكثير من المساعدة الخارجية ... فالحركة المناوئة لنا نظمتها قوى خارجية».

الأخطاء التي اعترفت بها إنديرا من حين لآخر — مثل قولها «إن بعض الأشياء خرجت عن السيطرة بعض الشيء»، وأنها «تسببت في الضيق لبعض قطاعات المجتمع» — أقرت بها بناءً على دراسة، بكل ما في الكلمة من معنى. فقد فطنت إلى أنها ستسترد اعتبارها في وقت أقرب لو تحملت جزءاً من الذنب. لذا اعتذرت قبل الآن عن بعض «الجوانب السيئة في حالة الطوارئ». والآن اعترفت بأنه من المحتمل أن إسكات الصحافة كان «إجراءً مبالغاً فيه»، وبأن «بعض رؤساء حكوماتنا اعتقلوا الناس بلا سبب على الإطلاق، أعني ليس لسبب إلا العداوة الشخصية». لكنها زعمت أنه «باستثناء اعتقال الشخصيات السياسية وفرض الرقابة على الصحافة، لم يكن هناك خروج عن الطبيعي في الكثير من الأمور ... في حادثة بوابة تركمان قُتل ستة أشخاص، جميعهم من خارج المنطقة». فما كان من كاراس إلا أن قالت بسخرية مريرة: «إن، ببساطة كان ذلك ضرباً من ضروب العنف العادية». فأجابت إنديرا تدافع عن موقفها بكذبة صارخة: «لم يكن هناك عنف، فقط حالة أو حالتان استثنائيتان».

في تلك المقابلة الصحفية، أجابت إنديرا على أغلب الأسئلة التي تتعلق بحالة الطوارئ بسهولة. لكن عندما حادت كاراس عن ذلك الموضوع، وسألتها عن سبب انخفاض نسبة المتعلمين في الهند، أجابت إنديرا إجابة تفتقر إلى الدراسة فقالت: «لا أرى أهمية كبيرة للتعليم. ماذا صنع للغرب؟ هل الناس هناك أسعد أو أكثر وعياً بالمشاكل المحيطة بهم؟ على العكس من ذلك، أعتقد أنهم صاروا أكثر سطحية».<sup>33</sup>

أوضحت المقابلة التي أجرتها إنديرا مع كاراس تحليلها لفترة حالة الطوارئ بعد انتهائها على صعيد المجتمع. وقد سنح لكاراس بعدها بوقت قصير أن تشهد إنديرا وهي تطرح ذلك التحليل على العامة عندما سافرت معها إلى مدراس ومادوراي. كانت كاراس، وهي امرأة صغيرة الحجم، سمراء، ترتدي وقتئذٍ ساريًا بدلًا من ثيابها الأمريكية العادية. كانت كاراس تتقدم إنديرا في المشي، وجدت نفسها فجأة محاطة بحشد دلف إلى أحد المعابد القريبة من مادوراي وباعد بينها وبين إنديرا. وأخذ رجاله ونساؤه يضعون عليها أكاليل الزهور، ويسجدون عند قدميها، ويجذبون ذراعها بقوة حتى كادوا ينتزعونه. فحاول قادة المؤتمر المحلي بلا طائل أن يبينوا للحشد أن كاراس ليست «الأم» التي أتوا لإجلالها. لكن كانت تلك تجربة مخيفة وكاشفة لكاراس. فللمرة الأولى أدركت أن افتتان الشعب الهندي الأعمى بإنديرا لن يتزعزع مهما تكررت لجنة شاه، ومهما نصب حزب جاناتا من محاكم خاصة للقضاء عليها.<sup>34</sup>

في نوفمبر عام ١٩٧٨، عندما ترشحت إنديرا في إحدى الانتخابات الفرعية لتمثيل دائرة تشيكماجلور الريفية في جنوب ولاية كارناتاكا. عادت رسميًا إلى عالم السياسة. تلك الدائرة كانت الأمثل لها، فقد مثلت النساء ٥٠٪ من الناخبين، في حين مثلت الأقليات والطوائف الصغيرة أو المنبوذة ٤٥٪ من مجموعهم، وعاش ما يقرب من نصف سكانها تحت خط الفقر. هذا فضلًا على أنها كانت قاعدة دعم لحزب المؤتمر؛ تنحى فيها ممثليها دي بي تشاندريجاودا — وهو أحد أعضاء حزب المؤتمر الذين شغلوا منصبًا قياديًا فترة طويلة في ولاية كارناتاكا — لإنديرا عن منصبه. فأرسل حزب جاناتا وزير الصناعة جورج فيرنانديز ليقود زمام الحرب ضدها هناك. وذلك الأخير — وهو أحد قادة حزب جاناتا الذين يتمتعون بالشعبية، وأحد القلائل الذين يملكون أوراق قوة فيه كونه يساريًا — أدار الحملات الانتخابية بنشاط لمصلحة خصم إنديرا فيريندرا باتيل رئيس الحكومة السابق لولاية كارناتاكا. فتوقع الكل أن يربح باتيل. غير أن الحشود التي أتت لسماع إنديرا أظهرت الكثير من الحماس والاحترام لها، وفاقته عددًا تلك التي قدمت لسماع باتيل وفيرنانديز بكثير. فكرر سيناريو الأم إنديرا من جديد. ومع ما توقعته الصحف، فازت إنديرا بفارق كبير يبلغ ٧٠ ألف صوت.

في ١٢ نوفمبر عام ١٩٧٨، بعد أربعة أيام فقط من فوزها في تشيكماجلور، سافرت إنديرا جواً إلى لندن. كانت جوازات سفر جميع أفراد عائلتها قد حُجز عليها بعد هزيمتها في

انتخابات عام ١٩٧٧. لكن بفضل النقد الدولي الذي تعرض له حزب جانانا لضغطه عليها، منحتها الحكومة حينذاك جواز سفر دبلوماسيًا، إلا أنه كان صالحًا للسفر إلى بريطانيا فقط. لكن حزب جانانا أخطأ في ذلك، فدافع إنديرا الأساسي من سفرها إلى خارج البلاد، كان إحياء مكانتها الدولية. وقد اتخذت خطوات جيدة لذلك في مطار هيثرو. فعندما سألها حشد الصحفيين الذي انتظرها هناك: «هل قدمت إلى بريطانيا لتحقيق منها عودتك السياسية؟» أجابت بابتسامة عريضة: «ولكنني لم أغب من الأساس.»<sup>35</sup> وفقًا لما أعلنته المصادر الرسمية، لم تتحمل الحكومة نفقات تلك الزيارة. لقد مكثت إنديرا في فندق كلاريدج، في نفس الجناح الذي نزلت فيه عندما كانت رئيسة الوزراء. إلا أنها حينذاك عام ١٩٧٨ كانت ضيفة رجل الصناعة الهندي الشهير ببريطانيا سوراج باول، الذي تحمل كل النفقات. لقد جلبت معها شيكات سياحية قيمتها ٢٥٠ دولارًا (وهو أقصى مبلغ سمحت الحكومة الهندية بمنحه لها). إلا أنها لما طلبت من سوراج — الذي لم يكن هذا المبلغ يغطي بالنسبة له سوى تكلفة عشاء مرة أو اثنتين في أحد المطاعم — أن يصرف تلك الشيكات لها. ضحك وأصر على أنها ضيفته، لكنها وقعت الشيكات وصممت على أن يأخذها فاضطر إلى قبولها.<sup>36</sup>

تعود صداقة إنديرا بسوراج إلى عام ١٩٦٦، وقتما كانت ابنته تعالج من مرض سرطان الدم في لندن. أراد سوراج أن يزور أبناءه الآخرين أحتهم لكن هؤلاء — مع المكانة التي كان سوراج قد صنعها لنفسه كرجل أعمال دولي آنذاك — لم يستطيعوا الحصول على إذن حكومي بالسفر خارج الهند، وظلوا بها. كان ضروريًا في منتصف الستينيات الحصول على ذلك الإذن. كاتب بول إنديرا يطلب منها المساعدة مع أنه لم يكن قد التقى بها سوى مرة أو اثنتين. فحصل على الإذن الضروري لسفر أبناءه جواً في غضون يومين. ظل بول يذكر مساعدة إنديرا له رغم وفاة ابنته. لذا أسدى لها خدمات كبيرة في جمع التبرعات لحزب المؤتمر بإنجلترا في منتصف السبعينيات، وظل على وفائه لها عندما خسرت السلطة عام ١٩٧٧، ولم تنقطع مساعداته المادية لها. فما إن سمع بنتائج الانتخابات ذلك العام هاتفها من لندن، يقول لها: «سيدة إنديرا، ما دام لدي ما أكله، فستأكلين أنت أولاً.» ولم تتزعزع صداقته لها إبان فترة العامين ونصف العام التي ابتعدت فيها عن السلطة، الأمر الذي وضعه في موقف صعب مع حكومة حزب جانانا. فذاق على حد قوله «المر» من أجلها بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٠.<sup>37</sup>

وكان هو من خطط لإحياء مكانتها في بريطانيا في نوفمبر عام ١٩٧٨. ففي تلك الزيارة التي «لم تضطلع الحكومة الهندية بتمويلها»، نظم عددًا من الحشود التأييديه لها

حضرها عدد كبير من الهنود. ورتب للقاءها برئيس الوزراء البريطاني جيمس كالاها، ولإلقاءها خطاباً على حشد كبير من أعضاء البرلمان من حزب العمال وحزب المحافظين. اعترفت إنديرا صراحة لكالاها وأعضاء البرلمان الآخرين أنها خسرت مع حزبها الانتخابات لأنها «تسبب في الضيق لجميع قطاعات الشعب في آن واحد». وبالطبع كانت صديقتها قائدة حزب المحافظين مارجريت ثاتشر هناك تبدي تأييدها التام لها.<sup>38</sup>

في زيارتها لإنجلترا، تناولت إنديرا العشاء مع صديقتها القديم مايكل فوت وزوجته جيل كرايجي.<sup>39</sup> وتناولت الغداء مع كاتبة الروايات الرومانسية باربرا كارتلاند، وظلت فترة في شوق للقاء تلك الأخيرة، لا لإعجابها برواياتها (كما زُعم في بعض الأحيان)، وإنما لأن كارتلاند اتبعت نظاماً غذائياً معقداً من بدائل الفيتامينات والأغذية العضوية زعمت أنه يحقق فوائد صحية أرادت إنديرا التعرف عليها.<sup>40</sup> أيضاً ذهبت إنديرا إلى بعض المسارح أثناء زيارتها للندن، وشاهدت العديد من الأفلام السينمائية، وتسوقت في متاجر مجموعة وولورثز ومكتبة فويلز. أما متجر هارودز، فلم تتسوق فيه بنفسها، لكن سوراج بول بعث لها يومياً باقة من الأزهار منه أثناء إقامتها في لندن.

لكن طوال زيارتها لإنجلترا لم تنفك المفوضية الهندية العليا عن الإعراب عن استيائها، خاصة عندما التقت بأعلام السياسيين هناك. أما موراجي ديساي وحكومة حزب جاناتا في نيودلهي فقد استشاطا غضباً من الاستقبال الحافل الذي حظيت به.

وفي الوقت الذي عكفت فيه إنديرا على إحياء مكانتها الدولية في لندن، في الهند قام حزب جاناتا بمحاولة يائسة أخيرة للإيقاع بها. فبعد وقت قصير من عودتها إلى دلهي في ديسمبر عام ١٩٧٨، اتهمتها لجنة الحصانة البرلمانية بمنع أربعة من المسؤولين من إجراء تحقيقات عن شركة ماروتي المحدودة المسئولة. وصدر في ١٩ ديسمبر قرار في البرلمان بـ «اعتقالها لحين انقطاع جلسات مجلس النواب، وطردها من المجلس لانتهاكها الحصانة البرلمانية انتهاكاً خطيراً، وعصيانها أوامر المجلس».

إزاء ذلك الحكم، في المجلس الأدنى من البرلمان، أعربت إنديرا عن سخطها. فقالت: «لست شخصاً قوياً، إلا أنني سبق أن دافعت عن بعض المبادئ والأهداف. لذا أي إهانة موجهة لي سترتد على من وجهوها، وأي عقاب يقع عليّ سأستمد منه القوة ... لن يخمد صوتي لأنه ليس صوتاً وحيداً. ليس صوتاً لنفسى، لامرأة ضعيفة لا تستأهل الاعتبار.» وتوقفت قليلاً ثم استطردت تقول بعد أن تحولت نبرتها من نبرة المظلوم إلى نبرة التحدي والسخرية. قالت: «إن المناخ في مجلس النواب ... يشبه ذلك في قصة أليس في بلاد العجائب،

عندما انتفضت جميع أوراق الكوتشينة في الهواء تصيح قائلة: «اقطعوا رأسها!» إليكم رأسي. اضطرت إلى الرحيل بضعة شهور، ولكنني لن أغيب أكثر من شتاء»<sup>41</sup>

بعد ذلك الخطاب، نهضت إنديرا لتغادر المجلس الأدنى للبرلمان. فسارت ببطء في الممشى الذي يفصل بين صفوف مقاعد أعضاء البرلمان وهي توليهم ظهرها. لكنها عندما وصلت إلى باب القاعة، التفتت لهم تقول رافعة ذراعها وبأسطة راحتها: «سوف أعود»<sup>42</sup> بحلول الوقت الذي طُردت فيه إنديرا من البرلمان، كان ديساي قد نجح في استصدار قرار بتأسيس محكمة خاصة لحاكمتها هي وسانجاي غاندي. وبعد وقت قصير من طردها من البرلمان وخروجها منه خروجًا درامياً، اعتُقلت وأُرسلت إلى سجن طهار حيث أودعت وحدها ثكنة في نفس مجمع السجون الذي احتجز فيه جورج فيرنانديز إبان حالة الطوارئ. واضطلعت سونيا غاندي بإحضار كل الوجبات لها من المنزل. لكن بعدئذٍ في ٢٦ ديسمبر، بعد أسبوع واحد من احتجازها، أُطلق سراحها.

من جديد أخطأ حزب جاناتا خطأً فادحاً. فاعتقال إنديرا نفّض عنها «غبار حالة الطوارئ»، وجعلها أكثر شعبية من أي وقت مضى.<sup>43</sup> وصارت مع إطلاق سراحها بطة مظلومة. فعاتت مزهوة بالنصر إلى كاراتاكا وأخبرت شعب تشيكماجلور أن اعتقالها واحتجازها أجريا بصورة غير قانونية. ثم قصدت بعد استقبالها الحار هناك مدراس لقضاء عطلة قصيرة مع بوبول جاياكار والزعيم الروحي كريشنامورتى الذي كانت جاياكار من أشد معجبيه. ووفقاً للأخيرة، التقى كريشنامورتى إنديرا وحدها ونصحها باعتزال السياسة تماماً. فردت عليه بأن ذلك غير وارد، فإما أن تقاتل أعداءها أو تدعم يدمروها.<sup>44</sup>

غير أن أعداءها في أوائل عام ١٩٧٩، عكفوا بأنفسهم على مقاتلة أنفسهم وتدميرها بصورة جنونية. فقد تنازع ديساي وتشاران من جديد. وأتهم ابن الأول كانتليل بعقد صفقات احتيال واقتراف غيرها من المفاسد. التقت صور — حصلت عليها مانيكا غاندي ونشرتها في مجلة «سوريا» التي أنشأتها وتولت رئاسة تحريرها بمساعدة الصحفي خوشوانوت سينج صديق عائلة غاندي — لابن جاجيفان رام وهو رجل متزوج في الأربعين من عمره وهو في وضع جنسي مع مراهقة جامعية شابة تشارك معها علاقة غرامية؛ فأضحت فكرة مقاضاة سانجاي غاندي بديهاً سخيفة.

لكن مع ما اقترفه ابنا ديساي ورام، ظل موقف سانجاي خطيراً، وكانت إنديرا متخوفة بشدة مما قد يفعله حزب جاناتا به. في الواقع رفعت حكومة حزب جاناتا في

فترة العامين ونصف العام التي شغلت فيها السلطة ما لا يقل عن خمس وثلاثين دعوى جنائية ضد سانجاي. وفي ٢٧ فبراير عام ١٩٧٩، حُكم بسجنه هو وفي سي شو كلا عامين ودفع غرامة باهظة لتدميرهما فيلمًا سياسيًا ساخرًا بعنوان «كرسي العرش»، وهو فيلم ينقد فترة حالة الطوارئ نقدًا لاذعًا. لقد أطلق سراح سانجاي وشو كلا بكفالة فيما بعد، وأُتيح لهما بالطبع الطعن في الحكم الصادر ضدّهما، إلا أن ذلك كان من المحتمل أن يستغرق وقتًا طويلًا في المحاكم الهندية.

في منزل إنديرا، كانت الخلافات بين أفراد عائلتها قد أخذت في التطور حتى قاربت مع دخول سانجاي في المزيد من المعارك القضائية حدًا يفوق الاحتمال. ودارت الشائعات بأن راجيف وسونيا أوشكا على مغادرة البيت والسفر إلى إيطاليا. إلا أن ذلك غير صحيح؛ فما كانا ليتخليا عن إنديرا، غير أن العلاقة بين راجيف وسانجاي سادتها جفوة. في حين تحولت العلاقة بين سونيا ومانیکا إلى علاقة جافة من المشاعر، امتنعتا فيها عن تبادل الحديث، وتجنبتا التواجد معًا في نفس الغرفة إلا للضرورة القصوى. فيذكر أنه في صباح يوم كان بي كيه نهرو وفوري نهرو يتناولان الإفطار مع عائلة إنديرا، وثار سانجاي غضبًا عندما عجزت سونيا عن طهي البيض له بنفس الطريقة التي طلبها، فرمى بطبقه إلى آخر الغرفة. حينئذٍ لم تتفوه إنديرا بكلمة انتقادًا له، لكن كان من الواضح أنها تشعر بالحرَج.<sup>45</sup>

علاوة على أن الأوضاع في منزل إنديرا ازدادت سوءًا بتصرفات مانیکا الهوجاء الجنونية. فإزاء مناخ القلق والتوتر اللذين أحاطا بها من كل ناحية، انتابتها الثورات العاطفية القوية ونوبات الغضب وصبتها على الجميع تقريبًا وفيهم سانجاي، فصار وضع زواجهما المضطرب أكثر خطورة. وقد اعترفت إنديرا لبوبول جاياكار أن عائلتها تعيش حالة من الاضطراب، غير أنها لم ترَ أن تصرفات مانیکا هي الملوّمة على ذلك، فقد قالت: «مانیکا في الواحدة والعشرين من العمر ليس إلا ... وسانجاي مهّد بأن يصدر حكم بحبسه لمدة طويلة ... إنها تعاني ضغطًا هائلًا. لذا على الناس أن يتفهموا هستيريتها ويسامحوها عليها».<sup>46</sup>

في الساعات الأولى من ٤ أبريل عام ١٩٧٩، في سجن روالبيندي بباكستان، أُعدم ذو الفقار علي بوتو شنقًا. في وقت سابق على ذلك، في ديسمبر عام ١٩٧١، عقب هزيمة الهند

لباكستان، اختار الجيش الباكستاني ووزارة الخارجية الأمريكية الأخير — قائد حزب الشعب الباكستاني — ليكون قائدًا مدنيًا لباكستان. لكن ظل الجيش الباكستاني لوقت طويل المحرك لسياسات النظام الحاكم لباكستان، وإبان فترة حكم بوتو المدنية عزم على الاحتفاظ بسيطرته. لذا على مدى ستة أعوام، صبر على لجوء الأخير بصورة متزايدة إلى الديماغوجية وتأييد العامة لما لم يغير من سلطات الجيش تغييرًا جوهريًا، أو يجري تعديلات على وظائف الحكومة الإدارية أو نظام تملك الأراضي. لكن لما رفض بوتو تمامًا أن يكون أداة للجيش، ثم زور انتخابات عام ١٩٧٧، أطاح قادة الجيش به.<sup>47</sup>

بعدئذٍ في يوليو عام ١٩٧٧، تولى الجنرال ضياء الحق — الذي لم يرَ بوتو أنه يمثل خطرًا عليه — السلطة، وأعلن الحكم العسكري في باكستان. وبعدها في ٣ سبتمبر، اعتقل بوتو واتهم «بالتآمر لقتل» أحمد رضا قصوري أحد خصومه السياسيين. وجرت عقب ذلك محاكمة — أو عبارة أخرى «مهزلة قضائية» — دامت تسعة عشر شهرًا، وصدر في نهايتها حكم بإعدام بوتو، وجرى شنقه، الأمر الذي لم يكن لتآمره لقتل قصوري بقدر ما كان بناءً على أن بقاءه «حيًا يطرح دائمًا بديلًا ممكنًا للحكم العسكري». وقد خشي الجيش من أن يخطط للعودة سياسيًا كإنديرا غاندي.<sup>48</sup>

مع أن بوتو لم يرق لإنديرا قط (والعكس صحيح)، عندما صدر حكم إعدامه، أدانت الحكم علنًا، وبعثت برقية إلى ضياء الحق تطالب فيها بمنح بوتو عفوًا. وكاتبت عددًا من رؤساء الدول الآخرين تناشدهم الضغط على ضياء الحق لمنع إعدام بوتو. ولم يبذل حزب جاناتا — حمقًا منه — أدنى محاولة لإنقاذه.<sup>49</sup>

في ٣١ مايو عام ١٩٧٩، أدين سانجاي وبعض من شركائه في شركة ماروتي المحدودة المسؤولية بعقد صفقات تجارية غير قانونية. لكن في ١١ يوليو، قبل اتخاذ المزيد من الإجراءات القانونية تجاهه أو تجاه إنديرا، توقفت فصائل حزب جاناتا المتنازعة تمامًا عن تصنع التعاون. وقدم واي بي تشافان اقتراحًا بحجب الثقة عن موراجي ديساي. وهو الأمر الذي أدى إلى إسقاط الحكومة. وعليه في ١٥ يوليو قدم موراجي ديساي استقالته، وألف تشاران سينج حكومة جديدة. المثير للعجب هو أن ذلك الأخير وصل إلى السلطة بمساعدة مؤتمر (آي)، مع أنه لم ينفك عن محاولة الثأر من إنديرا؛ لقد عكف سينج على استرضاء مؤتمر (آي) منذ نزاعه مع ديساي. وتأييد إنديرا له تفاوض على شروطه سانجاي الذي حث إنديرا على التحالف مع عدوها والعفو عما سلف من أجل العودة سياسيًا.

غير أن تشاران سينج اضطر قبل أن يصبح رئيس الوزراء إلى الخضوع لتصويت طرح ثقة في المجلس الأدنى من البرلمان. وعندئذٍ في اللحظة الحاسمة، اشترطت إنديرا إلغاء قرار تأسيس المحكمة الخاصة — الذي أصدره ديساي لمحاكمتها على «الجرائم التي ارتكبت إبان حالة الطوارئ» — لتستمر في مساعدة سينج. رفض ذلك الأخير تناسي القرار، وعليه سحب إنديرا تأييد مؤتمر (آي) لحكومته الوليدة غير المستقرة. وبدون تأييد مؤتمر (آي)، لم يكن تشاران سينج لينجح قط في تصويت طرح الثقة، فانتهت اللعبة بالنسبة لحزب جاناتا. وعليه في ٢٢ أغسطس عام ١٩٧٩، حل الرئيس البرلمان وأمر بعقد انتخابات جديدة في الأسبوع الأول من يناير عام ١٩٨٠. ظل تشاران سينج مؤقتاً القائم بمنصب رئيس الوزراء ولكن دون الحق في «اتخاذ أي قرار سياسي مهم».

ومن ثم استعدت إنديرا للعودة.





إنديرا في محادثات مع رئيس الوزراء الروسي كوسيجين وليونيد بريجينيف في موسكو، حيث حصلت على تعهد من جانب روسيا بتوفير المساعدة الحربية في حالة دخول الهند في حرب مع باكستان بسبب بنجلاديش في سبتمبر عام ١٩٧١.



إنديرا مع سيد هارثا شانكار راي والشيخ مجيب الرحمن في مطار دلهي. حيث كان الشيخ متجهاً إلى دكا إثر إطلاق سراحه في باكستان لينصب أول رئيس وزراء لدولة بنجلاديش الناشئة.



بي إن هاكسار سكرتير إنديرا الأول وأهم مستشاريها.



إنديرا والقائد الباكستاني ذو الفقار علي بوتو يبدوان أكثر ودًا مما كانا حقيقة في مؤتمر سيملا، في أعقاب الحرب الهندية الباكستانية في ديسمبر عام ١٩٧١.



إنديرا وسانجاي غاندي الذي انتخب عضوًا في البرلمان ممثلًا لدائرة راي باريلي بعد عودة  
إنديرا إلى السلطة رئيسة لوزراء الهند عام ١٩٨٠.



صورة رسمية لإنديرا وعائلتها التقطت عام ١٩٧٤. راجيف وسانجاي غاندي يقفان في الخلف، وفي الأمام سونيا وراهول وإنديرا وبريانكا ومانيكا.



إنديرا مع حفيدها فارون ومانیکا غاندي في الذكرى السنوية الأولى لوفاة سانجاي غاندي،  
التقطت عام ١٩٨١.



مارجريت ثاتشر وإنديرا أمام مقر رئيسة الوزراء البريطانية في ٢٢ مارس عام ١٩٨٢.





صورة لإنديرا مع حارسها الشخصي السيخي بينت سينج في لندن عام ١٩٨٠. بعد أربعة أعوام سيكون سينج أحد مغتاليها.



إنديرا محاطة بمجموعة من السيخ في جولة انتخابية قامت بها في ثمانينيات القرن العشرين.



إنديرا في كشمير قبل وفاتها بوقت قصير.



صورة لأفراد عائلة إنديرا راجيف وبريانكا وسونيا وراهول غاندي وهم يشهدون محرقة  
إنديرا الجنائزية في ٣ نوفمبر ١٩٨٤.

## الفصل التاسع عشر

### شقاق

في أوائل الثمانينيات، هدد الدمار الهند. ففي آسام والبنجاب وكشمير اندلعت الاضطرابات السياسية. وفي جميع أنحاء البلاد انقلبت الطوائف العليا على الهاريجانيين، وانقلب الهندوس على المسلمين، والسيخ على الهندوس، والهندوس والمسلمون على المسيحيين، والكل على القبليين. لقد بدا أن الأمة التي تقبل التعدد وتحتضنه — التي امتدحها نهرو في جميع كتبه خاصة في كتابه «اكتشاف الهند» الذي اضطلعت إنديرا بمراجعته عندما كان في السجن — تتداعى. لكن لطالما كانت الهند المتحدة التي تحدث عنها نهرو نوعاً أسطورياً، الأمر الذي يقف تقسيم الهند ودولة باكستان دليلاً عليه. على أن تلك الأسطورة عاشت ما يقرب من ثلاثين عاماً. لكن بحلول الوقت الذي سقطت فيه حكومة حزب جاناتا عام ١٩٧٩، وظهر فيه احتمال عودة إنديرا السياسية، أخذ مفهوم الهند ودولتها الفعلية في الانهيار معاً.<sup>1</sup>

الانقسامات التي عانت منها الهند حينذاك كانت نتيجة مباشرة لفترة تولي إنديرا منصب رئيسة الوزراء بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٧. فقد أدت سياسة مركزة السلطة التي انتهجتها الأخيرة إلى تفويض استقلالية الولايات وحكوماتها، ومن ثم أثارت الاستياء على المستوى المحلي وبين الطوائف. والمفارقة هي أن الانقسامات أخذت تتزايد كلما لجأت إنديرا إلى السيطرة على الأمور بالحكم المركزي. ففي أواخر السبعينيات، علت أصوات الأقليات الشاعرة بالظلم على المستوى المحلي وبين الطوائف الدينية في جميع أنحاء البلاد مطالبة بتملك السلطة وحق تقرير المصير. ومع أن إنديرا غاندي كانت السبب في تلك الأزمة التي صارت الهند تواجهها، إلا أنها اعتُبرت مخلصتها. فأثناء إدارتها الحملات الانتخابية في جميع أنحاء البلاد، في الأسابيع والأيام الأخيرة من عام ١٩٧٩، شعر الكثيرون — كما آمنت هي نفسها — بأنها الشخص الوحيد القادر على الإبقاء على تماسك الهند.

في فترة الاستعداد للانتخابات العامة في يناير عام ١٩٨٠، أمضت إنديرا اثنين وستين يوماً في السفر برّاً وجوّاً، قطعت خلالها ٤٠٠٠ ميل، وخطبت في نحو عشرين اجتماعاً يومياً. قدم لسماعها ورؤيتها فيها في آخر وأشق حملاتها الانتخابية ما يقدر بتسعين مليون شخص، أو واحد من كل أربعة من ناخبي الهند.

لم تمثل إنديرا دائرتها الانتخابية القديمة دائرة راي باريلي وحسب، وإنما مثلت كذلك دائرة انتخابية جديدة هي دائرة مداك في أندرا براديش (القواعد الانتخابية الهندية لا تمنع المرشحين من تمثيل أكثر من دائرة انتخابية). وفازت في كلتا الدائرتين بفارق أصوات كبير، رافعة اسم حزبها في جميع أنحاء البلاد. ففاز حزب المؤتمر بـ ٣٥١ مقعداً من مجموع ٥٤٢ مقعداً في المجلس الأدنى من البرلمان. وكانت هي على حد تعبير صحيفة «تايمز أوف إنديا»: «الفائزة في كل مكان». ولما قررت على مضض التخلي عن تمثيل دائرة راي باريلي، أفسح ذلك المجال لسانجاي — الذي انتُخب عضواً برلمانياً عن دائرة أميثي — كي يُعنى بولاية أوتار براديش. واصطفت إنديرا أيضاً شاباً ورجل أعمال ناجحاً من عائلتها يدعى آرون نهرو، برع من سن مبكرة في المناورة السياسية ليتولى السلطة على دائرة راي باريلي. وقد صار الأخير بمرور الوقت مستشار راجيف غاندي الأول، وساعده الأيمن.

بعد وقت قصير من أداء إنديرا قسم تولى منصب رئيسة الوزراء للمرة الرابعة، في ١٤ يناير عام ١٩٨٠، انتقلت مجدداً إلى مقر إقامتها القديم العقار رقم ١ في شارع سافدار جانج رود. غير أنها قبل العودة إليه، أرسلت اثني عشر رجل دين هندوسياً «لتطهير» المنزل، وأيضاً بعضاً من العمال لهدم الحمام الذي أقامه ديساي على الطراز التقليدي الهندي، وإبداله بحمام على الطراز الغربي. وبحلول الوقت الذي استقرت فيه إنديرا وعائلتها في المنزل، بدا تقريباً كما لو أنهم لم يغادروه قط.

بل إن إنديرا قالت لصحفي في غضب لما سألها عقب الانتخابات عن شعورها إزاء انتخابها قائدة للهند من جديد: «لم أكف يوماً عن قيادة الهند».<sup>2</sup> وقد بدا أن الهند بدورها تعاني تلك الحالة من فقدان الذاكرة؛ إن فترة حالة الطوارئ والفترة الوجيزة التي أمضتها إنديرا خارج السلطة إثر هزيمتها عام ١٩٧٧ قد مُحيا من التاريخ. فالقضاة الذين عينهم ديساي لمقاضاة إنديرا وسانجاي غاندي على الجرائم التي ارتكبت إبان حالة الطوارئ ألغوا — كما يرام منهم — محكمتهم الخاصة، وأعلنوها محكمة غير دستورية. ومن ناحية أخرى، أُسقطت سريعاً القضايا المعلقة التي رفعت على سانجاي، وفيها قضية

تدميره هو وفي سي شو كلا لفيلم كيسا كورسي كا الساخر عن حالة الطوارئ. ولما أرادت إنديرا أن تبدأ بداية جديدة بلا مشاكل في الولايات أيضًا، طوت الماضي فيها بأن حلت حكومات حزب جانانا التسع المحلية، وأخضعتها للحكم المباشر مطالبة بعقد انتخابات تشريعية جديدة. ففاز حزب المؤتمر في جميع تلك الانتخابات عدا واحدة فقط.

ولما انتخب سانجاي غاندي عضوًا في البرلمان، اكتسب أخيرًا الشرعية السياسية والاعتبار. وحظي بهما أيضًا الكثير من أصدقائه وشركائه الذين خاضوا الانتخابات لأول مرة عام ١٩٨٠. فمن بين ٣٥١ عضوًا برلمانيًا انتموا لحزب المؤتمر، بلغ عدد من ترشحوا لعضوية البرلمان لأول مرة ٢٣٤ عضوًا، وصل عدد أتباع سانجاي المخلصين إلى ما لا يقل عن ١٥٠ عضوًا منهم. وقد مثّل هؤلاء — على حد وصف الصحفي إندر مالهورا — جيلًا جديدًا من رجال حزب المؤتمر، من «الشباب الجهلة الحمقى ... الذين يجهلون ... آداب البرلمان، ولا يتقيدون بأيديولوجيات أو مثُل ... أقوىاء البنية لكن ضعاف التفكير». لقد اعتبر أعوان سانجاي عضويتهم للبرلمان وقربهم من مركز السلطة طريقًا مختصرًا يجنون منه أقصى كمٍّ من المال في أقصر وقت ممكن.<sup>3</sup>

انتظر الجميع أن تجعل إنديرا سانجاي عضوًا في مجلسها الوزاري، لكنها — عن حكمة — لم تفعل ذلك. فقد فطنت إلى ضرورة أن يبدو النفوذ الذي امتلكه سانجاي مستحقًا ومستمدًا من آخرين سواها. علاوة على أنها أرادت أن يحتل سانجاي منصب رئيس حكومة ولاية أوتار براديش، مع أن الأخير أراد أن يكون في مركز السلطة في نيودلهي حيث تكمن الإثارة. فقبلت في آخر الأمر تعيينه سكرتيرًا عامًا للجنة مؤتمر كل الهند.

في ١٦ فبراير، في كسوف الشمس الأول الذي تشهده الهند منذ أربعة وثمانين عامًا. بعد شهر من عودة إنديرا إلى السلطة، حصلت على إجازة — الأمر الذي كان يحدث نادرًا — ودعت صديقتها بوبول جاياكار إلى مقر إقامتها لمشاهدة كسوف الشمس معها. عصرًا كان راجيف وطفلاه في حديقة المنزل حيث أعد الأخير تلسكوبًا وأمد الجميع بنظارات شمسية. أما سانجاي فكان انشغاله الشديد يمنعه من الاهتمام بأمر الكسوف. كانت مانيكا زوجته حاملًا في الشهر الثامن وكانت تمكث في غرفتها ولم تشاهد كسوف الشمس مع بقية أفراد الأسرة لأن إنديرا — بناءً على المعتقدات القديمة التي تقضي بأن الكسوف الشمسي يمثل خطرًا مباشرًا على الجنين وأنه على المرأة الحامل تجنب تأثير الكسوف الضار — نصحتها بذلك، الأمر الذي أدهش بوبول جاياكار.

أثناء انتظار إنديرا وجاياكار لبدء كسوف الشمس، عكفتا على مشاهدة فيلم تسجيلي لرواية «بعيدًا عن الزحام المجنون». خفت الضوضاء خارج المنزل. وأظلمت السماء، وزادت برودة الجو. وسكتت زقزقة العصافير. وغمر ضوء أزرق المدينة ماحيًا ظلالها. فنهضت إنديرا فجأة من مقعدها وقصدت غرفتها ومكثت بها وحدها حتى انتهاء الكسوف الشمسي. لقد أثار اختفاء ضوء الشمس خوفها بلا شك، ولكنها لم ترد أن يبدو عليها الخوف. وقد أحبط تأثر إنديرا «بالخرافات» صديقتها جاياكار ودفعها إلى التساؤل عما أصاب «إنديرا الماضي القوية».<sup>4</sup>

كذلك انزعجت جاياكار من وجود دهيرندرا براهماتشاري الدائم؛ معلم السوامي الوسيم المؤثر الذي أحاط بإنديرا وظل معلم اليوجا الخاص بها أكثر من عشرين عامًا. لقد بدا منذ حالة الطوارئ أن نفوذ براهماتشاري يتزايد مع ضعف ثقة إنديرا في الآخرين. فبإبلاغ تلك الأخيرة أولاً بأول بمن زعم أنهم ينوون أذيتها وأذية سانجاي، أدكى بلا شك عقدة الاضطهاد لديها. وقد قامت استراتيجيته معها على خطوتين. أولاً: إثارة مخاوفها بإبلاغها بمؤامرات — أغلبها غير واقعي — يدبرها أعداؤها ضدها. وثانيًا: دفعها فيما يبدو إلى الموافقة على إجراءاته طقوسًا مضادة من شعائر عديدة وتعاويز لحمايتها والقضاء على قوى الشر التي أطلقها عليها الساعة إلى تدميرها.<sup>5</sup>

ولم تصدق إنديرا تكهنات براهماتشاري العجيبة وحسب، بل إنها لجأت إليه أيضًا للنصيحة، وتجاهلت احتمالية أن تكون نصائحه قائمة على المصلحة الشخصية. وقد كان من أهم الاكتشافات التي وقعت عليها لجنة شاه مدى استغلال ذلك الأخير لتأثيره عليها وانتهازه صلته بابنها سانجاي لزيادة ثروته الشخصية. في الخمسينيات إبان تولي نهرو لمنصب رئيس الوزراء. أسس براهماتشاري بدعم حكومي أشرم يوجا فيشوياتي في دلهي؛ ليكون مركزًا لتعليم اليوجا. وظل نفوذه محدودًا طوال الفترة التي تولى فيها بي إن هاكسار ومافيا كشمير توجيه إنديرا. لكن بعدئذٍ، مع صعود سانجاي إلى السلطة، اتسعت سلطاته. وأسس عام ١٩٧٣ شركة أبارنا أجرو برايفيت المحدودة المسئولة لشراء وبيع الطائرات التي كان مولعًا بها شأنه شأن سانجاي؛ أحد مديري الشركة. وفي العام نفسه أسس مركز تعليم يوجا جديدًا في مانتالاي في كشمير يدعى أبارنا كشمير.

عام ١٩٧٦، في الوقت الذي بلغت فيه أحداث حالة الطوارئ ذروتها، تقدم براهماتشاري بطلب للحصول على إذن حكومي بقبول طائرة لأربعة أشخاص من طراز إم تبرت بها له شركة ماولي إيركرافت بالولايات المتحدة الأمريكية، وحصل على الإذن. وزعم في طلبه أن الغرض من الطائرة هو استخدامها في «الرش الزراعي»، لكن



لما اكتُشف أن الطائرة غير مجهزة لذلك الغرض، عدل براهماتشاري الغرض منها في طلبه فصار: «المساعدة في أنشطة أشرم أبارنا». فأُعفيت الطائرة من الضرائب الجمركية، لكن قيمة إذن استيرادها ارتفعت بلا سبب واضح إلى ٦٧٣٥٦ دولارًا مع أن قيمته في الواقع كانت أقل بكثير. ولم تكن تلك الطائرة برغم ما زعم براهماتشاري هدية؛ فقد دفع في مقابلها ٤٠٥٨٥ دولارًا نقدًا عندما زار الولايات المتحدة عام ١٩٧٦. ومُنح بعد وقت قصير من عودته إلى الهند ترخيصًا ببناء مهبط طائرات خاص في مانتيلا بكشمير، مع أن قرب موقع المهبط من حدود باكستان ينتهك القواعد الأمنية.

لم تتضح تلك المعلومات إلا أثناء جلسات تحقيقات لجنة شاه، عندما ظهرت أيضًا حقيقة أشرم براهماتشاري «الخيرى» في كشمير. فبعد هزيمة إنديرا في انتخابات ١٩٧٧، زار مفتشو الضرائب أشرم أبارنا فوجدوه «مبنىً شبيهًا بالقصور فخماً مبهرًا ... فُرشت أرضه بالرخام الثمين ... وحماماته بالقرميد المصقول، به أربعة أحواض استحمام، وعشرة هواتف، وغسالة آلية، وموقد للطهي، وكاميرا وأجهزة كاسيت وتسجيل وتلسكوب ... وغلاية شاي كهربائية، ومجفف شعر والغريب هزاز كهربائي». فعلى حد تعبير تقرير لجنة شاه: كان الأشرم مجهزًا لأن يتيح أسلوب حياة مترفًا، ولأن يوفر أسباب الراحة والرفاهية بكل أنواعها ... من الصعب حقًا استيعاب أن ذلك المبنى المكلف الفاخر أقيم لتعليم اليوجا والتدرب عليها. والكتب والوثائق التي حجز عليها مفتشو الضرائب «لا تدل إطلاقًا على أن مركز مانتيلاي عاش به تلميذ ... أو معلم يوجا. بل كان من الواضح أن الأشرم أثث وجَهَّز ... ليكون منزلًا يقضي فيه الأثرياء وذوو السعة إجازاتهم»<sup>٦</sup>.

كان المفترض أن تقضي الاكتشافات التي أسفرت عنها لجنة شاه على براهماتشاري. غير أن «السوامي الطائر» — كما صار يدعى لضلوعه في مجال الطيران — عاد مع عودة إنديرا وسانجاي إلى السلطة عام ١٩٨٠. وأصبح حقيقة جزءًا لا يتجزأ من حياة إنديرا اليومية؛ فتردد باستمرار على منزلها، وحضر أغلب وجباتها، وتصرف فيها كما لو أنه أحد أفراد أسرتها، إلا أن سلوكه على المائدة افتقر إلى التهذيب، وتعود الأكل بشراهة.<sup>٧</sup> ولوجوده الدائم حول إنديرا واتصاله المستمر بها، ظلت الشائعات تدور بأنه عشيقتها. فقد ظل وهو في العقد السابع من العمر بشعره ولحيته السوداويين اللامعين، ورشاقتة وطوله الذي يبلغ ست أقدام، ومظهره في لباسه الأبيض الناصع رجلًا جذابًا ساحرًا. غير أن الدور الذي اضطلع به في حياة إنديرا عام ١٩٨٠، في الوقت الذي بلغت فيه سيطرته عليها ذروتها، كان أكثر خطرًا وخبثًا من دور العاشق.

بعد أقل من شهر من الكسوف الشمسي، في ١٣ مارس وضعت مانیکا غاندي طفلًا سُمي فيروز فارون تيمناً بجده لأبيه. وتولت سونيا غاندي الاعتناء به أغلب الوقت. أما إنديرا فقد أغرمت به، وقررت على الفور أن تجعله ينام معها في غرفتها. في صباح ٢٣ يونيو عام ١٩٨٠، وقتما كان الطفل في شهره الثالث فقط من العمر، قرر سانجاي غاندي تجربة طائرة البيتس إس ٢ إيه المعدة لشخصين في سماء دلهي في الصباح الباكر.

كانت طائرة البيتس — وهي طائرة أمريكية توسط براهماتشاري في شرائها لسانجاي — أحدث الألعاب التي امتلكها سانجاي. في ساعة مبكرة من ذلك اليوم، غادر سانجاي منزل إنديرا، وقاد سيارته إلى نادي دلهي للطيران المجاور. دعا الكابتن سوبهاش ساكسينا أحد معلمي الطيران بالنادي إلى التحليق معه بالطائرة وتجربة بعض الحركات الأكروباتية الجريئة. فرفض ساكسينا دعوته لأنه كان يعلم ضعف خبرته في قيادة طائرة البيتس إس ٢ إيه. لكنه وافق بعد بعض المحاولات، وسريعاً ما أخذ هو وسانجاي يحلقان بالطائرة ويهبطان بها بسرعة فائقة في سماء دلهي. لكن بعدئذٍ، وفقاً لما رواه شهود العيان على أرض الحادث، هبط سانجاي بالطائرة هبوطاً حاداً، عازماً فيما يبدو على التحليق بها في حركة أكروباتية. لكنه فقد السيطرة عليها. فارتطمت مقدمة الطائرة بالأرض لتودي بحياة كل من سانجاي وساكسينا فوراً.

في الثامنة والربع صباحاً، عندما اشتدت حرارة الجو، وصل في بي سينج رئيس حكومة أوتار براديش الجديد إلى مكتب إنديرا للقائها. لكن بعدئذٍ، في الثامنة وعشرين دقيقة، أثناء انتظاره لإنديرا في غرفة الاستقبال، اندفع آر كيه دهاوان أمامه إلى مكتبها. وسمعه سينج يقول لها: «حدث شيء فظيع». بعدها غادرت إنديرا ودهاوان المكتب على عجل مارين بسينج، واتجها مباشرة إلى الباب الأمامي حيث انتظرتهم سيارة دبلوماسيّة. قفزاً إليها وانطلقت بهما بسرعة وهي تصدر هديرًا. فتبعهما سينج إلى الخارج وقفز إلى سيارته ثم تبعهما بسرعة كبيرة. هذا إلى أن توقفت سيارتهما محدثة صريراً في موقع الارتطام الذي صار بحلول ذلك الوقت مليئاً برجال الشرطة.

وصلت فرق المطافئ والجيش وعربات الإسعاف إلى الموقع، وأخرج المسعفون جسد سانجاي من حطام الطائرة ثم حملوه إلى شاحنة جيش. شاهد سينج إنديرا وهي تصعد إلى متنها. وهناك انحنى إنديرا على جسد ابنها، ثم سحبت البطانية الحمراء التي غطت وجهه. فبدا للحظة أنه سيغشى عليها، لكنها عندئذٍ تمسكت بسلم الشاحنة المجاورة

لتحفظ توازنها، ونظرت مجددًا إليه، ثم غطت وجهها بكتلتا يديها. وبعد وقت بدا طويلًا خرجت من الشاحنة وخلفها بعض من رجال الجيش.<sup>8</sup>

مع أنه كان من الواضح أن سانجاي وساكسينا قد لقيا حتفهما، حملتهما سيارة الإسعاف إلى مستشفى رام مانوهار لوهيا المجاور. ركبت إنديرا سيارة الإسعاف إلى جانب سانجاي. خاط الجراحون جروح جثة سانجاي المحطمة في عملية جراحية استغرقت أكثر من ثلاث ساعات وصلت أثناءها مانيكا إلى المستشفى في حالة هستيرية. فتولت إنديرا السيطرة عليها موضحة لها أنه: «وقع حادث» وأن «الأطباء عاكفون على معالجة» سانجاي. فلما انتهى الجراحون، دلفت إنديرا إلى غرفة العمليات، وطلبت من الآخرين جميعهم مغادرتها وتركها وحدها مع ابنها. وبعدها ببضع دقائق خرجت شاحبة الوجه، ولكن رابطة الجأش تمامًا من جديد.<sup>9</sup>

حُمل جسد سانجاي إلى مقر إقامة إنديرا، حيث مُد على كتل كبيرة من الثلج. وأمضت إنديرا أكثر اليوم في استقبال المعزين ببيتها. ولكنها أيضًا خرجت. وكما لو أنها مجبرة على ذلك، أصرت على زيارة موقع تحطم الطائرة من جديد. وهو الأمر الذي دارت بسببه شائعات فيما بعد بأنها قامت بذلك لاستعادة ساعة سانجاي وسلسلة المفاتيح اللتين كانا بحوزته. فسلسلة المفاتيح زُعم أنها تحوي مفتاحًا لصندوق أمانات أو خزانة تحوي الثروات التي يخفيها سانجاي. أما الساعة فقد قيل إنه كُتب على ظهرها أرقام حسابات سانجاي في المصارف السويسرية.

زارت إنديرا الموقع الذي شهد وفاة سانجاي بالفعل، ولكن ليس لأنها كانت هادئة الأعصاب بما يكفي للتفكير في استعادة أدلة إدانته. عادت يوم ٢٣ يونيو إلى هناك مرتين لا مرة واحدة لأنها أرادت أن تحفظ مشهد الحادث في ذاكرتها وأن تعاین الطائرة المهشمة. فقد أجبرها على ذلك الفضول الفطري الذي يتولد لدى من يُسلمون أحياءهم فجأة. وساقها البحث عن ولدها ومحاولة استعادته — لا استعادة أغراضه — إلى النقطة التي شهدت آخر لحظات حياته. وبتأملها بدأت تدرك فداحة خسارته.

في اليوم الذي أودت طائرة سانجاي به إلى النسيان، كان راجيف وسونيا وطفلهما في مكان بعيد يزوران عائلة سونيا في إيطاليا. فلما بلغتهم أنباء وفاة سانجاي، استقلا أول طائرة عائدين إلى دلهي. أُقيمت جنازة سانجاي في ٢٤ يونيو. وعينت إنديرا بتنظيمها بدقة كما فعلت في جنازة زوجها وأبيها. نظمت الجنازة بحيث تكون جنازة عامة مع اعتراض راجيف على ذلك، ودفعت تكاليفها من أموال الحكومة. فحُمل جسد سانجاي —

كما حمل جسد المهاتما غاندي وفيروز غاندي ونهرو من قبله — على شاحنة مفتوحة سارت بين شوارع دلهي. وجلست إنديرا ومانیکا تحت الشمس الحارقة على جانبيه وهما تتصببان عرقًا. قد أُخفيت عيني إنديرا المحمرتين المنتفختين تحت نظارة شمسية كبيرة. كان جسد سانجاي متماسكًا بالغرز التي خاطها الجراحون في المستشفى، يغطيه تل من الزهور، أما وجهه فكان مكشوفًا. لكن أنفه وإحدى عينيه سُحقا وشوه منظرهما لما دمر وأصيب إصابات بالغة. فبدت جثته بالغرز التي تصل بين أجزائها كأنها جثة لفرانكشتاين هندي. فلم يكن أي جراح أو حانوتي مهما بلغت براعته يستطيع أن يجعله يبدو سليمًا خاليًا من الندوب أو أفضل مما هو عليه الآن؛ بقايا جسد بشري بشعة غريبة المنظر فارقتها الدماء.

أُحرق جسد سانجاي في شانتي فانا على ضفاف نهر جومنا، على مقربة من الموقع الذي أُحرق فيه جسد نهرو. أشرف براهماشاري على الطقوس الجنائزية. وجلست إنديرا ومانیکا أرضًا أمام المحرقة. وكان من خلفهما الأصدقاء وأفراد العائلة، والساسة ومن بعدهما، إلى أبعد ما يصل البصر تقريبًا صفوف من آلاف المعزين. ومع أنه لا يُسمح عادة للنساء بالمشاركة في المراسم الجنائزية الهندوسية، أزال إنديرا بنفسها العلم الهندي الذي كُسي به جسد ابنها ثم تولى راجيف إشعال النار في المحرقة التي بُنيت من خشب الصندل. وأدى الطقوس الجنائزية بصفته أقرب الذكور نسبيًا إلى المتوفى كما تقضي التقاليد؛ فأبحر برماد أخيه تحت الشمس الحارقة سيرًا على إرشادات براهماشاري ورجال الدين الذين عكفوا على تلاوة الترانيم.

في غضون أيام من وفاة سانجاي، في جميع أنحاء البلاد، أُنشئت فورًا المعالم التذكارية بكل أنواعها من التماثيل إلى الطرق العامة إلى المتنزهات؛ إحياءً لذكرى سانجاي. لقد ارتفع سانجاي بموته إلى مرتبة الشهداء، فازداد عدد عشاقه سريعًا، وعكفت البلاد على مناحة هستيرية تغيرت فيها أسماء محطات توليد الكهرباء المائية، والقطارات ومحطات الحافلات والجسور والسدود والشوارع والمدارس والمستشفيات، وما قد يعد أكثر غرابة، سلسلة من حوادث الحيوان أنشأتها زوجته باسم سانجاي.<sup>10</sup>

في اليوم التالي على جنازة سانجاي، سأل بي كيه نهرو راجيف عن الأموال التي جناها سانجاي إبان حالة الطوارئ. واستفهم عن مكانها، فأخبره راجيف بأنه لم يُعثر إلا على مليوني روبية في المكتب المركزي للمؤتمر بدلهي. لكنه أفضى إليه كذلك بأن سانجاي ترك بعد وفاته «عشرات الملايين الأخرى التي لم يعلم عنها أحد شيئًا». إلا أن تلك الأموال

ظهرت بعد وفاته. فعندئذٍ القليل من الناس — البعض منهم من نيودلهي، والبعض الآخر ممن عني بأمواله خارج البلاد في لندن — اغتنوا بصورة ملحوظة.<sup>11</sup>

وقد ازدهرت أحوال السوامي دهيرندرا براهماتشاري أيضاً بعد وفاة سانجاي، وأخذ يزداد قوة على قوة؛ لأن مشروعاته التجارية ارتبطت بمشروعات الأخير للعديد من السنوات. فتاجر في الأسلحة وصار له برنامج تليفزيوني خاص به، واضطلع بمنح التراخيص والتصاريح لأعلى المزايدين. وتزايدت سيطرته على إنديرا حتى صارت أقوى من أي وقت مضى. فقبل وفاة سانجاي حذرهما براهماتشاري من أن أعداءها عاكفون على إقامة طقوس هندوسية لإنزال مصيبة على أسرتهما. وأخبرها بأن عليها كي تتجنب الأذى أن تزور بعض المقامات وأن تؤدي بعض الشعائر. فلما لم تتمكن إنديرا من الانتهاء من زيارة كل هذه المقامات وقتما تحطمت طائرة سانجاي، وأخفقت بذلك في التصالح تماماً مع القوى المعادية لها. شعرت على حد قولها لبوبول جاياكار أن موت سانجاي كان بالإمكان تلافيه وأنها المسؤولة عنه. فاستغل براهماتشاري مخاوفها وأذكي شعورها بالذنب.<sup>12</sup>

مع أن إنديرا تظاهرت بالعلمانية، وزعمت أن إيمانها بالعقائد الروحانية لا يعدو أضعف درجات الإيمان، فإنها كانت دائماً ما تؤمن بالخرافات، وتلك صفة ورثتها عن جدتها لأنها سواروب راني وعن أمها. فعلى سبيل المثال رفضت الانتقال إلى بيت تين مورتى قبل اللحظة التي يبدو الطالع فيها حسناً، الأمر الذي أزعج أباهما. وظلت سنوات — على سبيل الوقاية من الشر لا التجميل — لا ترتدي من الحلي سوى مسبحة خشبية أهدتها إليها أناندامايي مستشارة والدتها في الروحانيات.

عام ١٩٨٠، في أعقاب موت سانجاي، انهارت حياة إنديرا على المستوى الشخصي، فلجأت — عن طريق براهماتشاري وبتأثيره — إلى طلب المساعدة من قوى «أعلى». إلا أنها لم تكن وحدها في ذلك. فالكثير من الهنود ومنهم السياسيون والمفكرون المتأثرون بالغرب أولوا المعلمين الروحانيين المشهورين ثقتهن. فهؤلاء «الآلهة البشريون» لم يكونوا مستشارين روحانيين وظيفتهم تحسين صورة الساسة كبيلي جراهام في صلاة الإفطار مع ريتشارد نيكسون مثلاً. فمع أن الساسة الهنود تظاهروا بأن اعتمادهم على معلمهم الروحانيين بسيط، بل أخفوه ولم يجاهرُوا به. فإنهم لجئُوا إليهم لطمأننتهم ونصحهم وإنبأتهم بالمستقبل، خاصة في الأزمات. وكان موت سانجاي بعد فقد فيروز أصعب أزمة في حياة إنديرا، لذا ففي الفترة التي تلتها مباشرة أكثرت من الاعتماد على براهماتشاري.

عندما توفي فيروز ونهرو، استغرقت إنديرا أسابيع بل شهوياً لتعود — إلى حد ما — إلى الحياة بصورة طبيعية. أما بعد وفاة سانجاي فقد عادت إلى العمل مباشرة تقريباً. ووفقاً لأركيه دهاوان لم تتأخر «في تسليم ملف واحد».<sup>13</sup> إلا أن هذا لا يعني أنها كانت حينذاك قد استعادت توازنها. فعلى حد قول سونيا غاندي بعدها بسنوات، بعد «كارثة» وفاة سانجاي، كانت إنديرا «مع شجاعتها ومظهرها الهادئ محطمة معنوياً».<sup>14</sup>

لكنها بعد أربعة أيام فقط من حادث ارتطام طائرة سانجاي المميت، في ٢٧ يونيو، أو اليوم الذي أخذ فيه راجيف وسونيا ومانيكما رماد سانجاي لإلقائه في نهر سانجام بالله آباد، عادت إلى العمل. وفي ٢٨ يونيو، كان لديها موعد مع أستاذة جامعية أمريكية تدعى فرانسيس فرانكل. كانت فرانكل تعكف آنذاك على كتابة مقالة عن سيرة إنديرا من أجل الطبعة الجديدة للموسوعة البريطانية، وكانت متأكدة أن موعدها مع إنديرا (وهو موعد يعد بالكاد عاجلاً) سيُلغى على ضوء وفاة سانجاي. إلا أن ذلك لم يحدث. ففي مكتب إنديرا التقت فرانكل تلك الأخيرة التي التقتها قبل ذلك لعدة مرات. وأبدت إنديرا استعداداً للتعاون معها، لكن وجهها اكتسى بالهدوء، ولم يحمل أي مشاعر، ولم تقل الكثير. فآثار فتورها، واضطراب عينها اليمنى الذي لا يتوقف، والغربة الصارخة التي تتسم بها تلك المقابلة في ظل الظروف الصعبة التي جاءت وسطها، خوف فرانكل. كانت إنديرا بلا شك منهكة القوى تعاني حزناً شديداً، لكنها احتفظت بتماسكها حتى نهاية اللقاء، إلى أن سألتها فرانكل ما أكثر ما تود أن يذكره الناس عنها؟ فحدقت بها للحظة ثم أجابت بمرارة: «لا أريد أن يذكرني بشيء».<sup>15</sup>

ذلك الرد وكأنه يخبر عن نبوءة، أصاب عين الحقيقة. فالتاريخ لن يذكر إنديرا غاندي بأي شيء محدد؛ سواء استراتيجية ثابتة أو أيديولوجية أو سياسية أو رؤية. ففي أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات قادت الياسارية. لكنها بعد ظهور سانجاي على الساحة السياسية، نبذت ولاءها للأيديولوجيات السياسية تماماً. وسارت حياتها من سيئ إلى أسوأ، مع أن احتمالات ذلك بدت لدى وفاة سانجاي شبه مستحيلة. فحينذاك لم ينكسر فؤادها وحسب. بل أيضاً زال عنها شعورها بالأمان. في الواقع لقد لجأت منذ وقت طويل، منذ بداية مسارها السياسي إلى سياسة رد الفعل المقاوم لا المبادرة. لكن تلك السياسة الارتجالية التي تعودتها استحالت عقب وفاة سانجاي إلى إجراءات يائسة. ففيما تلا من أشهر وسنوات، لجأت حفاظاً على منصبها إلى تأليب مختلف الطوائف، والجماعات الدينية والمناطق بعضها على بعض في محاولة اقتربت يوماً بعد يوم من الفشل.

على أن النتيجة المباشرة لوفاة سانجاي كانت إيجابية. فعائلة إنديرا وأصدقائها — وفيهم من حلت بينه وبينها الجفوة — توافدوا لمواساتها. فسعدت بمصالحتهم لها مع أنها كانت كسيرة الفؤاد، لا يمكنها احتمال شيء. ولعدة أيام، ملأت بيتها النساء اللاتي جمعت بينهن وبينها علاقة وطيدة على مر حياتها. ومكثن معها في محنتها؛ فقدمت فوري نهرو، وبوبول جاياكار، وشانتا غاندي، وسوبهادر جوشي. وهرعت فيجايا لأكشمي بانديت — عمته التي أدارت ضدها الحملات الانتخابية في عام ١٩٧٧، والتي جمعتها بها علاقة متعثرة — من دهرادون لنجدها. فإنديرا وفيروز قبل ثلاثين عامًا سانداهما لما توفي زوجها في السجن. فزالت حينئذٍ البغضاء والريبة اللتان باعدتا بينها وبين إنديرا وقتًا طويلاً.

وقد تناست دوروثي نورمان بدورها الجفوة التي نشأت بينها وبين إنديرا. فكاتبت تلك الأخيرة فور سماعها ب وفاة سانجاي، لتحطم بذلك حاجزًا من الصمت استمر أربع سنوات في علاقتهما. أما سوراج باول الذي أيد إنديرا في الفترة المظلمة التي عانتها عقب حالة الطوارئ، فقد سافر إليها جواً من لندن. لكن مع كل تلك المشاعر الفياضة على المستوى العام والخاص سيطر على دلهي شعور غريب وغامض. بكى الناس — كما كتب روميش ثابار — «لأن الأمر كله كان مأساوياً ... لأن تلك كانت بلا شك مأساة». لكن في الوقت نفسه، مع وفاة سانجاي سرى في جميع أنحاء البلاد «شعور غامر وغريب بالارتياح».<sup>16</sup> لقد أعرب بي كيه نهرو بعدها بسنوات عما شعر به الكثيرون في يونيو عام ١٩٨٠ لكن لم يقولوا على النطق به: موت سانجاي كان أبعد ما يكون عن الكارثة، لقد كان حقيقة «أفضل ما قد يحدث للهند».<sup>17</sup>

فبموته صار بمقدور إنديرا إجراء التعديلات الجذرية على حكومتها، والتخلص من أتباعه وإرثه البغيض. وصار بإمكانها أيضاً الفوز بتأييد مستشاريها السابقين البارعين، وفي مقدمتهم بي إن هاكسار وروميش ثابار وأي كيه جوجرال ومن كان على استعداد لمسامحتها على الزلات التي وقعت فيها في حالة الطوارئ من نخبة رجال الفكر السياسي. غير أنها فضلاً على فشلها في كسب ود ثابار، لم تحاول استمالة هؤلاء من جديد، أو التخلص مما ورثه سانجاي. بل إنها قالت حينما نظم إندر مالهورا اجتماعاً بينها وبين مستشارها الصحفي شارادا براساد وستة من رؤساء التحرير البارزين إن جميع رجال الفكر الذين انتقدوها متأثرون بالولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتي. وفوق

ذلك فسرت عدم ثقتها بأعضاء حكومتها السابقين وسماحها لـ «أتباعها» بإدارة الأمور. قالت إنها لا تستطيع الاعتماد على مسئولين حكوميين رفيعي المستوى «لم يبذلوا قط أي محاولة لمساعدتي. فهل ألام على أنني أوكّل مناصب حساسة لرجال قد لا يكونون على قدر كبير من البراعة، ولكن بوسعي أن أثق بهم».<sup>18</sup>

في الواقع، بحلول ذلك الوقت، توقفت إنديرا عن الثقة بكل من لا تجمعها به صلة قرابة أو صداقة. فمع أنها صارت تملك حرية إقامة علاقات مع الشخصيات المرموقة النزيهة، أثرت أن تعتمد على رجال قد «لا يكونون على قدر كبير من البراعة ولكن بوسعي أن أثق بهم». وكان على رأسهم ابنها المتبقي راجيف بصفته البديل الواضح لسانجاي.

في غضون أيام من وفاة سانجاي، حث الكثيرون من أتباع إنديرا في حزب المؤتمر راجيف على خوض المجال السياسي، ورجوه إلى ذلك. ولم يكن هذا من جانب إنديرا نفسها وإنما من جانب الموالين لحزب المؤتمر وفيهم أعضاء حزب المؤتمر القدامى الذين لم تتلوث سمعتهم كتي إن كاول. استغرق راجيف ما يقرب من العام ليتخذ قراره، تعرض إبانة لضغط هائل. على رأس الضغوط كان هناك علمه بحاجة والدته إليه، وممانعة زوجته سونيا الشديدة لخوضه المجال السياسي. قاومت سونيا — على حد قول راجيف — ذلك بشراسة. و«عذب الصراع» — وفقاً لسونيا — راجيف بحق. فمن ناحية كانت والدته «وحيدة ومحطمة»، وفي الوقت نفسه، ظلت زوجته تذكره بـ «الحياة التي أسسناها معاً»، التي علمت أنها ستذهب فداء نظام سياسي ... «سيحطمه ويقضي عليه».<sup>19</sup>

لكن كما كان الحال دوماً في تاريخ أسرة نهرو غاندي، الإحساس بالواجب يكسب الصراع. ففي آخر الأمر، في ٥ مايو عام ١٩٨١، أعلن راجيف اعتزامه الترشح في انتخابات يونيو الفرعية لتمثيل دائرة سانجاي السابقة؛ دائرة أميثي. أميثي انتظرت هذا الإعلان بفارغ الصبر؛ لأنه كان من المفترض أن يشغل مقعد سانجاي ممثل عن الدائرة في غضون ستة شهور من وفاته. فترشح راجيف للمنصب، مع أنه لم يهتم قط بالشؤون السياسية، ولم يحمل حتى عضوية بحزب المؤتمر. وبدأ الأمر له شبيهاً بدخول السجن. لكنه خاضه بعد عشرة شهور من التردد، لأنه كان «لا بد أن يكون هناك من يساعد أُمي».<sup>20</sup> فاستقال من عمله في الخطوط الجوية الهندية، وأقلع عن ارتداء القمصان والسترات، وتعود ارتداء الخادي الأبيض الخاص بحزب المؤتمر.

كما هو متوقع، أثار ذلك معارضة عنيفة بين المثقفين. فأشار نقاد راجيف إلى أنه لا يملك المقومات الأساسية التي تكوّن السياسي، ولا النخبين ولا الخبراء ولا الدراية



السياسية. لم يملك من المؤهلات إلا النسب. وعليه استمر أغلب المثقفين في الهند وخارجها في معاداة إنديرا، خاصة عندما اتضح أنها تنوي اختيار راجيف خليفة لها. فنشرت مقالات فيد ميهتا اللاذعة عنها في جريدة «ذا نيو يوركر» مجمعة في كتاب. ولم يُبد إلا القليل من الكتاب والصحفيين — منهم تريفور فيشلوك — استعدادًا لنشر مقالات موضوعية عنها. إلا أن العامة لم يروا الأمور من ذلك المنظور. فعلى حد قول أحد كتاب سيرة إنديرا فيما بعد، «التاريخ الهندي ... سلسلة طويلة متصلة من الحكم الملكي المتوارث. فضلًا على أن النسب العائلي يعد أمرًا مهمًا في حياة كل هندي ... والتقاليد الهندية تقضي بأن يتبع المرء مهنة أسلافه. فعلى مدى قرون علم الحرفيون المهرة والموسيقيون سلالاتهم مهاراتهم ... لذا اعتُبر إعدادها ابنها لخلفتها سيرًا على العادات الراسخة لا غير».<sup>21</sup>

على كل، لم يكن مستغربًا أن راجيف فاز في انتخابات دائرة أميثي الفرعية ليونيو بما يربو على ربع مليون صوت. وأدى في ١٧ أغسطس عام ١٩٨١، قبل ثلاثة أيام من عيد ميلاده السابع والثلاثين، قسم عضوية البرلمان. بعد قرابة عام سيلقي راجيف خطبته الأولى في البرلمان، لكنه سيتحول إلى الشعبية الواسعة قبل ذلك بوقت طويل. فقد كان وسميًا وجذابًا، ولا تجمععه علاقات أو صلات بأصحاب السمعة المشوبة. وقد بدا رجلًا طيب القلب عطوفًا. حتى إنه حقيقة عُرِف في وقت قصير بـ «الأستاذ نظيف». هذا فضلًا على أنه امتلك عائلة جميلة تبدو رائعة في الصور.

ما إن قرر راجيف خوض المجال السياسي حتى أيدته سونيا غاندي تأييدًا تامًا، بالضبط كما فعلت دومًا مع إنديرا. أما زوجة أخيه مانیکا غاندي فقد ظلت تعارض عمله السياسي الجديد حتى بعد فوزه في انتخابات دائرة أميثي؛ فقد أرادت أن تتسلم منصب سانجاي. إلا أنها كانت حينئذٍ في الثالثة والعشرين من العمر، أي في سن صغيرة جدًا لا تسمح بالترشح لعضوية البرلمان، أما بعدها بعامين فستبلغ السن المناسبة لذلك. مع هذا أخذت مانیکا تنتقد راجيف بوضوح، ومعه — ولكن بصورة أقل وضوحًا — حماتها.

لطالما مثلت مانیکا مصدر إزعاج لأسرة إنديرا، لكن عقب وفاة سانجاي فقط تزايد إزعاجها. وفي البداية شعرت إنديرا بالتعاطف مع ابنة زوجها التي صارت أرملة. حتى إنها عرضت عليها أن تكون مساعدتها الشخصية. لكن سونيا — التي ظلت على غير وفاق مع مانیکا، مع أنها كانت المسئولة الأولى عن الاعتناء بطفلها فارون — عارضت ذلك بشدة. ولأنها صارت مقربة جدًا لدى إنديرا، ألغت إنديرا عرضها لمانیکا مراعاة لشعورها.<sup>22</sup>

سيطرت المشاكل في البنجاب وكشمير على آخر فترات ولاية إنديرا، لكن بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨١ كان أكثر ما يقلقها هو الوضع في ولاية آسام بشمال شرق البلاد. جاءت المشاكل إلى آسام من خارجها، لما قدم إلى الولاية عدد كبير من المهاجرين البنغاليين — أغلبهم من المسلمين — واستقروا فيها بعد مغادرتهم بنجلاديش إبان حرب عام ١٩٧١. حينذاك تدفق المهاجرون على الولاية بأعداد هائلة حتى إنهم هددوا بتحويل سكانها إلى أقلية بينهم. وإزاء ذلك تقدم الهندوس الذين مثلوا أغلب سكان الولاية بأربعة مطالب إلى الحكومة المركزية بخصوص هؤلاء «الدخلاء»، عُرفت باسم المطالب الثائية الأربعة، وفيها طالب الهندوس بتمييز المهاجرين البنغاليين، وتجريدتهم من حقوق المواطنة، وترحيلهم إلى بنجلاديش، أو توزيعهم على الولايات الهندية الأخرى. وفوق ذلك نظمت وقادت منظمة طلابية تدعى اتحاد عموم طلبة آسام تظاهرات مناهضة للبنغاليين. فلما بلغت القلاقل في الولاية حدًا خطيرًا في أبريل عام ١٩٨٠، أعلنت «منطقة اضطرابات». اختل في الولاية النظام العام فاضطرت الحكومة المركزية إلى إرسال قوات شبه عسكرية إليها؛ لحماية خطوط أنابيب النفط الخاصة بها التي تمد الهند بثلاث احتياجاتها من البترول.

لكن لم يعتبر البنغاليون وحدهم سبب المشاكل في آسام. فحينذاك ثار القبليون من أهل المنطقة بدورهم على سيطرة الطوائف الآسامية الرفيعة على أراضيهم وطلبوا بطرد «السكنى بلا تصريح» من مناطقهم القبلية. لكن مع أن شكوى سكنى آسام على اختلافاتهم كانت منطقية، إلا أن إنديرا — كما صارت عادتها — اتهمت «الجهات الأجنبية» بالتحريض على الاضطرابات التي وقعت في الولاية. وفي البرلمان أدان وزير داخليتها الجديد زایل سينج الولايات المتحدة والصين بالأخص لتدخلهما في شئون الولاية. رغم تزايد الاضطرابات في الهند — وربما إلى حد ما بسببها — أمضت إنديرا وقتًا طويلاً من عام ١٩٨١ في القيام بزيارات لافطة للانتباه خارج البلاد. وهذا ما جعلها تُمتدح في الصحافة الهندية، وخدم أيضًا كمتنفس من الاضطرابات الداخلية. ففي مايو زارت الكويت والإمارات العربية المتحدة، وسويسرا التي زارت فيها مدرستها القديمة ببكس مدرسة إيكول نوفيل التي كانت قد صارت ديرًا، رحبت فيه الراهبات بها ترحيبًا حارًا. من ناحية أخرى لم تشعر إنديرا بالحنين إلى زيارة مصحة رولير في ليسين، أو بالأحرى مجموعة الشقق الفاخرة التي استحالت إليها. وزارت في أغسطس كينيا مع سونيا وراهول وبريانكا ومانিকা التي بدت متجهمة وظلت تشكو من أن جميع أفراد العائلة عداها سافروا بجوازات سفر دبلوماسية خاصة. وبعدئذٍ في أواخر سبتمبر وأوائل

أكتوبر قامت بجولة طويلة في جنوب شرق آسيا زارت فيها جاكرتا وفيجي وتونجا وأستراليا والفلبين. أما ما تبقى من شهر أكتوبر. فقد قضته في زيارة رومانيا ثم حضور قمة رؤساء دول الشمال والجنوب في كانكون بالمكسيك. معنى كل ذلك أن إنديرا ظلت طوال صيف وخريف عام ١٩٨١ تقريباً خارج الهند.

وفي غيابها ظلت المشاكل تتنامى في البلاد. فابتلعت الفتن الطائفية ولاية آسام، ومعها ولاية البنجاب. في تلك الولاية الأخيرة ظلت الاضطرابات تتصاعد منذ انتخابات عام ١٩٧٧ عندما خسر حزب المؤتمر جميع مقاعد المجلس الأدنى التسعة في البرلمان أمام حزب أكالي دال السيخي. لكن الصراعات الدائرة هناك تعود حقيقة إلى وقت أبعد كثيراً من ذلك. إنها في الواقع تعود إلى الوقت الذي جرى فيه تقسيم البنجاب إلى نصفين متساويين بين الهند وباكستان.

في عام ١٩٦٦، بعد وقت قصير من تولي إنديرا منصب رئيسة الوزراء، سمحت بما رفض والدها السماح به. قبلت إقامة ولاية مستقلة تتحدث البنجابية، فيما انفصلت ولايتا هاريانا وهيماتشال براديش عن منطقة البنجاب التي خرجت من الأساس منقوصة من تقسيم الهند. لكن حكومة إنديرا أكدت حينذاك أن ولاية البنجاب الجديدة شأنها شأن الولايات الأخرى قامت على أساس قانون عام ١٩٥٦ لإعادة تنظيم الولايات، وأنها نشأت لأسباب لغوية — وليست دينية — مع أن ٥٦٪ من سكانها من السيخ. (بالمقارنة بتلك الأغلبية الضعيفة، يعد السيخ في سائر أنحاء الهند أقلية لا تمثل إلا ٢٪ من نسبة السكان حيث يمثل الهندوس الأغلبية بنسبة ٨٠٪).

منذ قيام الديانة السيخية قبل ما يقرب من خمسمائة عام، عاش السيخ في البنجاب في تآلف مع جيرانهم الهندوس، وتزوجوا منهم في الكثير من الأحيان. غير أن الديانة السيخية في إيمانها بإله واحد، ورفضها للنظام الطائفي الهندوسي اختلفت اختلافاً جذرياً عن العقيدة الهندوسية. والسيخ أنفسهم تعمدوا التأكيد على ذلك الاختلاف بالتمسك بخمسة تقاليد تميزهم عن جيرانهم. السيخ من «الخالصة» أو الأنقياء لا يحلقون شعر رعوسهم أو لحاهم، ويحملون مشطاً على الدوام، ويرتدون سواراً من الفولاذ، وبنطالاً قصيراً ويتسلحون بخنجر. وأكثر ما يميز رجالهم عن غيرهم بوضوح هو شعرهم الطويل الذي يغطونه دائماً بعمامة.

بعد نشأة ولاية البنجاب عام ١٩٦٦، ظلت قضايا معينة تتعلق بتوزيع الأراضي، واستخدام مياه الأنهار والعاصمة تشانديغار المشتركة بين ولاية البنجاب وهاريانا بلا حل لأي منها، وبقيت مظلمة لدى السيخ. لكن بعدئذٍ عام ١٩٧٣ صرح حزب أكالي دال

السيخي رسميًا بمطالب السيخ في اجتماع بأناند بور صاحب في بيان عرف باسم قرار أناند بور صاحب. أراد السيخ أن يملكوا وحدهم عاصمة الولاية تشانديغار وأن يحتفظوا بالمناطق التي تتحدث الهندية البنجابية وبسيطرتهم على مياه الأنهار الضرورية لممارسة الزراعة في الولاية.

فلما ماطلت الحكومة المركزية في تحقيق مطالبهم. صارت الغالبية السيخية في البنجاب أكثر إصرارًا على تحقيق مطالبها، وبدأ حزبها السياسي حزب أكالي دال يمثل تحديًا لحزب المؤتمر. بعدئذ في انتخابات عام ١٩٧٧، هزم حزب أكالي دال حزب المؤتمر. فقرر سانجاي غاندي — رغم خروج إنديرا من السلطة — بناءً على نظرة مستقبلية أن يقضي على سيطرة حزب أكالي دال في الولاية. ومن ثم نصحه زایل سينج رئيس حكومة الولاية السابق وهو سيخي من حزب المؤتمر بإيقاع الفرقة بين السيخ بدعم وجه جديد على الساحة بمقدوره تحدي قيادات حزب أكالي البارزة.

فأرسل سانجاي بعضًا من أتباعه إلى البنجاب للعثور على رجل دين سيخي بإمكانه إيقاع الفرقة بين السيخ وتقسيم حزب أكالي دال. فخرجوا بزعيم ديماجوجي يدعى جارنيل سينج بندرانواله وهو واعظ أصولي متشدد في الثلاثين من العمر يملك عينين ثاقبتين، ولحية سوداء طويلة ناعمة. أراد تطهير السيخية والعودة بها إلى منهجها القويم الذي لم يتلوث. فجمع حوله سريعًا عددًا كبيرًا من الأتباع المتشدين. وقد ساندتهم وأيد قائدهم سرًا سانجاي وزایل سينج.

لكن مع تنامي نفوذ بندرانواله، نما كذلك طموحه واستقلالته. في عام ١٩٨٠ أدار الحملات الانتخابية لحزب المؤتمر في ثلاث دوائر انتخابية بولاية البنجاب، زعم مرشح حزب جاناتا في إحداها أن إنديرا ظهرت على نفس منصة الخطاب مع بندرنواله. غير أن بندرنواله عقب الانتخابات أعلن استقلاله ورفض أن يكون أداة لحزب المؤتمر. وفي آخر الأمر لم ينته هو وأتباعه إلى تمثيل مطلب بمنح ولاية البنجاب مكانة خاصة وحسب، بل أيضًا أناب عن مطلب بإقامة دولة سيخية مستقلة تدعى خالستان.

في ٩ سبتمبر عام ١٩٨١، قُتل رميًا بالرصاص صاحب سلسلة صحف بنجابية يدعى لالا جاجات نارين أدانت المقالات الافتتاحية لجرائده بندرانواله رجل الدين الكاريزماتي. فلما كان ذلك الأخير هو العقل المدبر وراء الاغتيال اعتُقل في ٢٠ سبتمبر. لكن عندها اندلعت التظاهرات الغاضبة في جميع أنحاء البنجاب احتجاجًا على اعتقاله، تدخلت الحكومة المركزية، وتولى زایل سينج — الذي صار بحلول ذلك الوقت وزير الداخلية —

إطلاق سراحه في ١٤ أكتوبر. فكان السجن لبندرناواله — كما كان الحال في أوقات كثيرة جداً من التاريخ الهندي — نقطة تحول. فقد دخله دجالاً على المستوى المحلي، وخرج منه بطلاً على المستوى القومي. ولم يرَ أنه مدين بالفضل للحكومة المركزية على إطلاق سراحه، فجال كالمُنْتَصِر في أرجاء العاصمة وبومباي يستعرض شعبيته الكبيرة بين السيخ الذين يسكنون خارج البنجاب.

ولدى عودته إلى البنجاب، ضاعف أنشطته التخريبية. فتصاعدت أعمال العنف العشوائية. وقُتل الهندوس وقُطعت رءوس الأبقار وألقي بها إلى داخل المعابد الهندوسية. وأمر بندرناواله بنشر قائمة بأسماء الخصوم الذين يستهدف اغتيالهم في الجرائد. فذب الذعر بين الناس وأخذ الهندوس يهاجرون إلى ولاية هاريانا ودلهي. وقُتل ابن لالا جاجات ناراین — الذي كان بدوره صحفياً — بعد عام بالضبط من مقتل أبيه، فتأكدت على نحو مؤثر رسالة بندرناواله بأن كل من يسيء الكلام عن حركته سيهلك. وقد قُتل على حد سواء السيخ والهندوس الذين انتقدوه. وقد تخلص بنهاية عام ١٩٨٢ من الكثير من أعدائه. بحلول الوقت الذي أدركت فيه إنديرا وزايل سينج أن بندرناواله الوحش الذي صنعه سينج مع سانجاي قد خرج عن السيطرة، كان الأوان قد فات على التحرك. فعقب إطلاق سراح بندرناواله من السجن، انتقل مع جيش أتباعه إلى مجمع المباني الذي يحوى المقامات الأكثر قدسية لدى السيخ؛ المعبد الذهبي في أرميتسار. ومن ذلك الحرم الآمن، استمر بندرناواله في قيادة عصاباته التي خرجت تنتهك حرمة المعابد الهندوسية وتقتل وتنهب وتشعل الحرائق في القرى. ومن هنا فُرض على الحكومة المركزية مواجهة حركة انفصالية في البنجاب. وفي تلك الأثناء توافدت جموع الإعلاميين الدوليين والصحفيين على أرميتسار للتزود بمعلومات عن بندرناواله الذي صار نجماً إعلامياً.

في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٨١، وطوال عام ١٩٨٢، في الوقت الذي اشتعلت فيه الاضطرابات في البنجاب، ظلت إنديرا ترفض اتخاذ إجراءات قمعية في الولاية متذرعة بهندوسها، لكنها بذلك أطلقت يد جيش بندرناواله فيها. ولم يكن دافعها لذلك الإبقاء على انقسام حزب أكالي دال وحسب؛ لقد هدفت أيضاً إلى زيادة مؤيديها من الهندوس الذين يمثلون الأغلبية في سائر أنحاء البلاد. غير أن تلك كانت محاولة يائسة لم تجد نفعاً لوقت طويل. ومع ذلك لم تنتبه إنديرا إلى أنها لن تكون قادرة على إنقاذ الموقف إلا بعدما ابتلعت الفوضى الولاية وخرج العنف فيها عن السيطرة. عندئذٍ حاولت إنديرا التفاوض مع حزب أكالي دال وأتباع بندرناواله. فالتقت بهم مرتين، على أنه ليس من المؤكد — كما يزعم

— أنها التقت ببندرنواله نفسه. لكن المفاوضات لم تثمر شيئاً، فاضطلع راجيف غاندي ومستشاروه — وبالأخص ابن عم والدته آرون نهرو — بمهمة حل مشكلة البنجاب والتعامل مع بندرنواله وحزب أكالي دال العويصة التي تتزايد خطورتها يوماً بعد يوم. افتتحت دورة البرلمان لعام ١٩٨٢ بإعلان مقتل ٩٦٠ هاريجاني على مستوى البلاد في العامين الماضيين. واندلعت أعمال العنف بين المسلمين والهندوس. وتأزمت الأوضاع بين الطوائف بتحول العديد من الهاريجانيين «المنبوذين» إلى الإسلام أو المسيحية لجوءاً إلى الطريقة الوحيدة لتلافي مصيرهم في النظام الطبقي الهندوسي. إلا أنهم لم ينجوا منه؛ إذ ظلت أشكال التمييز تمارس ضدهم بعد تغيير ديانته. فمثلاً في جنوب الهند لم يسمح للمسيحيين من أبناء الهاريجانيين بالجلوس على مقربة من المسيحيين غير الهاريجانيين في الكنيسة. وتسبب تغيير الهاريجانيين لديانته في ارتكاب المزيد من الفظائع في حقهم. فطالب الهندوس المتعصبون بأن تمنع الحكومة تغيير الديانة. هذا الأمر رفضته إنديرا مصممة على أن الهند دولة علمانية، وعلى أن منع تغيير الديانة «يتنافى مع الحرية الدينية التي يكفلها الدستور». إلا أنها انجذبت إلى دوامة الصراع الطائفي، وألبت الطوائف المختلفة بعضها على بعض سيراً على استراتيجيتها الجديدة.

بدا أن المشاكل تحيط بإنديرا من كل ناحية، وفي ذلك بيتها. فالمشاكل مع مانیکا بدورها لم تنته. بعد رحلة إنديرا لكينيا في صيف عام ١٩٨١ اتضح للجميع أنها تفضل سونيا على مانیکا، وأن تلك الأخيرة تزعجها للغاية. ومن ثم همشتها إنديرا تدريجياً. ففي مآدب العشاء الرسمية أجلس مانیکا على منضدة أخرى مع موظفين كآر كيه دهاوان خشية أن تتفوه بشيء مهين أو محرج للضيوف. ولأنها لم تكن سبباً للخلافات في العائلة وحسب. بل أيضاً شاعت في دلهي مختلف أنواع الشائعات — التي لم تثبت صحة أي منها تماماً — عنها وعن والدتها. طلبت إنديرا من خوشوانوت سينج لما فقدت الأمل فيها أن يخبرها بأنها تسبب لها المشاكل. فلما أخبرها خوشوانوت بذلك، قالت له إن آل غاندي يعاملونها بازدراء ونعتت إنديرا بـ «العجوز الشمطاء».<sup>23</sup>

لما شعرت مانیکا أنها تُهمش أكثر فأكثر في منزل إنديرا، وأحست بالنقمة تجاه تلك الأخيرة، وساد بينها وبين راجيف التنافس، ومقتت سونيا، قررت في فبراير عام ١٩٨٢ الانتقام ببيع مجلتها المصورة سوريا إلى أصوليين هندوس يمينيين من أعداء إنديرا السياسيين. وسربت معلومات سرية حساسة من بيت إنديرا، من بينها خطابات عائلية. ظلت الخلافات في بيت إنديرا تكبر وتصغر. لكن في أغلبها رفض أهل البيت الحديث

بعضهم إلى بعض. وكانت أمبيكا أخت مانىكا ووالدتها أمتيشوار أناند طرفاً وثيقاً في تلك المعارك المستمرة.

وصلت الأمور إلى ذروتها في مارس عام ١٩٨٢ عندما وافقت مانىكا على أن تخطب في مؤتمر بلكناو لمؤيدي سانجاي غاندي الذين كانوا جميعاً أعداء لراجيف غاندي. آنذاك كانت إنديرا بلندن في مهرجان الهند في لقاء مع رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت ثاتشر ومملكة بريطانيا. لكنها من مكانها البعيد أرسلت إلى مانىكا أمراً بعدم حضور اجتماع لكناو الذي رأت أنه معاد لمؤتمر (آي) وراجيف. سافرت إنديرا جواً عودة إلى دلهي في ٢٧ مارس. علمت لدى وصولها إلى مطار بالام بأن مانىكا سافرت إلى لكناو لتخطب في المؤتمر. فبعثت في إثرها خطاباً تكرر فيه أمرها لها بعدم حضور المؤتمر وتحذرها من أنها ستضطر لمغادرة منزل آل غاندي إن حضرته. فلم يثن ذلك مانىكا التي ألقت الخطاب ثم عادت إلى دلهي لتواجه عواقب فعلتها.

تميزت إنديرا غضباً و«تأهبت لمواجهة» مانىكا. تلك المواجهة التي لم تلبث أن تفجرت كما كان محتملاً أن يحدث. فقدت إنديرا السيطرة على أعصابها، و«طار صوابها».<sup>24</sup> وبعد مشادة ساخنة مع مانىكا كتبت إليها رسالة عاصفة اتهمتها فيها بسلطة اللسان، وأشارت إلى أن سانجاي كان قد سأم تقلباتها، وانتقدت الخلفية والأسرة اللتين انحدرت مانىكا منهما، اللتين اختلفتا تماماً عن أسرة إنديرا وخلفيتها. لكن ذلك الخطاب — مع اتهام مانىكا لإنديرا بأنها كتبت لتعرضه على «الأجيال القادمة والصحافة» — لم يخرج إلى ساحة العلن، ولم يُستدل على فحواه إلا من رد مانىكا اللانزع عليه الذي نشر في جريدة «إنديان إكسپريس» في ٣١ مارس.

في خطابها العلني، اتهمت مانىكا إنديرا بالإساءة إليها «جسدياً ونفسياً» وبتعذيبها «بكل معنى الكلمة» و«بكل الطرق التي يمكن تصورها». وزعمت أنها ذهبت إلى مؤتمر لكناو كضيفة، وأنها لما خطبت فيه أيدتها وستؤيدها دوماً.<sup>25</sup> أثار خطاب مانىكا ضجة كبيرة حتى إن مستشار إنديرا الصحفي شارادا براساد أدلى ببيان إلى وكالة يونايتد نيوز أوف إنديا نشرته أغلب الصحف الوطنية. جاء فيه:

«إن الخلافات بين السيدة غاندي وزوجة ابنها نشأت مع إبرامها صفقة سرية لبيع مجلة «سوريا» مع قائد حزب الآر إس إس ساردار أنجري. السيدة مانىكا غاندي لم تأت على ذكر ذلك مطلقاً للسيدة غاندي ... التي شعرت أن تلك الخطوة تُعتبر خيانة بكل معنى الكلمة للمثل والقيم التي أيدها سانجاي

غاندي. كل ما تلا من أفعال ... قامت بها مانिका هدف إلى دعم عناصر وقوى معادية ... لرئيسة الوزراء ... مع أن السيدة مانिका غاندي تأتي من خلفية عائلية مختلفة، إلا أن السيدة غاندي وسائر أفراد أسرتها تقبلوها بينهم بلا تحفظات كشريكة حياة لسانجاي غاندي».<sup>26</sup>

في ٢٩ مارس، كُلف آر كيه دهاوان بطرد مانिका من منزل إنديرا كما تحتم أن يحدث. لكن مانिका لم ترحل بهدوء. في عصر ذلك اليوم تواجهت مع إنديرا للمرة الأخيرة في حضور دهاوان ودهيريندرا براهماشاري. وأمرت بحزم حقائبها والرحيل عن المنزل. وقد استغرق هذا الأمر اليوم كله تقريباً. فاتصلت بأحد أصدقاء سانجاي وطلبت منه أن يخبر عائلتها والأصدقاء والصحفيين بأنها تتعرض للطرد من المنزل. فوصلت أختها أمبيكا بعد وقت قصير لمساعدتها في حزم حقائبها، وانتهى الأمر إلى صراخها بالشتائم ضد إنديرا. ثم عكفت مانिका وأمبيكا على مشاهدة فيلم تسجيلي لعدة ساعات، ولم تستعدا للرحيل عن المنزل إلا بعد وصول حشود الصحفيين لمشاهدة خروج مانिका من المنزل.

تحت أنظار الصحفيين حاول دهاوان وبراهماشاري عبثاً تفتيش حقائب مانिका. ثم حاولت إنديرا منع الأخيرة من أخذ ابنها معها. نام الصغير فارون ذي العامين منذ وفاة سانجاي مع إنديرا في غرفة نومها ليلاً، فيما تولت سونيا العناية به نهاراً. ولم يكن لمانिका علاقة به إلا بالكاد، ومع هذا أصرت على أن تأخذه معها، فيما لم يكن باستطاعة إنديرا قانوناً عمل شيء للاحتفاظ به. فرحل في سيارة مع الأرملة الشابة مانिका تحت وهج أضواء الإعلام في الحادية عشرة مساءً. وفي إثرهما قافلة عربات محملة بالألعاب والكلاب والممتلكات سارت في أنحاء دلهي.<sup>27</sup>

أهم رحيل مانिका إنديرا، وألمها بوجه خاص ضياع حفيدها الأصغر منها. فحاول سكرتيرها بي سي أليكساندر تهدئتها بعد مغادرة مانिका وفارون مذكراً إياها بأنها احتملت الكثير من الأزمات في حياتها، منها الاضطرابات السياسية وفقد الأحباب. فردت عليه إنديرا قائلة: «هذه الفتاة سلبت فارون مني. وأنت تعلم تعلقي به. إنه حفيدي. لكنه يضيع مني».<sup>28</sup> لم يفلح شيء في مواساة إنديرا. غير أنها قانوناً لم تملك الحق للاحتفاظ بفارون، ومن ثم كان اختفاء فارون فعلياً من حياتها في نهاية مارس عام ١٩٨٢.

ابتعدت مانिका عن ناظر إنديرا، لكنها مع ذلك ظلت تزعجها. لقد ظلت تسخر من أهل زوجها وتزعم أنها — وليس هم — من يحمل راية سانجاي الآن. ولما لم تعد فرداً منهم أو مقيمة في منزلهم، شعرت أن بإمكانها أن تكون أكثر جرأة في انتقامها. فحصلت



على نسخ من فصل «هي»، الذي منع ماثي — الذي كان قد توفي بحلول ذلك الوقت — من نشره في سيرته الذاتية وقدم فيه وصفاً جنسياً لإنديرا، ووزعتها. كما نسخت ووزعت خطابات عائلية تنتقد راجيف. وشبهت في خطاب لها إنديرا بالإلهة كالي «التي تشرب الدماء». فردت إنديرا على ذلك بأن قالت إن زواج سانجاي من مانيكا كان «مؤامرة لزرع عدو في دائرة المقربين». وزعمت أنها دائماً ما عارضت زواج سانجاي منها وأن «ابنها في آخر أيامه اكتشف حقيقة زوجته». فسخفت مانيكا من ردها ذلك بأن قالت إن إنديرا «عقلها أصابه خرف الشيخوخة وتمنت لها فترة تقاعد سعيدة ووشيقة».<sup>29</sup>

سوء العلاقة بين الحماة وزوجة ابنها كثيراً ما كان جزءاً لا يتجزأ من الأفلام والقصص والمسلسلات الدرامية الهندية. لكنه هنا جاوز الحد. ومانيكا لم تكتفِ بالهجوم اللفظي الصريح. فبعد مؤتمر لكانوا، أسست حزباً سياسياً أخلص ظاهرياً لثراث سانجاي سُمي بحزب راشتريا سانجاي فيتشار مانتش (المنتدى الوطني للدفاع عن منهج سانجاي)، وقصدت به محاربة إنديرا وراجيف غاندي. لكن مع أن الشعب الهندي تابع مشاحنات مانيكا مع إنديرا بشغف، إلا أنه لم يتوافد للانضمام إلى حزبها الجديد. فلم يرَ أحد أنها هي — وليس راجيف — الوريثة الحقة لعرش عائلة نهرو غاندي.

في أواخر يوليو عام ١٩٨٢، سافرت إنديرا إلى واشنطن لعقد مشاورات مع الرئيس رونالد ريجان الذي التقت به أول مرة العام السابق في قمة رؤساء دول الشمال والجنوب في المكسيك. اتسم لقاؤهما بدفء المشاعر، إلا أن إنديرا لم تجد عقل ريجان مبهرًا. لقد نوهت بأنه هو وزوجته يستمتعان بأفلام رعاة البقر الأمريكية، والبرامج التلفزيونية التي يستخدمها ريجان ليظهر بمظهر البطل. وفيما بعد أشارت بصورة غير مباشرة إلى ميوله الثقافية عندما زار الرئيس الفرنسي ميتران دلهي. كتبت إنديرا إلى دوروثي نورمان تقول عن ميتران إنه مختلف عن أغلب رؤساء الدول الآخرين الذين التقت بهم، وبالأخص رئيسكم. هل قرأت كتابه «قمح وتبن»؟ كان ميتران وفقاً لإنديرا صديقاً شخصياً للكاتب الكولومبي الحائز على جائزة نوبل جابرييل جارسيا الذي كانت إنديرا شديدة الإعجاب به.<sup>30</sup>

هدفت محادثات إنديرا مع ريجان في عام ١٩٨٢ إلى ترميم العلاقات الهندية الأمريكية، إلا أنها لم تجد نفعاً على الإطلاق. في أعقاب غزو الاتحاد السوفييتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، أيدت الولايات المتحدة باكستان أكثر من أي وقت مضى. وحينذاك ظلت الهند من وجهة النظر الأمريكية حليفاً للاتحاد السوفييتي. حتى إن أحد الصحفيين في مؤتمر

صحفي بواشنطن سأل إنديرا عن سبب «انحياز الهند دائماً إلى الاتحاد السوفييتي». فقالت إنديرا إجابة على ذلك: «نحن لا ننحاز لأي جانب ... نحن نسير على خط مستقيم».<sup>31</sup> في طريقها إلى واشنطن، أمضت إنديرا بضعة أيام في نيويورك حيث التقت بدوروثي نورمان للمرة الأولى منذ العديد من السنوات. ومع أن دوروثي ظلت تتقرب بقلق هذا اللقاء، فقد تقاربت هي وإنديرا من جديد فوراً. وبدأت إنديرا لدى عودتها إلى الهند في مراسلتها والإفضاء لها بمكنون قلبها مجدداً. فاعترفت في رسائلها لها بأنها كانت تجهد نفسها في العمل بشدة، وبأن بلادها شهدت «فوضى تامة» و«اضطرابات كثيرة» في كل مكان. وشكت لها من «القيود الرسمية والأمنية» التي تحيط بها ومن التقارير الصحفية التي اتهمتها كذباً بعقد صفقات مالية، «في الوقت الذي لا نملك فيه المال لنتم بناء منزلنا الصغير» في مهروالي. لقد بدا لإنديرا أن «العالم يزداد قبحاً»، وفوق كل شيء أثقلها شعور بالحيرة والضعف. «هل يدفع الكبر المرء إلى الظن بأن الأشياء تتداعى في كل مكان ... لقد قال بيتس إن الأشياء تتداعى، إن عمادها لا يحتمل. ما هو العماد، وأين هو؟»<sup>32</sup>

بعد وقت قصير من عودة إنديرا من الولايات المتحدة الأمريكية. التقت بها بوبول جاياكار، فوجدتها منهكة القوى، تحيط الهالات الداكنة بعينيها. فاعترفت لها إنديرا بأنها لم تنم جيداً منذ عدة أشهر، وبأن كوابيس متكررة قد راودتها فلم تنفك عن الاستيقاظ في الثانية صباحاً شاعرة بالخوف. ثم أفضت إلى جاياكار بأنها تتلقى معلومات سرية تفيد بأن هناك «طقوساً من السحر الهندوسي والسحر الأسود تقام سعيًا إلى تدميري ودفعي إلى الجنون». حاولت جاياكار أن تكلم إنديرا عن الضغط الهائل الذي تعانيه، لكنها أبت إلا أن تعرف ما إذا كانت جاياكار نفسها تؤمن بأن «قوى الشر ... قد تطلقها الطقوس الهندوسية».<sup>33</sup> فشعرت جاياكار بعد تلك المحادثة بعدم جدوى محاولاتها. شارفت إنديرا على الدخول في حالة من جنون الارتياب. لا شك أنه كان هناك من يتمنون الشر لها، لكن المقلق هو أنه بدا أن الأخيرة تؤمن فعلياً بأن هؤلاء قادرين على إيذاؤها بقوى خارقة للطبيعة.

في ٨ سبتمبر عام ١٩٨٢، توفي الشيخ عبد الله رئيس حكومة جامو وكشمير بعد الإصابة بأزمة قلبية حادة. كان في السابعة والسبعين من العمر، في حالة صحية ضعيفة منذ الأزمة القلبية الأولى التي أصيب بها في انتخابات عام ١٩٧٧. وعلاقته مع إنديرا وحكومتها بعد اتفاقية عام ١٩٧٥ كانت متقلبة. فهي والكثير من أعضاء حزب المؤتمر الآخرين

لم يثقوا قط في ولائه للهند. وفي عام ١٩٨١، في الوقت الذي دلف فيه راجيف إلى عالم السياسة، عين الشيخ عبد الله ابنه فاروق وريثاً له. فأدى ذلك الأخير قسم تولي منصب رئيس حكومة كشمير بعد تسعين دقيقة من وفاة والده. لكن وراثته للحكم لم تمر بلا مشاكل، ولم تصمد.

يقال إن إنديرا عارضت خلافة فاروق لأبيه، لكنها حتى إن فعلت، لم تبد ما يدل على ذلك عندما حضرت جنازة الشيخ عبد الله؛ فضلاً على أنها لم تشجع زوج أخت فاروق غلام محمد شاه الذي أراد أن يضطلع برئاسة حكومة كشمير. يزعم آرون نهرو أن إنديرا أرادت أن يخلف الشيخ عبد الله ابنته خالدة التي كانت متزوجة من شاه، إلا أنها أدركت — مثلما أدرك الشيخ عبد الله — أن الكشميريين المسلمين لن يقبلوا بأن تقودهم امرأة في الوقت الذي يوجد فيه ابن بإمكانه أن يتولى الحكم.<sup>34</sup>

غير أن الابن لم يكن مرشحاً واعداً، وافتقر إلى الأهلية لدخول السياسة، شأنه بالضبط شأن ابني عائلة غاندي. قضى فاروق أغلب سنوات بلوغه في بريطانيا حيث تدرّب على الطب وتزوج من ممرضة بريطانية. فتأثر تماماً بالغرب، وكان شاباً مفعماً بالحماسة والطاقة، يتردد على صالات رقص الديسكو والحفلات ويطوف أنحاء سريناجار على دراجة بخارية ويردف خلفه امرأة جذابة.

لكن يحسب له — مع أنه لم يحاول كثيراً التغيير من نمط معيشته التافه — أنه أخذ مسؤولياته الجديدة على محمل الجد. فلجأ إلى حاكم كشمير بي كيه نهرو ابن عم إنديرا طلباً للإرشاد والنصح.<sup>35</sup> وتخلص من أعضاء المجلس الوزاري غير الجديرين بالثقة وأحبط الطموحات السياسية لزوج أخته وعدوه غلام محمد شاه. ففرض بذلك نوعاً على اتهامات الفساد وعدم الكفاءة التي طاردت حكومة أبيه. غير أنه لما دعا إلى عقد انتخابات جديدة العام التالي، رفض التحالف مع إنديرا، وصمم على استقلال حزبه حزب المؤتمر الوطني الهندي عن مؤتمر (آي)، الأمر الذي مهد للمنشقين الطائفيين التحريض على الاضطرابات في الولاية. حينذاك كان التدخل بالحكم المباشر قد أضحى عادة متأصلة لدى إنديرا. وهي لم تكن لتسمح بأن يحكم كشمير — وهي ولاية تحتل موقعاً مهماً على الحدود الهندية خاضت الهند من أجلها ثلاث حروب مع باكستان — رئيس حكومة لا يدين بالولاء التام لها.

لكن للوقت الحالي، مخاوف إنديرا حيال مستقبل كشمير توارت في ظل الوضع في البنجاب. في يوليو الماضي، دبرت إنديرا لانتخاب وزير داخليتها زایل سينج رئيساً للهند.

فقد أثبت أنه أداة طيعة ومفيدة في منصب وزير الداخلية، لكن إنديرا أدركت أن بإمكانه أن يلعب دورًا أكثر أهمية كرئيس للهند إذا اضطرب النظام العام أكثر. كما أنها أملت في امتصاص غضب السيخ بجعله أول رئيس سيخي للهند. وقد فهم سينج بوضوح الدور المرجو منه. حتى إنه افتخر بتملقه لإنديرا قائلاً في تحدٍّ سافر: «لو أن قائدتني أمرتني بالإمساك بمقشة والعمل ككناس، لقمّت بذلك. لذا اختارتني لأكون رئيسًا.»<sup>36</sup>

ما كان من شأنه أن يعد تسليّة لطيفة تلهي عن المشاكل القائمة في البنجاب، أدى حقيقة إلى تفاقم تلك المشاكل وجلبها إلى قلب دلهي. ففي نوفمبر الثاني عام ١٩٨٢، أقيمت دورة الألعاب الآسيوية التاسعة أو «دورة آسيا ٨٢» في دلهي، وشارك فيها ما يربو عن ٥٠٠٠ متنافس رياضي من ثلاث وثلاثين دولة آسيوية تشمل دول الشرق الأوسط والمنطقة الآسيوية بالكامل. خصصت مهمة التنظيم لتلك الدورة لراجيف بصفتها مشروعًا يحظى بالكثير من الاهتمام من المستبعد أن تنشأ بسببه الخلافات، وكونه ظاهرًا مهمة سهلة لا تحتمل الفشل، يمكنها أن تحقق لراجيف المجد والشهرة.

بعد وقت قصير من دخول راجيف عالم السياسة في عام ١٩٨١، بدأ التمهيد لدورة الألعاب الآسيوية. تلك كانت مهمة ثقيلة تطلبت بذل مبالغ طائلة على إنشاء ستة ملاعب رياضية، وإقامة ثلاثة فنادق حكومية من فئة خمسة نجوم، وقرى سكنية للاعبين. كما بنيت طرق سريعة متعددة المسارات، وجسور طائرة، ومعايير فوقية. في الواقع، لقد تغير وجه دلهي تمامًا استعدادًا لآسياد عام ١٩٨٢.

كل تلك الأنشطة لم تتطلب مبلغًا هائلًا من المال وحسب — وصل إلى ما يزيد عن ٣ ملايين روبية في التقارير الرسمية، وتراوح قدره بين ٦ و ١٠ ملايين روبية في التقارير غير الرسمية — بل إنها تطلبت كذلك جيشًا هائلًا من العمال الذين عملوا على مدار الساعة مع اقتراب موعد بدء دورة الألعاب. حينئذٍ ازدهرت أحوال جميع مقاولي البناء، وسماسرة التراخيص والتصاريح، وصناع الطوب والصلب، لكن من ناحية أخرى، العمال الذين تولوا بناء الطرق والملاعب والفنادق لم يصيروا أفضل حالًا. أغلب هؤلاء قدموا من جنوب الهند أو غيرها من الأطراف البعيدة في البلاد ووظفهم سماسرة مقاولي البناء للعمل بعقود إذعان، فأرسلوا إلى دلهي في شاحنات مزدحمة بهم، ليكدحوا في العمل ليلاً ونهارًا. تألفوا من «رجال ونساء وأطفال هزيلي البنية، لا يغطون إلا نصف أجسادهم، يكسوهم التراب ... يعمل الكثيرون منهم على سقالات بناء وهم مثقلون بالأحمال.»<sup>37</sup> وسكنوا مخيمات قذرة بجانب مواقع البناء، لا يصل إليها الماء أو الكهرباء. الأوفر حظًا منهم ناموا في بيوت

من الكرتون أو غيرها من المواد التي يُتخلَّص منها. وتزاحم البعض الآخر تحت حصائر من البلاستيك أو الخيش رُفعت بعصي. وبلغ أجرهم اليومي ١١ روبية. أما مواطنو دلهي العاديون فقد عانوا بصورة أقل من آثار دورة آسياد ٨٢. لقد تحولت الأموال والمواد الخام والكهرباء المخصصة لموارد مهمة وانصبت في الإعداد للألعاب. فالأراضي التي احتاجها بناء المستشفيات والمساكن الرخيصة وظفت في الإعداد للدورة. وأدى الطلب الهائل على موارد المياه والكهرباء إلى عجز دائم فيهما في دلهي كافة. اضطلع راجيف وآرون نهرو وآرون سينج أحد مستشاري راجيف بالمسئولية الكاملة عن تنظيم دورة الألعاب. وظاهرياً بدا أنهم أبلوا بلاءً حسناً في ذلك، ففي ١٩ نوفمبر عام ١٩٨٢، في عيد ميلاد إنديرا الخامس والستين، افتتحت دورة آسياد افتتاحاً مهيباً. لكن كما كان محتماً أن يحدث، شعر الناس بالأسى على المبالغ الطائلة التي أنفقت، وفضح الصحفيون الاستغلال الذي تعرض له من أقاموا البنية الأساسية لتلك الدورة. غير أن الأدهى هو التبعات التي أدت إليها دورة الألعاب في البنجاب. رأى بندرنواله أن الدورة لا تخدم إلا في تحسين صورة إنديرا، فطالب بإنهائها. أما هارتشاند سينج لونجوال زعيم حزب أكالي فقد أعلن في ٦ نوفمبر أن حزبه سينظم تظاهرات يومية في دلهي. وعليه فرضت الحكومة الهندية دائرة أمنية حول دلهي لمنع المتظاهرين البنجابيين من دخول المدينة. وأنشأت الحواجز التفتيشية في جميع أنحاء ولاية هارايانا التي يجب أن يمر بها أي بنجابي ليصل إلى دلهي. وقد تحمس شرطيو هارايانا أكثر من اللازم في تفتيشهم للمسافرين السيخيين، حتى إنهم أخضعوا الكثير من الأبرياء للتحرش والإهانة. واعتقلوا ما يزيد عن ١٥٠٠ سيخي. فاستاء السيخ لا في البنجاب فقط، بل في جميع أنحاء البلاد.

إزاء ذلك حاولت إنديرا عقد المفاوضات مجدداً وأشركت فيها مهراجا سيخي سابق يدعى أماريندر سينج لإقناع حزب أكالي دال بتسوية خلافاته مع حكومتها. وفي ١٨ نوفمبر، توصلت تلك الأطراف إلى اتفاقية، خاصة حول قضيتي العاصمة تشانديغار ومياه الأنهار اللتين أثارتا جدلاً طويلاً. لكن عندها احتجت سلطات هارايانا وراجستان — اللتان رفضتا التنازل عن تشانديغار ومشاركة مياه الأنهار مع ولاية البنجاب — لدى إنديرا، فتراجعت عن الاتفاقية في اللحظة الأخيرة. هذا الأمر أسعد بندرنواله الذي صرح بأن ذلك لم يثبت إلا عدم جدوى التفاوض مع «الامرأة البراهماتية» أو «ابنة بانديت» كما أسمى بندرنواله إنديرا هازناً.

وبذا تركت إنديرا أمام عقبة سياسية، تترقب كارثة وشيكة.



## الفصل العشرون

### مذبحة أمریتسار من جدید

في دلهي، في ديسمبر عام ١٩٨٢، افتتح فيلم «غاندي» للمخرج ريتشارد آتينبورو مصحوبًا — على حد وصف إنديرا لدوروثي نورمان في رسالتها — «بضجة كبيرة». لم تكن إنديرا متأكدة من أن الفيلم أعجبها، فقد ذكرت لدوروثي نورمان أنه «مؤثر» إلا أنها أسفت ... على أنه لم يلهم ... أي مخرج أفلام هندي. رأت إنديرا أن فيلم آتينبورو قدم «عرضًا مؤثرًا» صُور فيه غاندي على أنه «نجم ... ومخلص، لا يسمو في عظمتة عما كان غاندي، بل يقل حقيقة». في الواقع، «أبخس» الفيلم غاندي قدره.<sup>1</sup>

في الوقت الذي عكف فيه مخرجو الأفلام على التغيير من شكل ماضي الهند لترفيه العامة، بدا أن حاصر الهند بدوره يتحول شيئًا فشيئًا إلى شريط سينمائي؛ ففي المقابلات الصحفية على شاشات التلفزيون. على مرأى من العالم، ألقى بندرنواله المتطرف الكاريزماتي الخطابات الدينية داعيًا إلى انفصال السيخ ملوحًا بمدفع الستين. وفي فبراير عام ١٩٨٣، أمام الآلاف في بلدة مليئة بالتراب تدعى بهيند في مادها براديش استسلمت أكبر مجرمة مطلوبة للعدالة؛ فولان ديفي التي عُرفت باسم بانديت كوين (ملكة اللصوص). فتحوّلت قصتها في غضون أعوام قليلة إلى فيلم شهير عالميًا، انتخبت بعده فولان ديفي رغم سجلها الإجرامي وأميتهَا عضوًا في البرلمان.

عكس تحول فولان ديفي من مجرمة إلى رمز من رموز السينما والسياسة السهلة التي يمكن أن يصل بها شخص سيئ السمعة إلى النفوذ. رواد الأفلام الذين يمثلون نسبة كبيرة من الشعب الهندي يعشقون نجوم التلفزيون والسينما. فالأفلام الهندية الشهيرة على حد قول المؤرخ طارق علي بمنزلة: «أفيون سينمائي ... يقدرسه العامة».<sup>2</sup> ونجم الأفلام الهندي الذي يقرر دخول عالم السياسة، يجد له فورًا جمهورًا من الناخبين. فمثلًا في عام ١٩٧٧، قبل ثلاثة أعوام من صعود رونالد ريجان إلى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية،

انتُخب نجم أفلام هندي من جنوب الهند يدعى إم جي راماشاندران رئيسًا لحكومة ولاية تاميل نادو. ذلك الأخير الذي عُرف بإم جي آر تخصص في لعب دور الأبطال الشهيرين الأسطوريين الخارقين. فافترض النخبون أنه سيقوم بنفس الدور البطولي كسياسي. غير أن بطولات إم جي آر في أفلامه لم تتكرر في منصبه، وأحوال الطبقات والطوائف الدنيا التي منحته أصواتها ساءت بصورة ملموسة إبان ولايته التي دامت عشرة أعوام. لكنه مع فشله ظل معشوقًا حتى إن جنازته عام ١٩٨٧ كانت «مشهدًا مأساويًا»؛ حضرها الآلاف من بينهم واحد وثلاثون تابعًا مخلصًا له قتلوا أنفسهم بأنفسهم على مرأى من الناس.<sup>3</sup> في يناير عام ١٩٨٣، في انتخابات المجالس التشريعية بولاية أندرا براديش هُزم نجم سينمائي آخر يدعى إن تي راماريو — عُرف باسم إن تي آر — مع حزبه الجديد؛ حزب تيلوجو ديسام حزب المؤتمر. لم يملك إن تي آر خبرات أو صلات سياسية، إلا أنه تمتع بشهرة واسعة، بل بمنزلة تشبه منزلة الآلهة، لقد اشتهر بلعب أدوار الآلهة الهندوسية على شاشات السينما. فلما لم يكن منصب رئيس حكومة أندرا براديش كافيًا له، لم يلبث أن أوضح أن لديه طموحات أكبر في أن يقوم «بمقام الإله» في دلهي بعد الانتخابات العامة القادمة.<sup>4</sup>

لم يخسر حزب المؤتمر في انتخابات المجالس التشريعية لعام ١٩٨٣ بولاية أندرا براديش فقط، بل خسر كذلك في انتخابات ولاية كارناتاكا المجاورة. وقد أحبطت هاتان الهزيمتان إنديرا. وأفقدتها تفوق حزب درافيدا مونترا كاجاغام المستمر في ولاية تاميل نايدو ثقتها. حتى تلك اللحظة صوت جنوب الهند دائمًا لإنديرا، حتى في انتخابات عام ١٩٧٧ عندما انقلب الشمال عليها بشراسة. لكن الآن، ولاية كارناتاكا (نفس الولاية التي أعادتها إلى البرلمان في عام ١٩٧٨) عارضت حزبها وصوتت لحزب جانانا.

في أعقاب الهزائم المنكرة التي مني بها حزب المؤتمر في الجنوب، عُقدت في ولاية آسام انتخابات «وحشية، ومميتة، ومدمرة».<sup>5</sup> تلك الولاية وقعت في براثن الفوضى وظلت تحت الحكم المباشر قرابة ثلاثة أعوام. نتيجة لذلك، الشروط الأساسية لعقد الانتخابات — ببساطة — لم تتوفر هناك. مع هذا، وفقًا للدستور الهندي، كان لا بد من إلغاء الحكم المباشر على الولاية وعقد الانتخابات في منتصف فبراير عام ١٩٨٣. إلا أن عقد الانتخابات سيؤدي إلى تفاقم النزاع القائم بالولاية؛ إذ إن من أهم ما شكاه منه الآساميون هو أن المهاجرين البنغاليين — الذين اعتبرهم الآساميون دخلاء — يُعتبرون بنك أصوات لحزب المؤتمر.



كما هو متوقع، أعلنت الحركة الآسامية بتأييد من حزب جاناتا وحزب بهاراتيا جاناتا الهندي مقاطعتها الانتخابات. فكان رد الحكومة المركزية هو أن مضت في إجراء الاقتراعات في ١٣ و ١٧ من فبراير، الأمر الذي أدى كما هو محتم إلى اندلاع المزيد من العنف. فواصل الآساميون ذبح البنغاليين من المسلمين والهندوس، وفي الوقت نفسه هاجمت وقتلت قبائل البودو كل من يضل ويدخل أرضها. قُتل الآلاف، وشرّد الملايين من بيوتهم في جميع أنحاء الولاية.

أسوأ الفظائع ارتكبت في بلدة للاجئيين البنغاليين تدعى نيلى، قُتل فيها ٥٠٠٠ شخص من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، أغلبهم حُصدت روحه بالمنجل أو أُحرق في بيته. وقد وصف المؤرخ طارق علي تلك الحادثة بأنها تشبه «مذبحة ماي لاي (للفلاحين الفيتناميين) مضاعفة عشر مرات».<sup>6</sup> في ٢١ من فبراير، عقب وصول أبناء مذبحة نيلى إلى دلهي، سافرت إنديرا جَوًّا إلى ولاية آسام. صُدمت إنديرا من هول ما وجدته. حتى إنه في مؤتمر صحفي جاهدت فيه لتحفظ تماسكها، خرج صوتها مختنقًا وهي تقول للصحفيين: «لا أجد كلمات تصف هول ما رأيت».<sup>7</sup>

مقاطعة الانتخابات أثمرت نجاحًا كبيرًا حتى إن نسبة التصويت الشاملة في جميع أنحاء الولاية لم تبلغ إلا ٢٠٪. لقد أُحرقت أعدادٌ لا حصر لها من مكاتب التصويت، وأبلغت مكاتب أخرى عن «عدم وجود أي تصويت». ومع أن إنديرا كانت تعلم أن تلك الانتخابات تعد مهزلة بشعة، فقد زعمت في البرلمان بعدها بأربعة أيام أن الحكومة الجديدة المنتخبة في آسام ستكون «أقدر على التعامل مع الوضع ... وإعادة سير العملية السياسية» في الولاية.<sup>8</sup>

في الأسبوع التالي عندما رَأَسَتْ إنديرا القمة السابعة لحركة عدم الانحياز في دلهي، بدت مقنعة أكثر في سيطرتها على الأمور مما بدت في دفاعها عن انتخابات آسام في المجلس الأدنى من البرلمان. غير أن مذبحة نيلى ظلت قائمة. وقد كان من أول ما وقعت عليه أنظار رؤساء دول حركة عدم الانحياز لدى وصولهم إلى الهند صور ملونة لأطفال قتلى ومشوهين على غلاف جريدة «إنديا توداي» الأسبوعية. إلا أن تلك الصور البشعة سريًّا ما أبدلت بصور إنديرا في الصحف والمجلات وفيدل كاسترو — الذي تنازل عن رئاسة مجلس القمة «لأخته» كما أسمى إنديرا — يطوقها بذراعيه. أدارت إنديرا القمة إدارة محكمة تستحق الإعجاب. وتمكنت من توجيه النواب المجتمعين فيها إلى التناقص حول كمبوتشيا وأفغانستان وأمريكا اللاتينية. إلا أن تلك الحنكة السياسية كما سيتضح

لن تظهر ثانية أو تدوم لوقت طويل، ولكنها ستحسن صورة إنديرا في الصحافة في الوقت الذي شعرت فيه باشتداد وطأة النقد الموجه لها.

في أبريل، في ولاية كشمير، فاروق عبد الله — الذي عُرف لدى الكثيرين بـ «رئيس حكومة الديسكو» بسبب حياته الصاخبة — أعلن أن انتخابات المجلس التشريعي للولاية ستعقد قبل موعدها في شهر يونيو. قبل عشرة شهور، ورث فاروق منصب رئيس حكومة كشمير عن أبيه الراحل الشيخ عبد الله. والآن أراد الفوز بالتفويض الشعبي للاستمرار في منصبه، فلما لم تشعر إنديرا بالارتياح له منذ اللحظة التي تسلم فيها رئاسة حكومة كشمير تقريباً. وأحنقها بوجه خاص ذهابه إلى أمريتسار في نوفمبر عام ١٩٨٢، ولقاؤه بزعماء حزب أكاالي، ومقابلته ببندرنااله نفسه (التي كانت أكثر إثارة للجدل). في أوائل عام ١٩٨٣ أخذت تشجبه علناً وتدين حزبه حزب المؤتمر الوطني — الذي رفض الاتحاد مع حزب المؤتمر — على عدم وطنيته. بل ذهبت إلى أكثر من ذلك، واتهمت فاروق بأنه يسمح باستخدام كشمير قاعدة للمتطرفين السيخ والعملاء الباكستانيين الذين يدعمون الحركات الانفصالية في كشمير.

باختصار أرادت إنديرا إخراج فاروق من السلطة، إلا أنها أثرت أن يتحقق ذلك بأصوات الناخبين بدلاً من الطرد بالحكم المباشر. ومن ثم قصدت بنفسها كشمير وأدارت حملة نشطة لمرشحي حزب المؤتمر في الولاية. هذا الأمر صار ضرورياً مع تحالف فاروق مع رابطة عوامي الإسلامية التي قادها زعيم ديني ناصب الهند العداء يدعى مولوي فاروق. وبنفس اللهجة العصبية الطائفية التي استخدمتها في البنجاب، أخبرت إنديرا هندوسي ولاية جامو وكشمير أنهم سيعانون من «كارثة» إن مثل حزب المؤتمر الوطني حكومة ولايتهم.<sup>9</sup>

لكن سياسة إنديرا تلك تغيرت تغيراً جذرياً فور وصولها إلى وادي سريناغار حيث يمثل المسلمون الأغلبية، وتألف جميع مرشحي حزب المؤتمر من المسلمين. ولم يكن اختيار رجال حزب المؤتمر المسلمين على سبيل المصادفة. فقد أراد حزب المؤتمر أن يقنع مسلمي كشمير بأنهم سيكونون بمأمن إذا مثل الحزب حكومة ولايتهم. وقد تصادف أن روميش وراج ثابار كانا في عطلة بسريناغار لدى «اجتياح إنديرا الوادي» (وادي كشمير). وعلى حد تعبير راج ثابار: «إنديرا ناصبت فاروق العداء ... فقد قذفته بالسباب والالتهامات الطائفية».<sup>10</sup> أما الصحفي سينج الذي كان بدوره هناك فقد قال في ذلك: «المنحى الذي يسلكه حزب المؤتمر مشين وأنااني نوعاً ما».<sup>11</sup>

استغلت إنديرا أيضًا نسبها الكشميري إبان الحملة، فارتدت زي الشالوار والكاميز الكشميري، ووضعت غطاء رأس ينم عن احتشام، وأعلنت نفسها «ابنة كشمير». وفي سريناغار تحدثت الأردية، لكن صادفتها المشاكل في الأرياف؛ لأنها لم تكن تتحدث الكشميرية، وعليه الحشود التي أتت لسماعها تطلعت إليها بدون أن تفهم شيئاً من كلامها. أما فاروق فكان بالطبع يجيد الكشميرية، فكانت النتيجة أن بدا أنه يملك تأثير المغناطيس. كان الناس يخرجون لتحيته كأنما يخرجون لتحية بطل منتصر.<sup>12</sup>

اختتمت إنديرا حملتها الانتخابية في كشمير بالعودة إلى سريناغار التي تقرر أن تخطب فيها في حديقة إقبال الكبيرة. كان من المتوقع أن يحتشد هناك ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف شخص. لكن لدهشة الصحفيين وغيرهم من الحاضرين، لم يحضر لسماع إنديرا إلا مائة شخص بالكاد، أغلبهم عمال من حزب المؤتمر، وشرطيات في ملابس مدنية يتظاهرن بأنهن من الجمهور.<sup>13</sup> على حد تعبير راج ثابار: «كان عدد المستمعين ضئيلاً جداً حتى لتشعر ... بأنهم كانوا يتنزهون ثم توقفوا لسماع فرقة.»<sup>14</sup>

لما تأملت إنديرا جمهورها الضئيل، «استشاطت غضباً»، وأخذت ملامح وجهها تتشنج من الغضب بوضوح. فحاولت أن تكتسي بمظهر واثق بالهجوم على حزب المؤتمر الوطني، الذي اتهمته بأنه «يمنع الناس من القدوم إلى اجتماعها». قالت إنديرا: «أينما كانت هناك مشاكل، أنتم تعلمون من أول من يأتي لحلها؛ إنه إنديرا غاندي.» ولما يزيد على الساعة حاضرت في سخط مستمعيها، تذكروهم بقرب أبيها من الشيخ عبد الله حيناً، ثم تباهي بنجاحها في قمة حركة عدم الانحياز التي عُقدت مؤخراً في دلهي حيناً آخر. حتى أخذ أحد الحضور في إلقاء الحجارة على منصة الخطاب. فلم يخفها ذلك على الإطلاق، بل زادها غضباً. من ثم اندلعت مشاجرة بين أعضاء حزب المؤتمر، والمؤتمر الوطني، قام فيها بعض الرجال وفقاً للتقارير الصحفية بإظهار عوراتهم لإنديرا على نحو يחדش الحياء.<sup>15</sup>

بعد اجتماع حديقة إقبال الذي انتهى بكارثة، قصدت إنديرا مطار سريناغار مباشرة لتستقل طائرة عودة إلى دلهي. حضر حاكم كشمير بي كيه نهرو وزوجته فوري نهرو ومعهما آخران لوداعها، لكن لم تتبع أي من الرسميات المعتادة. هذا لأن إنديرا على حد وصف نهرو كانت «ثائرة». كان وجهها يحترق غضباً، ولم تتحدث إلى أحد؛ فبعدما حملت في بي كيه نهرو. وفوري نهرو والمسؤولين الذين انتظروها أمام سلم الطائرة، صعدت على متن الطائرة بدون أن تنبس بكلمة شكر أو وداع.<sup>16</sup>

انتهت انتخابات ولاية جامو وكشمير في ٥ من يونيو. وكما هو متوقع فاز المؤتمر في منطقة جامو التي يسودها الهندوس، لكنه هزم هزيمة ساحقة من حزب المؤتمر الوطني في كشمير. فلما فشل في السيطرة على الانتخابات، حاول أن يشوه مصداقيتها. وفور ظهور نتائجها صرخ مع إنديرا يتهمها بأنها مزورة.

ولكنها لم تكن كذلك، على الأقل ليس جدياً. وزعم المؤتمر بأن الانتخابات قد شهدت عنفاً كان باطلاً.<sup>17</sup> ذهبت محاولات حزب المؤتمر لتشويه صورة فاروق عبد الله سدّى. إلا أنها لم تكن ضرورية؛ ففاروق عبد الله كان قادراً تماماً على تشويه صورته بنفسه. لقد كان رجلاً محبوباً، قد يترك سيارته ويضطلع بتوجيه المرور إن رأى أن بإمكانه أن يحسن من عمل شرطي المرور، لكنه على حد تعبير تافلين سينج (الذي كان على معرفة جيدة به) «لم يستأهل الاعتبار مطلقاً، كان مثلاً للسياسي الذي لا وزن له، حتى إنه كان من المستحيل أن يحتفظ بشعبيته لوقت طويل».<sup>18</sup> أمضى فاروق في دلهي وقتاً أكثر مما أمضى في سريناغار، وكان مولعاً بنجمات السينما، فضلاً على أنه لم ينفك عن التردد على صالات الديسكو. لو ترك وشأنه، كان فاروق ليصنع بنفسه معارضيه. لكن المؤتمر لم يتركه لذلك. فبحلول ذلك الوقت، كانت إنديرا قد تعودت التخلص من رؤساء الحكومات الذين لا يبدون تعاوناً معها. فصار فاروق مرشحاً للإزالة، مع أن تلك الخطة استغرقت وقتاً قبل أن تتحقق.

إبان صيف عام ١٩٨٣، بعد انتخابات المجلس التشريعي لكشمير بشهر فقط اندلعت صراعات عرقية بين السنهاليين الذين يمثلون أغلب سكان جزيرة سريلانكا، والتاميليين الذين يمثلون الأقلية فيها. وتعود المشاكل في سريلانكا إلى عام ١٩٤٨، عندما حازت تلك الجزيرة (التي ظلت تدعى بسيلان حتى عام ١٩٧٢) استقلالها من الاستعمار البريطاني. التاميليون السريلانكيون الذين مثل الهندوس غالبيتهم عاشوا في شمال وشرق الجزيرة، ولم يمثلوا إلا ١٨٪ من تعداد سكانها، وعانوا طويلاً على يد حكومة الأغلبية السنهالية البوذية التي فرضت اللغة السنهالية لغة رسمية للجزيرة، وحرمت التاميليين من التعليم والحصول على الوظائف، وهمشتهم بكثير من الطرق الأخرى، واعتبرتهم مواطنين من الدرجة الثانية.

إزاء ذلك القمع، في منتصف السبعينيات، أنشأ التاميليون حركة انفصالية مسلحة تدعى نمور تحرير إيلام التاميل، أيدها — ولا يزال يؤيدها — بعض سكان الهند، خاصة الهنود التاميليون الذين يسكنون جنوب ولاية تاميل نادو.<sup>19</sup>

إزاء القلاقل التاميلية المتزايدة في أوائل الثمانينيات، أعلنت حكومة سريلانكا التي يسيطر عليها السنهاليون اعتزامها نقل السلطة إلى شعب التاميل. إلا أنها في الوقت نفسه اتخذت إجراءات صارمة تجاه نمور التاميل. ففي يوليو عام ١٩٨٣، ثارًا لثلاثين جنديًا سنهاليًا قتلوا في كمين نصبه نمور تاميل، شنت حكومة سريلانكا مذبحة ضد التاميليين. قُتل في تلك المذبحة في غضون بضعة أيام ٣٠٠٠ شخص، وشُرد ١٥٠٠٠٠ شخص، ففر الآلاف من التاميليين إلى الهند، ولجئوا إلى ولاية تاميل نادو، وقد كانت حركة النزوح تلك هائلة حتى إنها جعلت من الحرب الأهلية السريلانكية قضية دولية. من ثم لم تجد الهند مشكلة التاميليين على حدودها وحسب، بل أيضًا داخل أرضها في ولاية تاميل نادو.

في يوليو عام ١٩٨٣، قبل أن تقع المذابح للتاميليين، أخذت الحكومة الهندية في توفير المال والأسلحة والتدريب لنمور التاميل، في الواقع كان بطل الأفلام الخارق السابق إم جي آر رئيس حكومة تاميل نادو هو أبرز المتبرعين للنمور. وقد تورط في تلك التبرعات أيضًا حزب المؤتمر في دلهي، فبتفويض إنديرا أرسل جناح البحث والتحليل الاستخباراتي — الذي اشتهر بسمعة سيئة إبان فترة حالة الطوارئ — بعضًا من أفرادهِ لتدريب جنود نمور التاميل الذين لجئوا إلى معسكرات ولاية تاميل نادو.

بذلك في سريلانكا بدا أن حكومة إنديرا تتواطأ مع مثل الحركات الانفصالية نفسها التي تحاربها بعنف على أرضها في كل من البنجاب وكشمير. ويبدو أن رغبة إنديرا في امتصاص غضب مجتمع التاميليين الضخم في جنوب الهند السبب الواضح لدعم الهند لنمور التاميل. غير أنه كان هناك أيضًا دافع مختلف تمامًا. مع أن دعم الهند لنمور التاميل يسهم في زعزعة استقرار سريلانكا، فثمة احتمال لأن يكون ما سعت إليه إنديرا حقيقةً هو بقاء الأوضاع على حالها؛ وذلك بنفس الاستراتيجية الماكرة التي انتهجتها في البنجاب. بالضبط كما صنعت إنديرا مع بندرنواله وأتباعه المتطرفين السيخ سرًا لتوقع الفرقة بين سيخ البنجاب، هدفت مساعداتها السرية لنمور التاميل إلى إيقاع الفرقة بين التاميل في سريلانكا. وبتأييد المتطرفين في كل من سريلانكا والبنجاب، استطاعت أن تصنع في الجهة المقابلة لهؤلاء أصواتًا معتدلة، ومن ثم قضت على احتمالات وقوع انفصال تاميلي أو بنجابي.<sup>20</sup>

تجنبَت إنديرا الإشارة إلى النموذج البنجلاديشي في حديثها العلني عن مشكلة سريلانكا. فبدلاً من ذلك، نادَت فقط بحصول شعب تاميل على الاستقلال الذاتي والمساواة في «سريلانكا تتمتع بالوحدة». وفي أغسطس عام ١٩٨٣ وقفت في البرلمان وأعلنت أن: «الهند تؤيد استقلال ووحدة وتكامل سريلانكا. وهي لا تتدخل في الشؤون الداخلية لغيرها»

من الدول. لكن نظرًا للعلاقة التاريخية والثقافية، والروابط الوثيقة التي تجمع بين البلدين، خاصة بيننا وبين مجتمع التاميل، الهند لا تستطيع أن تتجنب تأثيرات الأحداث هناك»<sup>21</sup>

في الوقت الذي ثار فيه النزاع في سريلانكا، تصاعدت أعمال العنف والشغب في البنجاب؛ فخرج المعبد الذهبي، امتلأت المجاري بجثث ضحايا عصابة بندرنواله التي اختبأت هناك. وقُتل في صباح ٢٣ أبريل مدير شرطة أمریتسار السيخي إيه إس أتوال أثناء مغادرته المعبد بعدما أنهى العبادة فيه. كان واحدًا من السيخ البارزين الذين يقتلون لرفضهم تأييد هدف الانفصاليين؛ ألا وهو بنجاب مستقل يدعى «خالستان».

بعد اغتيال أتوال، توسل رئيس حكومة البنجاب داربارا سينج إلى إنديرا أن تسمح له بإرسال الشرطة إلى المباني الخاصة بالمعبد لجمع بندرنواله وجيش العصابات التابع له والقبض عليهم. فرفضت إنديرا السماح بذلك الإجراء بناءً على نصيحة زایل سينج (الذي كانت له خلافات مع داربارا سينج). ومع أن الموقف في البنجاب بدأ يفلت من السيطرة، ظلت الحكومة المركزية في دلهي مصممة على الإبقاء على الانقسام القائم بين السيخ في الولاية، والتذرع بانتشار الهندوس في جميع أنحاء البلاد.

وذلك المسار من الناحية العملية والنظرية كان من شأنه أن يؤدي إلى كارثة. في الماضي تراجعت إنديرا مرة بعد مرة عن التفاوض مع المنشقين، مع أن الصحفي إندر مالهوترا والمؤرخ بيتان تشاندر — وكلاهما تمتع بنظرة ثاقبة فيما يتعلق بالسياسة والتاريخ — وغيرهما الكثيرون حاولوا أن يقنعوها بذلك. لقد رأت أن الظروف السياسية غير مواتية للتوصل إلى تسوية. لكنها أخطأت في ذلك. غير أن إنديرا بحلول ذلك الوقت لم تفقد بصيرتها السياسية وحسب، بل أيضًا فقدت تمامًا قدرتها العجيبة على الحكم على الوقت والحسم في الأمور. لقد ترددت هنا. واستمعت إلى نصيحة زایل سينج. وأرادت أن ينسب لراجيف الفضل فيما يحدث في البنجاب. فأدارت ظهرها للنصائح العاقلة وأصغت للنصائح السيئة.

كما هو متوقع، صار الوقت متأخرًا جدًا على حل مشكلة البنجاب، ليس لأن إنديرا أجلت التحرك لوقت طويل وحسب. بل أيضًا لأن البنجاب نفسه كان منقسمًا على نحو يبعث على اليأس؛ لقد كان على الحكومة المركزية التشاور مع الكثيرين جدًا؛ منهم على سبيل المثال قائد حزب أكالي هارتشانند سيغ لونجوال، وجورتشاران سينج توهرار رئيس اللجنة التي تألفت للسيطرة على أماكن العبادة — وفيها المعبد الذهبي — وبندرنواله

نفسه. وكان بندرنواله أكثر هؤلاء تصلبًا في الرأي. لقد وافقت إنديرا بعد تأخر على ضم تشانديجارف إلى البنجاب، لكن مع ذلك ظلت هناك نزاعات حول مناطق هندوسية تتبع ولاية البنجاب أرادت ولاية هاريانا أن تضمها.

في تلك الآونة نقل بندرنواله مركز قيادته من فناء المعبد الذهبي إلى مقام داخله يدعى غكّال تخت. وعزز تحصيناته، وهرب المزيد من الأسلحة إلى المعبد تحت أحمال من اللبن والحبوب. وصباح كل يوم، يلقي بندرنواله من سقف مقامه الأمن خطابًا نارية معادية للهند والهندوسية. ومن لم يسمح له الوصول إلى أمريتسار للاستماع إلى رسائل القديس بندرنواله كان يستمع إليها على أشرطة تسجيل تباع في جميع أنحاء الولاية. وقد حمل بندرنواله رسالة لرئيسة الوزراء، قال فيها: «السلم والعنف يأتیان من شجرة واحدة. مثلنا كمثل أعواد الثقاب الخشبية الباردة. إن احتك بنا شخص نشعل.»<sup>22</sup>

من المعبد الذهبي واصل بندرنواله إرسال عصاباته المرعبة إلى القرى. وفي ٥ أكتوبر، في شارع جراند ترانك، اعترضت تلك العصابات طريق حافلة متجهة من أمريتسار إلى دلهي، وأجبرت ستة من الركاب الهندوس على التزلج منها، والاصطفاف في الشارع. ثم أطلقت النار عليهم، الأمر الذي أثار موجة عارمة من الغضب في جميع أنحاء الهند. في اليوم التالي أقالت إنديرا رئيس حكومة ولاية البنجاب داربارا سينج وأخضعت الولاية للحكم المباشر. وبذا تخلصت من السيخي الوحيد الذي كان على استعداد لاتخاذ إجراءات صارمة تجاه بندرنواله في سلطات الولاية.

غير أن الحكم المباشر عجز عن إخماد الفوضى والعنف المتزايدين في البنجاب. فبعد أسبوعين من فرضه، أخرج قطار سريع متجه من كلكتا إلى كشمير عن مساره أثناء مروره بالولاية. وقُتل تسعة عشر شخصًا، وأصيب ١٢٩. وفي ١٨ نوفمبر، اختطفت حافلة أخرى وقُتل أربعة هندوس رميًا بالرصاص.

في تلك الأثناء في ٢٣ نوفمبر في دلهي استضافت إنديرا افتتاحية مؤتمر رؤساء دول الكومنولث. وقد خدمتها تلك المناسبة شأنها شأن مؤتمر قمة رؤساء دول حركة عدم الانحياز كفرصة تظهر بها جدارتها على الصعيد الدولي، وأتاحت لها متنفسًا من الوضع المؤلم الذي تعيشه البلاد. لقد كان ذلك المؤتمر آخر المؤتمرات الدولية التي ترأسها إنديرا، وقد استمتعت فيه بوقتتها، خاصة في المأدبة الختامية التي عنيت بإعداد قائمة الطعام لها بنفسها. حضرت ملكة بريطانيا مرتدية الزي الملكي الكامل؛ ارتدت مارجريت ثاتشر ثوب سهرة رسميًا رائعًا. أما إنديرا التي كانت الأصغر حجمًا بين الثلاث النساء. فقد

بدأ أكثرهن هيبة وقوة في ثوب ساري من الحرير الخام. لكن بعكس المظاهر الخارجية، كانت إنديرا حقيقةً تفقد سيطرتها على الأمور.

من الناحية العاطفية صارت إنديرا وحيدة، فبعد وفاة سانجاي ندر أن أفضت إلى أحد بمشاعرها أو أفكارها. راجيف لم يكن وثيق العلاقة بها، لقد اضطلع بدور سانجاي السياسي كما اقتضاه واجبه نحوها، لكنه لم يستطع أن يحتل مكانة أخيه في قلبها. أما السوامي براهماتشاري فقد تهمش تدريجياً.

السبب في ذلك هو راجيف. وبحلول أوائل عام ١٩٨٤ كان راجيف قد اكتسب مهارات منصبه السياسي الجديد. وأثبت كفاءته كسكرتير عام للجنة كونجرس كل الهند، لقد بدأ مكتبه في موتيلال نهرو مارج مثلاً لبيئة العمل المنظم المتقن، وقد اكتمل مظهره ذلك «بمقتطفات من الجرائد، وقواعد للبيانات، ووثائق، وحاسب آلي، وآلة تصوير».<sup>23</sup> فراجيف كان حقاً مثلاً للكفاءة والنزاهة بالمقارنة بأعضاء حزب المؤتمر المداهنيين غير الأكفأ الذين أحاطوا بإنديرا. ومع أنه ورث بعضاً من بطانة السوء التي أحاطت بسانجاي — وأبرزهم نافين تاشولا — إلا أنه لم تجمعهم أية علاقة بالأتباع الأكثر فساداً من بطانة أخيه.

جذب راجيف حوله دائرة أتباع خاصة به تألفت من مديرين تنفيذيين وتكنوقراطيين امتلكوا مظهرًا جذابًا، وحملوا حقائب أوراق اليد. ومثلوا جيلاً جديداً يؤمن بالتكنولوجيا والإحصائيات والحاسبات الآلية. (فيذكر أن راجيف كان أول من امتلك حاسوباً محمولاً من طراز توشيبا في الهند.) وانتعلوا أحذية جوتشي الجلدية مع ارتداء الخادي. ودرس الكثير منهم في مدرسة دون الراقية وجامعة كامبريدج مع راجيف. لقد تحدثوا الإنجليزية أكثر مما تحدثوا الهندية في بيوتهم، ولم يكن المهاتما غاندي في أذهانهم سوى ذكرى واهية من الطفولة، أغلبهم كراجيف لم يقرأ كتب جواهر لال نهرو. وكانوا شباباً يعيشون في الحاضر حياةً نشطة، ويتسمون بالعملية، ولا يميلون إلى التأمل، ولا يملكون الوقت أو الحاجة إلى الدين أو المذاهب الفكرية أو الخرافات.

من ثم صارت أيام براهماتشاري معدودة. حاول سانجاي غاندي كسب صداقة ذلك الأخير، لا لأنه آمن بقواه الخارقة للطبيعة، بل لأنه وجده نافعاً في استجلاب الطائرات والمتاجرة في الأسلحة وتأجير القتل وغسل الأموال. أما راجيف فقد شكاً من الكثير من الممارسات التي ارتكبها سانجاي إبان حياته. وبالعكس الأخير، كان صريحاً ومباشراً، وبصفة عامة نزيهاً. فعلى سبيل المثال يذكر أن آرون سينج ذات مرة قال بحدة لصديق



له أراده أن يستغل نفوذه لدى راجيف ليحصل له على منزل حكومي: «لقد أجبرت — أي أجبرني راجيف — على أن أشتري منزلي الخاص. هل تتوقع أن يصغي حتى إلى ذلك الاقتراح؟»<sup>24</sup>

لذا كما هو متوقع، مع تنامي نفوذ راجيف، تضاعف نفوذ براهماتشاري. فالأخير اختلف عن راجيف في كل شيء، فقد استخدم أساليب الموارد، وكان مخادعاً مكرراً يناقض تفكيره التفكير الغربي تماماً. وقد أزعج وجوده في منزل إنديرا راجيف لسنوات. من ثم صار الأخير في موقع يمكنه من التخلص من براهماتشاري. فعمل مع مستشاريه آرون نهرو وآرون سينج على إضعاف مكانته في منزل إنديرا تدريجياً بصورة غير ملحوظة. لقد صرفوا إنديرا شيئاً فشيئاً عن مذهب براهماتشاري التأملي، وجذبوها إلى الإيمان بخط راجيف الاستراتيجية، والتكنولوجيا والإحصائيات. فتخلصوا أولاً من برنامج براهماتشاري التليفزيوني الأسبوعي، ثم خفضوا المنح الحكومية التي تقدمها الحكومة لأشهره. فلم يعد حاضراً على العشاء مع أسرة إنديرا. وقل اتصاله بها تدريجياً. حتى أبلغ في آخر الأمر بأن «السيدة» إنديرا لم تعد تملك الوقت لمقابلته. فقد حرص راجيف على أن يتم إبعاد براهماتشاري بدون طرده بأي حال من الأحوال.

يعد شهر فبراير الذي تزهو فيه الحياة في الطبيعة من جديد أجمل الشهور في دلهي. ففيه ما بين برد الشتاء وحر الصيف الشديد الذي تتسم به الهند، لأربعة أو خمسة أسابيع تنعم الأيام بهواء طيب دافئ، وتتلون أوراق الأشجار بالأخضر شديد الخضرة، فيما تكتسي الحقائق بأبهى الثياب. في الماضي أيًا ما كان الوضع الذي تعيشه البلاد، كانت إنديرا دائماً تبتهج بقدم الربيع. ولكن في عام ١٩٨٤ لم تكن تلك الحال، وجدها بوبول جاياكار تعاني «اكتئاباً شديداً»، «وحيدة ... يملؤها الهم».<sup>25</sup> في تلك الحال، رأت إنديرا أن عليها اتخاذ إجراء في كشمير والإطاحة بفاروق عبد الله. كان بإمكانها القيام بذلك بلا موارد بما أن ابن عمها وصديقها بي كيه نهرو هو حاكم كشمير الذي يملك بحكم منصبه القدرة على فرض حكمه المباشر (المكافئ للحكم المركزي المباشر في ولاية كشمير). لكنها لم تطلب من الأخير أن يعزل فاروق، وإنما أبدت له بطريقة غير مباشرة أنها تريد عزله.<sup>26</sup>

إلا أن بي كيه نهرو لم يرَ أن هناك ضرورة أو مبرراً أو سبباً قانونياً لذلك. لقد بدا له أن إنديرا تسعى إلى تحقيق ثأر شخصي. عندما ألح عليها أن تعطيه سبباً لعزل فاروق،

اتهمت إنديرا الأخير بأنه «غير مسئول ... ولا يدير شئون الولاية بكفاءة». في ذلك قال بي كيه نهرو: «أقر بأن كلا الاتهامين صحيح من واقع خبرتي الشخصية.» إلا أنه أيضًا أوضح لإنديرا أن «الاستهتار لم يكن بالسمة النادرة بين الساسة الهنود — وهو لا يزال كذلك — إن كان فاروق غير جدير بالثقة ... فهو لم يتفرد بذلك. وهو لم يكن رئيس الحكومة الوحيد الذي يسيء إدارة شئون ولايته، لقد أمكن العثور على من هو أسوأ منه في إدارة ولايته ... بين رؤساء حكومات الولايات ... من حزب المؤتمر.»<sup>27</sup>

ندر أمثال بي كيه نهرو في السياسة الهندية لأنه حقيقة لم يكن إمعة فيما يتعلق ببعض الأمور. كان بمنزلة عملة نادرة تبقت من فئة كادت تندثر بحلول ذلك الوقت؛ فئة المسؤولين الحكوميين الذين لا يدينون بالموالاة. في الواقع بي كيه نهرو لم يكن عضوًا بحزب المؤتمر. ولسوء حظ إنديرا كان مستقل الرأي، يحترم قواعد الديمقراطية. كان نهرو مغرمًا بإنديرا وموقرًا لها؛ حتى عندما كان يظن أنها على خطأ؛ لكنه لم يكن يخشاها على الإطلاق.

هاتف بي سي أليكساندر سكرتير إنديرا — وهو رجل مهذب فطن، لكن ليس من طراز سابقه بي إن هاكسار وبي إن دهار — بي كيه نهرو مرارًا عبر الخطوط الهاتفية التي لا يعول عليها بين دلهي وسريناجار، وألح عليه أن يعزل فاروق. وحاول أن يغذيه بأراء حزب المؤتمر القائلة بأن فاروق انفصالي خطير معاد للهند ومؤيد لباكستان. كما أبلغه بأن هناك بالفعل شخصًا جديرًا بالثقة على استعداد لأن يخلف فاروقًا كرئيس لحكومة كشمير. لن يعرض وحدة الهند للخطر، ذلك لم يكن إلا صهر فاروق جي إم شاه الذي كان آنذاك بصدد ترغيب ثلاثة عشر عضوًا من حزب المؤتمر الوطني التابع لفاروق — بمال أمدته المؤتمر به، وبوعد بالانضمام إلى مجلس وزرائه — بالانشقاق عن الحزب. بالانشقاق هؤلاء، كان حزب المؤتمر ليتفوق على حزب فاروق بفارق هائل يقضي عليه ويهزمه. وبعدها يمكن أن يعقد المنشقون الذين تبعوا شاه تحالفًا مؤقتًا ضعيفًا مع حزب المؤتمر في كشمير ويتولوا السلطة.

قضت الخطة أن يأتي شاه والثلاثة عشر منشقًا الذين سيتبعونه بي كيه نهرو في قصره في منتصف الليل، وأن يأخذ الأخير عليهم العهود فورًا. وبعدها يُبلغ فاروق بما وقع، لكن بي كيه نهرو رفض أن ينفذ تلك «المؤامرة» كما أشار إليها فيما بعد. أصر على أنه «حاكم مستقل لكشمير، يستمد سلطته من الدستور. كان يسمو فوق الأحزاب السياسية، ولا يعنيه أمرها وأنه غير خاضع ... لحكومة الهند.» ورأى نهرو أن الطريقة

الشرعية الوحيدة للتعامل مع انشقاق شاه وأتباعه هي المناداة بإجراء تصويت بحجب الثقة في المجلس التشريعي.<sup>28</sup>

تواصل الصراع بشأن فاروق بين إنديرا وابن عمها شهوّرًا. في ذلك يقول بي كيه نهرو: «استعرضنا الموضوع نفسه مرة بعد مرة. حتى بدا حقًا أنه لن يكون هناك آخر لذلك. وهي لم تملك ردًا مقنعًا على اعتراضاتي، لقد أرادت عزل فاروق وحسب.»<sup>29</sup> رأى نهرو أن شاه سيكون أسوأ من فاروق كرئيس حكومة لكشمير، وإنديرا كانت تعلم جيدًا أن شاه شخص غير جدير بالثقة، مع ذلك لما سألتها فوري نهرو عن سبب اختيار شاه، أجابتها باقتضاب: «نحن نعلم الطريقة التي نتعامل بها مع جول شاه.»<sup>30</sup>

في آخر الأمر، أرسل نهرو إلى إنديرا خطابًا يعدد فيه الأسباب السياسية والعملية — والأخلاقية أيضًا — لمعارضته خطتها. كتب نهرو لإنديرا: أن حكومة كشمير إن رأسها شاه فستكون غير مستقرة وستنهار. وفوق ذلك فاروق «لن يقف مكتوف الأيدي»، لذا سيعتقل على الأرجح، وعندها سيتحول إلى بطل نضالي. كما أنه بعد تعيين شاه، لا بد من عقد الانتخابات، وحينئذٍ ما لم يكن هناك تزوير على نطاق واسع، سيهزم المؤتمر هزيمة ساحقة. هذا فضلًا على أن الحركات الانفصالية ستتمو تحت رئاسة شاه. لقد كان فاروق — كما اعترف بي كيه نهرو — أبعد ما يكون عن رئيس الحكومة المناسب، لكن «التخلص منه سيستتبع في وقت قصير عواقب جسيمة ووخيمة تستمر لوقت طويل في جميع أنحاء البلاد، حتى إن الأسلم هو بقاءه في منصبه للوقت الحالي.»<sup>31</sup>

الحجج التي قدمها نهرو كانت مفحمة، لكن إنديرا تجاهلتها. وفوق ذلك مستشاروها الكشميريون — وفيهم آرون نهرو الذي أحاط بها دائمًا — حاولوا إضعاف ثقتها في ابن عمها. لقد اتهموا نهرو بأنه مدمن خمر، تجمع صداقة قوية بفاروق أساسها حبهما المشترك للخمر. فلما بلغت تلك الاتهامات نهرو، نفى كونه «مدمن خمر»، إلا أنه أضاف أنه لم يخف قط شربه للخمر، وأنه «يستمتع بشرب كأس من الويسكي مساءً.» (كانت إنديرا تعلم جيدًا أن أحد أسباب عدم انضمام نهرو إلى حزب المؤتمر أنه رفض أن يؤدي قسم الامتناع عن المسكرات الخاص بالحزب).<sup>32</sup> وقد أنكر نهرو كذلك أنه «يتساهل» مع فاروق.

لما تعذر حل المشكلة. وأدركت إنديرا أن ابن عمها لن يرضخ للضغط، لم تجد أمامها خيارًا سوى إغفائه من رئاسة حكومة كشمير واستبدال أحد الأتباع الذين لا يتزعزع ولاؤهم لها به. وعليه قدّم نهرو استقالته معللاً لها بأسباب «شخصية فقط»، فاستدعاه

بي سي أليكساندر إلى دلهي وبعدها فتح له زجاجة من ويسكي الشيفاز ريجال، اقترح عليه أن ينتقل إلى رئاسة حكومة ولاية أخرى بدلاً من حكم كشمير. فرد عليه نهرو بأن تلك مؤامرة لن يشارك فيها. من ثم أوضح له أليكساندر أنه إن استقال فلن يصدق أحد أنه قام بذلك لأسباب شخصية، وإنما سيتوصل الناس إلى أنه رفض عزل فاروق، وهذا من شأنه أن يسبب حرباً شخصياً لإنديرا غاندي. عندها توجه أليكساندر بالسؤال إلى نهرو قائلاً: «بالتأكيد لا تريد أن تسبب الأذى لإنديرا غاندي؛ بالتأكيد لم يكن ... يود إحراجها، أليس كذلك؟»<sup>33</sup>

فوافق نهرو بدافع من الشهامة على سحب استقالته، لأن إنديرا — على حد تعبيره — تعد «أخته» رغم كل شيء. وعليه انتقل إلى رئاسة حكومة ولاية جوجارات وهي ولاية تعاني جفافاً تاماً مكث فيها نهرو لسنين عدة تالية. لم يكن البديل الذي اختارته إنديرا ليخلف نهرو في ولاية كشمير سوى جاجموهان البيروقراطي الخنوع، الذي أدار سلطات دلهي إبان حالة الطوارئ، وسوى عشوائيات تلك المدينة العتيقة بالأرض باسم التجميل. تألف أغلب ضحاياه حينذاك من المسلمين الذين مثلوا أغلب سكان وادي كشمير، ومن هنا جاء تعيينه أوضح وضوح الشمس للكثيرين خطط دلهي لكشمير. لقد صارت الأجواء مهيأة للتخلص من فاروق.

في تلك الأثناء جرى وضع خطة طارئة لدفع بندرنواله وجيشه إلى التقهقر إلى خارج المعبد الذهبي عسكرياً. تلك الخطة كانت من بنات أفكار راجيف غاندي، وآرون نهرو، وآرون سينج الذين بذلوا جهداً مضنياً في وضع مخطط اجتياح المعبد. لقد علمت إنديرا بتلك الخطة إلا أنها ظلت لوقت طويل تأمل ألا تكون هناك حاجة لتنفيذها أبداً. فقد خشيت على حد قول آرون نهرو «من مهاجمة بيت عبادة»، لذا أرجأتها وقاومتها. كانت تلك خطة في منتهى السرية، قامت إنديرا سرّاً أثناء وضعها بطقوس تضحية هندوسية أملاً في وقوع معجزة ما تذهب الحاجة إلى اجتياح المعبد الذهبي وتحل أزمة البنجاب.<sup>34</sup> لجوء إنديرا إلى طقوس التضحية يعكس شعورها بالعجز الشديد. لقد حدثت راجيف وآرون نهرو في قرابة تلك الفترة عن «المناطق الضبابية في التاريخ»، وهي عبارة استخدمتها للإشارة إلى المشكلات المتعذر حلها كمشكلة كشمير والبنجاب. قالت إنديرا إن كل ما يمكن فعله في «المناطق الضبابية» هو «محاولة كسب الوقت»، والانتظار والترقب والتمني، لكن راجيف وآرون نهرو كانا رجلي أفعال. لذا رفضا مذهبها السلبي القائم على الانتظار والترقب، وتمني المعجزات.<sup>35</sup>

في يناير عام ١٩٨٤، وقفت إنديرا في البرلمان، واتهمت باكستان بدعم إرهابيي السيخ في البنجاب. ثم نهض وزير داخليتها بي سي سيثي وأكد للبرلمان أنه لن تُستخدم القوة في أمريتسار، وذلك وعد قدمه سيثي بنية صادقة؛ لأنه لم يملك أدنى فكرة عن الاجتياح الذي عكف راجيف وفريقه على التخطيط له. فمع أن سيثي كان من المفترض أن يضطلع بدور أساسي في أحداث البنجاب، إلا أن رأيه حقيقة لم يُطلب في المسألة. والمثل مع زایل سينج، رئيس الهند السيخي الذي لعب حتى تلك اللحظة دورًا وثيقًا في وضع السياسات في البنجاب، زعم سينج فيما بعد أنه لم يبلغ بمخطط الاجتياح إلا في نهاية مايو عام ١٩٨٤.<sup>36</sup>

في فبراير، بدأت حكومة إنديرا إجراء جولة شاقة أخرى من المفاوضات مع قادة حزب أوكالي في البنجاب. فقد ساور إنديرا القلق بشأن الانتخابات العامة القادمة المزمع انعقادها في أقل من عام. ذلك لأنها كانت تعلم أن عليها كي تحتفظ بأصوات الهندوس أن تضع حلاً لمشكلة البنجاب. لكن المفاوضات مع الجهود الشاقة التي بُذلت فيها لم تصل إلى شيء. فوقع إنديرا في مأزق. فهي من ناحية لم ترد أن تبدو متساهلة مع المسلحين السيخ، ومن ناحية أخرى كانت تعلم أن الأوضاع في الولاية لا بد أن تتدهور أكثر قبل أن يصبح إرسالها للجيش مبررًا. من ثم أمام تأزم الأوضاع في البنجاب، واقترب الانتخابات، وقفت إنديرا بلا حيلة.

لم يعد لديها مستشارون بارعون لمساندتها كما كان لديها قبل عشرة أعوام، وقتما تجاوزت مع ذي الفقار علي بوتو العقبات في مباحثاتهما في مؤتمر قمة سيملا. لذا في لحظة من اللحظات، طلبت النصيح من سوبهادر جوشي التي عملت معها إبان أحداث الشغب التي وقعت في دلهي في فترة تقسيم الهند. ذلك لأن الأخيرة كانت حقيقةً بنجابية وسياسية ذات خبرة واسعة في الصراعات الطائفية. لقد حاولت جوشي إقناع إنديرا بأنه لا تزال هناك سبل للتوصل إلى تسوية سلمية. لكنها لم تنتبه إلى نصيحة جوشي.<sup>37</sup> وبدلاً من ذلك تركت راجيف وآرون نهرو وآرون سينج — الذين يفتقرون إلى الخبرة، ولا يعرفون الدبلوماسية — يوجهون سياساتها.

بذا ظلت الأوضاع أمام طريق مسدود، غير أن العنف تزايد.<sup>38</sup> ففي مارس وأبريل عام ١٩٨٤، قتلت عصابات بندرنواله ثمانين شخصاً، وأصاب ١٠٧ أشخاص. كان من بين هؤلاء هندوسيون بارزون وسيخ مؤيدون لحزب المؤتمر. ومن لم يغادر ولاية البنجاب إلى تلك اللحظة من الهندوس — من التجار، ومقرضي الأموال، وأصحاب المحال، ورجال

الصناعة الأثرياء — بدأ يفر منها. وفوق ذلك وبحلول ذلك الوقت كان جيش بندرنواله قد اخترق المراكز الإدارية للولاية ومراكز الشرطة، وسيطر على المقسم الهاتفي الخاص بالولاية.

في تلك الأثناء أخذت مشاكل من نوع آخر في التفاقم في ولاية أندرا براديش، عندما دعا نجم الأفلام السابق إن تي راماريو في مايو إلى عقد اجتماع لرؤساء حكومات الولايات المناوئين لحزب المؤتمر. قضت خطة إن تي آر بأن يؤلف المعارضون لإنديرا وحزب المؤتمر تحالفًا في الانتخابات العامة المزمع انعقادها في أوائل عام ١٩٨٥. وقد كان من بين من حضر ذلك الاجتماع رئيس حكومة ولاية كشمير المفعم بالحماسة الشديد الاعتداد بنفسه فاروق عبد الله، الذي يبدو أنه لم ينتبه إلى أن سيطرته على السلطة في كشمير ضعيفة جدًا. فحسم بحضوره ذلك المؤتمر مصيره.

في الوقت الذي عكف فيه إن تي آر وفاروق وغيرهما من أعداء إنديرا على إعداد مؤامرتهم، بدأت جولة من المفاوضات حول البنجاب كمحاولة يائسة أخيرة. عهدت إنديرا إلى وزير خارجيتها ناراسيمها راو بمسؤولية إجراء المفاوضات ولم توكلها إلى وزير داخليتها بي سي سيثي الذي كانت تعدّه رجلاً ضعيف الشخصية غير كفء، في حين لعب بي سي أليكساندر سكرتير إنديرا مع راو دورًا أساسيًا في المفاوضات، وكلا الرجلين بالطبع لم يكن سيخيًا أو بنجابيًا، أما راجيف غاندي وفريقه، فقد عملوا سرًا على التحكم في مسرح الأحداث.

أعلن لونجوال رئيس حزب أكالي دال — الذي تنازع قبل ذلك مع بندرنواله واحتل موقعًا مختلفًا من المعبد الذهبي — أنه على استعداد لتقديم تنازلات للحكومة الهندية. من ناحية أخرى رفض بندرنواله ذلك. فعرض ناراسيمها راو وفريقه عليه من جديد العاصمة تشانديجارف. فصمم بندرنواله على تلبية جميع مطالب قرار أناند بور صاحب — وفي ذلك المطالب المتعلقة بتوزيع الأراضي ومياه الأنهار — علمًا منه أنه لا سبيل إلى ذلك. فلما وجد لونجوال نفسه مزعزعًا بين الطرفين، أعلن أنه بداية من ٣ من يونيو — يوم استشهاد المعلم الروحي أرجون الذي بنى المعبد الذهبي — ستتوقف البنجاب عن إمداد القمح. وهذا الأمر كان من شأنه تجويع البلاد في آخر الأمر نظرًا إلى أن ولاية البنجاب تعد بمنزلة سلة القمح للهند.

عند تلك النقطة، لم يعد هناك مفر من تنفيذ الخطة الطارئة التي وضعت لاجتياح المعبد الذهبي وإخراج بندرنواله وأتباعه من مخبئهم. ونظرًا لضعف الروح المعنوية

لقوات الشرطة البنجابية، تحتم أن تتم عملية الاجتياح عسكرياً، بمشاركة الضباط والجنود السيخ. وعليه في ٣٠ مايو، بدأت القوات الهندية في محاصرة أمريتسار. وفرض عليها حظر تجوال من الغروب إلى الفجر، فتحوّلت المدينة الصاخبة بحلول الليل إلى مدينة مهجورة.

في صباح ٢ يونيو، أعلن أن إنديرا ستذيع على الأمة خطاباً في الثامنة والنصف مساءً. لقد ظل القلق يساورها حيال الخطاب، لذا أجرت الكثير من التعديلات عليه في اللحظة الأخيرة، فكانت النتيجة أنها لم تذعه لا في الراديو ولا في التلفاز إلا في التاسعة والربع مساءً. قالت إنديرا: «قضية البنجاب تحتل أهمية كبرى لنا جميعاً. وقد عم البلاد القلق الشديد إزاء تلك المسألة. لقد ناقشناها وتباحثنا فيها مراراً وتكراراً. لكن في كل مرة تولد لدينا انطباع بأننا لا نحل شيئاً». من ثم استطردت تقول: «إنه ستتأسس لجنة لوضع نهاية حاسمة وشاملة لنزاع الأراضي القائم حول تشانديجارف ومياه الأنهار ومناطق الهندوس في البنجاب». لقد أكدت إنديرا أن تنازل حزب أكالي لبندرنواله عن السلطة هو ما يمثل المشكلة الأساسية، وليس عجز الحكومة الهندية عن عرض تسوية مرضية. وهي لم تكن لتسمح «للعنف والإرهاب بأن يكونا دخلاً في تسوية القضية. فليعلم العاكفون على معاداة المجتمع والأمة ذلك يقيناً». إلا أنها لم تنه خطابها بهذا التهديد. بل ناشدت بحرارة جميع طوائف شعب البنجاب ... بألا «تزهقوا الأرواح، أزهدقوا الكراهية».<sup>39</sup>

في اللحظة التي ألقت فيها إنديرا خطابها، أطبقت قوات الجيش الهندي على المعبد الذهبي. كان ذلك استعداداً لبدء عملية «النجمة الزرقاء» التي أزمعت أن تنفذها الفرقة التاسعة من الجيش الهندي بقيادة اللواء السيخي كولديب سينج برار. في ٣ يونيو، طُرد جميع الصحفيين الأجانب من البنجاب، وتوقفت حركة خطوط السكك الحديدية والحافلات والمطارات في الولاية، وقُطعت خطوط التلكس والتليفون، وأُغلقت الحدود مع باكستان. وانقطعت البنجاب عن بقية العالم استعداداً للهجوم الأخير.<sup>40</sup>

بحلول ذلك الوقت كان الكل يتربص وقوع غزو وتكرار لمذبحة «أمريتسار» بنفس دمويتها عام ١٩١٩، مع أن الرئيس الهندي زایل سينج زعم — زعمًا لا يصدق — أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما كان يحدث.<sup>41</sup> إن كان قد ظل حقاً بلا دراية بتلك المخططات، فلم يشترك معه في ذلك إلا قلة محدودة. لقد أخبر بندرنواله الصحفيين من ملاذه الآمن في عكال تخت في تحدّ: «إن دخلت السلطات المعبد، فسنلقنهم درساً ينهار على أثره عرش إنديرا. سنقطعهم إرباً ... سيعضون الأصابع ندماً ... فليأتوا».<sup>42</sup>

بينما كانت المعلومات التي امتلكتها الحكومة المركزية عن خصومها في المعبد الذهبي بسيطة، تمتع جواسيس بندرنواله بالكفاءة وامتلكوا معلومات «دقيقة مواكبة لأحدث التطورات». لم تكن لدى الجيش الهندي معلومات عن عدد المتطرفين الموجودين في المباني التابعة للمعبد، أو طبيعة وحجم الأسلحة والدفاعات التي يملكونها. لذا في غرة يونيو، دخل اللواء برار المعبد الذهبي متنكرًا في أزياء مدنية متظاهراً بأنه قدم للتعبّد. فهاهنا ما وجده: خنادق مسقوفة حصينة، وغرف محصنة تحت الأرض للاستعمال مؤقتًا، ومخابئ أسلحة. وفوق ذلك، لاحظ برار أن حوائط المعبد وتكريشاته قد عُذِّل من بنائها لترتكز عليها الأسلحة الرشاشة. غير أن اللواء برار لم يملك إلا القليل من الوقت للقيام بالاستطلاعات الكافية. لقد أبلغته الحكومة المركزية من قبل أن المهمة ستبدأ في ٦ يونيو.<sup>43</sup>

في الرابعة مساءً، في ٥ يونيو، دعا ضباط الجيش الهندي المدنيين الموجودين داخل المعبد الذهبي إلى الخروج، وطالبوا المتطرفين المسلحين هناك بالاستسلام. فلم يخرج أي من أتباع بندرنواله، وإنما خرج ١٢٦ شخصًا من السيخ المعتدلين وممن قدم للتعبّد أو الحج. وعليه مساء ذلك اليوم اقتحم فدائيو الجيش الهندي عنوة المنطقة التي اتخذها قادة حزب أكالي — لا بندرنواله — مخبأً في المعبد. وأثناء هجوم هؤلاء، البالغ عددهم تسعون فدائيًا، أمطرتهم مدافع بندرنواله بالرصاص، فقتل أكثر من نصفهم، وأصيب إصابات بالغة قبل أن يبلغ هدفه. ومن نجحوا في الوصول إلى الهدف، وجدوا لونجوال وعدداً من قادة حزب أكالي بلا سلاح فساقوهم إلى خارج المعبد. قال لونجوال بمرارة أثناء المغادرة مع معتقليه: «قولوا (لبندرنواله) ... إن ضيوفه قد وصلوا».<sup>44</sup>

زارت بوبول جاياكار إنديرا مساء ٥ يونيو التي كانت تعاني آنذاك التهاباً في الحلق. لذا كانت تحتسي اللبن الساخن، وتجد صعوبة في الكلام. لكن حتى لو سهل على إنديرا الكلام، لم تكن لتخبر جاياكار عما أوشكت أن تفجره في أمر يتسار. مع أنه من المستبعد أنها نامت طويلاً تلك الليلة، إلا أنها لما أجرت مقابلة صحفية طويلة مع أندرو نايل رئيس تحرير جريدة «صانداي تايمز» في لندن، لم يبدُ عليها الإجهاد أو القلق. كما لم تشر مطلقاً إلى ما يجري في البنجاب أثناء حديثها معه. لقد أجرى نايل تلك المقابلة الصحفية مع إنديرا لأنه كان من الواضح أن الوضع في البنجاب موشك على الانفجار، لكن إنديرا قالت له: «لقد عاشت الهند زمنًا طويلاً جدًّا، آلاف السنين، إن الستة وستين عامًا التي عشت لا تمثل شيئاً على الإطلاق من عمر الهند ... الهند ستجتاز تلك الأزمة، فقد سبق أن مرت بالكثير من المحن على مر تاريخها الطويل واجتازتها».<sup>45</sup>



في صباح ٦ يونيو بلغت درجة الحرارة في دلهي ١٠٠ فهرنهايت، ووصلت إلى أعلى من ذلك في أمریتسار، عندما شنت الفرقة التاسعة من الجيش الهندي أولى هجماتها على المعبد الذهبي. وقضت التعليمات الرسمية الحكومية للجند باستخدام «الحد الأدنى من القوة»، و«إيقاع أقل الخسائر بقدر الإمكان»، وشددت على أن أقدس مقامات المعبد مقام هارماندير صاحب (قدس الأقداس وهو على شكل قبة، فيه قُرئ الكتاب المقدس للشيخ على مدى المائتي عام الماضية) يجب ألا تنتهك حرمة أو يتعدى عليه. لقد اتخذ بندرنواله وأتباعه مقام عكال تخت ثكنة لهم، وذلك المقام كان بدوره مقدسًا، إلا أنه على ما يبدو لم يكن من بين المناطق التي تحدد أن يستخدم فيها «الحد الأدنى من القوة».

جنود الجيش الهندي كانوا هدفًا سهلًا لأتباع بندرنواله الذين اختبئوا في مواقع قوية التحصين، محاطة بالأكياس الرملية. فقد قُتل ما يزيد عن مائة جندي في أول محاولة لدخول المعبد. وبعد فشلهم اخترقت قذائف الدبابات والمدفعية المباني التابعة للمعبد عصرًا محدثة دويًا. فقد اضطر الجيش إلى إطلاق النيران مباشرة على مقام عكال تخت للوصول إلى بندرنواله وأتباعه بالداخل، الأمر الذي تسبب في إلحاق ضرر بالغ بالمقام. بالنسبة للشيخ كان ذلك بمنزلة اقتحام دبابة لكنيسة القديس بطرس في روما أو للكعبة في مكة. وعلى حد تعبير زايل سينج رئيس الهند السيخي: «كان ذلك مكانًا بناه المعلم الروحي الخامس، أحد رسل السلام، رمزًا للمحبة والوحدة بين البشر. كان معبدًا للرب ... وكان مقامًا بُني على أرض منخفضة عما حولها تواضعًا. في نواحيه الأربعة أبواب تدل على أنه مفتوح لجميع الناس من كل العقائد والأديان»<sup>46</sup> لكن القضاء على بندرنواله استلزم انتهاك المقدسات.

غير أن مصير القديس بندرنواله، ظل مجهولًا بضع ساعات. لم يعد بمقام عكال تخت أي أعمدة قائمة تقريبًا، وغرفة المصنوعة من الرخام سودتها النيران، ومع ذلك ظلت «شكوك قاتلة» تدور في الرؤوس بأن بندرنواله قد هرب.<sup>47</sup> لما اقتحم الجيش الهندي أخيرًا المقام، في وقت متأخر من مساء ٦ يونيو، عُثر على جثة بندرنواله وجثث واحد وثلاثين رجلًا من أتباعه. لكن لم يشهد استشهاد بندرنواله أحد من الناجين من الهجوم. في الغرفة التي تناثرت فيها جثث بندرنواله وأتباعه، وجد الجنود أيضًا مذكرة يومية تعدد الأشخاص الذين «جرى التخلص منهم» على يد عصابة بندرنواله، كذلك عُثر على حقيبة تحوى كمًا هائلًا من رسائل الإعجاب الموجهة إلى بندرنواله، لم يكتبها هنديون وحسب، بل أيضًا أناس من جميع أنحاء العالم.

مع موت بندرنواله، توقف القتال. غير أن الثمن الذي دُفع للتخلص منه كان غالياً. لقد تجاوز التقديرات التي قدمت لإنديرا من أجهزتها الاستخباراتية والجيش ومستشاريها، وفاق بدرجة هائلة تصوراتها. عملية النجمة الزرقاء فشلت فشلاً رهيباً. فمن بين ١٠٠٠ جندي اقتحم المعبد الذهبي، قُتل ما بين ٣٠٠ إلى ٧٠٠ جندي، وأردى ما يزيد عن نصف الفدائيين في القوات الخاصة. من ناحية أخرى لم يعرف بالضبط عدد القتلى المدنيين — الذين كان أغلبهم من الحجاج الأبرياء — ولكنه يقدر بما يزيد عن ألف قتيل. هذا مع أن تقريراً رسمياً للحكومة الهندية زعم فيما بعد أن عدد القتلى بلغ ٤٩٣ قتيلًا. ولم يحتسب ١٦٠٠ قتيل. وبالإضافة إلى الخسائر البشرية، التهمت النيران مكتبة المعبد الذهبي التي حوت جميع المخطوطات التي كتبها معلمو السيخ الروحيون، واخترقت ٣٠٠ رصاصة مقام هاماندير صاحب، ولحقت بمقام عكال تحت أضرار بالغة.<sup>48</sup>

في ٩ يونيو، بناءً على طلب إنديرا، زار الرئيس الهندي زایل سينج المعبد الذهبي. وصحبه آر كيه دهاوان وآرون سينج. كان ذلك يومًا حارًا وشديد الرطوبة على أمريتسار. لما دخل زایل سينج، ودهاوان وآرون سينج المباني التابعة للمعبد، تناهى إلى سمعهم الترانيم الدينية. ثم تنامت إلى أنوفهم رائحة كريهة أزكمتها. على حد تعبير سينج، مع أنه «بذلت جهود ... لتطهير المنطقة إلا أن الهواء ظل مثقلًا برائحة الجثث البشرية المتعفنة. لم يكن أي قدر من التنظيف ليفلح في إزالتها في حر الصيف اللافح ذلك».<sup>49</sup>

عندما دخل الرجال الثلاثة المنتزه الفسيح المحيط بالبركة المقدسة والمعبد، دوى فجأة صوت رصاصة. أصابت الرصاصة رجل الأمن الذي كان يقف إلى جانب زایل سينج في كتفه، وأخطأت بالكاد هدفها؛ مبعوث إنديرا الرئيس الهندي. في أحد أبراج المعبد كان لا يزال هناك عدد قليل من المتطرفين الناشطين يحاربون باستماتة، لم يتمكن الجيش الهندي من إخراجهم من معقلهم.<sup>50</sup>

كانت تلك طلقة تحذيرية. فعندما ذاعت أنباء الحجم الذي وصلت إليه المذبحة، والانتهاكات التي ارتكبت في حق كرامة المعبد الذهبي، صار من الواضح أنها ستقابل بأشر الانتقام، وعلى من سيقع الانتقام.

## الفصل الحادي والعشرون

### ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤

فيما بعد وصفت سونيا غاندي كيف أن الخوف اقتحم حياتهم.<sup>١</sup> بعد عملية النجمة الزرقاء. ناقشت إنديرا احتمالية وقوع محاولة اغتيال لها مع راجيف وسونيا، وكتبت بعض الوصايا من أجل جنازتها. كما حدثت حفيدها راهول ذا الأربعة عشر عامًا عن الخطر الذي يهدد حياتها. في عام ١٩٨٢، أرسل راهول وبريانكا إلى إحدى المدارس الداخلية، لكنهما لما تفجرت الأوضاع في البنجاب، عادا إلى بيتهما والتحقا بإحدى المدارس الخارجية في دلهي. فبعد عملية النجمة الزرقاء، ظل القلق يساور إنديرا طوال الوقت حيال أمنهما. حتى إنها طلبت منهما عدم اللعب خارج بوابة الحديقة المؤدية إلى الطريق الذي يصل بين بيتها ومكتبها المجاور في شارع أكبر رود. وقتها صار البيت سجنًا لجميع قاطنيه.

كل من أحاط بإنديرا كان يعلم أن حياتها مهددة. فوفقًا لإندر مالهورا، الترقب والحزن كانا ملموسين في دلهي، مع ذلك لم يبدُ على إنديرا القلق على الإطلاق. بل بدت هادئة ورابطة الجأش كعهدها دومًا. فلم تنخفض مستويات طاقتها، أو تضعف شهيتها، وكانت تنام بعمق. زارها بي كيه نهرو وزوجته فوري وأخو تلك الأخيرة جوزيف فرايدمان على العشاء ذات مساء. كان الطعام شهياً وبدت حالتها المعنوية مرتفعة، وظهر عليها الارتياح. حينذاك لم يأت أحد على ذكر عملية النجمة الزرقاء أو المشاكل القائمة في كشمير. غير أن جوزيف فرايدمان سأل إنديرا عن الكيفية التي استطاعت بها الحفاظ على هدوئها في تلك الأوقات الصعبة. فأجابته إنديرا: القلق يسكن باطن المرء. لا يبدو على ظاهره.<sup>٢</sup>

غير أن القلق بدا على آخرين، والإجراءات الأمنية المنوطة بحراسة إنديرا شددت. لقد حاول وزير الدفاع إقناع إنديرا بنقل تدابير حمايتها من الشرطة إلى الجيش. لكنها قالت

له لا تسمح حتى لتلك الخاطرة بأن تجول في رأسك. ذلك لأنها ترأس دولة ديمقراطية، لا حكومة عسكرية.<sup>3</sup> غير أنها وافقت على إضافة بعض من فدائيي شرطة الحدود الهندية التبتية إلى فريق حمايتها. أمر رئيس مكتب الاستخبارات بإعفاء جميع رجال الأمن السيخ في منزل إنديرا من واجباتهم، لكنها عارضت ذلك الأمر فوراً. فمع أنها استخدمت الطائفية في البنجاب وكشمير، إلا أنها رفضت السماح بها في بيتها الخاص. أصرت على أن الهند دولة علمانية. وعليه، بقي السيخ.<sup>4</sup>

مع أن فريق حماية إنديرا حظي بتعزيزات وصار أكبر حجماً، إلا أنها ظلت إلى حد بعيد عرضة للهجوم. فالخطط التي وضعتها الاستخبارات لحمايتها صُممت بحيث تؤمن لها الحماية من الخارج فقط. وحتى بعدما ألغت إنديرا الأوامر بحظر انضمام السيخ إلى حرسها الخاص، لم يشك أحد في أن الأعداء موجودون في الداخل. على حد تعبير ضابط أدلى بشهادته فيما بعد، ما لم ننتبه إليه هو أنه قد تقع محاولة اغتيال من داخل بيت رئيسة الوزراء.<sup>5</sup>

كان على إنديرا أن تباشر العمل بحرص في كشمير، بعدما أخفقت في المعبد الذهبي إخفاً تاماً. إلا أنها بعد شهر فقط من عملية النجمة الزرقاء، واصلت العمل على الإطاحة برئيس حكومة كشمير فاروق عبد الله. فزعمت أنه يتواطأ مع المنشقين الكشميريين، وأنه معادٍ للهند، وأنه سمح لباكستان بدعم الحركات الانفصالية. ذلك لأنها كانت على اقتناع بأن باكستان تمد الانفصاليين الكشميريين والبنجابيين بالأسلحة والتدريب.

لم يكن جاجموهان حاكم كشمير الجديد متحمساً للتخلص من فاروق عبد الله ليحل محله رئيس الحكومة الذي اختارته إنديرا جي إم شاه، مع أنه أرسل إلى تلك الولاية للامتنال لأوامرها. لقد اقترح جاجموهان فرض الحكم المباشر على الولاية، وهو ما كان الإجراء المناسب دستورياً، إلا أن ذلك الخيار المشروع — على حد تعبير جاجموهان — لم يتح له. فقد أصرت إنديرا على التخلص من فاروق عبد الله فوراً وإبدال شاه به.<sup>6</sup>

لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك إلا إذا نقل عدد كافٍ من الأعضاء في المجلس التشريعي للولاية ولأهمهم من فاروق إلى شاه. لكن وفقاً لبي كيه نهرو، أعضاء المجلس التشريعي للولاية لم يكونوا حمقى؛ لقد علموا أنهم إن تحولوا إلى تأييد شاه فسيكون هناك دهماء غاضبون يقطعونهم إرباً. عليه تقرر اتخاذ إجراء يائس كحل للمشكلة. تقوم الحكومة الهندية بترغيب بعض الأعضاء بالتخلي عن فاروق، ويستخدم في ذلك المال أو الوعود

بالمناصب في حكومة شاه الجديدة أو كلاهما. في الواقع كان شاه قد اتخذ خطوات للوصول إلى تلك الغاية، فقبل بضعة شهور أخذ في استمالة المنشقين. هذا الأمر استلزم أموالاً بلغت — وفقاً لبي كيه نهرو — عشرين مليون روبية في المتوسط لكل منشق، أمد بها حزب المؤتمر في دلهي نقدًا، ونقلت إلى سريناغار في حقائب البريد التابعة لمكتب المخابرات. فبحلول ذلك الوقت ... صار استخدام الأجهزة الرسمية لخدمة أغراض الحزب أمرًا اعتياديًا حتى إنه لم تثر أية اعتراضات عليه.<sup>7</sup>

في وقت مبكر من صباح ٢ يوليو وصل جي إم شاه مع ثلاثة عشر منشقًا عن حزب المؤتمر الوطني الذي ينتمي له فاروق إلى مكتب جاجموهان حاكم كشمير. وقدم مؤيديه المنشقين عن الحزب السالف الذكر، وأدلى بخطاب تأييد من حزب المؤتمر الكشميري. ثم طالب بأن يؤدي حلف اليمين كرئيس لحكومة ائتلافية جديدة على ولاية كشمير. اتصل جاجموهان بفاروق وطلب منه القدوم إلى مكتبه فورًا. فوصل الأخير ثائرًا بعدها بخمس وأربعين دقيقة. وطلب منه جاجموهان الاستقالة من منصبه. فرفض وأصر على عقد اجتماع للمجلس التشريعي لكشمير حتى يواجه تصويتًا بطرح الثقة.

عندها حاول جاجموهان مجددًا — على حد قوله — إقناع الحكومة المركزية بالسماح له بفرض الحكم المباشر. ولم يبادر بعزل فاروق وتحليف جي إم شاه اليمين كرئيس لحكومة كشمير إلا عندما أوصد ذلك الباب في وجهه تمامًا. بعدئذٍ أقسم الثلاثة عشر منشقًا يمين عضوية مجلس وزراء حكومة كشمير. كانوا على حد تعبير جاجموهان متلهفين للوصول إلى السلطة فورًا.<sup>8</sup> كل ذلك وقع في سريناغار، إلا أن جاجموهان حركه عن بعد راجيف غاندي وآرون نهرو اللذان أصدرت إنديرا إليهما التعليمات بالتخلص من فاروق بأي ثمن.<sup>9</sup>

بعد شهر في أغسطس حث آرون نهرو — على ما يبدو بناءً على أوامر إنديرا من جديد — حاكم ولاية أندرا براديش على عزل رئيس حكومة تلك الولاية، نجم الأفلام إن تي راماريو.<sup>10</sup> هذه المرة تمخض ذلك عن معارضة قومية عنيفة. احتجت إنديرا في البرلمان بأنها لم تعلم شيئًا عن عزل راماريو، لكن لم يصدقها إلا القليلون.<sup>11</sup> وبدلاً من ذلك ساد اعتقاد بأنها لم تعد تتورع عن شيء، وسرت شائعات بأنها تعتزم إدخال إصلاحات دستورية لتأجيل الانتخابات العامة لعام ١٩٨٤. فنما شعور بأن سيناريو حالة الطوارئ يتكرر من جديد.

مع مشاعر الاستياء والصراعات التي ظهرت في البنجاب، وكشمير، وأندرا براديش، وغيرها من الأماكن، انحدرت شعبية إنديرا إلى أدنى المستويات. واتهمتها الجرائد بأنها هادمة الديمقراطية. وتوقع لها الكثيرون الهزيمة والطرده من عالم السياسة إن عقدت الانتخابات العامة في موعدها. حيال ذلك لزمّت إنديرا الصمت، غير أن المقربين لها شعروا أنها نفسياً كانت تحتّم وتناهى بنفسها عن عاصفة من الاضطرابات آخذة في التكون. في نوفمبر، كانت إنديرا ستتم السابعة والستين من العمر. إلا أنها لم تشعر بالكبر، وظلت بصحة مثالية، نشيطة كدأبها دوماً، غير أنها كانت في قلب عاصفة، ومع ذلك صامتة وساكنة. في تلك الحال المعنوية، في خريف عام ١٩٨٤، كتبت إنديرا وثيقة لم تحدث أحدًا عنها. عُثر عليها فيما بعد بين أوراقها، قالت فيها:

لم أشعر بأنني أبعد عن الموت من تلك اللحظة ... إن الهدوء والسلام النفسي هو ما دفعني إلى كتابة تلك الرسالة التي تقرب في طبيعتها من الوصية. إن مت ميتة عنيفة، كما يخشى البعض، وكما يدبر لي البعض، فأنا أعلم أن العنف سيكون في عنف تفكير القاتل وفعله، لا موتي، فإن حبي لشعبي وأمتي لن تحجبه الكراهية مهما بلغت، لن تقوى قوة مهما بلغت على تحويلي عن هدفي ومساعي لدفع تلك الأمة إلى الأمام. لقد كتب شاعر حب: «كيف لي أن أشعر بأنني فقير ووجودك إلى جانبي يثريني. أستطيع أن أقول المثل عن الهند. لا أفهم كيف لأي شخص أن يكون هندياً ولا يشعر بالفخر؛ كيف لا يفخر بثناء تراثنا المجمع الذي لا تعرف تعدديته الحدود، كيف لا يزهو بعظمة نفس ذلك الشعب الذي يقف ندّاً للكوارث والمشاكل مهما كانت، إن إيمانه لا يتزعزع ... حتى في غمرة الفقر والمصاعب».<sup>12</sup>

لم تكن تلك وصية بقدر ما كانت إقراراً بالإيمان، بل بالحب، لقد شعرت إنديرا باقتراب نهايتها، وتوقعت أنها ستكون على الأرجح عنيفة. إن حياتها لم تكن الحياة التي أرادت في شبابها، أو الحياة التي اختارت. مع ذلك يبدو في تلك الرسالة المخطوطة على عجل أنها شعرت بأن الخيار الذي فُرض عليها كان الخيار الصحيح، برغم كل شيء، كان الأفضل لها الاضطلاع بمسئولية خدمة الهند التي توارثتها عائلتها، لا السعي إلى تحقيق رغباتها الشخصية. غير أن المؤلم في رسالة إنديرا ليس هواجس الاغتيال التي انتابتها، وإنما فشلها في تحقيق هدفها ومسعاها ... لدفع تلك الأمة إلى الأمام. لقد أغرمت إنديرا كوالدها بالهند، لكنها كانت تعلم جيداً أن البلاد قد ابتلعتها الفوضى.

في ١١ أكتوبر، تزايد شعور إنديرا بالخطر عندما سمعت بأن مارجريت ثاتشر نجت بأعجوبة من هجوم تفجيري شنه الجيش الجمهوري الإيرلندي في أحد اجتماعات حزب المحافظين في برايتون. ومع أن الأخيرة نجت من الهجوم، إلا أن خمسة من أعضاء مجلسها الوزاري قُتلوا، وأصيب اثنان بإصابات خطيرة. على حد تعبير كاتب سيرة مارجريت ثاتشر، لم تشهد بريطانيا هجوماً مماثلاً لذلك من قبل. لقد احتفظت السيدة مارجريت ثاتشر برباطة جأشها علناً، لكنها في قرارة نفسها كأى شخص عادي، شعرت بالخوف والصدمة.<sup>13</sup>

بعكس مارجريت ثاتشر، شهدت إنديرا الكثير من حوادث الاغتيال والموت العنيف. فمن قبل هلك الكثير من المقربين لها بسبب تلك الحوادث، منهم على سبيل المثال غاندي، والشيخ مجيب الرحمن، وسانجاي. مع ذلك، هاتفت إنديرا ثاتشر وواستها، بل لعلها تفهمت شعورها الشديد بالخطر أكثر من أي شخص آخر واساها، الفارق بين رئيستي الوزراء هاتين — اللتين ظلتا صديقتين ثمانية أعوام — هو أنه بالنسبة للسيدة ثاتشر محاولة الجيش الجمهوري الإيرلندي اغتيالها كانت مفاجأة. لا شك أن اغتيالها من الناحية النظرية كان دائماً وارداً خاصة بعد عملية الاغتيال الإرهابية التي قتلت ديكي ماونتباتن قبل خمسة أعوام. لكنه حينذاك تمثل في الواقع بصورته المخيفة. أما بالنسبة لإنديرا فالاغتيال كان منذ زمن طويل من الأخطار الملزمة للمهنة. أما الآن فقد بدا وكأنه نهاية حتمية.

في أواخر أكتوبر، قررت إنديرا فجأة زيارة كشمير لمشاهدة أشجار الشينار في ثوبها الخريفي الزاهي. كانت الولاية لا تزال تعاني الاضطرابات السياسية؛ فبعد عزل فاروق، وتنصيب جول شاه رئيساً لحكومتها، لم تستقر الأوضاع. وأخبر الحاكم جاجموهان إنديرا أن سريناجار تشهد قلاقل، ونصحها بعدم زيارتها. لكن الأخيرة صممت على قرارها. وفي ٢٧ أكتوبر، سافرت جواً إلى سريناجار مع حفيديها راهول وبريانكا. فاستقبلهم جاجموهان وجول شاه في المطار، ومضت بهم سيارة إلى دار ضيافة تشاسما شاهي في الجهة المقابلة لشارع بيت حاكم كشمير.

تلك كانت زيارة خاطفة، لم تستغرق إلا ستاً وثلاثين ساعة، غادرت فيها إنديرا عصر اليوم التالي، إلا أنها كانت أيضاً وفقاً لجاجموهان زيارة حافلة بالأنشطة، يملؤها التفاؤل. أطلع جاجموهان وشاه إنديرا باختصار على الأوضاع في الولاية، لكنها صممت مع خطورة الوضع الأمني على أن تصحب حفيديها إلى سوق سريناجار. آنذاك وفقاً

لجاسموهان تمتعت إنديرا بحالة معنوية ممتازة، فبدأ عليها الحيوية والمرح، واشتهدت الطعام، وفيه الشيكولاتة التي كانت عادة ما ترفض تناولها حفاظاً على وزنها. كما يذكر جاسموهان أنها تطلعت إلى القيام بعدد من الأنشطة مستقبلاً. فقد نهته إلى ضرورة أن يأتي إلى دلهي في أوائل نوفمبر لحضور اجتماع معها ومع مجلس وزرائها، وذكرت رغبتها في اصطحاب حفيديها مجدداً إلى كشمير للذهاب إلى منطقة ليه في يوليو. لقد سارت بضع ساعات في الغابات، وزارت حسبما علم جاسموهان أحد رجال الدين، وتأملت أشجار الشنار التي صار لونها داكناً في ذلك الوقت بظلال اللون القرمزي والكهرماني والصفرة الضاربة إلى اللون البني المحروق. لكن — على حد ما يذكر جاسموهان — زيارتها كانت سعيدة مفعمة بالأمل، بالنسبة لجاسموهان. بدت إنديرا آنذاك أكثر إقبالاً على الحياة من أي وقت مضى.<sup>14</sup>

أما بوبول جاياكار صديقة إنديرا التي قابلتها في دلهي مساء اليوم السابق على سفرها إلى سريناغار — لكن لم تصبحها إلى هناك في أواخر أكتوبر عام ١٩٨٤، وإنما اقتفت آثار رحلتها فيما بعد — فقد حكّت قصة مختلفة. لقد تطلعت إنديرا إلى القيام بأنشطة مستقبلاً، منها مقابلة الدالاي لاما في نوفمبر، لكن الموت بدا وكأنه قد استحوذ على تفكيرها، حتى إنها أخبرت جاياكار بأنها طلبت من راجيف أن ينثر رمادها فوق جبال الهمالايا. لم يستدع الموقف ذكر ذلك، لذا سألت جاياكار إنديرا عن سبب حديثها عن الموت. فأجابتها: أليس الموت محتوماً؟<sup>15</sup>

لم تسأل جاياكار جاسموهان عن زيارة إنديرا إلى كشمير في أكتوبر عام ١٩٨٤، لذا لم تذكر في قصتها لقاء إنديرا بحاكم كشمير ورئيس ولايتها، أو حالتها المعنوية المرتفعة أو اشتهاها الطعام آنذاك. في الواقع لقد ذكرت جاياكار خطأً أن إنديرا لم تلق إلا القليل من الأشخاص، ولم تخض في أي مسائل رسمية. غير أنها حقيقة تتبعت تفاصيل تحركات إنديرا في صباح ٢٨ أكتوبر. تسلمت إنديرا تل شانكارا تشاريا المقدس المجاور لتزور معبدًا يقع أعلاه، وبعدها زارت معلماً روحياً يدعى لاكشمانجو امثك أشرم في حدائق نيشات. أخبر ذلك الناسك جاياكار أن إنديرا أتته في وقت مبكر من صباح ٢٨ أكتوبر وتحدثت عن الموت. قالت إنها تشعر بأن ساعتها قد حانت، بأن الموت قريب. وقد شعر الناسك بدوره بأن الموت قريب منها. غير أنه لم يكن بالشخص الذي يضيع فرصة ادعاء ذلك. لقد أشار لإنديرا إلى مبنى صغير داخل الأشرم وسألها إن كانت ستعود لتشرف على افتتاحه. فأجابته: سأتي إن ظلت على قيد الحياة. بعدها غادرت الأشرم قاصدة زيارة



المعبد المجاور له؛ معبد الإلهة شاريكا حامية الهندوس البراهمانيين. وهناك أدت شعائر تقديم القرابين الهندوسية فيما أنشد الكهنة الترانيم. ووضعوا على جبينها قبل مغادرتها المعبد علامة التيلاك الشمسية القرمزية دلالةً على أن الإلهة شاريكا قد لامستها.<sup>16</sup> بعدما أتمت إنديرا حبتها، عادت إلى دار الضيافة، وجمعت حفيديها ثم قصدت المطار مباشرة وعادت إلى دلهي.

في اليوم التالي، في ٢٩ أكتوبر، سافرت إنديرا جواً إلى بهوبانيشوار عاصمة ولاية أوريسا الشرقية لإدارة حملة انتخابية سريعة هناك. وتنقلت على مدى الست وثلاثين ساعة التالية على متن طائرة مروحية ذهاباً إلى الاحتشادات في جميع أنحاء الولاية. كان ذلك برنامجاً مرهقاً، بانتهاء آخر خطاب فيه في ٣٠ أكتوبر. كانت إنديرا منهكة القوى تماماً، بهوبانيشوار كانت مكاناً مليئاً بالذكريات بالنسبة لإنديرا. ففيها في يناير عام ١٩٦٣. أصيب والدها بأول سكتة دماغية بدأ على إثرها الموت يزحف ببطء إليه، وفيها في إحدى حملات الانتخابات العامة لعام ١٩٦٧. أُلقيت الأحجار عليها وهشمت أنفها.

كأغلب خطابات إنديرا، أعد الخطاب الذي ألقته في بهوبانيشوار مساء ٣٠ أكتوبر عام ١٩٨٤ كاتب خطابات شارادا براساد. كان ذلك خطاباً مشحوناً بالعواطف، فصيحاً، ملهياً للمشاعر، تدخلت فيه الإشارات التاريخية. لقد كان حقيقة نموذجاً للخطابات الانتخابية. أعاد إلى الأذهان لحظات مهمة من تاريخ الهند، من العصور القديمة إلى عصر الكفاح من أجل الحرية، واستخدم عبارات رنانة مثل: مقابل الحرية لا بد من الحذر الدائم، ووظف الأسئلة البلاغية مثل: ما معنى الحرية إن كان هناك جائع؟ وكما هي العادة في الانتخابات، زعم المزاعم الكبيرة، وقدم الوعود الضخمة.

لكن بعدها، نبرته تغيرت فجأة. فطغت نبرة إنديرا على نبرة كاتبه وهي تقول:

أنا هنا اليوم، لكنني قد لا أكون هنا غداً ... لا يعلم أحد كم محاولة دُبرت لقتلي ... غير أنني لا أعاباً بما إن كنت سأعيش أو أموت. لقد عشت حياة طويلة ... أفخر بأنني عشتها بالكامل في خدمة شعبي. ذلك وحده هو منبع فخري، لا شيء سوى ذلك. ولأواصل خدمة شعبي، حتى الرمق الأخير، ولئن مت، كل قطرة من دمائي ستبعث الحياة في الهند وتقويها.<sup>17</sup>

اجتمع في خطبة الوداع تلك، كما هي الحال في الكثير من الأمور في حياة إنديرا، الإيمان الصادق مع الاعتقاد المغلوط.

بعد تلك الخطبة، عادت إنديرا إلى بيت حاكم ولاية بهوبانيشوار بي إن باندي الذي نزلت لديه. أخبر ذلك الأخير إنديرا أنه صدم من إيعازها إلى أنها ستموت ميتة عنيفة. فأوضحت إنديرا أنها كانت بكل بساطة تصدق القول وتشير إلى احتمال واقعي، لقد شاهدت جدها وأمها يموتان موتًا بطيئًا مؤلمًا، لذا لم تتوقع الموت المفاجئ وحسب، بل إنها تمنته.

قاطعت تلك المناقشة أنباء من دلهي تفيد بوقوع حادث سيارة لحفيدي إنديرا راهول وبريانكا أثناء عودتهما من المدرسة. منذ عملية النجمة الزرقاء ساورت إنديرا المخاوف من اختطاف الطفلين أو إيزائهما، من ثم صممت على قطع زيارتها إلى ولاية أوريسا لتعود فورًا إلى دلهي. مع أن حادث السيارة كان بسيطًا، لم يصب فيه أحد بأذى.

وصلت إنديرا إلى مقر إقامتها في وقت متأخر من مساء نفس اليوم. فلما كان الطفلان نائمين، طمأنتها سونيا بأنهما بخير. وبعدئذ خاضت إنديرا قبل أن تخلد إلى النوم نقاشًا مع سكرتيرها بي سي أليكساندر الذي شعر أنها تبدو في غاية التعب والقلق. فحاول اختصار مقابلتهما، لكن إنديرا أبت إلا التباحث في أوضاع كشمير والبنجاب قبل تركه. إلا أنها بعدها أقرت بأنها منهكة القوى، فاستدعت آر كيه دهاوان وطلبت منه إلغاء أغلب مقابلات اليوم التالي عدا أهمها.<sup>18</sup>

في ساعة جاوزت منتصف الليل بوقت طويل، أخذت إنديرا إلى النوم، إلا أنها لم تنم إلا قليلًا تلك الليلة، في الرابعة صباحًا. في الغرفة المجاورة لها، استيقظت سونيا غاندي واتجهت إلى دورة المياه بحثًا عن دواء الربو الخاص بها. فقدمت إنديرا التي كان من الواضح أن النوم قد جافى عينيها ... وساعدتها في العثور على الدواء، وأخبرتها بأن تطلب المساعدة إن شعرت مجددًا بأنها على غير ما يرام.<sup>19</sup>

بعد ساعتين في السادسة صباحًا، كانت إنديرا مستيقظة ومرتدية ملابسها كالعادة. وربما لأنها تذكرت ألوان الخريف القوية في كشمير، ارتدت ساريًا زعفرانيًا فاقع اللون زُينت حوافه بزخارف يدوية سوداء. تصفحت الجرائد أثناء تناولها الإفطار على صينية في غرفة نومها. عرج دهاوان على غرفتها لوقت قصير راجعًا فيه جدول مواعيدها المختصر ليوم الأربعاء ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤. جاء على رأس جدول المواعيد مقابلة صحفية مع الصحفي بيتر أوستينوف الذي عكف آنذاك على إعداد فيلم وثائقي عن إنديرا لإذاعة بي بي سي صاحب لتصويره الأخيرة في ولاية أوريسا. أما عصرًا فتقرر أن تلتقي إنديرا برئيس الوزراء البريطاني السابق جيمس كالاها، ثم قائد ولاية ميزورام الصغيرة. ومساءً أزمع أن تستضيف عشاءً رسميًا للأميرة آن.

بعد الإفطار، تركت إنديرا اختصاصي تجميل يعنيان بوضع زينة الوجه لها وتهيتها لمقابلتها التلفزيونية مع أوستينوف التي تقرر تصويرها في مكتبها بشارع أكبر رود. أزمع بدايةً إجراء المقابلة في الثامنة والنصف، لكن بعدئذٍ قدم دهاوان ليبذل عن وجود مشكلة في معدات التصوير، وعن إرجاء المقابلة إلى التاسعة وعشرين دقيقة. فيما عكف اختصاصيا التجميل على وضع مساحيق التجميل وأحمر الخدود لإنديرا ثرثرت مع طبيبها الخاص كيه بي ماثور الذي كان يعرج عليها كل صباح. وأطلقت الدعابات عن الكثير من الأمور، منها وجه رونالد ريجان الذي يبدو مثقلًا بمساحيق التجميل عندما يظهر على التلفاز، كما تابحت مع ماثور حول سبب عدم وجود الكثير من الشعر الأشيب في رأس ريجان.

في التاسعة وعشر دقائق، لما خرجت إنديرا من مقر إقامتها وجدت الجو منعشًا، وباردًا، وجميلًا. غسلت أقطار الصيف الغزيرة الأشجار والأزهار وأوراق النباتات في حديقتها، فبدأ الجو نقيًا، ودافئًا، ولطيفًا. في ممشى الحديقة الذي يصل بين بيت إنديرا ومكتبها في شارع أكبر رود، سارت الأخيرة. وكان إلى جانبها الضابط ناراین سينج يحمل شمسية ليقبها من أشعة الشمس، وفي إثرهما دهاوان على بُعد بضعة خطوات، من خلفه خادم إنديرا الشخصي ناو رام. وفي مؤخرة تلك المجموعة الصغيرة المفتش المساعد راميشوار دايال.

في آخر الممشى الذي يحده نبات الجهنمية، رأت إنديرا حارسها الشخصي بينت سينج يقف عند البوابة الصغرى للحديقة. كان سينج رجلًا هائل الجسم من سيخ البنجاب وحراس إنديرا الشخصيين منذ عودتها إلى السلطة عام ١٩٨٠. وعلى مسافة لا تبعد كثيرًا عن سينج وقف حارس أمني جديد شاب يدعى ساتوانت سينج، إلى تلك اللحظة لم تسنح له رؤية إنديرا من مدى قريب. كانت الأخيرة تتحدث إلى دهاوان وهي تنظر خلفها، فلما بلغت البوابة الصغرى قطعت حديثها لتحيي حارسها الشخصيين بتحية الناماستي؛ ضامة راحتها معًا ورافعة إياهما عاليًا وكأنها تصلي.

إزاء ذلك أشهر بينت سينج مسدسه، وصوبه مباشرة نحوها. فمرت ثانية أو ثانيتين هبط فيهما الصمت على الجميع، ما عدا الطير المغرد على الأشجار.

بعدها قالت إنديرا: ماذا تفعل؟

في اللحظة نفسها، أطلق بينت سينج نيران مسدسه، فأصابت رصاصة إنديرا في بطنها. فرفعت ذراعها ويدها اليمنى لتحمي وجهها. لكن سينج أطلق أربع رصاصات أخرى من مرمى مباشر. أصابتها تلك الرصاصات في إبطها وصدرها وخصرها.

على مبعدة خمس أقدام وقف ساتوانت سينج حاملاً مدفعاً آلياً من طراز ستين. وقد جمده الخوف إلى أن صاح فيه بينت سينج بأن يطلق النيران. فاستجاب فوراً وأطلق خمساً وعشرين رصاصة اخترقت جسد إنديرا. إثر الطلقات، دار جسد إنديرا حول نفسه سريعاً، وهوى على أرض المشى جثة هامة محطمة.

بعد خمس وعشرين ثانية على إطلاق سينج رصاصته الأولى. لم يسارع بالتحرك إلا راميشوار دايل الذي سار في مؤخرة المجموعة الصغيرة التي تبعت إنديرا. وفيما أخذ ساتوانت سينج في إفراغ رصاصات مدفعه الستين، اندفع إلى الأمام، إلا أنه قبل أن يبلغ إنديرا أصيب بالرصاص في فخذه وساقه وأردى هو الآخر قتيلاً.

أما الآخرون الذين صحبوا إنديرا، فقد تجمدوا في أماكنهم خلفها. تسمر دهاوان — الذي نجا بالكاد من وابل الرصاص التالي — في مكانه، في حين حقق ناو رام في ارتفاع في إنديرا، لكن بعدئذٍ أفاق دهاوان ببطء من زهوله، وزحف أماماً، وانحنى على جسد إنديرا. فيما هرع رجل أمن آخر يدعى دينيش كومار بهات من مكتبها المجاور. وعاد ناو رام بسرعة إلى منزلها ليستدعي الطبيب الموجود في الخدمة آنذاك الطبيب آر أوبيه.

ألقي بينت سينج وساتوانت سينج سلاحيهما أرضاً.

وقال الأول: لقد قمت بما كان عليّ فعله. الآن قوموا بما عليكم فعله.<sup>20</sup>

فاندفع نارايين سينج أماماً وانقض عليه طارحاً إياه أرضاً. تدفق فدائيو شرطة الحدود الهندية التبتية من غرفة الحرس المجاورة وأخضعوا ساتوانت سينج.

في تلك الأثناء، وصل الطبيب أوبيه إلى مسرح الأحداث، وحاول إنعاش إنديرا بالفم. وقدم المزيد من رجال الأمن، ومستشار إنديرا السياسي إم إل فوتيدار الذي خرج من المنزل يصرخ طلباً لسيارة تنقل إنديرا إلى المستشفى. فوصلت سيارة دبلوماسية بيضاء حمل دهاوان وبات جسد إنديرا الواهن إليها ومدداه على المقعد الخلفي لها ثم جلسا في مقدمتها بجوار السائق. قبل أن تغادر السيارة جاءت سونيا غاندي تركض في المشى وهي ترتدي مبدلاً صارخة: «أماه! رباه، أماه!» ثم جذبت باب المقعد الخلفي للسيارة وقفزت إليها لتكون مع حماتها. فأسرعت السيارة بالاتجاه إلى معهد الهند للعلوم الطبية.<sup>21</sup>

اقتضت تلك الرحلة السير لمسافة ثلاثة أميال في زحام مواصلات دلهي، وبدأت أشبه بالكابوس. لم ينبس أحد ببنت شفة. وجلست سونيا غاندي في المقعد الخلفي للسيارة تحتضن رأس إنديرا على حجرها. غرق المبدل الذي ترتديه بالدماء في وقت قصير.<sup>22</sup>

في التاسعة واثنين وثلاثين دقيقة بلغت السيارة مستشفى معهد الهند للعلوم الطبية. كان المعهد بحوزته سجلات إنديرا الطبية واحتياطي فصيلة دمها (فصيلة أو سالب). لكن لما لم يتبادر إلى ذهن أي ممن في مقر إقامة الأخيرة الاتصال بالمستشفى للإبلاغ بأنها تنقل إليه مصابة بإصابات خطيرة. تملك الأطباء الشباب المناوبين فيه الخوف عندما تعرفوا هويتها. إلا أن أحدهم مكنته سرعة بديهته من التصرف، فاستدعي طبيب القلب الأكبر في المعهد، وفي غضون خمس دقائق، عكف اثنا عشر طبيباً من أفضل أطباء المستشفى على معالجة إنديرا. أدخل فريق الأطباء أنبوب تنفس إلى أسفل فمها وإلى قصبته الهوائية لضخ الأكسجين إلى رئتيها، وفتح مجريان وريديان لنقل الدم إليها. وحاول إنعاش قلبها لما أظهر رسم القلب موجة ضعيفة. إلا أنه في آخر الأمر لم يشعر بنبض واتسعت حدقتا عينا إنديرا دلالة على إصابة مخها بالتلف.

نقلت إنديرا إلى غرفة العمليات في الطابق الثامن من المستشفى مع أنه كان من الواضح أنها فارقت الحياة. وعكف فريق من الجراحين لأربع ساعات على إجراء عملية لها محاولين تحقيق معجزة. لكن اتضح لهم أن الرصاصات مزقت كبد إنديرا، واخترقت أمعاءها الدقيقة والغليظة، وإحدى رئتيها، وهشمت عظامها وفقراتها ومزقت حبلها الشوكي. ولم يسلم إلا قلبها.

في الساعة الثانية وثلاث وعشرين دقيقة، بعد خمس ساعات من اللحظة التي سقطت فيها إنديرا غاندي برصاص شخصين ائتمنا على حياتها، أعلنت وفاتها.<sup>23</sup>



## الفصل الثاني والعشرون

### ما بعد إنديرا

في صباح ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤، كان راجيف غاندي في منطقة نائية في بنغال الغربية، يتنقل من قرية إلى قرية، في جولة سريعة استعدادًا للانتخابات. في إحدى الطرق الريفية، المتربة، البعيدة، على بُعد يزيد عن مائة ميل جنوب ولاية كلكتا، استوقفت سيارة شرطة من طراز جيب سيارة راجيف الأمباسادور البيضاء. وخرج منها ضابط أعطاه رسالة قصيرة كتب عليها: «وقع حادث في بيت رئيسة الوزراء. ألغ كل مواعيدك وعد إلى دلهي فورًا».<sup>1</sup> فغادر راجيف وحاشيته السيارة الأمباسادور التي كانوا يركبونها، واستقلوا سيارة أسرع من طراز مرسيدس انطلقت بهم محدثة صريرًا إلى ولاية كلكتا. وفيما مضت السيارة تلتهم الطريق المتآكل، ضبط السائق المذيع على إذاعة بي بي سي العالمية. فلما بدأت نشرة أنباء العاشرة، علم الركاب أن حارسي إنديرا الشخصيين قد أطلقوا عليها الرصاص، وأنها نُقلت إلى مستشفى معهد الهند للعلوم الطبية.

بعد ساعتين ونصف من القيادة بسرعة محمومة، اعترضت السيارة المرسيدس طائرة مروحية أقلت راجيف ورفاقه الثلاثين ميلًا المتبقية إلى كلكتا، حيث انتظرتهم طائرة بوينج تابعة للخطوط الجوية الهندية لتحملهم إلى دلهي. قضى راجيف أغلب الرحلة في الطائرة البوينج في كابينة القيادة مع الطيارين الذين كانوا على اتصال مستمر بدلهي عبر الراديو. وهناك في الساعة الثانية والنصف علم راجيف من جهاز الراديو الخاص بالطائرة، الذي يصدر طقطقة من حين لآخر، أن والدته ماتت. عندما هبطت طائرة راجيف في مطار بالام بدلهي، وجد في استقباله مجموعة كبيرة من ساسة المؤتمر ومعاونيه وأصدقائه. لكنه من قبل أن يلقاهم، علم بما أجمعوا عليه وأتوا ليطالبوه منه. فراجيف غاندي، سواء شاء أم أبى، كان سيصبح رئيس وزراء الهند المقبل.

لم يعترض أحد، أو على الأقل، أي من أعضاء المؤتمر أو من عمل لدى إنديرا، على ذلك. لقد بدا تسلم راجيف منصب إنديرا حتمياً، كأنه ناموس من نواميس الطبيعة، مع أنه لم يسبق أن تسلم أحد الحكم مباشرة. لما تُوُفِّي جواهرلال نهرو ولال بهادور شاستري أثناء حكمهما، تولى رئيس وزراء مؤقت الحكم قبل أن ينتخب المؤتمر البرلماني عضواً ليكون رئيس الوزراء. لكن في ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤، لم يثر أحد حتى احتمالية أن يتولى قائد مؤقت الحكم أو أن تجرى انتخابات في الحزب.

لم يتأخر صعود راجيف المباشر إلى السلطة إلا لأن رئيس الهند زایل سينج لم يكن موجوداً لينصبه أو يأخذ عنه قسم توليه منصب رئاسة الوزراء. لكن الأخير، الذي كان في زيارة رسمية إلى اليمن، عاد بدوره على متن طائرة في عصر ٣١ من أكتوبر إثر سماعه باغتيال إنديرا. وأثناء سفره جواً، حسم هو الآخر ... قراره بتعيين راجيف غاندي رئيس وزراء الهند الجديد.<sup>2</sup> التقى لدى وصوله إلى دلهي بآر كيه دهاوان وآرون نهرو اللذين أخبراه بأن راجيف مستعد لتولي السلطة. وبعدها اتجه معهم مباشرة إلى مستشفى معهد الهند للعلوم الطبية.

بحلول ذلك الوقت، كان المستشفى قد امتلأ بحشد ضخم. وتزاحم الآلاف أمام بواباته والشوارع الموجودة خارجه. وفي داخله اجتمع عدد كبير من الشخصيات التي لعبت دوراً مهماً في حياة إنديرا، منهم مانیکا غاندي التي انخرطت في البكاء، ودهيريندرا براهماشاري الذي بدت عليه الصدمة، وحتى اختصاصية تجميل إنديرا المتأنقة اللافطة للنظر شاناز حسين. كان أعضاء مجلس الوزراء، والمسؤولون الحكوميون والمساعدون وأفراد السكرتارية معاً جنباً إلى جنب، يسرون ويتحدثون معاً.

في الوقت الذي تجول فيه هؤلاء في ممرات المستشفى، في ركن بغرفة خارج غرفة العمليات التي ظل فيها الجراحون عاكفين على خياطة الجروح في جثة إنديرا. وقف راجيف وسونيا غاندي متقاربين جداً، وقد أمسك الأول بكلتا يدي زوجته وعلا وجهه تعبير جاد وهو يتحدث إليها بصوت خفيض. أجهشت هي بالبكاء وهي ترجوه ألا يقبل أن يصبح رئيس الوزراء. واحتجت بأنه سيُقتل إن اضطلع بذلك المنصب، فطبع قبلة على جبينها، ثم قال إنه لا يملك خياراً ... إنه سيُقتل بأية حال.<sup>3</sup>

شهد سكرتير إنديرا بي سي أليكساندر تلك المصادفة الشخصية، ونجح بصعوبة في أن يصد راجيف عن تلبية رغبة سونيا. كانا بحاجة إلى الإسراع بنقل الخلافة بلا تأخير. أخبر راجيف أليكساندر أنه سيذهب إلى بيته ليغير ملابسه، وأنه سيصل إلى راشتراباتا بهافان مقر الرئيس بعد السادسة مساءً بوقت قصير ليؤدي قسم توليه منصبه.



فدعا أليكساندر سريعاً إلى عقد اجتماع لمجلس المؤتمر البرلماني في الخامسة في مكتب إنديرا بشارع أكبر رود. ذلك لأنه كان لا بد على الأقل من إجراء الشكليات. وصدق المجلس على قرار بترشيح راجيف قائداً لحزب المؤتمر البرلماني، وأوصى بأن يؤلف الأخير حكومة جديدة. تألف ذلك المجلس من خمسة أعضاء فقط، توفي أهمهم وهي رئيسة الوزراء، في حين أن اثنين منه لم يكونا في دلهي ذلك اليوم. لذا لم يكن هناك سوى وزير الداخلية ناراسيمها راو ووزير المالية براناب مخيرجي للمصادقة على ترشيح راجيف غاندي.<sup>4</sup>

في السادسة والنصف، في قاعة أشوك براشترافاتي بهافان، أقسم راجيف غاندي اليمين كرئيس الوزراء السادس للهند.<sup>5</sup> وبعدها مباشرة رأس أول اجتماع وزاري له. إلا أنه قبل أن يدلي بقسم تقلده منصبه، أوضح أنه يرغب في الإبقاء على جميع أعضاء المجلس الوزاري، ولا يود إضافة أعضاء جدد أو إجراء أي تغييرات في الحقائب الوزارية. وخصص الجزء الأكبر من الاجتماع الوزاري لمناقشة تدابير مراسم جنازة والدته حيث اتفق على أن تسجى في نعش مكشوف ليومين في تين مورتى، وتقرر أن تقام جنازتها في ٣ نوفمبر.

بعدها، جرى على قدم وساق عقد سلسلة من الاجتماعات الطارئة، فيما أعلن راديو كل الهند ومحطة دوردارشان القومية التليفزيونية أن رئيس الوزراء الجديد سيوجه للامة خطاباً في العاشرة والنصف مساءً. لكن في آخر الأمر لم يظهر راجيف غاندي حقيقة على شاشات التليفزيون إلا في الحادية عشرة مساءً، ولم يدع خطابه على محطات الراديو في جميع أنحاء الهند وحسب وإنما في جميع أنحاء العالم.

تحدث راجيف بهدوء شابته نبرة الأسى، وحسم شابته نبرة الألم.

إنديرا غاندي اغتيلت. إنها لم تكن أمّاً لي وحدي، وإنما أمّاً للبلاد كافة. لقد خدمت شعب الهند حتى الرمق الأخير. لذا هذه لحظة حزن عميق ... إلا أننا نستطيع، بل يجب أن نصمد في وجه تلك المحنة بقوة وشجاعة وحكمة. إنديرا غاندي لم تعد بيننا لكنها حية في النفوس. الهند لا تزال حية. الهند خالدة. روح الهند خالدة.<sup>6</sup>

أعادت تلك الخطبة بفصاحتها وقوة تأثيرها إلى الأذهان الخطبة المتدفقة بالمشاعر التي أذاعها نهرو إثر وفاة المهاتما غاندي، عندما قال: انطفأ النور من حياتنا، وصار الظلام في كل مكان. لا أدري ما الذي يسعني أن أقول لكم ولا كيف أقوله لكم. قائدنا الحبيب، بابو كما كنا ندعوه، أبو الأمة، لم يعد بيننا. لا بد أن تلك الكلمات كانت تداعب أفكار شارادا براساد كاتب خطابات إنديرا الرئيسي عندما أعد أول خطاب يذيعه راجيف.

لكن مع أن خطاب راجيف سرت غصات الحزن بين حروفه، فلم يكن يائساً كخطاب نهرو الصادق الواقعي. أشار راجيف إلى أن تراث إنديرا سيعيش مع أنها ماتت، وإلى أن ميبتها العنيفة لم تكن بلا طائل لأن كل قطرة من دماها، كما توقعت هي في أوريسا في الليلة السابقة على موتها، ستكون في سبيل الأمة. لكن بعدها بوقت قصير، اتضحت فداحة خطأ معتقده، عندما اندلعت إثر الاغتيال مجزرة في دلهي وغيرها من المدن.

في الواقع بدأت المجزرة قبل حتى أن يشرع راجيف في إلقاء خطابه، إلا أنه لم يكن قد انتبه إليها بعد. فبالنسبة له ولأسرة إنديرا وفيهم فيجايا لاکشمي بانديت وابنتها ناياترا ساهجال اللتان أسرعتا بالذهاب إلى دلهي من دهرادون بدت ليلة ٣١ أكتوبر وكأنها لن تنتهي. نقل جثمان إنديرا من المستشفى إلى بيتها ليرقد هناك الليلة الأخيرة قبل أن يُحمل إلى تين مورتى ليسجى في نعش مكشوف. فأزيل الأثاث من غرفة الجلوس وبسطت الأرض بمفارش بيضاء ناصعة جلس عليها المعزون طوال الليل حول جثمان إنديرا الذي كُسي بقماش الموصلين. لم يكن هؤلاء إلا الأصدقاء والأقارب المقربين، لكن مع ذلك امتلأ البيت على آخره بالناس. فقد أعد الخدم حشيات وفرشاً لمن لا يقطنون في دلهي كي يتسنى لهم قضاء آخر ليلة لإنديرا في بيتها معها. وقد ضم هؤلاء بالإضافة إلى السيدة بانديت وناياترا ساهجال، بي كيه نهرو وفوري نهرو اللذين سافرا على متن طائرة من أحمد آباد إلى هناك. غير أن الكل لم ينم تلك الليلة. لقد تحدث الناس وبكوا.

في الساعة الثانية صباحاً، خرج بي كيه نهرو وفوري نهرو من البيت ليستنشقوا الهواء النقي، فوجدا الليل قد غشيه السكون. كانت السماء صافية، وحديقة البيت وممشاهها يلمعان في ضوء القمر. فسارا في الممشى إلى البوابة الصغيرة التي تقع في آخره، وهناك وجدا دماء إنديرا متناثرة على الرصيف. بدت الدماء إلى ذلك الوقت طازجة، حول كل بركة دم صغيرة رسمت الشرطة دائرة بالطباشير البيضاء. وقد لمع الكثير من تلك الدوائر البيضاء في ضوء القمر.<sup>7</sup>

نُقل جثمان إنديرا في اليوم التالي إلى بيت تين مورتى حيث مدد على نعش مزدان بالأزهار في المدخل الأمامي للبيت. وهناك أثناء إنشاد رجال الدين الهندوس الترانيم على مدار الساعة، عرج عليه لليومين التاليين سيل لا ينتهي من المعزين من رؤساء الدول، والزعماء السياسيين ونجوم الأفلام، والأصدقاء والأقارب وآلاف الهنود الذين لم يلقوا إنديرا من قبل، لكن شعروا بالأسى الشديد على وفاتها.

غير أن الحزن لم يكن وحده ما سيطر على البلاد. لقد أبدى بعض السيخ سعادتهم باغتيال إنديرا؛ فثارت كراهية الطوائف بعضها لبعض ثورة أشد مما شهدتها فترة التقسيم. لما انتقم سيخيان من اجتياح المعبد الذهبي، صمم جمع كبير من الهندوس، بعضه من الهمج وموظفي حزب المؤتمر، على الانتقام لاغتيال إنديرا غاندي. وأخذوا يعيشون في الأرض فسادًا. في الوقت الذي ركزت فيه كاميرات التليفزيون على جسد إنديرا المتحلل في نعشه المكشوف بتين مورتى، أحرق هؤلاء مناطق كاملة من دلهي وغيرها من المدن الهندية.

لقد حوصرت أحياء السيخ ومناطقهم، ونُهبت أسواقهم ومتاجرهم، وأشعلت النيران فيها. وأخرج سعاة الانتقام لإنديرا من يرتدون العمامات من الرجال والصبية من بيوتهم جراً على الأرض، وأوسعوهم ضرباً حتى الموت. وأشعل بعض من السوق البيوت بدون إمهال قاطنيها من النساء والأطفال والرجال فرصة للخروج. وجابت الشوارع عصابات من قطاع الطرق انهالت على السيخ ضرباً حتى الموت، وصبت عليهم البنزين ثم أضرمت بهم النيران. وأخرج السيخ من القطارات والحافلات وسيارات الأجرة وذبحوا. أين كان رجال الشرطة؟ كانوا في أحيان كثيرة شهوداً في مسرح الأحداث، لكنهم تجاهلوا، وإن كان بعضهم قد شارك في المذابح.

في غضون ثلاثة أيام من اغتيال إنديرا، قُتل ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سيخي، بلغ نصيب دلهي وحدها منهم أكثر من ألفي قتيل. البعض نجا لأنه قص شعر رأسه ولحيته ليحسبه الناس هندوسياً. وفر أكثر من ٥٠ ألف سيخي من العاصمة، واتجه أكثرهم إلى البنجاب. في حين لجأ خمسون ألفاً آخرون إلى معسكرات بدلهي مشابهة للمعسكرات التي عملت فيها إنديرا إبان فترة التقسيم.

في مساء ٢ نوفمبر، بعد تأخير، أخبر راجيف غاندي جمهوراً كبيراً من المشاهدين في التلفاز أن العنف لا بد أن يتوقف. وقال إن أحداث العنف التي وقعت في دلهي وغيرها من الأماكن منذ اغتيال إنديرا غاندي تسيء إلى كل ما أيدته.<sup>٨</sup> وأرسل في اليوم التالي الجيش لإخماد الفوضى والمذابح التي ابتلعت دلهي. عندها كان الوقت قد تأخر على إنقاذ الآلاف من السيخ، غير أن العنف كان من الممكن أن يستمر لوقت أطول إن لم تقتحم الدبابات المدرعة بصوتها الهادر مناطق دلهي التي تأثرت بأعمال العنف في اليوم الذي أقيمت فيه جنازة إنديرا.

يوم السبت ٣ نوفمبر، حمل جثمان إنديرا مكسّواً بنبات القطيفة وزهور السوسن البيضاء إلى عربة مدفع وقفت أمام منزل تين مورتى. جذبها ببطء تسعون رجلاً من القوات المسلحة عبر الشوارع الضيقة الملتوية في مدينة نيودلهي القديمة إلى موقع المحرقة على ضفاف نهر جومنا. سلكت إنديرا مسار الأربعة الأميال الذي سلكه المهاتما غاندي وفيروز غاندي وجواهرلال نهرو وسانجاي غاندي من قبلها. لكن بسبب المذابح التي ابتلعت دلهي إثر وفاتها لم يقف على طول الطريق سوى حشد صغير من صف أو اثنين في بعض المناطق على جانبيه. على حد وصف الصحفي مارك تولى: لقد تعود الهنود التدفق أفواجا لمشاهدة رئيسة وزرائهم، لكن الخوف منعهم من تشييع آخر رحلاتها.<sup>9</sup>

في شانتي فانا (غابة السلام)، على ضفاف نهر جومنا، حضر عدد من القادة الأجانب والشخصيات عظيمة الشأن جنازة إنديرا. كان من بينهم مارجريت ثاتشر، وجورج بوش، وياسر عرفات، والرئيس الباكستاني ضياء الحق، ورئيس زامبيا كينيث كاوندا، والزعيم الأوغندي ميلتون أوبوتي، وفيرديناند ماركوس رئيس جمهورية الفلبين وزوجته إميلدا، وقائد الأوركسترا زوبين ميهتا، والأم تيريزا ومجموعة من نجوم الأفلام والفنانين والكتاب وملوك أوروبا ورجال الأعمال الأثرياء ذوي النفوذ، والعلماء البارزين، وغيرهم من المشاهير. كما حضر جميع رؤساء الحكومات وغيرهم من أعضاء حزب المؤتمر وساسة أحزاب المعارضة والمسؤولون الحكوميون ورجال الجيش. أما أفراد الشعب الهندي العاديون الذين شاهدوا مراسم الجنازة التي استمرت ساعتين، فشأنهم شأن الحشد الذي اصطف على طريق الموكب لم يكونوا إلا قلة مقارنة بالجموع الغفيرة التي احتشدت عند موقع محرقة المهاتما غاندي وجواهرلال نهرو لدى وفاتها.

عندما وصلت عربة المدفع التي تحمل جثمان إنديرا إلى شانتي فانا، حمل راجيف غاندي وآرون نهرو وقادة القوات المسلحة النعش، وأرسوه على منصة مستوية مقامة أعلى المحرقة التي نُصبت من خشب الصندل العطر. ثم دار راجيف حول جثمان أمه سبع مرات أثناء إنشاد رجال الدين الهندوس بالضبط كما دارت إنديرا وفيروز قبل اثنين وأربعين عامًا حول النيران في زواجهما. وبعدها أشعل النيران في المحرقة بمشعل.

أثناء اشتعال النيران، غرب قرص الشمس متوهجًا باللون الأحمر والزعفراني والذهبي. وأذكى أصدقاء إنديرا المقربون نيران المحرقة بمزيد من خشب الصندل. وأضاف معزون آخرون بعض أوراق الأشجار وأعواد البخور إلى النيران، وصب رجال الدين مزيجا من العسل وسمن الغي لإذكاء النيران، في حين عزف رجال الجيش والبحرية

الأبواق الجنائزية. وقبل أن تلتهم النيران جسد إنديرا كلية، ربت راجيف على جمجمتها بعصا من خشب البامبو ليحرر روحها — وفقًا للمعتقدات الهندوسية — من سجنها. ظلت النيران مشتعلة ليومين على ضفاف نهر جومنا. فلما همدت في آخر الأمر، جُمع الرماد في جرار نحاسية ثقيلة. سافر بها راجيف بعد ثلاثين يومًا إلى كشمير. وهناك على متن طائرة جوية حربية نثر راجيف رماد والدته فوق جبال الهيمالايا. لقد انتهت إنديرا إلى حيث بدأت، ومع أن التاريخ طوى صفحتها إلا أنها عادت إلى ديارها.<sup>10</sup>



## الخاتمة

في ليلة ٢١ مايو عام ١٩٩١، كان راجيف غاندي يدير حملة انتخابية في مدينة صغيرة متربة في جنوب ولاية مدراس تدعى سريبيرمبودور تقرر أن يخطب فيها في حشد ضخم. لدى اقترابه من منصة الخطاب، اندفع حشد لتكليه بالزهور من بينهم امرأة تاميلية شابة تدعى دهانو. وضعت دهانو أكاليل الزهور على رقبة راجيف، ثم جثت على ركبتيها تتلمس قدميه. وفيما هي على تلك الهيئة، فجرت قنبلة أخفتها تحت قميص الشالوار البرتقالي الذي كانت ترتديه. فأودى الانفجار على الفور بحياة راجيف وثمانية عشر شخصًا.

بعد وفاة راجيف، نبذت أرملته الإيطالية المولد سونيا عالم السياسة. وبدأ أن سيرة آل نهرو غاندي قد انطفأت في آخر الأمر. لكن بعد ست سنين من وفاة راجيف، وتحت ضغط من حزب المؤتمر، وافقت سونيا على رئاسة الحزب. وفي العام التالي رشحتها دائرة زوجها الراحل دائرة أميثي عضوًا في البرلمان. واليوم، هي قائدة أحزاب المعارضة في المجلس الأدنى للبرلمان، بينما يرأس الحكومة الهندية رئيس الوزراء عن حزب بهاراتيا جانانا أتال فاجبايي.

يقال إن سونيا غاندي في حملتها الانتخابية لعام ١٩٩٩ شاهدت تسجيلات لخطابات حمايتها؛ كما أنها تبنت تمامًا أساليبها الخطابية وحركاتها. وتحول شَعْرُها من اللون الفاتح إلى البني الغامق الضارب إلى السواد. وارتدت ثياب ساري تذكر بتلك التي ارتدتها حمايتها، وتعودت ارتداء ساعات المعصم الرجالية الكبيرة بالضبط كما فعلت إنديرا.

أما ابنتها بريانكا غاندي فاردا التي تشبه جدتها إنديرا شبهًا عجيبًا — وهي تبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا — فقد أدارت الحملات الانتخابية بنشاط لوالدتها ويقال إنها تضمّر طموحات سياسية خاصة بها. لقد أنجبت في ٢٩ أغسطس عام ٢٠٠٠ صبيًا

أعلنت إذاعة بي بي سي وغيرها من وسائل الإعلام أنه «فرد جديد يضاف إلى سلالة غاندي الحاكمة».

لكن الحق أن دور آل غاندي ودور المؤتمر — آلتهم السياسية — قد توقف تقريباً. تبدو لمحات من حياة إنديرا غاندي من المحارق الجنائزية ولدى إحياء الذكريات السياسية، لكن قصتها تبدو وكأنها قد بلغت ختامها.

في طفولة إنديرا كتب نهر في كتاب «لمحات من تاريخ العالم» عن قدرة الهند على الصمود وشدد على أنها ستحيا دوماً. رحلت إنديرا غاندي ورحل من سبقها، هم شكلوا ما صارت عليه الهند اليوم، لكن الهند لا تقف عند شخص واحد أو أسرة واحدة. إن رؤيا نهر للهند صادقة؛ كجبال كشمير التي عشقتها إنديرا وانحدرت منها أسرتها، الهند باقية.



## ملاحظات

الجزء الأول: إنديرا نهرو

الفصل الأول: الخروج من كشمير

(1) Pankaj Mishra has suggested that Indian security forces were in fact responsible for this massacre and that its rationale was to discredit Pakistan and Pakistani support of Islamic militants in Kashmir, *Guardian*, 14 October 2000.

(2) Author's interview with B. K. Nehru.

(3) Bradnock, Robert W., 'Regional Geopolitics in a Globalising World: Kashmir in Geopolitical Perspective,' *Geopolitics*, 3, no. 2 (Autumn 1998), p. 14.

(4) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 1.

(5) Ibid.

(6) Harijan (which means 'children of God') was the term chosen by Mohandas Gandhi for 'untouchables'—those outside the ancient Hindu caste system. There are approximately 3,000 Hindu *jatis* or castes which are loosely grouped into four classes or *varnas*: Brahmins (priests and scholars), Kshatriyas (warriors and rulers), Vaisyas (merchants, traders, farmers), Sudras (artisans, labourers, servants). Notions of pollution and

purification are central to the caste system; each caste has its own dietary habits, customs, fixed place in the social and religious hierarchy, and traditional occupations. After independence, the Constituent Assembly of India abolished the caste system and made use of the term 'untouchable' and the disabilities associated with it illegal. Caste, however, is still important in traditional and rural life. The sweepers at Anand Bhawan, according to Hindu practice, were segregated from other members of the household. But this was the only instance of caste rules being observed at Anand Bhawan. Motilal and later Jawaharlal Nehru's valet, Hari Lal, was an untouchable and mixed freely with the family, as did various other untouchable servants, including cooks.

(7) Nehru, op. cit., p. 25.

(8) Ibid., p. 20.

(9) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru*, I, pp. 92-3, p. 97.

(10) Nehru, op. cit., p. 28.

(11) The view that Kamala was a cipher and Nehru's marriage to her a disaster is a commonplace of Nehru biography, especially among biographers such as Stanley Wolpert who make much of Nehru's later relationship with Edwina Mountbatten. The idea that Jawaharlal and Kamala were woefully unsuited to each other is also held by many Nehru family members who witnessed the marriage, including B. K. Nehru, Nayantara Sahgal and her sister Chandralekha Mehta. I, however, have relied on Nehru's own reflections on his wife and marriage. His book *The Discovery of India*, his letters and his prison diaries, all paint a quite different picture of his feelings for Kamala. Though most of these were written after her death and thus tinged with grief, regret and longing, they nevertheless reveal that Nehru loved his wife deeply and that he also respected, admired and was even sometimes awed by her.

- (12) Nehru, op. cit., p. 37.
- (13) Ibid., p. 38.
- (14) Ibid.
- (15) Ibid., p. 39.

### الفصل الثاني: حدث بالفعل

- (1) Pandit, Vijaya Lakshmi, *The Scope of Happiness*, p. 57.
- (2) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 1.
- (3) Nehru, Jawaharlal, *Glimpses of World History*, p. 2.
- (4) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, pp. 268-9.
- (5) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 13.
- (6) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 53.
- (7) Nehru, Jawaharlal, *A Bunch of Old Letters*, p. 1.
- (8) Author's interview with B. K. Nehru.
- (9) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 15.
- (10) Pandit, Vijaya Lakshmi, op. cit., p. 173.
- (11) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 53.
- (12) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 51.
- (13) Ibid., p. 77.
- (14) Motilal Nehru to Jawaharlal Nehru, 16 September 1920, Nehru Library.
- (15) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 80. Author's interview with B. K. Nehru.
- (16) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, p. 232.
- (17) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 80.
- (18) Ibid., p. 80.
- (19) Brown, Judith M., *Gandhi*, p. 100.
- (20) Masani, Zareer, *Indira Gandhi*, p. 17.

- (21) Kumar, Ravinder and Panigrahi, D. N. (eds.), *Selected Works of Motilal Nehru*, I, p. 221.
- (22) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 1, p. 282.
- (23) Ibid., p. 349.
- (24) Jawaharlal Nehru to Indira Nehru, 15 November 1922, Nehru Library.
- (25) Nanda, B. R., *The Nehrus*, p. 201.
- (26) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 14.
- (27) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 12.
- (28) Kalhan, Promilla, *Kamala Nehru*, p. 143.
- (29) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 15, p. 68.
- (30) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 14.
- (31) Ibid., p. 10.
- (32) Her husband's family changed her name from Sarup Kumari Nehru to Vijaya Lakshmi Pandit, but family members and friends continued to call her Nan.
- (33) Author's interview with P. N. Haksar.
- (34) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, pp. 2-3.
- (35) Ibid., p. 7.
- (36) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 124.
- (37) Ibid., p. 134.
- (38) Ibid., p. 102.
- (39) Nehru, Jawaharlal, *A Bunch of Old Letters*, p. 42.
- (40) Anand Bhawan Museum, Allahabad.
- (41) Gopal, Sarvepalli, *Jawaharlal Nehru* I, p. 87.

### الفصل الثالث: تتنفس مع حركة كعبها

- (1) Kumar, Ravinder and Panigrahi, D. N. (eds.), *Selected Works of Motilal Nehru*, V, p. 31.

(2) Motilal Nehru to Jawaharlal Nehru, 20 May 1926, Nehru Library.

(3) Jawaharlal Nehru was an inept manager of money throughout his life. As a young man in England he was extravagant and ran up debts. From the twenties onwards he led a simple, frugal existence but still managed to live beyond his means. Motilal Nehru threatened to leave all his money to Kamala and Indira because of his son's inability to keep track of and control his finances. (In the event, Motilal died intestate so that Jawaharlal was his heir.) Well into his tenure as Prime Minister Jawaharlal was selling off his father's things in order to remain afloat. Much of his later financial difficulties, however, were due to the great expense of running Anand Bhawan and paying the wages and pensions of its numerous servants.

(4) Bryder, Linda, *Below the Magic Mountain*, pp. 191-2.

(5) Brecher, Michael, *Nehru: A Political Biography*, p. 105.

(6) Kumar, Ravinder and Panigrahi, D. N. (eds.), op. cit., V, p. 64.

(7) Ibid., p. 109, p. 122.

(8) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom: Nehru's Letters to His Sister*, p. 82.

(9) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 149.

(10) Author's interview with P. N. Haksar.

(11) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 19.

(12) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 19.

(13) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., p. 52.

(14) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, p. 35.

(15) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 1, pp. 384-5.

(16) Ibid.

(17) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., p. 76.

(18) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 35.

(19) Ibid., p. 36.

- (20) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 10.
- (21) Gopal, Sarvepalli, *Jawaharlal Nehru*, II, p. 241.
- (22) Ibid., p. 243.
- (23) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., p. 91, p. 94.
- (24) Thurre, Pascal, *Crans-Montana*, p. 34.
- (25) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 13.
- (26) Ibid.
- (27) Many of the places Indira visited in Paris, London and Heidelberg in 1926 are mentioned by Nehru in *Letters from a Father to His Daughter*.
- (28) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, pp. 8-9.
- (29) Hutheesing, K. N., *We Nehrus*, p. 57.
- (30) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 17.
- (31) Mohan, Anand, *Indira Gandhi*, p. 187.
- (32) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 59.
- (33) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 15.
- (34) Ibid., p. 25.
- (35) Datta, V. N., and Cleghorn, B. E., (eds.), *Nationalist Muslim and Indian Politics: Being the Selected Correspondence of the late Dr Syed Mahmud*, p. 74.
- (36) Ibid., p. 77.
- (37) Ibid., p. 32.
- (38) Hutheesing, K. N., op. cit., p. 74. Sarvepalli Gopal says that Nehru did not meet Krishna Menon until 1936, op. cit., I, p. 202. when Marie Seton first met Krishna Menon in 1932, however, he said to her, 'The only man to lead India into the modern world is Jawaharlal Nehru. Gandhi can't do this. Nehru has a modern scientific mind.' This would seem to indicate that Krishna Menon had met Nehru, as Hutheesing claims, in 1926. Menon came to England in 1924, Marie Seton, *Panditji*, p. 66.
- (39) Datta, V. N., and Cleghorn, B. E. (eds.), op. cit., p. 70.

- (40) Ibid.
- (41) Ibid., p. 73.
- (42) Ibid.
- (43) Ibid., p. 79.
- (44) Ibid.
- (45) Ibid., p. 81.
- (46) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, p. 38.
- (47) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 166.

### الفصل الرابع: الولد إنـدو

- (1) Brecher, Michael, *Nehru: A Political Biography*, p. 122.

(2) British dominions such as Canada, Australia and New Zealand, were self-ruling, autonomous states, but they remained formally allied to the Empire and recognized the British monarch as their sovereign. In the late 1940s, newly independent states such as India, considered 'dominion status' to be a position of subordination. With the dismantling of the British Empire, former dominions became known as 'members of the British Commonwealth', and were not obligated to swear allegiance to the British Crown. Instead, the King or Queen was recognized as the head of the Commonwealth.

(3) In 1997 the Principal of St Mary's, Sister Carola, told me that Indian pupils were not officially admitted to the school until after independence in 1947. Before that, they were unofficially tolerated but were removed during school inspections.

- (4) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 13.
- (5) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 17.
- (6) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 18.
- (7) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, pp. 76–7.

(8) Ibid.

(9) French, Patrick, *Liberty or Death*, p. 50.

(10) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 180.

(11) Nehru, B. K., op. cit., p. 76.

(12) Ali, Tariq, *The Nehrus and the Gandhis*, p. 136.

(13) Jawaharlal Nehru's medical report on Kamala Nehru, Nehru Library.

(14) Quoted in Kalhan, Promilla, *Kamala Nehru: An Intimate Biography*, p. 39.

(15) Author's interview with B. K. Nehru.

(16) Author's interviews with Chandralekha Mehta and Nayantara Sahgal.

(17) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, p. 38.

(18) *Letters from a Father to His Daughter*. was originally published in English by the Allahabad publisher Kitabistan in 1930. It was soon translated into Hindi and Urdu and read by thousands of school children in India. In 1939 Nehru wrote to Indira that 'the little book ... has become quite a gold mine, though I am not going to profit by it. It is becoming a textbook in many provinces ... and vast numbers have been printed.' Nehru discovered that Kitabistan had made 20,000 rupees out of it, of which a mere 2,500 rupees had 'trickled' down to him. But rather than negotiate for a profit, he gave the rights to provincial governments and universities 'on condition that the book was issued at a very low price', Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, p. 448. The book has not been out of print in India since it first appeared in 1930.

(19) Nehru, Jawaharlal, *Letters from a Father to His Daughter*, p. 1.

(20) Ibid., p. 40.

(21) Ibid., p. 50.



(22) Nine years earlier Motilal Nehru had also been elected President of the 1919 Amritsar Congress. The Indian National Congress, founded in 1885, began as a pressure group, petitioning the British government for political and administrative reforms. In the twenties and thirties it spearheaded the movement for independence led by Mahatma Gandhi and the Nehrus. When provincial self-government was introduced in 1935, Congress became the governing political party in most of the states in India. With independence, it emerged as the ruling party of India. The President of Congress is the elected leader of the organizational party consisting of voluntary members. After independence, there was also a parliamentary wing of Congress, consisting of elected Members of Parliament. The parliamentary party elected a leader who then became Prime Minister if Congress was in power or the opposition leader if it was not. It is possible for the same person to be Congress President of the organizational party and leader of the parliamentary party as Nehru was in the early years of his prime ministership.

(23) Nanda, B. R., *Jawaharlal Nehru: Rebel and Statesman*, p. 304.

(24) Some forty-five years later Siddhartha Shankar Ray would become one of Indira Gandhi's most trusted advisers and an architect of the Emergency declaration of 1975. In 1972, when Siddhartha Shankar Ray was Chief Minister of West Bengal and Indira Gandhi was Prime Minister, another Congress session was held in Calcutta. Ray had a banana tree planted outside the bedroom window of the house Indira stayed in to remind her of her bananaeating feat in 1929. She told him that she had stuffed herself with bananas to counter the poor impression she knew she'd made—to prove her strength. Author's interview with Siddhartha Shankar Ray.

(25) Brecher, Michael, *op. cit.*, p. 134.

(26) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 79.

(27) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, pp. 194–5.

- (28) Brecher, Michael, op. cit., p. 138.
- (29) Nanda, B. R., op. cit., p. 324.
- (30) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 4, p. 189.
- (31) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 612.
- (32) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 22.
- (33) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 203.
- (34) Ibid., p. 205.
- (35) Ibid., p. 207.
- (36) Nehru, Jawaharlal, *The Discovery of India*, p. 41.
- (37) Arnold Michaelis, 'An interview with Indira Gandhi', *McCall's Magazine*, April 1966, p. 187.
- (38) Pande, B. N., *Indira Gandhi*, p. v, p. 31.
- (39) Sen, Ela, *Indira Gandhi*, pp. 28-9.
- (40) Nehru Library; translation in Kalhan, Promilla, op. cit., pp. 27-8.
- (41) Nehru, Jawaharlal, *Glimpses of World History*, p. 58.
- (42) Ibid., p. 3.
- (43) Ibid., p. 274.
- (44) Ibid., p. 28.
- (45) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 45.
- (46) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 240.
- (47) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 4, p. 451.
- (48) Nehru, Jawaharlal, *Glimpses of World History*, p. 5.
- (49) Kalhan, Promilla, op. cit., pp. 49-50.
- (50) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 18.
- (51) Ibid., p. 39.
- (52) Kalhan, Promilla, op. cit., p. 69.
- (53) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 246.

(54) Author's interview with Nayantara Sahgal.

(55) Author's interview with P. N. Haksar.

(56) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 247.

### الفصل الخامس: ظهور فيروز في حياتها

(1) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 22. Even Indira Gandhi's severest critics concede her extraordinary physical courage which seems to have had its seed in the humiliation she felt over this early episode.

(2) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 22. Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, p. 21.

(3) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, p. 271.

(4) Hutheesing, K. N. (ed.), *Nehru's Letters to His Sister*, pp. 21-2.

(5) Nehru, Jawaharlal, *The Discovery of India*, pp. 42-4.

(6) Quoted in Aruna Asaf Ali, *Private Face of a Public Person: A Study of Jawaharlal Nehru*, pp. 33-4.

(7) Hutheesing, K. N. (ed.), op. cit., p. 25.

(8) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 4, p. 558.

(9) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 22.

(10) Pupul Jayakar, *Indira Gandhi*, pp. 44-5. Vijaya Lakshmi Pandit's daughters, Nayantara Sahgal and Chandralekha Mehta, maintain that this episode never happened. Their memory is that Indira felt herself ugly and they say that the remark that was most often made of her was not that she was ugly, but that 'she was sickly'. Author's interview with Nayantara Sahgal and Chandralekha Mehta.

(11) Coonverbai Vakil remained close to Indira for the rest of her pupil's life and was one of the few people who stood up to her during the

Emergency of 1975–6. She outlived Indira by eleven years, dying in 1995 at the age of ninety–nine.

(12) Author’s interview with Ira Vakil Chaudhuri.

(13) Gandhi, Shanta, ‘When Indira Was a Student’, Parthasarti, G., and Prasad, H. Y. (eds.), *Indira Gandhi: Statesmen, Scholars, Scientists and Friends Remember*, p. 185.

(14) Nehru, Jawaharlal, *Glimpses of World History*, p. 327.

(15) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 5, p. 409.

(16) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom’s Daughter*, p. 69.

(17) The Ramakrishna Order was established by the followers of the nineteenth–century Bengali, Ramakrishna, who was a devotee of the Hindu goddess, Kali. Foremost among Ramakrishna’s disciples was Vivekenanda, who was widely known in the West, including America and Europe, where he travelled with his spiritual message. The mission was active in relief work in India and set up hospitals, schools, dispensaries and libraries all over the country. It continues to thrive today, with its Calcutta headquarters still at Belur Math, which Kamala Nehru and her daughter so often visited.

(18) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 52.

(19) Ibid., p. 59.

(20) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 5, p. 454.

(21) Nehru, Jawaharlal, *Glimpses of World History*, p. 949. Interestingly, though Nehru did not send any of the manuscript *Glimpses* letters to Indira, he did send a number of them to Gandhi who made editorial suggestions and urged Nehru to publish them. Despite its personal origin, the book was never meant solely for Indira; Nehru always had a much larger audience in mind.

(22) Mahatma Gandhi to Jawaharlal Nehru, 9 October 1933, Nehru Library.

- (23) Nehru, Jawaharlal, *Autobiography*, pp. 478–9.
- (24) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 111.
- (25) Quoted in Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 97.
- (26) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, pp. 21–2.
- (27) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., pp. 113–14.
- (28) Papers of Vijaya Lakshmi Pandit. Also quoted in Pand, B. N., Nehru, p. 182.
- (29) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 116, pp. 119–20.
- (30) Author's interviews with Nayantara Sahgal and Chandralekha Mehta.
- (31) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 118.
- (32) Nehru Papers, Nehru Library.
- (33) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 6, pp. 248–9.
- (34) Dutta, Krishna and Robinson, Andrew, *Rabindranath Tagore*, p. 54, p. 323.
- (35) Gandhi, Indira, 'Reminiscences of Tagore', January 1961, *Women on the March*, published by the Women's All-India Congress Committee, New Delhi.
- (36) Dutta, Krishna, and Robinson, Andrew, op. cit., p. 332.
- (37) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 122.
- (38) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 17.
- (39) Mohan, Anand, *Indira Gandhi*, p. 120. *Convocation Addresses at Visva-Bharati: The Common Pursuit*, p. 86.
- (40) Dutta, Krishna, and Robinson, Andrew, op. cit., p. 134, pp. 325–6.
- (41) Indira's room at Sri Bhawan Ashram is now unoccupied and kept as a memorial to her with various photographs of her, both as a student and later as Chancellor of Santiniketan during the years when she was Prime Minister and gave the annual convocation address at Visva-Bharati.
- (42) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 6, p. 267.

- (43) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 133.
- (44) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 6, pp. 463-4.
- (45) Ibid., p. 267.
- (46) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 561.
- (47) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, pp. 61-2.
- (48) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 124-5.
- (49) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., pp. 120-1.
- (50) Burrell, L. S. T., *Artificial Pneumothorax*.
- (51) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 130.
- (52) Nehru Papers, Nehru Library.
- (53) Falk, Bertil, unpublished biography of Feroze Gandhi.
- (54) Ibid.
- (55) Ibid.
- (56) Ibid. Author's interview with B. K. Nehru.
- (57) Mehta, Vinod, *The Sanjay Story*, p. 6. Bertil Falk's interview with S. M. Jaffer, 1993.
- (58) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 6, pp. 306-7, p. 310.
- (59) Ibid., pp. 312-3.
- (60) Ibid., pp. 320-1.
- (61) Nehru Library, quoted in Jayakar, Pupul, op. cit., p. 69.
- (62) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 63.
- (63) Nehru's 'Note' on Kamala Nehru, Nehru Library. Quoted also in *ibid*, p. III.
- (64) Kalhan, Promilla, *Kamala Nehru*, pp. 112-3.
- (65) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 151.
- (66) Nehru, Jawaharlal, *A Bunch of Old Letters*, p. 105. The manuscript letter is in the Santiniketan Archives.
- (67) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 158, p. 160.
- (68) Ibid., p. 163, p. 166.

(69) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 6, p. 364.

### الفصل السادس: في الغابة السوداء

(1) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, p. 168.

(2) Ibid., p. 169.

(3) Ibid., p. 175.

(4) Ibid., p. 173.

(5) Ibid., p. 169.

(6) Ibid., p. 176.

(7) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 6, p. 377.

(8) Ibid., p. 382.

(9) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 180.

(10) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 28.

(11) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 190.

(12) Ibid., pp. 182-3, p. 193.

(13) Ibid., p. 198.

(14) C. F. Andrews to Jawaharlal Nehru, Nehru Library.

(15) Ibid.

(16) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 215.

(17) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 76.

(18) Seton, Marie, *Panditji*, pp. 78-9.

(19) Agatha Harrison Papers, Friends House Library, London.

(20) Ibid.

(21) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, p. 158.

(22) Letter from Agatha Harrison to Mahatma Gandhi, 13 November 1935, Agatha Harrison Papers, Friends House Library, London.

(23) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., p. 173.

(24) Nehru, Jawaharlal, *The Discovery of India*, p. 43.

(25) Sahgal, Nayantara (ed.), op. cit., p. 192.

(26) Education Committee Minute Book, meeting held 6 November 1935, Somerville College Archives, Oxford.

(27) La Pelouse Archives, Bex, Switzerland.

(28) Brecher, Michael, *Nehru*, p. 210.

(29) Nehru, Jawaharlal, *The Discovery of India*, p. 45.

(30) The only source for the Wengen reunion of Indira and Feroze Gandhi is Pupul Jayakar who apparently was told about it many years later by Indira. But Jayakar gives a very sketchy and inconclusive account of the episode in her biography, *Indira Gandhi*, pp. 79–80.

(31) Mathai, M. O., *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 93.

(32) A. C. N. Nambiar's account of Kamala's opposition to a marriage between Indira and Feroze contradicts most biographical versions of Kamala's feelings. Usually it is held that Kamala very much wanted Indira and Feroze to marry and made her wishes clear to them and Nehru before her death. Nambiar's account is published in M. O. Mathai's unreliable *Reminiscences of the Nehru Age*, but Nambiar himself is a trustworthy witness. He was alive when Mathai's book was published in 1978, lived on until 1986, and he never denied the truth of the episode as it is recounted by Mathai.

(33) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 235–6.

(34) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 46.

(35) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 239.

(36) Ibid., p. 240.

(37) Agatha Harrison Papers, Friends House Library, London.

(38) Nehru, Jawaharlal, op. cit., p. 48.

(39) Ibid.



## الفصل السابع: خبيرة الفراق

- (1) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, pp. 242-3.
- (2) Ibid., p. 246.
- (3) Ibid., pp. 253-4.
- (4) Ibid., p. 256.
- (5) Ibid., p. 261.
- (6) Ibid., p. 283.
- (7) Ibid., p. 271.
- (8) Ibid., p. 283.
- (9) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 88.
- (10) Ibid., p. 86.
- (11) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 293-4.
- (12) Ibid., p. 301.
- (13) Ibid., pp. 268-9.
- (14) Quoted in Parthasarathi, G. and Prasad, H. Y. Sharada (eds.), *Indira Gandhi: Statesmen, Scholars, Scientists and Friends Remember*, p. 308.
- (15) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 31.
- (16) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 285, p. 296, p. 298.
- (17) Ibid., pp. 287-8.
- (18) Ibid., p. 309.
- (19) Ibid., p. 326.
- (20) Seven years later, in 1943, the Latin entrance exam also nearly kept Margaret Roberts (destined to be Margaret Thatcher) out of Somerville College. According to her biographer, Hugo Young, 'She had had to mug up Latin and had failed to reach Somerville's priority list for entrance. Only when someone dropped out was she hoisted off the waiting list and offered' a place at Somerville, Young, Hugo, *One of Us*, p. 14.
- (21) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 132.

(22) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 13, p. 680.

(23) Ibid., p. 684.

(24) Ibid., p. 682.

(25) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 332.

(26) Sahgal, Nayantara, *Prison and Chocolate Cakes*, p. 142.

(27) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 92.

(28) Author's interview with Sarvepalli Gopal.

(29) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 662, p. 664.

(30) Ibid., p. 667.

(31) Ibid., p. 664.

(32) Ibid., p. 678.

(33) Ibid., p. 694.

(34) Pande, B. N., *Indira Gandhi*, p. 71.

(35) Ibid., p. 75.

(36) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 332.

(37) Norman, Dorothy, (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 78.

(38) Author's interview with Mary Thompson.

(39) Ibid.

(40) Interviews with Mary Thompson, Kay Davies and Anne Whiteman. Wayne, Jenifer, *The Purple Dress*, p. 62.

(41) Author's interview with Mary Thompson. Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 336.

(42) Ibid., p. 336, p. 340.

(43) Author's interview with Kay Davies. It has been generally held that Indira Nehru was a poor student at Oxford, but Somerville College and Oxford University records contradict this, as do the recollections of classmates such as Kay Davies and the reported judgements of her tutors.

(44) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 343, p. 348.

(45) Ibid., p. 342.

(46) Author's interview with Mary Thompson.

(47) Adams, Pauline, *Somerville for Women*, p. 225. Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 136.

(48) Author's interview with Mary Thompson.

(49) Lord Chalfont's interview with Indira Gandhi, BBC television, broadcast 26 October 1971.

(50) Falk, Bertil, unpublished biography of Feroze Gandhi. Vasudev, Uma, op. cit., pp. 128-9.

(51) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 353.

(52) Oxford students were required to pass four subjects in the pass moderations examination, one of which had to be Latin or Greek. Pass mods was a university exam and Oxford University records list only pass marks. The *University Gazette*, however, publishes the candidates for upcoming exams and subsequently those candidates who were successful. Indira Nehru is listed among the candidates for the pass moderations examination in Michaelmas term 1937, but she is not listed among those who passed the examination. Correspondence between Nehru and Agatha Harrison also indicates that Indira failed the first time she took the pass moderations examination, Oxford University Archives, Oxford; Agatha Harrison Papers, Friends House Library, London.

(53) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 359.

(54) Wayne, Jenifer, op. cit., p. 70.

(55) Author's interview with Nikhil Chakravartty.

(56) Author's interview with Anne Whiteman.

(57) Gopal, Sarvepalli, *Jawaharlal Nehru*, I, p. 234.

(58) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 389-90.

(59) Ibid., p. 392.

(60) Ibid., p. 395.

(61) Ibid., p. 397.

(62) Interviews with Mary Thompson and Anne Whiteman. The late Nikhil Chakravartty, who was at Balliol College while Indira was at Somerville, maintained that her illness in the spring of 1938 and later was a convenient fiction to avoid being sent down after she failed the pass mods Latin exam in June 1938. Mary Thompson (but not Kay Davies) was also under the impression that Indira 'had to leave' Somerville because she failed the pass mods exam for a third time. But the Oxford University *Gazette* does not list Indira Nehru on either the candidates or pass list for the pass mods exam in Trinity term (June 1938) or later and this indicates that she did not take the examination a third time.

(63) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, p. 254.

(64) Ibid., p. 259.

(65) Ibid., p. 257.

(66) Quoted in Gopal, Sarvepalli, op. cit., I, p. 235.

(67) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, p. 255.

(68) Author's interview with Kay Davies.

(69) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 31.

(70) Ibid., pp. 29–30.

(71) Hangen, Welles, pp. 166–7.

(72) Nehru, Jawaharlal, *A Bunch of Old Letters*, p. 206.

(73) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 705.

(74) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 36, and *Anand Bhawan Memories*, p.

32.

(75) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 399–400.

(76) Gopal, Sarvepalli, op. cit., I, p. 238.

(77) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 401.

(78) Ibid., p. 404.

(79) Ibid., p. 410.

(80) Thapar, Raj, *All These Years*, p. 30.

(81) Seton, Marie, *Panditji*, p. 65.

(82) Ibid. Author's interview with Alice Thorner. Hangen, Welles, op. cit., p. 63. Ram, Janaki, V. K. *Krishna Menon: A Personal Memoir*, pp. 51–4.

(83) One of the most revealing and moving letters in Sarvepalli Gopal's *Selected Works of Jawaharlal Nehru* was written to Menon on 15 May 1939, several weeks after Indira returned to Europe. In this letter, headed 'Personal', Nehru describes his mental turmoil and despair in the midst of what amounts to a nervous breakdown: 'I want to tell you briefly the state of my mind. It is bad. I have lost all pep and feel devitalized and my interest in life itself seems to be fading away. Don't be alarmed. I can still function fairly effectively and it may be that I shall recover some of my vitality. For the moment, however, the outlook is not encouraging. Most of the things that I value and for which I have worked seem to be going to pieces, and it is not surprising that I should disintegrate in the process ... many things contribute to it. Events in India, events elsewhere. What has happened in Spain has affected me greatly as a deep personal sorrow. What has happened, and is happening in India, being near to me, affects me continuously. The kind of human material that I see about me, the all-pervading pettiness and vulgarity, the mutual suspicion and back-biting ... distress me beyond measure. Everywhere the wrong type of person is pushing himself to the front, everywhere disruptive forces are growing ... I wrote to you two and a half months ago that I was very ill mentally. I had received a sudden shock which upset me more than almost anything else had ever done. I was afraid of a breakdown ... the after-effects continue. I am sorry to write to you all this and to distress you. I do so to enable you to realize somewhat how I am functioning at present. Partly also to relieve myself ... It is a phase which will pass perhaps.' I, 12, pp. 712–3.

(84) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 414. Information on the diploma in social and public administration from conversations with Simon Bailey, Archivist, Oxford University Archives.

(85) Ibid., p. 421-2.

(86) Nehru Papers, Nehru Library.

(87) Agatha Harrison Papers.

(88) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 425.

(89) Ibid., p. 426.

(90) Agatha Harrison Papers.

(91) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 450.

### الفصل الثامن: الجبل السحري

(1) In all the accounts that Indira Gandhi gave of her life, including interviews, she never mentioned her long stay in a Swiss sanatorium. In *My Truth*, her fullest autobiographical statement, she merely says that 'I went to Switzerland' and 'then I returned to London via Spain'. Her biographers likewise omit or hastily dismiss her ten months in Leysin and all repeat Indira's official diagnosis of pleurisy. The patient records for Auguste Rollier's clinics no longer exist, but Rollier's daughter, Suzanne Rollier, whom I interviewed, knew Indira Nehru when she was a patient at Les Frenes.

(2) Agatha Harrison Papers.

(3) Gandhi, Sonia (ed.), *Freedom's Daughter*, pp. 457-8.

(4) Desponds, Liliane, *Leysin: Histoire et Reconversion d'une Ville a la Montagne*. Author's interview with Suzanne Chapuis-Rollier.

(5) Hobday, Richard, 'Sunlight Therapy and Solar Architecture', *Medical History*, 1997, p. 455.

(6) Smith, F. B., *The Retreat of Tuberculosis*, p. 97.

(7) Author's interviews with Dr John Moore-Gillon and Dr Richard Hobday.

(8) *Les Cliniques du Dr Rollier a Leysin* (a brochure describing Rollier's sanatoria in Leysin). Les Frenes still exists, though today it is a trendy gym and fitness centre.

(9) Smith, F. B., op. cit., p. 97, p. 101.

(10) Bryder, Lynda, *Below the Magic Mountain*, p. 223.

(11) Author's interview and correspondence with Dr John Moore-Gillon.

(12) Author's interview with Maurice Andr'e.

(13) Author's interviews with Suzanne Chapuis-Rollier and Maurice Andr'e.

(14) Gandhi, Sonia, (ed.), *Two Alone, Two Together*, pp. 3-4.

(15) Ibid., p. 15.

(16) Ibid., p. 38.

(17) Rollier, Auguste, *Heliotherapy*, p. 154.

(18) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 14.

(19) Author's interview with Suzanne Chapuis-Rollier.

(20) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 18-19.

(21) Ibid., p. 18. Three months seems to have been the standard time period doctors gave to TB patients. In A. E. Ellis's novel *The Rack*, about life in a French TB sanatorium in the early 1950s, the narrator reflects, 'They say "three months" here as other doctors say "three days"'. They've been saying "three months" to me ever since I arrived. The last words I'll hear when I leave ... will be: "We'd have cured you if only you could have stayed another three months." There's only one sure thing—I am never well, but I always will be in another three months,' p. 87.

(22) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 21-2.

(23) Author's interview with Maurice Andr'e. Ibid., p. 29.

(24) Ibid., pp. 32–3.

(25) Bell, P. M. H., *The Origins of the Second World War in Europe*, p. 131.

(26) Ibid., pp. 34–5.

(27) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 13, p. 713.

(28) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 41.

(29) Most of Indira Gandhi's personal papers—including her correspondence with her father, husband and son—are closed to researchers. Sonia Gandhi has edited two volumes of the letters written between Nehru and Indira Gandhi, *Freedom's Daughter* (1989) and *Two Alone, Two Together* (1992) and she says that these volumes contain 'most of their correspondence'. The published letters are an invaluable resource, but there are significant omissions. Indira Gandhi showed a number of crucial letters to Sarvepalli Gopal, who edited Nehru's *Selected Works*, which appear in the book but are not in Sonia Gandhi's edition; nor are they in the Nehru Library catalogue. Sonia Gandhi quotes from several letters written by Indira Gandhi to Feroze and Rajiv Gandhi in her memoir of her husband, *Rajiv*. She has no plans at present to publish any further letters or papers of Indira Gandhi. Author's interview with Sonia Gandhi.

(30) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 41–2.

(31) Ibid., p. 29.

(32) Ibid., p. 29, pp. 43–4.

(33) Ibid., pp. 48–9.

(34) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, II, p. 457.

(35) Ibid., p. 469.

(36) Ibid., pp. 470–1.

(37) Ibid., pp. 465–6.

(38) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 58–9.



- (39) Ibid., p. 61.
- (40) Gandhi, Indira, *Anand Bhawan Memories*, p. 22.
- (41) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 66–8.
- (42) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, II, p. 423.
- (43) Ibid., pp. 86–7.
- (44) Ibid., p. 88.
- (45) Author's interview with P. N. Haksar.
- (46) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 146.
- (47) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 25.
- (48) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 94.
- (49) Ibid., p. 94.
- (50) Vasudev, Uma, op. cit., p. 146. Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 23.
- (51) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 42.
- (52) Ibid., p. 44.
- (53) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 27.

## الجزء الثاني: إنديرا غاندي

### الفصل التاسع: لا حياة عادية وسخيفة ومملة

- (1) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 24 and *My Truth*, p. 45.
- (2) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 11, p. 581.
- (3) Ibid., pp. 589–90.
- (4) Gandhi, Sonia, (ed.), *Two Alone, Two Together*, pp. 107–9.
- (5) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 11, p. 604. Indira's 'angry, agitated letter' is not included in Sonia Gandhi's edition of the letters nor is it available at the Nehru Library.

- (6) Ibid., p. 641.
- (7) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 107–9.
- (8) Ibid., pp. 112–3.
- (9) Fallaci, Oriana, *Interview With History*, pp. 107–9.
- (10) Seton, Marie, *Panditji*, p. 103.
- (11) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 11, pp. 643–51.
- (12) Ibid., pp. 643–8.
- (13) Ibid., p. 740.
- (14) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 117.
- (15) Mohandas Gandhi to Jawaharlal Nehru, 5 December 1941, Nehru Library.
- (16) Gandhi, Indira, *What I Am*, p. 25.
- (17) Hutheesing, K. N., *We Nehrus*, p. 153.
- (18) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 117.
- (19) Rau, M. Chalapathi, *Journalism and Politics*, p. 76. Masani, Zareer, *Indira Gandhi*, p. 59.
- (20) Quoted in Masani, Zareer, op. cit., p. 62.
- (21) Michaelis, Arnold, 'An Interview with Indira Gandhi,' p. 189.
- (22) Sahgal, Nayantara, *Prison and Chocolate Cake*, pp. 99–100.
- (23) Hutheesing, K. N., op. cit., pp. 154–5.
- (24) Norvin Hein later became a Professor at Yale Divinity School. His film of Indira and Feroze's wedding runs for about ten minutes and much of the following description is drawn from the highlights of the wedding and wedding dinner that he captured with his movie camera.
- (25) Soon after the marriage and for some years afterwards, it was rumoured that Indira and Feroze had secretly gone through a civil marriage or got married in a Princely State where marriage was permitted between those of different faiths. In the early seventies Uma Vasudev asked Indira

Gandhi about these rumours. Indira categorically denied them, telling Vasudev, 'nothing of the kind [happened]. It just didn't bother me, whether it was legal or not.' Vasudev, op. cit., p. 166. Author's interview with Uma Vasudev.

(26) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 111. Gandhi, Sonia, *Rajiv*, p. 20.

(27) Sahgal, Nayantara, op. cit., pp. 101–3.

(28) Falk, Bertil, unpublished biography of Feroze Gandhi.

(29) Correspondence (in Hindi) between Rajpati Kaul and Jawaharlal Nehru, Nehru Library.

(30) Falk, Bertil, op. cit.

(31) French, Patrick, *Liberty or Death*, p. 140.

(32) Ibid., p. 146.

(33) Gandhi, Sonia (ed.), *Two Alone, Two Together*, pp. 138–9.

(34) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, pp. 4–5. Hutheesing, K. N., *Dear to Behold*, p. 98.

(35) French, Patrick, op. cit., p. 162.

(36) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 28.

(37) Vasudev, Uma, op. cit., p. 187. Falk, Bertil, op. cit.

(38) Pandit, Vijaya Lakshmi, *The Scope of Happiness*, p. 165.

(39) I visited Naini Jail on 2 April 1997 and was given a tour by the Senior Superintendent, R. N. Upadhyay. Nehru's cell complex at Naini is carefully preserved and contains among other artefacts, his spinning wheel. His weight at various dates is recorded on a painted poster. At the women's barrack there is a memorial pillar to Vijaya Lakshmi Pandit's prison term, but no trace of Indira Gandhi's eight-month sojourn in jail.

(40) Michaelis, Arnold, op. cit., p. 188.

(41) Author's interview with Chandralekha Mehta.

(42) Ibid.

- (43) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 34.
- (44) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 160.
- (45) Ibid., p. 170.
- (46) Ibid., p. 192.
- (47) Ibid., p. 186.
- (48) Ibid., p. 188.
- (49) Friedan, Betty, 'How Mrs Gandhi Shattered the Feminine Mystique,' p. 165.
- (50) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 212.
- (51) Ibid.
- (52) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, p. 355.
- (53) Ibid., p. 357.
- (54) Ibid., p. 300.
- (55) Mathai, M. O., *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 267.
- (56) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 287.
- (57) Mathai, M. O., *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 268.
- (58) Pandit, Vijaya Lakshmi, op. cit., p. 177.
- (59) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 345-6.
- (60) Fallaci, Oriana, op. cit., pp. 174-5.
- (61) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 12, pp. 360-1.
- (62) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 368.
- (63) Khilnani, Sunil, *The Idea of India*, p. 168.
- (64) Nehru, Jawaharlal, *Discovery of India*, p. 159.
- (65) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 373, p. 381.

## الفصل العاشر: تدهور الأوضاع

(1) Interestingly, Nehru, who was no believer in astrology, wrote to his sister Krishna that 'a proper horoscope made by a competent person' should be drawn up for the baby, *Nehru's Letters to his Sister*, p. 162.

(2) Gopal, Sarvepalli (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru* I, 13, p. 501.

(3) Ibid., p. 505.

(4) Ibid.

(5) Gandhi, Sonia (ed.), *Two Alone, Two Together*, p. 25.

(6) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 518; pp. 588–9.

(7) Gandhi, Tehmina, 'How We Welcomed Indira into the Family,' p. 13.

(8) Author's interview with Nayantara Sahgal.

(9) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., I, 13, p. 602.

(10) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 469.

(11) Ibid., p. 487.

(12) Ibid., p. 516.

(13) In 1975, after they had signed the Kashmir Accord, Indira Gandhi visited Srinagar and Sheikh Abdullah arranged another (peaceful) river procession for her.

(14) Sahgal, Nayantara (ed.), *Before Freedom*, pp. 507–8.

(15) Ibid., p. 132.

(16) Quoted in French, Patrick, *Liberty or Death*, p. 234.

(17) Ibid., p. 239.

(18) M. O. Mathai papers, Nehru Library.

(19) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., II, 3, p. 331.

(20) Rau, M. Chalapathi, *Journalism and Politics*, p. 13.

(21) Mathai, M. O., *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 98.

(22) Rau, op. cit., p. 16.

(23) Author's interview with Nayantara Sahgal.

(24) Moraes, Dom, *Mrs Gandhi*, p. 83.

(25) Gupte, Pranay, *Mother India*, p. 219.

(26) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., II, 3, p. 335.

(27) Sahgal, Nayantara, and Rai, E. N. Mangat, *Relationship: Extracts from a Correspondence*, p. 163. Feroze's affair with the daughter of Lucknow politician Ali Zareer is widely known but documented in print only by M. O. Mathai in *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 95. Mathai claims Indira Gandhi confided in him about the relationship and Nehru's role in ending it. My account draws on Mathai and the research of Bertil Falk who is working on a biography of Feroze Gandhi.

(28) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 208.

(29) Hutheesing, K. N., *We Nehrus*, p. 208.

(30) Mathai, M. O., *op. cit.*, p. 1.

(31) Gopal, Sarvepalli (ed.), II, p. 311-2.

(32) *Ibid.*, p. 310.

(33) Mathai, M. O., *op. cit.*, p. 8.

(34) M. O. Mathai admits as much in his autobiography, but he explains that he kept 'a spare copy of everything Nehru wrote and also copies of important telegrams and documents' to show to Indira to help 'inform her mind ... to talk somewhat sensibly to foreign dignitaries who sat on either side of her at social functions. She was extremely good at keeping secrets'. B. K. Nehru and Nehru's biographer, S. Gopal, however, told me that Mathai made copies secretly, without Nehru's or Indira's knowledge. Gopal and others believe Mathai passed some of these copies, as well as other information, on to the CIA. According to B. K. Nehru, Mathai used to boast in his last years of having copies of all Nehru's papers, Mathai, *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 249. Author's interviews with S. Gopal and B. K. Nehru.

(35) Author's interview with S. Gopal. Gill, S. S., *The Pathology of Corruption*, pp. 59-60.

(36) Author's interview with B. K. Nehru.

(37) Morgan, Janet, *Edwina Mountbatten: A Life of Her Own*, p. 382.

(38) Cannadine, David, *The Pleasures of the Past*, p. 58.

(39) Ibid., p. 386.

(40) Ziegler, Philip, *Mountbatten: The Official Biography*, p. 363.

(41) Morgan, Janet, op. cit., p. 403.

(42) Ibid., p. 408.

(43) Most observers agree that Edwina Mountbatten and Nehru fell in love, but whether or not they had a sexual relationship is a matter of dispute. Edwina's daughter, Pamela Hicks—one of the few people who has read the extensive correspondence between her mother and Nehru—told me that the affair was unconsummated but that her mother would have wished it otherwise. (Author's interview with Pamela Hicks.) Edwina Mountbatten's biographer, Janet Morgan, who has also read the correspondence, holds that the relationship was not sexual. Mountbatten's most authoritative biographer, Philip Ziegler is more equivocal when he states, 'If there was any physical element it can only have been of minor importance to either party.' (Ziegler, Philip, op. cit., p. 473.) Nehru's most recent biographer, Stanley Wolpert, not only holds that the couple were lovers, but also claims, (apparently without any evidence since he has not read their letters) that Nehru seriously contemplated leaving India and his position as Prime Minister in order to live with Edwina in Britain. In a similar vein, Andrew Roberts and Akbar Ahmed argue that Nehru exploited his relationship with Edwina in order to influence Mountbatten, (Roberts, Andrew, *Eminent Churchillians*; Ahmed, Akbar S., *Jinnah, Pakistan and Islamic Identity*). In his memoir, M. O. Mathai luridly describes an affair between Edwina Mountbatten and Nehru, along with a string of other liaisons he claims Nehru had over the years. But Mathai is a suspect witness. The letters exchanged between Edwina and Nehru undoubtedly make clear the nature of their relationship. Edwina Mountbatten's letters are held at Broadlands. The Mountbatten family returned Nehru's letters to Delhi and they

are in the possession of Sonia Gandhi. Copies of Nehru's letters are also at Broadlands. Both sides of the correspondence are currently closed to researchers, though Janet Morgan and Philip Ziegler were given access to them. Pamela Hicks and her sister, the Countess Mountbatten, would like the correspondence to be published, but Sonia Gandhi is unwilling to sanction publication.

(44) Author's interview with Pamela Hicks.

(45) Gopal, Sarvepalli (ed.), I, p. 349.

(46) Collins, Larry and Dominique LaPierre, *Freedom at Midnight*, p. 309.

(47) Ibid., p. 321.

(48) Lord Chalfont's interview with Indira Gandhi, BBC television. M. O. Mathai claims that in Nehru's draft of the speech the phrase was 'date with destiny' which was changed to 'tryst' at Mathai's suggestion when he pointed out to Nehru that in American English 'date' means an 'assignation with girls and women'. In his autobiography Mathai says that he has given the draft speech to the Nehru Museum along with 'innumerable documents and photographs'. But the draft speech is not listed in the M. O. Mathai Papers at the Nehru Library. Mathai, *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 11.

(49) Author's interview with Alan Campbell-Johnson.

(50) French, Patrick, op. cit., p. 318.

(51) Khilnani, Sunil, *The Idea of India*, p. 201.

(52) Ibid.

(53) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 59.

(54) Author's interview with Subhadra Joshi. Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, pp. 38–42.

(55) Seton, Marie, *Panditji*, p. 137.



(56) Much ink has been spilt on the timing of the accession and the legality of the Indian intervention, but as Victoria Schofield notes, whether or not accession preceded intervention, 'the maharaja had agreed to accession in principle ... he never [afterwards] suggested that he had not signed an Instrument of Accession before Indian troops landed nor that he had never signed one', Schofield, p. 150.

(57) Quoted in Lamb, Alistair, *Kashmir: A Disputed Legacy*, p. 138.

(58) Ibid., p. 182.

(59) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 548.

(60) Gandhi, Indira, op. cit., pp. 63–4. Sahgal, Nayantara, *Prison and Chocolate Cake*, p. 225. Hutheesing, K. N., op. cit., pp. 237–8.

(61) Hutheesing, K. N., Ibid., pp. 241–2.

(62) *Hindustan Times*, 31 January 1948.

(63) Nehru, Jawaharlal, *Speeches*, I, pp. 42–4.

(64) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 551–2.

(65) Ibid., p. 556.

(66) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., II, 7, p. 684.

(67) Gandhi, Indira, *My Truth*, pp. 70–1.

(68) Masani, Zareer, *Indira Gandhi*, p. 83.

(69) Mohan, Anand, *Indira Gandhi*, p. 190.

(70) Gandhi, Indira, op. cit., p. 72. Mohan, Anand, *Indira Gandhi*, p. 188.

(71) Jayakar, Pupul, op. cit., pp. 142–3.

## الفصل الحادي عشر: تحول

(1) Nehru also vetoed this daily allowance.

(2) Gopal, Sarvepalli, *Jawaharlal Nehru*, II, p. 60.

(3) Ibid., p. 61.

(4) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 8.

(5) Ibid.

(6) Ibid., pp. 6–7.

(7) Ibid., p. 10.

(8) Ibid., p. 35.

(9) Author's interview with Dorothy Norman.

(10) Their friendship ruptured after Dorothy Norman made a public statement in 1975 condemning the Emergency, but she and Indira were reconciled after Sanjay Gandhi was killed in 1980.

(11) Gandhi, Sonia (ed.), *Two Alone, Two Together*, pp. 566–70.

(12) Author's interview with Dorothy Norman.

(13) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., II, 17, p. 36.

(14) Ibid., p. 635.

(15) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, pp. 144–5.

(16) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., pp. 592–3.

(17) Ibid.

(18) Ibid., p. 594.

(19) Ibid., pp. 592–4.

(20) Gopal, Sarvepalli (ed.), op. cit., II, p. 133, p. 302.

(21) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 596.

(22) Ibid., pp. 596–7.

(23) Ibid., p. 597.

(24) Ibid., p. 598.

(25) In 1954, when the Gandhi boys were enrolled at the Doon School, the headmaster was J. R. Martyn. Martyn had taught at Nehru's alma mater, Harrow, and then went to India with Arthur Foot of Eton to found the Doon School in Dehra Dun in the late thirties. Rajiv thrived at the Doon School, though he was only an average student; nor did he excel at sports. Sanjay had serious problems there from the beginning, though he was actually

academically better than his older brother. But Sanjay got into numerous scrapes, played truant and repeatedly broke school rules. He fought with and bullied other students, and was apparently even cruel to the school pets. Indira withdrew Sanjay from the Doon School in 1960—possibly to avert his being expelled, and he then attended St Columbus', a day school in Delhi. The Doon School remains today the premier public school in India.

(26) Norman, Dorothy, op. cit., p. 26.

(27) The Congress Working Committee, which stands at the apex of the Congress Party organizational structure, is composed of the Congress Party President, the party leader in the Lok Sabha and nineteen other members, ten of whom are elected by the All-India Congress Committee and nine who are appointed by the party President.

(28) Seton, Marie, *Panditji*, p. 198.

(29) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., p. 27.

(30) Ibid., p. 29.

(31) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 263.

(32) Ibid., p. 262.

(33) Ibid., p. 264.

(34) Gandhi, Sonia, *Rajiv*, p. 42.

(35) Gandhi, Sonia, (ed.), *Two Alone, Two Together*, p. 614.

(36) Indira Gandhi to Padmaja Naidu, January 1947, Nehru Library.

(37) Ryan, Frank, *Tuberculosis: The Greatest Story Never Told*, pp. 383–4.

(38) Author's interviews with Dr John Moore–Gillon, Dr Vatsala Samant and Dr. K. P. Mathur. I am grateful to Dr Moore–Gillon, of the Department of Respiratory Medicine, St Bartholomew's Hospital, London, for discussing Indira Gandhi's tuberculosis with me. Dr Vatsala Samant treated Indira Gandhi in Allahabad and Dr K. P. Mathur was her personal physician after Indira became prime minister.

- (39) Indira Gandhi to Padmaja Naidu, Nehru Library.
- (40) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 616.
- (41) Author's interview with Nikhil Chakravartty.
- (42) Sarvepalli, Gopal, (ed.), op. cit., II, pp. 311-2.
- (43) Mathai, M. O., *My Days with Nehru*, pp. xiii-xiv.
- (44) Mathai, M. O., *Reminiscences of the Nehru Age*, p. 10.
- (45) Author's interviews with B. K. Nehru, P. N. Haksar, Khushwant Singh, Trevor Fishlock and Pupul Jayakar.
- (46) Author's interview with B. K. Nehru. Nehru's biographer, S. Gopal, also believes there was an affair of some sort between Indira and Mathai. Author's interview with S. Gopal.
- (47) Author's interview with Nikhil Chakravartty.
- (48) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 70. Author's interview with Inder Malhotra.
- (49) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 246.
- (50) Gill, S. S., *The Pathology of Corruption*, pp. 50-1.
- (51) Mohan, Anand, *Indira Gandhi*, pp. 203-5.
- (52) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., p. 47.
- (53) Ibid., p. 48.
- (54) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., p. 619.
- (55) Ibid., p. 623.
- (56) Sarvepalli, Gopal, (ed.), op. cit., III, pp. 81-2.
- (57) Author's interview with Nikhil Chakravartty.
- (58) Jayakar, Pupul, op. cit., pp. 154-5.
- (59) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 115. Lord Chalfont's interview with Indira Gandhi.
- (60) Michaelis, Arnold, 'An Interview with Indira Gandhi,' p. 190.
- (61) Hutheesing, K. N., *Dear to Behold*, p. 149.
- (62) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 156.

- (63) Dorothy Norman papers, Beinecke Library, Yale University.
- (64) Vasudev, Uma, op. cit., p. 276.
- (65) Bertil Falk unpublished biography of Feroze Gandhi.
- (66) Sarvepalli, Gopal, op. cit., III, p. 59.
- (67) Ibid.
- (68) Jeffrey, Robin, 'Jawaharlal Nehru and the Smoking Gun: Who Pulled the Trigger in Kerala's Communist Government in 1959?', p. 81.
- (69) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., p. 63.
- (70) Gandhi, Sonia, (ed.), op. cit., pp. 627-8.
- (71) Norman, Dorothy, op. cit., p. 59.
- (72) Ibid., p. 61.
- (73) Vasudev, Uma, op. cit., p. 293.
- (74) Author's interview with Usha Bhagat.
- (75) Author's interview with Nayantara Sahgal.
- (76) Gandhi, Sonia, *Rajiv*, pp. 50-1.
- (77) Dorothy Norman Papers.
- (78) Moraes, Dom, op. cit., p. 146.
- (79) Lord Chalfont's interview with Indira.

## الفصل الثاني عشر: نحو ثلاثية

- (1) Dorothy Norman Papers.
- (2) Author's interview with Usha Bhagat.
- (3) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 79.
- (4) Gandhi, Sonia, (ed.), *Two Alone and Two Together*, p. 648.
- (5) Ibid., p. 647.
- (6) Norman, Dorothy, op. cit., pp. 85-6.
- (7) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 364.
- (8) Galbraith, John Kenneth, *Ambassador's Journal*, p. 226.

(9) Ibid., p. 227.

(10) Sarvepalli, Gopal (ed.), *Selected Works of Jawaharlal Nehru*, III, p. 188.

(11) Author's interviews with B. K. Nehru and John Kenneth Galbraith.

(12) Gandhi, Sonia (ed.), op. cit., p. 672.

(13) Norman, Dorothy, op. cit., p. 88.

(14) Ibid., p. 89.

(15) According to Indira's personal physician, Dr K. P. Mathur, she went through an 'early' menopause. Author's interview with Dr K. P. Mathur.

(16) Dorothy Norman Papers.

(17) Ibid.

(18) Norman, Dorothy, op. cit., p. 95.

(19) Seton, Marie, *Panditji*, p. 480.

(20) Norman, Dorothy, op. cit., pp. 96-7.

(21) Dorothy Norman Papers.

(22) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 81. With remarkable prescience, Welles Hangen ended his book with the observation that 'the vital question in India is not "After Nehru, Who?" but "After Nehru's successor, who?" ... [When Nehru dies] ... there will be strong pressure for Congress unity and maintenance of an effective central government ... powerful forces in Congress and the country will be working to close the leadership gap as quickly as possible. To avoid a prolonged factional struggle, Shastri might be given the nod ... The situation will be entirely different when Shastri or whoever succeeds Nehru leaves the scene (probably not long after Nehru's passing) and a new prime minister must be chosen ... Congress is almost certainly to have split openly and officially by that time. At best it will be a two-way division on Left-Right factional lines ... Indira Gandhi cannot be ignored ... she is a strong possibility. (*After Nehru Who?*, pp. 276-7.) Hangen lived to see his forecast come true in 1966. But four years later

he was killed by Viet Cong and Khmer Rouge guerrillas in Cambodia while covering the Vietnam War.

(23) Desai, Morarji, *The Story of My Life*, II, p. 204.

(24) Quoted in Vasudev, Uma, *Indira Gandhi*, p. 302.

(25) Nayar, Kuldip, *India: The Critical Years*, p. 20.

(26) Seton, Marie, op. cit., p. 373.

(27) Ibid., p. 374.

(28) Norman, Dorothy, op. cit., p. 98.

(29) Seton, Marie, op. cit., p. 404. Indira later told Uma Vasudev: 'I began to wear white after he [Feroze] died. Then gradually I felt like wearing grays and browns and blacks. I was just beginning to want to wear colours again when my father died,' Vasudev, op. cit., p. 310.

(30) Malhotra, Inder, op. cit., p. 78.

(31) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., p. 100.

(32) Thapar, Raj, *All These Years*, p. 223.

(33) Seton, Marie, op. cit., p. 426.

(34) Quoted in Vasudev, Uma, op. cit., p. 305.

(35) Abdullah, Sheikh, *Flames of the Chinar*, pp. 152-3.

(36) Norman, Dorothy, op. cit., p. 103.

(37) Quoted in Seton, Marie, op. cit., p. 451.

(38) Ibid., p. 460.

(39) Malhotra, Inder, op. cit., p. 78.

(40) Author's interviews with P. N. Haksar, Nayantara Sahgal and Pupul Jayakar.

(41) Author's interview with Mani Shankar Aiyer.

(42) Srivastava, C. P., *Lal Bahadur Shastri*, p. 85.

(43) Brecher, Michael, *Succession in India*, pp. 65-6.

(44) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 101.

(45) Malhotra, Inder, op. cit., p. 83.

- (46) Vasudev, Uma, op. cit., p. 324.
- (47) Malhotra, Inder, op. cit., p. 84.
- (48) Malhotra, Inder, op. cit., pp. 85–6.
- (49) Thapar, Raj, op. cit., p. 248.
- (50) Nayar, Kuldip, *Between the Lines*, p. 14.
- (51) Sahgal, Nayantara, *Indira Gandhi: Her Road to Power*, p. 5.
- (52) Thapar, Raj, op. cit., p. 252.

### الجزء الثالث: رئيسة الوزراء إنديرا غاندي

#### الفصل الثالث عشر: أنا القضية

- (1) It was not until 1996 that India had its first non-Hindi, non-English speaking Prime Minister: H. D. Deve Gowda.
- (2) Kaviraj, Sudipta, 'Indira Gandhi and Indian Politics,' p. 1697.
- (3) Rao, P. V. Narasimha, *The Insider*, p. 493.
- (4) Ibid., p. 496.
- (5) Mishra, D. P., *The Post-Nehru Era: Political Memoirs*, p. 22.
- (6) Author's interview with S. Gopal. Manor, James, *Nehru to the Nineties*, p. 128. Gopal, S., *Radhakrishnan*, pp. 344–6.
- (7) Brecher, Michael, *Succession in India*, p. 236.
- (8) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 115.
- (9) Brecher, Michael, op. cit., pp. 236–7.
- (10) Masani, Zareer, *Indira Gandhi* p. 140.
- (11) Vasudev, Uma, *Indira Gandhi: Revolution in Restraint*, pp. 348–9.
- (12) Ibid., p. 346.
- (13) *Time* magazine, 28 January 1966.
- (14) Desai, Morarji, *The Story of My Life*, II, p. 229.
- (15) Author's interview with John Grigg.



- (16) Quoted in Ali, Tariq, *The Nehrus and the Gandhis*, p. 154.
- (17) Mishra, D. P., op. cit., pp. 34-5.
- (18) Nayar, Kuldip, *India: The Critical Years*, p. 30.
- (19) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 187.
- (20) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 95.
- (21) Frankel, Francine R., *India's Political Economy*, pp. 296-7.
- (22) Author's interview with B. K. Nehru.
- (23) Malhotra, Inder, op. cit., p. 95.
- (24) Author's interview with B. K. Nehru.
- (25) Gupte, Pranay, *Mother India*, pp. 293-4.
- (26) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, pp. 459-60.
- (27) Gandhi, Indira, *Selected Speeches and Writings of Indira Gandhi*, I, p. 93.
- (28) Mehta, Ved, *Portrait of India*, p. 498.
- (29) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, pp. 67-8.
- (30) Jalal, Ayesha, *Democracy and Authoritarianism in South Asia*, p. 66.
- (31) *Times of India*, 26 December 1966.
- (32) Ibid., 20 January 1967.
- (33) Masani, Zareer, op. cit., p. 171. Author's interview with Inder Kapur.
- (34) Norman, Dorothy, *Letters to an American Friend*, p. 117.
- (35) Quoted in Brecher, Michael, 'Succession in India: 1967,' p. 426.
- (36) Ibid., p. 432.
- (37) Desai, Morarji, op. cit., 2, p. 237.
- (38) Brecher, Michael, op. cit., p. 434.
- (39) Nayar, Kuldip, *Between the Lines*, p. 28.
- (40) Sahgal, Nayantara, *Indira Gandhi: Her Road to Power*, p. 12.
- (41) Quoted in Mishra, D. P., op. cit., p. 80.

(42) Quoted in Malhotra, Inder, op. cit., p. 107.

(43) The Green Revolution in India was far from an unalloyed blessing. Francine Frankel's *India's Green Revolution: Economic Gains and Political Costs* and Vandana Shiva's *The Violence of the Green Revolution* discuss the social, economic and political consequences of the technology of the Green Revolution.

(44) Fallaci, Oriana, *Interview with History*, p. 176.

(45) Gandhi, Sonia, *Rajiv*, p. 1.

(46) Ibid., p. 2.

(47) Malhotra, Inder, op. cit., p. 117.

(48) The Indian President is indirectly elected by members of Parliament and state legislators. He is the constitutional head of the country and possesses no executive power. Nevertheless, governmental decisions are issued in the President's name; the President is commander-in-chief; he 'appoints' the Prime Minister, ministers, Supreme Court and High Court justices and state governors.

(49) Hasan, Zoya, 'The Prime Minister and the Left,' in Manor, James, *Nehru to the Nineties*, p. 216.

(50) Gandhi, Indira, op. cit., pp. 71-2.

(51) Author's interview with P. N. Haksar.

(52) Author's interviews with P. N. Haksar and P. N. Dhar.

(53) Author's interview with P. N. Haksar.

(54) Panandiker, V. A. and Mehra, Ajay K. (eds.), *The Indian Cabinet*, p. 227.

(55) Ibid., p. 230.

(56) Nayar, Kuldip, *India: The Critical Years*, p. 33.

(57) Gandhi, Indira, *Selected Speeches*, II, p. 133.

(58) Malhotra, Inder, op. cit., p. 119.

(59) Gill, S. S., *The Dynasty*, p. 245.

- (60) Rao, P. V. Narasimha, op. cit., p. 599.
- (61) Malhotra, Inder, op. cit., p. 122.
- (62) Nayar, Kuldip, op. cit., pp. 2-3.
- (63) Rao, P. V. Narasimha, op. cit., p. 610.
- (64) Sahgal, Nayantara, *Indira Gandhi: Her Road to Power*, pp. 52-3.
- (65) Masani, Zareer, op. cit., p. 211.
- (66) Mehta, Ved, *Portrait of India*, p. 501.
- (67) Masani, Zareer, op. cit., p. 211.
- (68) Kaviraj, Sudipta, 'Indira Gandhi and Indian Politics,' p. 1698.
- (69) Sahgal, Nayantara, op. cit., p. 66.
- (70) Kaviraj, among others, use this phrase.
- (71) Mehta, Vinod, *The Sanjay Story*, p. 56.
- (72) Ibid., p. 41.
- (73) Quoted in Merchant, Minhaz, *Rajiv Gandhi: The End of a Dream*, p. 46.
- (74) Norman, Dorothy, op. cit., p. 128.
- (75) Gandhi, Indira, op. cit., 2, II, p. 76.
- (76) Malhotra, Inder, op. cit., p. 128.

#### الفصل الرابع عشر: العالم باللون الأحمر

- (1) Rao, P. V. Narasimha, *The Insider*, pp. 621-2. Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 128.
- (2) Thapar, Raj, *All These Years*, p. 322.
- (3) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 148.
- (4) Gill, S. S., *The Dynasty*, p. 252. Masani, Zareer, *Indira Gandhi*, pp. 230-1.
- (5) Thapar, Raj, op. cit., p. 325, p. 342.
- (6) Frankel, Francine R., *India's Political Economy*, p. 460.

- (7) Quoted in Abbas, K. A., *That Woman*, p. 90.
- (8) Gandhi, Indira, *Speeches in Parliament*, p. 540.
- (9) Frankel, Francine R., op. cit., pp. 466-7.
- (10) Gill, S. S., op. cit., p. 263.
- (11) Frankel, Francine R., op. cit., p. 468.
- (12) Bhutto, Benazir, *Daughter of the East*, p. 53.
- (13) Abbas, K. A., op. cit., p. 101.
- (14) Dhar, P. N., *Indira Gandhi, The Emergency and Indian Democracy*, p. 156.
- (15) *The Hindustan Times*, 11 and 12 November, 1986.
- (16) Author's interview with P. N. Haksar.
- (17) Abbas, K. A., op. cit., p. 118.
- (18) Sarkar, Bidyut (ed.), *P. N. Haksar: Our Times and the Man*, p. 181.
- (19) Kissinger, Henry, *White House Years*, p. 848.
- (20) Ibid., pp. 878-9. Author's interview with P. N. Haksar.
- (21) Kissinger, Henry, op. cit., pp. 880-1, p. 848.
- (22) Author's interview with T. N. Kaul. Kaul, T. N., *Diplomacy in Peace and War*, pp. 182-3.
- (23) Kissinger, Henry, op. cit., p. 882.
- (24) Author's interview with P. N. Haksar.
- (25) Ibid.
- (26) Masani, Zareer, *Indira Gandhi*, p. 241.
- (27) Ibid., p. 242.
- (28) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 135.
- (29) Mistry, Rohinton, *Such a Long Journey*, p. 298.
- (30) Masani, Zareer, op. cit., p. 240.
- (31) Sisson, Richard and Rose, Leo E., op. cit., pp. 213-14.
- (32) Author's interview with P. N. Haksar.

(33) Sisson, Richard and Rose, Leo E., *War and Succession: Pakistan, India, and the Creation of Pakistan*, pp. 213–14.

(34) Gandhi, Indira, *Speeches in Parliament*, pp. 808–9.

(35) Gandhi, Indira, *Selected Speeches*, vol II, pp. 611–13.

(36) Author's interview with P. N. Haksar.

(37) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 245.

(38) Gandhi, Indira, *Speeches in Parliament*, pp. 812–13.

(39) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 140.

(40) Ibid.

(41) Masani, Zareer, op. cit., p. 248. In *White House Years* (p. 913), Henry Kissinger says there was 'no doubt' in his mind that Indira was forced into calling a cease-fire by 'Soviet pressure, which in turn grew out of American insistence, including the fleet movement'. P. N. Haksar, however, vehemently denies this was reason for agreeing to a ceasefire, (author's interview P. N. Haksar).

(42) *Economist*, quoted in Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 141.

(43) Abbas, K. A., op. cit., pp. 161–2.

(44) Dhar, P. N., op. cit., p. 202.

(45) Fallaci, Oriana, *Interview with History*, p. 188, p. 190, p. 199.

(46) Author's interview with P. N. Haksar.

(47) Dhar, P. N., op. cit., p. 192.

(48) Author's interview with T. N. Kaul.

(49) Dhar, P. N., op. cit., p. 192.

(50) Author's interview with P. N. Haksar. Dhar, P. N., op. cit., pp. 193–4.

(51) Lamb, Alistair, *Kashmir: A Disputed Legacy*, p. 211, but author's emphasis.

(52) Author's interview with P. N. Haksar.

- (53) Ibid. Benazir Bhutto gives a different account of this episode in her autobiography, *Daughter of the East*.
- (54) Author's interview with P. N. Haksar.
- (55) Dhar, P. N., op. cit., p. 210.
- (56) Nayar, Kuldip, *India After Nehru*, p. 208.

### الفصل الخامس عشر: توقف الصعود

- (1) Vasudev, Uma, *Two Faces of Indira Gandhi*, pp. 106–7. Author's interview with Uma Vasudev. Birla, K. K., *Indira Gandhi: Reminiscences*, p. 39.
- (2) Nayar, Kuldip, *The Judgement*, p. 197. Thapar, Raj, *All These Years*, pp. 397–8. Abbas, K. A., *Indira Gandhi: The Last Post*, p. 15.
- (3) Author's interview with P. N. Haksar.
- (4) Khilnani, Sunil, *The Idea of India*, p. 89.
- (5) Nayar, Kuldip, *Supersession of Judges*, p. 35.
- (6) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 145.
- (7) Ibid.
- (8) Vasudev, Uma, op. cit., p. 13.
- (9) Thakur, Janardan, *All the Prime Minister's Men*, p. 101.
- (10) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., p. 138.
- (11) George Fernandes had originally planned to be a Roman Catholic priest, but after a short spell in a seminary he entered radical politics and the trade union movement. His later career was erratic. In 1977 he joined forces with Morarji Desai's Janata Party. After Desai made him Industry Minister, Fernandes ejected the multi-nationals, CocaCola and IBM, from India. Twenty years later, in 1998, Fernandes—a long-time campaigner for nuclear disarmament—warmly defended India's nuclear testing initiative while serving as Minister of Defence in the BJP government headed by A.

B. Vajpayee. In the spring of 1999 he was instrumental in preventing Sonia Gandhi from forming a Congress coalition government. During the 1999 conflict with Pakistan in Kashmir he repeatedly visited the troops on the frontline in order to boost morale.

(12) Vasudev, Uma, op. cit., p. 71.

(13) Gandhi, Indira, *Speeches in Parliament*, p. 511.

(14) Dorothy Norman Papers.

(15) Gill, S. S., *The Dynasty*, p. 246.

(16) Datta-Ray, Sunanda K., *Smash and Grab: The Annexation of Sikkim*, p. 73.

(17) Dhar, P. N., *Indira Gandhi, The Emergency and Indian Democracy*, p. 273.

(18) Ibid., p. 249.

(19) Ibid., p. 269.

(20) Ibid., p. 289.

(21) Ibid., p. 292.

(22) Ibid., pp. 298-9.

(23) Gandhi, Indira, *Selected Speeches III*, p. 129.

(24) Abdullah, Sheikh, *Flames of the Chinar*, p. 165.

(25) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 163.

(26) Carras, Mary, *Indira Gandhi in the Crucible of Leadership*, p. 184.

(27) *New Republic*, 25 June 1975.

(28) Thapar, Raj, op. cit., p. 400.

## الفصل السادس عشر: خطوة طارئة جريئة

(1) *Shah Commission Report*, I, pp. 17-18.

(2) Oriani Fallaci interview with Morarji Desai, *The New Republic*, July 1975.

(3) Author's interview with Siddhartha Shankar Ray.

(4) Ibid.

(5) *Shah Commission Report*, I, p. 25.

(6) Kapur, Jagga, *What Price Perjury: Facts of the Shah Commission*, pp. 51-2.

(7) This account of the events during the twenty-four hours leading up to the declaration of the Emergency is based on an interview with Siddhartha Shankar Ray and on testimony made before and depositions submitted to the Shah Commission and published in the *Shah Commission Report*. The Ministry of Information and Broadcasting published the Shah Commission 'Interim Report' on 1 March 1978, a second 'Interim Report' on 26 April 1978 and a 'Third and Final Report' on 6 August 1978. When Indira Gandhi returned to power in 1980 she invalidated the report and had it withdrawn from circulation. The only existing copies of the three volumes that I am aware of are at the School of Oriental and African Studies, University of London.

(8) Author's interview with P. N. Dhar. Later that day Swaran Singh told a friend that Indira's 'crude resort to police powers' would not work. When this remark got back to her, Indira dropped Swaran Singh from the Cabinet and replaced him with Bansi Lal.

(9) This account of the 26 June 1976 cabinet meeting is based on the *Shah Commission Report* and the author's interviews with Karan Singh and P. N. Dhar.

(10) Kapur, Jagga, op. cit., p. 67.

(11) Tully, Mark, *From Raj to Rajiv*, p. 119.

(12) Gandhi, Indira, *Selected Speeches*, 3, pp. 177-9.

(13) Dhar, P. N., op. cit., p. 304. Author's interview with P. N. Dhar.

(14) Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 161.



- (15) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, pp. 557–9. Author's interview with B. K. Nehru.
- (16) Author's interview with John Grigg.
- (17) Young, Hugo, *One of Us*, p. 120.
- (18) Author's interview with Michael Foot.
- (19) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, pp. 148–50.
- (20) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 286.
- (21) Ibid., p. 287.
- (22) Frankel, Francine R., *India's Political Economy*, p. 570.
- (23) Ibid.

### الفصل السابع عشر: الابن الصاعد

- (1) Frankel, Francine R., *India's Political Economy*, pp. 550–6. For a discussion of the modest gains and fundamental failure of the twenty-point programme, see chapter 13.
- (2) Author's interview with P. N. Haksar. *Shah Commission Report*, I, pp. 72–3.
- (3) Mehta, Vinod, *The Sanjay Story*, pp. 66–7. Author's interview with Siddhartha Shankar Ray. Rajiv Gandhi later claimed that his wife had never drawn her salary or visited the Maruti office or factory, (Merchant, Minhaz, *Rajiv Gandhi: The End of a Dream*, p. 73).
- (4) Mehta, Vinod, op. cit., p. 67.
- (5) Vasudev, Uma, *Two Faces of Indira Gandhi*, pp. 206–7.
- (6) Dhar, P. N., *Indira Gandhi, The Emergency and Indian Democracy*, p. 326–8. P. N. Dhar reproduces a photograph of Indira's 'frantic', three-page hand-written note in his book.
- (7) Author's interview with Uma Vasudev.
- (8) Vasudev, Uma, op. cit., p. 110.

(9) Author's interview with P. N. Dhar.

(10) Dhar, P. N., op. cit., p. 328.

(11) Ibid., p. 311.

(12) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 177.

(13) Mehta, Vinod, op. cit., p. 85.

(14) In some cases it is almost impossible to disentangle fact from fiction in Sanjay Gandhi's short political career. Government records and proceedings have disappeared. And many of the people who were involved in Sanjay's activities have developed selective amnesia regarding them.

(15) Author's interview with James Manor who cites Romesh Thapar.

(16) Author's interview with B. K. Nehru.

(17) Vasudev, Uma, op. cit., p. 115.

(18) Dhar, P. N., op. cit., p. 305.

(19) Mehta, Ved, *The New India*, p. 98.

(20) For a full account of this libel case see Frank, Katherine, 'Mr Rushdie and Mrs Gandhi', *Biography*, 19, no 3 (Summer 1996).

(21) Author's interview with Uma Vasudev.

(22) Author's interview with P. N. Dhar.

(23) Author's interview with Fori Nehru.

(24) Author's interview with Jagmohan. Jagmohan continues to believe that 'Sanjay's instincts were always right,' that 'there were many false accusations against him,' and that Sanjay was morally committed to 'essential environmental work and family planning.'

(25) Jagmohan, *Island of Truth*, p. 127, p. 111.

(26) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 306.

(27) Moraes, Dom, *A Matter of People*, p. 162.

(28) Author's interview with Karan Singh.

(29) Author's interview with B. K. Nehru.

(30) Rohinton Mistry's novel, *A Fine Balance*, vividly portrays daily life during the Emergency.

(31) Author's interview with Fori Nehru.

(32) Dhar, P. N., op. cit., p. 341.

(33) Singh, Khushwant, *Indira Gandhi Returns*, pp. 78-86.

(34) Nayar, Kuldeep, *The Judgement*, p. 64.

(35) Ibid. Dhar, P. N., op. cit., p. 344.

(36) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 313. Gandhi, Indira, *My Truth*, p. 166.

(37) Author's interview with J. V. Kapur.

(38) Moraes, Dom, *Mrs Gandhi*, p. 264-5.

(39) Typescript of Vijaya Lakshmi Pandit's statement from Uma Vasudev. Extracts from it are included in Vijaya Lakshmi Pandit's autobiography, *The Scope of Happiness*, pp. 4-15.

(40) Author's interview with Nayantara Sahgal.

(41) Wolpert, Stanley, *Zulfi Bhutto of Pakistan: His Life and Times*, p. 283.

(42) Mehta, Vinod, op. cit., pp. 108-9.

(43) Ibid., p. 111.

(44) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 321.

## الفصل الثامن عشر: ضغط

(1) Interviews with Usha Bhagat and R. K. Dhawan.

(2) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 579. Author's interview with B. K. Nehru.

(3) Dhar, P. N., *Indira Gandhi, The Emergency and Indian Democracy*, p. 359.

(4) Various people, including Nayantara Sahgal and Uma Vasudev, claim that vans or cars loaded with money left 1 Safdarjung Road under cover of darkness when it became clear that Indira had lost the 1977

election. There is no evidence that money was clandestinely smuggled out of the household and it seems unlikely that Sanjay would have kept very much of the money he had amassed during the Emergency in his mother's house. Sanjay had friends both in India and abroad who could safeguard money for him.

(5) Author's interviews with B. K. Nehru and Swraj Paul.

(6) Ali, Aruna Asif, *Private Face of a Public Person*, p. 281.

(7) Sonia Gandhi, *Rajiv*, p. 76.

(8) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, pp. 329–30.

(9) *Times of India*, 24 May 1977.

(10) *Shah Commission Report*, I, p. 1.

(11) Author's interview with Khushwant Singh.

(12) Moraes, Dom, *Mrs Gandhi*, p. 277.

(13) *Shah Commission Report*, I, p. 1.

(14) *Ibid.*, III, p. 246.

(15) *Ibid.*, p. 247.

(16) The unfounded rumour that Chand was killed reflects how any adverse event at this time was apt to be attributed to Sanjay Gandhi.

(17) Moraes, Dom, *op. cit.*, p. 283.

(18) Jayakar, Pupul, *op. cit.*, p. 344.

(19) Ali, Tariq, *The Nehrus and the Gandhis*, p. 202.

(20) Gangadharan, K., *The Inquisition*, pp. 242–56.

(21) Moraes, *op. cit.*, p. 296.

(22) Chatwin, Bruce, 'On the Road with Mrs G', in *What Am I Doing Here?*, p. 330.

(23) *Ibid.*, p. 326.

(24) *Ibid.*, p. 329.

(25) *Shah Commission Report*, III, p. 262.

(26) *Ibid.*, p. 241.

(27) To my knowledge, the only extant copy of the full *Shah Commission Report* is at the School of Oriental and African Studies, University of London. Jagga Kapur's *What Price Perjury* and K. Gangadharan's *The Inquisition*, both contain lengthy extracts from the report as well as eyewitness accounts of the Shah Commission hearings.

(28) *Shah Commission Report*, III, p. 234.

(29) *Sunday*, 23–29 June 1985, p. 22.

(30) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 208.

(31) Ibid. p. 198. Author's interview with Uma Vasudev.

(32) *Times of India*, 6 June 1978.

(33) Carras, Mary, *Indira Gandhi in the Crucible of Leadership*, pp. 231–54.

(34) Ibid., pp. xiv–xv.

(35) Abbas, K. A., *Indira Gandhi: The Last Post*, p. 56.

(36) Swraj Paul has kept Indira's signed travellers' cheques as a memento. Author's interview with Swraj Paul.

(37) Ibid.

(38) Ibid.

(39) Author's interview with Michael Foot.

(40) Author's interviews with Swraj Paul and Fori Nehru.

(41) Kidwai, Anser, *Indira Gandhi: Charisma and Crisis*, p. 33.

(42) Author's interview with Karan Singh.

(43) Mehta, Ved, *A Family Affair*, p. 343.

(44) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 376.

(45) Author's interview with B. K. Nehru.

(46) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 380.

(47) Ali, Tariq, *Can Pakistan Survive?* Chapter 5.

(48) Ibid., p. 136.

(49) Ali, Tariq, *The Nehrus and the Gandhis*, p. 203.

## الفصل التاسع عشر: شقاق

(1) The phrase is taken from Sunil Khilnani's 1997 book *The Idea of India* in which he describes Nehru's *Discovery of India* as 'an epic of India's past in which it appeared neither as a meaningless dust-storm nor as a glorified Hindu pageant, but as moved by a logic of accommodation and acceptance', (p. 169).

(2) Manor, James, *Nehru to the Nineties*, p. 8.

(3) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 215.

(4) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 403.

(5) Ibid., pp. 405-6.

(6) *Shah Commission Report*, II, pp. 30-1.

(7) Author's interview with Rustom Gandhi.

(8) Author's interviews with V. P. Singh and R. K. Dhawan.

(9) Author's interview with V. P. Singh.

(10) Most of these names were later changed back or changed again. However the animal homes bearing Sanjay Gandhi's name still exist today; they were established by Sanjay's widow Maneka Gandhi, an animal lover.

(11) Author's interview with B. K. Nehru.

(12) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 418. Author's interview with James Manor.

(13) Author's interview with R. K. Dhawan.

(14) Sonia Gandhi, *Rajiv*, p. 6.

(15) Author's interview with Francine Frankel.

(16) Thapar, Raj, *All These Years*, p. 461.

(17) Author's interview with B. K. Nehru.

(18) Malhotra, Inder, op. cit., p. 228.

(19) Sonia Gandhi, op. cit., pp. 6-7.

(20) Author's interview with Trevor Fishlock.

- (21) Malhotra, Inder, op. cit., p. 238.
- (22) Singh, Khushwant, 'Of Love and Loathing', *India Today*, 31 October 1995, p. 127.
- (23) Ibid., p. 128.
- (24) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 435.
- (25) Mehta, Ved, *Rajiv Gandhi and Rama's Kingdom*, p. 10.
- (26) Ibid., p. 11.
- (27) Ibid., p. 2. Singh, Khushwant, op. cit., pp. 129-31.
- (28) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 436.
- (29) Malhotra, Inder, op. cit., p. 241.
- (30) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 169.
- (31) Malhotra, Inder, op. cit., pp. 264-5.
- (32) Norman, Dorothy (ed.), op. cit., pp. 162-4. In the manuscript letter at the Beinecke Library at Yale, Indira actually attributes the 'things fall apart' quotation to T. S. Eliot. Dorothy Norman silently corrected this when she published Indira's letters. It is one of the few alterations Norman made, though she did cut personal material such as Indira's accounts of her premenstrual tension and her experience of menopause.
- (33) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 440.
- (34) Author's interview with Arun Nehru.
- (35) Author's interview with B. K. Nehru.
- (36) Mehta, Ved, *Rajiv Gandhi and Rama's Kingdom*, p. 43.
- (37) Ibid., p. 27.

### الفصل العشرون: مذبحه أمريتسار من جديد

- (1) Norman, Dorothy (ed.), *Letters to an American Friend*, p. 168. In an interview in the London *Daily Express*, Indira said that Gandhi 'was a good film for the West and for those in India who did not know' or remember

the man, but she criticized the film's historical inaccuracy and said that it failed to capture the real Gandhi, *Selected Speeches and Writings of Indira Gandhi*, 5, p. 462.

(2) Ali, Tariq, *The Nehrus and the Gandhis*, p. 231.

(3) Pandian, M. S. S., 'Culture and Subaltern Consciousness: An Aspect of the MGR Phenomenon', in Chatterjee, Partha (ed.), *State and Politics in India*, p. 369.

(4) N. T. Ramarao was a colourful figure. It was generally known that he dressed up in a sari in the privacy of his home because his astrologers had told him that this would hasten his bid to replace Indira. Indira herself was aware of NTR's 'cross-dressing' and mentioned it in an interview with Tariq Ali, insisting that Ali should interview NTR in order to 'get a real flavour of the opposition', *The Nehrus and the Gandhis*, p. 231-2.

(5) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 279.

(6) Ali, Tariq, op. cit., p. 226.

(7) Malhotra, Inder, op. cit., p. 280.

(8) Ibid., pp. 280-1.

(9) Singh, Tavleen, *Kashmir: A Tragedy of Errors*, p. 25.

(10) Thapar, Raj, *All These Years*, p. 470.

(11) Singh, Tavleen, op. cit., p. 28.

(12) Ibid., p. 29.

(13) Ibid., p. 35.

(14) Thapar, Raj, *All These Years*, op. cit., p. 471.

(15) Ibid. Singh, Tavleen, op. cit., pp. 35-6. Both Raj Thapar and Tavleen Singh were in the audience at the Iqbal Park rally. Thapar claimed the flashing incident was a lie; Singh reported that it did occur but 'none of us saw it happen'.

(16) Author's interview with B. K. Nehru.



(17) According to B. K. Nehru, who at the time of the 1983 Kashmir state assembly elections was the state's governor, 'there was definitely a certain, but not great, amount of rigging ... There was, of course, a hue and cry about the rigging. I accepted the fact that there was rigging. I did not accept the contention that but for the rigging the result would have been different. I told [Congress] not to appear angelic about rigging: did they not rig elections themselves in the states where they were in power?' *Nice Guys Finish Second*, p. 611.

(18) Singh, Tavleen, op. cit., p. 37.

(19) The founder and leader of the movement is a highly charismatic figure named Velupillai Prabhakaran who runs his revolutionary guerrilla army like a religious cult. Tiger recruits, both male and female, are young, passionate and committed. Their average age is eighteen, but there are guerrillas as young as thirteen. They are fanatically devoted to Prabhakaran and his messianic goal of Tamil liberation. At the end of their rigorous training, when they become full combatants, Tiger guerrillas wear capsules of cyanide suspended from string round their necks. The cyanide is used to commit suicide rather than be taken alive by the enemy. Female tigers resort to their cyanide capsules not only when faced with capture but also when their honour is threatened. For the Tamil Tigers subscribe to a rigid code that proscribes sex, alcohol, drugs and tobacco. All Tigers aspire to martyrdom, and they vie with each other to join the elite Black Tiger squads who carry out suicide bomber missions.

(20) This reasoned speculation was suggested to me by Robert Bradnock.

(21) Wilson, A. Jeyaratnam, *The Break-Up of Sri Lanka*, p. 203.

(22) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 464.

(23) Merchant, Minhaz, *Rajiv Gandhi: The End of a Dream*, p. 97.

(24) Ibid.

(25) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 459.

(26) Author's interview with B. K. Nehru.

(27) Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, pp. 611-12.

(28) Ibid., p. 622.

(29) Ibid., p. 625.

(30) Ibid.

(31) Ibid., pp. 622-3.

(32) Ibid., p. 614.

(33) Ibid., p. 638.

(34) Author's interview with Arun Nehru.

(35) Ibid.

(36) In his autobiography Zail Singh says: 'Towards the end of May 1984, Mrs Indira Gandhi mentioned nonchalantly that some people suggested to her to send the police into the Golden Temple complex to flush out the militants ... she said she could not see any alternative.' Singh maintains that he told her such action would not be 'proper' and 'tried to persuade her not to take any provocative step ... but [she] did not disclose how her mind was actually working', Singh, Zail, *Memoirs of Giani Zail Singh*, p. 177.

(37) Author's interview with Subhadra Joshi.

(38) The following account of the events leading up to and during Operation Blue Star draws heavily on Tully, Mark and Satish, Jacob's *Amritsar: Mrs Gandhi's Last Battle* and Nayar, Kuldeep and Singh, Khushwant's *Tragedy of Punjab*.

(39) Tully, Mark and Satish, Jacob, op. cit., p. 143.

(40) Ibid., p. 154.

(41) Singh, Zail, op. cit., p. 178.

(42) Nayar, Kuldeep and Singh, Khushwant, op. cit., p. 92.

(43) Ibid.

(44) Ibid.

(45) Jayakar, Pupul, op. cit., p. 467.

(46) Singh, Zail, op. cit., p. 181.

(47) Tully, Mark and Satish, Jacob, op. cit., p. 167.

(48) The number of bullet holes in the Harmandiv Sahib is a matter of some dispute. Officially, the Indian army claimed it was not damaged at all.

(49) Singh, Zail, op. cit., p. 181.

(50) Ibid.

### الفصل الحادي والعشرون: ٣١ أكتوبر عام ١٩٨٤

(1) Sonia Gandhi, *Rajiv*, p. 8.

(2) Author's interview with B. K. Nehru. Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 294.

(3) Ibid., p. 303.

(4) Ibid., pp. 18-19.

(5) Sarin, Ritu, *The Assassination of Indira Gandhi*, p. 19. Sarin's is a detailed account of the Sikh plotters who conspired to kill Indira Gandhi in revenge for Operation Blue Star.

(6) Jagmohan, *My Frozen Turbulence in Kashmir*, p. 261.

(7) Author's interview with B. K. Nehru. Nehru, B. K., *Nice Guys Finish Second*, p. 627.

(8) Jagmohan, op. cit., p. 486.

(9) Author's interview with Arun Nehru.

(10) Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 300.

(11) The new Chief Minister of Andhra Pradesh did not survive a vote of confidence in the state assembly and N. T. Ramarao was reinstated in September 1984.

- (12) Gandhi, Indira, *Remembered Moments*, p. 79.
- (13) Young, Hugo, *One of Us*, pp. 372-3.
- (14) Author's interview with Jagmohan.
- (15) Jayakar, Pupul, *Indira Gandhi*, p. 481. Author's interview with Pupul Jayakar.
- (16) Ibid., pp. 482-3.
- (17) Gandhi, Indira, *Selected Speeches*, 5, p. 495.
- (18) Alexander, P. C., *My Years With Indira Gandhi*, pp. 147-8.
- (19) Sonia Gandhi, op. cit., p. 8.
- (20) Tully, Mark and Satish, Jacob, *Amritsar*, p. 2.
- (21) Author's interview with R. K. Dhawan. Sarin, Ritu, op. cit., pp. 1-4.
- (22) Gandhi, Sonia, op. cit., p. 9.
- (23) One of Indira's assassins, Beant Singh, died several hours before his victim was pronounced dead on the operating table at the All-India Institute of Medical Sciences. After overpowering both Beant and Satwant Singh, the commandos of the Indo-Tibetan Border Police hustled them into the nearby guardroom and proceeded to assault both men. Instead of manacling the assassins, the commandos abused and beat them, and then, in a rage, pulled out their guns and opened fire. In this frenzied attempt to mete out justice, Beant Singh was shot dead and Satwant Singh critically wounded. Though no one present wished him alive, Satwant Singh was nevertheless rushed by ambulance to Ram Manohar Lohia Hospital where he eventually recovered. More than four years later, on 6 January 1989, after a protracted trial, numerous appeals, and an unsuccessful plea to the Indian President for clemency, Satwant Singh and a co-conspirator, Kehar Singh, were hanged at Tihar Jail in Delhi.

## الفصل الثاني والعشرون: ما بعد إنديرا

- (1) Merchant, Minhaz, *Rajiv Gandhi: The End of a Dream*, p. 135.

(2) Singh, Zail, *Memoirs of Giani Zail Singh*, p. 204.

(3) Gandhi, Sonia, *Rajiv*, p. 9.

(4) On 5 November 1984, the Congress parliamentary party, with a record attendance of 497 MPs, 'ratified' the decision the two-man Congress Parliamentary Board made on 31 October.

(5) Rajiv had five predecessors: Jawaharlal Nehru, Lal Bahadur Shastri, Indira Gandhi, Morarji Desai and Charan Singh. Indira, of course, 'came back' in 1980, so technically Rajiv could be said to have been the seventh Prime Minister of India.

(6) Merchant, Minhaz, op. cit., pp. 148-9.

(7) Author's interviews with B. K. and Fori Nehru.

(8) Sarin, Ritu, *The Assassination of Indira Gandhi*, p. 41.

(9) Tully, Mark and Satish, Jacob, *Amritsar*, p. 9.

(10) Eliot, T. S., 'East Coker' from *Four Quartets*, Malhotra, Inder, *Indira Gandhi*, p. 24.



## مصادر الصور

Jawaharlal and Kamala Nehru on their wedding day, 8 February 1916.

*(Hulton Getty)*

Studio portrait of Indira Nehru, aged one, with her parents. *(Images of India)*

Indira (aged six) with Mahatma Gandhi in 1924. Gandhi is wan and frail from fasting, but cheerful. *(Images of India)*

The Nehru family, circa 1929. *(Images of India)*

Jawaharlal, Indira (aged thirteen) and Kamala Nehru in white khadi Congress dress in front of Anand Bhawan, 1931. *(Nehru Library)*

Swaraj Bhawan, Motilal Nehru's palatial forty-two room home where Indira Nehru was born on 19 November 1917.

Anand Bhawan, the second, smaller but still luxurious Nehru residence where Motilal Nehru moved his family in 1930.

Indira and other students surround Rabindranath Tagore at Santiniketan. *(Santiniketan archives)*

Indira with her hair bobbed, shortly after arriving in Switzerland with her ailing mother, 1935. *(Images of India)*

Nehru and Indira, very thin and with dark circles under her eyes, en route to England—where she would enrol at Somerville College—September 1937. *(Hulton Getty)*

Indira with her fellow freshers at Somerville College, Oxford. (*Somerville College*)

Photograph of Indira taken by Feroze Gandhi during their courtship. (*Indira Gandhi Memorial Trust*)

Feroze and Indira on shipboard on their way back to India from England in early 1941. (*Indira Gandhi Memorial Trust*)

The wedding of Indira Nehru and Feroze Gandhi. (*Indira Gandhi Memorial Trust*)

Indira, the radiant bride at her wedding. (Still from Norvin Hein's 1942 film of the Nehru–Gandhi wedding)

Indira with Sanjay, aged one, in 1948. (*Mahatma Gandhi Research and Media Service*)

Indira and Nehru shortly after Independence. (*Popperfoto*)

Indira and Nehru during their trek through Bhutan, September 1958. (*Topbam Picturepoint*)

Indira making her acceptance speech as President of Congress, 13 February 1959. (*Popperfoto*)

Indira, Nehru and President and Jacqueline Kennedy in Washington DC, November 1961. (*Hulton Getty*)

Indira beside Nehru's body as it lies in state, May 1964. (*Popperfoto*)

'Troubled India in a Woman's Hands.' *Time* magazine cover after Indira was elected Prime Minister in January 1966. (*Time* magazine)

Indira meets President Lyndon Johnson on her first prime ministerial visit to the United States during India's 1966 food crisis. (*Corbis*)

Indira with a bandaged nose—looking in her own words, 'like Batman'—after a rock was thrown at her in Orissa during the 1967 election campaign. (*Images of India*)

Indira with her sons, Rajiv and Sanjay, at their home, 1 Safdarjung Road, in 1967. (*Hulton Getty*)



P. N. Haksar, Indira's Principal Secretary and most important adviser. (*P. N. Haksar*)

Indira at talks with Premier Kosygin and Leonid Brezhnev in Moscow, September 1971. (*Novosti*)

Indira and the Pakistani leader Znfikar Ali Bhutto during the Simla summit conference following the Indo-Pak war of December 1981. (*Hulton Getty*)

Indira with Siddhartha Shankar Ray and Sheikh Mujibur Rahman at Delhi, airport (*Siddhartha Shankar Ray*)

Formal fomily portrait of Indira and her family in 1974. (*Indira Gandhi Memorial Trust*)

Indira with Sanjay, an elected MP, in Rae Bareilly after she was returned to power as Prime Minister, 1980. (*Ragbu Rai/Magnum*)

Indira, her one-year-old grandson Varan, and Maneka Gandhi on the first anniversary remembrance ceremony of Sanjay Gandhi's death, 1981. (*Ragbu Rai/Magnum*)

Margaret Thatcher and Indira in front of 10 Downing Street, 22 March 1982. (*Hulton Getty*)

Indira surrounded by Sikhs during a campaign tour in the 1980s. (*Ragbu Rai/Magnum*)

Indira photographed with her Sikh bodyguard Beant Singh in London in 1980. Four years later, Singh would be one of her two assassins. (*Observer*)

Indira in Kashmir shortly before her death, (*Ragbu Rai/Magnum*)

The funeral pyre of Indira Gandhi with her family, Rahul, Rajiv, Priyanka and Sonia Gandhi looking on, 3 November 1984. (*Popperfoto*)

